الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة-1

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم

الجزء الأول

إعداد الطالب: الربيع عولمي

إشراف الأستاذ الدكتور: الطاهر ذراع

أعضاء لجنة المناقشة

	الأستاذ	الرتبة	الصفة	الجامعة
01	أ. د. رشيد باقة	أستاذ	رئيسا	جامعة باتنة-1
02	أ. د. الطاهر ذراع	أستاذ	مشرفا مقررا	جامعة أدرار
03	أ. د. بلقاسم رحماني	أستاذ	عضوا	جامعة الجزائر -2
04	أ. د. بلقاسم بوقرة	أستاذ	عضوا	جامعة باتنة-1
05	أ. د. مسعود شباحي	أستاذ محاضر- أ	عضوا	جامعة باتنة-1
06	أ. د. يوسف عيبش	أستاذ	عضوا	جامعة سطيف

السنة الجامعية: 1436-1437 هــ /2015-2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

سورة آل عمران: الآية 64

شكر وعرفان

أشكر الله عز وجل على ما وفقني وهداني إليه، لإتمام هذه الرسالة. وأتقدم بخالص الشكر والتقدير معترفا بالجميل إلى الأستاذ الفاضل الأستاذ الدكتور/ ذراع الطاهر، الذي كان لعطائه واهتمامه الدائم وعظيم متابعته، وما أفادني به من توجيهات أكبر الأثر في الأخذ بيدي لإنهاء هذا البحث.

كما أتقدم بجزيل الشكر وخالص التحية والاحترام إلى أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذا العمل.

وخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من قدم لي يد المساعدة لإنجاز هذا البحث.

Abréviations : قائمة المختصرات

1–المختصرات باللغة العربية:

تع. = تعليق

تح. = تحقيق

تر. = ترجمة

ج.= جزء

د. ت.= دون تاريخ

ط.= طبعة

ق.م.= قبل الميلاد

مج. = مجلد

هـ. = هامش

2–المختصرات باللغة الأجنبية:

أ - الحوليات:

-A.E.S.C. = Annales, Economies, Sociétés, Civilisations.
-A.F.L.= Annales de la Faculté des lettres, Aix-en-Provence.
-Afri. Rom.= Africa Romana.
-A.H.E.S. =Annales d'Histoire Economique et Sociale.
-Afri. = Africa.
-A.C.=Ant. class.= Antiquité Classique, Paris, C.N.R.S.
-Ant. Afri. = Antiquités Africaine, Paris, C.N.R.S.
-Ant.Tard. = Antiquités tardives.
-Anthr. =(Anthropologie).
-A.S.S.R.=Archives des Sciences Sociales des religions.
-B.A.= bibliothèque Augustinienne.
-B.A.A. = Bulletin d'Archéologie Algérienne.
-B.A.H.= Bulletin de l'académie d'Hippone.
-B.C.A. =Bull. de Corr. Afric. = Bulletin de Correspondance Africaine,
-B.C.T.H. =. Bulletin archéologique, Comité des travaux historiques et scientifiques.
-B.E.= Bulletin épigraphiques.
-Boll. Numis. = Bollettino di Numismatica = (Bulletin de Numismatique).
-B.S.G.A.O. = Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie, Oran.
-Bull.de liais.Sahar.= Bulletin de liaison Saharienne.
-Bull. Soc. Préhist. Franc. = Bulletin de la Société Préhistorique Française.
-C.R.A.I.= Comptes Rendus de l'académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

-C.T. = cahiers de Tunisie.
-Enc. Berb. = Encyclopédie berbère.
-J.A. = Journal Asiatique.
-Jour. Soc. Afric. = Journal de la Société des Africanistes.
-J.S. = Journal des Savants.
-J.T.S. = Journal of Theological Studies.
-Libyca a/é = Libyca archéologie – épigraphie.
-Libyca a/p/e = Libyca archéologie -préhistoire – ethnographie.
-M.A.H. = Mélanges d'Archéologie et d'Histoire.
-M.E.F.R.A. =Mélanges de l'Ecole Française de Rome, Antiquité.
-M.E.F.R. = Mélanges de l'Ecole Française de Rome.
-M.H.A.E. = Mélanges d'histoire, d'archéologie, d'épigraphie et de patristique, Rome
-M.S.N.A.F. = Mélanges de la Société Nationale des Antiquaires de France.
-N^{lle} R.D.F. = Nouvelle Revue du Droit Français d'Oran.
-P.L.= Patrologie Latine.
-Rev. Arch. = Revue Archéologique.
-Rev.philol. = Revue philologique.
-R.A.C. = Revue Archéologique de Constantine.
-R.S.A.C.= Recueil des Notices et Mémoires, Société Archéologique de Constantine.
-Rev.Afri.= Revue Africaine.
-R.A.O.= Recueil d'Archéologie Orientale, Paris, 1888-1921.
-R.E.A.= Revue des Etudes Anciennes.
-R.E.Aug. = Revue des Etudes Augustiniennes.
-R.E.B.= Revue des études byzantines.
- R.E.L.= Revue des Etudes Latines.
- Reppal = Revue des Etudes Phéniciennes, Puniques, et des Antiquités Libyques.
-R.H.R.= Revue de l'Histoire des Religions.
-R.H.C.M.= Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb, Alger.
-R.H.P.R. =Revue d'Histoire et de philosophie religieuse.
-R.H.J.C. = Recherches d'histoire judéo-chrétienne.
-R. Hist.= Revue Historique.
-R.Q.H. = Revue des Questions Historiques.
-R.S.F. = Rivista di Studi Fenici = Revue des Etudes Phéniciennes.
-S.A.C. =Société Archéologique de Constantine.

ب-الكتب:

-A.A.A.= Atlas Archéologique de l'Algérie.
-A.A.T. = Atlas Archéologique de Tunisie.

-A.A.T. = Atlas Archéologique de Tunisie**.**
-Bell. Jugh. = Bellum Jughurtinum (guerre de Jugurtha).
-Bell. Vand. = Bellum Vandalorum (guerre des Vandales).
-Cod. Theod. = Code de Théodose.
-Dic. Univ. Hist. Géo.= Dictionnaire Universel d'Histoire et Géographie.
-Géog. Comp. =Géographie. Comparée.
-H.A.A.N.= Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.
-H.G.E.R.= Histoire Générale de l'empire Romain.
-Hist. Eccl. = Histoire Ecclésiastique.
-Hist. Rom.= Histoire Romaine.
-H.L.A.C. = Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne des origines à l'invasion arabe, 7 vol., Paris, 1901-1923.
-H.N.= Histoire Naturelle.
-I.L.Alg. = Inscriptions Latines de l'Algérie.

ج-المؤلفات اللاتينية:

- Ad. Donat. Post. Col. = Ad donatistas post collationem.
- Bapt. = De Baptismo.
- Brevic. Collat.= Breviculus Collationis cum donatistis.
- C.S.E.L. = Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum
- C.I.L. = Corpus Inscriptionum Latinarum
- Cont. Cresc. = Contra Cresconium.
- Cont. Epistul. Parmen.= Contra Epistulam Parmeniani.
- Cont. Litter. Petil.= Contra Litteras Pétiliani.
- Cont. Gaud. = Contra Gaudentium Donatistarum.
- Enarr. In Psalm. = Enarrationes In Psalmus.
- Epist. = Epistolae.
- Psal. Cont. Part. Don. = Psalmus Contra Partem Donati.

المقدمة

<u>التعريف بموضوع البحث:</u> عرفت الساحة الإفريقية مؤشرات جديدة بظهور العقيدة المسيحية وانتشارها في ربوع المغرب القديم، خاصة في أوساط الطبقة الكادحة والمستضعفة. فقد احتضنت الكنيسة الإفريقية منذ ظهورها عموم الشعب، ونجهل ما إذا كانت تلك الكنيسة بنتا لكنيسة روما، أم أنها تأسست على يد الحواريين. وحسب ابن خلدون فإن التبشير في بلاد البربر وقرطاجة كان على يد "فيليب" *Philipe* و"شمعون الصفا" (القناني) *Simon de Cana*.

لقد صاحب ظهور المسيحية في القرون الأولى للميلاد حركة اضطهاد واسعة لأتباعها، وأشد الاضطهادات وأكثرها تنكيلا بالمسيحيين تلك التي حدثت في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (303–305م). ولعل أهم ما ميز تاريخ الكنيسة الإفريقية في القرن الرابع ظهور الانشقاقات داخلها، من أبرزها ظهور الانشقاق الدوناتي الذي واجه الكنيسة الرسمية (الكاثوليكية). وقد ظل هذا الخلاف قائما إلى أن اعتنق الإمبراطور "قسطنطين" (*Constantin*) المسيحية وأصدر مرسوم "ميلانو" سنة 313م وضع حدا للاضطهاد.

كما شهد المغرب القديم أوضاعا اقتصادية واجتماعية متردية في مطلع القرن الرابع الميلادي، دفعت الطبقة الكادحة لأن تنتظم في حركة اجتماعية عرفت بثورة الدوارين (الريفيين) إلى جانب حركة دينية (الدوناتية)، وشكلت الحركة الأولى سندا قويا وحليفا طبيعيا للحركة الثانية، واعتبرتها المصادر المسيحية جناحا مسلحا للدوناتية.

من هذا المنطلق كان اختياري لموضوع البحث الموسوم بـ: "المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع الخامس للميلاد". أما سبب اختياري للفترة الزمنية المشار إليها آنفا، فيعود ذلك إلى أن تلك الفترة كانت حافلة بالأحداث التي لها علاقة وطيدة بالمسيحية، إن على صعيد الصراع المسيحي–المسيحي (الدوناتي–الكاثوليكي)، أو على صعيد ردود الفعل والثورات التي اندلعت هنا وهناك في ربوع المغرب القديم ضد

الوجود الروماني، كثورة "فيرموس" وحرب "جيلدون" وثورة الدوارين الريفيين في أواخر القرن الرابع الميلادي، وثورة "هيراكليانوس" في بداية القرن الخامس الميلادي.

أهداف البحث: يسعى هذا البحث الى تحقيق غاية أسمى وهي: الاهتمام بتاريخ المغرب القديم الديني وعلاقته بالوجود الروماني. وأهداف أخرى أوجزها فيما يأتي:

1-يحاول هذا البحث قدر المستطاع لأن يكون حلقة من حلقات العمل العلمي حول المسيحية في المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

2-محاولة الجمع بين الرؤية المنهجية والتحليل، وبين استنطاق المصادر المادية من مخلفات أثرية وأنثروبولوجية.

3-التوغل في التاريخ الديني واعتباره سندا أساسيا لتتبع ظاهرة التنصير في المغرب القديم على الرغم مما يتطلبه هذا التوغل من جهد وبحث دقيق في المصادر المادية والكتابية.

دوافع اختيار الموضوع: تأتي أهمية هذه الدراسة من حيث أنها حاولت أن تدرس الموضوع دراسة مستفيضة، وتحدد جذور التنصير في المغرب وأصوله، والعوامل التي أدت إلى الانشقاق في الكنيسة الإفريقية، وعلاقة المسيحية والصراع الدوناتي- الكاثوليكي بثورات القرن الرابع الميلادي. وانطلاقا من هذه الأهمية فقد دفعتني عدة أسباب إلى اختيار هذا الموضوع منها:

1. ضرورة الوقوف على أسباب الصراع الدوناتي الكاثوليكي وتداعياته، وعلاقة هذا الصراع بثورات القرنين الرابع والخامس للميلاد في المغرب القديم.

2. رغم أهمية الموضوع إلا أنه لم ينل حظا وافرا من البحث والدراسة، ولم يثر اهتمام الباحثين والمؤرخين إلا نتفا يسيرة هنا وهناك، وهذا ما دفعني لدراسة الموضوع.

3. قلة الدراسات المتعلقة بتاريخ المغرب القديم الديني باللغة العربية، فمعظم الدراسات كتبت بلغات أجنبية وتناولت الجوانب السياسية والعسكرية، وقد تبين لي أن هذه الجوانب

لا يمكن استجلاؤها إلا بدراسة جوانبها الاقتصادية والدينية، وذلك بتوسيع النظرة إلى الأحداث والحقائق في تلك الفترة.

4.ضرورة لفت اهتمام الباحثين إلى مثل هذه المجالات التي تتناول جانبا حيويا من تاريخنا، وقلة الاهتمام بها ضياع لتاريخ الأمة وضياع لحاضرها ومستقبلها.

5. محاولة إعادة قراءة المصادر والمراجع المسيحية [1] الأدبية والمادية بعيدا عن شوفينية المدرسة الكولونيالية وما تحمله من أطروحات ومغالطات تاريخية.

<u>إشكالية البحث</u>: لا شك أن الوصول إلى أهداف الدراسة ونتائجها تستلزم وضع تساؤلات وفرضيات، التي حاولت الإجابة عنها وفقا للمنهج العلمي المتبع في الدراسات الأكاديمية انطلاقا من الإشكالية الرئيسية التي تتمحور حول دور المسيحية في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين في بلاد المغرب القديم، ومن أهم هذه التساؤلات التي قد تجيب عنها هذه الدراسة:

1.ما العوامل التي ساعدت على ظهور المسيحية وانتشارها؟ وما منافذ انتقالها إلى المغرب القديم؟

2.كيف تعاملت السلطة الرومانية مع حركة التنصير في المغرب القديم؟ ما دور الكنيسة المسيحية وما حبلت به من مذاهب ومواقف في التغيرات التي عرفها المغرب القديم الاجتماعية والاقتصادية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين؟

3.من هم الدوارون؟ وما طبيعة حركتهم؟ وما علاقتهم بالدوناتية؟

---

[1] - *من أبرز هذه المراجع:*

-Monceaux, H.L A.C. ,7 tomes, Ernest Leroux, Paris, 1901-1923 ; Mesnage, (J.P.), l'Afrique chrétienne, évêchés et ruines antiques, d'après les manuscrits de Mgr.Toulote et les découvertes Archéologiques les plus récentes, Paris, Ernest Leroux, 1912 ; le christianisme en Afrique (origines, développements, extensions), <u>Rev.Afri</u> ., n° 57, 1913 ; Cagnat (R.) l'Armée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, imprimerie Nationale E. Leroux, Paris, 1913.

4.هل يمكن اعتبار أحداث بغاي سنة 347م مؤشرا حقيقيا للتحالف بين حركتي الدوارين والدوناتية؟ أم أن تمرد الدوارين اتخذ طابع الدفاع فقط عن الدوناتية من قبيل مواجهة تدخل السلطة الزمنية في شؤون إفريقيا الدينية؟

5.ما مدى صحة فرضية تضامن (تحالف) المصالح بين الكنيسة الرسمية وكبار الملاك لاحتكار مقدرات المغرب القديم وخيراته الطبيعية وإمكاناته المادية؟

6.إلى أي مدى أثرت تركيبة كبار الملاك على البنية الاجتماعية ببلاد المغرب وعلى البنية الاقتصادية بظهور الضياع الإقطاعية واستمرار ظاهرة الاستغلال والرق؟

7.من هم المور؟ وما طبيعة الإمارات المورية؟ وما مدى امتدادها الجغرافي؟

8.هل كانت الإمارات المورية مجرد قبائل متنقلة متمردة على السلطة الرومانية؟ أو كانت إمارات وممالك ذات كيانات سياسية مستقلة؟ أم أن حركيتها ظلت خارج دائرة التاريخ؟ وما دورها في ثورات القرنين الرابع والخامس الميلاديين؟

<u>نقد المصادر والمراجع</u>: رغم وفرة المصادر الأدبية والمادية التي تناولت موضوع المسيحية في المغرب القديم، إلا أن معظمها إن لم نقل كلها –للأسف–بلغات أجنبية. ومن أبرز تلك المصادر: "ترتوليانوس" *Tertullianus* و"سان سبريانوس" *St.Cyprianus* و"أوبطا الميلي" *Optat de Milev* والقديس "أوغسطين" *St. Augustin* سكتت عن زمن الحواريين. ولعل ذلك أكبر دليل على عدم امتداد التاريخ المسيحي لفترة الحواريين بالمغرب القديم، رغم أن الكنيسة الإفريقية لعبت دورا بارزا في انتشار وتطور المسيحية في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية وخاصة في الحوض الغربي للبحر المتوسط. وأنجبت رواد التنظير الديني واللاهوتي المسيحي أمثال "ترتوليانوس" و"أوغسطين" اللذان يعتبران من مؤسسي الأدب اللاتيني، ومن أكبر المنافحين "*Apologistes*"عن النصرانية. وللإجابة عن هذه الإشكاليات اعتمدت في دراستي على مجموعة من المصادر والمراجع منها:

أولا: المصادر:

I-المصادر الأجنبية: ظل المؤرخون الكلاسيكيون الإغريق والرومان يشكلون المادة التاريخية المتعلقة بالمغرب القديم كما بدا لهم، فاختصروا تاريخ شمال إفريقيا القديم في الصراع القرطاجي الروماني. وجاء المؤرخون المحدثون وبقدر ما عملوا على جمعه وتشكيله، عملوا على ترحيله إلى وجهة أخرى وتجريده من هويته، بعدما بذروا فيه ما بدا لهم من نظريات وحصدوا ما طاب لهم من استنتاجات. وقد حاولت قدر الإمكان تحرير تلك المادة التاريخية وتطويعها لإرجاعها إلى حقيقتها، ومن أبرز تلك المصادر:

1-"تاكيتوس" *Tacitus,* (54-134م) يعتبر أبرز مؤرخ في العصر الإمبراطوري، ينتمي إلى دوائر السناتوس، كتب في عصر الإمبراطور "تراجانوس"، اعتمد على مصادر ووثائق السناتوس المعروفة اصطلاحا باسم: *Acta Senatus*. على أن أهم كتبه في التاريخ: "الحوليات" *Annales* والتواريخ" *Historiae*. وقد استفدت منهما في دراسة اضطهادات الأباطرة "نيرون" و"تراجانوس" للمسيحيين.

2-"سويتونيوس" *Suétonius,* (69-150م)، يعد كتابه: *vies des douze césars* من المصادر الهامة التي تناولت السير الذاتية. عمل في القصر الإمبراطوري كاتبا للإمبراطور، وقد مكنته تلك الوظيفة من معالجة الكتابة التاريخية على طريقة "كتابة السير" *Biographies*. ومن أبرز أعماله: *Vitae Duodecem Caesarum*، يتناول سير الأباطرة من "يوليوس قيصر" *Divus Julius* حتى "دوميتيانوس" *Domitianus* سنة 96م، وأفادني المصدر في دراسة اضطهاد هذا الأخير للمسيحيين، وفي تراجم بعض الأباطرة.

3-"ديون كاسيوس" اليوناني *Dion Cassius,* (ولد سنة 155م) من مؤرخي القرن الثالث الميلادي، كتب "التاريخ الروماني" *Histoire Romaine* في 80 جزءا بدء من تأسيس روما إلى سنة 229م، وصلنا منها 19 جزءا فقط (الأجزاء من XXXVI إلى LIV).

استطاع أن يترقى في مناصب الإدارة الرومانية حتى وصل إلى منصب القنصل مرتين. ويكتسي تاريخه أهمية خاصة حيث استفدت من كتاباته المتعلقة بنظم الإمبراطورية السياسية والاقتصادية.

4-"ترتوليانوس" *Tertullianus,* (160-240م) المؤرخ المسيحي ومؤسس الأدب النصراني الذي يعد من أكبر المدافعين عن العقيدة المسيحية، فقد سرد لنا في كتابه: *Apologétique* "المنافحة" عمليات إعدام المسيحيين وكتب خطابا دفاعا عن النصارى في حوالي سنة 197م، فكان أول من كتب هذا النوع من الخطابات باللغة اللاتينية، وقد استفدت من كتابه نظرا لقيمته التاريخية بالنسبة لدراسة التاريخ الديني والاجتماعي في المغرب القديم والإمبراطورية الرومانية فضلا عن قيمته الأدبية. كان "ترتوليانوس" معلم بلاغة يندرج ضمن عدة كتاب أفارقة لعبوا دورا هاما في الدفاع عن النصرانية مثل: "فليكس" *Félix* الذي عاصره، و"أرنوبيوس" *Arnobius* والقديس "سبريانوس" *St. Cyprianus* والقديس "أوغسطين" *St. Augustin* لاحقا.

5-"هيروديان" *Hérodien,* وهو مؤرخ يوناني عاش في القرن الثالث الميلادي، ولد في الإسكندرية، عاصر وأرخ للإمبراطور كركلا (188-217م)، ويعد كتابه: *Histoire Romaine de Marc Aurèle à Gordien* في 8 أجزاء من وفاة "ماركوس أوريليوس" إلى مجيء "غورديانوس الثالث" (180- 238م) من المصادر التي اطلعتنا عن الاضطهادات التي طالت المسيحيين في بداية القرن الثالث الميلادي.

6-"لاكتانتيوس" *Lactantius,* (250-325م) المؤرخ المسيحي ذي الأصول الإفريقية، عاصر الإمبراطور "ديوكليتيانوس" *Dioclétianus* الذي اختاره لتدريس الآداب في سنة 290م في نيكوميديا. واستفدت من كتابه: *De Mortibus Persecutorum* ومن النسخة المترجمة إلى اللغة الفرنسية *de la mort des persécuteurs* "حول موت المضطَهِدين" الذي يعتبر من أهم مؤلفاته. عثر عليه في نهاية القرن 17م ونشر لأول مرة سنة

1679م. يتناول الأوضاع الاقتصادية التي عاشها المغرب القديم خلال القرن الرابع نتيجة تفاقم الضرائب المفروضة على السكان، وهي انعكاس للأوضاع السياسية والاقتصادية التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية. كما عالج الاضطهادات العنيفة التي تعرض لها المسيحيون في عهد "ديوكليتيانوس".

7-"أوزيبوس" *Eusébius,* (270-338م) الملقب بأبي التاريخ الكنسي، استفدت من كتابه: *Histoire Ecclésiastique* في الجوانب المتعلقة بتاريخ الكنيسة في أوائل القرن الرابع الميلادي، أما كتابه: *Histoire de la vie de Constantin* فقد أطلعنا على حياة الإمبراطور قسطنطين وظروف اعتناقه الديانة المسيحية في سنة 313م ومعالم سياسته الدينية تجاه الصراع الدوناتي الكاثوليكي.

8-"أميان مارسلان" *Ammien Marcellin,* (320-390م) المؤرخ اللاتيني من أبرز مؤرخي القرن الرابع، كان ضابطا في الجيش الروماني، يعد كتابه "التواريخ" "*Histoires*" من أهم المصادر التي أطلعتنا على ثورات القرنين الرابع والخامس الميلاديين في 13 جزءا لم يصلنا جلها، وما وصلنا يؤرخ للفترة فيما بين (351-378م)، يعتبر من المصادر القديمة التي سجلت أحداث ثورة "فيرموس" (372-375م). ونظرا لأنه عاصر تلك الأحداث فقد كانت معلوماته غزيرة رغم ضياع بعض الأجزاء. وما يؤخذ عنه انحيازه الواضح إلى السلطة الرومانية وتصوير "فيرموس" على أنه متمرد على تلك السلطة. كما أنه عاش في فترة التحول الكبرى من الوثنية إلى المسيحية وظل هو على وثنيته. يمتاز "أميان" بملكة تاريخية ومقدرة على النقد والتحليل. ويعتبر من بين أبرز من كتب التاريخ في العالم القديم، ويكفي دليلا على ذلك أنه حين كتب تاريخ الإمبراطور "جوليان" *Julien l'Apostat* المرتد عن المسيحية بمقاطعة الكنيسة الكاثوليكية ومنح الحرية الكاملة للدوناتية، ورغم إعجابه الشديد بشخصية هذا "الوثني" في عصر سادت فيه المسيحية، فقد تحرى الدقة والأمانة ووجه إليه النقد حين لزم النقد.

9-"أوبطا الميلي" *Optatus de Milev* (320-385م) أسقف مدينة ميلاف *Milev* "ميلة حاليا" الذي يعتبر أول مجادل كاثوليكي دافع بشدة عن الكنيسة الكاثوليكية ضد الكنيسة الدوناتية، تعد مؤلفاته من أهم مصادر القرن الرابع التي تناولت الصراع الدوناتي الكاثوليكي، ومن أبرزها "ضد الانشقاق الدوناتي" *De Schismate Donatistarum* الذي كتبه في حوالي سنة 366م ردا على كتاب الأسقف الدوناتي "بارمنيانوس" *Parmenianus* "ضد كنيسة المتخاذلين" *Adversus Ecclésiam Traditorum*. تناول فيه ظروف نشأة الدوناتية، عاداتها وطقوسها وخاصة إعادة تعميد المتخاذلين الذي شكل أساس الخلاف بين الكنيستين.

10-"القديس أوغسطين" (354-430م) ورسائله *St. Augustin, Epistolae* يعد المنظر الأول للكنسية الكاثوليكية، والتلميذ المكمل لـ"أوبطا الميلي" سواء ما تعلق بالتأريخ للدوناتية أو مواصلة الجدل مع الدوناتيين. فقد كان أسقف كنيسة هيبو- ريجيوس *Hippo* - *Régius* مدة 35 سنة، وطوال تلك المدة حارب الدوناتية، وحاول عقد مناظرات ومساجلات شفوية وكتابية مع الأساقفة الدوناتيين، لكنه في غالب الأحيان لم يتمكن من ذلك. فبدأ حملته ضد الدوناتية بكتابة "مزمور ضد حزب دوناتوس" *Psalmus Contra Partem Donati* في حوالي سنة 392م، ولأجل ذلك عقد مجمع هيبو- ريجيوس سنة 393م وربما يكون قد ألهم قراراته. وقد حاول مرارا إرجاع الدوناتيين إلى الكنيسة الكاثوليكية التي كان يعتبرها الكنسية الحقيقية. أما كتابه "اعترافات" *Confessions* فيعرفنا عن حياته وشخصيته، وما يهمنا هنا هو دور "أوغسطين" في مواجهة الدوناتية.

11-"كلوديوس" *Claudius,* (365-408م) الشاعر اللاتيني من مواليد الإسكندرية، يعتبر كتابه *De Bello Gildonico* المصدر الأساس عن حرب "جيلدون"، وما يؤخذ على "كلوديوس" انحيازه الواضح إلى الطرف الروماني.

12-"بول أوروزيوس" *Paul Orosius*, (385-418م) المؤرخ الأسباني، كان أحد تلاميذ "أوغسطين" سنة 414م. يعتبر كتابه: "روايات ضد الوثنيين" *Libri Historiae Adversus Paganos* من المصادر التي تحدثت عن الاضطهادات التي طالت المسيحيين خاصة في عهد "نيرون" الذي أمعن في تعذيبهم، بل ومنع اعتناق أية ديانة بموجب قانون أصدره في هذا الشأن.

13-"فيكتور دي فيتا" *Victor de Vita* (ولد سنة 440م) أسقف كنيسة فيتا الكاثوليكية في بيزاكينا (*Byzacène*) "المزاق حاليا". يعد كتابه: *Histoire de la persécution Vandale en Afrique* من أبرز مصادر القرن الخامس تناول فيه الأحداث التي عرفها المغرب القديم في بداية الاحتلال الوندالي. ويذكر فيه "الاضطهادات الوندالية" التي مارسها الوندال الأريوسيين ضد المسيحيين الكاثوليك والدوناتيين على حد سواء. وقد تعرض "دي فيتا" نفسه إلى ضغط "هونوريك" الوندالي فانتقل إلى القسطنطينية سنة 483م وهناك كتب مؤلفه: *Historia Perécutionis Vandalicae Sive Africanae* سنة 486م باللغة اللاتينية.

14-"بروكوب القيصري" *Procope de Césarée* (500-565م) يعرض في كتابه: "الحرب ضد الوندال" (*Bellum Vandalorum*) *la Guerre contre les Vandales* الأحداث التي وقعت في عهد الإمبراطور "جوستنيانوس" *Justinianus*، وما ساعده على ذلك معاصرته لتلك الأحداث وتقلده منصب كاتب "بليزاريوس" *Bélisarius* الذي صاحبه في حملاته في آسيا وإفريقيا وإيطاليا، كما عين حاكما على القسطنطينية سنة 562م، وقد كتب تاريخ زمانه في ثمانية أجزاء.

<u>II-المصادر العربية</u>: رغم ابتعاد إطارها الزمني عن الفترة المدروسة، إلا أنني وجدت فيها سندا هاما في التعريف ببعض المدن والمواقع الأثرية، وتحديد بعض المفاهيم، واستفدت من بعض النصوص الجغرافية ومن أبرزها: الروض المعطار في خبر الأقطار

لـ "**عبد المنعم الحميري**"، لسان العرب لـ "**ابن منظور**" ومعجم البلدان لـ "**ياقوت الحموي**"، أما نصوص "**ابن خلدون**" رغم أنها متأخرة عن الفترة المدروسة، فقد احتوت إشارات تاريخية هامة عن زمن الحواريين ودورهم في التبشير بالمسيحية في بلاد المغرب القديم.

ثانيا: المراجع:

1-الدراسات المسيحية: شكلت تلك الدراسات مادة خبرية أساسية سمحت بدراسة جذور المسيحية في بلاد المغرب القديم وطرق تغلغلها والعوامل التي ساعدت على انتشارها، وبعضها أرخ للدوناتية وعلاقتها بالدوارين ومن أبرزها:

1-*Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion Vandale, Ernest Leroux, Paris, 7 tomes, 1901-1923.*

تعد دراسة "مونصو" عملا موسوعيا جاء في سبعة أجزاء، فقد انطلقت معظم الدراسات الحديثة من عمله الذي تناول تاريخ الدوناتية والدوارين والمجامع الكنسية الدوناتية والكاثوليكية، غير أن عمله كان بالضرورة "تاريخا للأدب الإفريقي المسيحي من الأصول إلى الغزو الوندالي" عالج أوضاع الكنيسة في عصر "تارتوليانوس" و"سان سبريانوس"، ولم يغفل الجوانب الاجتماعية والسياسية للدوناتية. ومن الأجزاء التي اطلعت عليها الجزء الرابع الذي خصصه للدوناتية. *Monceaux (P.), le Donatisme, t. IV, 1912.*

والجزء السادس الذي تناول فيه الأدب الدوناتي في زمن "أوغسطين" *Monceaux (P.), la littérature donatiste au temps de Saint-Augustin, t. VI, 1922.*

والجزء السابع الذي عالج مواقف القديس "أوغسطين" من الدوناتية. *- Saint-Augustin et le Donatisme, t. VII, 1923.*

2-*Mesnage, (J.P.), l'Afrique chrétienne, Évêchés et ruines antiques, d'après les manuscrits de Mgr.Toulote et les découvertes Archéologiques les plus récentes, Paris, Ernest Leroux, 1912.*

استفدت من كتاب "جون بول ميناج": "إفريقيا المسيحية" في دراسة جغرافية إفريقيا المسيحية، كتحديد مواقع الأبرشيات والمواقع الأثرية والتعريف بالأساقفة مع قوائم مفصلة للمدن الإفريقية وأسماؤها اللاتينية والحالية.

3 *-Brisson (J. P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine : de Septime sévère à l'invasion Vandale, Paris, édit. E. de Boccard, 1958.*

تعد دراسة "جون بول بريصون": "الاستقلال الذاتي والمسيحية في إفريقيا الرومانية، من سبتيم سيفير إلى الغزو الوندالي" أطروحة دكتوراه قدمها الباحث سنة 1956م بجامعة "السوربون" *Sorbonne* (فرنسا) ونشرت سنة 1958م. أفدت من هذه الدراسة في الوقوف على أوضاع الكنيسة في عهد "سان سيبريانوس" في منتصف القرن الثالث، وسياسة روما الدينية في إفريقيا خلال القرن الرابع. وقد وضع قائمة مفصلة للمجامع الكنسية الدوناتية والكاثوليكية، وخصص الفصل الرابع للدوارين وعلاقتهم بالدوناتية.

4–*Moreau (J.), la persécution du christianisme dans l'empire romain, P.U.F., Paris, 1956.* تناول كتاب "مورو": "اضطهاد المسيحية في الإمبراطورية الرومانية" الاضطهادات العشر التي مارسها الأباطرة الرومان ضد المسيحيين من عهد «نيرون" (64–68م) إلى عهد "ديوكليتيانوس" (303–305م)، كما تعرض إلى سياسة الإمبراطور "قسطنطين" (306م–337م) الدينية في المغرب القديم في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي. ومن الأبحاث الحديثة التي تناولت الدوارين وعلاقتهم بالدوناتية:

5–*Martroye (F.), « une tentative de révolution sociale en Afrique, Donatistes et circoncellions », R.Q.H., T.32, 1904, (pp.353-416.)* طرح "مارطروي" في مقاله: "محاولة ثورة اجتماعية في إفريقيا، الدوناتيون والدوارون" سنة 1904م الجوانب الاجتماعية والثورية التي تربط بين الدوناتية والدوارين.

6–*Vannier (O.), « les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat », Rev. Afr. , n° 67,1926, (pp.13-28.)*

صدرت دراسة للباحثة الفرنسية "أوديت فانييه" بالمجلة الإفريقية في 1926م تناولت "الدوارون وعلاقتهم بالكنيسة الدوناتية من خلال نصوص أوبطا الميلي". وتوصلت الباحثة إلى نتيجة مفادها أن التحالف بين الدوناتيين والدوارين فرضته الظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفتها نوميديا في تلك الفترة، ولم يكن نتاج مبادرة رجال الدين. فالتقى التمرد الديني بالتمرد الاجتماعي مع طريقة عمل باستخدام العنف فأعطى الدوارون بذلك نفسا جديدا للحركة الدوناتية.

7-Saumagne (Ch.), « Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? les circoncellions d'Afrique », A.H.E.S., T.VI, n° 28, 1934, (pp. 351-364).

جاءت مساهمة "شارل سوماني": "عمال فلاحيين أم طوافون حول الأهراء؟ دوارو إفريقيا" في دورية: "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" في سنة 1934م لتؤكد أن الدوارين من بين الفئات الاجتماعية المعترف بها من طرف الدولة، الأمر الذي فند افتراض أن الدوارين كانوا مجرد لصوص وقطاع طرق.

2-الدراسات الأثرية الحديثة: استقيت معلومات هامة من بعض الدوريات المتخصصة التي تضمنت دراسات أثرية وتقارير ومعاينات المدرسة الاستعمارية، ونظرا لكثرتها فإنني سأقتصر على ذكر أهم الدوريات التي أفادتني في هذا البحث بشكل كبير ومنها:

أ-المجلة الإفريقية *Revue Africaine* صدرت عن الجمعية الأثرية قسنطينة منذ 1854.

ب-مدونة الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة، *Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de Constantine (R.S.A.C.).* الصادرة منذ سنة 1853.

ج-مختارات المدرسة الفرنسية في روما، *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, Antiquité. (M.E.F.R.A.).*

د-تقارير أكاديمية النقوش والآداب بباريس، *Comptes Rendus de l'académie des Inscriptions et Belles-Lettres. Paris (C.R.A.I.).*

هـ-الآثار الإفريقية، *Antiquités Africaine, Paris, C.N.R.S. (Ant. Afri.)*

و-مجلة الدراسات الفينيقية البونية والآثار اللوبية *Reppal* الصادرة عن المعهد القومي للتراث بتونس.

مناهج البحث: اعتمدت في عرض المادة العلمية وتنظيمها وتبويبها وتحليلها واستنباط النتائج منها على مناهج يكمل بعضها البعض وهي:

1-المنهج الوصفي: وقد اتبعته في عرض المادة الخبرية، ذلك أن بعض الأحداث التاريخية تتطلب عرض النصوص وفق تسلسلها التاريخي قبل مناقشتها والتعليق عليها.

2-المنهج التحليلي: وهو منهج أساسي في الدراسات التاريخية الأكاديمية، وقد اعتمدته في دراسة وتحليل المعطيات العلمية بالشرح والاستدلال والنفي.

3-المنهج المقارن: وقد وظفته في مقارنة الوقائع التاريخية والتقريب بينها وتبسيط بعض النماذج والصور التاريخية المعقدة لاستنباط واستخلاص النتائج.

صعوبات البحث: واجهتني في إنجاز هذا البحث عدة صعوبات قد تواجه كل باحث يخوض غمار البحث في التاريخ القديم ومنها:

1- يعد حاجز اللغة من أبرز العقبات التي تعترض الباحثين والتي تحول دون نقل الأحداث والحقائق كما وقعت أصلا. لكن الأخطر من ذلك أن النص التاريخي الذي كتب بلغات أجنبية، قد يكون في سياق تاريخي كثيرا ما يكون متناقضا مع رؤانا العلمية. ويطرح إشكالات متعددة منها ما يتعلق بالترجمة، ومنها ما يتصل بالرؤى والأطروحات الكولونيالية.

2- صعوبة جمع مصادر الموضوع فهي مبعثرة في طيات الآلاف من مقتطفات النقوش الأثرية وفي الخرائب والأطلال وفي شذرات النصوص القديمة، وبين مئات التحقيقات الأثرية والمؤلفات الحديثة.

3-لا تقف الصعوبة عند الجمع فقط، بل تتعداها إلى التوفيق فيما بينها نتيجة تباين الآراء أحيانا وتضاربها وتناقضها أحيانا أخرى.

خطة البحث: نظرا لطبيعة الموضوع وتشعب عناصره فقد قسمته إلى مقدمة، خمسة أبواب وخاتمة. عالجت في **الباب الأول:** المعتقدات الوثنية في بلاد المغرب القديم قبل

ظهور المسيحية، وتضمن ثلاثة فصول عرضت في **الفصل الأول** الممارسات الطقوسية في المغرب القديم كالطقوس الزراعية واستدرار المطر، وعبادة الإنسان كالملوك والأموات التي تتضح في الطقوس الجنائزية وقوى الطبيعية والعبادة الطوطمية وطقوسها، وتناولت في **الفصل الثاني** المعبودات والآلهة المحلية في المغرب القديم كعبادة المياه والجبال والصخور وعبادة الكهوف والمغارات والاعتقاد بالجن، وتطرقت إلى بعض الآلهة المحلية التي كانت تعبد في المغرب القديم.

أما **الفصل الثالث** فقد خصصته لبعض المعبودات الوثنية الوافدة إلى بلاد المغرب القديم كالمعبودات المصرية والفينيقية التي امتزجت بالمعبودات البونية المحلية، إضافة إلى بعض التأثيرات القادمة من جنوب أوروبا من بلاد الإغريق وبلاد الرومان.

وجاء **الباب الثاني** بعنوان: ظهور المسيحية وعوامل انتشارها في المغرب القديم، عرضت في **الفصل الأول** بدايات ظهور المسيحية وطرق انتقالها إلى المغرب القديم، ودرست في **الفصل الثاني** عوامل انتشارها من عوامل دينية، اجتماعية واقتصادية، وعالجت في **الفصل الثالث** موقف السلطة الرومانية من حركة التنصير في المغرب القديم، الذي تباين تبعا لسياسة الأباطرة الرومان إلى أن تبنى الإمبراطور "قسطنطين" المسيحية كديانة رسمية للدولة سنة 313م.

أما **الباب الثالث** فقد تناولت فيه: انقسام الكنيسة الإفريقية وظهور الحركة الدوناتية في المغرب القديم، وعرضت في **الفصل الأول** أسباب الانشقاق الديني في المغرب القديم والتي تنوعت بين الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ودرست في **الفصل الثاني** جذور الحركة الدوناتية والعوامل التي ساعدت على ظهورها في بداية القرن الرابع الميلادي. أما **الفصل الثالث** فقد استعرضت فيه مراحل تطور الحركة الدوناتية منذ ظهورها إلى أن صدر قرار تحريمها على إثر مناظرة قرطاجة سنة 411م.

أما **الباب الرابع** الموسوم بـ: حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية فقد قسمته إلى ثلاثة فصول درست في **الفصل الأول** ماهية حركة الدوارين حيث حاولت فيه تحديد مفهوم الدوارين لغة واصطلاحا وأشرت إلى بعض المصادر والنصوص الكاثوليكية وموقفها من الدوارين مثل نصوص القديسين "أوبطا الميلي" و"أوغسطين". كما تطرقت إلى بعض الدراسات الحديثة التي اهتمت بتاريخ الدوناتية مثل:"بريصون" *J.P.Brisson* و"شارل صوماني" *Ch. Saumagne* و"أوديت فانيي" *Odette Vannier* و"تنغستروم" *E.Tengström* و"كالدرون" *Calderone*. وعالجت في **الفصل الثاني** طبيعة حركة الدوارين، وبينت في هذا الفصل السمات التي تميزت بها الحركة سواء منها الاجتماعية أو الدينية قبل سنة 347م وبعدها. وتطرقت في **الفصل الثالث** إلى طبيعة العلاقة بين حركة الدوارين والدوناتية، تلك العلاقة التي تحولت إلى تحالف بين الحركتين مع أحداث بغاي سنة 347م التي شكلت منعرجا حاسما في تاريخ العلاقات بين الحركتين.

ودرست في **الباب الخامس:** الحركة الدوناتية وارتباطها بثورات القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وقسمته إلى ثلاثة فصول تناولت في **الفصل الأول** ثورة "فيرموس" التي تعد من أهم ثورات القرن الرابع (372–375م)، فعرضت أسبابها وحددت نطاقها الجغرافي وأهم محطاتها وأبرزت علاقة "فيرموس" بالدوناتيين واستخلصت نتائجها. وتطرقت في **الفصل الثاني** إلى حرب "جيلدون" (396–398م) معالجا ظروف اندلاعها، محددا وقائعها الحربية ومستخلصا نتائجها. وتناولت في **الفصل الثالث** ثورة الدوارين التي عرفت في المصادر الكاثوليكية "بثورة الريفيين" التي استهدفت القضاء على النظام الاجتماعي القائم الذي كرسته السيطرة الرومانية. ودرست مراحلها الكبرى محاولا إبراز سمات كل مرحلة، حيث تميزت المرحلة الأولى (340–347م) بمطالب اجتماعية، والمرحلة الثانية (347–411م) باتساع نطاق الثورة ليمتد إلى شمال نوميديا في أوائل القرن الخامس الميلادي، وتميزت بأهدافها التحررية التي ترمي إلى تقويض أركان الاستعمار الروماني في المغرب القديم.

أما **الخاتمة** فقد تضمنت بعض الاستنتاجات التي أمكن التوصل إليها من خلال هذه الدراسة وهي إجابات عن الإشكاليات المطروحة في بداية هذه المقدمة.

وفي الأخير أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الفاضل ذراع الطاهر الذي أشرف على البحث وتابع مراحله المختلفة ولولا توجيهاته ونصائحه العلمية والمنهجية السديدة لما كان لهذا العمل أي يرى النور. كما أشكر أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل سلفا على تحملهم عناء قراءة الأطروحة ومناقشتها، جزاهم الله عنا خير الجزاء.

الباب الأول

المعتقدات الوثنية في المغرب القديم قبل ظهور المسيحية

الفصل الأول: الممارسات الطقوسية في المغرب القديم

الفصل الثاني: المعبودات والآلهة المحلية في المغرب القديم

الفصل الثالث: المعبودات الوثنية الأجنبية الوافدة إلى بلاد المغرب القديم

الفصل الأول

الممارسات الطقوسية في المغرب القديم

المبحث الأول -الطقوس الزراعية

المبحث الثاني-عبادة الإنسان وطقوسها

المبحث الثالث-عبادة الأموات

المبحث الرابع-عبادة قوى الطبيعة وطقوسها

المبحث الخامس-العبادة الطوطمية

لعل أهم ما يميز المعتقدات الوثنية في المغرب القديم قبل ظهور المسيحية هي أنها كانت انعكاسا لنظرة الإنسان المغربي للكون والحياة بمختلف مكوناتها المادية والمعنوية. ولما كان من الصعب على إنسان تلك الفترة أن ينظر بشمولية للكون والحياة وظواهرها، ذهب به تصوره إلى الاعتقاد في وجود قوى خفية تتحكم في هذه الظواهر، تمنحه إن رضيت عنه وتحرمه إن غضبت منه. وتحميه إن استعطفها وتتخلى عنه إن أمسك عن استرضائها وتعالى عنها.

وهكذا جعل المغربي القديم لتلك القوى آلهة، ورتبها حسب أهميتها وعلاقتها ببعضها. في هذا السياق أعالج في هذا الباب المعتقدات الوثنية في المغرب القديم قبل ظهور المسيحية، منطلقا من المعبودات والآلهة المحلية والممارسات الطقوسية إلى المعبودات الوثنية الأجنبية الوافدة إلى بلاد المغرب القديم.

<u>الممارسات الطقوسية في المغرب القديم:</u> مارس سكان المغرب القديم طقوسا ذات أصل سحري، ولازالت تلك الممارسات يزاولها الكثير من السكان حتى اليوم. ويباشر تلك الطقوس إما الأفراد الذين لا يبحثون عن تحقيق منفعة شخصية، وإما مجموعات تعمل لتحقيق مصلحة الجماعة، دون حاجة إلى كاهن ولا إلى الاجتماع في معبد. لذلك سأدرس في هذا الفصل الطقوس الزراعية التي تتعلق باستدرار المطر وعبادة الإنسان والأموات وقوى الطبيعة والعبادة الطوطمية وطقوسها.

وقد ظهرت دراسات عديدة تناولت هذا الموضوع، شرع في استجلائها وتوضيحها في مطلع القرن العشرين. كتلك الدراسات التي أنجزها كل من الباحثين: "أ. دوتي" (*E.Doutté*) ووليام مارسي (*W.Marçais*) (1) وعبد الرحمن غولغا (*A. Gulga*) (2)

1-Magie et religion dans l'Afrique du Nord, Alger, 1909.

2-Textes Arabes de Takrouna , I, 1925.

و"ألفريد بل" (*Alfred Bel*) [1] و"ديستان" (*Destaing*) [2] و"لاووست" (*E. Laoust*)، [3] والعالم الفنلندي "وسترمارك" [4] (*M.Westermarck*)، هذه الأعمال كلها تمثل جهودا أولية وأبحاث هامة عن ديانة المغاربة القدماء.

يواجه الباحث في مجال الدراسات الدينية مصاعب جمة، ذلك أن المراقبة الدقيقة للأحداث توجب التعود على عادات الأهالي وعلى لغتهم. إذ نجد أن بعض الطقوس ذات الأصول المشتركة، قد تتغير حسب المكان إلى دلالات مختلفة. بينما نجد طقوسا أخرى التي كانت في أول الأمر مستقلة، قد اقترب بعضها من بعض، أو تشابكت فيما بينها، من ذلك مثلا: أفراح الكارنفال ونيران المباهج والفرحة (*feux de joie*). كما أن الاعتقاد بوجود الجن، والآلهة والإله الواحد، قد مزجت أعمال الاسترضاء بعمليات ممارسة طقوس السحر.

لذلك وجب التنبيه إلى هذه العناصر الأجنبية وأبعادها لكي نبلغ الأصل الأولي لهذه الطقوس. وعندما نحقق هذه الغاية نكون أمام طقوس بالغة في التشعب والتعقيد، تولدت عن تجمع أفكار غامضة، وطقوس يكاد مغزاها أن يكون مجهولا لدى الشعوب التي ظهرت بها ومارستها.

1- Quelques rites pour obtenir la pluie, Recueil de mémoires, XIV^e congrès des orientalistes, école des lettres, Alger, 1905, pp.49-98

2- L'Ennâyer chez les Beni Snous, R.Af., XLIX, 1905, pp. 56-70.

3- Mots et choses Berbères, Paris, 1920, p.204, Id., Noms et cérémonies des feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti-Atlas, in : Héspéris, 1921, pp. 3-66.

4- Ceremonies and beliefs connected with Agriculture, certain dates of the solar, year and the Weather in Morocco, Helsingfors, 1913.

والترجمة الفرنسية: - Cérémonie du mariage en Maroc, trad. Arin, Paris, 1921.

المبحث الأول–الطقوس الزراعية: تكاد تكون معارفنا المتعلقة بطقوس قطعان الماشية واستخدام منتجاتها في المغرب القديم محدودة. أما الطقوس المتعلقة بالحبوب الزراعية فكثيرة ومتنوعة، وهي التي تقام عند الحرث وعند البذر، وفي الحصاد، وعند الدرس.

يشير "هـ. باسي" [1] في هذا المجال، أن الأمطار إذا كانت ضرورية للمحاصيل الزراعية، فهي أمطار كثيرا ما ترجى تحت السماء الإفريقية.

وقد عرفت مناطق كثيرة من المغرب القديم عمليات الاستحمام أو الرش بالماء بمناسبة الانقلاب الصيفي، والتي تصاحبها نيران المباهج، التي سنتحدث عنها لاحقا.

وإذا حدث جفاف لمدة طويلة، فهناك طقوس أخرى منها مثلا: الاستحمام طوعا أو كرها، أو الطواف بملعقة كبيرة مصنوعة من خشب تسمى (غنجة أو بوغنجة *Ghonja*). [*]

والراجح أن هذه الملعقة كانت في الأصل مجرد بديل سحري عن الأرض الظمأى. ولكنها بعد تطور الطقوس في فترة لاحقة، تحولت إلى شخص يدعى " خطيبة أنزار " [**] *Fiancée D'anzar*". [2]

وقد وصف الإثنوغرافيين بعض الحفلات وطقوس استدرار المطر في المغرب القديم، ومن الطقوس التي حافظت على وجودها إلى أيامنا هذه، حفلة "غنجة أو بوغنجة".

---

[1]- *Basset (H.), Les rites du travail de la laine à Rabat, in : Hespéris, 1922, pp. 139-160.*

*- ***غنجة***، تعني ملعقة المطبخ أما بوغنجة فتعني صاحب الملعقة في اللغة الأمازيغية.*

- ***أنزار (Anzar)*، هو إله المطر حسب معتقدات سكان المغرب القديم.*

- Picard (G.Ch.), les religions de l'Afrique antique, Typographie Plon, Paris, 1954, p.10.

[2] - *Gsell (S.), H.A.A.N., t.VI, p.121.*

وأشار بعض المؤرخين المحدثين أمثال: "س. غزال" و"هـ. جنيفوا" أن تلك الحفلات كانت تنظم عند حدوث الجفاف. حيث تتجمع العجائز مرفوقات بالأطفال في ساحة القرية ويحملن ملاعق كبيرة مكسوة بأقمشة رثة، فتتحول إلى دمية خشنة، وهن يرددن أهازيج يطلبن فيه استدرار المطر.

وأثناء السير تلتحق بهن نساء أخريات يحملن الهدايا من دقيق وزيت ولحم، ويتم تحضير الطعام عند مزارة أو ضريح. ثم تتبع تلك الحفلة بلعبة العصي التي تعرف باسم " لعبة أنزار"، وفيها تتجمع فتيات في سن الزواج حول الفتاة التي تقوم بدور خطيبة أنزار. وينقسمن إلى مجموعتين، كل فتاة تمسك بعصا ويتقاذفن كرة، فإذا ما دخلت الحفرة المخصصة لها، عندها تردد خطيبة أنزار تلك الأهازيج بقولها: « ***الأرض وأنا زوجتان، تزوجنا رجلا دون أن نراه***». ثم تدفن الكرة في المكان المخصص لها، وتعود النساء إلى قريتهن قبل الغروب وتحفظ الملعقة الكبيرة إلى حفلات قادمة. (1)

يذكر "هـ. جنيفوا" أن أصل هذه الأسطورة تعود إلى شخص يدعى "أنزار" يعتقد السكان أنه إله المطر، رغب في الزواج من فتاة كانت متعودة على الاستحمام في الوادي، وعندما نزل هذا إله إلى الأرض اقترب منها، فخافت وهربت منه فانتقم منها بإدارة خاتمه، فجف الوادي فجأة، فأطلقت الفتاة صيحة مرعبة فقدت ثيابها على إثرها فأصبحت عارية، فدعت إله السماء "أنزار" أن يعود الوادي إلى الجريان كما كان وأن ينتقم لها. وفي اللحظة نفسها رأت الفتاة إله المياه على شكل برق عظيم ضمته إليها وبذلك عاد النهر إلى الجريان واكتست الأرض حلة خضراء. (2)

---

[1]- *Genevois (H.), « Un rite d'obtention de pluie (la fiancée d'Anzar) », dans actes du 2e Congrès international d'études des cultures de la méditerranée occidentale, S.N.E.D, Alger, 1987, p.393.*

[2]- *Ibid., pp.393-394.*

يبدو أن الإنسان المغربي القديم كان يتعامل مع فكرة الطقوس الخاصة باستدرار المطر والمعتقدات التي تدور حولها من حيث غضب الآلهة وعقابها لعبادها بالجفاف.

لذلك وجب عليهم إظهار خضوعهم أمام قوة تلك الآلهة التي تسكن السماء والأماكن العليا مثل قمم الجبال. فكان على السكان مقابل تهدئة غضب الآلهة أن يخرجوا في شكل جماعات إلى الهواء الطلق، ثم يعبرون عن رغبتهم في استدرار المطر، وذلك بسكب بعض المياه على التربة ثم لعقها وتعفير وجوههم بالوحل والتربة للدلالة على مدى احتياجهم للمطر. (1)

وفي هذا السياق يذكر "هيرودوت": (2) « **أن قبائل النساموني (*) (*Nasamons*) عندما يعقدون المواثيق فإنهم يعقدونها بتبادل شرب الماء في راحة اليد، وإذا لم يجدوا شيئا من السوائل فإنهم يلتقطون بعض التراب من الأرض ويلعقونه.** »

كما كانوا يخرجون في جماعات لأداء هذا الطقس في الهواء الطلق معبرين عن مدى حاجتهم إلى المطر، وذلك بإظهار ضعفهم وخضوعهم اعتقادا منهم أن الجفاف كان عقابا لهم وغضبا من الآلهة. (3)

---

[1]- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p.122.*

[2] -*Hérodote, Histoire d'Hérodote, trad. de Larcher, revue et corrigée par Emille Pessonneaux, Paris, charpentier et C*[ie]*, 1870, IV, 172.*

* – ***النساموني***، *شعب من الشعوب الليبية التي تحدث عنها هيرودوت في الكتاب الرابع في الفقرات 172، 173، 174، 175، و182، والكلمة أمازيغية تتركب من شقين: "إناس" بمعنى قال، و "أمون" بمعنى الإله آمون، أي قال أو أوحى آمون، مما يوحي إن صح هذا الافتراض ارتباطهم بالإله آمون وعبادتهم له. مصطفى أعشي، أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009، ص 26. ومن الباحثين من اقترح قراءة أخرى تجعل منهم" ناس آمون" أو "أبناء آمون".* *Desanges, (J.), Commentaire de Pline l'ancien, éd. (1980), V, 33, p. 351.*

[3]- *محمد الصغير غانم، ملامح الفكر الديني الوثني في بلاد المغرب، مجلة الحوار الفكري، عدد2، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2001، ص61.*

ويشير "هيرودوت" [1] في مقام آخر :« **أن قبائل الماشلي[*] (*Machlyes*) والأوسيس (*Auses*) [**] كانت تقيم حفلا سنويا على شرف الإلهة أثينا[***] (*Athéna*) بجوار بحيرة تريتونيس (*Tritonis*) [****] حيث تلتقي فتيات القبيلتين العذارى، فينقسمن إلى فريقين ويدخلن في معركة عنيفة بالحجارة والعصي، وإذا حدث أن إحدى الفتيات ماتت متأثرة بجراحها خلال الصراع، فان ذلك دليل على أنها عذراء مزيفة، ثم يتوقف القتال ويقوم كل فريق باختيار أجمل فتاة، فتتزين بلباس إغريقي وخوذة كورنثية،[*****] ليطاف بها على عربة في موكب احتفالي حول البحيرة – وهي في كامل زينتها ومدججة بالسلاح– معتقدين بأنها تمثل الإلهة أثينا.** »

يتضح مما سبق أن الحفلات التي تقيمها قبائل الماشلي والأوسيس كانت تشتمل على عدة أنشطة ورموز مرتبطة بالجفاف وحاجة الإنسان إلى المطر. لكن غياب الوثائق المادية والكتابية تحول دون معرفة حقيقة هذه الطقوس وتاريخها ومدى أصالتها

1-*Hérodote, IV, 180.*

* – ***الماشلي** أو **الماكليين**، قبائل ليبية تقطن حسب هيرودوت منطقة ساحلية تمتد حتى نهر تريتون Triton الذي يصب في بحيرة تريتونيس، والذي يفصلهم عن قبائل الأوسيس، وبجوار قبائل "اللوطوفاجيين" Lotophages. مصطفى أعشي، المرجع السابق، ص 52.*

** – ***الأوسيس**، قبائل ليبية كانت تقطن حول بحيرة تريتونيس حسب هيرودوت، وأهم ما يميزها إطالة شعر مقدمة الرأس، ولم يذكر الأوسيس بعد هيرودوت إلا إيتيان البيزنطي وأبولودور. -Gsell (S.), Hérodote..., p.139.*

***- ***أثينا**، إلهة إغريقية، تعرف بالإلهة العذراء، ربة الحكمة والحرب والزواج والنبات وحامية الدولة وضامنة الإنصاف والعدالة، ابنة الإله "زيوس" (Zeus)، وهي من الآلهة الاثني عشر في الأولمب، لكن ما مكانة أثينا عند الأمازيغ؟ هل كانت بالفعل إلهة أمازيغية التي يقيم لها الأوسيس حفلا سنويا على شرفها، أم أن هيرودوت كعادات الإغريق يطلقون أسماء آلهتهم على آلهة الشعوب الأخرى التي تشبه خصائصها خصائص آلهتهم؟ مصطفى أعشي، المرجع السابق، ص ص 56-57.*

****- *بحيرة **تريتونيس**، حسب غزال اسم من الأسماء الإغريقية التي نقلها المستوطنون الإغريق إلى قورينة (Cyrène) بليبيا، وحسب هيرودوت فهي بحيرة السرت الصغرى أي خليج قابس حاليا في تونس، أما صاحب رحلة سكيلاكس فيضع بحيرة تريتونيس داخل خليج كبير يقع بين حضرموت (سوسة حاليا في تونس) ونيابوليس Néapolis (نابل حاليا في تونس)، وهناك من يرى أنها شط الجريد في الجنوب التونسي. مصطفى أعشي، المرجع السابق، ص 52. -Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p.32.*

*****-*نسبة إلى **كورينثة Corinthe** الإغريقية التي تبعد بحوالي 3 كلم عن جنوب البرزخ الذي يصل شبه جزيرة البليبونيز بوسط اليونان. وتعتبر المدينة الثالثة في اليونان بعد أثينا واسبرطة. م. أعشي، المرجع السابق، ص 57.*

في المغرب القديم. إلا أنه من المؤكد أن هذه الاحتفالات لازالت تقام حديثا في بعض المناطق في ليبيا.(*)

وتجدر الإشارة أن حفلة "بوغنجة" التي تتضمن حمل الملعقة الكبيرة التي تتجول بها النساء في طقوس سحرية، كانت تعبر عن الأرض الظمأى، والتي أدى الخيال الميتولوجي إلى إعطائها شخصية الفتاة " خطيبة أنزار". ويبدو أن البعد الاجتماعي لهذه الأسطورة من خلال تحضير الطعام والاشتراك في جمع مستلزماته كان يعبر عن تقديم الأضاحي والقرابين للآلهة.

وكانت النساء في المغرب القديم، حسب ما ذكره هيرودوت، يخرجن إلى الأودية القريبة من بحيرة تريتونيس (*Lac Tritonis*) للاستحمام في الهواء الطلق، ثم يستعطفن الآلهة لاستدرار المطر ويطلبن الإخصاب. [1]

ولنا أن نتساءل هنا: ما هي أصول طقوس استدرار المطر والاستحمام في الأودية؟ هل هي ذات أصول شرقية مرتبطة بالأنهار الدائمة الجريان والمتوفرة في الشرق القديم كنهري دجلة والفرات في بلاد الرافدين ونهر النيل في مصر؟ أم أن أصولها محلية مأخوذة من الواقع المغربي الذي يتميز بالجفاف وبأودية مؤقتة ومتذبذبة؟

يصعب على الباحث الإجابة على هذا التساؤل في غياب المصادر المادية والكتابية التي تناولت هذا الموضوع، وإن كان –حسب اعتقادي–أن الرأي الثاني أقرب

---

*- *كانت هذه الاحتفالات تقام بمناسبة عيد الملح في قريتي غات والبركات بفزان في 27 رمضان من كل سنة، إلا أنه وابتداء من سنة 1954، منعتها السلطات في عهد النظام الملكي الليبي آنذاك، حيث يتم جمع الفتيات بأجمل ثيابهن، ليقمن بتمثيل معركة بين فريقين، وكل فتاة تكون مسلحة بعصا وسوط، وبعد انتهاء الاشتباك، تشرع النساء المتقدمات في السن بفحص عذرية البنات أمام الملأ. ومن هنا يتضح التشابه الكبير بين الحدثين، يبقى الاختلاف فقط في التفاصيل والمكان والزمان، والحال أن رواية هيرودوت تؤكدها المعلومات الإثنوغرافية.* - *Pâques (V.), le bélier cosmique, son rôle dans les structures humaines et territoriales du Fezzan, Journ. de la Soc.des Africa., t. XXVI, 1956, pp.210-253 ; Brulard (M.), « Tfaska n'tisent », la fête du sel à Ghat, le 27 Ramadhan, Bull.de liais. Sahar., n° 25, 1957, pp.12-17.*

1- *Gsell (S.). H.A.A.N., T.VI, p.120.*

إلى الصواب. وهناك الطقوس التي تصاحب الولادات والزواج والجنائز، وطقوس أخرى خاصة بالبناء وترميم المساكن وحفر الآبار وغيرها.أما الطقوس المخصصة لطرد الشر فهي كثيرة منها: طقوس الاستحمام، والمشي على النار، والمعارك التي يقع فيها تبادل الضربات لطرد العدو، ونقل الشر إلى حيوان يطرد بعد ذلك أو يقتل، أو نقل الشر إلى خرق (قطع من القماش) تربط على الأشجار، أو إلى أحجار تلتقط ثم ترمى. [1]

إن الدراسة المفصلة لهذه الممارسات هي مجال الإثنوغرافيا وليس التاريخ الذي يحتاج إلى معالم كرونولوجية. لذلك من الصعب أن نعرف متى اتخذ المغاربة القدماء هذه الطقوس؟ ومتى طرأت عليها التغييرات التي حرفت خصائصها الأولية؟

يبدو أن هذه الطقوس تعود إلى العصور القديمة. فعلاقة القرابة التي تربطها بالتي نجدها في بلدان كثيرة، تدل على وجود أصل مشترك يعود إلى عهد قديم. [*] ووسائل الإكراه التي تستخدمها تجاه قوى الطبيعة، والدور المهم الذي تخص به النساء في العمليات الجماعية. على أن البعض من هذه الطقوس قد ذكرت في بعض النصوص الإغريقية واللاتينية: [2] كطريقة الاحتفال لاستدرار المطر وطرد الشر. [3] وكانت معروفة لدى أحد معاصري "أغسطس". [4] وكانت إحدى أعياد الابتهاج في عهد

---

[1]-*Gsell (S.). H.A.A.N., T.VI, p.121.*

*- *بعض هذه الطقوس لم تعرف في بلاد المغرب القديم، فإذا كانت نيران المباهج توقد بمناسبة الانقلاب الصيفي، وإذا كانت الغاية منها هي مساعدة الطاقة الشمسية على البقاء، وإذا كان الاستحمام في نفس الفترة غايته الحصول على المطر، فإنه لا يمكن تبرير هذين العملين في منطقة كشمال إفريقيا حيث حرارة الشمس تبلغ أشدها في شهر جوان، حيث يكون المطر غير نافع في بداية الصيف، لأن المحاصيل تكون قد نضجت، وربما قد تم حصادها، فطقوس النيران والاستحمام – بهذه المدلولات– تكون طارئة على شمال إفريقيا. Ibid., p.122 -.*

[2]-*Dion Cassius, LX, 9; St. Augustin, Sermones, CXCVI, 4.*

[3]-*Hérodote, IV, 180.*

[4]-*Nicolas de Damas, Fragm. Hist. Graec., trad. Par littré, Paris, librairie Richelieu, 1865, III, p.462, n °135.*

يوغرطة –حسب "سالوستيوس" (*Sallustius*)– [1] تجري في جميع مناطق المغرب القديم، والتي كانت تقام في نهاية فصل الشتاء، من المحتمل أن تكون عيدا للكرنفال.

والملاحظ أننا لا نجد في كل هذه المجموعة من الطقوس التي لا زالت قائمة إلى أيامنا هذه، أي أثر لمؤثرات بونية، فإذا كان الفينيقيون قد استعملوا طرق مماثلة لضمان تجدد النبات، ومساندة قوة الشمس، فإنهم أحكموا ربطها بأساطير وبعبادات للآلهة، وذلك منذ عهد سابق على وصولهم إلى شمال إفريقيا.

إن أكثر ما يمكن قبوله، هو أن هذه الطرق التي استعملوها دفعت سكان المغرب القديم إلى أن يدخلوا الدين في السحر. ونذكر على سبيل المثال: في إحدى طقوس إنزال المطر تتحول الملعقة "بوغنجة" إلى ما يشبه المعبود "*Idole*"، وهي صورة الأرض المشخصة، ويتجه إليها بالتضرع، والحق أننا نجهل لحد الآن متى وكيف حدث هذا التغير؟ [2]

يبدو أن التأثيرات اللاتينية كانت محدودة، فقد انتقل تاريخ نيران المباهج وتاريخ الكرنفال إلى اليوم الأول من تقويم "جوليان" [*] (*Calendrier Julien*)، وبهذا فإن طقوس التجديد لم تعد تنطبق على الشمس أو على النبات، وإنما تنطبق على السنة.

وتستعمل في تلك الأعياد ألفاظ أعطيت لها أصول لاتينية وهي: بونعان (*Bounânn*) وبون إني (*Boun Ini*)، أو بو إني (*Bou Ini*)، وبيانو (*Byanno*)، وبنايو (*Bennayo*) وغيرها. [3]

---

[1]-*Sallustius, Bell. Jugh., LXVI, 2.*

[2] – *عثر لاووست على ألفاظ لاتينية هي: (Terra Water, Mater) في التضرعات الموجهة إلى غنجة (المغرفة) وذلك في عدة مناطق من المغرب القديم.*
- Laoust (E.), Mots et choses Berbères..., pp.214-221.

*– تقويم جوليان، تقويم وضعه يوليوس قيصر Julius Caesar في سنة 708 من تأسيس روما، أي في 46 ق.م.
-Dic. Univ. Hist. Géo., p. 978.*

[3]-*Doutté (E.), Magie et religion..., pp.549-550 ; Laoust (E.), Op. cit. , p.107.*

ويمكن أن نتساءل عن التأثيرات السودانية الصحراوية التي حملها العبيد معهم: ألم يكن لها دخل في بعض الطقوس؟ وهل أدخلت هي طقوسا أخرى جديدة؟ يظهر أن ما استمر موجودا بشكل واسع، من خلال هذه التغيرات، هو مجموعة من الممارسات والطقوس التي تعود أصولها إلى فترة ما قبل التاريخ.

<u>المبحث الثاني-عبادة الإنسان (*Anthropolâtrie*) وطقوسها</u>: كانت عبادة الإنسان مهيمنة في بلاد المغرب القديم. ويعتقد السكان أن للأولياء قوة مقدسة تجعلهم فوق غيرهم من الناس، وهذه القوة تجعل لهم تأثيرا يحدث مفعوله عند لمسهم بل وعند الاقتراب منهم.

إن تقديس الأولياء يحافظ على الطابع المحلي في غالب الأحيان، فلكل جهة أولياؤها الذين لا يجدون لهم أتباعا في غيرها، إلا في حالات نادرة.

لقد مارس سكان المغرب القديم عبادة الإنسان للإنسان، لكنها كانت عبادة للملوك خاصة. فقد حظي بعض الملوك بمكانة متميزة عند سكان المغرب القديم ونستشف ذلك من النقوش والعمارة الجنائزية وكتابات المؤرخين القدامى والمحدثين.

تباينت آراء المؤرخين حول هذا الموضوع، وتعود أولى الإشارات إلى عبادة الملوك في المغرب القديم للقرن الثالث قبل الميلاد، فقد عثر في نقيشة دوقة الثانية (*) على نص إهدائي بالقرب من الضريح الذي شيد له في السنة العاشرة من حكم الملك "مسيبسا" أو "مكيبسا" (*Micipsa*) (**) ابن الملك "ماسينيسا" (*Massinissa*) وقد كتب

- توجد **نقيشة دوقة الثانية بمتحف باردو بتونس حاليا، وقد عثرت عليها مصلحة الآثار القديمة سنة 1904م في دوقة، واكتشف النقيشة الباحث م. سادو-Sadoux، وهي عبارة عن قطعة حجرية 68سم/33سم وسمكها 25 سم. مها عيساوي، النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم، ط 1، مطبعة جسور، الجزائر، 2009، ص. 152.*

***- **مكيبسا** Micipsa ، ذكرته النصوص القديمة بعدة اسماء "ميسيبسا" و"مكوسن" و"مكواسن" (MKWSN)، هو أكبر أبناء "ماسينيسا"، تقاسم العرش مع أخويه "غلوسن" و"مسطنبعل"، بعد وفاة "ماسينيسا" سنة 148 ق.م. حكم العرش النوميدي مدة 30 سنة، توفي سنة 118 ق.م. فنطر محمد حسين، الحرف والصورة في عالم قرطاج، منشورات البحر المتوسط، تونس، 1999، ص341، محمد الصغير غانم، نقيشة ميسيبسا الأثرية، <u>مجلة سيرتا</u>، عدد4، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980، ص ص 2-14.*

باللغتين الليبية والبونية.[1] (الشكل رقم1 "أ- ب" ص 34) وقد استند بعض المؤرخين أمثال "ج. ش. بيكار" [2] (*G.Ch. Picard*)، و"ستيفان غزال" [3] (*S. Gsell*) في دراستهم لهذه النقيشة، لإثبات أن النوميديين كانوا يؤلهون الملك ماسينيسا.

ويرى "محمد حسين فنطر" (*Fantar*) و"فرانسوا دوكريه" [4](*F.Decret*) أنه لا يوجد في النص ما يشير إلى عبادة النوميديين للملك "ماسينيسا"، فالنص يعطيه لقب ملك فقط، وهو ما أشير إليه في النص البوني بـ « هـ م م ل ك ت » (أي الملك)، وفي النص اللوبي « ج ل د » (*GLD*) أي الحاكم الذي له صبغة عسكرية.

كما عثر في "قيصرية" شرشال حاليا، على كتابة بونية جديدة (*Néopunique*) عرفت بنقيشة "مسيبسا" كانت تشير إلى معبد أو مزار شيد له. لكن لم يعثر على بقاياه الأثرية، وربما قد تكون الكتابة متأخرة بما لا يقل عن نصف قرن على الأقل من وفاة مسيبسا.[5] ذلك لأن صاحب هذا الإهداء يدعى "يعزم" (*Y'ZM*) الذي يعلن نفسه خادما (*Ordonateur*) للإله. ومن خلال قراءة النقش يتضح المضمون الديني الذي يشير إلى تأليه "مسيبسا". [6]

ويمكن أن نتساءل هنا: هل فكرة تأليه "مسيبسا" (*Micipsa*) تمت قبل وفاته أو بعدها؟ هذا ما لا يمكننا أن نجزم به في غياب المصادر المادية التي تناولت هذا الموضوع.

1-*Chabot (L.), Punica, dans : J.A., 1918, p.208.*

2-*Picard (G.Ch.), les religions de l'Afrique antique, p.17.*

3-*Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, pp.130-131.*

4-*Decret (F.), et Fantar (M.), l'Afrique du Nord dans l'Antiquité, éd. Payot, Paris, 1981, pp. 257-258.*

5-*Picard (G.Ch.), Op.cit., p.130.*

6-*Decret (F.), et Fantar (M.), Op.cit., p.258.*



(أ)



(ب)

الشكل رقم1: ضريح ونقيشة دوقة.

"أ": النص البوني–الليبي لنقيشة دوقة الأثرية الثانية – القرن الثاني قبل الميلاد.
"ب": ضريح دوقة الذي وجدت النقيشة بالقرب منه.

نقلا عن: (أ): *- Serge Lancel, L'Algérie antique, Ed. Mengès, Paris, 2003.*

(ب): *- Ouvrage collectif sous la direction de Keltoum Daho, l'Algérie aux temps des royaumes numides, 2007, p.66.*

كما عثر على عدة نقوش لاتينية تعود إلى الفترة الرومانية، تتضمن تكريسات إلى بعض الملوك النوميد مثل: "غلوسة" (*) (*Gulussa*)، و"هيمبسال" (**) (*Hiempsal*)، و"يوبا الأول" (***) (*Juba I*) وربما إلى "ماسينيسا" (****) يوصفون فيها بصفة إله (*Deus*).

ويتعلق الأمر في هذه النصوص المنقوشة بأشخاص ماتوا، لكن لا يزال لهم عباد بعد موتهم بزمن طويل. وتحدث بعض المؤرخين عن عبادة تقدم إلى الموتى في الأضرحة (*****) التي شيدت لهم. (الشكل 2 "أ- ب" ص 37).

وأشار بعض الكتاب المسيحيين (******) خلال الفترة الرومانية إلى أن الموريين كانوا يعبدون ملوكهم الوثنيين ويقدسونهم، من بينهم الملك يوبا الأول (*Juba I*). [1]

فقد عثر على بعض النقوش في عدة جهات من المغرب القديم منها: منطقة برج بوعريريج بالشرق الجزائري، تشهد على وجود هذه العبادة عند النوميديين وعند الموريين.

- وجد النقش في منطقة عين البيضاء قرب خنشلة، أنظر: - C.I.L. VIII, 18752 (région d'Ain-Beida).

- وجد هذا النقش في مدينة توبورسيكوم نوميداروم Thubursicum Numidarum أي خميسة Khamissa قرب قالمة حاليا، كما وجد في تيكلات Tiklat قرب بجاية. للمزيد أنظر: -Gsell (S.) , Inscription Latine d'Algérie, I, T.242, (Khamissa); C.I.L., VIII, 8834, (Tiklat).

***- وجد النقش في منطقة برج بوعريريج بالشرق الجزائري، للمزيد أنظر: - C.I.L., VII, 20627.

****- وجد النقش في منطقة القبائل (Kabylie): و قد كتب هكذا: « Tabla (= Tabula) deo Masi [.nissae ?]. » للمزيد أنظر: - C.I.L., VII, 20731.

***** - شيد الضريحان الملكيان: الضريح الملكي الموريطاني قرب تيبازة المعروف بقبر الرومية Tombeau de la chrétienne وضريح مدغاسن Medracen قرب باتنة بشكل يسمح بالاعتقاد أن هناك احتفالات كانت تقام على شرف الملوك الذين دفنوا في هذه الأضرحة. - Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, p.131.

******- نذكر منهم: ترتوليانوس Tertullianus، ومينوكيوس فليكس Minucius Félix، وسان سبريان Saint Cyprien، ولاكتانتيوس Lactantius . للمزيد أنظر: - Ibid., T. VI, p.130.

1 - Picard (G.Ch.), les religions de l'Afrique antique, Op. cit., p.6.

ولنا أن نتساءل في هذا السياق: هل كان ملوك نوميديا وموريطانيا يعبدون في حياتهم كالفراعنة؟ ليست لدينا أية أدلة تسمح بتأكيد تلك العبادة، سوى إهداء عثر عليه في شرشال موجه إلى:

(*) .(*Geni (o) Regis Pto (lemaei), Regis (Jubae) F (ilii)*)

نلاحظ أن هذا النقش مهدى إلى الإله الحامي "*Genio* " (**) للملك "بطليموس" ابن الملك "يوبا" (أي إلى روحه أو عبقريته أو ذاتيته المعنوية) لا إلى الملك نفسه الذي يمجد كمعبود. ذلك أن التوجه إلى الإله الحامي لشخص ما ليس دليلا البتة على أن هذا الشخص مؤله، مثلما أن الإله الحامي لمدينة أو مكان ليس دليلا بالضرورة على أن المدينة أو المكان مؤلهان أو حتى مقدسان.

وإن كان هذا لا يمنع من أن نستنتج أن "بطليموس" (*Ptolémée*) كان إلها بالنسبة لرعيته. ويحتمل أن تكون هذه الكتابة قد نقشت بيد أحد الرومان وهو أجنبي، لذلك كان غير ملزم تجاه الملك بشعائر العبادة مثل الموريين.

وكان "يوبا الثاني" والد "بطليموس" (أنظر الشكل 3 ص 38) قد رسم نفسه على العديد من نقوده حيث كان يبدو ممسكا بعصا ورأسه مغطى بجلد "أسد نيمي" (***) .(*Lion de Némée*)

- الإهداءات الأخرى لـ "بطليموس" مسجلة تحت رقم9343 (شرشال) و8927 (بجاية). .C.I.L., VIII, 9342 -

**- عرب مصطلح *Genio* بكلمة «جني» إلا أن التعريب غير دقيق، ذلك أن *Genio* كلمة لاتينية من *Genius* وهو الإله الخصوصي أو الجن الحامي لكل أحد، يسهر عليه ويرعاه منذ ولادته إلى وفاته ويغيب بانتهاء صاحبه، ويقاسم صاحبه أيضا حظه ومقاديره. وكان المرء قديما يدعى باسمه أو بدعوة إلهه المرافق له، وتقدم القرابين باسم الإله المصاحب، الذي يقاسم الرجل المصحوب أفراحه وأحزانه، وبهذا أصبح هذا المصاحب مرادفا للمصحوب، إذا الصحيح غير ما ذكر "غزال"، إذ نظرا لهذا الرادف يكون النقش المذكور-ولو أنه باسم هذا الإله المختفي المستجن لبطليموس نفسه، ولا يكون هناك داع لوجود روماني مثلا يعبد الملك أو لا يعبده. *- Gaffiot (F.), Dictionnaire Abrégé Latin Français, Hachette, Paris, 1936, p. 273.*

***- ذكر في الميثولوجيا الإغريقية على أنه مخلوق خرافي قتله "هيراكليس".



(أ)



(ب)



(ج)



(د)

الشكل 2: نماذج عن الأضرحة الملكية النوميدية والموريطانية الهرمية والبرجية:

أ–الضريح الملكي النوميدي "مدغاسن" *Medracen* بدائرة المعذر (باتنة) ضريح ملوك العائلة الماسيلية.
ب– صومعة الخروب (قسنطينة) أو ضريح الملك "ماسينيسا".
ج–الضريح الملكي الموريطاني المعروف بـ"قبر الرومية" قرب تيبازة، وحسب "بومبونيوس ميلا" *Mela* فهو ضريح عائلة ملكية موريطانية يحتمل أن يكون "يوبا الثاني" *Juba II* (25 ق.م.–23م).
د– أحد أضرحة الملوك الموريين الملقبة بـ "لجدار A" يقع جنوب غرب تيارت بحوالي 30 كلم، وشمال شرق فرندة بحوالي 15 كلم.

نقلا عن: أ– *تصوير الطالب الباحث بتاريخ:* 2014/04/14.

– *Collectif, sous la direction de Keltoum Daho, l'Algérie aux temps des royaumes numides, p. 40, 68.* ب–ج–

د– *رابح لحسن، أضرحة الملوك النوميد والمور، دار هومة، الجزائر،2007، ص ص 310–311.*



(أ)



(ب)





(ج)





(د)

الشكل 3: نماذج لعملات نوميدية وموريطانية.

أ-وجه عملة الملك يوبا الأول (60-46 ق.م) عليها كتابة باللغة اللاتينية REX IUBA.

ب-وجه عملة بطليموس (20 ق.م-40م) بمتحف سيرتا، عليها عبارة "بطليموس الملك" باللاتينية PTOLEMAEVS REX

ج-وجه عملة الملك يوبا الثاني (25 ق.م-23م) برأس مكلل أمامه عبارة REX IUBA، وظهر يبرز حيوان الجدي الأسطوري يقابله تاريخ RXXXXV (45) .

د-وجه عملة الملك ماسينيسا (203-148 ق.م) ملتحيا ومتوج بإكليل، وظهر العملة تظهر حصانا راكضا نحو اليسار.

<u>نقلا عن:</u> *(أ)- (ب)* *- Christa Landwehr, les Portraits de Juba II, roi de Maurétanie, et de Ptolémée, son fils et successeur, P.U.F., <u>Revue archéologique</u>, n° 43, 2007/1, p.69.*

- Kormikiari Nicolau (M.C.) , Numidian Royal Portrait, in : Bollettino di Numismatica, Monografia 6.1, 1989, 48, cat. n° 63, p. 354.

(ج) -(د): - Ouvrage collectif, l'Algérie aux temps des royaumes Numides, p.141.

وكان الملك "يوبا الثاني" يدعي أنه انحدر من ذرية "هيراكليس" "هرقل" (*) (*Héraclès*). غير أن هذه النقود كانت تقليدا لمثيلتها الإغريقية. وكان "يوبا" ينسب نفسه إلى "هيراكليس" الإغريقي، فإذا كان الأهالي قد عبدوه كإله حي، فلا بد أن تلك العبادة كانت على نحو آخر.

لقد تباينت آراء المؤرخين حول عبادة الملوك في نوميديا، وخاصة تلك المرتبطة بالعاهل "ماسينيسا". حيث يرى "ستيفان غزال" أن "ماسينيسا" أعطى الطابع الإلهي لنفسه من أجل تدعيم سلطته السياسية، كما فعل الفراعنة في مصر ثم الأباطرة في روما فيما بعد، لذلك قلد "ماسينيسا" من جاء بعده من الملوك النوميد. [1]

إلا أن "غ. كامبس" (*G.Camps*) استبعد هذا الطرح الذي يبدو أنه جاء متأثرا بشيوع ظاهرة تأليه الملوك والحكام وهم أحياء منذ القرن الثالث ق.م.، مثل "فيليب الخامس" ملك مقدونيا و"الإسكندر المقدوني" اللذين جعلتهما البطولة مؤهلين للتأليه. [2]

الملاحظ أن الوثائق الأثرية خارج النقوش لا تتضمن أي دليل على وجود عبادة ملكية، فعملات الملوك النوميد أو المور كانت تحمل في أحد وجهيها صورة لشخص

**- كان يوبا الثاني (Juba II) ملك موريطانيا يدعي أنه ينحدر من هرقل (Hercule- Héraclès) و يحتمل أن نفس الأصل قد عزى قبل ذلك لأبيه يوبا الأول (Juba I) ملك نوميديا. غير أننا لا نملك الأدلة التي تثبت أن أسلافهما قد ادعوا هذا النسب الرفيع، ويبدو أن هيمبسال الثاني (Hiempsal II) وهو جد يوبا الثاني لم يقل شيئا عن هذا فيما رواه عن الأصول الليبية. بل إنه أكد أن هرقل كان قد مات بأسبانيا عندما عبرت إلى إفريقيا مجموعة من رفاقه في السلاح. على أن الجد المزعوم ليوبا الثاني لم يكن يحمل صفات هرقل الإغريقية فحسب، بل إنه حسب خرافة يرويها بلوتارك عبر البحر فنزل بالساحل الموريطاني صحبة بعض الإغريق واتصل بإحدى نساء البلد فولدت له ابنا يدعى "سوفاكس" (Sophax) الذي إليه يعزى يوبا، وحسب خرافة أخرى فإن شخصا آخر يدعى "يوبيس" (Iobes) هو أيضا ابن لهرقل ولدته إحدى الإغريقيات هي "تيسبياد" (Thespiade)، وكانت على ما يقال تدعى أيضا "كيرثي" (Kherthé). ولعل هذه الرواية قد نسجت عن قصد ليوبا الأول الذي حكم سيرتا، وليس ليوبا الثاني الذي لم يستول أبدا على هذه المدينة فالملك النوميدي إذا يكون قد جعله بعض المتملقين هيلينيا (un Hellène). ولا يسوغ هذا مطلقا أن نستنتج وجود إله كبير أهلي وقع تشخيصه مع هرقل.*

- Plutarque, Sertorius, 9 ;
Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, pp.154-155.

[1]- *Ibid., p.132*.

[2]- *Camps (G.), Massinissa, ou les débuts de l'histoire, Libyca, T. VIII, 1960, pp.279-280.*

ملتح أراد البعض اعتبارها صورة آلهة وخاصة آمون كبير الآلهة الإفريقية.[1] (الشكل 4 ص 41).

يبدو أن مهندسي السكة الأفارقة عندما يريدون تمثيل صورة معبود على عملة، فإنهم يرفقونها برموزه وشعاراته: مثل عملة "يوبا الأول"، حيث يلاحظ في وجه العملة صورة جوبيتر (*Jupiter*)–آمون بقرني كبش. كما تظهر في عملة "بوكوس" صورة الإله الروماني "باخوس" (*Bacchus*) ملوحا بصولجان "تيرسي" [*] (*Thyrse*) وعنقود عنب، إله المنتوجات الفلاحية عامة والكروم خاصة، ويعادل الإله الإغريقي "ديونيسوس" *Dionysos* (الشكل 4 ص 41).

وهناك من يماثله بالإله القديم الإيطالي "ليبر بتر" *Liber Pater* وكان يعبد كإله الخمر وحامي المعاصر.[2] أما عملات المدن فتظهر فيها صور المعبودات الحامية لها.

يتضح مما سبق أن الملك بالنسبة لسكان المغرب القديم، كان قبل كل شيء قائدا حربيا، يتحكم بصفة أو بأخرى ويفرض سيطرته الكاملة على مجموعة من القبائل.

---

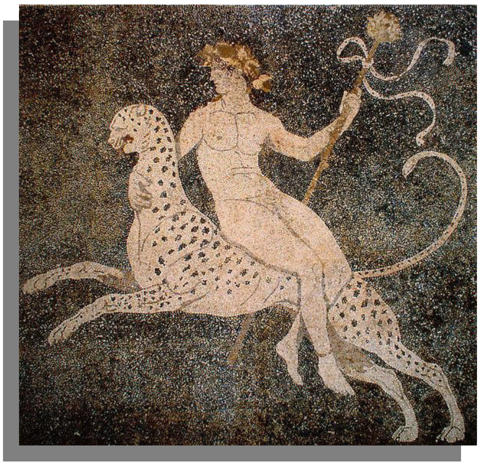
[1]- *Troussel (M.), l'énigme de la tête laurée et barbue à G.et du cheval galopant à gauche, in: R.S.A.C., t. LXIX, 1955-1956, pp. 3-54.*

*- *يظهر صولجان الإله باخوس في أغلب تماثيله متوج بحلية على شكل كوز صنوبر ملفوف بعيدان كرمة.*

[2]- *عينوش حسينة، دراسة تماثيل متحف قالمة، مذكرة ماجستير في علم الآثار، جامعة الجزائر، 2007–2008، ص 118.*



(أ)



(ب)



(ج)



(د)

الشكل 4: المعبودات الإغريقية والرومانية على العملات النوميدية والموريطانية.

أ–مزهرية أتيكية (أثينية) مؤرخة في الفترة 550 –520 ق.م. تظهر "ديونيسوس" في حديث مع "هرمس" *Hermès* رسول الآلهة عند الإغريق وإله الطرق والتجارة والمكر، (متحف ميونيخ الأثري).
ب–فسيفساء تعود إلى القرن الرابع ق.م تظهر "ديونيسوس" جالسا على فهد (متحف بيلا *Pella* الأثري– مقدونيا).
ج–وجه عملة "يوبا الأول" (من متحف سيرتا) تحمل صورة "جوبيتر"(*Jupiter*) آمون بقرني كبش.
د–عملة "بوكوس" 49–33 ق.م. (من متحف سيرتا) حيث تظهر صورة الإله "باخوس" واقفا في يده اليمنى صولجان "تيرسي" ويمسك بثور في يده اليسرى وعنقود عنب على اليمين.

نقلا عن: أ– ب: *https://upload.wikimedia.org* تاريخ الزيارة: 2015/08/22.
ج – د: *Ouvrage collectif, l'Algérie aux temps des royaumes Numides, p.141.* -

علاوة على ذلك فقد أصبح على ما يبدو شخصية مقدسة. وتفسير ذلك، مرده إلى أن الأفارقة يميلون إلى عبادة الإنسان الذي يشهد له بالحكمة والإرادة. على أن هذا الاقتباس يكون قد أخذوه من البطالمة (*les Ptolémées*) ورثة الفراعنة. ولعل "ماسينيسا" – تدعيما لسلطته– قد أضفى عليها طابعا إلهيا مقدسا، والذين خلفوه في الملك من أبنائه وأحفاده يكونون قد حذوا حذوه.

<u>المبحث الثالث –عبادة الأموات:</u> تتضح عبادة الأموات في الطقوس الجنائزية أي كل ما له علاقة بالأموات من حيث طرق الدفن وكيفياته ووضعياته، إلى جانب الأثاث الجنائزي ومكانة الأموات والنظرة إليهم، وكل الأعمال التي يقوم بها الأحياء عن قصد، والتي تدل على أنهم يميزون من خلالها بين الميت وبقية الحيوانات. [1]

وعن طرق الدفن التي اتبعها الليبيون القدماء يقول هيرودوت: **«كان الليبيون الرحل يدفنون موتاهم على نحو ما يفعل الإغريق، باستثناء الناسامون (*Nasamons*) الذين يدفنون موتاهم في وضعية الجلوس، ولذلك فهم يحرصون على أن يكون الشخص جالسا عندما يسلم روحه، ومنعه من أن يموت ممددا على ظهره .»** [2]

نستنتج من نص هيرودوت أن الليبيين الرحل كانوا يضعون الجثمان في اللحد ممدودا من الشرق إلى الغرب أو بالعكس كالإغريق. أما قبائل الناسامون فكانوا يوارون الجثة وهي في وضع الجلوس، ولذلك فإن أصدقاء المحتضر كانوا يساعدونه أثناء الاحتضار على البقاء جالسا حتى يفارق الحياة.

[1]-*Camps (G.),Aux origines de la Berbérie Monuments et rites funéraires protohistoriques, édit. Arts et métiers graphiques, Paris, 1961, p.461.*

[2]-*Herodote, IV, 190.*

ويشير "سيليوس إيطاليكوس" (*) أن الناسامون كانوا أيضا يتخلصون من موتاهم بإلقائهم في البحر، كما يذكر في الإشارة إلى قبائل الغرامنت (*Garamantes*)(**) أنهم يدفنون موتاهم في حفرة رملية قليلة العمق. (1)

وقد عرف الليبيون كذلك دفن الموتى تحت كومة من التراب يسهل معها تمييز القبر. وتجدر الإشارة أن عادة الدفن كانت شائعة بين الليبيين عموما، أما الحرق فلم يرد ذكره إلا في حالة واحدة ذكرها سيليوس إيطاليكوس في معرض وصفه لجنازة الأميرة "أسبيت"(*Asbyte*).

وعثر على نقوش لاتينية في مناطق عديدة من نوميديا تعود إلى الفترة الرومانية، تتضمن تكريسات وإهداءات عديدة إلى بعض الملوك النوميد مثل: الملك "غلوسة" (*Gulussa*)، و"هيمبسال" (*Hiempsal*)، و"يوبا الأول" (*Juba I*)، وإلى "ماسينيسا"، ويوصفون فيها ربما بصفة إله (*Deus*)، تتعلق بأشخاص ماتوا، لكن لا يزال لهم عباد

---

*- **سيليوس إيطاليكوس**، (25-101م)، شاعر ملحمي لاتيني ولد في روما (إيطاليا) أو في مدينة إيطاليكا Italica (إشبيلية القديمة-Sevilla) بإسبانيا، ومنها أخذ اسمه، أصبح قنصلا سنة 68م في عهد الإمبراطور "نيرون"، ثم حاكما على آسيا الصغرى، كان يقدس "شيشرون" Cicéron و"فيرجيل" Virgile، توفي عن عمر يناهز 75 سنة، من أبرز أعماله الشعرية: الحرب البونية الثانية (219-201 ق.م) وهي عبارة عن ملحمة تتكون من 17 نشيدا.*
Dic. Univ. His. Géo., p.1768.

- **الغرامنت Garamantes، قبائل ليبية قد تمثل الأمازيغ الأصليين، كان مجالهم الجغرافي، يضم على ما يبدو منطقة فزان الحالية بغرب ليبيا وعاصمة ملكهم هي مدينة جرمة Germa، تحدثت عنهم العديد من النصوص القديمة منها: هيرودوت وبلينوس الكبير وأورليوس فيكتور والقديس أوغسطين، يدل معنى الغرامنت، حسب كامبس، على سكان المنازل، ذلك أن الأطلال والمدافن والبنايات المتنوعة التي توجد في وادي الأجيال في قلب بلاد الغرامنت تؤيد صحة هذه الفرضية. *Hérodote, IV, 183 ; Pline, H.N., VIII, 142 ; Aurelius Victor, I, 7.*

[1]- *Silius Italicus, les Guerres Puniques, II, trad. par E. F. Corpet et N.A.Dubois, édit. Panckoucke, Paris, 1836-1838.*

بعد موتهم بزمن طويل. كما أن بعض المؤرخين المحدثين أمثال "س. غزال" تحدثوا عن عبادة تقدم إلى الموتى. [*] (أنظر الشكل رقم 5 ص 45)

وأشار بعض الكتاب المحدثين مثل "فوستل دي كولانج" إلى أن سكان المغرب القديم -حفاظا منهم على تلك الصلة التي كانت تربطهم بملوكهم الوثنيين- فإنهم كانوا يعبدونهم ويقدسونهم في حياتهم، وبعد وفاتهم، واعتقادا منهم بحاجة الميت إلى الأكل والشرب، فكان واجبا على الأحياء تلبية تلك الحاجات ومن هنا ربما نشأت عبادة الأموات. [1]

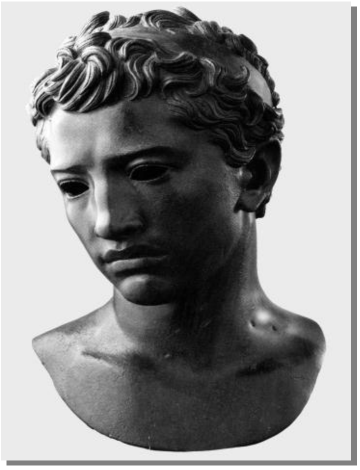
لقد حظي هؤلاء الملوك خاصة الأموات منهم بنوع من التقدير والاحترام من طرف الأحياء، ويتضح ذلك من خلال بعض الممارسات التي ذكرها الكتاب القدامى والمحدثين أو التي نستشفها من النقوش والعمارة الجنائزية، والتي تبرز المكانة التي كان يتمتع بها هؤلاء، فعملية الدفن وما يرتبط بها من طقوس تعتبر تقديرا لهؤلاء الأموات، ونوع من الخضوع لهم والحفاظ على تلك الصلة التي تربطهم بهم.

<u>المبحث الرابع -عبادة قوى الطبيعة وطقوسها</u>: تعتبر عبادة المظاهر الطبيعية ظاهرة عالمية، حيث انتشرت عند مختلف الشعوب منذ فترة ما قبل التاريخ. وسكان المغرب القديم كغيرهم من الشعوب في مراحل تاريخهم البدائي، -وفي مثل البيئة التي عاشوا فيها كصيادين ورعاة ومزارعين -كان من الطبيعي أن يعبدوا ويقدسوا مظاهر الطبيعة المحيطة بهم: كالشمس والقمر والحجارة والجبال والأشجار والسحب والآبار والعواصف

---

*- شيد الضريحان الملكيان وهما الضريح الملكي الموريطاني قرب تيبازة المعروف بقبر الرومية (Tombeau de la chrétienne) وضريح مدغاسن (Medracen) قرب باتنة بشكل يسمح بالاعتقاد أن هناك احتفالات كانت تقام على شرف الملوك الذين دفنوا في هذه الأضرحة.
- Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.131.

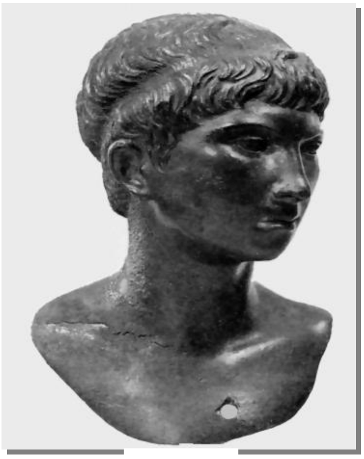
1 – *Fustel de Coulanges, la cité antique, étude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome, 2e éd., Paris, librairie Hachette et Cie, 1866, I, ch. II : Le Culte des morts, p.15.*

(أ)



(ب)



(ج)

الشكل 5: عبادة ملوك نوميديا وموريطانيا:

أ-رأس تمثال للملك "يوبا الثاني" من متحف "وليلي" *Volubilis* (المغرب الأقصى).
ب-رأس تمثال للملك "بطليموس" ملك موريطانيا القيصرية (23م-40م) من متحف اللوفر بباريس (مجموعة *Florian Kleinefenn*). ج-الملك "بطليموس" (مجموعة *Olof Vessberg*) بالسويد.

<u>نقلا عن:</u> *أ: - Christa Landwehr, Op.cit., pp. 97, 107.*

ب-ج: -Ibid., p.90.

وغيرها. وكل هذه الظواهر كانت عندهم منازل للأرواح، فكان من الطبيعي وفي بيئتهم تلك أن يهتموا برصد النجوم. (1)

وقد تعددت آراء المؤرخين حول دوافع الإنسان لتقديس قوى الطبيعة المختلفة في العصور القديمة، ورغم اتساع انتشارها في المغرب القديم إلا أن لها أسباب مشتركة في الديانات البدائية القديمة. وهكذا عبد سكان المغرب القديم آلهة كثيرة، حيث انتشرت عبادتها بين مختلف القبائل والعشائر. وتكون الدول قد ساعدت على نشرها وإعطائها الطابع المحلي.

وجاءت أول إشارة عن انتشار عبادة الشمس والقمر بين الليبيين في القرن الخامس ق.م عند المؤرخ الإغريقي هيرودوت إذ قال: «***وهم لا يقدمون القرابين إلا للشمس والقمر. وكل الليبيين يقدمون لهما القرابين، غير أن القاطنين حول بحيرة تريتونيس – أي قبائل النسامون-(Nasamons) الذين يستقرون حول بحيرة تريتونيس (Tritonis) كانوا يقدمون القرابين لأثينا وتريتون وبوسيدون، وأما الرحل فلم يكونوا يقدمون القرابين إلا لهما.*** » (2)

ويضيف "هيرودوت" قائلا في فقرة أخرى: «***أما قبائل الأطارانت***(*) ***(les Atarantes)*** (خريطة رقم 1 ص 48) ***فكانوا يلعنون الشمس*** (**) ***ذات الحرارة المفرطة ويطلقون عليها كل أصناف النعوت لأنها تتسبب في إيذاء القوم وأرضهم».*** (3)

1- *عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية، القاهرة، 1960، ص.185.*

2- *Herodote, IV, 188.*

*- ***الأطارانت Atarantes*** ، اسم مجموعة بشرية كانت تقطن منطقة تبعد عن الغرامنت بمسيرة عشرة أيام، ويذكر هيرودوت أنهم لا يحملون أسماء شخصية، إذ يطلقون على كل شخص منهم أطرانت. ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ ومن المحتمل أن هؤلاء الأطارانت يرفضون ذكر أسمائهم للأجانب خوفا من استعمالها في مجالات السحر قصد التحكم فيهم.*
- Gsell (S.), Herodote…, p.193.

**- *تلعن قبائل الأطارانت الشمس المحرقة التي كانت تؤذيهم وتلحق الضرر بأرضهم، وهذا ما يؤكد أن الأطارانت كانوا يسكنون منطقة صحراوية شديدة الحرارة في أعماق الصحراء الكبرى، وربما في اتجاه منطقة جبال الهوقار. مصطفى أعشي، المرجع السابق، ص.66.*

3- *Herodote, IV, 184.*

أما بقية الليبيين فكانوا يعبدون الشمس ويقدمون لها الأضاحي بطريقة وصفها هيرودوت قائلا: ***«... كانوا يقومون بقطيع جزء من أذن الحيوان الأضحية كباكورة المحصول ثم يلقونه فوق مسكنهم. وعندما يتم ذلك، يلوون عنق الأضحية، ثم يضحى به بعد ذلك للشمس.»*** (1)

لا شك أن هذه الطقوس تهدف إلى دفع الأرواح الشريرة ونمو القطيع، والإشادة بإله الشمس الذي يبعث الدفء والحياة والحركة في تصور الإنسان المغربي القديم من الارتباط بفصول الزراعة والحصاد في تداولهما ودورها في تخصيب الأرض بأشعتها الحارة، فهي بمثابة المقدس الذي نفخ الحياة في كل شيء في هذا الوجود. (2)

وقد انفرد "هيرودوت" بالإشارة لهذا الموضوع، بينما افترض "س. غزال" وجود عبادة أهلية للكوكبين (الشمس والقمر)، انطلاقا من مداخل الأضرحة الملكية النوميدية والموريطانية. (***)

وحسب "غ. كامبس" فإن الأديب والمؤرخ الروماني "شيشرون" (*Cicéron*) ذكر نصا مهما عن عبادة المغاربة القدماء للشمس في كتابه (*de Republica, IV,4*)، والذي لا يستبعد أن أحدث فيه تغييرا عند صياغته، لكن فحوى النص بقي على حاله، ذلك أن "ماسينيسا" المتشبع بالثقافة البونية أراد استضافة "سيبيون الإميلي" *Scipion Emilien* فقال: ***« ... أتقرب إليك أيتها الشمس العالية جدا، وآلهة السماء الأخرى، بأن يعطي لي قبل أن أغادر هذه الحياة الدنيا، وأرى تحت سقفي في مملكتي كورنيليوس سيبيون.»*** (3)

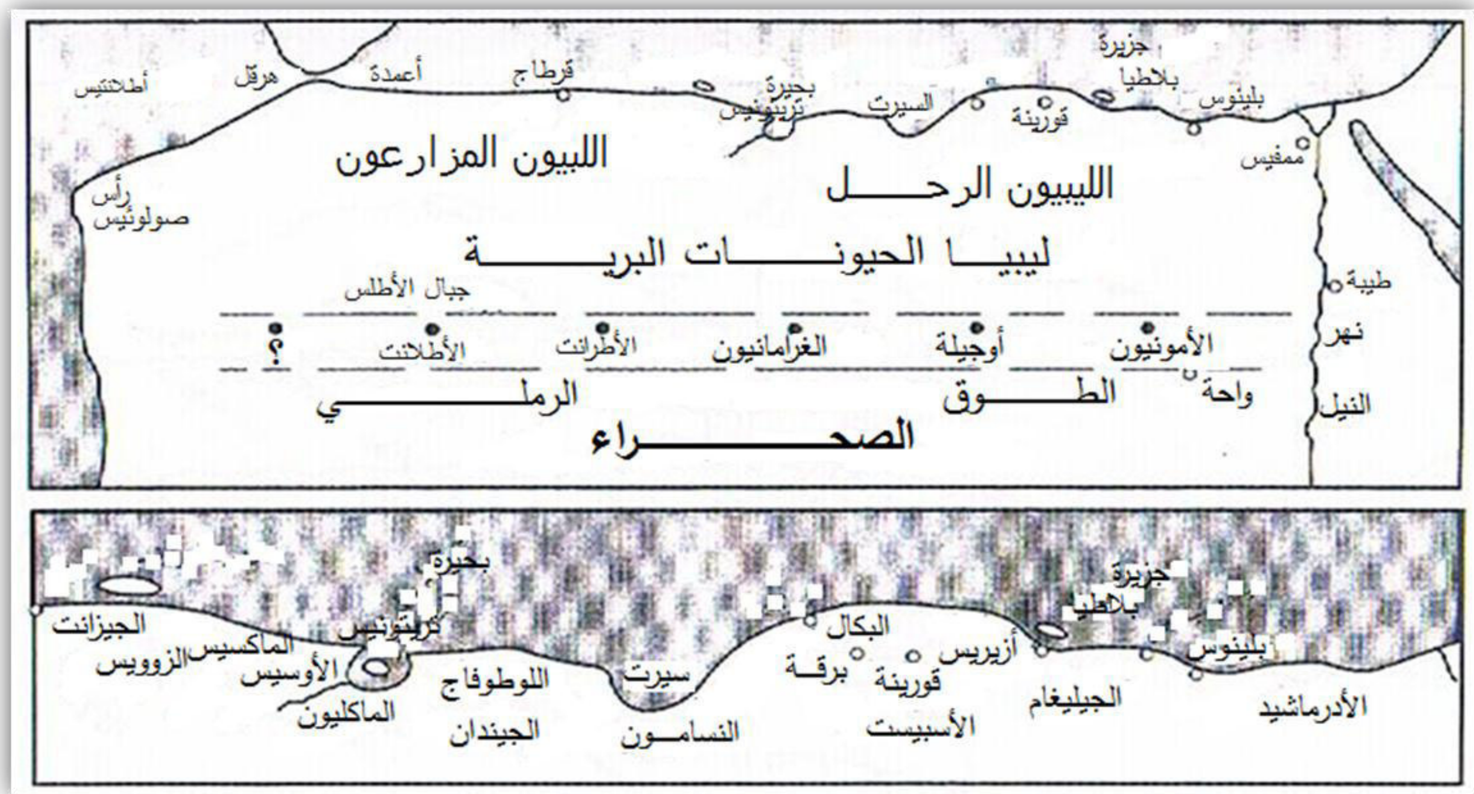
---

[1]- *Herodote, IV, 188.*

[2]– *حسن نعمة، موسوعة الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص24.*

***– *يلاحظ أن بعض الأضرحة الأهلية خاصة مدغاسن قرب باتنة والضريح الملكي الموريطاني في تيبازة كانت مداخلها جهة الشرق، ويحتمل أن ذلك له علاقة بعبادة الشمس. أنظر:* - *Gsell (S.), H.A.A.N., t.VI, p.14.*

[3] - *Camps (G.), Berbères aux marges de l'histoire, éd. des Hespérides, 1980. p.200.*



<u>خريطة رقم 1</u>: لوبة والقبائل اللوبية حسب هيرودوت. (بتصرف الباحث)

<u>نقلا عن</u>: - *Gsell (S.), Hérodote, textes relatifs, p. 265.*

ويحتل القمر مكانة ضئيلة في الطقوس ذات الأصل السحري، والتي لا تزال يحتفل بها حتى اليوم. (1) فقد وردت إشارات في كتابات المؤرخ المسيحي "ترتوليانوس" (*Tertullianus*) في القرن الثالث الميلادي حول عبادة القمر، إلى ثلاثة آلهة قمرية منها فارسوتينا (*Varsutina*) إلهة القمر المورية التي كان يعبدها سكان المغرب القديم الذين لم يترومنوا. (2)

بينما سكتت المصادر التي جاءت بعد "هيرودوت" عن عبادة الشمس والقمر عند المغاربة القدماء، واستمرارها حتى القرن الرابع عشر الميلادي، وأن عدم وجود أدلة أثرية تثبت ما ذهب إليه كل من "ج. ش. بيكار" و"س. غزال" والذي يفهم منها التشكيك في أصليتها يبقى محل تساؤل؟

إن الشعور الديني عند المغاربة القدماء شعور قوي، ولكن ملكة الابتكار عندهم تتحرك في حدود ضيقة. فقد استعاروا الآلهة الكبرى التي عبدوها بإخلاص.

ومما يدعم فرضية التأثير الأجنبي أن "هيرودوت" عندما كتب في القرن الخامس ق.م، كانت المنطقة مفتوحة على التأثيرات الأجنبية سواء أكانت مصرية، فينيقية أو يونانية، فقد كانت للشمس عند تلك الأمم مكانة متميزة.

وهكذا أخذ المغاربة عن مصر عبادة آمون (*Amon*)أو أمون (*Ammon*)،(3) وأما كون "آمون" في شكله الأولي إله كبش، قد انتقل من ليبيا إلى طيبة (*) (*Thèbes*) خلال فترة ما قبل التاريخ، والقول بأن أمون (*Ammon*) كان في اللغة الليبية هو اسم الكبش، فهو قول لا يمكن قبوله إلا بكثير من التحفظ والحيطة.

---

1 - *Basset (H.), « Les Influences Puniques chez les Berbères », Rev. Afri., LXII, 1921, (pp. 340-374), p.367.*

2 - *Decret (F.), et Fantar (M.H.), Op. cit., p.261.*

3- *Basset (H.), Quelques notes sur l'Ammon libyque, Mélanges de R. Basset, I, p.12.*

*- *يقصد بها طيبة مصر، وهي مدينة الأقصر حاليا. مصطفى أعشي، المرجع السابق، ص.60.*

وإذا كان الليبيون قد عبدوا هذا الحيوان، فالمصريون عبدوه أيضا من غير حاجة إلى الاقتداء بالليبيين. والأمر المؤكد هو أن الكبش الإله البدائي قد اتخذ في طيبة مظهرا خاصا، بحيث أنه مثل إنسانا، واحتفظ من الكبش سوى بالرأس. وصار هو الإله الشمسي "آمون–رع" (*Amon-Ré*).

ويذكر "هيرودوت" [1] أنه بهذا الشكل المتشعب سيطر على واحة سيوة [*] (*Siwa*) التي عرفت بواحة آمون في القرن السادس ق.م على أقل تقدير.

وبهذه الواحة قدسه الإغريق في مستعمرتهم قرينة (*Cyrénaïque*) "برقة حاليا"، واتخذوه إلها مثل إلههم الإغريقي زيوس [**].(*Zeus*). وقد انتشرت عبادته أيضا عند الليبيين. [2] فكانوا مثل الإغريق وأمم أخرى كانت تأتي لاستشارة العراف الشهير الذي كان يظهر في معبد الواحة. [3]

ويبدو أن هذا الإله الذي وجدوه بالواحة، كانوا على استعداد لعبادته لأنه كان ذا قرابة بكباشهم المقدسة. وهكذا حل آمون محل تلك الكباش في جهات عديدة. [4] وبما أنه كان هو الشمس فإن الأهالي قد عبدوا فيه إلها من الطبيعة. [5]

---

[1]- *Herodote, II, 42; IV, 181; Gsell (S.), Herodote…, pp. 186-7.*

*_ **سيوة Siwa**، واحة في الجنوب المصري، سكنها الأمونيون (Ammoniens) ولذلك سميت واحة أمونيوم (Amonium)، وهم مجموعة بشرية أمازيغية تنسب إلى معبودهم آمون، وقد أقامت الجالية الإغريقية بها معبودهم " زيوس آمون" الذي زاره الاسكندر الأكبر عندما جاء إلى مصر سنة 332 ق.م، تعرضت الواحة لغزو " قمبيز" الذي وجه إليها جيشا يضم 50 ألف مقاتل ليحرقوا معبدها ويسحقوا سكانها، إلا أن جيشه هلك قبل أن يصل إلى الواحة. هيرودوت، هيرودوت يتحدث عن مصر، تر. محمد صقر خفاجة، دار القلم، القاهرة، 1966، ص ص93، 111.*

*** – **زيوس (Zeus)**، هو إله السماء والعواصف والصواعق عند الإغريق، يعتبر في الأساطير اليونانية ابنا للإله كرونوس (Kronos) وأخا للإله بوسيدون (Poséidon) إله البحر، يقابله عند الرومان الإله جوبيتر (Jupiter)، ومقره في الأولمب (Olymp).* *- Leglay (M.) Saturne Africain, Histoire…, pp. 204-205.*

[2] *- Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, pp.142-143.*

[3] *-Hérodote, II, 18; II, 32.*

[4] *-Basset (R.), Revue de l'histoire des Religions, 1910, I, p.302.*

[5] *- Macrobe, Saturnales, trad. M. Nisard, Paris, Firmin Didot, 1875, I, 21, 19.*

وتشير النصوص القديمة إلى أن آمون صار إلها شعبيا في المنطقة الممتدة من السرت الصغير إلى السرت الكبير، بحيث أن أماكن كثيرة كانت تحمل اسمه واحتفظت به، فآمون لم يتشخص فيها – على غرار ما حدث في غيرها–في إله بوني ولا في إله لاتيني. وذكر "غزال" [1] أن الإله آمون في بداية الفترة المسيحية، هو الذي ذكرته إحدى النقوش باللغة البونية، التي عثر عليها في لبتيس ماغنا [*](*Leptis Magna*) .

وقد ذكر "كوريبوس" أن أهالي مقاطعة طرابلس (*Tripolitaine*) والجنوب التونسي لا يزالون أوفياء لآمون [**] حتى أواخر القرن السادس الميلادي. [2] وبما أنه تقدم كثيرا في اتجاه الغرب، فقد كان له –على ما يبدو– بعض من يعبدونه من السكان من ذوي الدم المختلط الليبي–البوني في بعض المدن بالساحل الجزائري منها "قيصرية" *Caesarea* "شرشال" حاليا. [***]

يبدو أن النوميد اتخذوا من جهتهم الإله البوني بعل حمون (*Baal Hammon*) إلها لهم. لكن أعتقد أنهم ما كانوا ليتقبلوه بهذا القدر من الرضا لو لم يشخصوه مع آمون (*Ammon*).

---

[1]- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.143.*

* – ***لبتيس ماغنا Leptis Magna*** ، هي مدينة لبدة في ليبيا حاليا، المستوطنة الفينيقية القديمة، تقع على بعد 18 كلم شمال غرب كينيبس *Cynips*. ظهرت على نقود كتبت باللغة البونية الجديدة بأسماء: *Lepcis* و*Leptis*، ذكرها بعض الكتاب الإغريق باسم "المدينة الجديدة" أما اللاتين ومنهم تيت ليف فذكرها باسم "*Leptis*"، يبدو أنها تعرضت للتخريب على يد دوريوس" *Dorieus* " الفارسي قبل أن تستولي عليها قرطاجة. ومع ذلك بقيت وفية –حتى بعد تدمير قرطاجة–اللغة والمؤسسات والحضارة الفينيقية. – *Tite Live, XXXIV, 62,3 ; Gsell (S.), H.A.A.N., t .II, pp.121-122 ; Duruy (V.), Histoire des Romains, t. IV, Akademische Druck.U.Verlagsanstalt, Graz, Austria, 1970, p.88.*

**ـ يوجد معبد آمون في واحة أوجيلة (*Augilla*) جنوب شرق خليج السرت الكبير حيث كان يقدس حتى عهد جوستنيان، إلا إذا أسند كوريبوس خطأ عبادة آمون إلى واحة أوجيلة بدلا من واحة آمون أي واحة سيوة في الجنوب المصري. - *Corripus, Johannide, II, 110.*

[2] - *Corripus, Johannide, III, 81.*

***ـ عثر في شرشال على تكريس باللغة البونية الجديدة مهدى إلى بعل آمون. - *Gsell (S.), H.A.A.N, t. IV, p.286.*

وإذا كان بعل حمون – بعد تانيت بني بعل (*Tanit Péné Baal*) – المعبود الأكبر في قرطاجة. فلأن الفينيقيين الذين جاؤوا به من آسيا، قد شخصوه مع آمون، ولأنهم رأوا فيه أحسن معبود يحميهم في إفريقيا. [1]

كانت ليبيا–حسب "ديودور الصقلي"–الأرض التي عبد فيها آمون. [2] وما قام به مدونوا الأساطير الإغريق (*Mythographes*) هو أنهم أضفوا الخرافة على هذه السيطرة التي أكدتها عبادة هذا الإله.

يتضح مما سبق أن الفينيقيين قد أدخلوا إلى أهالي المغرب القديم عبادة آلهة كبرى بعد المصريين، تلك الآلهة التي كانت تتمثل في قوى الطبيعة.

ويذكر "سالوست" [3] أن العبادات البونية والفينيقية، استمرت في المدن الساحلية التي انتقلت من السيطرة القرطاجية إلى حكم الملوك النوميد، مع بعض التحريفات التي تعود إلى تأثير الأهالي في ذلك.

وتشهد لهذا الاستمرار الوثائق التي سبق ذكرها، كالنذور(*Ex–voto*) التي تحمل بعض الرموز وبعض النقوش والكتابات البونية، [*] والنصب (*Bétyle*)، وتمثال لمعبود في شرشال. [**]

ومثلت هيئة الآلهة الكبرى على أنصاب هيبو–ريجيوس (*Hippo-Regius*) "عنابة حاليا"، وسان لو (*Saint–Leu*) "بطيوة حاليا " قرب وهران. أما النقود التي

---

[1] - *Silius Italicus, III, 6.*

[2]- *Diodore de Sicile, III, 68.*

[3]- *Salluste, Bell. Jugh., LXXVIII, 4.*

*– *تظهر على بعض هذه النقوش (في هيبون "عنابة"- وسكيكدة- وتاقصبت- ودلس- وشرشال- وسان لو"بطيوة") سحب نحتت بشكل بارز، لكنها يمكن أن تكون سابقة للفترة الرومانية.* *- Gsell (S.), H.A.A.N., T. II, pp.151, 159.*

**– *وصف س. غزال هذا المعبود على أنه صنم من حجر خشن يمثل إنسان عار أمرد، تسريحة شعره تشبه تاج واسع، في مقدمة رأسه ريشة، ذو بطن ثقيل أثر على ساقين قصيرتان ومعوجتان.* *- Ibid., t. IV, p. 345, 376.*

تحمل صورا لبعل (*Baal*)، وعشتارت (*Ashtart*) وملقارت (*Melqart*) وآخرون، حيث بقيت أسماؤهم محل تساؤل، فقد ظهرت في شكل معبودات إغريقية، وإن كانت في الحقيقة آلهة فينيقية. (1)

وقد تمكنت الديانة البونية أن تتغلغل، عن طريق المدن الساحلية إلى المناطق الداخلية في المغرب القديم. وربما كانت قد انتشرت في الغرب التونسي بين رعايا قرطاجة الذين ضمهم "ماسينيسا" إلى أملاكه. ومن هنا كان باستطاعة هذه الديانة أن تنتشر شيئا فشيئا في اتجاه الغرب. لكن التجار الوافدين من الساحل إلى المدن الكبرى بنوميديا، كان عليهم أن يكونوا عوامل نشر لعبادات كانوا يمارسونها بأنفسهم في المدن التي وجدوا فيها.

كان الملوك النوميد يقدمون على أداء فروض طاعتهم لتلك العبادات. لذلك كان "ماسينيسا" قد رفض الاحتفاظ ببعض الأشياء الثمينة التي كان أحد قادته البحارة قد استولى عليها في مالطا (*Malte*) من معبد للإلهة جونون (*Junon*) الفينيقية، فأمر بإرجاعها معتذرا عن هذا التصرف الذي اعتبره كفرا وإلحادا. (2)

وتتضمن النقود التي أصدرها "ماسينيسا" ومن خلفوه في الملك صورا له ولهم، وبعض الصور المستعارة من الديانة القرطاجية مثل: رمز تانيت (*Tanit*) (الشكل 14 ص 134)، وشارة الطبابة (صولجان) *Caducée*(*) والكوكب المشع، والهلال المقلوب على الكوكب.

1- *Ibid., t. IV, p. 145.*

2 - *Cicéron, Verrines, Act., II, IV, 46, 103; Valère Maxime, I, 1, 2.*

*- *هو صولجان تلتف عليه حيتان وفي أعلاه جناحان ويعد شعارا لمهنة الطب. فرانسوا دوكريه، قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس، دمشق، 1994، ص. 114.*

ووجدت بعد ذلك نقودا لـ "بوغود" (*Bogud*)، و"يوبا الثاني"، و"بطليموس" ملوك موريطانيا، يظهر عليها قرص الشمس بالأجنحة والهلال، أو يظهر عليها كوكب منفرد داخل الهلال. [1]

وقد عثر في سيرتا (*Cirta*) أهم المدن النوميدية التي كان الملوك يفضلون الإقامة بها، فلعلها كانت المدينة التي يوجد بها أكثر عباد الآلهة القرطاجية، عثر فيها على كثير من الأنصاب التي ترجع إلى القرنين الثاني والأول ق. م، وتحمل إهداءات باللغة البونية لبعل حمون وتانيت بني بعل. [2] هذين المعبودين اللذين تذكرهما آلاف النذور التي عثر عليها على أرض قرطاجة. [3] ومع أن الذين قدموا هذه الإهداءات يحملون على وجه التقريب جميعا أسماء فينيقية، فقد كان من بينهم–على ما يبدو– فينيقيون أقل عددا من الأهالي الذين اندمجوا في الحضارة الفينيقية. ويبدو أن كثيرا منهم كانوا يحملون لقبا أميريا، وهو ما تميز به النوميديون. [4]

كانت "تانيت بني بعل" (*Tanit Péné Baal*) ملكة مدينة قرطاجة مفضلة ولها السبق على "بعل حمون" (*Baal Hamon*)، بينما كانت في سيرتا في الصف الثاني بعده، وكان لها اللقب التشريفي "ربات" (*Rabbat*) أي الربة بمعنى السيدة (*la Maitresse*).

في حين أن "بعل حمون" "السيد" (*Seigneur*) وصف في إحدى النقوش على أنه "إله المعبد" (*Dieu du sanctuaire*)، ويذكر دائما الأول، وغالبا ما يبتهل إليه وحده.[*] ولعل هذه الأولوية جاءته من أن اسمه الفينيقي يخفي تحته أنه آمون، الإله الأكبر عند الأهالي، والذي لا يتخلى على أحد ممن يعبدونه.

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 271.*

2 -*Thépenier (E.), « La stèle punique de Bellevue (Constantine) », R.S.A.C., XLVI, 1912, pp. 231-236.*

3- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, pp. 241,417.*

4 - *Gsell (S.), H.A.A.N., t.V., p.134.*

– وصف في بعض النقوش بأنه «الإله المقدس»(Dieu Saint) . - Chabot (L.), Punica, pp. 183-184.

ويظهر "بعل أدير" *Baal Addir* أي "السيد القدير" (*le maitre puissant*) على أحد النصب، (*) ولا ندري هل يلتبس "ببعل حمون" أو أنه إله آخر مرتبط به.

كان "بعل حمون" و"تانيت" بني بعل يذكران خلال الفترة الرومانية بأسماء لاتينية على ألسنة من يتكلمون اللاتينية، وكان "بعل حمون" يمثل الشمس (1)، و"تانيت" تمثل القمر. (2) ويحتمل أن الأمر كان على هذا النحو في رأي القرطاجيين.

وذكر "هيرودوت" أن الليبيين الرحل كانوا يقدمون القرابين للشمس والقمر، فهم عباد آمون–الشمس (3)، لذلك كانوا يبتهلون –دون شك تحت هذين الاسمين البونيين–إلى سيد الشمس وسيدة القمر.

بل ويمكن الافتراض أن عشتارت (*Ashtart*) الفينيقية، التي عرفت بتانيت بني بعل في قرطاجة، قد صارت في إفريقيا إلهة قمرية عن طريق الاقتباس من عقائد الليبيين. (4)

ويظهر رأس زيوس آمون (*Zeus Ammon*) بقرون الكبش على بعض نقود "ماسينيسا" أو نقود من خلفوه في الحكم من أبنائه وأحفاده، وعلى نقود "يوبا الأول" (**) على وجه الخصوص. ومن خلال هذا النموذج الإغريقي يتضح لنا أنه إله يعبده الأهالي، وقد نشك بأنه آمون الليبي (*Ammon Libyque*) أو أنه بعل حمون. ويبدو

---

*– ظهر **بعل أدير** أو أبادير (Abaddir) في عدة نصب تعود الى الفترة الرومانية عثر عليها في تونس وقسنطينة وقالمة.
- Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.148.

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 285.*

2- *Ibid., p. 263.*

3- *Herodote, IV, 188.*

4- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.147.*

**-وظهر رأس زيوس أيضا على نقد يحمل اسم" أغسطس" (Auguste) ضرب في موريطانيا. *-Sillius Italicus, IX, 298; Gsell (S.), H.A.A.N., T. IV, pp.42-43.*

أن الإلهين الليبيين قد رسما بنفس الطريقة، أي ظهرا على النقود بقرني الكبش. (أنظر الشكل 4 ص 41).

تعد أنصاب سيرتا (*Cirta*) –التي يمكن التأريخ لها بالتقريب بأواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن الثاني ق.م– شواهد مادية تدل على دخول آلهة قرطاجية إلى نوميديا في عهد الحكم الملكي أي عهد "ماسينيسا" (203– 148 ق.م.).

لذلك يمكن –حسب شكل الكتابة– أن ننسبها إلى نفس فترة النقش البوني الذي عثر عليه في ألثيبوروس (*Althiburos*)، إنه إهداء مبتور إلى بعل، والاسم غير متبوع بكلمة حمون (*Hammon*)، بل وصف أنه "ملك آدم" (*Malek Adam*). وهذا التعبير نجده على بعض الأنصاب في سيرتا، ويعني " ملك الشعب" (*Roi du peuple*). [1]

وعثر في تونس ومقاطعة قسنطينة على إهداءات كتبت باللغة البونية الجديدة [*] قدمت إلى بعل حمون أو بعل فحسب، وكلها تعود إلى الفترة الرومانية.[**] [2]

وترجع نقوش أخرى كتبت بالبونية الجديدة أو اللاتينية لنفس الفترة أي القرن الثالث الميلادي، موجهة إلى الآلهة الفينيقية: هتار مسكار (*Hatar Miskar*) وبعل أدير (*Baal Addir*) (بلدير، بليدير–*Baldir, Baliddir*) وأبادير (*Abaddir*)، كما يرجع لنفس الفترة عدد كبير من الاهداءات اللاتينية إلى ساتورنوس[***] (*Saturnus*)

---

[1] - *Gsell (S.), H.A.A.N., t. III, p.66; t. IV, p.240; t.V, p.134.*

*- ***البونية الجديدة***، هي الكتابة التي حلت محل الكتابة البونية القديمة ابتداء من سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م، وتعد البونية الجديدة آخر مرحلة من مراحل الانحطاط الذي وصلت إليه الكتابة الفينيقية في بلاد المغرب القديم. محمد الصغير غانم، نصوص بونية– ليبية مختارة من تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2012، ص 44.*

- *المقصود بهذه الفترة، عهد أسرة **الأنطونيين " dynastie des Antonins " (96–192م) وأسرة **السيفيريين**" dynastie des Sévères" (193–235م).*

[2] - *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p.278.*

***- *هو الإله **ساتورن** (Saturne)، إله روماني قديم، كان يعرف عند الإغريق بالإله " كرونوس"، وهو إله الزراعة والخصب والعواصف. وتبدو عبادته في المغرب القديم استنساخا للإله بعل حمون من حيث الوظيفة. محمد الصغير غانم، بعض من ملامح الفكر الديني الوثني في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص 110.*

وكايلستيس (*Caelestis*) (*) وإلى آلهة أخرى، حيث تخفي خلف اسمها الروماني أصولها الفينيقية، وتبقى فيها العبادات وفية للشعائر البونية، فالإمبراطورية الرومانية كانت قد شجعت هذه الحركة الدينية. (1)

غير أنها حركة بدأت مبكرا، وتلك حقيقة قد تكون واضحة ومنطقية، إذا كان النوميديون أهل القرنين الأخيرين قبل الميلاد، قد خلفوا من الكتابات والنقوش بقدر ما خلفه النوميديون المعاصرون للأنطونيين(**) والسيفريين.(***)

ومهما قيل عن أصل عبادة الشمس والقمر عند المغاربة القدماء، ورغم أن هناك أدلة أثرية ترجح الأصل المحلي لعبادة هذين الكوكبين بالمغرب القديم، فطريقة تقديم قبائل النسامون (*Nasamons*) القرابين للشمس حسب ما ذكره هيرودوت المؤرخ الإغريقي في القرن الخامس ق.م، (2) تشير إلى طقوس محلية صرفة.

---

*\- كانت **كايليستيس** إلهة محلية عبدها الليبيون والقرطاجيون، وأصبحت من أهم الإلهات القرطاجية التي استمرت عبادتها خلال الفترة الرومانية. وإذا لم تذكر باسم فينوس- كايليستيس (Venus-Caelestis) فقد وجدت العديد من الإهداءات الإفريقية موجهة إلى الإلهة "جونون–كايليستيس" (Iuno- Caelestis)، وقد ذكرت باسم "هارو" (Haro) أي السيدة، فهي سيدة الكواكب والخصب، كما ذكرت باسم "العذراء"(Virgo – Caelestis) خلال الفترة الرومانية حيث تماثل تانيت فعرفت بإلهة الأمومة.* -Decret (F.), et Fantar (M.), Op.cit., p 273 ; Lepelley (C.), *Déclin ou stabilité de l'agriculture*, Ant. Afr., I, 1967, pp.135-141.

1-Gsell (S.), H.A.A.N., T. IV, p.496.

***- **الأنطونيون:** "Dynastie des Antonins"، أسرة رومانية حكمت خلال الفترة (96–192م)، ومن أبرز أباطرتها: نيرفا 96 -98م، تراجانوس 98–117م، هادريانوس 117–138م، أنطونينوس 138–161م، ماركوس أوريليوس 161–180م، وكومودوس 180–192م.* -Chris Scarre, The Penguin Historical Atlas of the ancient Rome, Penguin Books, Middlesex, England, 1995, pp.66-68.

****- **السيفيريون:**" Dynastie des Sévères " أسرة رومانية حكمت خلال الفترة " (193–235م)، ومن أباطرتها: سبتيموس سيفيروس 193–211م، كراكلا 211–217م، ماكرينوس 217–218م، إلاغابيل 218–222م، ألكسندر سفيروس 222–235م.* - Ibid., pp.89-93.

2-Herodote, IV, 188.

وما ذكره ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي عن تمسك القبائل البربرية بتلك العبادة، رغم انتشار الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام بالمنطقة، إذ قال: «**وعند الفتح العربي كان من البربر من يعبد الشمس والقمر.** » [1]

نستنتج مما سبق أن تلك العبادة الوثنية يمكن أن تكون دليلا على شعبيتها وتجذرها وعراقتها بين سكان المغرب القديم. إلا أننا لا نستبعد فرضية التأثير الأجنبي، ذلك أن هيرودوت عندما كتب عن القبائل الليبية في القرن الخامس ق.م، كانت منطقة المغرب القديم مفتوحة على التأثيرات الأجنبية سواء كانت مصرية، فينيقية أو إغريقية.

وفي نفس الوقت لا نستبعد فرضية الأصل المحلي، ذلك أن المغاربة القدماء مارسوا هذه العبادة منذ أقدم العصور من خلال ملاحظتهم مسيرة كوكب الشمس اليومية، شأنهم في ذلك شأن بقية الشعوب في العصور القديمة.

ونجهل حتى الآن ما إذا كان المغاربة القدماء قد عبدوا الهواء والرياح، وإن كانت هذه العبادة قد انتشرت تحت مؤثرات خارجية.

وما يدل على ذلك، العثور على نقش باللغة اللاتينية في منطقة " ناراقارا" [*] (*Naraggara*) قرب سيدي يوسف [**] حيث ذكر الهواء باسم "جونون" (*Junon*). [2]

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، مج 6، ص 185

- **ناراقارا Naraggara، منطقة تقع على الحدود الجزائرية التونسية بين نهر المجردة وواد ملاق، ذكرها بوليبيوس باسم Narcara، لازالت آثارها قرب قرية سيدي يوسف، كانت مدينة صغيرة ثم ازدهرت خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد، تبعد عن قرطاجة بحوالي 220 كلم، ذكرت في مسلك أنطونينوس Itinéraire d'Antoninus على أنها منطقة تقع على الطريق الرابط بين هيبون وقرطاج، تبعد عن" تاغاست" (سوق أهراس) بحوالي 25 ميلا وعن "سيكا فينيريا" Sica Veneria (الكاف حاليا) بحوالي 32 ميلا. - Polybius, XXX 29, 9.*

***- **سيدي يوسف**، هي القرية التاريخية المعروفة بساقية سيدي يوسف، تقع على الحدود الجزائرية التونسية، وتبعد عن زاما بحوالي 100كلم وعن سيدي عمر الجديدي بحوالي 140 كلم، هذه الأخيرة التي تبعد عن قرطاجة مسافة ثمانية (8) أيام، وتربطها طريق بسوق أهراس. - Gsell (S.), A.A.A., f.19, (El-Kef) n° 73.*

[2]- C.I.L.، VIII, 4635.

وهناك نقش آخر عثر عليه في "عين متيرشو"(*) (*Ain Mtirchou*)، يبدو أن له علاقة بنفس العبادة السالفة الذكر. (1)

وقد ذكر "فيرميكوس ماترنوس" (2) (*Firmicus Maternus*) أن الآشوريين وقسم من سكان شمال إفريقيا، قد أعطوا نوع من الأفضلية والإمارة للهواء على بقية العناصر الأخرى.

ويضيف بأنهم قدسوا الهواء تحت اسم "جونون" أو " فينوس العذراء" (*Venus–Vierge*). ومن الطبيعي أن الأمر يتعلق هنا بعبادة بونية بحتة.

<u>المبحث الخامس –العبادة الطوطمية (**) وطقوسها:</u> كان المغاربة القدماء منذ العصور الحجرية يعلقون أشياء كانت عبارة عن تمائم. لكنها لم تكن حليات وزينة، وقد استمرت هذه العادة إلى أيامنا هذه.

ويعتقد هؤلاء أن هذه التمائم تضمن لهم الحماية لأنها ترمز إلى الإله الحامي (*Génie*) أو من أحد الآلهة الذي يضع في التميمة جزءا صغيرا من قدرته بطرق مختلفة. ولكن كانت في المعتقدات البدائية، عبارة عن قوة غامضة تتركز فيها، أو كانت عبارة عن تيار مغناطيسي أو تأثير سحري متناثر عبر العالم. (3)

---

*- ***عين متيرشو***، هي منطقة تقع في إقليم خنشلة، وجدت بها عدة نقوش تحمل آثارا للدوناتيين منها عبارة (*Deo Laudes*) حسب ما ذكره بول ميناج ومونصو. *- Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, p. 341; Monceaux (P.), <u>Rev. Philol</u>., 1909, p.112.*

1- C.I.L.، VIII, 17768.

2- Firmicus Maternus (J.), De l'erreur des religions Profanes, III.

- ***الطوطم Totem*، (حيوان في الأعم الأغلب وقد يكون نباتا) يرتبط باسم العشيرة عند الشعوب البدائية ويعتبر لحمه محرما على أفرادها الذين يعتقدون أنهم انحدروا منه ويحملون بذلك اسمه. ويحرم نظام الطوطمية الصلات الجنسية بين أفراد الطوطم الواحد لأنهم إخوة وأخوات لانحدارهم من طوطم واحد. جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب البدائية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، <u>مجلة عالم المعرفة</u>، عدد173، 1993، ص 380.

3-Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p.105.

وقد يكون هذا التيار الكامن في بعض الأحياء هو الذي يكسبهم قدرة خاصة، والتي يمكن أن نخاف منها كثيرا ونأمل فيها كثيرا. ويمكن أن نحاول التأثير فيهم بوسائل الضغط والإكراه التي يوفرها السحر. على أنه كان من الأفضل محاولة إخضاع والتأثير في هذه الكائنات المزودة بالذكاء والعزم. وهكذا فالشعور بالخضوع أوجد الدين. (1)

عبد أسلاف المغاربة القدماء بعض الحيوانات (*Zoolâtrie*)، فقد لوحظ عند الطوارق بالصحراء وجود بقايا من الطوطمية (*Totémisme*)، التي هي الاعتقاد بوجود علاقة نسب بين مجموعة بشرية ومجموعة من نوع حيواني أو نباتي أحيانا، وتعيش المجموعتان معا بنفس المكان. لكن من المقبول أن يكون قد حدث في هذا اقتباس عن الزنوج في السودان والتأثر بهم. (2)

وتجدر الإشارة هنا أن الطوطمية يمكن أن ترتبط بها بعض الممارسات الطقوسية التي ذكر بعض الكتاب القدامى وجودها عند بعض الشعوب في شمال إفريقيا نفسها. وهو افتراض قدمه بعض المؤرخين بشيء من التحفظ، في حين رفضه آخرون مثل الأستاذ فون جنيب (*Van Gennep*).

ومع ذلك فالنصوص المقدمة لا تمكننا من الوصول إلى نتيجة واضحة. ثم إن الرعاية والعناية التي لا يزال بعض سكان شمال إفريقيا –حتى اليوم– يولونها لبعض الحيوانات والوساوس التي تمنعهم من ذبحها ومن أكل لحومها، (*) هي قطعا ليست

1-Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, R.H.R., I, 1910, pp.291-352 ; Bates (O.), the Eastern Libyans, (London, 1914), pp.172-209.

2 - Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, pp. 246-247.

**– أشار بعض المؤرخين الكلاسيكيين إلى أن بعض الشعوب خاصة في آسيا الشرقية تأنف شرب الحليب، والأمر كذلك بالنسبة لشعوب شمال إفريقيا. وقد ذكر "سينسيوس" Synésius (وهو أسقف بطليمة في برقة في بداية القرن 5م) في فقرة من " رسائله" أن سكان قرينة (Cyrénaïque) كانوا حقيقة خلال الفترة المسيحية يتحفظون من حلب الأبقار لكن ليس لدينا أدلة تؤكد هذا الطقس في بقية بلاد المغرب القديم.*

- Périple de Scylax, 112 ; Homère, Odyssée, IV, 88-89 ; Hérodote, IV, 186 ; Salluste, Jug., LXXXIX, 7; Strabon, XVII, 3, 8, 15; Pomponius Méla, I, 41, Synésius, Lettres, trad. par H. Duron, librairie Hachette, Paris, 1878, 148.

براهين في صالح هذا الافتراض. ولكن هناك حيوانات، كانت منذ عهود بعيدة، قد اختيرت من بين نوع بعينه، وأنها تبعا لعلامات خاصة، قد كانت تقدس من طرف السكان، ومن هذه الحيوانات:

<u>1-عبادة الكبش:</u> أظهرت الرسوم الصخرية التي يعود تاريخها إلى الألف الثانية قبل الميلاد كبشا تحيط بعنقه قلادة، (*) وعلى رأسه شكل ضخم مستدير يشبه الكرة أو القرص، (**) يثبتها على ما يبدو رباط يمر تحت حنكه.[1] (أنظر الشكل 10 ص 114)

وعثر على رسوم مماثلة لتلك التي وجدت في الجنوب الوهراني، في عدة مناطق من الجنوب الجزائري، (***) وعلى البعض الآخر شرق قسنطينة. (****) وهذا ما يؤكد سعة انتشار عبادة الكبش في المغرب القديم. أما أن تكون هذه العبادة قد أقيمت أمام هذه الرسوم التي وجدت على الصخور فهذا ما يدعو إلى الشك والريبة. ولكن لا تفسير لهذه الصور إلا بأن عبادة كانت تقام للحيوانات الحقيقية التي تمثلها تلك الصور.

---

*- *يرى بعض المؤرخين أن هذه الرسوم قد تعود إلى فترة أبعد من ذلك بكثير، فمثلا يرى فون جنيب (Van Gennep) أنها تعود إلى الفترة ما بين 10.000 و12.000 سنة، ومن بين هذه الرسوم صورة الحصان الذي ظهر على الأرجح في شمال إفريقيا قبل أن يظهر في مصر، أي قبل الألف الثانية قبل الميلاد.*

- Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, pp. 231-233 ; Van Gennep, l'Etat actuel du problème totémique, pp. 21-25.

**- *أحد رسوم الجنوب الوهراني التي تمثل كبشي بوعلام (Bou Alem)، رسمت على جسمه مجموعة من الخطوط تشبه الشعر أكثر منها إلى الصوف، وقصبة الأنف محدبة، ويظهر الكبش الثاني بأنف محدب وذيل وأرجل طويلة.*

- Flamand (G.B.M.), les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), Gravures et inscriptions rupestres du nord Africain, Paris, 1921, pp.65-66, 357-365.

[1] *- Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p. 252.*

*** - *منها قصر زكار جنوب شرق الجلفة، والخروبة قرب آفلو بالأغواط.* *- Ibid., pp.314-318 ; Id., dans : <u>Anthropologie</u>, XXV, 1914, p.444.*

****- *مثل خنقة الحجار وكهف تسنغة.* *- Bosco (J.), et Solignac (M.), notice sur les vestiges Préhistoriques de la commune du Khroubs, <u>R.S.A.C.</u>, XLV, 1911, p.342.*

وتضمن تلك الصور امتيازا للحيوانات، كونها موجودة أثناء حياتها في أماكن متعددة، وتضمن لها البقاء بعد موتها، وأن قبائل كثيرة كان لها كبشها أو كباشها المقدسة.(*)

وكان سكان المناطق الجبلية بالجنوب المغربي لا يزالون يعبدون الكبش حتى القرن العاشر الميلادي. وهذا ما أشار إليه "أبو عبيد الله البكري" إلى أن عبادة الكبش في بلاد المغرب استمرت حتى فترة العصور الوسطى. [1]

ويمكن أن نتساءل هنا: هل اتخذها الرعاة، لكونها ذات علاقة متينة بتربية الماشية، أو يقصد بها ضمان نماء قطعان الماشية؟ يمكن أن نفترض ذلك على الأقل.

حاول بعض المؤرخين المحدثين (**) تفسير الأشكال التي لوحظت على الرسوم التي تمثل الكباش. فقد لوحظ أن الشكل الدائري الذي يغطي رأس أحد الكباش في رسوم "بوعلام" [2] (*Bou Alem*) له حاشيتان طويلتان على الجانبين تتسعان عند الأعلى، وتنتصبان متقابلتين، ويعتقد أنه شعار مصري يمثل قرص الشمس وعلى جانبيه ثعبانان بعنق منتفخ. [3]

---

* - *يقول القديس أثاناز (St. Athanase) أن الليبيين يعتبرون الكبش وكأنه إله.(Contra gentes, 24) ويشير كذلك إلى أن آمون قد يكون اسما ليبيا يعني الكبش أو الخروف، لكننا لم نعثر على هذا المصطلح في اللهجات البربرية، ولو فرضنا أن ذلك صحيحا فإن المصطلح قد يكون مستوردا من مصر. - Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p. 252.*

1 - *El-Bekri, Description de l'Afrique Septentrionale, trad. De Slane, Alger, 1913, p.305.*

** - *منهم: ستيفان غزال (S. Gsell)، فلامان (G.B.M. Flamand)، و فليكس غوتيي (E.F.Gautier).*

2 - *Flamand (G.B.M), Op. cit., pl. IX.*

3 - *Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, pp.250-253.*

يبدو أن هذا الشعار كان آمون (*Ammon*) إله طيبة (*Thèbes*) قد حمله – مثل آلهة أخرى بوادي النيل–بعدما اندمج في إله هيليوبوليس (*Héliopolis*)، وأصبح إلها شمسيا هو آمون–رع (*Ammon–Ré*)، وهو أحد مظاهر الشمس. (1)

غير أن آمون طيبة في مبدأ الأمر إلها كبشا، بحيث كانوا يمثلونه، برأس كبش في العصور التاريخية في طيبة، وكذلك في واحة سيوة (*Siwa*) جنوب شرق قرينة (*Cyrénaïque*) "برقة حاليا في ليبيا"، التي كان بها معبد شهير لإله طيبة. (2)

ويمكن أن نستنتج أن عبادة المصريين لآمون، الذي هو في آن واحد كبش وشمس كانت قد انتشرت في بلاد المغرب القديم منذ الألف الثانية قبل الميلاد.

ولاحظ البعض الآخر أن الحاشيتين اللتين على الرسم في "بوعلام" يظهر بهما خط يقسمهما إلى قسمين في الاتجاه الطولي، وذلك يتوافق مع ريشتين لا مع ثعبانين.

كما أن رسما آخر في قعدة الخروبة (3) (*Gàda de Kharrouba*) قرب آفلو بالأغواط، به غطاء رأس الكبش المقدس، وعلى جوانبه أربع حواشي موضوعة في تقابل، زوجان منها في الأعلى، وزوجان في الأسفل، وتبدو حقيقة أنها ريشتان.

نستنتج من خلال استنساخ "فلامان" لأحد كباش فج زناقة (*Col de Zenaga*) (4) أن الكرة محاطة بحواش تنتشر حولها، وبعض هذه الحواشي – وهي أربع–لها نفس الشكل الذي نجده في الرسوم –السالفة الذكر–، بينما بعضها الآخر – وعددها سبعة– هي مجرد خطوط متمددة وفيها انحناء خفيف. ويحتمل أن الفنان أراد رسم حزمة من

1- *شباحي مسعود، الديانة القديمة في كل من مصر وبلاد الرافدين، مذكرة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة قسنطينة، 1999–2000م، ص 41.*

2- *Gsell (S.), Herodote…, p.186.*

3 - *Flamand (G.B.M) , Op. cit., pl. III et IV.*

4 - *Ibid., pl. LI.*

الريش. وفي رسم آخر بنفس المنطقة، توجد ثلاث مجموعات من الخطوط المستقيمة أو المنحنية انحناء خفيفا تنتشر حول الكرة. (1)

وبهذا فالافتراض يلغى، ذلك أن الثعابين المزعومة هي التي كان من شأنها أن ترينا الكرة صورة للشمس. فنحن إذن أمام شعار ديني، ولكن نجهل طبيعته الحقيقية ومغزاه؟ إنه شيء يشبه اليقطينة (*Calebasse*) وترتبط فيه ريشات منتصبة، فليس في هذا أي شيء مصري، فكباش النقوش الصخرية الجزائرية لا يمكن وصفها بأنها آمون- رع (*Ammon-Ré*). إنها حيوانات مقدسة، يبقى أن بعضها متميز عن بعض، مع أن الإهداءات المؤداة لا تكتسي أشكالا متماثلة عند مجموعات بشرية منتشرة في الجزائر من قسنطينة إلى غاية واحة الفقيق (*Figuig*) في الجنوب المغربي قرب الحدود الجزائرية.

ويمكننا أن نتساءل: هل أن آمون طيبة الذي تلقاه قسم من الليبيين لم يحدث فيما بعد تغييرا في هذه العبادة الحيوانية (*Zoolâtrie*)؟ غير أننا الآن لم يعد لدينا أي مسوغ للاعتقاد بأنها كانت في الأصل مشتركة مع إحدى العبادات الشمسية.

يذكر "س. غزال" أنه يكاد يكون لكل قبيلة ليبية كبشها المقدس الخاص بها، وأن النظر إليه لم يكن في متناول الجميع، بل كان له كهنة يحيطونه بأساطير تضفي عليه هالة من القداسة وتجعله مهابا من قبل الجميع. (2)

ويشير القديس "أثناسيوس" (*St.Athnasius*) الذي عاش في القرن الرابع الميلادي بأن الليبيين كانوا يسمون الكبش الذي يعبدونه "آمون" (أ. م. ن). (3)

---

[1] - *Gautier (E.F.), Sahara Algérien, fig.11.*

[2] - *Gsell (S.), H.A.A.N, t. I, p.247.*

[3] - *Ibid., pp. 247-248; Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire…, Op. cit., p.425.*

هل يمكن أن نفترض من خلال صورة الكبش الذي يقف خلف الشخص في الرسوم الصخرية، أنه عبارة عن قربان سيقدم للشمس التي نعتها المؤرخ الإغريقي هيرودوت بأنها المعبود الحقيقي لليبيين وهو يقصد بذلك سكان شمال القارة الإفريقية؟

2-<u>عبادة الثور:</u> تعود بدايات عبادة الثور إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث يبدو أنه كان مقدسا من طرف المغاربة القدماء كما تبينه رسوم الثيران التي وجدت بشكلين: الأول رسوم بسيطة بدون لواحق، وهي التي عثر عليها في تازروك (*Tazerouk*) وسيلات (*Silet*) بالهوقار (*Hoggar*) بأقصى الجنوب الجزائري. [1]

أما الشكل الثاني فهو عبارة عن رسوم ذات القرص المجسد، وهي التي تمثلها الرسوم والنقوش الصخرية في "فزان" (*Fezzan*)، و"تيبستي" (*Tibesti*) بليبيا، و"الطاسيلي ناجر" (*Tassili N'Ajjer*). [2]

ويمكننا أن نتساءل: ألم يكن هذا الثور هو الحيوان الذي يظهر في نقش "بوعلام" الصخري بالأغواط، وعلى رأسه قرص شمس يحتمل أنهما ريشتان أو شعاع شمسي كالذي ينبعث من الدائرة التي تعلو رأسه؟ [3]

لقد شكلت نوعية النقش الرديئة صعوبات لقراءته، والذي لا يمكن اعتباره في حالة ثبوته دليلا على قدم عبادة الثور ببلاد المغرب القديم. [4]

1 - *Leglay (M.), Ibid., p.423.*

2- *Leglay (M.), Ibid., pp.423- 424.*

3- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.128.*

4- *Decret (F.), et Fantar (M.H.), Op.cit, p.255.*

ويذكر محمد الصغير غانم أن عبادة الثور بشمال إفريقيا تتجسد بوجود حيوانات أسطورية في موريطانيا تشبه الثيران، والتي تبدو في قوتها وشكلها ونوعية حياتها أنها تقترب من الفيلة. (1)

وأشار الأديب البيزنطي كوريبوس (*Corippus*) في القرن السادس للميلاد، إلى أن القبائل البربرية التي كانت تسكن في منطقة السرتين (*les deux Syrtes*) ومنها قبيلة الأغواطن (لواتة) كانت تعبد الثور وتعتبره إلها لها (*dieu-Taureau*)، (2) وكانوا يسمونه "قرزيل" (*Gurzil*) وهو نتاج زواج الإله آمون (*Ammon*) من بقرة (*Génisse*). (3) ومما يزيد من أهمية هذه الرواية أن هذه القبائل، كانت ترهب أعداءها بأن تضع الثور في مقدمة المعركة، والذي كان بالنسبة لهم قائدا للحرب. (4) ونسجل هنا – مثل الكبش–أن المرجع والسند هو آمون.

وهكذا كان الثور كذلك إلى جانب الكبش من الحيوانات التي حظيت بتقديس بعض القبائل بشمال إفريقيا، إلا أن عبادة الثور كانت أقل انتشارا من عبادة الكبش. (5)

3 –<u>عبادة القردة</u>: عبد الليبيون حيوانات أخرى كانت محل تقديس حيث كانوا ينظرون إليها على أنها آلهة، ومن هذه الحيوانات القردة. كانت هذه العبادة منتشرة في مناطق كثيرة من بلاد المغرب القديم، فقد ذكر "ديودور الصقلي" (عاش في القرن الأول الميلادي) أن عبادة القردة كانت منتشرة في المنطقة الممتدة إلى الغرب من قرطاجة. (6)

1– *محمد الصغير، غانم، الملامح الفكرية للعصر الحجري الحديث، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 8، جامعة منتوري، قسنطينة، 1997، ص.122.*

2- *Corippus, Joh., V, 22-26.*

3 - *Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire…, Op.cit., p.423*

4 - *Corippus, Joh., 11, 110,111.*

5 - *Picard (G. Ch.), les religions de l'Afrique antique, Op.cit., p.11.*

6 - *Diodore de Sicile, XX, 58.*

تعددت مظاهر تقديس القردة، فمنهم من يختار لأبنائه أسماء مأخوذة من أسماء القردة، وهناك مدن تحمل أسماء قردة باللغة اللاتينية، ومنهم من كان يأويها في مساكنهم ويقدم لها الأطعمة، وقد يعاقب من قتل قردا بالموت. [1]

ورغم تعدد مظاهر تقديس القردة، إلا أن هيرودوت يذكر أن قبائل "الجيزانت" (*) (*Les Gyzantes*) سكان ليبيا الغربية (أي تونس حاليا) كانوا يأكلون القردة المتوفرة بكثرة في جبالهم. [2]

كما قدس المغاربة القدماء الأسد الذي وجدت صوره في الرسوم والنقوش الصخرية بالأطلس الصحراوي والشرق القسنطيني. وزينت العديد من الأضرحة الملكية بصور الأسد مثل الضريح الملكي الموريطاني بتيبازة، وضريح دوقة (*Dougga*) بتونس الحالية. [3]

4 -<u>عبادة الثعابين</u>: حظيت الثعابين بالعناية والعبادة من طرف المغاربة القدماء منذ أقدم العصور، ويشير س. غزال في هذا الصدد أن قبائل "البسيل"(**) (*Psylles*) عقدوا

---

1 - *Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.245.*

*- ***الجيزانت Gyzantes***، يبدو أن مواطن قبائل الجيزانت الليبية، تقع إلى الجنوب أكثر مما ذكره هيرودوت حسب دراسة "أوريك بيتس"، فقد كانوا يسكنون المنطقة الشرقية للساحل التونسي الحالي. - Bates (O.), Op.cit., p.54.*

2- *Herodote, IV, 194; Gsell (S.), Herodote…, pp.100-101.*

3 - *Camps (G.), Berbères aux marges de l'histoire…, p.206.*

- ***البسيل Psylles*، وهي قبائل ليبية كانت تستقر في منطقة السرتين (Les deux Syrtes)، ويمكننا أن نتساءل: ما إذا كان اسم البسيل له علاقة باسم الثعابين الذين تحالفوا معها، كما يمكن أن يكون هذا الاسم محاكاة صوتية (Onomatopée) لحفيف الثعابين والزواحف. - Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p.246.*

تحالفا خاصا مع نوع من الأفاعي ذات القرون تعرف باسم "السيراست" (*)(*Cérastes*) وهي عدوة لبقية القبائل الليبية، فقبائل البسيل كانت غير حساسة للدغاتها. (1)

ويذكر "بلين القديم" أن من عادات هذه القبائل أن يعرضوا الطفل بعد ولادته مباشرة لأشرس الأفاعي، فإذا تجنبته الأفعى، كان ذلك إثباتا لصحة نسبه إلى والده من ناحية وإثباتا لعدم خيانة أمه من ناحية أخرى. وقدم وصفا لأسلوب هذه القبائل بأن يعمد أحدهم إلى طلاء صندوق بالشمع ثم يضع بداخله الثعابين ثم يلقى بالطفل داخل الصندوق، فإذا لم تؤذه الثعابين فهو ابنه الحقيقي. (2)

ويمكن أن نتساءل هنا: عن إمكانية وجود علاقة بين اسم "البسيل" وهذا النوع من الأفاعي مثلما هو الشأن بالنسبة للقردة؟

نستنتج مما سبق أن هذه المعتقدات الوثنية الراسخة في تقاليد سكان المغرب القديم، التي تسمح للقبائل الليبية أن تعقد تحالفا مع الأفاعي، وأنها لا تتأثر بلدغاتها، واستعمالها في إثبات صحة نسب الطفل إلى والديه. اعتقد أن تلك الممارسات إما أنها مجرد صدفة، أو هي ضرب من السحر والشعوذة.

---

*- **السيراست Cérastes**، نوع من الأفاعي تعرف بـ " المقرنة"، أو "ذات القرون" وهي أفعى صغيرة لها نتوءات في أعلى رأسها، اعتقد القدامى أنها قرون، وهي من الزواحف الصحراوية السامة وربما هي نفسها أفعى "هامودیت" Hammodyte، التي هي أيضا من الزواحف السامة التي يصعب تمييزها عن الرمال بسبب لونهما المتشابه.*

- Silius Italicus, III, 300-309.

1-Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, pp.246-274.

2-Pline l'Ancien, XI, 25..

وكيفما كان الأمر، يبدو أن سكان المغرب القديم عرفوا كيف يتأقلمون مع هذه الظروف، وربما كانوا يسردون هذه الروايات للأجانب بهدف ترهيبهم أو إبعادهم، ولعل ذلك ما ذهب إليه الشاعر الروماني "سيليوس إيطاليكوس" حين تحدث عن شعب يخلص الثعابين من سمومها، ويعرف كيف ينوم أفعى الماء الخبيثة بمجرد لمسها.

تدل هذه الممارسات والطقوس على أن السكان أبدعوا طرقا للتعامل مع هذه الحيوانات. ولا يدخل هذا – في اعتقادي– ضمن العجائب، إذا علمنا أن أتباع الطريقة العيساوية في وقتنا الحاضر، يملكون قدرة فائقة على ترويض الثعابين المختلفة وتنويمها والتحكم في سلوكها. مما يعني استمرارية هذه الممارسة في شمال إفريقيا.

الفصل الثاني

المعبودات والآلهة المحلية في المغرب القديم

المبحث الأول –الاعتقاد بالجن

المبحث الثاني –عبادة المياه والجبال والصخور

المبحث الثالث–عبادة الكهوف والمغارات

المبحث الرابع–الآلهة المحلية وطقوس العبادة

لا تزال معرفة المؤرخين بالآلهة المحلية في المغرب القديم محدودة. (*) فهي ليس لها صور، وعبادها كانوا غير قادرين أو أنهم لم يكونوا يريدون أن يتركوا أدلة مكتوبة توضح تعبدهم لها. أما اللاتينيون، فمنذ أن وطئت أقدامهم الأرض الإفريقية، إنما عرف معظمهم أن المغاربة القدماء كانوا يعبدون آلهة تختلف عن آلهتهم وبطقوس خاصة، على أن بعض الرومان الذين مروا بإفريقيا أو سكنوها، رأوا من الأفضل عدم إهمال الآلهة التي تزاول بها سلطتها. لذلك تركوا لنا بعض التكريسات والإهداءات (*Dédicaces*) اللاتينية تمجيدا وتخليدا لهم، وقام بعض الأفارقة المترومنين بالمثل.

من هذا المنطلق أعالج في هذا الفصل بعض المعبودات والآلهة المحلية والاعتقاد بالجن في المغرب القديم، كعبادة المياه والجبال والصخور والكهوف والمغارات، إضافة إلى بعض الآلهة المورية وآلهة الجيتوليين التي تمكن الرومان من رومنتها.

<u>المبحث الأول-الاعتقاد بالجن:</u> كان الاعتقاد بالجن منتشرا في بلاد المغرب القديم. والجن أرواح كثيرة لا يحصى عددها، فهي مجهولة ولاجسمية حبيسة في غلاف بالغ الدقة، لا تراها الأعين البشرية. تسكن باطن الأرض، وبالمناطق الجبلية على وجه الخصوص. ولكنها تفضل مغادرتها بالليل، عبر الممرات التي تعرض لها بالمغارات ومنابع المياه والأشجار. [1]

وهي تسير على غير هدى، وتقيم لزمن طويل في أجسام جامدة أو حية، وعلى الخصوص في أبدان الحيوانات. ولكونها أشد قوة وأكثر علما من الإنسان، فإنها تستطيع مساعدة الناس وتعليمهم العلوم النافعة والأدوية الشافية، وتكشف لهم المستقبل، وتهب الخصب للنساء، والثراء للرجال، وتجلب الرفاهية للبيوت التي تسكنها، والتي تعامل فيه

---

*- *جمع توتان (Toutain) تقريبا جميع النصوص النقوشية اللاتينية التي تتعلق بالآلهة المحلية الوثنية في كتابه:*
- Toutain (J.), les cultes païens dans l'Empire Romain, 1er Partie, edition Bibliothèque de l'école des hautes études et sciences religieuses, Paris, 1920, III, p.37.

[1] *- Basset (H.), Le culte des grottes au Maroc, Alger, 1920, p.87.*

معاملة حسنة. (*) لكن غالبا ما يحلو لها أن تسيء بشتى الوسائل المتوفرة لها، فمثلا: تسبب الأمراض بأن تسكن أحيانا بجماعات في أبدان المرضى.

ولإبعاد الجن تستعمل التمائم، كما تستعمل المعلومات السحرية ضدها، وكذلك بالمحاولات لاستلانة جانبها، ولتسكين شرها بالهدايا والذبائح. وتكون مخاطبة الجن على وجه الخصوص عند أبواب مساكنها بباطن الأرض، فإلى هذه الأبواب تعاد الجن التي يراد التخلص منها، والاستحمام في مياه نبع أو قضاء ليلة في مغارة، وهي وسائل تتيح للمريض إعادة الأرواح المؤلمة إلى مقرها.

وإذا كانت هذه المعتقدات الشعبية ليست ممن يعبر عنها بالنقوش والرسوم الصخرية، فإن الكتاب القدامى جهلوا وجودها أو استهانوا بها. ومع ذلك يمكن أن نتساءل عن بعض الممارسات التي كانت تقع في جهات مختلفة، في بعض المغارات وعند بعض منابع المياه لتجعل الناس على اتصال بجمهرة الأرواح الخفية. ألم تكن هذه الممارسات سابقة على العبادة التي نعرف أنها كانت توجه إلى آلهة حامية "مستجنات" (*Génies*) أي إلى آلهة لها شخصيتها المتميزة، ولها في الغالب اسم خاص أيضا؟

فقد طلب مجمع ديني إفريقي انعقد في عهد القديس أوغسطين(**) من الأباطرة أن يقضوا على عبادة الأوثان في كل مكان، حتى بالغابات والأشجار. والملاحظ هنا أن

---

*\- يمكن للجن الخير المتسامح أن تتجسد في ثعبان ويسكن منزلا حيث يسمى هنا «سيد المكان»، هذا المعتقد وجد عند اللاتين كما وجد عند البربر كبقية الشعوب ويحتمل أن تكون أصوله رومانية. - *Gsell (St.), H.A.A.N., t. VI, p.133.*

***- **أوغسطين**، Aurelius Augustinus، 354-430م، ولد في تاغاست Thagaste "سوق أهراس حاليا" في أسرة متوسطة الحال، كانت أمه " مونيكا" Monique مسيحية وأبوه "باتريك" Patrice وثنيا، درس في تاغاست ثم في مداوروش Madauros ثم انتقل إلى قرطاجة لإتمام تعليمه العالي فاعتنق المانوية وعاد إلى تاغاست لنشر هذا المذهب. سافر إلى روما واستقر في ميلانو حيث أصبح أستاذا للبلاغة. تأثر بالقديس أمبرواز St.Ambroise فاعتنق المسيحية وتم تعميده في 24 أفريل سنة 387م وهو في الثلاثين من عمره. بعد وفاة أمه عاد إلى تاغاست وعاش حياة الرهبنة، أصبح كاهنا ومستشارا لأوريليوس Aurelius أسقف قرطاجة وبعد خمس سنوات أصبح أسقفا لهيبون Hippone، وظل في منصبه مدة خمس وثلاثين سنة. Augustin (St.), les Confessions, trad. par Joseph Trabucco, Paris, G.F. Flammarion, 1964, pp.7-11, 116,118 ; Biéchy (A.), =*

هذه الأشجار – أو أكثرها على الأقل– كانت وسائل مفضية إلى حيث تقيم الأرواح في باطن الأرض. (1)

وأشار "بلين القديم" إلى أساطير ذكرها كتاب قدامى عن الأطلس (*) حيث قال: **«...لا ترى به أي ساكن بالنهار، وكل شيء به صامت صمت الصحراء الرهيب، وتستولي خشية دينية على الذين يقتربون منه...أما بالليل، فالأطلس يتألق بألف وهج، ويمتلئ بمرح الأجيبان (**) (*Egipans*) والساتير (*Satires*)، ويدوي بأصوات الناي والطبول الصنوج..»** (2)

يعطي هذا النص وصفا لظهور الجن الصاخب التي تسكن جبال الأطلس، ولعل هذا صدى محرف لحكايات رواها الأهالي.

يبدو أن هذه الأشياء لم تكن في الأطلس، الجبل الذي يوجد في موريطانيا، حسب ما رواه "بومبونيوس ميلا" (3) (*Pomponius Méla*)، بل بمنطقة تقع على الساحل الجنوبي للقارة الإفريقية. فالكاتب الذي استقى منه "بلين القديم" و"بومبونيوس ميلا" إنما استعاد في ذاكرته "رحلة حنون" (*Hannon*). (4)

=*l'Afrique au IVe siècle, lmp. Barbou Frères, Limoges, 1875, pp 7-15 ; Gustave Bardy, Saint-Augustin, l'homme et l'œuvre, 4°édit., Desclée de Brouwer & Cie, Paris, 1940, pp.1-15 ; Boissier (G.), la fin du paganisme, t. I, Hachette, Paris, 1913, pp.292-294.*

عقون محمد العربي، من أعلام المغرب القديم القديس أوغسطين (ثاغست 354-هيبون 430م)، مجلة الحوار الفكري، عدد03، 2002، ص ص 120-123 .

1-*Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p.133.*

- وجد إهداء باسم Montibus Numidis في جبال البرانس "بين فرنسا وإسبانيا" (C. I. L., XIII, 3.) موجه لجبال الأطلس على أنها مقدسة، لكن يبدو أن الإهداء ليس له أي علاقة بالجن الذين يسكنون جبال نوميديا.

- Maxime de Tyr, Dissertations, VIII, 7.

- رب الغابات له قرون وقوادم العنز. -Yahya Chehabi, Vocabulaire des termes archéologiques (Français-Arabe), lmp.Taraki, Damas, 1967, p.8.

2-*Pline l'Ancien, V, 7.*

3-*Pomponius Mela, 95.*

4-*Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, pp. 496-497.*

وأشار "بومبونيوس ميلا" أنه كانت توجد صخرة في قورينة (*Cyrénaïque*) يجب ألا يمسها أحد، وإلا ستثور رياح الجنوب وتهب في زوبعة تهيج دوامات الرمال. (1)

هل يكون هذا – كما افترضه البعض–أن الجن هو الذي يهيجها؟ والحقيقة أنه من الصعب تأكيد تلك الفرضية في غياب المصادر والوثائق التاريخية الشافية لدى الباحث.

ومن بين هذه المجموعات الغامضة من الجن فإن بعضها قد برز مع الزمن، وأصبحت لها سمة واضحة ومقر ثابت. فأحيانا هي الأغوال (*Ogres*) والسعالي(*Ogresses*)(*)، أي الكائنات المرعبة التي نسج عنها المغاربة القدماء عدة أساطير، والتي كان يعرفها أسلافهم.

وأحيانا أخرى هي قوات خيرة حيث أن مجموعة بشرية قد تحس بالحاجة إلى أن يكون بجانبهم وعلى أرضهم حام أو عدة حماة يعرفونهم، والذين استطاعوا الاقتراب منهم دون عناء، فنصبوا واحدا من هذه الكائنات (الحامية) المقدسة حيثما اعتاد الناس الاتصال بالجن، سواء في منابع الماء أو في الكهوف والمغارات، أو في الأشجار وفي الجبال. وبذلك أصبح لهذا الموقع سيدا وأصبح له روحا، فانتشرت عبادة الآلهة المحلية.

<u>المبحث الثاني–عبادة المياه والجبال والصخور:</u>

1–عبادة المياه: كانت منابع المياه عند المغاربة القدماء موضوع عبادة خاصة، نظرا لأهمية المياه بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان. وازدادت أهميتها خاصة في شمال

---

[1]-*Pline l'Ancien, II, 115 ; Pomponius Mela, I, 29.*

* - *حول **السعلاء** (Ogresse) لامية (Lamia) التي تسكن كهفا في منطقة السرتين (les deux syrtes)، وامتزاج الأساطير الإغريقية بالأساطير الإفريقية. أنظر:* - *Diodore de Sicile, XX, 41, 3-6.*

إفريقيا، حيث يتميز مناخها بالجفاف وندرة المياه خاصة في فصل الصيف، مما أعطاها مكانة مقدسة منذ أقدم العصور.

لذلك عبر الإنسان المغربي القديم عن حاجته إلى الماء باستدرار المطر بطرق مختلفة، وقدم الكثير من الابتهالات والتضرع إلى "جن المياه". إن دور الآبار المقدسة حاليا في بعض مناطق شمال إفريقيا، لدليل واضح على اهتمام ديني قديم، مما دفع الأفارقة عبر مختلف العصور نحو "عبادة استدرار المطر". [1]

فقد ذكرت عدة نقوش عبادة المياه من طرف المغاربة القدماء، ومن المحتمل أن تكون تحت تأثيرات رومانية، وذكرتها بصيغة "الجن" (*Genius*)، وقد عثر على إهداء في السيق (*Sig*) موجه إلى جن النهر(*Genio Fluminis*) . [2] وفي منبع بومرزوق قرب سيلا القديمة، عثر على نقش يذكر جن لامصاقا "وادي الرمال بقسنطينة" (*Génie de l'Amsaga*) [3] وإهداء إلى جن المنبع (*Genio Fontis*) موجه إلى جوبيتر (*Jupiter*) بمنبع" القائد" بالقرب من باتنة. [4]

وقد تمكن الرومان من رومنة بعض المعبودات المحلية، من ذلك أن "ج. ش. بيكار" عثر في قلعة مسعد (*Castellum Dimidi*) [*] على دمية تشخص "بوغنجة"

1- Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire…, Op.cit., p.421.

2- C.I.L., VIII, 9749.

3- C.I.L., VIII, 5884.

4- C.I.L., VIII, 4291.

*- ***كاستيلوم ديميدي***، حصن روماني شيد سنة 198م في عهد "سبتيموس سفيروس"، وكانت ترابط به حامية تقدر بثلاثمائة (300) رجل بقيادة "فلافيوس سوبروس" Flavius Superus ، وهو موقع متقدم من خط الليمس لمراقبة الرحل والتحكم في الطريق الرابط بين جنوبي موريطانيا و نوميديا شمالي الصحراء، وأخلي المعسكر نهائيا سنة 228م بعد أن تم حل الفيلق الأوغسطي الثالث.*

- Picard (G.Ch.), Castellum Dimmidi, éd. De Bocard, Paris, 1975, pp. 28-36.

وأسطورة استدرار المطر ببئر يوجد في أسفله بناء خاص بالتعبد (*Praetorium*) لجيش المعسكر الروماني، كما يوجد به محراب يغطي البئر العتيقة. (1)

ويدل ضيق المدخل وعزلة البئر في عمق الأرض على الاعتقاد بأنه كان يستخدم لممارسة عبادات طقوسية ذات علاقة بالمياه.

كما عثر على تكريسات لآلهة المياه تدعى " نيمي" (*les Nymhées*) بزغوان (*Zaghouan*) وعين طبرنق (*Ain Teberunok*) في تونس. (2) ويبدو أنها أقيمت حول منابع المياه التي كان السكان يقدسونها.

ونجد الظاهرة نفسها في تيمقاد، فقد عثر لويس ليشي (*) (*L. Leschi*) – أثناء التنقيبات التي قام بها سنة 1947م في الحصن البيزنطي الذي يبعد بحوالي ثلاثمائة (300) متر جنوب المدينة الرومانية– على حمامات بيزنطية وثلاثة معابد شيدت على النمط الروماني.

والملاحظ أن معبد الوسط أكبر من المعبدين الآخرين، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب. كما تم العثور على تمثال لذكر يمثل رأس ضخم من الرخام يحتمل أن يكون لـ "جوبيتر" (*Jupiter*) أو "اسكولاب" (*Esculape*)، وجزء من بقايا النصب يمثل الإله "سيرابيس" (*Sérapis*) والذي يمثل آلهة المياه.

---

1 -*Picard (G.Ch.), Castellum Dimmidi, p.36.*

2 -*Decret (F.), et Fantar (M.H.), Op.cit., p. 247.*

*- **لويس ليشي**، (1893–1954)، ولد في باستيا (Bastia) في 2 ديسمبر 1893م، من أسرة أصولها من جزيرة كورسيكا. أستاذ بكلية الآداب، ومدير آثار الجزائر، أسهم بكتاباته في المجلة الإفريقية مدة 22 سنة. كان يتابع دروس س. غزال و ج. كاركوبينو، هذه الدروس سمحت له أن يكون مؤرخا وأثريا وعالم نقوش. عين أستاذا بثانوية الجزائر العاصمة ثم كلف بإدارة الآثار الإفريقية إلى أن وافته المنية في سنة 1954.* -*Despois (J.), Louis Leschi, imprimerie la Typo-Litho, Alger, 1954, pp.27-31.*

ووجدت عدة نقوش في المعبد الرئيس، أحد هذه النقوش أعاد البيزنطيون توظيفه في الحمامات، وهو عبارة عن إهداء إلى إله المنبع يدعى (*Aqua Septimiana*) أي العين الأصلية، وورد النقش [1] على الشكل الآتي:

(SA) LUIS AUGUSTIS AQUA (SE) PTIMIANA FELIX.

يتضح من النقش أنه يعود إلى عهد السيفيريين (*Septimiana*)، ويشير إلى المنبع الذي أحيط بكثير من التمجيد، وأعطاه الرومان طابعا مقدسا.

2-<u>عبادة الجبال والصخور</u>: إلى جانب المياه، كانت الجبال والكهوف العبادة الطبيعية الأولى في المغرب القديم. [2] ويعود تقديس الجبال والكهوف من طرف المغاربة القدماء، لأنها كانت – حسب اعتقادهم– تمثل مساكن الآلهة. [3]

ويذكر "هيرودوت":« **أن الليبيين** [*] **في زمانه كانوا ينعتون جبال الأطلس**[**] **(*Atlas*) بـ "عمود السماء" (*la colonne du ciel*)، لأنها كانت ذات شكل دقيق ودائرية من جميع الجهات. وأنها شديدة الارتفاع، لدرجة أنه يقال من الصعوبة رؤية قممها. لأن السحب كانت تغطيها دائما خلال فصل الصيف أو فصل الشتاء.**» [4]

---

[1]- *Leschi (M.L.), « Découvertes récentes à Timgad » in : <u>C.R.A.I.</u>, vol. 91, n°1, 1947, pp. 87-99.*

[2]– *حارش، محمد الهادي، التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص 148.*

[3]-*Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire…, Op. cit., p.420.*

*– *والمقصود بهم هنا تلك المجموعة البشرية التي أطلق عليها هيرودوت اسم " الأطلنطيين أو الأطلسيين" Atlantes نسبة لجبال أطلس، كانت تقطن منطقة تبعد عن الغرامنت بمسيرة عشرة أيام.* - *Gsell (S.), Hérodote..., p. 193.*

**– *تنسب هذه الجبال إلى شخص أسطوري يدعى "أطلس" Atlas، كان يحمل السماء أو كان يحرس العمود أو الأعمدة التي تحمل السماء. هذا الأطلس الأسطوري أعطى اسمه للبحر الخارجي "أطلانتيس" Atlantis في زمن أسطوري كذلك، وكل هذا له علاقة بجبل قريب من المحيط، كما ذكر غزال.* - *Ibid., p.109.*

[4]- *Hérodote, IV, 184.*

ويشير "بلين القديم": «**أن جبال الأطلس ترتفع وسط رمال الصحراء نحو السماء، غاباتها غنية بالثمار من كل نوع، التي تنمو تلقائيا، والتي تستطيع إشباع كل الأذواق، والمنابع تتدفق منها من كل جانب، فخلال النهار لا ترى فيها أي ساكن، يسودها هدوء الصحاري الذي يبعث على الشك، وتنتاب خشية دينية أولئك الذين يقتربون منه، خاصة قمته التي تتجاوز السحب والتي يبدو أنها مجاورة لقرص القمر.**» [1]

ويؤكد ماكسيم الصوري "من صور اللبنانية" (*Maxime de Tyr*) من جهته هذه المعلومات: «**إن الليبيين الغربيين الذين سكنوا قطعة أرض ضيقة محددة على طول الساحل، والتي يغطيها المحيط بالأمواج والتيارات البحرية الوافرة، يرون أن جبال الأطلس بالنسبة لهم هي معبد وإله في ذات الوقت.**» [2]

توحي النصوص السابقة، أن جبال الأطلس إضافة إلى تقديسها، فقد كانت محل احترام الليبيين من الأطلنطيين أو الأطلسيين، نتيجة شدة ارتفاعها الذي يصعب معه رؤية قممها. واعتقادهم أنها كانت مساكن الآلهة.

وتحدث "بومبونيوس ميلا" (*Pomponius Mela*) من جهة أخرى، عن الجن التي تخرج أثناء الليل في جلبة وضجيج ليس فقط في جبال الأطلس ولكن في المنطقة التي تحيط بالساحل الجنوبي للقارة الإفريقية. [3]

ويرى "س. غزال" [4] أن ما ذهب إليه "بلين القديم" و"بومبونيوس ميلا" لا يعدو أن يكون تأويلا للروايات القديمة من نص رحلة "حنون" (*Périple d'Hannon*)، والتي تغلب عليها الأدبيات الوصفية الخيالية إلى درجة التهويل والمبالغة في كل شيء.

1-Pline l'Ancien, H.N., I, 1, 6.
2-Maxime de Tyr, Dissertations, VIII, 7.
3-Pomponius Mela, 95 ; Basset (R.), Le culte des grottes au Maroc, Op.cit., p. 294.
4-Gsell (S.), H.A.A.N., T.VI, p. 134.

واستنادا إلى الأدلة السابقة، علاوة على النقوش (*) والرسوم الصخرية التي تعود إلى الفترة الرومانية، والتي تشير إلى "جن الجبل" (*Genius Montis*)، فإن اختيار قمم الجبال لإقامة الطقوس الجنائزية وطقوس استدرار المطر في بلاد المغرب القديم، يدعو إلى الاعتقاد، حسب "مارسيل لوغلي" (*M. Leglay*) أن المناطق المرتفعة كانت مقدسة لدى المغاربة القدماء قبل قدوم الفينيقيين وإقامتهم لمعبد بعل (*Ba'al*) في المغرب القديم. [1]

ويذكر "مرسيل لوغلي" [2] أنه من بين الصفات الجغرافية المميزة للإله ساتورن (*Saturne*) والأكثر تمثيلا له هي: "بالكارانسيس" (**) (*Balcaranensis*).

هل يمكن أن نفترض أن "بولقرنين" أي "ذو القرنين" (*Bou' lQarnin*) الحالي، هو "بالكارانسيس" القديم الذي سيطر على تونس، حيث أن اسمه يوجد في معبودات قدسها المغاربة القدماء؟

يبدو أن "ساتورنوس بالكارانسيس" (*Saturnus Balcaranensis*) كان في بداية الأمر مقدسا لدى المغاربة قبل قدوم الفينيقيين وإقامة معبد "بعل" (*Ba'al*) [3] الذي تمت مطابقته مع ساتورن الذي يمثل أحيانا راكبا على ظهر أسد. [4]

- من أبرز هذه النقوش نذكر: جن الجبل (is) Genius Mont غرب أوزيا Auzia "سور الغزلان حاليا" في موريطانيا القيصرية، C.I.L., 9180، وجن الجبل في "سميتو" Simitthu "شمتو" في تونس حاليا، C.I.L., 14588، وجن الجبل في تافرنت Tafrent، C.I.L., 17763، ومن الرسوم الصخرية نذكر: رسوم جبال "رحات" Rhat و"ياغور" Yagor بالأطلس الأعلى في المغرب الأقصى. *- Camps (G.), Berbères aux marges de l'histoire..., pp. 195-196.*

[1] *- Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire..., p. 420.*

[2] *- Leglay (M.), Saturne Africain, Monuments, I, p. 35.*

***- عثر على أكثر من 98 نصبا أو قطع من النصب قرب معبد بجبل بوقرنين (Bou-kournein) تذكر اسم «بالكارانسيس- Balcaranensis»، - Leglay (M.), Saturne Africain, Monuments, I, pp. 35-73.*

[3] *- Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, R.H.R., 1910, p. 3.*

[4] *- C.I.L., VIII, 20437, 20448.*

كان "بعل قرنين" (*) (*Ba'al Qarnain*) مقدسا عند الفينيقيين، ومن المعبودات السامية مثل: «بعل هرمون» (*Ba'al Hermon*) أو بعل لبنان، الذي كان له شريك أوتابع ثانوي هي تانيت بني بعل (*Tanit Péné Ba'al*) التي ذكرت في إحدى النقوش التي عثر عليها في برج جديد. [1]

هل الأمر كذلك بالنسبة لعبادة "بعل-حمن" (*Ba'al Haman*) في دوقة (*Dougga*)؟

فقد كانت الإهداءات والتكريسات إلى ساتورنوس (*Saturnus*) تذكر بصورة معتادة في النقوش اللاتينية ببلاد المغرب القديم. منها نقش "ديانا" (*Diana*) "زانة" حاليا بولاية باتنة (**)، ونقش عثر عليه بالقرب من أوزيا (*Auzia*) "سور الغزلان" حاليا (***)، ونقش سميتو (*Simitthu*) (****) "شمتو" في تونس حاليا.

ويشير "ر. باسي" (*R. Basset*) من جهته، إلى أن بعض الجبال في الجنوب الجزائري كانت تثير خشية دينية لدى قبائل الطوارق والتي لا يستطيعون قهرها والتغلب عليها. وذلك يعود إلى الجن الذي يسكنها، وليس إلى ضخامة الجبال وهيئتها التي

---

*- ويعني "سيد القرنين" (*Le maitre des deux cornes*) ذلك أن ساتورنوس *Saturnus* وبعل حمون *Baal Hammon* لم يمثلا بقرون.
- *Leglay (M.), Saturne, Africain, Histoire, p. 108.*

باستثناء نصب القنطرة *El-Kantara* (تبعد بحوالي 50 كلم غرب باتنة)، إلا أن غزال نفى أن يكون ساتورن القنطرة يحمل قرونا كبيرة.
- *Id., Saturne…, Monuments, II, El-Kantara, 6, pl. XXX, fig.4 ; Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 283.*

1 – *Leglay (M.), Saturne Africain …, Histoire, pp. 3-4.*

** – كان نقش ديانا على الشكل الآتي:
- *C.I.L., VIII, 4581. Deo Frugum Saturnus Frugifreo Augustus.*

***- وجد قرب أوزيا وهو موجه إلى جن الجبل: *Pastoria(nen) sis* الذي يحمي من عواصف الرياح الهوجاء.
- *C.I.L., VIII, 9180.*

****- كان نقش "سميتو" *Simitthu* موجه إلى جن الجبل *Genius Montis*.
- *C.I.L., VIII, 14586.*

تخيفهم. [1] ومن المحتمل أن هذه المعتقدات كانت موجودة في زمن "بلين القديم" (*Pline l'Ancien*) في بلاد المغرب القديم.

ترتبط عبادة الصخور (الحجارة) بعبادة الجبال، فقد ذكر "بلين القديم" [2] و"بومبونيوس ميلا" [3] أن صخرة كانت مكرسة للإله "أوستر" (*Auster*) في قورينة (*Cyrénaïque*). فإذا ما لامس الناس هذه الصخرة بأيديهم فإن الرياح تثور بقوة وتثير العواصف الرملية كالبحار التي تثير الأمواج العنيفة.

ومهما يكن من أمر، فإننا نحاول أن نربط نظام الأضاحي والقربان بوظيفة صخرة توجد في منطقة "قرتوفة" (*Guertoufa*) التي تقع بين تيارت وغليزان بالغرب الجزائري، والتي عرفت باسم "حجر القايد" (*Hadjar Gaïd*). [4]

يبدو أن الأمر يتعلق بمذبح بدائي، فالصخرة كانت تستخدم كطاولة لتقديم الأضاحي والقرابين. ونستنتج من ذلك أن حجر القايد كان مكانا اختير بعناية ليكون مقرا لديانة دموية، أي ديانة تقوم على تقديم الأضاحي والقربان للآلهة وذلك بإراقة الدماء.

يتضح مما سبق، أن بعض الطقوس والعبادات الخاصة بتقديس وتبجيل الصخور لازالت منتشرة إلى أيامنا هذه، ففي تامنطيط بواحة توات (*Tementit-Touat*) قرب أدرار بالصحراء الجزائرية، لا زال نيزك جوي (*Aérolithe*) محل تقديس من طرف السكان.

1- *Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, Op.cit., p. 4.*

2- *Pline L'Ancien, H.N., II, 7, 44.*

3- *Pomponius Mela, De Situ orbis, I, 8.*

4- *La Blanchère, Voyage d'études dans une partie de la Maurétanie Césarienne, Paris, 1883, p. 42.*

فالأسطورة تفترض أن النيزك لما سقط من السماء بالقرب من "نوم الناس" (*Noum Ennas*) كان من ذهب ثم حوله الله إلى فضة، ثم إلى حديد، لمنع أطماع الاستيلاء عليه. [1] وإلى جانب هذه الصخور الطبيعية أو التي تدخل الإنسان في شذبها، توجد صخور الدولمن [*] (*Dolmens*)، التي كانت قبورا، ومن ثم فإن الناس لم يهتموا بها ولم يقدسوها. [2]

ويرجح "د. غوبير" اتساع انتشار عبادة الحجارة في العصور القديمة إلى أن لها أسباب مشتركة في الديانات البدائية القديمة. [3]

نستنتج مما سبق أن الإنسان المغربي القديم عبر عن حاجته إلى المياه باستدرار المطر بطرق مختلفة. لذلك قدس المنابع نظرا للأهمية التي تكتسيها المياه في حياة الإنسان والحيوان والنبات. وتزايد أهمية المياه في شمال إفريقيا أكثر نتيجة الجفاف وندرة الأمطار، مما أعطى للمياه ميزة مقدسة منذ أقدم العصور.

وقد نظر المغاربة القدماء إلى الجبال–اعتقادا منهم–على أنها كانت تمثل مساكن للآلهة، وليس كمعبودات. لذلك قدسوها قبل قدوم الفينيقيين إلى بلاد المغرب القديم. وأما عبادة الحجارة فقد كانت ظاهرة عالمية، مارسها سكان المغرب القديم، شأنهم في ذلك شأن بقية شعوب العالم القديم، وكانت هذه العبادة محلية، حيث تعددت أشكال هذه الحجارة وألوانها وأحجامها مع اختلاف دوافع تقديسها عبر مختلف فترات التاريخ.

1– Gautier (E.F.) , le Sahara Algérien, t. I, Paris, 1908, p. 253.

**– هي القبور المنضدية، وبهذا الاسم عرفت في بلاد المغرب القديم، وهي قبور حجرية أقيمت على سطح الأرض وتتكون من ثلاثة أعمدة حجرية تعلوها حجرة أخرى مدت بشكل أفقي. وتتخذ هذه القبور شكل المستطيل أو المربع، ومحاطة بسياج من الحجارة المتوسطة الحجم.*

- Bosco (J.), et Solignac (M.), Op.cit., pp.319-346.

2– حول صخور الدولمن أنظر أيضا:

- Gsell (S.), les Monuments…, t. I, pp. 10-36.

3-Gobert (E.G.), Essai sur la litholatrie, Rev. Afri., t.92, 1948, (24-110), p. 37.

<u>المبحث الثالث-عبادة الكهوف والمغارات</u>: يبدو أن المغاربة القدماء قدسوا الكهوف والمغارات حسب ما ذكره "سيناك" (*Sénèque*)، [1] مع غياب الأدلة التي تثبت وجود إله الكهوف.

إلا أن "ماسكوري" (*Masqueray*) أكد أن "إفري" (*Ifri*) أو "إفرو" (*Ifrou*) هي تسميات محلية لإله الكهوف. [2] واعتمادا على الدراسات التي قام بها "س. غزال" (*S.Gsell*) و"هـ. باسي" (*H.Basset*) حول النقوش الليبية في بلاد المغرب القديم، قد يكون اسم إفريقيا (*Africa*) الذي ظهر خلال الفترة الرومانية مأخوذ من هذه التسمية المحلية، ثم عمم مدلول هذا الاسم ليطلق فيما بعد على القارة الإفريقية بأكملها. [3]

يعتبر الإله "باكاكس" (*Bacax*) من بين المعبودات الوثنية الليبية الأكثر شهرة والتي ذكرها الكتاب الأفارقة. وتشير النقوش التي وجدت على جدران كهف بالقرب من تيبيليس (*Thibilis*) "عنونة" حاليا قرب قالمة [4] أنه اتخذ كمكان لعبادة الإله "باكاكس".

وقد قدم "بول مونصو" وصفا لهذا الكهف: «**لم تكن القاعات مهيأة ومنظمة على مخطط أفقي واحد، ولا تتصل ببعضها إلا عن طريق أرصفة ضيقة، غالبا ما تكون منضدة (متراكبة) بعضها فوق بعض وتتصل فيما بينها بواسطة مدرجات طبيعية، وفي بعض الأحيان بواسطة جب حقيقي. وبين رواق المدخل وسافلة (عمق) الكهف يوجد اختلاف في المستوى يترواح مابين ثلاثة إلى أربعة أمتار.**» [5]

1-*Sénèque, Lettres à Ludlius, XLI.*

2-*Masqueray (E.), Comparaison du Vocabulaire des Zenagas, Archives des missions Scientifiques, Paris, 1879, p. 481.*

3-*Gsell (S.), H.A.A.N., T.I, p.256.*

4- *Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, Op.cit, pp. 7-8.*

5-*Monceaux (P.), La grotte du dieu Bacax au djebel Taya, Paris, 1887, in-8 ; Mercier (G.) les divinités libyques, Constantine, S.D., pp. 6-7.*

وذكر اسم الإله "باكاكس" في عدد من النقوش اللاتينية، التي عثر عليها في كهوف جبلي الطاية وشطابة شرق قسنطينة. [1] ويلاحظ أن هذا الاسم صمد حتى الآن أمام كل محاولات التأويل. وكانت القرابين تقدم للإله "باكاكس" أمام مدخل الكهف.

ونتساءل هنا: هل يمكن أن ننسب عبادة من هذا النوع إلى العدد الكثير من النقوش الليبية التي وجدت في حفرة "إفري اندلال" (*Ifri n'Dellal*)؟ [2]

تجدر الإشارة إلى أن الكهوف والمغارات في المغرب القديم لم تخصص للسكن والرسم على جدرانها فحسب، بل كان المغاربة القدماء يدفنون موتاهم في أرضيتها أيضا.

وهذا ما أشار إليه المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" إلى أنه كان من عادة الليبيين النوم على قبور أسلافهم في الكهوف، والراغبين منهم في استطلاع الغيب، فيصلون ثم ينامون على قبورهم. [3] وخاصة أولئك الأشخاص الذين كانت لهم مكانة اجتماعية مميزة في حياتهم مثل رؤساء القبائل والكهنة وغيرهم.

ومن معبودات الكهوف الليبية التي ذكرت في عدد من النقوش اللاتينية، اسم معبود ذكر بالأحرف: (*G.D.A.S*) عثر عليه في كهف "غار الزمة" (*Rhar Ez-Zemma*) الذي يقع في جبل شطابة قرب قسنطينة بالشرق الجزائري. [4]

وقد أعطى "غ. مرسيي" [5] (*M.G.Mercier*) وصفا للتقارب المحتمل بين اسم شطابة الحالي مع اسم جبل "غيدابا" (*Giddaba*) الذي ذكره القديس "أوغسطين" في القرن الرابع الميلادي، ذلك أن الأحرف (*G.D.A.S*) تعني باللغة اللاتينية:

1- C.I.L., VIII, 5504 (18828), 5505 (18829), 5517 (18847), 5518 (18850), 5520 (18857).

2-Basset (R.), Notes sur les inscriptions libyques d'Ifri n'Dellal, C.R.A.I., 1909, pp. 590-593.

3- Hérodote, IV, 172.

4- Camps (G.), Berbères aux marges de l'histoire, p.179.

5-Mercier (G.), La grotte du chettaba, R.S.A.C., t. XXXV, 1901, pp. 156-166.

Giddabae deo Augusto sacrum [(1)] وترجمته كالآتي: "إلى الإله غيدابا المقدس".

ومن أمثلة هذه المغارات، تلك التي وجدت في وادي إيتال "أو التل" (*l'oued Itel*) جنوب غرب بسكرة أين تغطي الرسوم الصخرية جدران بعض القبور الاصطناعية (مدافن تحت الأرض–*Hypogée*). (الشكل 6 ص 87) والتي تمثل رجال ونساء في وضعية الجلوس رافعين أيديهم إلى السماء. [(2)] هل يتعلق الأمر بوضعية طقوسية؟ لا نعتقد ذلك لأنه لا توجد أي صورة تشير إلى طقس تقديم الأضاحي والقرابين.

ووجدت نقوش صخرية في واد الشايل (*l'oued Echeil*) قرب طرابلس (*Tripoli*) بين ميزدة وغدامس في ليبيا الحالية، تغطي جدران إحدى الكهوف الطبيعية. [(3)]

هذه المغارات التي – رغم استخدامها كسكنى من طرف السكان لعدة قرون– بقيت أماكن للعبادة. حيث قام الإنسان القديم –لأغراض دينية – برسوم ذات الشكل البشري (*Anthropomorphe*) عند مدخل كهف بوزباوين (*Bouzabaouine*) بجبل الفرطاس قرب عين مليلة بالشرق الجزائري، كما وجدت رسوم أخرى لشخصين في مدخل كهف دخلة الزيتون (*Dekhlet Zitoune*) في نفس المنطقة. [(4)] (الشكل 7 ص 95)

وقد استمر تقديس الكهوف والمغارات في بلاد المغرب القديم إلى غاية الفترة التاريخية، وحتى زمن القديس "أوغسطين". حيث اتخذت كأماكن لعبادة بعض الآلهة ذات الأصل الأجنبي، كتلك التي يحتمل أنها كانت مخصصة لعبادة هرقل (*Hercule*) قرب طنجة بالمغرب الأقصى.

1- Gsell (S.), Chronique Africaine, Rome, 1903, pp. 44-45.

2- Blanchet (M.P.), Excursion archéologique dans le Hodna et le Sahara, R.S.A.C., t. XXXIII, 1899, (pp.285-319), p. 303.

3- Gautier (E.F.), Sahara Algérien, pp. 112-113 ; Gsell (S.), Monuments…, I, p. 48.

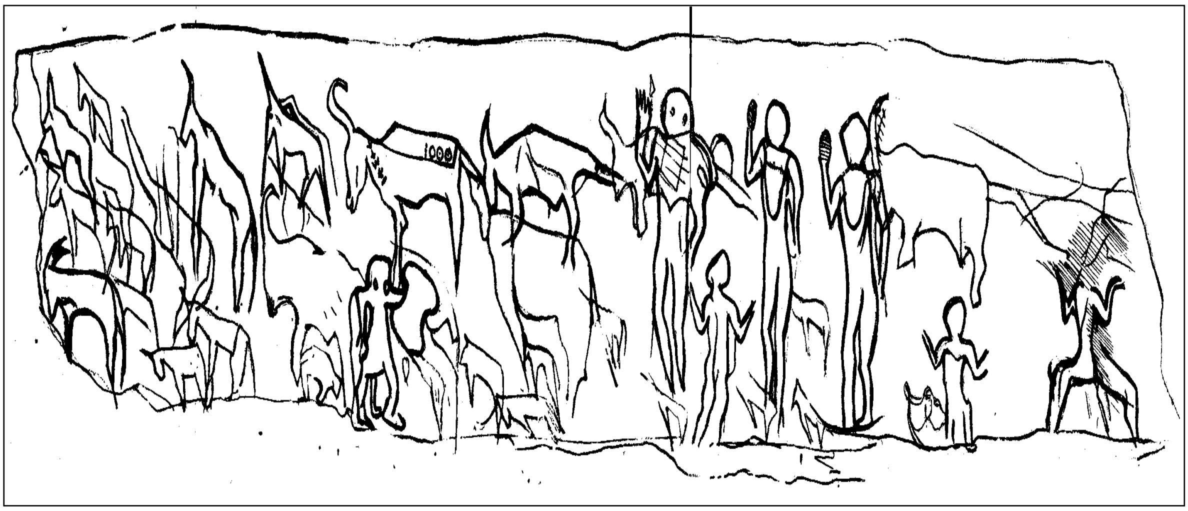
4- Robert (A.), Notes sur quelques stations préhistoriques de la commune mixte d'Ain-Melila, R.S.A.C., t. XXXIV, 1900, (pp.199- 246), p. 232.

يبدو أن الأمر يتعلق بهرقل الفينيقي (*Hercule Phénicien*)، أو بعبادات أخرى محلية بحتة. [1] وهو ما أشارت إليه النقوش التي عثر عليها على جدران هذه الكهوف. [2]

يتضح من الإشارات السابقة أن الكهوف والمغارات كانت محل تقديس من المغاربة القدماء، وكانوا ينظرون إليها بخوف واحترام، لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الكهوف عبارة عن مساكن (*Habitacles*) للآلهة. [3] أو لأن عمق المغارات في باطن الأرض – حسب أوغسطين–سيسمح لهم بأن يكونوا أقرب إلى الله ويحسنوا عبادته. [4]

وقد حملت بعض هذه الكهوف نقوشا ورسوما صخرية في جوانبها العميقة المظلمة، فكان الإنسان القديم يستعين في ذاك بإشعال النيران، وكانت تلك الرسوم الآدمية والحيوانية ممثلة على جدران الكهوف.

1- Pomponius Mela, I, 26 ; Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, Op.cit., pp. 297-298.
2- Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, p.256.
3- Leglay (M.), Saturne Africain ..., Histoire, p. 420.
4- Saint Augustin, Sermones, X L V, 7 ; Camps (G.) , Berbères aux marges de l'histoire, p.197.



الشكل رقم 6: تقديس الكهوف والمغارات في بلاد المغرب القديم.

رسوم صخرية في مغارة وادي إيتال (*l'oued Itel*) جنوب غرب بسكرة تمثل رجال ونساء في وضعية طقوسية.

نقلا عن: *- Joleaud (Léonce), Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord, Journal des Africanistes, 1933, Vol.3, n°1, (pp. 197 – 282), p. 220.*

.

<u>المبحث الرابع–الآلهة المحلية وطقوس العبادة</u>: عبد المغاربة القدماء آلهة محلية كانت منتشرة في جميع أنحاء المغرب القديم. وتتجه هذه العبادة إلى آلهة مورية (*) (*Maurici, Dii Mauri*)، أو إلى أحد آلهة الموريين (**) (*Numen Maurorum*)، وإلى آلهة الجيتوليين (***) (*Dii Gaetulorum*) وآلهة مورية أخرى (*Dea Maura*) وأيضا إلى آلهات إفريقيا (****) (*Matres Afrae*) وآلهات ليبيا (*****) (*Matronae Libycae*).

وقد عثر في بعض منابع المياه بالمغرب القديم، (******) وبعض الجبال على تكريسات مكتوبة باللغة اللاتينية مهداة إلى الآلهة الحامية "مستجنات" (*Genii*) هذه الظواهر الطبيعية، (*******) لكن ليس من المؤكد أنها آلهة إفريقية. لأن الرومان كانوا يعتقدون في تلك الفترة، أن لكل مكان له إلهه الحامي (*Genius*)، لكن يحتمل أن هذا الإله الحامي "المستجن" غالبا ما يختلط بإله حامي أهلي (*Indigène*).

---

*– وجدت هذه الآلهة في "لمبازيس" (*Lambaesis*)" تازولت" حاليا قرب باتنة وفي منطقة أوزيا (*Aumale-Auzia*) "سور الغزلان" حاليا 9195، وفي منطقة باجة في تونس 1444، وفي منطقة سطيف 20251، وتبسة 3000، و "مادور" (مداوروش حاليا) 2078، وشرشال، 9327. - *C.I.L., VIII, 2637-2641*.

**– وجدت هذه الآلهة في منطقة سطيف. - *C.I.L., 20252*.

***– وجدت هذه الآلهة في منطقة وهران. - *C.I.L., 21665*.

**** – وجد هذا النقش في انجلترا بهذه الصيغة: ((*Mat (ribus) Af (ris)*) وترجمته المحتملة: إلى آلهات إفريقيا، لكنها غير أكيدة. - *C.I.L., VII, 238*

*****- ورد نقش كولونيا النذري هكذ *? Matronis Lubicis=Libycis* » *- Cagnat (R.), et Besnier, l'Année épigraphique, 1903, n° 145.*

******– عثر على مجموعة من النقوش في "لمبازيس" (تازولت) قرب باتنة، وسيلا قرب وهران. *- C.I.L., VIII, (Lambèse) 4291, (Sila) 5884*.

******* – وجدت نقوش بالقرب من سور الغزلان (*Auzia*) وفي منطقة خنشلة، وفي جبل عمور. *- C.I.L., VIII, 9180 (Auzia); 17763 (Khenchela); 21567 (Djebel Amour).*

وكانت تنقش – خلال العهد الإمبراطوري– إهداءات باللغة اللاتينية إلى "باكاكس" (*Bacax*) في إحدى مغارات جبل الطاية (*Taya*) شمال غرب قالمة،[1] الذي يبدو أنه كان من أصل ليبي. وكان إله آخر بأحد كهوف جبل الشطابة (*Chettaba*) قرب قسنطينة تعبده جماعات تتحدث باللغة اللاتينية، وكان اسم هذا الإله "غيدابا" (*Giddaba*)[2]، كما وجدت صورة إله آخر يدعى "إفرو" (*Ifru*) رسمت مع كتابة لاتينية على صخر عثر عليها شرق قسنطينة. [3]

يبدو أن اسم هذا الإله قريب ويقابل اللفظ الأمازيغي "إفري" (*Ifri*) الذي يعني كهف أو مغارة. [*] وتوجد كهوف في أماكن أخرى، يبدو أنها كانت أماكن مقدسة مكرسة لمعبودات مجهولة، ويزورها الأهالي فقط، وفي أوقات محددة. [**]

وتوجد مغارة في "إفيرا" (*Ifira*) في بلاد القبائل جدرانها مليئة بالكتابات والنقوش الليبية، ومغارة أخرى في كاف الخراز (*Kef El -Kherraz*) بين قالمة وعين البيضاء بالشرق الجزائري، فيها علامات غامضة منقوشة وملونة بالأحمر على مدخلها. [***]

وقد عثر على نقش باللغة البونية الجديدة في تونس عرف باسم أحد الآلهة يدعى: "غيلو–أو جيلو" (*Gilo*) أو ما يقارب هذه الصيغة. [4]

---

[1] *- Gsell (S.), et Joly (Ch.A.), Announa, Alger, 1914, pp. 30-31; Alquier (J.et P.), le chettaba et les grottes à inscriptions latines du chettaba et du Taya, Constantine, 1929, pp. 141-168.*

[2] *- C.I.L., VIII, 6267; Gsell (St.), A.A.A., f. 17 (Constantine), n° 109.*

[3] *- C.I.L., VIII, 5673; Gsell (St.), H.A.A.N., t. I, p.249.*

** – الملاحظ أنه لا توجد مغارة خلف هذه الصخرة بشرق قسنطينة، ويمكن أن نفترض أن الإله كان يسكن بعض الكهوف المجاورة والتي تعذر على الناس دخولها. - Basset (H.), Culte des grottes..., pp.48, 93.*

*** – عن الكهوف المقدسة التي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ أنظر: - Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p.256.*

وعن الكهف المسمى بكهف هرقل بالقرب من طنجة بالمغرب الأقصى أنظر: -Ibid., t. II., p.169.

**** – يحتمل أن تكون هذه المغارة قرب سوق أهراس. - Gsell (S.), A.A.A., f.18, (Souk Ahras), n°255.*

[4] *- Chabot (L.) , Punica, p.110, n°11.*

وتحمل بعض الكتابات والنقوش باللغة اللاتينية أسماء مجردة لآلهة، ومنها: خمسة آلهة أقيم لها هيكل في "ماجيفا" [*] (*Magifa*) في منطقة تبسة وهي: ماسيدنيس (*Masidenis*)، وثيليلواي (*Thililvae*)، وسوغانيس (*Sugganis*)، ويسدانيس (*Iesdanis*)، وماسيديس (*Masiddice*)، (ذكرت هذه الأسماء بصيغة الإضافة *Génétif*)[1]، ومثامويس (*Mathamodis*) في منطقة الكاف بتونس، ومونايي (*Monnae*) من عين تونغا (*Ain–Tounga*)، وإيوكولوني (*Iocoloni*)، وهاوس (*Haos*) من منطقة سيدي يوسف، وكاليماس (*Chalimace*) أو كاليماج (*Chalimage*)، وداميوني (*Damioni*)، وليليو (*Lilléo*) من مادور ***Madaure*** [2] "مداوروش" حاليا، وكيلينو (*Cilleno*)، ومونتيو (*Montio*) [3] من تيمقاد،[**] وموماني (*Momanio*) من لامبازيس، وأوليسفايي (*Aulisvae*) من تلمسان.

يتضح من أسماء هذه المعبودات أنها ليست رومانية، كما أنها ليست جميعها إفريقية. ربما أن جلها جاء به بعض المغاربة القادمين من مناطق أخرى، وعلى الخصوص أولئك الذين خدموا في الجيش الروماني.

ويذكر "ترتوليانوس" إحدى هذه المعبودات باسم "فارسوتينا موروروم" (*Varsutina Maurorum*). [***] كما يشير "أرنوب" إلى إلهين هما: "بوكورس موري"

- هي منطقة تقع قرب قصر البوم في تبسة. *- Gustave (M.), « les divinités libyques », R.S.A.C., 1900, pp. (177-193).*

[1] *- Gsell (S.), I. L. Al., I, 2977.*

[2] *- Id., H.A.A.N., t. VI, p.137.*

[3] *- Vars (M. Ch.), Inscriptions découvertes à Timgad pendant l'année 1901, R.S.A.C., XXXV, 1901, (pp.218-274), p.264.*

***- ذكرت في المصادر الرومانية باسم " تاموقادي" (Tamughadi)، وهي تسمية ذات أصول نوميدية تعني:"مدينة الخير" لأنها تقع في سهل غني يمتد من التخوم الأوراسية إلى سهل مسكيانة. أسسها الإمبراطور تراجانوس سنة 100م.* *- Cagnat (R.), Carthage, Timgad, Tébessa, les Villes Antiques de l'Afrique du Nord, librairie Renouard & Laurens éditeurs, Paris, 1909, p.46.*

****- ويذكرها مع الإلهة أتارغاتيس السورية Atargatis Syrorum، وكايليستيس الإفريقية Caelestis Afrorum ويبدو أنها أكثر من إلهة محلية.* *- Tertullien, Ad. Nationes, II, 8.*

Bucures Mauri، و"تيسيانس" *Tisianes*، [1] ويبدو أن هذين الاسمين فيهما بعض التحريف.

وأشار الأديب "كوريبوس" (*Corippus*) خلال الفترة البيزنطية، إلى وجود ثلاثة آلهة كان يعبدها الأهالي الذين يعيش بعضهم في الجنوب التونسي. ووجد البعض الآخر في مقاطعة طرابلس (*Tripolitaine*) وهي: "سينيفير" (*Sinifère*) الذي يشبهه كوريبوس بالإله مارس (*Mars*)، و"ماستيمان" (*Mastiman*)، والذي يقابله الإله "بلوتون" (*Pluton*)، و"قرزيل" [*] (*Gurzil*) إله قبيلة الأغواطن[**] [2] (*Laguatan*) الذي سبق الحديث عنه.

والإله قورزيل (*Gurzil*) يمكن أن يحل في ثور، وكانت له صور من خشب ومن معدن. ونتساءل: هل كانت هذه الآلهة مشخصة في شكل إنسان؟

والملاحظ أن جميع هذه الشهادات تعود لفترة متأخرة عن الفترة المدروسة، غير أن تلك الآلهة – التي ذكرت أسماؤها آنفا– لم تكن حديثة الوجود في بلاد المغرب القديم.

وحسب "كوريبوس" فإن الرومان بحثوا في مجمع آلهتهم (*Panthéon*) عن معبودات يمكن مطابقتها مع معبودات الأهالي. [3] لا شك أن أسباب هذا الاندماج كثيرة لكننا نجهلها حتى الآن؟

---

1 - *Arnobe, I, 36.*

*- *Gurzil*، إله القبائل المورية بالمقاطعة الطرابلسية، يبدو أن له علاقة بالإله آمون (*Ammon*) بمنطقة "أوجيلة" *Augila* التي تحدث عنها أبو عبيد الله البكري في حدود القرن العاشر الميلادي تحت اسم "كرزا". *- Corippus, Joh., V, 37, 38.*

**- هي " قبيلة لواتة"، اشتهرت منذ القرن الرابع وورد ذكرها في المصادر القديمة بصيغ مختلفة: *Ilaguas, Hilaguas, Laguatan, Laguata, Laguaten*

- Tauxier, (H.), "Récits de l'histoire d'Afrique, . , le comte Romanus." Rev. Afr., t. 34, 1890, pp. (192-222), p.193.

2 - *El-Bekri, Op.cit., p.31; C.I.L, VIII, 2287.*

3 - *Corippus, Joh., V, 495, 501-502.*

ويحتمل أحيانا – كما هو الحال في غاليا "فرنسا حاليا"–، أن اسما لمعبود أهلي يلصق باسم معبود إغريقي لاتيني، فقد عثر على تكريس في طبرقة بتونس موجه إلى الإله "بلوتون": (*Plut* (*oni*) *Varricculae*) [1] وتكريس آخر في قالمة إلى الإلهة "تلوس" (*Telluri Gilvae*). [2]

لذلك فمن المحتمل أن الأمر يتعلق بمعبودين مختلفين إذا ما وضعنا فاصلة بين الاسمين، وليس بمعبود واحد، وفي أغلب الأحيان، نجد أن الرجال الذين كانوا يتحدثون باللغة اللاتينية قد عوضوا الاسم الليبي باسم روماني، وفي هذه الحالة يستحيل أن نعرف أن الأمر يتعلق بإله ذو أصل إفريقي. باستثناء المعبودة " ديانا" (*Diana*) التي ذكرت في نقش عثر عليه في مدينة سطيف ووصفت بأنها: " ديانا المورية المقدسة " (*Diana Augusta Maurorum*) . [3]

وكثيرا ما لا يكفي طبعا إخفاء الإله المحلي الصغير، وإنما يعوض بإحدى المعبودات الكبرى في الطبيعة. فالفينيقيون مثلا كانوا يفضلون إقامة معابدهم في الأماكن المرتفعة. ومن المحتمل أن بعل (*Baal*) هنا أو هناك قد عزل المستجن (*Génie*) الجبلي الخامل وحل محله.

وقد اضطرت آلهة محلية أهلية خلال الفترة الرومانية لإخلاء المكان لمن هو أقوى منها، فنجد مثلا: "ساتورنوس" (*Saturnus*) الذي هو في "بعل حمون" (*Baal Hamon*) البوني قد استولى على الجبال، و"نبتونوس" (*Neptunus*) استولى على منابع المياه، و"سلفانوس" (*Silvanus*) استولى على الغابات، كما استولى "بلوتون" (*Pluto*) على المغارات والكهوف إلى غير ذلك. [4]

---

1 - C.I.L., VIII, 17330.

2 - Gsell (S.), I.L. Al., I, 232.

3 - C.I.L., VIII, 8436.

4- عن بلوتون أنظر أدناه ص 159، للمزيد انظر: -Gsell (S.) , M.E.F.R.A., XXIII, 1903, p.25.

يبدو أنه إذا كانت الآلهة تتغير، فإن الأجيال التي كانت تتعاقب لم تستطع أن تنفصل عن هذه المواقع التي كانت تجري بها ممارسة الشعائر الدينية منذ عدة عصور، فما كان على السكان إلا أنهم استبدلوا الآلهة المحلية بالآلهة الرومانية.

فقد ذكر القديس "أوغسطين" أن بعض المسيحيين في عهده، كانوا يعتقدون أنهم يحسنون عبادة الله عندما يتسلقون قمم الجبال أو ينزلون إلى باطن الأرض. والشهداء الذين فقدت أبدانهم، كانت تقام لهم المصليات في الحقول وعلى جوانب الطرق، وربما في نفس الأماكن التي كانت تتردد عليها المستجنات (*Génies*) وتسكنها الآلهة. [1]

يتضح مما سبق، أن المغاربة القدماء كانوا يعتقدون خلال الفترة الرومانية، أن تعبدهم في مناطق مرتفعة أو في باطن الأرض كان يقربهم إلى الله أكثر. وكانوا يعتقدون أيضا أن لكل مكان له مستجنه، ولذلك أقاموا الأضرحة والمصليات لشهدائهم في الأماكن التي استشهدوا فيها. وأعتقد أن هذه الممارسات تنم عن بقايا الوثنية في وسط المسيحيين حتى في عهد القديس أوغسطين نفسه.

ويبدو أن الآلهة المحلية هي تلك المعبودات التي تختص بأماكن معينة في بلاد المغرب القديم. وتستطيع أن تستغني عن الصور، فقد كانت حاضرة مع عبادها، إما عندما تتخذ لنفسها شكلا ماديا كجسم حيوان مثلا، أو عندما تبقى خفية عن الأعين، وتقيم بالمكان الذي ارتضته لنفسها، وتأذن للناس أن يتصلوا بها فيه.

ومع ذلك فمنذ عصور ما قبل التاريخ كان الإنسان المغربي القديم يرسم صورا للكباش المقدسة، وسبق أن ذكرنا الأسباب الداعية إلى ذلك في العبادة الطوطمية.

يعتقد الفينيقيون وشعوب أخرى، أن الأحجار المنصوبة صماء أو مصقولة كانت في المقام المفضل للأرواح الإلهية. [2]

---

[1]- *Augustin (St.), Sermons, XLV, 7.*

2- Gsell (S.), H.A.A.N., T. IV, p.371.

ونجهل ما إذا كان لليبيين نفس الاعتقاد قبل تحمل المؤثرات الفينيقية؟ وهل استعاروا من الفينيقيين فكرة إعطاء الحجرة المنصوبة شكل المعبود؟

فقد عثر في قصر تامنطيط (*Tementit*) بواحة توات (*Touat*) في قلب الصحراء الجزائرية على صخرة كأنها عمود في آخرها رأس كبش، وهناك من يرى بأنها نيزك جوي، لا زالت إلى اليوم محل تقديس من قبل السكان. كانت هذه الصخرة مقدسة، ويمكن أن نفترض أنها تعود لعبادة دخلت إلى الصحراء على يد بعض المغاربة الأوفياء لعبادة الحيوانات (*Zoolâtrie*) التي كان عليها أسلافهم. [1]

إلا أنه يجهل تاريخ هذه الصخرة، كما عثر بجنوب الصحراء على أحجار ذات شكل متطاول ومبرومة. [*] يبدو أنها اختيرت حتى تكون نصبا، وقد نحتت بشكل رديء في جهتها العليا، بالنحت البارز بروزا خفيفا وبأشد الطرق بساطة، الشكل البيضوي لوجه إنسان بأنف وحاجبين. [**] فهل تكون آلهة يراد تمثيلها؟ [2]

لقد أخفت معظم الديانات الكائنات الإلهية في الشكل الإنساني، والليبيون لا يستثنون في هذا المجال. ولكن ربما أنهم انتظروا حتى يعطيهم الأجانب المثال. فالرسم ذو الشكل الإنساني (*Anthropomorphique*) للإله "إفرو" (*Ifru*) يرجع تاريخه إلى الفترة الرومانية. فقد عثر في أحد النقوش اللاتينية على إشارة "تماثيل" (*Simulacra*) لخمسة آلهة أهلية (*Indigènes*) عبدت بمجموعها بالقرب من تبسة. [3]

**- قياس هذه الحجارة يترواح مابين 0.24 م و0.46 م.*

***- ما يلاحظ على هذه الحجارة أن الفم غير مبين إطلاقا، وقد عثر عليها في الطاسيلي- ناجر بالقرب من تابلبالة (Tabelbala)، والكثير منها وجدت على القبور.*

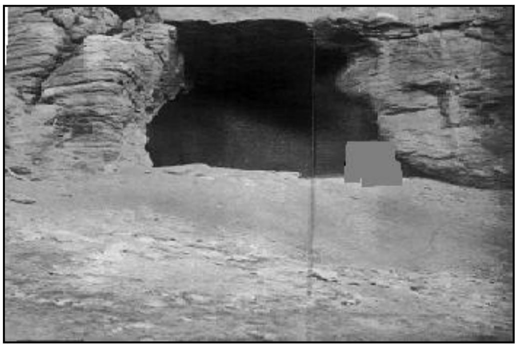
1- *Gautier (E.F.), Sahara Algérien, p. 253.*

- Gsell (S.), H.A.A.N., T.VI, p. 161.

- Pallary (P.), Note sur une collection Préhistorique saharienne, Rev. Afri., t. LVIII, 1914, pp.365-366.

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., T.VI, p. 162.*

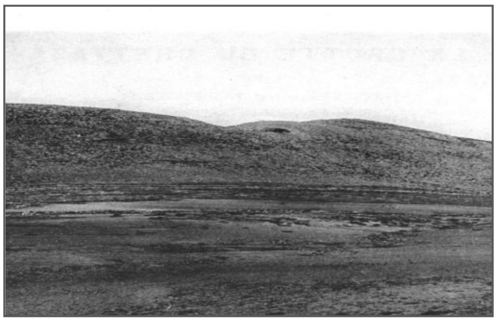
3- *Id., I.L.Alg., I, 2977.*



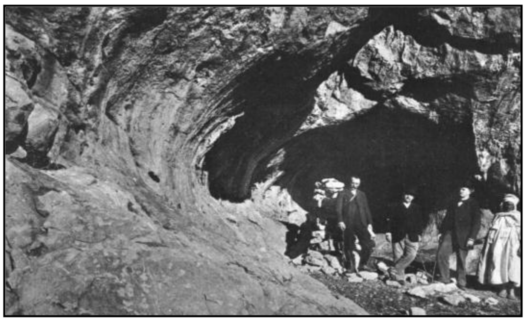
(أ)



(ب)



(ج)



(د)

الشكل 7: كهوف وجدت بها رسوم صخرية ذات الشكل البشري (*Anthropomorphe*).

أ–كهف بوزباوين بجبل الفرطاس قرب عين مليلة.

ب–كهف دخلة الزيتون بجبل الفرطاس قرب عين مليلة.

ج – د: جبل شطابة وكهف "غار الزمة" قرب قسنطينة.

<u>*نقلا عن*</u>: (أ) – (ب): - *Robert (A.), Op.cit., pp. 211, 324 .*

(ج) – (د): - *Mercier (G.), la grotte du chettaba,*
<u>R.S.A.C.</u>, t. XXXV, 1901, pp. 157, 159.

لكن يجهل تاريخ تلك الصور لحد الآن، ويجهل أيضا شكل التماثيل الصغيرة من الخشب والمعدن التي كانت تمثل الإله "قورزيل" (*Gurzil*) إله قبائل الأغواطن (*Laguatan*) في القرن السادس الميلادي. (1)

تشير بعض النقود التي سبق ذكرها، والتي سكها ملوك نوميديون وموريون، وسكتها مدن تابعة لهم، أن المغاربة القدماء حينما اتخذوا الآلهة الوافدة عليهم، قد تلقوا أيضا صورها ذات الشكل الإنساني. من ذلك مثلا: آمون (*Ammon*) أو بعل حمون (*Baal Hammon*) في الشكل الإغريقي للإله "زيوس" (*Zeus*) الذي يظهر بشكل كبش، وإفريقيا التي تغطي رأسها بجلد الفيل، والإلهة ذات البروج التي تحمي المدينة.

وبهذا انجر المغاربة لأن يظهروا آلهتهم الخاصة بقسمات إنسانية. ولكن لما كانوا عاجزين عن ذلك، فإنهم اكتفوا بصور خشنة، وبنسج نماذج أبدعها الفن الإغريقي ثم يكيفونها بطريقة ما لتتطابق وتنسجم مع آلهتهم. (2)

أما عن أماكن تقديس الآلهة، فيذكر "س. غزال" أن إله إحدى المجموعات البشرية الصغيرة كان يتخذ من المغارات أو قمم الجبال أو منابع المياه سكن له، وهناك يأتي الناس لعبادته. فالمعابد والمصليات بالنسبة لهذه العبادات البدائية تعتبر أمر غير ضروري في نظرهم واعتقادهم. (3) لكن يحسن بالمكان المقدس الذي يتصل فيه العباد بالمعبود أن يكون منعزلا انعزالا واضحا عن العالم الدنيوي المدنس.

فقد عثر في بلاد المغرب القديم على أسوار دائرية أو مربعة الشكل، مشيدة من الحجر الجاف أو البناء، تحيط بمواقع ضيقة غير مسقوفة. وتقربا لهؤلاء الأولياء، يؤتى لهذه المواقع بالهدايا كالأواني، والمصابيح والشموع والعطور. (4)

1- *Corippus, Joh., VI. 207.*

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., T. IV, p. 162.*

3- *Ibid., p. 163.*

4- *Id., A.A.A., f. 26, Bou Taleb, n° 83.*

ويحتمل أن تكون مثل هذه المواقع قد وجدت قبل الإسلام، وأنها كانت تمثل أقدم شكل للمصليات في المغرب القديم حسب ما ذكره بعض الكتاب الإغريق. (1)

أما الآلهة التي لها أصول أجنبية، -واعتقادا من السكان بأنها كانت أكثر تشددا- فقد أقيمت لها المعابد بالأماكن التي ترسخت فيها عبادتها.

وهكذا عثر في "دوقة" (*Dougga-Thugga*) و"توبورنيكا" (*Thuburnica*) "عين طبرنق" حاليا، و"بولا ريجيا" (*Bulla Regia*) "حمام الدراجي" حاليا في تونس، على بنايات دينية تعود إلى عهد الإمبراطورية الرومانية، (*) غير أن بعض أوضاعها يبدو أنها تشير إلى تأثيرات بونية. (2)

وأعتقد أن هذه التأثيرات حدثت منذ عهد الملوك النوميديين، الذين قاموا ببناء بعض المعابد بهندسة إغريقية. ذلك ما تدل عليه بعض نقود يوبا الأول (*Juba Ier*) وقطع نقدية أخرى عثر عليها في "سميثو" (*Simitthu*) "شمتو" حاليا في تونس. (**)

وكانت الآلهة الصغيرة في المغرب القديم في غير حاجة إلى كهان، كما لا حاجة بها إلى الصور والبنايات المقدسة. والإنسان الذي يأتي ليقدم لها قربانا حتى يحقق منفعة فردية، كان عليه أن ينحر قربانه بنفسه.

وعندما يجتمع جمع من المؤمنين بها، كان رئيس المجموعة، كشيخ العائلة أو حاكم المدينة، أو سيد العشيرة هو الذي يؤدي الشعائر باسم ذويه، وهو الذي يقوم

1- *Hérodote, IV, 179 ; Nicolas de Damas, Fragm. Hist. Graec., III, p. 463.*

* - *مرت الإمبراطورية الرومانية في تاريخها السياسي بثلاث مراحل: العهد الملكي (753-509 ق.م)، العهد الجمهوري (509-27 ق.م)، والعهد الإمبراطوري (27 ق.م-476م).*

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 393.*

** - *يلاحظ أن بعض البنايات التي كانت تسك فيها نقود يوبا الأول (Juba) تميزت بهندسة إغريقية، إضافة إلى المعبد والقصر، كما أن قيصرية (Caesarea) "شرشال حاليا" عاصمة يوبا الثاني بن يوبا الأول سيطرت عليها الهندسة الإغريقية.*
- *Ibid., t.VI, p. 89.*

بالوظائف الكهنوتية، رغم أنه ليس بكاهن، ذلك أن هيئة الكهان ليست واجبة الوجود إلا في الديانات المستعارة من الخارج.

فقد أشير إلى كاهن في نذر بوني في سيرتا. [1] كما ذكر كهنة آخرون في عدة نقوش حديثة العهد [*] كتبت بالبونية الجديدة. أما الطقوس الفينيقية فهي متشعبة، وتتطلب علما خاصا، وحالة من التطهر لم يقيض للجميع نيلها والحفاظ عليها. [2]

ويذكر "كوريبوس" أن بعض الآلهة في بلاد المغرب القديم كان لها – فيما بعد– كهان وكاهنات. [3] فقد كان أمير إحدى قبائل طرابلس (*Tripolitaine*) خلال الفترة البيزنطية يزاول كهنوتا حقيقيا في خدمة "قورزيل" (*Gurzil*). [4]

يبدو أن الكهان حيثما وجدوا، أحجموا عن المشاركة – في عهد الملوك النوميد– في الحياة العامة في نوميديا وموريطانيا.

وحتى إذا كان قد وجد في هذه المقاطعات الإفريقية رواد أوائل سابقون على الأولياء الحاليين – وهو ما نجهله حتى الآن– فإنهم لم يكونوا كهنة، بل كانوا يتمتعون بقوة خارقة تفوق قدرة البشر.

ونكاد نجهل كيفية ممارسة العبادة كذلك، ويبدو أن الأعياد كانت على الخصوص احتفالات سحرية قديمة، تختلط بها أعمال دينية، مثل طواف التمجيد الذي كان يقام

1- Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p. 164.

** – ذكرت كاهنة على نقش عثر عليه في " أوزابا" Uzappa، الذي يعود إلى الفترة الرومانية، ومجموعة من الكهان منهم " كاهن مقدم الذبائح والقرابين" sacrificateur، ذكروا في نقش "ألتيبوروس" Althiburos " في تونس حاليا" الذي يرجع ربما إلى نفس الفترة.*
- Ibid., T.VI, p. 164.

2- Chabot (L.), Punica, p. 193.

3- Corippus, Joh., VIII, 317.

4- Gsell (S.), H.A.A.N., t.V, pp. 72-73.

على شرف الإلهة "أثينا" (*Athéna*) ربة بحيرة تريتونيس (*Tritonis*)، وهذا الطواف قد يكون ملحقا بطقس من طقوس طرد الشر. (*)

لقد تناول عدد من المؤرخين المحدثين طقوس تقديم الأضاحي والقرابين التي مارسها المغاربة القدماء بالدراسة والتحليل. لكن يبدو أن هذه الطقوس ليست لها علاقة بأضاحي الجن التي يراد تهدئتها بإعطائها دم الأضحية لتشربه. (1) وهي – بطبيعة الحال– طقوس قديمة، ولا يوجد دليل على أنها اتخذت بتأثيرات رومانية أو بونية.

وقد أشار المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" في القرن الخامس ق.م. أن الليبيين كانوا ينحرون الذبائح للشمس والقمر. وأن الذين يعيشون حول بحيرة تريتونيس (*Tritonis*) كانوا ينحرون الذبائح إلى الإلهة "أثينا"(*Athéna*)، والإله "تريتون"(*Triton*)، وإلى الإله "بوسيدون" (*Poséidon*)، وذكر أيضا أن الرحل كانوا يقطعون أولا جزء من أذن الحيوان الأضحية، ثم يلقونه فوق منازلهم، وعندما يتم ذلك، يلوون عنق الأضحية. (2)

يوحي نصوص "هيرودوت" أنه ذكر بعض الطقوس الدينية التي كان يمارسها المغاربة القدماء الرحل خلال تقديمهم القرابين لمعبوداتهم. منها قطع أذن الأضحية وإلقائها فوق البيت، وقبل نحرها يلوون عنقها.

يبدو أن هناك ممارسات أخرى شبيهة بهذه، لا تزال تمارس في بلاد المغرب، منها إزالة طحال أضحية عيد الأضحى وتعليقه إما بباب المنزل أو في أي مكان بالمنزل. إلا أن "هيرودوت" لم يذكر من الذي يقوم بهذه الطقوس؟ هل صاحب الأضحية أم رجل الدين؟ ومع ذلك يبدو أن الذي يقوم بهذه الطقوس هم رجال الدين، لأنهم هم

** – إن أعياد الابتهاج التي كان يحتفل بها في عهد يوغرطة حسب سالوست Salluste، كانت تقام في جميع أنحاء المغرب القديم، قد تكون من أصل سحري بحت.* - *Salluste, Jug., LXVI, 2.*

وعن الأصوات المعدلة التي كانت تصدرها الليبيات أثناء بعض الطقوس الدينية، ينظر: - *Hérodote, IV, 189.*

1-Van Gennep (M.), Op.cit., pp. 215-216.

2-Hérodote, IV, 188.

الذين يعرفون مختلف الخطوات والطقوس التي يجب إتباعها قبل الوصول إلى عملية النحر، لأن الحيوانات التي تقدم كقرابين يتم انتقاؤها بدقة من قبل رجال الدين.

ويبين "كوريبوس" (*Corippus*) بعد ذلك بألف سنة أن المغاربة القدماء كانوا ينحرون بالليل في معسكراتهم الحيوانات لآلهتهم: قورزيل (*Gurzil*) وآمون(*Ammon*)، وسنيفار (*Sinifère*)، وماستيمان (*Mastiman*). [1] وكان ماستيمان يطلب قرابين [*] بشرية. [2]

يتضح مما سبق أن الليبيين اتهموا بالقرابين البشرية في نصين آخرين، وإن كانت قيمتهما في الحقيقة قليلة. وفيما يخص الإله ماستيمان، ليست لدينا أية مبررات لرفض شهادة كوريبوس، ذلك أن كثيرا من الشعوب في تلك الفترة مارست طقوس تقديم القرابين البشرية، وأنه من الصعب قبول فكرة أن المغاربة القدماء اقتبسوها من القرطاجيين.

وهكذا كان المغاربة القدماء الذين قدسوا بعل حمون، كانوا يتعبدونه تبعا للطقوس البونية. فعلى غرار ما كان يحدث في قرطاجة وفي المستوطنات الساحلية الأخرى التي تقع جنوبها، فإن الأضاحي كانت تقدم في سيرتا عقب أحد النذور، وبعد إجراء الاحتفال، يقام في المكان المقدس [**] نصب تذكاري يعلو بقايا الذبيحة. [***]

1- Corippus, Joh., VIII, 300.

**- تعتبر التقدمات المكونة من القرابين سواء كانت حيوانية أو بشرية من الهبات المقدمة للأرباب، عملية تطهير نفسي كان يمارسها المغاربة سواء كانوا ملوكا أو زعماء أو من عامة الناس. وفي نفس الوقت هي عبارة عن عملية تستهدف كسب حظوة لدى الآلهة من أجل التكفير عن الخطايا والتخفيف من غضبها، أو اعتقادا من الإنسان أن هذه التقدمات تسبب تكاثر الحيوانات وازدياد المحصول. مصطفى أعشي، المرجع السابق، ص 71.*

2-Corippus, Joh., VIII, 308-309.

***- أحد هذه الأمكنة المقدسة، تلة صغيرة بمعبد الحفرة البوني بقسنطينة، التي أخرج منها أكثر من 150 نصبا Stèles من القبور، وهناك معبدين آخرين لكنهما أقل أهمية يقعان جنوب غرب سيرتا. - Gsell (S.), A.A.A., f. 17, (Constantine), pp. 18-20.*

****- عن بقايا الأضاحي والقرابين المدفونة تحت الأنصاب. أنظر: - Id., H.A.A.N., t. IV, pp. 415-416.*

فقد عثر على أكثر من مائتي (200) نصب من هذه الأنصاب في مدينة سيرتا وحدها، وهذا ما يدل على انتشار طقوس الأضاحي البونية بشكل واسع على الأقل في العاصمة النوميدية، لقربها من قرطاجة واحتكاك سكانها بالقرطاجيين.

كما لوحظ أن نفس الرسوم المقدسة التي عثر عليها في سيرتا، وجدت كذلك على الأنصاب القرطاجية، وهي الهلال المقلوب على القرص، واليد المفتوحة، وشارة الطبابة (*Caducée*) (*) والرمز المعروف باسم رمز تانيت (*Tanit*). لكن هذا الرمز الأخير تحول إلى وجه إلهي في شكل إنساني، بينما صارت القائمة المحيطة به، ذراعا تحمل شارة الطبابة. (1)

وتمثل الثيران والكباش ومائدة الإهداءات والأواني والسكاكين – دون شك – الأضاحي وأدوات التضحية، ولكن مغزى بعض الرسوم الأخرى مشكوك فيها، مثل: الحصان، والمحراث والأشجار؟

يتضح مما سبق أن الإنسان المغربي القديم كان يقدم الحيوانات كقربان مثل الثيران والكباش، وهي عبارة عن قرابين دموية. أما إذا كانت التقدمة عبارة عن غلة من الغلال، فإنها تستهدف ازدياد المحصول. لذلك فظهور الحصان والمحراث والأشجار في بعض الرسوم، إنما يرمز إلى النشاط الزراعي في بلاد المغرب القديم.

وتشير بعض النقوش البونية المصاحبة لهذه الصور، أن الصيغ المستعملة شبيهة بالصيغ التي كانت تستعمل في قرطاجة (**) وعثر في مناطق عديدة من نوميديا، على أنصاب مماثلة غير مكتوبة أو تحتوي على كتابة بونية جديدة. (2)

**- صولجان تلتف عليه حيتان في أعلاه جناحان وهو شعار مهنة الطب. فرانسوا دوكربيه، مرجع سابق، ص 114.*

1- Gsell (S.), H.A.A.N., t.VI, p. 167.

*** – من هذه الصيغ التي وجدت على الأنصاب العبارة التالية: «لأنه = [بعل حمون] سمع صوته، فباركه، في اليوم السعيد، في اليوم المبارك».. Chabot (L.), Punica, p. 33 -*

2- Gsell (S.), et Joly (Ch. A.), Announa, pp. 32-34.

وقد استمرت العادة الفينيقية بإقامة الأنصاب فوق بقايا الأضاحي أو على القرابين، خلال الفترة الرومانية في جل المدن الساحلية والداخلية في المغرب القديم. [1]

واعتاد المغاربة القدماء، منذ القدم، أن يستخدموا شتى الطرق لتتكشف لهم الأشياء التي يجهلونها، وعلى الخصوص منها رؤية المستقبل. [2]

ولا يستبعد أن تكون فكرة بناء الأضرحة الضخمة والمعابد التي كانت قد شيدت للملوك والأمراء النوميديين فيما بعد، قد انطلقت مما أشير إليه آنفا. وبذلك كانت محلات للعبادة والتقديس من قبل الأحياء، أكثر من اقتصارها على دفن الموتى فقط.

وتمثلت هذه البنايات الدينية في الضريح الملكي الموريطاني المعروف بـ "قبر الرومية" بالقرب من تيبازة، والضريح الملكي النوميدي "مدغاسن" بالقرب من باتنة، (أنظر الشكل 2 أعلاه ص 34) و"صومعة الخروب" بقسنطينة، وأضرحة لجدار المورية في تيارت بالغرب الجزائري، وضريح دوقة (*Dougga*) بتونس.

وكان المغاربة القدماء مثل أسلافهم النازامون ينامون في المغارات، وفيها يتلقون– أثناء نومهم– النصائح التي يرجونها من العفاريت. وفي الصحراء، كانت نساء الطوارق (*Touaregs*) اللواتي يردن معرفة أخبار أزواجهن الغائبين، فإنهن يتمددن – كالنازامون–(*Nassamons*) فوق المقابر، حيث يعتقدن أن الميت أو أحد العفاريت يظهر لهن في الحلم ويخبرهن عليهم. [3]

ويذكر المؤرخ البيزنطي "بروكوبيوس" [4] (*Procopius*): **«عند الموريين يمنع على الرجال أن يتكهنوا بالنبوءات، ولكن النساء اللواتي يتلقين الإلهام بعد القيام ببعض الطقوس، فإنهن يتنبأن بالمستقبل، مثل العرافات القديمات (*Oracles*)».**

1-Toutain (J.), les cultes païens…, 1er partie, III, pp. 69-74.
2-Doutté, Magie et religion, p. 351.
3- Gsell (S.), Hérodote, Textes relatifs..., pp 184-185 ; Basset (H.), le culte des grottes, p. 61.
4- Procope, Guerre des Vandales…, II, 8, 13.

وقد أشار بعض المؤرخين الكلاسيكيين(*) إلى أن أم "ماسينيسا" (*Massinissa*) كانت عرافة (**) ولها موهبة التكهن بالغيب. (1) في حين يرى "س. غزال" أن "الكاهنة" ملكة الأوراس كانت عرافة قبل الإسلام حسب بعض الأساطير. (2) أما عرافة آمون (*Ammon*) الذي كانت له شهرة بارزة طوال عدة قرون، فقد أهمل نوعا مع بداية الفترة المسيحية. (3)

يبدو أن ذلك يعود – حسب اعتقادي– إلى تراجع الممارسات الوثنية نتيجة ظهور الديانة المسيحية. ويشير "كوريبوس" (*Corippus*) « **أن أميران من الأهالي جاءا في عهده – أي في القرن السادس الميلادي– لاستشارة إله الواحة.**»(4) غير أن هذا إنما كان من قبيل الخيالات الشعرية، فما قاله "كوريبوس" عن الطريقة التي أعطيت بها النبوءات (*Prophéties*) كان مستقى من الأوصاف الكلاسيكية لعرافات أخرى، وقوله هذا ليس متوافقا مع ما نعرفه عن عرافة آمون.

يمكننا أن نثق فيما قاله "كوريبوس" عندما يتحدث عن المغاربة القدماء وهم يبحثون لمعرفة المستقبل في أحشاء القرابين والأضاحي.(***) يظهر أن هذه الطريقة في الكهانة استعيرت قبل ذلك بعدة قرون من القرطاجيين أو من الرومان. (5)

---

*– نذكر منهم: "سيليوس إيطاليكوس" *Silius Italicus* و" زوناراس " *Zonaras*.

**– كانت النساء تتنبأن بالغيب خلال الفترة الرومانية في معبد "كايلستيس" *Caelestis* في قرطاجة وهي إلهة محلية تعتبر استنساخا للإلهة "تانيت" *Tanit* خلال الفترة النوميدية–الرومانية، وكانت تعبد من طرف الليبيين ثم القرطاجيين والمغاربة المترومنين، ثم الرومان من بعدهم، ويحتمل أن يكون هذا التقليد من أصل بوني. - *Lepelly (C.), Déclin ou stabilité de l'agriculture, Ant. Afr., I, 1967 pp. 135-141.*

1- Zonaras, IX, 12 ; Silius Italicus, XVI, 124..

2- Gsell (S.), H.A.A.N., t.V, pp. 39-40.

3- Strabon, XVII, 1, 43.

4- Corippus, Joh., III, 81 ; VI, 145.

***– ويذكر "كوريبوس" في الفصل الثالث من كتابه "جوهانيد" (*III, 88-89*) نفس طريقة التنبؤ المستعملة – كما قال–من طرف كاهنات عرافة آمون *l'oracle d'Ammon*. - *Corippus, Joh., VIII, 315-317.*

5- Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 422.

كان للتنجيم حظوة ومكانة رفيعة في إفريقيا الرومانية.(*) إلا أنه ليست لدينا الأدلة الكافية لنؤكد على ممارسة التنجيم في قرطاجة، ونجهل ما إذا كان النوميديون والموريين قد مارسوه في عهد ملوكهم. لكن من الثابت أن الليبيين قد مارسوا التنجيم في الفترة النوميدية. قد تعود إلى القرن الخامس ق.م كما هو الحال عند معظم الشعوب البدائية.

وكان المنجم في أغلب الحالات امرأة وليس رجلا. يذكر المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" (1) في هذا السياق: «**أن قبائل الناسامون (*Nassamons*) كانوا يمارسون التنبؤ والتنجيم، وذلك بالتوجه إلى مقابر أجدادهم وأسلافهم، فيؤدون الصلاة،** (**) **ثم ينامون على القبور، ويعتبرون كل أحلامهم وحيا يجب اتباعه، بعد أن يكونوا قد نووا نذرا بالالتزام بما سيرونه في الأحلام».** (***)

وذكر "أوريك بيتس" أن نساء الطوارق في قرية الأصنام بـ "غدامس" في ليبيا، كن في مطلع القرن الحالي يرتدين أجمل الملابس ثم يذهبن إلى بعض القبور المعروفة في المنطقة مثل قبر "زبار" (*Zabbar*)، حيث ينادين الروح الساكنة بين القبور والتي كانت تعرف عند الطوارق باسم "إدبني" (****) (*Idebni*) فتظهر لهن على شكل عملاق

---

*– تحدث القديس أوغسطين كثيرا عن تلك الثقة التي حظي بها المنجمون من طرف مواطنيه، والتي كان هو نفسه ضحية لها في شبابه. - *Apulée, Apologie, XCVII ; Toutain (J.), les cultes païens…, Ier partie, II, pp. 194-196.*

1- Hérodote, IV, 172.

**– ترجم. غزال لفظ "*Kapenxamemeroi*" بعبارة " بعد أداء الصلاة"، والحقيقة أن المعنى غير دقيق، فهذه الممارسة لا تعدو أن تكون طقوسا تقوم بها قبائل الناسامون *Nassamons* على قبور الأسلاف لاسترضائهم أو استشارتهم. -*Gsell (S.), Hérodote, p.184 ; Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, p.557.*

***– وهناك من الكتاب الذين نقلوا عن هيرودوت مثل بومبونيوس ميلا و بلين القديم، من ذكر قبائل "الأوجيل" (*les Augiles*) بدل "الناسامون" (*Nassamons*) - *Pomponius Méla, I, 46 ; Pline l'Ancien, H.N., V, 45.*

****– إدبني –*Idebni* ، كلمة أمازيغية تعني في لغة الطوارق: القبر.

عيناه بحجم عيني الجمل وتجيب على أسئلتهن التي لا تعدو أن تكون استفسارا عن زوج أو قريب. (1)

يبدو أن هذه الرواية التي أوردها " أوريك بيتس" تؤكد ما ذهب إليه "بومبونيوس ميلا" و"هيرودوت"، من أن تلك الطقوس كانت متأصلة في عادات سكان المغرب القديم.

يتضح مما سبق، أن هذه الطقوس لا تزال تمارس لدى الأمازيغ وعلى وجه الخصوص في الصحراء. (*) وهي تؤكد إلى جانب المعطيات الأثرية الأخيرة ما ذهب إليه "هيرودوت"، من أن "الناسامون" في واحة "أوجيلة" (**) (*Augila*)، كانت أرواح السلف المؤلهين بالنسبة لهم، تعتبر ذات صلة بالسماء وكانت تستشار بطريقة مشابهة.

1-Bates (O.), Op.cit., p.178.

** – كشفت الأبحاث الأثرية أخيرا عن أنواع عديدة من المعالم البروتو–تاريخية Protohistoriques لها علاقة بهذه الطقوس، و تنتشر خاصة في الصحراء الكبرى من موريطانيا غربا إلى فزان شرقا (جنوب غرب ليبيا)، وقد تتعدى هذه المنطقة لتصل إلى مصر وبلاد النوبة، ويتعلق الأمر بعدة أضرحة (قبور التيميلوس Tumulus ذات القبة)، لعلها كانت أماكن يمارس فيها طقس التعبد ومنها: قبور نقرين بهضبة النمامشة، و تاوز في منطقة البرابر بالمغرب، و بويا بتافيلالت و مرايتي و بير أم قرن و لبني في موريطانيا. - Camps (G.), sur trois types peu connus de Monuments funéraires Nord-Africains, Bull. Soc. Préhist. Franc., t. LVI, 1959, pp.101-108; Reygasse (M.), Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord, Paris, 1951, p.33 ; De Foucault (Père ch.), Dictionnaire abrégé Touareg-Français, 1913, p.115.*

*** – **أوجيلة** Augila، تنطق أيضا "أودجيلة" و "أوجلة"، وهي واحة تقع جنوبي بنغازي بليبيا الحالية على بعد 250 كلم من خليج السرت الكبير، وعلى بعد 241 كلم غرب دجالو، أغلب سكانها من الأمازيغ. وقد أشار إليها العديد من الكتاب الكلاسيكيين مثل: هيرودوت، وبلينوس القديم، وبطليموس، وبومبونيوس ميلا، وبروكوبيوس، وحسب سترابون فقد كان بها معبد لآمون. - Pline l'ancien,V, 226 ; Pomponius Méla,23, 46 ; Strabon, XVII, 23.*

الفصل الثالث

المعبودات الوثنية الأجنبية الوافدة إلى بلاد المغرب القديم

المبحث الأول –المعبودات المصرية

المبحث الثاني –المعبودات الفينيقية – البونية

المبحث الثالث –المعبودات الإغريقية

المبحث الرابع –المعبودات الرومانية

كان الشعور الديني عند المغاربة القدماء قويا، إلا أن مكلة الابتكار عندهم كانت محدودة، لذلك استعاروا من البلدان المجاورة بعض الآلهة التي عبدوها.

وبما أن القبائل الليبية كانت تستقر فيما بين وادي النيل شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا حسب ما ذكره هيرودوت. (1) فقد تأثر الليبيون –بحكم الجوار– بالأمم المتطورة فكريا وماديا كالفينيقيين والمصريين، فاقتبسوا عنهم بعض طقوسهم الدينية. (2) من هذا المنطلق أعالج في هذا الفصل بعض المعبودات المصرية التي تأثر بها الليبيون وعبدوها مثل الإلهين آمون وحتحور والإلهتين إيزيس ونيت والطقوس المرتبطة بهذه الآلهة، إضافة إلى بعض المعبودات الفينيقية والإغريقية والرومانية التي وفدت إلى بلاد المغرب القديم.

<u>المبحث الأول: المعبودات المصرية</u>: أشار "بومبونيوس ميلا" (*Pomponius Mela*) في القرن السادس الميلادي إلى: «***أن سكان سواحل شمال إفريقيا ابتداء من أعمدة هرقل، قد تبنوا في كل نقطة من هذا الساحل عاداتنا وتقاليدنا.*** » (3)

وهذا ما أكده ابن خلدون بعد ذلك في القرن الرابع عشر الميلادي: « ***وحدث من وقت لآخر أن البربر اعتنقوا ديانة المنتصر، فالأمم الضعيفة دائما تخضع لإرادة الأمم القوية.*** » (4) وطبقا للمبدأ القائل: بانبهار المغلوب بالغالب وأن الغالب يفرض إرادته دائما على المغلوب، فلا غرابة في وجود معبودات مصرية (الشكل رقم 9 ص 111) عند اللوبيون ومنها:

1- Hérodote, II, 16.

2- *Mercier (G.), Les divinités libyques…, p. 178.*

3- *Pomponius Mela, De Situ Orbis, I, 6.*

4- *ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص. 106.*

1- الإله آمون : أخذ اللوبيون عن المصريين عبادة آمون (*Amon*) أو أمّون (*Ammon*) [1] معبود واحة سيوة (*Siwa*) بغرب مصر، وفي عهد الدولة الوسطى عندما أصبحت مدينة طيبة (*Thèbes*) عاصمة للدولة أصبح إلهها المحلي إلها رسميا للدولة. [2] أما كون آمون في شكله الأولي كان إله كبش قد انتقل من ليبيا إلى طيبة في العصر القديم. والقول بأن آمون *Ammon* كان في اللغة الليبية هو اسم كبش، [3] فهذا قول يمكن قبوله لكن بكثير من التحفظ، وفرضية لاتزال في حاجة إلى بحث وتحقيق.

وقد أشار بعض الباحثين المحدثين إلى أن الإله الكبش الأولي قد اتخذ في طيبة مظهرا خاصا، حيث أنه مثل بشكل إنسان، ولم يحتفظ من الكبش سوى بالرأس. [4] لذلك يبدو أن الإله "آمون" صور بأشكال متعددة. [5] فقد يظهر أحيانا على هيئة الكبش المذكور آنفا، أو على هيئة التماثيل التي ترمز له والتي وجدت في المقابر البونية، وتظهره وهو يلبس قرني كبش، وظهر في حالة واحدة فقط كان يحمل على ساعده الأيسر كبشا قائما. وتجدر الإشارة هنا أن مقدمات السفن القرطاجية كثيرا ما كانت تأخذ شكل إله برأس كبش، مما يدل على تقديس الكبش عند المغاربة القدماء.

ويذكر "سيليوس إيطاليكوس" (*Silius Italicus*) في هذا السياق وهو يصف معركة بحرية بين القرطاجيين وأعدائهم، أن قبطان إحدى السفن القرطاجية عندما رأى سفينته قد غرقت أخذ سكينه وطعن به نفسه، وقدم دمه قربانا بسكبه بين قرني الكبش المقدس على مقدم سفينته. [6]

1- *Basset (H.), Quelques notes sur l'Ammon libyque…, p. 12.*

2- *نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر، دمشق، 1972، ص.113.*

3- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p. 252.*

4- *شباحي مسعود، حركة أخناتون الدينية (1367-1350 ق.م)، دراسة تحليلية، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، جامعة الجزائر، 2008-2009م، ص ص 81-82.*

5 - *Cumont, Franz, les religions orientales dans le paganisme romain, 2é édit., Paris, Ernest Leroux, 1909, p. 113.*

6- *Silius Italicus, les guerres Puniques, XIV.*

لعل اللوبيون كانوا قد تأثروا كثيرا بعبادة الإله آمون المصري الذي كان معبده في واحة أمونيوم "*Siwa =Amonium*–سيوة" (الشكل رقم 8 ص 110) مقصد الكثيرين من أرجاء العالم القديم.

يبدو أن عبادته شاعت وانتشرت على نطاق واسع في لوبة، ومما يدل على انتشارها كثرة الأماكن المسماة باسم هذا الإله، فقد كان له معبد في أوجيلة (*Augila*)، ومحطة آمون يقال لها "آمونكلا" على ساحل خليج السرت الكبير، ومحطة آمون قرب القوس الرخامي عند مذبح الأخوين فيلني (*Philaenorum Arae*). وكان الإغريق يعرفونها باسم آمونوس هالوس (*Ammonos Halous*)، وتل آمون جنوبي بنغازي. [1]

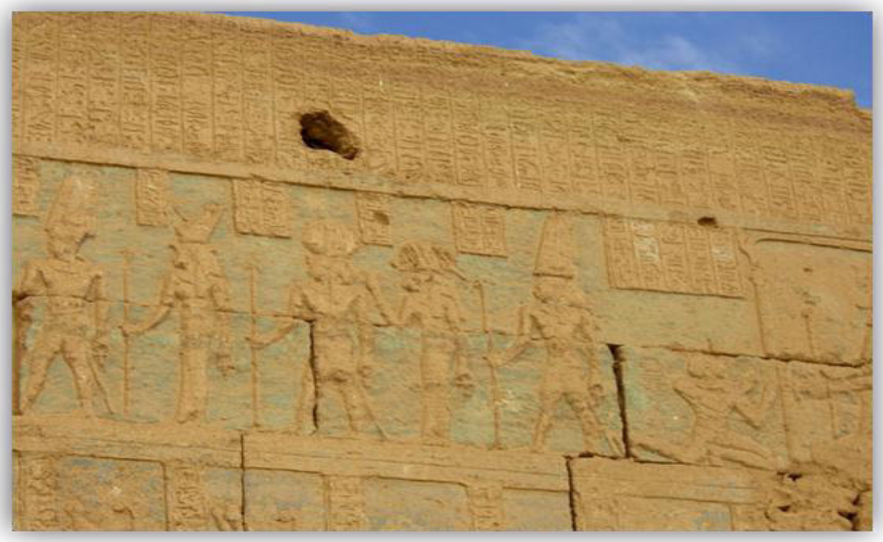
وقد تطورت عبادة الإله آمون عند اللوبيون، ذلك أن اتساع مساحة المغرب القديم وغلبة الطبيعة الصحراوية عليه وصعوبة معرفة المسالك، كلها عوامل استدعت وجود إله مواصلات يكون رفيقا ودليلا إلهيا للمسافرين.

وقد راجت عدة أساطير حول طبيعة هذا الإله الجديد، منها أسطورة تتعلق بسفر ديونيسوس [*] (*Dionysos*) أو هيراكليس[**] (*Héraclès*) الذي كان يعبر صحراء ليبيا في طريقه إلى الهند، فاشتد به العطش مما دعاه إلى الاستغاثة بأبيه الإله زيوس (*Zeus*) فأرسل إليه كبشا هو آمون المقدس فحفر بقائمتيه حتى استخرج الماء. [2]

وتشير مصادر أخرى إلى رحلة "الإسكندر المقدوني" إلى واحة سيوة (*Siwa*)، حينما وجد نفسه وجيشه بعد أيام من مغادرتهم الساحل، وسط متاهة في قلب الصحراء

1- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1966، ص 45.
- Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 286
- **ديونيسوس، إله روماني يعرف أيضا باسم "ليبر" (Liber) وهو إله العنب في الأساطير الرومانية، وعند الإغريق باسم ديونيسوس أو باخوس (Bacchus). جفري بارندر، المرجع السابق، ص 344.*
***- عن هيراكليس الإغريقي، أنظر أعلاه، ص 39.*
2- البرغوثي عبد اللطيف محمود، التاريخ الليبي القديم، دار تامغناست، د. ت.، ج1، ص 138.

يستحيل عليهم الخروج منها. ولم يلبث ماؤهم أن نفذ، وأوشكوا أن يهلكوا لولا أن تدخلت عناية الإله آمون فجعلت السماء تمطر عليهم مما يبل ضمأهم، ثم وجهت خطاهم حتى وصلوا إلى واحة سيوة، وعادوا منها إلى ديارهم أي إلى اليونان. [1]



الشكل 8: معبد الإله آمون بواحة سيوة.

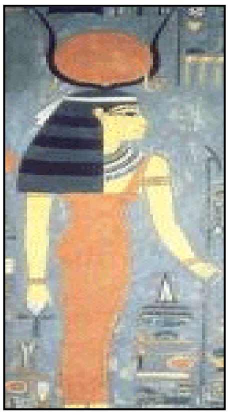
نحت بارز بمعبد آمون بواحة سيوة: نلاحظ على اليمين حاكم سيوة "أونامون" راكعا أمام آمون– رع وخلفه المعبودات السبع.

نقلا عن: *w.w.w. wikemedia.org.* تاريخ الزيارة: 02/ 08/ 2015.

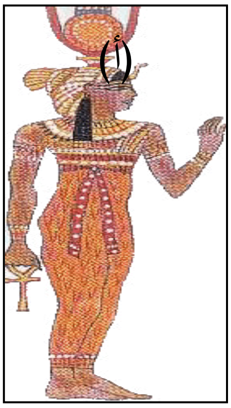
1- *البرغوثي عبد اللطيف محمود، المرجع نفسه، ص 143.*



(أ)



(ب)



(ج)



الشكل 9: أهم الآلهة المصرية التي قدسها اللوبيون.

أ-الإله آمون أكثر الآلهة المصرية شعبية، فهو إله الدولة، يرتبط ارتباطا وثيقا بالكبش.
ب-إزيس الإلهة الساحرة، وتحمل نفس رموز الإلهة حتحور.
ج-حتحور إلهة الموتى والإلهة الأم، وهي عين الإله "رع"، تظهر في شكل امرأة لها قرون بقرة يعلوها قرص الشمس، وقد تظهر في شكل بقرة.

نقلا عن: *www.cairomeusem.eg*

تاريخ الزيارة: 2015/08/02.

يعتقد بعض المؤرخين أن واحة سيوة ظلت ليبية حتى احتلها المصريون في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وعندما احتلوها وجدوا أن سكانها الليبيين كانوا يعبدون إلها مشهورا عندهم، فأطلق عليه المصريون اسم زيوس–آمون (*Zeus-Amon*) باسم رئيس الآلهة المصرية «آمون–طيبة». ودارت أساطير عديدة حول الإله الليبي منها أنه كان راعيا، وأنه أهدى عددا كثيرا من المواشي للإله "ديونيسوس" (*Dionysos*) فكافأه هذا الأخير حيث أعطاه أرضا في طيبة ورفعه إلى مرتبة الآلهة. [1]

وورد في أسطورة أخرى أن بعض الرعاة وجدوا في منطقة بين قرطاجة وقورينة طفلا جالسا على الرمل وهو يضع على رأسه قرني كبش، ويتفوه بالنبوءات، وعندما رفعوه عن الرمل توقف عن الكلام، فلما أعادوه إليه استأنف الكلام. وهكذا لما اختفى فجأة عرف الرعاة طبيعته الإلهية، وبدأوا يعبدونه باسم الإله زيوس–آمون. [2]

يبدو أن هذه الأساطير إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى التقارب الوثيق الذي حدث في الأذهان بين الإلهين: آمون سيوة الليبي، وآمون طيبة المصري.

ويذكر "ديودور الصقلي" أن آمون كان ملكا ليبيا أسطوريا. [3] بينما يرى "هيرودوت" في قصته القائلة أن إله سيوة من طيبة بمصر– ويلاحظ أن القصة نفسها من طيبة أيضا– وأن موحى هذا الإله في سيوة إنما أسسته امرأة. [4]

ويشير "أوريك بيتس" (*O.Bates*) أن الحيوان المقدس لهذا الإله الليبي كان كبشا. [5]

وقد تلقف المصريون هذه الحقيقة بحماس شديد لدى استيلائهم على واحة سيوة، لأن الحيوان المقدس لإلههم آمون طيبة كان الكبش أيضا، وهذا التوافق يؤدي إلى تعزيز

1- *البرغوثي عبد اللطيف محمود، المرجع نفسه، ص 138.*

2- *نفسه، ص 139.*

3- *Diodore de Sicile, III, 68.*

4- *Hérodote, II, 124, 125.*

5 - *Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co.Limited, St.Martin S.St., London 1914, p. 195.*

الروابط بين الإلهين الليبي والمصري. كما تشير بعض النصوص القديمة إلى أي حد كان الإله آمون شعبيا فيما بين السرتين (السرت الصغير والسرت الكبير)، حيث أن مناطق كثيرة كانت تحمل اسمه. [1] واحتفظت به فيما بعد، فآمون لم يتشخص فيها – على غرار ما حدث في غيرها– في إله بوني ولا في إله لاتيني. ففي بداية الفترة المسيحية كان آمون وليس بعل حمون هو الذي ذكر في إحدى النقوش باللغة البونية، والتي عثر عليها قرب مدينة لبتيس ماغنا [*] (*Leptis Magna*) المستوطنة الفينيقية القديمة. [2]

وكان سكان مقاطعة طرابلس (*Tripolitaine*) في بداية الفترة البيزنطية لا يزالون أوفياء للإله آمون [3]، لكنه تقدم كثيرا نحو الغرب، فكان له على ما يبدو عباد من بين السكان ذوي الدم المختلط البوني– الليبي، في بعض المدن بالساحل الجزائري. [**]

ويذكر "هيرودوت" عن أصل الإله آمون ووقت قدومه من مصر إلى ليبيا، أن كهنة معبد زيوس (*Zeus*) بطيبة أخبروه أن بعض الفينيقيين قد خطفوا امرأتين وهبتا نفسيهما لخدمة الإله زيوس، قاموا ببيعها إذ بيعت الأولى في ليبيا، والثانية للإغريق، فكانت هاتان المرأتان أول من عمل على تأسيس معبد لهذا الإله. [4]

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 286.*

* – ***لبتيس ماغنا،*** *هي مدينة لبدة في ليبيا حاليا، وكانت تسمى " نيابوليس" (Néapolis) خلال الفترة الرومانية.*

- Strabon, XVII, p. 835 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, p. 101.

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p. 143.*

3- *Corippus, Joh., II, 110 ; III, 81.*

** – *عثر على عدة نقوش كتبت بالبونية الجديدة في شرشال وبورتوس ماغنوس (Portus Magnus) "بطيوة" حاليا قرب وهران، تحمل إهداءات إلى بعل حمون وأخرى إلى آمون.* *- Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 279 ; t.VI, p. 144.*

4- *Hérodote, II, 124, 125.*

ومع ذلك، فالأرجح أن آمون كان الإله الأعلى للمغاربة القدماء، وكانت عبادته منتشرة على نطاق واسع في المغرب القديم. [1] وما يدل على ذلك الرسوم الصخرية التي عثر عليها في الأطلس الصحراوي والهقار والطاسيلي. ومنها رسوم "بوعلام" (*Bou'Alem*) (أنظر الشكل رقم 10 ص 116) في الجنوب الوهراني، والتي تمثل كباش تحمل على رؤوسها قرص الشمس مرفق بحية مقدسة (*Uræus*). [*] [2] وهذا ما دعا "غوستاف مرسيي" إلى اقتراح وجود إله محلي أعلى في نوميديا. [3]

غير أنه قد لا نكون مخطئين أن نرى فيه النموذج الأصلي لآمون المصري، والاعتقاد الراجح أنها نوع من الرسوم المصرية، كالرسوم الصخرية التي يحتمل أنها اكتشفت في "تليصو" (*Telissau*) غرب فزان في ليبيا، والنقش البارز الذي عثر عليه في أسس "برج طاسكو" (*Tasko*) بغدامس جنوب غرب ليبيا. [4]

وتوجد أدلة أخرى على تقديس وعبادة الكبش الذي يمثل الشمس، والذي لا نرى فيه تقليدا مصريا، إنه النصب الذي عثر عليه سنة 1851م في أرزيو بالقرب من وهران في الغرب الجزائري، ويمثل رأس منحوتة بغير إتقان وأنف لا يظهر جليا، وثقبين صغيرين يمثلان العيون، أما الأذنين والفم فقد تم تمثيلهما بخط غائر، والقرون الملتوية متجهة نحو الأسفل، والذراعين ملتصقتين بالجسم ومستوى اليدين فوق السرة، أما القسم السفلي من الجسم فينتهي في غمد. [5]

1- حارش محمد الهادي،« أصول عبادة آمون في المغرب القديم» ، مجلة التاريخ، رقم 24، 1987، المركز الوطني للدراسات التاريخية، ص 7.

**- هي صورة حية كانت تزين شعر الفراعنة في مصر.*

2- *Gsell (S.), Monuments Antiques de l'Algérie, t. I, p. 53.*

3- *Mercier (G.), les divinités libyques, R.S.A.C., t. XXXIV, 1900, (pp. 177-193), P.180.*

4- *Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, R.H.R., 1910, p. 12.*

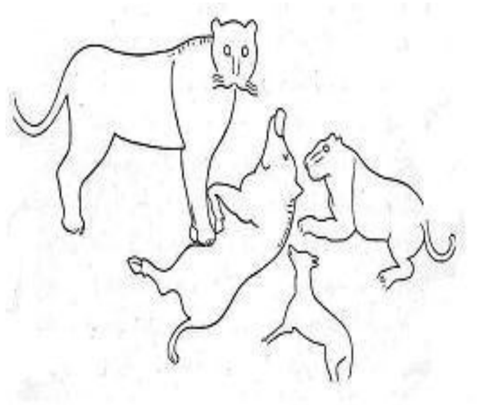
5- *Berbrugger (A.), Bibliothèque –Musée d'Alger, Alger, 1861, pp. 29-30.*

وقد عثر في واحة توات بالصحراء الجزائرية على صنم مماثل والذي يسمى "صنم الجيتول"؟ [1] ويمكن تشبيهه بإله الشمس الليبي "قورزيل" (*Gurzil*) الذي كان "إيرنا" (*Ierna*) كاهنه وخادمه و"جوبيتر آمون" (*Jupiter amon*) والده، [2] وحسب "كوريبوس" فقد ولد من بقرة. [3]

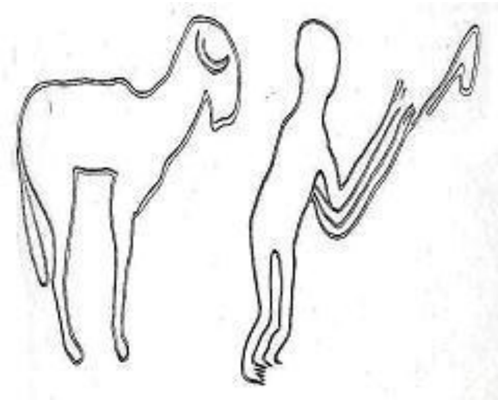
يبدو أن "إيرنا كان من قبيلة لواتة (*Laguatan*). وحسب ما أورده "كوريبوس" فقد كان ملكا وكاهنا للإله " قورزيل" خلال القرن السادس الميلادي. مما يدل على وجود هيئة كهنوتية خلال تلك الفترة. ويظهر أن تسمية "قورزا" كانت تحملها عدة مناطق أخرى في بلاد المغرب القديم، فقد ذكر "بوليبيوس" أنها اسم مدينة تقع قرب أوتيكا (*Utique*) وقرطاجة (*Carthage*). [4]

وقد توافرت رسوم الكبش الليبي في كل من الجنوب الوهراني في منطقة الريشة (*Er-richa*) بآفلو قرب الأغواط، وفج زناقة (*Zenaga*) بمنطقة الفقيق (*Figuig*) قرب الحدود الجزائرية–المغربية، وعين الناقة والصافي بورنان في الجلفة، وقصر زكار[5]، يضاف إلى ذلك بعض الرسوم الصخرية في الهرية شرق قسنطينة، وخنقة الحجر في منطقة قالمة، ووادي التل جنوب غرب بسكرة، و مناطق أخرى مثل: قصر الأحمر، تيوت، موغار، عسلة، وخروبة في الجنوب الوهراني. [6] (أنظر الشكل 10 ص 116).

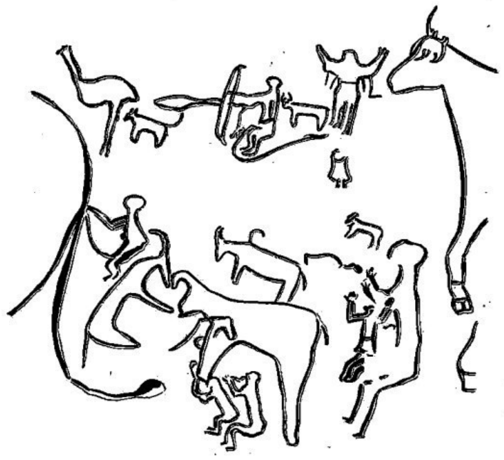
1- *Gautier (E.F.), le Sahara Algérien, p. 253.*
2- *Corippus, Joh., II, 109-110 ; V, 494-495.*
3- *Corippus, Joh., II, 111.*
4- *Polybe, I, 74.*
5- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p. 250 ; Germain (M.G.), le culte du bélier en Afrique du nord, Hespéris, 1948, pp. 93-124.*
6- *Berthier (A.), L'Algérie et son passé, édit, A. et J. Picard, Paris, 1951, p. 43 ; Gsell (S.), Monuments…, I, pp. 41-47.*



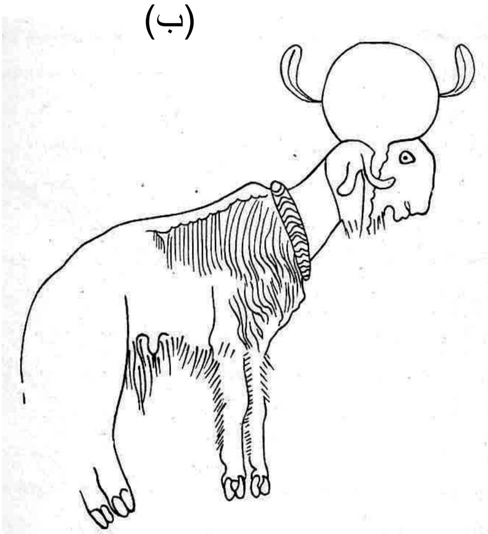
(أ)



(ب)



(ج)



(د)

الشكل 10: رسوم الكبش الليبي الصخرية في الجنوب الوهراني:

أ–رسم صخري من تيوت (15 كلم شمال شرق عين الصفراء).
ب–رسم صخري يبين كبش بوعلام (35 كلم شمال البيض).
ج–رسم صخري من كاف مسيوار (سدراتة).
د–رسم صخري من قصر الأحمر (40 كلم جنوب غرب البيض).

نقلا عن: أ، ب، ج: *-Gsell (S.), Monuments Antiques de l'Algérie, t. I, pp.42, 45,46, 48.*

د: *Joleaud (Léonce), Op.cit., p.220.*

لقد استمرت عبادة الكبش لمدة طويلة إلى غاية فترة ما بعد الفتح الإسلامي نظرا لانتشارها الواسع وامتداد جذورها في أعماق تاريخ المغرب القديم.

فقد ذكر "البكري" في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أن بعض القبائل في مقاطعة طرابلس (*Tripolitaine*) ومنها قبيلة هوارة (*Houaras*) كانت تعبد صنما من حجر في مكان مرتفع يسمى " قورزا" (*Ghorza*) فتقدم له الأضاحي وتتوجه إليه بالصلاة والتضرع تطلب الشفاء لقطعانها. (1)

إلا أنه لم يشر إلى شكل ذلك الصنم، هل هو صنم أمازيغي من نفس نوع الأصنام التي ذكرها "البكري" نفسه باسم "ماغماديس" (*Maghmades*)؟ ويعني بها ربما: " ماكوماداس" (*) (*Macomades*). (2)

يتضح مما سبق أن هذه الرسوم الصخرية تدل على أن سكان المغرب القديم قد عبدوا آلهة محلية أو آلهة القبائل والعشائر الأخرى منذ أقدم العصور. كما انتشرت عبادة آلهة سماوية كثيرة مثل الشمس في الجنوب الوهراني من آفلو إلى واحة الفقيق بالمغرب الأقصى قرب الحدود الجزائرية، وفي مواقع أخرى عديدة تتوسط المغرب القديم ومصر.

2-**الإلهة حتحور:** كان التأثير المصري في ديانة الليبيين واضحا، فالإلهة "حتحور" (*Hathor*) كانت أكثر الآلهة المصرية انتشارا بينهم، فهي أصل الإله الثور المغربي المقدس في المنطقة الشرقية من ليبيا. وكانت تتمتع بخصائص مميزة فهي الإلهة الأم، وهي عين الإله "رع" (*Ré*) ومن وظائفها أنها إلهة الموتى، لاسيما في مدينة طيبة المصرية، قد تنزل الدمار بالأعداء. وتظهر هذه الآلهة في شكل امرأة لها قرون بقرة

1- El-Bekri, Op.cit., p. 12.

- **ماكوماداس، هي مدينة أم البواقي حاليا في الشرق الجزائري، كانت تعرف باسم Macomades Rusticiana خلال الفترة الرومانية، وباسم كانروبير (Canrobert) خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية. - Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne.., p.420.*

2- El-Bekri, Op.cit., p. 7.

يعلوها قرص الشمس. [1] وقد تظهر في صورة بقرة أو إلهة برأس بقرة حامية للنساء، وهي أيضا إلهة الفرح ومغذية الأحياء بحليبها وهو الدور الغالب عليها كإلهة جنائزية. [2]

وجدت لها رسوم على فصوص جعالين أو على الجص، عثر عليها في عدة مواقع ساحلية من بلاد المغرب القديم خاصة في قرطاجة، وشرشال، وليكسوس. [3]

يبدو أن عبادة الإلهة "حتحور" كان محدودا في بلاد المغرب القديم، فقد كانت أكثر الآلهة المصرية انتشارا في شرق ليبيا، واقتصر وجودها في عدة مواقع في قرطاجة بتونس، وشرشال في الجزائر، وليكسوس في المغرب الأقصى.

3-**<u>الإلهة إيزيس:</u>** تعتبر الإلهة "إيزيس" (*Isis*) من الآلهة المصرية التي قدسها الليبيون، وهي أخت وزوجة الإله "أوزيريس" (*Osiris*) التي حمته من أخطار كثيرة بوصفها الإلهة الساحرة، والتي صورت في أشكال عديدة منها صورة البقرة. [4]

لقد استعار الفينيقيون من الديانة المصرية أسماء آلهة ذات الاستعمال الأكثر في فينيقيا. وكان الآباء يضعون أبناءهم تحت حماية معبد الآلهة المصرية، وعلى رأسها "أوزيريس".

وبالرغم من أنه لا توجد أدلة تثبت أن هذه المعبودات كانت تحظى بالتبجيل والتوقير بشكل رسمي في قرطاجة. لكن يمكن أن تكون عبادة "أوزيريس" قد حلت بالمنطقة منذ وقت مبكر، ثم فيما بعد في القرن الثاني والأول قبل الميلاد، حيث وجدت صور "إزيس" (*Isis*)، و"أوزيريس" (*Osiris*)، (أنظر الشكل 11 ص 121) و"نفتيس" (*Nephtys*) ممثلة على بعض النقود في فترة سابقة للسيطرة البونية، عثر عليها في

1- *Gautier (E.F.), le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs du Maghreb, p. 32.*

2- شباحي مسعود، *المرجع السابق*، ص 38.

3- هورنوج أريك، *ديانة مصر الفرعونية الوحدانية والتعددية*، ترجمة محمود ماهر طه ومصطفى أبو الخير، مطبعة مدبولي، مصر، د.ت، ص. 278.

4- *المرجع نفسه*، ص. 279.

منطقة "كوسورا" (*Cossura*) بجزر "بونتيليريا" [*] (*Pantelleria*)، كما تم العثور على نقود أخرى تمثل الإلهة "إيزيس" أو "عشتارت" في "إيزيس" في صبراتة (*Sabratha*)، وتاناي (*Thanae*)، ومدن أخرى في المغرب القديم تحمل صورا للإلهة "سيرابيس" (*Sérapis*). [1]

يبدو أن المعبودات المصرية التي تعود إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، قد احتلت مكانة هامة في الأساطير والخرافات الخاصة بالأفراد أكثر من المعتقدات الشعبية العامة.

فقد ذكر "هيرودوت" أن الإلهة إيزيس كانت مقدسة عند نساء ليبيات من قرينة (*Cyrénaïque*). لكن يجهل الفترة التي دخلت فيها هذه العبادة إلى المنطقة. فكانت نساء منطقة قرينة يحرمن على أنفسهن أكل لحم البقر تقديسا واحتراما للإلهة المصرية "إيزيس"[2] التي كانت البقرة رمزا لها. وحتى من تأغرقوا منهم كانوا يسلكون سلوكا مشابها.

وزيادة على ذلك فإن نساء مدينة برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر فقط، بل حرمن على أنفسهن أكل لحم الخنزير. [3] وعثر في النصوص البونية على كتابة ترمز إلى الإلهة "إيزيس" في قرطاجة تحت اسم "إيس" (*Is*). ومن الآباء القرطاجيين من سمى ابنه باسم "إيس" تيمنا بهذه الإلهة المصرية التي يعتقد أنها إلهة النساء والحب والزواج. [4]

---

*- ***بونتيليريا***، هي مجموعة من الجزر الصغيرة تتوسط الضفة الجنوبية لجزيرة صقلية والساحل الإفريقي وكانت تمثل قديما محطة عبور وتوقف بين الشرق القديم وصقلية أو بينهما وبين قرطاجة، وهي بمثابة " بوابة غرب المتوسط" بالنسبة للفينيقيين.* - *Gsell (S.), H.A.A.N., t .IV, p. 121.*

1- *Ibid., pp. 341-342.*

2- *Hérodote, IV, 186.*

3- البرغوثي، عبد اللطيف محمود، المرجع السابق، ص. 129.

4- فنطر، محمد حسين، الحرف والصورة في عالم قرطاجة، منشورات البحر المتوسط، تونس، 1999، ص. 311.

يتضح أن عبادة "إيزيس" دخلت موريطانيا القيصرية في عهد "يوبا الثاني" عن طريق زوجته المصرية "كليوباترا سيليني" (*Cléopâtre Séléné*).[1] حيث تكثر النقوش التي تحمل صورها، وأخرى تمثل صورا مشتركة مع زوجها، والتي تذكر بوطنها مصر. وتشهد كذلك على إخلاصها للمعبودات المصرية والتي من أبرزها: رمز الإلهة "إيزيس" تعلوه زهرة اللوتس (*Lotus*) وشوكتان مرفقة بقرني بقرة محاطة بهلال، أو مزهر، أو ناقوس خشب يستعمل في الاحتفالات التي تقام على شرف الإلهة إيزيس، أو تمثل في شكل بقرة مقدسة تحمل على ظهرها رموز مقدسة كالتمساح، أو فرس النهر، أو طائر أبو منجل (*Ibis*) [*] في عراك مع ثعبان مجنح.[2]

وتجدر الإشارة أن هناك معبودات مصرية أخرى عبدت في بلاد المغرب القديم. فقد عثر في موقع "مرسط" (*Morsott*) بمنطقة تبسة على نصب لأربع إلهات سماوية مصرية. إلا أن انكسار النصب سمح بظهور الرؤوس فقط، إثنتان من هذه النصب تمثل الإلهة "حتحور" (*Hathor*) إلهة الحصاد وجمع الثمار بتسريحة شعر خاصة، والثالثة تسريحة بقرون، والرابعة مزودة بإكليل "تاج".[3] ومهما يكن من أمر، فإن نصب "مرسط" تؤكد على أن تسريحات شعر المعبودات الأربع من النموذج المصري البحت.

يتضح مما سبق أن الإلهة "إيزيس" (*Isis*) كانت من الآلهة المصرية التي قدسها الليبيون، وأن التأثير المصري في الديانة المغربية كان واضحا منذ زواج يوبا الثاني بالأميرة المصرية "كليوباترا سيليني".

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., t.VI, p. 159.*

*- *Ibis*، طائر أبو منجل، طائر مائي طويل القائمتين والمنقار، من الرموز المقدسة في الديانة المصرية القديمة.

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., t.VIII, p. 241-242.*

3- *Le Glay (M.), Saturne Africain, Histoire…, p. 246.*



الشكل رقم 11: الإلهة "إيزيس" (*Isis*) والإله "أوزيريس" (*Osiris*)

الإله "أوزيريس" (في الوسط) محاط بزوجته الإلهة الساحرة "إيزيس" (على اليمين) والتي صورت في أشكال عديدة منها صورة البقرة، وابنهما حورس الإله الصقر (على اليسار) وهم من الآلهة المصرية التي قدسها الليبيون.

نقلا عن: *w.w.w. muséelouve.fr*

تاريخ الزيارة:2015/08/20

<u>4-الإلهة نيت:</u> يرى بعض المؤرخين المحدثين (*) أن بعض علامات الوشم التي وجدت على رسوم الليبيين في النقوش المصرية إنما هي في الواقع رموز دينية. من ذلك أن الوشم الذي يتخذ هيئة الصليب، إنما يرمز إلى إله الشمس [1] باعتبار الصليب رمزا لأشعتها، وما تزال هذه العلامات توجد بين القبائل الامازيغية حتى اليوم.

وأن بعض العلامات الأخرى كانت تشير إلى الإلهة "نيت" (*Neith*) التي امتدت عبادتها إلى منطقة الدلتا الغربية في مصر في القرن الرابع عشر ق.م. [2] وهي إلهة مدينة "سايس" (*Sais*) التي ألحقها بعض الكتاب المحدثين بأثينا الأوزية " نسبة لقبيلة الأوزاس *Auzes* الليبية". [3]

وقد عرفت عبادة "نيت" في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات [4]، ثم انتقلت عبادتها بعد ذلك إلى ليبيا. حيث وجدت رسومات مصرية لمحاربين ليبيين يحملون في أذرعهم وأرجلهم أوشاما ترمز إلى "نيت" إلهة "سايس". وقد وصفت على تمثال محفوظ في الفاتيكان أنها "أم الشمس" وأنها: «بدأت تنجب قبل أن تولد». [5]

وذكر "أوريك بيتس" أن معبد الإلهة "نيت" في "سايس" (*Sais*) يحمل نقشا جاء فيه ما يأتي: **«أنا كل ما وجد وكل ما هو موجود، وكل ما سيوجد، ولم يكشف أحد طرف ردائي.»** ويؤكد أن المصريين وجدوا النص السابق ذاته منقوشا على مدخل معبدها، يحمل العبارة الآتية: **«والثمرة التي جئت بها هي الشمس».** [6]

---

*- من هؤلاء المؤرخين نذكر: *Bates, Oric, Op.cit., p. 204.*

1- *عبد العليم، مصطفى كمال، المرجع السابق، ص. 46.*

2- *Gsell (S.), Hérodote, Textes Relatifs..., p. 188.*

3- *Cumont (F.), Op.cit., p.113.*

4- *البرغوثي، عبد اللطيف محمود، المرجع السابق، ص. 146.*

5- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, p. 253.*

6- *Bates (O.), Op.cit., p. 138.*

ويشير "أوريك بيتس" في نفس السياق: «**أن أوجه التشابه الكثيرة بين الديانتين توضح أن العلاقة بينهما كانت أقوى بكثير مما كانت عليه الديانة الليبية والديانة السامية القديمة. وكما أن عنصرا ليبيا معينا اندمج في اللغة المصرية القديمة، فإن عناصر مماثلة من الديانة الليبية القديمة دخلت على الأرجح الديانة المصرية القديمة، وإن كنا لا نستطيع أن نتبينها في الوقت الحاضر نظرا لقلة المعلومات المتوافرة بالنسبة لليبيين القدماء بشكل عام.**» [1]

توحي النصوص السابقة أن الإلهة "نيت" كانت أما عظيمة للطبيعة تتصف بالعذرية، وهذه الصفة هي التي حملت الإغريق على اعتبارها أثينا (*Athéna*). ويتضح مما سبق ذكره، أن الليبيين بلغوا في الدين مرحلة تشخيص الآلهة كبشر، ظلوا يتعلقون بقوة في كثير من الأفكار الخاصة بألوهية الحيوانات.

يبدو أن الديانة الليبية كانت تتصف بالتنوع وبالخصائص المحلية الكثيرة، كما أنها كانت تخضع لأفكار بسيطة وشائعة في بلاد المغرب القديم. وقد جمعت بين السحر وعبادة عدد من الآلهة، طبيعتهم واضحة محددة، وآلهة أخرى كانت طبيعتهم تعرف بشكل عام كإله السماء مثلا.

ويظهر من طبيعة هذه الديانة أنها كانت ديانة بربرية قليلة التطور، ونابعة من الاعتقاد بوجود أرواح كامنة في كل مظهر من مظاهر الطبيعة. لذلك نجدها تحتك بالأمم المتطورة فكريا وعقائديا، وتتأثر بديانات الأمم المجاورة لها كالمصريين والفينيقيين والإغريق والرومان. وإذا نحن بحثنا في أكثر الديانات المؤثرة في الديانة الليبية وجدنا أكثر التشابه ما يكون بينها وبين الديانة المصرية، فمثلا في مصر ارتبطت الشمس بالثور، كما هو الحال في ليبيا، وتطور الاعتقاد بوجود حياة أخرى بعد الموت. واعتبر الكبش حيوانا مقدسا في مصر وليبيا، كالشبه البارز الذي نجده بين الإلهة المصرية "نيت" إلهة مدينة "سايس" ونظيرتها الليبية الإلهة "أثينا" الأوزية. ونظرا لوجود أوجه

1- Bates (O.), Ibid., p. 207.

التشابه الكثيرة بين الديانتين، فإنني اعتقد أن هناك تأثير متبادل بين المصريين والليبيين في مجالات العبادة والدين.

<u>المبحث الثاني: المعبودات الفينيقية-البونية</u>: أخذ المغاربة القدماء عن الفينيقيين بعد المصريين، عبادة آلهة كبرى، من هذه الآلهة التي كانوا يدخلونها في قوى الطبيعة، من غير أن يلبسوا هذه بتلك. إن الوثائق التي تتناول الديانة الفينيقية-البونية بالدراسة نادرة، فهي لا تعدو أن تكون معلومات مقتضبة ومستنبطة في معظمها من النقوش النذرية، ولا تسمح بمعرفة أسماء الآلهة ومعلومات خاصة بالعبادة، سواء في فينيقيا أو في بلاد المغرب القديم.

كما أنه يصعب استغلال الرسوم المنقوشة على الأنصاب، وفي غياب النصوص الميتولوجية والدينية الفينيقية والبونية، تبقى كل المحاولات مجرد افتراضات. لذلك سأقارن في هذا السياق بين الديانة الفينيقية والديانة البونية اعتمادا على المصادر القديمة التي اهتم المؤرخون المعاصرون [*] بدراستها، غير أن الاكتشافات الأثرية وخاصة منها النقوش المكتشفة حديثا قد تعيد النظر في مسائل عديدة.

<u>1-الإله بعل حمون</u>: لقد اتخذ النوميديون الإله الفينيقي بعل (*Ba'al*) إلها. [1] لكن الاعتقاد الراجح أنهم ما كانوا ليتقبلوه بهذا القدر من الرضا لو لم يشخصوه مع آمون (*Ammon*). بل وإذا كان بعل حمون (*Ba'al Hammon*) هو المعبود الأكبر في قرطاجة، لأن الفينيقيين الذين جاءوا به من آسيا كانوا قد وجدوه في آمون، وأنهم رأوا فيه

*- نذكر منهم:
- *<u>Dussaud</u> (R.), Les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens, (Mana T.II), Paris, 1949, pp. 345- 387.*
- *<u>Gsell</u> (S.), H.A.A.N., T.IV, 1920, pp. 221- 425.*
- *<u>Picard</u> (G.Ch.), les religions de l'Afrique antique, pp. 100-129.*

1- *Gsell (S.), H.A.A.N, t.VI, p. 144.*

أحسن من يحميهم في إفريقيا التي هو ربها. [1] وكانوا يكنون له الشعور بالعظمة والامتنان ويطلبون منه الخلاص والحماية.

فقد عثر على نقش في "ماصوب" (*Masoub*) في منطقة صور بفينيقيا يحمل الأحرف "ب ع ل ح م ن" (*B'L HMN*). وقد ذكر اسم الإله "بعل حمن" أو"بعل عمن" بشكل واضح حيث يحل حرف "ع" مكان "ح" وهو أمر مألوف في اللغة السامية، ذكر لأول مرة في إحدى النقوش التي عثر عليها خارج فينيقيا بمنطقة "زنجرلي" [*] (*Zindjirli*) شرق خليج الإسكندرونة (*Alexandrette*) تعود إلى القرن 9 ق.م. [2]

فقد نقش نص من طرف ملك المدينة بلغة مماثلة للغة الفينيقية. [3] ويعني هذا الاسم لغويا "السيد" أو "الملك" وهو إله عظيم عند الساميين كانوا يعبدونه في الألفيتين الثانية والأولى قبل الميلاد، ونلاحظ أن اسم "بعل حمون" يتركب من "بعل" أي "السيد" و"حمون". ولم تفسر هذه العبارة الأخيرة تفسيرا مقنعا بالرغم من الافتراضات التي قدمت منذ القرن الماضي والتي ناقشها "س. غزال" [4] ولم يبق منها إلا اثنتان:

<u>الافتراض الأول</u>: أن لفظ "حمون" يعني "جبل الأمانوس"، وبذلك يعرف هذا الإله باسم "سيد جبل الأمانوس".

<u>الافتراض الثاني</u>: فالعبارة تعني "المبخرة" أو "نار الجمر"، ولذلك يدعى "سيد المبخرة" أو "سيد نار الجمر". غير أن كلمة حمون قد تعني أيضا "المعبد الذي يحتوي على المبخر"

1- *Ferjaoui (A.), Recherches sur les relations entre l'Orient Phénicien et Carthage,Tunis, 1992, pp. 466- 467.*

*-*هي شم-ال القديمة (Sam'al)، تقع هذه المنطقة شرق جبل الأمانوس في أقصى شمال سوريا إلى الشرق من خليج الإسكندرونة.*
- *Gwendolyn (leick), A Dictionary of Ancient Near Eastern Achitecture, Taylor & Francis, E-Library, 2003, p.248.*

2- *أحمد الفرجاوي، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، معهد التراث، تونس، 1993، ص 166.*

3- *Gsell (S.) , H.A.A.N., t. IV, p. 279.*

4- *Ibid., pp. 279- 281.*

كما ذهب إلى ذلك أحمد الفرجاوي. [1] فهل يمكن تفسير بعل حمون بـ "سيد المعبد" [2] الذي تقدم فيه الأضاحي البشرية والبديلة "مولخومور[*] *Molchomor*"؟

كان بعل حمون يحتل المرتبة الأولى في قائمة الآلهة التي تدخل في بنية أسماء الأعلام. ويعتبر رب الأرباب عند الفينيقيين والبونيين وسيد السماء والعواصف والخصوبة. وقد عبده القرطاجيون في الحوض الغربي للبحر المتوسط في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وكانوا يماثلونه بالإله "كرونوس" (*Kronos*) الإغريقي إله الأيام والسنين والفصول، [3] أو الإله الروماني "ساتورنوس" (*Saturnus*). وتدعم هذه الفرضية عديد اللقى النقائشية والأثرية التي عثر عليها في قرطاجة، الأمر الذي دفع معظم الباحثين إلى اعتباره إله الفلاحة والخصوبة. [4]

1- *أحمد الفرجاوي، المرجع السابق، ص 170.*

2- *Cintas (P.), « Le sanctuaire Punique de Sousse », Rev. Afri., n° 91, 1947, pp. 1- 80 ; Berthier (A.), Charlier (R.), le sanctuaire Punique d'EL- Hofra à Constantine, (Textes et planches), Paris, 1955, p. 96.*

*- *يعتبر تقديم الأضاحي البشرية طقس من طقوس المجتمعات البدائية الوثنية في منطقة البحر المتوسط، فقد مارسته معظم الشعوب في العصور القديمة، واستمر العمل به إلى الفترة التاريخية في جزر البليبونيز (Péloponnèse) جنوب اليونان، في حين لم يتوقف العمل به عند الرومان إلا في القرن الأول ق.م.، وكان شيئا مألوفا في غاليا (la Gaule) "فرنسا حاليا" في عهد يوليوس قيصر (J.César) حيث اتخذت السلطة الإمبراطورية إجراءات حيوية لمنعه. غير أن أكثر الشعوب ممارسة لهذه الطقوس هم الساميون، فقد نقلها الفينيقيون إلى شمال إفريقيا، فمارسها القرطاجيون إما للحصول على رضا الآلهة أو كلما أحسوا بغضبها، لذلك كان لابد من إراقة الدماء البشرية لأجلها.* *- Hérodote, VII, 167 ; Polybe, III, 11, 5 ; Diodore de Sicile, XIII, 86, 3 ; XX, 65, 1.*

ونظرا لبشاعة هذه الشعيرة، يعتقد أن "داريوس" (Darius) ملك الفرس قد طلب من القرطاجيين الامتناع عن هذه العادة التي تسيء إلى كرامتهم وشرفهم، *-Justin, XIX, 1,10.*

ويبدو أن تقديم الأضاحي البشرية قد قل نوعا ما في القرن الثاني ق.م قبيل تحطيم قرطاجة. ومع ذلك استمر إلى تهديم قرطاجة سنة 146 ق.م، وخلال الفترة الرومانية ذكر كوريبوس أن الأهالي كانوا حتى القرن السادس الميلادي يقدمون الأضاحي البشرية إلى إله يسمى "ماستيمان" (Mastiman) *- Denys d'Halicarnasse, I, 38 ; Corippus, Joh., VIII, 307- 309.*

3- *Gsell (S.), H.A.A.N., t.VI, pp. 221- 236.*

4- *الشاذلي بورونية، محمد طاهر، قرطاج البونية تاريخ حضارة، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص 277.*

لا شك أن الإله بعل حمون قد انتقلت عبادته مع الفينيقيين إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط سواء في قرطاجة أو بقية مناطق الشمال الإفريقي. فقد كان القرطاجيون والرومان يظهرونه في نصبهم على شكل إله بقرني كبش وملتحيا مثل الإله المصري الليبي "آمون". (1)

وقد مكنت عديد اللقى التي عثر عليها في كل من قرطاجة وهدروماتوم (*Hadrumetum*) "سوسة حاليا" وأوتيكا وسيرتا من تصور الشكل الذي كان يحمله القرطاجيون عن هذا الإله. وقد مثلت معظم هذه الوثائق بعل حمون على شكل رجل كث اللحية جالس على العرش في وضع مهيب يرفع أحيانا يده لمباركة المتعبدين. (2) (أنظر الشكل رقم 12 ص 129).

يتضح مما سبق أن "حمون" –باعتماد الإسامة *Onomastique*– على نقيض "بعل" حيث لا يدخل في تركيبة أي اسم قرطاجي، لكننا نجهل من جهة أخرى ما إذا كان لفظ "بعل" مرتبط ببعل حمون. ومن أكثر الأسماء تداولا: بعل يتون، بعل ملك، بعل عزيز، وعبد بعل وغيرها.

لقد عثر على العديد من النقوش في المغرب القديم تعود إلى الفترة البونية، منها نصب معبد الحفرة بقسنطينة، حيث يتصدر اسم الإله بعل حمون في أكثرها (281 نصبا). ولا تشاركه الإلهة "تانيت" (*Tanit*) إلا في القليل منها، كما تشير أيضا إلى نوع من القرابين الخاصة بهذين الإلهين. (3)

1- أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص ص 146-147.

2-Fantar (M.H.) , «Baal Hammon», in, REPPAL, V, 1990, pp. 67- 105.

3- Berthier (A.), Charlier (R.), Op.cit., n°12, pp. 39, 68, 90, 96 ; Gsell (S.), H.A.A.N, t.VI., p. 238 ; Chabot (J.B.), Punica, extr. du J.A., 11- 12, (1916- 1918), pp. 96- 99.

يبدو أن هناك شبه بارز بين الإله الفينيقي "بعل حمون" والإله المصري-الليبي "آمون" من حيث الوظيفة، ذلك أن الإله آمون كان له معبد ذائع الصيت في الشمال الإفريقي كله، وهو معبد واحة سيوة (*Siwa*) في الصحراء الغربية المصرية.

2-**<u>الإلهة تانيت:</u>** تعتبر تانيت إحدى أكثر آلهة قرطاجة شهرة، فقد برزت منذ القرن الخامس قبل الميلاد في النصوص النذرية البونية، وقد أثارت هذه الظاهرة جدلا بين المؤرخين فبرزت عدة افتراضات رئيسية منها:

أن الإلهة "تانيت" (*Tanit*) "ت.ن.ت" التي عبدها الليبيون لا يزال تفسير اسمها غامضا حتى الآن، وقد قدمت عدة افتراضات لتفسير هذا الاسم، إحدى هذه الافتراضات تزعم أن لفظ "تانيت" مشتق من اسم الإلهة "عنات" مع استبدال حرف العين بالحرف السابق اللوبي: التاء. لكن نلاحظ أن اسم عنات دخل في بنية أسماء الأعلام القرطاجية، الأمر الذي يدل على أنها كانت تعبد في قرطاجة، وتبرهن الاكتشافات الحديثة أن تانيت كانت تقدس في الشرق الفينيقي قبل ظهورها في المغرب القديم. (1)

وقد ورد اسمها في نقيشة عثر عليها في "سريبتا" (*Sarepta*) (*) بلبنان يعود تاريخها إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، وذكرت مع "عشترت" (*Ashtart*) في هذا النص. (2) وهذا ما يؤكد أنها ذكرت في شرقي البحر المتوسط كإلهة شرقية قبل أن يشار إليها في غربه، يضاف إلى ذلك وجود مواقع كثيرة في لبنان ترجح وجود هذه العبادة في الشرق كعين تانيت وكفر تانيت.

1- أحمد الفرجاوي، المرجع السابق، ص ص 195-196.

**- تقع هذه المنطقة على بعد 15 كلم جنوب صيدا (لبنان).*

2- Hvidberg Hansen, (F.O.), la déesse TNT, une étude sur la religion Cannanéo-Punique, (Texte), Copenhague, 1979, pp. 14- 15, 27- 28.



(أ)



(ب)

الشكل رقم 12: تمثال الإله بعل حمون.

أ-نقش صخري عثر عليه في سيقوس يعود إلى الفترة الفينيقية.
ب-تمثال الإله بعل حمون على شكل رجل كث اللحية جالس على العرش يرفع يده لمباركة المتعبدين.

نقلا عن: (أ) *-Berthier (A.), L'Algérie et son passé, Op.cit., p. 207.*

(ب)- *-Moscati Sabatino, the phoenicians, Tauris, 2001, p.132.*

وقد انتشرت عبادتها في المغرب القديم أكثر من الشرق الفينيقي، فقد ظهرت في نقائش قرطاجة ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد مع الإله بعل حمون، وكان يقرب لها الأطفال الصغار والأضاحي البديلة. [1]

كانت تانيت بني بعل (*Tanit Péné Baal*) ملكة مدينة قرطاجة (أنظر الشكل رقم 13 ص 131) تحتل المكانة الأولى في البانتيون (*Panthéon*) القرطاجي وكان لها التقديم على بعل حمون، حيث يذكر اسمها أولا في الأنصاب النذرية التي وجدت بقرطاجة والتي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، بينما تحتل في سيرتا الصف الثاني بعد بعل حمون، وغالبا مالا يمنح لها اللقب التشريفي "ربت" (*Rabbat*) أي "الربة" بمعنى "السيدة" [2] (*la Maitresse*).

يرى الكثير من الباحثين والمنقبين أن تانيت اسم علم، وقد وردت كتابته هكذا (*TYNT*) "ت.ن.ت" على بعض الأنصاب التي عثر عليها في قسنطينة. [3] وعلى الأنصاب النذرية القرطاجية. لم يرد اسم تانيت وحده، بل كان دائما يتبعه لفظ "بني بعل" (*Péné Baal*)، ذلك أن تانيت بني بعل وليس تانيت فقط هي التي ذكرت في بعض النصوص التي عثر عليها في قسنطينة، وفي مناطق أخرى من المغرب القديم. [4]

---

1 – *Cintas (P.), Op.cit., pp. 1- 80 ; Berthier (E.), Charlier (R.), Op.cit., p. 96.*

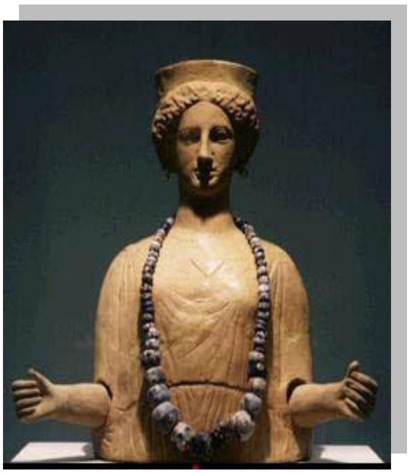
2 – *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 146.*

3 – *Ibid., p. 240.*

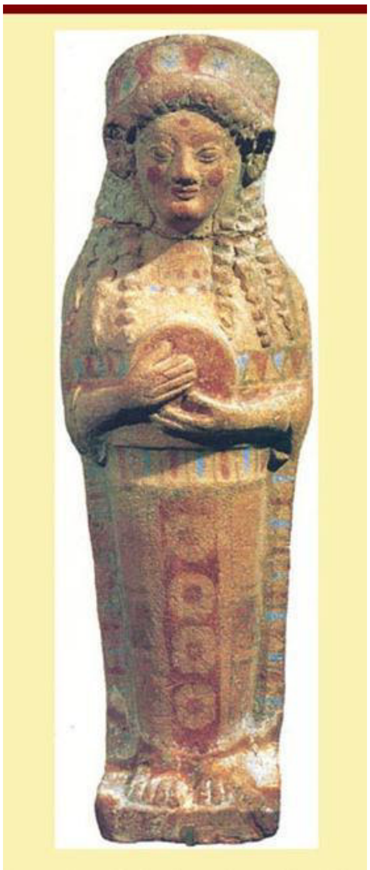
4 – *Ibid., p. 241.*



(أ)



(ب)



(ج)

الشكل رقم 13: أشكال مختلفة للإلهة تانيت.

أ – ب: تمثالين نصفيين « *Buste* » للإلهة تانيت التي وصفت بالإلهة والأم الحامية رمز الأمومة والخصب، عشيقة وزوجة الإله بعل.
ج–تمثال صغير من الطين "*figurine*" لتانيت عثر عليه في قرطاجة، يعود تاريخه إلى القرن السادس ق.م.

نقلا عن: *w.w.w. harissa.com* تاريخ الزيارة: 2015/08/16.

ومن جهة أخرى فقد شيد معبدين في قرطاجة لـ "عشتارت" (*Ashtart*) و"تانيت لبنون" (*Tanit du libanon*) أي "تانيت لبنان". لا شك أنها غير تانيت الإفريقية، إلا أن عبادتها كانت مرتبطة بالقمر. (1)

لقد اعتبرت "تانيت" الإلهة الرئيسة في قرطاجة، على الأقل خلال الحروب البونية، والتي ذكرت باسم "تانيت بني بعل" مع "بعل حمون" على العديد من الأنصاب. فقد عثر على نقوش بونية في عدة مناطق من المغرب القديم منها: بير بوركبة (*Bir Bourekba*) قرب الحمامات في تونس، حيث ذكرت لوحدها، وفي الخنيسية قرب سوسة. بينما ذكر اسمها بعد بعل حمون في عدة نقوش عثر عليها بقسنطينة. (2)

كما وصفت الإلهة تانيت في أغلب الأنصاب والنقائش بـ "بن ب ع ل" (*P'N'B'L*) والمصطلح فينيقي ويعني "وجه بعل" (*Face de Baal*). وفسره البعض بأنه موقع جغرافي على الساحل الفينيقي يعرف باسم "وجه الإله" (*Face de Dieu*).(3)

ورغم تعدد محاولات تفسير اسم تانيت إلا أن أغلب المفسرين (4) عجزوا عن معرفة جذور اسمها. غير أن معظم الدراسات تقبل بفكرة وجود عبارة تانيت في الشرق الفينيقي قبل قرطاجة. وتدل بعض الأنصاب الأخرى على أن تانيت كانت تعبد كأم، عثر عليها في معبد الحفرة بقسنطينة، كما تشير وثيقة أخرى أن تانيت كانت عشيقة

1- *Fantar (M.H.) , Carthage le cité punique, Alif, les éditions de la méditerranée, CNRS, Paris, 1995, pp. 70- 73.*

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, pp. 243- 244.*

3- *Ibid., p. 245.*

4- *Hvidberg (H.), Op.cit., pp. 15- 18 ; Berthier (E.), Charlier (R.), Op.cit., n°21 ; Février (G.J.), « un sacrifice chez les Numides », dans Mélanges Isidore Levy, Bruxelles, 1935, p. 165.*

وزوجة الإله بعل، وكانت تتحكم في التناسل والولادة، إضافة إلى كونها إلهة الخصب فهي تتحكم كذلك في البذور والحصاد. [1] (أنظر الشكل رقم 14 ص 134).

يتضح مما سبق أن تانيت بني بعل وبعل حمون كانا يذكران بأسماء لاتينية وعلى ألسنة من يتكلمون اللاتينية، وكانت تانيت سيدة القمر، أما بعل حمون فهو سيد الشمس، ويحتمل أن الأمر كان على هذا النحو في رأي القرطاجيين. أما الليبيين-كما ذكر هيرودوت-يبدو أنهم كانوا يبتهلون – تحت هذين الاسمين البونيين- إلى سيد الشمس وسيدة القمر، بل ويمكن الافتراض أن "عشتارت" (*Ashtart*) الفينيقية، التي دعيت باسم تانيت بني بعل قد صارت إلهة في إفريقيا عن طريق الاقتباس من عقائد أهالي المغرب القديم.

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, pp.241-248.*



(ب) (أ)

(ج)

الشكل رقم 14: رموز الإلهة تانيت:

أ- نصب (متحف سيرتا) مثلث الجبهة مع حقل كتابة مشوه، يحتوي على زخرفة بارزة لرمز تانيت يعلوه هلال معكوس الى أسفل على جانبيه صولجانين، وعلى كتابة بونية من ستة أسطر. **ب**- نصب (متحف سيرتا) ذو جبهة مثلثة الشكل مهشم من الأعلى مزخرف برمز تانيت تحمل في اليسار سعفة النخيل، وفي اليمين صولجان، وفي الأسفل حقل كتابة مهشم من أسفل يحتوي على كتابة بونية من أربعة أسطر.

ج- نصب (متحف سيرتا) مثلث الجبهة زخرفته بارزة الشكل، يتصدره هلال يتوسطه قرص الشمس وفي الأسفل منه رمز الإلهة تانيت بين صولجانين وهي ترفع طرفيها إلى أعلى. وفي الأسفل حقل كتابة أملس يحتوي على كتابة بونية من أربعة أسطر.

نقلا عن: أ- *Albert Grenier, Nouvelles Archéologiques d'Algérie, In: C.R.A.I., 94e année, n. 4, 1950, (pp. 345-354), p. 349.*

ب، ج- *l'Algérie aux temps des royaumes numides, 2007, pp.63 – 64.*

3- الإلهة عشتارت (*) (*Ashtart*): شهد الشرق الفينيقي والعالم البوني عبادة هذه الإلهة، التي عرفت في أوغاريت (رأس شمرا) باسم "عتترت" (*Athtar*)، وقد ذكر هذا الاسم في النصوص الدينية أكثر من القصائد الميتولوجية. وانتقلت عبادتها من الساحل السوري – الفلسطيني إلى مصر في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد. حيث اندمجت مع الإلهة المصرية "سخمت" (*Sekhmet*) وأصبحت مع "عنات" (*Anat*) زوجة الإله المصري "ست" (*Seth*). [1]

واحتلت عشتارت مكانة هامة لدى الفينيقيين والبونيين، حيث ورد اسمها في نقيشة تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد عثر عليها في معبدها بقرطاجة، وكانت مرتبطة بالإلهة "تانيت" وتوصف في المدينة بـ "القديرة" (*la puissante*) وكان لها عباد وأتباع كثيرون. [2]

وورد ذكرها في العديد من الأنصاب النذرية بمعاني مختلفة، إحدى هذه الأنصاب أشارت إلى امرأة تنسب إلى "شعب عشتارت" وكانت إحدى خادمات الإلهة العديدة. وفي نصب آخر يظهر "خادم عشتارت" (*H'DRT*) الذي قد يعني "القوية". ويحمل نصبين آخرين إهداء من خدم المعبد إلى "م. ل. ك. عشتارت" (*MLK Ashtart*) [3].

هل يفهم من هذه الأحرف "م. ل. ك" أنها تعني "الملكة"؟

\- تساءل العديد من الباحثين والعلماء منهم: كلارمون غانو، ولاغرانج:

- Ganneau (Ch. Clermont.), R.A.O., V, 1888- 1921, p.152.

- Lagrange (M.J.), Etudes sur les religions sémitiques, 2e édit., p. 128.

ما إذا كان لفظ "عشتارت" ('STRT) اسم علم أو اسم جنس مثل "عشتار" عند البابليين والآشوريين، غير أنه حينما يتعلق الأمر بإلهة فينيقية حقيقية، فإن اسم عشتارت لا يتبعه عادة اسم ملحق (مضاف إليه)، مكونا عبارة مماثلة لـ: بعل شمين، أو "ملك قرط" أي ملقرط وغيرها ولذلك، فالاحتمال الراجح أن عشتارت اسم علم.

1- أحمد الفرجاوي، المرجع السابق، ص ص 189-190.

2- Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 251.

3- Ibid., pp. 251- 252.

وأشار "ديودور الصقلي" إلى طقوس ممارسة البغاء المقدس في جبل إيركس، وهو ما أدى إلى الربط بين هذه الممارسة والإلهة "عشتارت" التي كانت مرتبطة بهذا الجبل. (1)

ويرى "محمد حسين فنطر" حول طبيعة "عشتارت"، أن الإلهة تتمتع ببعض السمات العسكرية التي تستمد جذورها من الشرق الفينيقي، بحكم أن نصوص أوغاريت الميتولوجية تظهرها بمظهر الإلهة المحبة للحرب والصيد. (2)

نستنتج مما سبق تعدد الإشارات المتعلقة بالإلهة "عشتارت" في مناطق مختلفة من الإمبراطورية القرطاجية خارج قرطاجة وخاصة في مالطة وسردينيا وصقلية، أن جذورها من الشرق الفينيقي. أما النص النقائشي الذي يذكر الإلهة باسم "عشتارت إيركس"، يبدو أن الهدف من وراء ممارسة البغاء المقدس في معبدها في جبل إيركس كان يتمثل في تعزيز قوة الإلهة التي ترمز إلى تجدد النسل وتواصل الخلق.

4- **<u>ملقارت (ملقراط)</u>:** تشير النصوص القديمة إلى أن الإله "ملقراط" (*Melqart*) كان من أبرز آلهة مدينة صور بل هو الإله الرئيس للمدينة. وأصبح في قرطاجة من أكثر الآلهة شعبية – باعتماد الإسامة- حيث يدخل في تركيبة أسماء الأعلام القرطاجية (*) ومنها: "عبد ملقراط"، و"بوملقار"، و"بد ملقارت" (بيد ملقرت). يتركب اسمه من كلمتين:

1- الشاذلي بورونية، ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص ص. 295-296.

2-Fantar (M.H.) , « A propos d'Astarté en Méditerranée », in : <u>Rivista di Studi Fenici</u>, I, 1973, pp. 19- 29.

**- أشارت الباحثة "كاترين بوني" إلى سعة اعتماد ملقرت في تركيبة أسماء الأعلام القرطاجية، وأحصت مالا يقل عن 1500 اسما، أغلبية هذه الأسماء حوالي 900 اسما تعكس ثقة البونيين في هذا الإله. - Bonnet (C.), « l'Onomastique de Melqart, En appendice : l'inscription punique CIS, I, 4612 », in : <u>Rivista di Studi Fenici</u>, XVIII, 1, 1989, pp. 31- 40.*

"ملك" وتعني الإله و "قرط" التي تعني المدينة، وبذلك يكون معنى الاسم "ملك المدينة" أو ربها، أو "سيد المدينة". [1]

وقد ماثله المؤرخون الكلاسيكيون الإغريق بإلههم "هيراكليس" (*Héraclès*)، [2] أما الرومان فذكروه باسم "هرقل" (*Hercule*). [3] ويبدو ملقارت بمظهر الإله المحسن والحامي للمدينة، وهو ما يفسر تعلق كثير من القرطاجيين به. ويمكن تفسير شعبية هذا الإله بالصورة التي كان القرطاجيون يحملونها عنه، وهي صورة طبعتها بالأساس الجوانب الإيجابية لملقارت كالرعاية والسلام والحماية. [4]

كان لملقارت معبد في قرطاجة ورغم ذلك كان دائم الارتباط بجذوره الصورية المدينة الأم، لذلك كانت ترسل له الهدايا والقرابين إلى الساحل الفينيقي - حسب رواية بعض المؤرخين الكلاسكيين-. [5] وقد تكرر ذكر اسمه في نقوش معبد الحفرة بقسنطينة، حتى اعتقد الباحثون أن له معبدا في سيرتا، [6] فهو إله الشمس والنباتات والبحر. [7]

توحي أغلب المصادر أن عبادة الإله ملقارت قد ترسخت في العاصمة البونية ترسيخا عميقا. وقد قدمت افتراضات كثيرة حول طبيعة هذا الإله وصفاته.

<u>5-**الإله أشمون:**</u> يعد الإله أشمون (*Eshmun*) الإله الرئيس في مدينة صيدا اللبنانية، ورغم كل المحاولات التي قدمت لتفسير معنى أشمون فإنها تبقى غير مقنعة، فمثلا:

1- الشاذلي بورونية، محمد طاهر، المرجع السابق، ص 294.

2- Fantar (M.H.), Carthage, la cité punique…, Op.cit., p. 70.

3-Le Glay (M.), Saturne Africain, Histoire..., pp. 130- 245.

4- الشاذلي بورونية، المرجع السابق، ص 294.

5- Justin, XVIII, 7, 7.

6-Berthier (E.), Charlier (R.), Op.cit., p. 64.

7-Fantar (M.H.), le dieu de la mer chez les Phéniciens et puniques, Rome, 1977, pp. 105- 109.

فسر الاسم على أنه مشتق من الكلمة العربية "سرمون" أو "سمان" أو "سمانة" المشتقة بدورها من فعل "سمن".

ويرى بعض المؤرخين أنه مشتق إما من كلمة "شلمان" مع إدغام حرفي اللام والنون، وإما من لفظ "إشم" ويعني "اسم"، أو من لفظ "شمن" ويعني الزيت، ثم تطور المعنى ليصبح الشفا نظرا لما يتمتع به هذا السائل من خاصيات استشفائية معروفة. (1)

ويستدل من اسمه على أنه كان إله الشفاء، إضافة إلى كونه إله الخصب، حيث كان في أصله إلها أرضيا يتصل بالحياة الزراعية، وحامي المدينة مثل ملقارت. (2)

شيد له معبد في قرطاجة فوق قلعة بيرصة (*Byrsa*)، وكان القرطاجيون قد لجأوا إلى هذه القلعة في دفاعهم الأخير عن المدينة قبل تهديمها وإحراقها سنة 146 قبل الميلاد من طرف الرومان. (3)

وقد ماثلته المصادر الإغريقية بإلههم "أسكولابيوس" (4) (*Esculapios*)، وعند الرومان "إسكولاب" (*Esculape*) إله الطب. (5) وعثر على تماثيل له بعدة مواقع في المغرب القديم، منها موقع "أماديرا" (*Ammaedera*) "حيدرة" قرب تبسة. (6)

<u>6-الإله بعل إدير</u>: ورد ذكره في أقدم نقيشة تعود إلى القرن الرابع ق.م، وقد اكتشفت بمدينة جبيل (*Byblos*) بالساحل الفينيقي (اللبناني) كإله ثالث إلى جانب "بعل شمم" و"بعلات جبيل"، وكانت عبادته منتشرة في المستوطنات الفينيقية. (7) كما ذكر اسمه عدة

1- أحمد الفرجاوي، المرجع السابق، ص 175.

2-الشاذلي بورونية، محمد طاهر، المرجع السابق، ص 298.

3- محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 146.

4- المرجع نفسه، ص 145.

5-Strabon, XVII, 3, 14.

6-Le Glay (M.), Saturne Africain, Monuments, I, p. 2.

7- كارلهاينز برنهردت، لبنان القديم، ترجمة ميشال كيلو، ط1، قدس للنشر والتوزيع، دمشق، 1999، ص 149.

مرات في نقوش معبد الحفرة البوني بقسنطينة، إما بمفرده وإما مع الآلهة "تانيت بني بعل". (1)

ويحتل في هذه الحالة مكان الإله "بعل حمون". (2) وقد أهديت له حسب النقيشة الأولى أربعة مباخر للحيوانات والحبوب والعطور، مما يدل على أنه كان إله الفلاحة. (3)

ويعتقد "س. غزال" (4) أن "بعل إدير" ما هو إلا أحد الأسماء المرادفة لبعل حمون، ولا يختلفان إلا في الاسم فقط. هل يفهم من عبارة: «إلى الرب "السيد" بعل إدير»، الذي هو بعل حمون أيضا؟ أن الأمر يتعلق بإله واحد أو إلهين مختلفين؟

رغم كل الشكوك التي دارت حول فرضية إله واحد، فإن "بعل إدير" كان يعبد في عدة مناطق في البروقنصلية وفي نوميديا (*) خلال الفترة الرومانية. فقد ذكر في إهداءين باللغة البونية الجديدة عثر عليهما بالقرب من ثيسدروس "الجم" (*El-Djem*) (**) وسيكا فينيريا(***) (*Sicca Veneria*) "الكاف حاليا" بتونس. وتذكره النقوش اللاتينية التي عثر عليها في سيقوس (*Sigus*) بالقرب من قسنطينة بالشكل الآتي:

(5)*Deus Patrius, le Deus Sanctus Baliddir Augustus.*

1-*Berthier (A.), Charlier (R.), Op.cit., inscrip. N° 6, 8, 11, 14, 15*

2-*Ibid., inscrip. N° 13, 16, 17, 19.*

3 -*Chabot (J.B.), Punica, extrait. du J.A., 11- 12, (1916- 1918), p. 461 ; Dussaud (R.), « Inscription néo- puniques d'Algérie et de Tunisie », dans B.A.C., 1916, pp. 165- 167.*

4-*Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 296.*

*- عثر على أربعة نقوش تذكر الإله بعل إدير في عدة مواقع، نقش في قلعة بو الصبع (*Guelaat bou Sba*) (البروقنصلية)، نقشان في سيقوس(Sigus) ونقش في عين الباي " قسنطينة" (نوميديا). *Gascou (J.) et Guery (R.), Inscriptions du sud constantinois, région d'Ain el-Bey (Numidie), Ant.Afri., t.25, 1989, pp.135-176.*

**- وجد هذا النقش في بئر تلالسة 9 كلم شمال شرق "ثيسدروس "Thysdrus"، "الجم" حاليا في تونس.
- *Dussaud (R.), Inscription Néo- punique de Bir- Tlelsa, B.A.C., 1914, pp. 618- 620.*

***- وجد النقش في هنشير قرقور (ماسكولولا- *Masculula*). - *Chabot (J.B.), C.R.A.I., 1916, p. 348.*

5-*C.I.L., VIII, 19121 ; Gsell (S.), H.A.A.N., IV, p. 296.*

وذكره نقش آخر أخرج من قبر بالقرب من قالمة باسم "بادير" (*Baddir*). [1]

وهكذا يتضح أن بعل إدير إله آخر غير بعل حمون. لكن هل يمكن أن تكون له علاقة بـ "ملك أدير" (*Malk Addir*) الذي يعني "الملك القوي". وقد ذكر على شاهدة قبر أمير صيدا "أشمونازار"؟ [2] قد يكون "ملك جهنم"، حيث أن لفظ "أدير" (*Addir*) يعادل "بوتنس" (*Potens*) الذي يعني: "القادر والقوي" و"المؤثر"، وهي الصفة التي أسندها "سيليوس إيطاليكوس" لمعبود جهنمي كان القرطاجيون يقدسونه ويتعبدونه. [3]

<u>7- **تقريب الأطفال والأضاحي البديلة**</u> : ذكر بعض المؤرخين الإغريق والرومان [*] أن طقس تقديم الأضاحي البشرية عادة فينيقية شرقية، فقد أشارت نقيشة إلى أن هذا النوع من الذبائح كان يقدم في الساحل الفينيقي إلى الإله أشمون. إلا أن هناك من المؤرخين المحدثين من شكك في وجود هذه العادة، ثم إن هذه الأضاحي كانت تقدم عادة إلى الإلهين بعل حمون وتانيت في قرطاجة.

لقد أثبتت الحفريات وجود هذه العادة في المغرب القديم، بعد اكتشاف العديد من المعابد التي احتوت على مرمدات ملئت بعظام الأطفال والحيوانات. [4]

1- C.I.L., VIII, 5279.

2- Camps (G.), Qui sont les Dii Mauri ? <u>Ant.Afri</u>., t.26, 1990, p.136.

3- Silius Italicus, I, 91- 92.

** - أشار المؤرخ الإغريقي ديودور الصقلي إلى أن سكان قرطاجة بادروا بالتضحية بمئات الأطفال من أبناء النبلاء أثناء حملة القائد الإغريقي أغاتوكليس (Agathocles) على المغرب القديم حينما حاول غزو قرطاجة لأول مرة سنة 310 ق.م، اعتقادا منهم أن الآلهة سترضى عنهم وتبعد هذا الخطر الذي يتهددهم.*

- Diodore de Sicile, XIII, 62, 4.

4- Février (J.G.), « Essai de reconstitution des sacrifices Molek », <u>J.A</u>., 248, 1960, p. 167-187.

وتدل بعض الوثائق المكتوبة على أن هذا النوع من الطقوس كان يسمى "م ل ك أ م ر" أي ذبيحة (ملك) خروف، [1] أو "م ل ك ب ع ل" أي قربان عوضا عن رضيع، أو "م ل ك د م" أي قربان دموي. [2]

وقد طرحت فكرة اندثار طقس تقريب الأطفال في الساحل الفينيقي وظهوره في المغرب القديم، وكانت محل اختلاف بين المؤرخين والباحثين. غير أنه غداة حصار الإسكندر الأكبر لمدينة صور (*Tyr*) سنة 333 ق.م، طرحت مسألة العودة إلى تقديم الأضاحي البشرية وهو ما رفضه مجلس الشيوخ. في حين أن القرطاجيين حافظوا على هذا الطقس في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهو ما تدلنا عليه النصوص والنقوش البونية النذرية التي اكتشفت في منطقة "نقاوس" (*N'gaous*) بباتنة، حيث تذكر صيغة النص (روح بروح)، و(دم بدم)، و(حياة بحياة). [3]

ولعل ذلك إشارة إلى الأضاحي البديلة، حيث يتم استبدال التضحية بالكبش بدل الطفل، أي أن يحل الحيوان محل البشر، وهي التضحية التي عرفت باسم "مولخمور" (*Molchomor*).[4] كما أن النقيشة البونية النذرية التي اكتشفت في معبد الحفرة بقسنطينة تشير إلى ذلك.[5]

لقد نتج عن تواصل العلاقات الفينيقية- البونية مد جسر حضاري بين الشرق الفينيقي والعالم البوني في غربي المتوسط. وإذا كان التأثير الفينيقي قد تجلى في بعض المظاهر الحضارية، ومنها الديانة كظهور الآلهة مثل: ملقرت، وعشترت، وأشمون والتي هي من أهم الآلهة سواء في الشرق الفينيقي أو في المغرب القديم، واستمرار بعض

1- Carcopino (J.), « Survivances par substitution des sacrifices d'enfants dans l'Afrique Romaine », dans R.H.R., t. 106,1932, pp. 552- 599.

2- Février (J.G.), « Molchomor », dans R.H.R., 163, 1953, pp. 8- 18.

3- Id., « le Rite de Substitution dans les textes de N'gaous », dans J.A., 250, 1962, pp. 1- 10.

4- Février (J.G.), « Molchomor »..., p. 16.

5- Berthier (A.), et Charlier (R.), le Sanctuaire punique d'EL- Hofra..., pp. 12- 13.

العادات التي جاء بها الفينيقيون الأوائل والتي مثلت أهم مكون للحضارة البونية، فإن ذلك التواصل لم يمنع من ظهور بعض الخصوصيات في الحضارة البونية. من ذلك مثلا الإلهين بعل حمون وتانيت بني بعل اللذين انتشرت عبادتهما في قرطاجة وبقية مناطق المغرب القديم أكثر من الشرق الفينيقي. واستمرار ظاهرة تقريب الأطفال والأضاحي البديلة والتي تقدم عادة إلى بعل حمون وتانيت، في حين اندثرت في الشرق الفينيقي.

المبحث الثالث: المعبودات الإغريقية: تذكر النصوص القديمة التي تعود إلى فترة ما قبل الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم، بعض المعبودات التي عبدها الليبيون، أو كانت توصف بأنها ليبية. وحسب عادة واسعة الانتشار كانت هذه المعبودات تتشخص في آلهة إغريقية أو لاتينية. ومن أبرز تلك الآلهة الإغريقية زيوس، تريتون، بوسيدون، أثينا، ديميتر وكوري. (الشكل 15 ص 144)

1-الإله زيوس (*Zeus*): ذكرت النصوص القديمة أسماء إغريقية أعطيت لمعبودات عبدها وقدسها فينيقيو الغرب، وقد اعتاد الإغريق والرومان أن يطلقوا أسماء آلهتهم على الآلهة الأجنبية.

ولنا في ذلك أمثلة عديدة ذكرها "هيرودوت" و"يوليوس قيصر" (*J.César*) و"تاسيت" (*Tacite*). ويتبع ذلك أنها آلهة قرطاجة – بحجة ترجمة أسمائها الإغريقية أو اللاتينية– غدت مشابهة لآلهة جبل الأولمب (*) (*Olymp*) أو الآلهة الرومانية. ومن ثمة طابقوا بعل حمون مع كرونوس ساتورن، بسبب أن الإله القرطاجي كان يمجد

*- **الأولمب**، *من أعلى جبال اليونان، وهو عرش زيوس رب الأرباب (ملك الآلهة)، ومسكن الآلهة الإغريقية حسب أساطيرهم.* ***كوريبوس***، *ملحمة الحرب الليبية–الرومانية، ترجمة محمد الطاهر الجراري، طرابلس، 1988، ص 145.*

بتضحيات طقسية يقدم فيها الأطفال كقرابين، وأن الإله الإغريقي إلتهم ذريته بنفسه حسب ما رواه ديودور الصقلي. (1)

ومع ذلك يجب الاعتراف أن القرطاجيين في بعض الحالات كانوا قد أشرفوا بأنفسهم على هذه " الترجمة". كما هو الحال في أمر القسم الشهير الذي ختم به "هانيبال" (*Hannibal*) معاهدة التحالف مع "كزينوفانس" (*Xénophans*) سفير "فيليب الخامس" ملك مقدونيا سنة 215 ق.م. وقد وردت في هذه الوثيقة التي ذكرها "بوليبيوس" (*Polybius*) أسماء آلهة قرطاجية انتحلت أسماء إغريقية.

فالآلهة الذين ذكروا في هذه الوثيقة باسم الدولة القرطاجية كانوا كلهم بونيين، والوثيقة الدبلوماسية التي ترجمت إلى الإغريقية كانت على يد مترجمين قرطاجيين يعرفون جيدا آلهتهم التي ذكرت في هذا النص، وتم تعيينهم حتى يطابقوا بين هذه الآلهة وبين آلهة البانتيون الإغريقي. (2)

وقد ورد في عبارات القسم ما يأتي: **«أمام زيوس (*Zeus*) وهيرا (*Hera*) وأبولون (*Appolon*)، أمام جني القرطاجيين وهيراكليس (*Heraclés*) ويولاوس (*Iolaos*)، أمام آريس (*Arés*) وتريتون (*Triton*) وبوسيدون (*Poséidon*). أمام الآلهة التي ترافق الجيش في الحرب إضافة إلى الشمس والقمر والأرض. أمام الأنهار والبحيرات والمياه. أمام كل الآلهة التي تحمي قرطاجة (...)، أمام كل الآلهة التي تحمي مقدونيا وبقية اليونان، أمام كل الآلهة التي شاركت في هذه الحملة وأشرفت على هذا القسم، هانيبال القائد الأعلى قد قال كلمته ...».** (3)

1- *Diodore de Sicile, XX, 14, 7.*

2- *Polybe, VII, 3, 9.*

3- *Polybe, III, 11, 5.*



(أ)



(ب)



(ج)



(د)

الشكل رقم 15: أهم الآلهة الإغريقية التي عبدها اللوبيون.

أ–تمثال الإله زيوس رب الأرباب في الأساطير اليونانية، وهو إله السماء والرعد والعواصف عند الإغريق، ويقابله عند الرومان الإله جوبيتر.

ب–أثينا الإلهة العذراء عند الإغريق، ربة الحكمة والحرب والزواج والفكر والفنون، ابنة الإله زيوس.

ج–بوسيدون إله البحر وله سلطان على الرياح والعواصف والزلازل، وهو ابن الإله كرونوس وهيرا ربة الزواج والأسرة، وأخا للإله زيوس.

د–ديميتر وبيرسيفون (كوري) تسلمان حبوبا لـ "تريبتولموس" *Triptolemus* قصد تعليم الزراعة للإنسانية (من متحف أثينا الأثري).

نقلا عن: *www.lesitemai.free.fr./ url. Dieux*

تاريخ الزيارة: 2015/08/04.

يتضح من النص أنه من غير المرجح أن تكون الآلهة المذكورة في ظرف خطير كهذا، أن تختار وتذكر عشوائيا وبلا تبصر. ومن جهة أخرى فقد كان إلى جانب هانيبال رجال أكفاء قادرين على ترجمة نص كتب أصلا باللغة البونية. وتكمن أهمية هذا القسم في أنه يمثل وثيقة أساسية تساعد على دراسة الديانة البونية.

ونلاحظ أيضا أن اسم الإله زيوس كان يتصدر بقية الآلهة في قسم هانيبال. وكان هاميلكار برقة قبل أن يتوجه إلى أسبانيا لتحصيل ثروة قرطاجة، يقدم قربانا للإله زيوس، وأمام هيكل هذا الإله كان يحث ابنه البكر ليقسم بألا يكون صديقا للرومان. [1]

ويذكر "هيزيود" (*Hésiode*) في شجرة عائلته أن زيوس هو ابن الإله كرونوس وريا (*Rhéa*)، وعندما بلغ سن الرشد نجح في إطلاق سراح إخوته: بوسيدون وهاديس وهستيا وديميتر وهيرا من بطن أبيه، ثم خلف أباه على العرش بعد صراع مروع. [2]

وقد عرفت زوجته "هيرا" (*Héra*) التي هي شقيقته في النصوص الإغريقية واللاتينية باسم "هيرا–إيونو" (*Héra-Iuno*) كإلهة قرطاجية من أصول شرقية. [3] وهي التي ذكرت بعد الإله زيوس في القسم المشهور الذي ورد ذكره في التحالف بين "هانيبال" و"فيليب الخامس" ملك مقدونيا. [4]

1- *Cornélius Népos, Amilcar, Trad. de M. Kermoysan, Paris, édition Nisard, 1841, 11, 3.*

2- *فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته منذ أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، دار الرشا الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1980، ص. 64.*

- Hésiode, Histoire de la littérature Grecque, par Piérron Alexis, Hachette, Paris, 1875.

3- *Minucius Félix, Oclav., XXV, 9 ; Justin, XVIII, 5, 2.*

4- *Polybe, VII, 9, 2- 3 ; Dussaud (R.), R.H.R., 1914, I, p. 424*

وقد ذكر المؤرخون الكلاسيكيون معابدها وكهانها. [1] ومنهم من أشار إلى أن الرومان خلال الحروب البونية قاموا بممارسة الطقوس الضرورية لحرمان الأعداء من الحماية التي يمكن لهذه الإلهة أن تقدمها لهم. [2]

وحاول الرومان في سنتي 123-122 ق.م السيطرة على قرطاجة وتسميتها بـ: "إيونونيا" (*Iunonia*) كمستعمرة جديدة. [3] وذكرها "فيرجيل" (*Virgile*) على أنها حامية المدينة التي كانت تمثل إقامتها المفضلة. [4]

يتضح مما سبق أن زيوس يعتبر رب الأرباب في الأساطير اليونانية، وهو إله السماء والرعد والعواصف عند الإغريق، وابن الإله كرونوس [*] وأخا للإله بوسيدون (*Poséidon*) إله البحر، ويقابله عند الرومان الإله جوبيتر (*Jupiter*) ومقره في جبل الأولمب حيث كانت تقدم له القرابين. [5] كان زيوس في البداية إله الظواهر الجوية يضيء السماء أو يحجبها بالسحب ويسقط المطر والثلوج ويرسل البرق والرعد، ثم أخذ شكله النهائي عند "هوميروس" (*Homère*) الذي قال عنه أنه زعيم الآلهة وملك البشر الذي يتدخل في أعمالهم.

1-*Pline l'ancien, VI, 200*

2- *Justin, 1.*

3- *Plutarque, De Viris illusteibus (Vies de hommes illustres), trad. par Gérard Walter Paris, édition Gallimard, 1951, 11.*

4- *Virgile, Eneide, trad. par Jacques de Lille, Paris, 1709, I, 15- 16.*

*- ***كرونوس (Cronos)***، عثر على معبد له شمال غرب جزيرة قادس (Gadès)، ويذكر ديودور الصقلي أن القرطاجيين قدموا 500 طفل كقربان للإله من أطفال النبلاء حتى ترضى الآلهة بعد الخسائر التي منيوا بها أثناء حملة الإغريقي أغاتوكليس سنة 310 ق.م، ونصوص أخرى تذكر أن القرطاجيين كانوا يقدمون الأضاحي البشرية من الأطفال إلى هذا الإله. وفي نص آخر غير موثوق به يذكر أن قبائل الماسيل (Massyles) كانت في القرن الثالث ق.م تتقرب إلى الإله كرونوس بالذبائح البشرية، وإذا فرضنا صحة هذا القول، فلا يمكننا أن نقول أن الأمر يتعلق بإله أهلي (Indigène) أو ببعل حمون البوني الذي شخصه الإغريق مع كرونوس.* *- Diodore de Sicile, XX, 14, 1, 4 ; Gsell (S.), H.A.A.N., t. III, p. 83.*

5- علي فهمي خشيم، نصوص ليبية، ترجمة كتاب هيرودوت، دار مصراتة، 1967، ص 40.
- Leglay (M.), Saturne Africain, Monuments, pp. 204- 205.

2-**الإلهة أثينا**: هي الإلهة العذراء عند الإغريق، ربة الحكمة والحرب والزواج والفكر والفنون، ابنة الإله "زيوس" (*Zeus*) ولدت من رأسه، وتعتبر راعية مدينة أثينا، وتدعى أيضا "بالاس" (*Pallas*. كانت أثينا تصور في عدة حرب كاملة تحمل غصن زيتون وبجانبها حية. ويعتقد أن غصن الزيتون والحية إشارة إلى عبادة قدماء اليونان للأشجار والحيات. [1] وقد ماثلها الرومان لإلهتهم منيرفا (*Minerva*). [2]

انتقلت عبادتها إلى لوبة، وحسب "هيرودوت" فإن الليبيين الذين يعيشون حول بحيرة تريتونيس [*] (*Tritonis*) كانوا ينحرون القرابين لأثينا على الخصوص.

ويذكر في مقام آخر: [3] «**أن قبائل الماشلي (*Machlyes*) والأوسيس (*Auses*) الليبية التي كانت تستقر على شواطئ السرت الصغير، كانت تقيم حفلا سنويا للربة أثينا، تنقسم فيه عذارى القبيلتين إلى فريقين يحارب أحدها الآخر بالحجارة والعصي، وبهذا – على حد قولهم – يظهرن إجلالهن على نمط الأسلاف للإلهة الوطنية أثينا. وتعتبر الفتيات اللاتي يمتن جراء جروحهن عذارى زائفات. وقبل أن يبدأ القتال تختار أجمل فتاة من الفريقين وتزين بخوذة كورنثية (*Corinthien*) [**] وعدة حرب كاملة إغريقية، ثم يركبونها عربة ويطفن بها على ساحل البحيرة كلها.** » وقد نتساءل : كيف كان يتم فيما مضى تجهيز هؤلاء الفتيات قبل قدوم الإغريق ليسكنوا بالقرب منهم؟

أعتقد أن تلك الفتيات كن يكتسين بأسلحة مصرية، وحسب "هيرودوت" فإن هؤلاء الليبيين كانوا يقولون أن أثينا هي بنت بوسيدون (*Poséidon*) وليمني

1- علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 39.

2- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، ص 65.

**- بحيرة تريتونيس (Tritonis)، هي شط الجريد حاليا في الجنوب التونسي.*

3- Hérodote, IV, 188.

*** – نسبة إلى **كورنثة Corinthe**، وهي مدينة إغريقية تبعد بحوالي ميل ونصف الميل (حوالي 2,4 كلم) جنوب البرزخ الذي يصل البليبونيز (Péloponnèse) بوسط اليونان. توالى عليها الناس منذ العصر الحجري الحديث، كانت مركزا هاما لعبادة الإلهة أفروديت، تعرضت المدينة للتدمير سنة 146 ق.م على يد الرومان. فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 46.*
- Dict. Univ. Hist. Géo., p. 460.

(*Limnée*) أي بحيرة تريتونيس، وأنها قد حدث لها ما تذمرت بسببه من والدها، فوهبت نفسها إلى زيوس الذي تبناها.» [1]

يتضح مما سبق أن هذا الاحتفال السنوي كان يشمل قسمين: تبدو المعركة - في البداية- أنها طقس سحري أقدم بكثير من عبادة أثينا، ثم الاحتفال الديني الذي اندمج في الطقس والذي ربما يهدف إلى طرد الشر، أما الإلهة المتمثلة في الفتاة التي يطاف بها في أبهة حول البحيرة فإنها تمثل خاصية المدينة أو منطقة بحيرة تريتونيس.

وذكر المؤلف الجغرافي المعروف برحلة "سكيلاكس" في القرن الرابع الميلادي أن بهذه المنطقة أي بحيرة تريتونيس كان قد أقيم هيكلا لأثينا– تريتونيس. [2]

ويمكن أن نتساءل: لماذا شخص الإغريق هذه المعبودة في الإلهة أثينا؟ حسب ما ذكره "هيرودوت" فإن هذه العبادة المتوجهة إليها كانت مثل أثينا التي كانت إلهة محاربة وإلهة عذراء. [*] وعلاوة على ذلك –حسب ما أورده هيرودوت – فقد كانت تعبد في منطقة بحيرة تريتونيس التي يصب فيها نهر يسمى تريتون (*Triton*). [3]

يبدو أن هذين الاسمين هما صيغتان إغريقيتان للفظين أهليين. بينما لفظ تريتوجينيا (*Tritogéneia*) فقد كان اسما قديما لأثينا.

وقد حاول بعض المؤرخين منهم "س. غزال" [4] تفسير مدلول هذين اللفظين، وافتراض أن أثينا ولدت ونشأت بالقرب من أحد الأنهار أو أحد منابع المياه في بلاد الإغريق، يعرف باسم تريتون أو تريتونيس، وكان المغاربة القدماء إذا ما وجدوا مجاري

1– *Hérodote, IV, 180.*

2– *Scylax (Périple de), 110 , (Geogr. Graeci. Min. I, p. 88.)*

*– *حسب اعتقاد الأهالي فإن العذارى فقط هن من يشاركن في المعركة في عيد أثينا السنوي، ذلك أن الفتاة المعروفة بأنها عذراء هي التي تمثل الإلهة في طقس الطواف حول بحيرة تريتونيس.* - *Gsell (S.), Hérodote, textes relatifs…, p. 81.*

3– *Hérodote, IV, 178.*

4– *Gsell (S.) , Hérodote, textes relatifs…, p. 82.*

مائية أو بحيرات فإنهم يطلقون عليها اسما مشابها. والإغريق نقلوا إليها أسطورة مولد أثينا. (*)

وكانت قبائل الماشلي (*Machlyes*) والأوسيس (*Auses*) قد نسبت خرافة إلى أثينا يحتمل أنها من أصل بيوتي (*Béotienne*) (**) لا ليبي حسب "هيرودوت." (***) ذلك أن والدها حاول إيذاءها وهو ما يشير إليه المؤرخ إشارة عابرة، الذي أخلط على ما يبدو بالاس (*Pallas*) والد أثينا ببوسيدون (*Poséidon*).

وهكذا يتضح أن الإلهة أثينا كانت إلهة الدولة وضامنة العدالة والقوانين، توفر الأمن والازدهار للبلاد فهي التي اخترعت أدوات الزراعة، كما كانت تسهر على وفاق الأزواج وشرف الأسر، وهي إلهة الحكمة ترعى الفن والأدب، وقد ماثلها الرومان بإلهتهم منيرفا (*Minerva*).

3-**الإله بوسيدون**: يمثل الإله بوسيدون (*) (*Poséidon*) إله البحر (**) وله سلطان على الرياح والعواصف والزلازل، وهو ابن الإله كرونوس وهيرا ربة الزواج والأسرة، وأخا للإله زيوس. (1)

---

*- *يتغير مكان ولادة أثينا في إفريقيا بحسب الموقع الذي يحدد لنهر تريتون ولبحيرة تريتونيس، إذ تباينت آراء الباحثين بشأن هذا الموقع ولم يتفق جلهم على مكان بعينه.* *- Gsell (S.), Hérodote, textes…, pp. 77- 78.*

- *بيوتيا* ***Béotie*، *Boeotia*، *منطقة في اليونان القديمة، تعتبر طيبة Thèbes من أهم مدنها، التي أصبحت عاصمة أثناء الحرب بين اسبرطة وأثينا.* *- Dict. Univ. Hist. Géo., pp. 212- 213.*

***- *هذه الأسطورة نقلت ربما إلى إفريقيا عن طريق مستوطنين من قرينة (Cyrénaïque) ينحدرون من البيوتيين (Béotiens).* *- Ibid., p.213.*

****- *عثر في ضريح الخروب على أسلحة وآنية من فضة وقلادات عليها رسوم للإله بوسيدون.* *- Bonnel (M.), Monument Gréco- Punique de la Souma, (près de Constantine), R.S.A.C., XLIX, 1915, pp. 177- 178.*

*****- *كان الصيداويون يعبدون إله البحر، لكن كانوا يشخصونه مع زيوس وليس مع بوسيدون، ويمكن أن يكون قد امتزج مع بعل صيدون (Baal Cidôn) أي "إله وسيد صيدا".* *- Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, P. 337.*

1-*Dahmani (S.), le royaume de Massinissa, un projet contrarié, Paris, 2003, pp.128-129.*

وحسب "هيرودوت" فإن الليبيين الذين كانوا يعيشون حول بحيرة تريتونيس (السرت الصغير) كانوا ينحرون القرابين إلى أثينا، وإلى بوسيدون أيضا. (1)

وقد جعل "هيرودوت" من بوسيدون أبا للإلهة أثينا، ويشير في فقرة أخرى: «**أن الليبيين كانوا يعبدون بوسيدون وتريتون، وهم الذين عرفوا بوسيدون إلى الإغريق، فقد كان الليبيون وحدهم دون سواهم هم الذين وجد بينهم اسم بوسيدون، وكانوا يعظمون دائما هذا الإله.**» (2)

لكننا نجهل ما إذا كان المغاربة القدماء قد تلقوا هذين المعبودين من الفينيقيين. ولنا أن نتساءل في هذا السياق: هل كان الإله الإغريقي بوسيدون ذو أصل ليبي؟

هذا ما نجهله حتى الآن، لأننا لا نملك ما نرتكز عليه كي نحكم بصحة هذه الفرضية. ونجهل أيضا ما هو تريتون الذي يذكره "هيرودوت" مع بوسيدون؟ والذي يذكر لنا عنه في مكان آخر أنه قدم المساعدة لركاب سفينة أرغونوتس (*Argonautes*) الذين جنحت بهم السفينة في مضاحل بحيرة تريتونيس. (3)

وذكر "بوليبيوس" أن الإله بوسيدون ورد مع تريتون في قسم "هانيبال" الشهير الذي ختم به معاهدة التحالف مع "كزينوفانس" (*Xénophans*) سفير "فليب الخامس" ملك مقدونيا سنة 215 ق.م. (4)

وأشار "ديودور الصقلي" إليه مرتين (5) حيث ذكر أن بوسيدون إله البحر كان القادة القرطاجيون يتقربون إليه بتقديم الأضاحي والقرابين في صقلية.

1- *Hérodote, IV, 188.*

2- *Hérodote, II, 50.*

3- *Hérodote, IV, 179.*

4- *Polybe, VII, 9, 2- 3.*

5- *Diodore de Sicile, XI, 21, 4 ; XIII, 86, 3.*

كما أقام له حنون معبدا في رأس صولوئيس [*] (*Cap Soloeis*)، أثناء رحلته الطويلة التي قادته إلى السواحل الغربية لإفريقيا المطلة على المحيط الأطلسي. [1] وفي منتصف القرن الرابع ق.م. أشار المؤلف الجغرافي رحلة سكيلاكس إلى هيكل بوسيدون الذي أقيم في نفس المكان الذي ذكره حنون. [2]

<u>**4-الإله تريتون (*Triton*):**</u> هو إله البحر، كان الإغريق يصورونه وهو يحمل بوقا وإلى جانبه الإلهة "أثينا" تساعده في وظائفه الحربية الخاصة، منها أنه كان يرفع الصخر من البحر ويغلق به ما بين الجزر والمضائق.

وقد ذكر "هيرودوت" بحيرة في ليبيا سميت باسمه "تريتونيس" (*Tritonis*) (شط الجريد حاليا) تقع على خليج قابس في تونس، وأن الليبيين الذين كانوا يعيشون حول هذه البحيرة كانوا ينحرون القرابين إلى "تريتون". [3]

وورد ذكر الإله تريتون في المعاهدة المبرمة بين "فيليب المقدوني" (*Philippe*) و"حنبعل". [4] حيث يظهر تريتون بين المعبودات القرطاجية التي ذكرت في تلك المعاهدة.

ويعتقد "س. غزال" أنه من الصعب- في غياب المصادر المادية والكتابية- أن نستنتج أن تريتون السرت الصغير (خليج قابس) كان ذا أصل فينيقي. [5]

*- ***رأس صولوئيس***، يقع هذا الرأس بعد أعمدة هرقل، وقد يكون رأس سبارتل المجاور لطنجة، وقد جعل بعض الباحثين من رأس سبارتل هو رأس صولوئيس، وأشارت رحلة سكيلاكس إليه على أنه رأس كانتان (Cap Cantin) وليس رأس سبارتل الواقع على الساحل المغربي في اتجاه الجنوب الغربي، كما أشار إليه بلينوس القديم ورحلة حنون، لذلك نعتقد أن رأس صولوئيس هو رأس كانتان وليس رأس سبارتل. - Hérodote, II, 43.*

1- *Périple d'Hannon, 4 (Geogr. Graeci. Min., I, p. 3).*

2- *Périple de Scylax, 112 (Geogr. Graeci. Min., I, p. 93).*

3- *Hérodote, IV, 188.*

4- *Polybe, VI, 9, 2-3.*

5- *Gsell (S.), H.A.A.N., VI, p. 153.*

ومن جهة أخرى يذكر "هيرودوت" أن الإله تريتون كان قدم المساعدة لركاب سفينة "أرغو" (*) (*Argo*) السفينة الإغريقية التي في غرقت في بحيرة تريتونيس. (1)

5-<u>الإلهتين ديميتر وكوري (*Démeter et Coré*)</u>: يذكر "ديودور الصقلي" أن عبادة الإلهتين ديميتر وكوري كانت منتشرة بشكل واسع في جزيرة صقلية، ودخلت مدينة قرطاجة في ظروف تعود إلى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد.

يشير المؤرخ الإغريقي (2) – في معرض حديثه عن حصار الجيش القرطاجي بقيادة "هيميلكون" (*Himilcon*) لمدينة سيراكوزا (*Syracuse*) سنة 396 ق.م– أن الجنود قاموا بنهب معبدي الإلهتين ديميتر (*Déméter*) وكوري– برسيفون (**) (*Coré-Perséphone*) اللذين نصبا خارج المدينة، بعد ذلك لحقت بالقرطاجيين مصائب كثيرة في صقلية وإفريقيا. (***)

---

* – هي سفينة بنيت على اسم أرغوس *Argus* ابن بريكسوس *Prixus*، أبحر فيها خمسون بطلا أسطوريا من أبطال الإغريق الأقدمون، وكان يقودهم "جازون" (*Jason*) بحثا عن الجزيرة الذهبية. وكانت السفينة "أرغو" أثناء رحلتها قد توغلت في مضاحل بحيرة تريتونيس، وتذكر الأساطير أن تريتون ظهر بشكل بشري لبحارة الأرغو وأعطاهم قطعة طين عربونا لتملكهم قورينة، وأنهم إذا ما تمكنوا من أخذ المنضدة البرونزية ذات الثلاثة أرجل (*Trépied d'airain*) فلابد أن تنشأ مائة مدينة إغريقية على ضفاف بحيرة تريتونيس. ويقال أن الليبيين لما علموا بذلك أخفوا المنضدة. علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص ص 38-39.

1-*Hérodote, IV, 179.*

2- *Diodore de Sicile, XIV, 77, 5.*

** – هي ابنة ديميتر–حسب الأساطير–وقد بحثت عنها في مدينة ألوزيس (*Eleusis*) بعد أن كان هاديس قد اختطفها، وقد أقيم معبدا لهما في هذه المدينة التي تبعد بحوالي 20 كلم شمال غرب أثينا. فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 47.

*** – أشار بعض المؤرخين إلى الوباء الذي فتك بالجيش القرطاجي، ومنهم ديودور الصقلي الذي أرجع ذلك إلى أن القرطاجيين قاموا بنهب معبدي الآلهتين ديميتر وكوري مما أغضب الآلهة. ورغم ذلك فقد برز تفسيرين لما حدث للجيش القرطاجي، تفسير عقلاني يتمثل في ارتفاع عدد الجند، وطبيعة مكان المعركة، وارتفاع درجة الحرارة، وتفسير ميتافيزيقي يعود إلى غضب الآلهة بسبب الأرجاس التي قام بها القرطاجيون. -*Diodore de Sicile, XIV, 77, 5.*

ولما أرجع القرطاجيون سبب الوباء الذي أصابهم إلى تدنيسهم المعبدين مما أغضب الآلهة. لذلك قرروا إدخال عبادتهما إلى مدينتهم، وعينوا لهما كهانا اختيروا من بين أفضل المواطنين منزلة، كما حافظوا على الطقوس الإغريقية التي كانت تقام للإلهتين. [1]

وكانت الجالية الإغريقية بقرطاجة قد كلفت بإحياء الطقوس وبضمان الخدمات المقدسة المقدمة للإلهتين. [2] وهو ما يفسر التمسك بالتقاليد والأعراف الهللينية فيما يخص عبادة ديميتر وكوري.

وقد افترض بعض المؤرخين [3] أنه أشير إلى الإلهتين ديميتر وكوري في نقيشة قرطاجية، إلا أن النص صعب تفسيره، ولم يذكر صراحة اسمي الإلهتين اللتين أهديت لهما النقيشة.

ويعتقد "ج. ج. فيفريي" [4] أن نقيشة بونية ذكرت الإلهة كوري، غير أننا لا نستطيع أن نتحقق من قراءتها لفقدان صورة النقيشة. لذلك لم تنشر في مدونة النقائش السامية، ولا في أعمال الأكاديمية الفرنسية للنقائش والفنون. [5] وتعني الإلهة ديميتر (*Déméter*) عند اليونان الأرض والأم. [6] وارتبطت لديهم بصفة خاصة بحصاد القمح، وهي إلهة الأرض والخصوبة وشقيقة زيوس. [7]

1- *الشاذلي بورونية، المرجع السابق، ص 299.*

2- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 346.*

3- *Clermont- Ganneau (M.), R.A.O., t. III, p. 7.*

4- *Février (J.G.), « La Koré punique », dans Mélanges Bibliques rédigés en l'honneur de A. Robert, Paris, 1957, p. 368.*

5- *Berger (Ph.), C.R.A.I., 1907, p. 804.*

6- *جفري بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مجلة عالم المعرفة، عدد 173، 1993، ص 49.*

7- *فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 63.*

يبدو أن اسمي الإلهتين ديميتر وكوري لم يرد في أسماء الأعلام القرطاجية، وأن عبادتهما دخلت قرطاجة في حوالي القرن الثاني ق.م على الأقل، وهو التاريخ الذي تعود إليه لقى تشير إلى عبادتهما في هذه المدينة.

المبحث الرابع: المعبودات الرومانية: تذكر بعض النصوص القديمة التي تعود إلى فترة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم أن الليبيين قدسوا معبودات تتشخص في آلهة لاتينية. ومن أبرز الآلهة الرومانية:

1-ساتورنوس (*Saturnus*): يعتبر الإله ساتورنوس "زحل" الروماني، إله السماء والزمن، وهو الإله الخفي الذي لا يقهر (*Invictus*)، وهذا هو اللقب الخاص بإله الشمس مما يجعله أكثر قربا منها، لكن دون المزج بينهما.[1] وبتقديمه على أنه الشمس، فإن "ماكروب" (*Macrobe*) اتبع هذا الاتجاه، فالآلهة الوثنية بالنسبة له كلها عبارة عن أقانيم شمسية. [2]

فقد كان المغاربة القدماء خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد على ما يبدو، يولون عناية خاصة لعبادة الشمس (*Héliolâtrie*)، باستثناء بعض المناطق المحدودة مثل: مكثر (*Mactar*) وألثيبوروس (*Althiburos*). [3]

وكان بعل- ساتورن خلال الفترة البونية مسيطرا على الشمس في حين كانت تانيت -كايليستيس (*Tanit-Caelestis*) تسيطر على القمر. [4] وما يؤكد ذلك العثور على عدة أنصاب بمعبد الحفرة البوني بقسنطينة التي تحمل رموز الإلهين كالشمس والقمر. [5]

1-*Leglay (M), Saturne Africain, Histoire, p. 256.*

2-*Macrobe, Saturnales, I, 22.*

3-*Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire, Op. cit., pp. 256- 257.*

4-*Gsell (S.), H.A.A.N.,t. IV, pp. 251, 265.*

5-*Berthier (A.), et Charlier (R.), le sanctuaire punique d'El- Hofra, Op. cit., p. 185.*

ومن جهة أخرى يوصف ساتورن أنه إله الأرض الخصبة، وهو يحمل الخطاف الرمز الملكي والريفي (*) في نفس الوقت. وحسب "م. لوغلي" فهو السيد الذي يسيطر على الحياة، وهو الذي يخلق ويحمي الإنسان، النبات والحيوان، لذلك يظهر لأتباعه على أنه "الأب" خالق ومنظم الحياة. (1)

ويلاحظ أن ساتورنوس هو الاسم الذي أطلق على بعل حمون في المغرب القديم، والذي يماثله من حيث الوظيفة، في حين أن "كايليستيس" تعتبر استنساخا للإلهة "تانيت بني بعل". (2)

وما يدل على رومنة الديانة البونية، العثور على عدة أنصاب تحمل رمز ساتورن قرب كويكول (*Cuicul*- جميلة حاليا) تعود إلى القرن الثالث الميلادي.

وعثر على أنصاب أخرى تحمل رسوما للإلهة تانيت–كايليستيس في دوقة وقرطاجة وسيرتا. (3) ولما كان ساتورن (**) إلها إفريقيا، فقد كان سكان قرطاجة يأنفون ذكر اسم ساتورن ذو الأصول البونية، ويفضلون تسميته بـ "العجوز" (*Senex*). (4)

وكانت الطقوس والقرابين التي تقدم للآلهة الرومانية متشابهة تقريبا مع تلك التي قدمت للآلهة البونية. فقد ذكر "ترتوليانوس" أن تقريب الأطفال استمر حتى الفترة

– أقر غ. كامبس نفس الرموز، إلا أنها تطورت إلى دولاب مثل على آنية من فخار مجسم عثر عليها في مقابر بربرية بتديس (Tiddis) قرب قسنطينة، والتي يؤرخ لها بأواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول ق.م. -Camps (G.), Libyca, IV, 1956, p. 177.

1– Leglay (M.), Saturne Africain, Op. cit., p. 257.

2– Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 260 ; Carcopino (J.), Survivances par substitutions des Sacrifices d'enfants, op.cit., pp. 592- 599.

3– Gsell (S.), H.A.A.N., IV, pp. 288- 289.

*– **ساتورن**، يظهر في إحدى النصب الأربعة التي عثر عليها خلال الفترة الرومانية في القنطرة قرب بسكرة في شكل شيخ ملتح بقرنين، لكن ليس قرن الكبش الملتوية التي تعد ميزة خاصة بالإله آمون. - Berger (Ph.), Stèles trouvées à El- Kantara, B.C.T.H.S., 1898, pp. 152- 154.*

4– Gsell (S.), H.A.A.N., IV, p. 235 ; Gaffiot (F.), Op. cit., p. 583.

الرومانية فخلال القرن الثاني الميلادي كان بعض الكهنة يقدمون الأطفال قربانا للإله ساتورن علانية. (1)

وكانت عمليات تقريب الأضاحي البشرية تنفذ بأمر من البروقنصل الروماني، إلا أن "أوغسطين" يشير أنه خلال القرن الرابع الميلادي كان الرومان ينكرون على القرطاجيين طقس قربان الأطفال المقدمة للإله ساتورن. (2)

كانت القرابين من الأطفال تقدم إلى ساتورن في حالة حدوث نكبات أو كوارث كالطاعون والجفاف والهزائم العسكرية لتهدئة الإله، لأن غضبه – في نظرهم–هو الذي يتسبب في حدوث أشياء مروعة. (3)

كانت هذه الطقوس تتم باسم الدولة، وكان عدد الضحايا يختلف من فترة لأخرى، ففي أواخر القرن الرابع ق.م حينما أصيب الجيش القرطاجي بالطاعون أثناء حصار مدينة أغريغانتي (*Agrigente*) (*) قام هيميلكون (*Himilcon*) (**) بتقديم طفل واحد كقربان. (4) لكن في سنة 310 ق.م أثناء حملة القائد الإغريقي أغاتوكليس على المغرب القديم، قام القرطاجيون بتقريب خمسمائة (500) طفل، للحصول على رضا وعفو الآلهة.(5)

1–*Tertullien, Apol., IX.*

2–*Augustin (St.), la cité de dieu, VII, 26.*

3–*Justin XVIII, 6, 12.*

*– ***أغريغانتي***، مدينة قديمة في جزيرة صقلية، تعرف باسم " Acragas" بالإغريقية و "Agrigentum" باللاتينية، تقع على الساحل الجنوبي لجزيرة صقلية، تأسست في حوالي سنة 582 ق.م.، دمرها القرطاجيون سنة 406 ق.م. وخضعت للرومان سنة 210 ق.م.، بها عدة معابد للآلهة: هرقل، أبولون، ديانا، جونون، كيريس وجوبيتر. *Dic.Univ.Hist.Géo., pp.26-27.*

– ***هيميلكون*، جنرال قرطاجي، أخضع جزء كبير من جزيرة صقلية إلا أنه عجز عن السيطرة على سيراكوزا (Syracuse) فانتحر بسبب إخفاقه سنة 398 ق.م. - *Dic.Univ.Hist.Géo., pp.874 -875.*

4–*Diodore de Sicile, XIII, 86, 3.*

5–*Diodore de Sicile, XX, 14, 4 - 5.*

يبدو أن هذه الأرقام التي ذكرها "ديودور الصقلي" متناقضة ومبالغ فيها، فكيف يقدم القرطاجيون طفل واحد لما أصيب الجيش القرطاجي بالطاعون، في حين يقومون بتقريب خمسمائة (500) طفل أثناء حملة القائد الإغريقي "أغاتوكليس" على المغرب القديم، والدليل على ذلك أن الحملة انتهت بفشل ذريع.

2-<u>الإله جوبيتر (*Jupiter*)</u>: يعتبر الإله جوبيتر "المشتري" من أقدم وأكبر الآلهة الرومانية، وهو في نظر الرومان رب الأرباب والبشر، والضوء والسماء والزمن والرعد والصواعق والمطر، يتحد في العبادة – غالبا– مع ساتورن وهو استنساخ للإله القرطاجي بعل حمون، والإله الإغريقي زيوس.[1]

ويشكل الإله "جوبيتر" مع "جونون" [*] (*Junon*) زوجته الملكة وابنته "مينرفا" (*Minerve*) ثالوث الآلهة التي كانت تعبد في الأصل على قمة ربوة الكابيتول [**] (*Capitole*) (الشكل 16 رقم ص 159) ومنذ عصر الملوك الأتروسكيين [***] وهو مسيطر على مجمع الآلهة حاملا لقب "الأفضل والأعظم" وارتبط اسم "جوبيتر" بعد ذلك على نحو فريد بمصير روما.

1- Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire..., Op. cit., pp. 231- 233.

*- **جونون**، هي الإلهة الكبرى عند الرومان، زوجة الإله جوبيتر، ولعلها الإلهة تانيت التي تحولت إلى كايليستيس خلال الفترة الرومانية في المغرب القديم، وتقابل الإلهة هيرا *Héra* عند اليونان والإلهة تانيت عند القرطاجيين، وهي راعية النساء وحامية الأنوثة والزواج، ويعتقد الرومان أن الزواج السعيد يكون في شهرها أي "يونيو". جفري بارندر، المرجع السابق، ص 340.

- Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire..., Op. cit., p. 242.

- **الكابتول، هو أعلى تلال روما السبعة والمركز الديني للمدينة القديمة، شيد عليه المعبد الكبير للإله " جوبيتر كابيتولينوس " والقلعة ومبنى سجلات الدولة. جفري بارندر، المرجع السابق، ص 391.

***- **الأتروسكيين**، هم سكان إقليم "أتروريا- *Etruria*" منطقة قديمة غرب إيطاليا تقع بين جبال الأبنين والبحر التيراني.

- Dic. Univ. Hist. Géo., p. 630.

ويذكر "كوريبوس" أن جوبيتر هو الإله ماستيمان (*Mastiman*) إله الحرب عند بعض القبائل الليبية، وكانت تقدم الأضاحي البشرية وتسفك الكثير من الدماء لأجله. [1]

وكان "حنبعل" في بداية حملته الكبرى ضد روما قد تلقى في المنام أوامر من جوبيتر. [2] وحسب "تيتوس ليفيوس" (*Titus Livius*) فإن القائد القرطاجي أشهد جوبيتر بوعوده أمام جيشه قبل معركة نهر تيسينو [*] (*Tessino*). [3]

كان بعل الفينيقي والسوري يماثل الإلهين زيوس الإغريقي وجوبيتر الروماني وهذا ما أكده القديس أوغسطين في القرن الرابع الميلادي. [4] ومن غير المستبعد أن ينطبق هذا التشخيص على بعل حمون.

ومع ذلك يبدو أن بعل حمون كان دائما يشخص مع كرونوس–ساتورن، أما جوبيتر فكان يشخص ربما مع "بعل شميم" (*Baal Shamim*) والذي يعني "ملك أو سيد السماوات". [5] وقد ذكر في نصب نذري وشاهدة قبر عثر عليهما في قرطاجة كهنة كانوا في خدمة الإله بعل شميم. [6] وكان القرطاجي حنون (*Hannon*) يتضرع إليه في فقرة كتبت باللغة الفينيقية، بينما وصفه القديس "أوغسطين" بالإله البوني.

وفي قول مزعوم نسب إلى "حنبعل" ذكر فيه إله السماء، تساءل البكري إن كان الأمر يتعلق بالإله الفينيقي "بعل شميم". [7]

1- *Corippus, Joh., V, 37, 38 ; VIII, 305- 306.*

2-*Valère- Maxime, I, 7, 1 ; Silius Italicus, III, 163.*

*- *نهر ينبع من جبال الألب في سويسرا ويتجه جنوبا ليلتقي بنهر البو (Po) شمال إيطاليا، وعلى ضفافه ألحق "حنبعل" الهزيمة بالروماني "بوبليوس سيبيون" (Scipion) سنة 218 ق.م.* *-Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1855.*

3-*Tite Live, XXI, 45, 8.*

4- *Gsell (S.), H.A.A.N., IV, p. 293.*

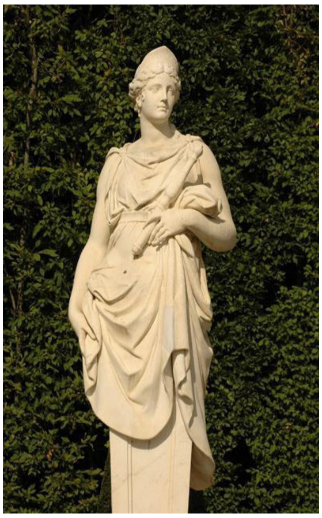
5- *Cumont (F.), les religions orientales dans le paganisme romain, Paris, 1929, p. 154.*

6-*Ibid., p. 294.*

7- *EL- Bekri, Description de l'Afrique septentrionale, trad. de Slane, édition d'Alger, 1913, p. 92.*



(أ)



(ب)



(ج)



(د)

الشكل رقم 16: مجمع الآلهة الرومانية بالكابيتول.

أ–تمثال الإله "جوبيتر" أكبر الآلهة الرومانية يشكل مع زوجته الملكة وابنته "مينرفا" ثالوث آلهة الكابيتول.

ب–تمثال جونون، زوجة الإله جوبيتر إلهة الخصب والأمومة والزواج (حديقة قصر فرساي–باريس).

ج–تمثال "مينرفا" إبنة الإله "جوبيتر" إلهة الحرب والحكمة والذكاء.

د–مجمع الآلهة الكابيتولينية في روما.

نقلا عن: *www.lesitemai.free.fr./ url. Dieux*

تاريخ الزيارة: 2015/08/03.

يتضح مما سبق أن الإله جوبيتر أكبر الآلهة الرومانية كان يماثل آمون (*Ammon*) في المغرب القديم. إلا أن هذا الأخير كان يمثل زيوس عند الإغريق، وجوبيتر–حمون عند الرومان، وكان الإله ذو قرون الكبش يعبد في المغرب القديم وينعتونه إما بـ "آمون" أو "بعل حمون" أو "جوبيتر–حمون".

3–**الإلهة كيريس (*Cérès*)**: عرفت الإلهة كيريس أو"سيراس" في الميثولوجيا الرومانية بإلهة الأرض والقمح، وهي الأم المشرفة على الزراعة وابنة الإله ساتورن وأخت جوبيتر وبلوتون (*Pluton*)، والإله ليبر (*Liber*) الإله الروماني القديم الذي اتحد فترة مع الإله الإغريقي باخوس (*Bacchus*) أو الإله ديونيسيوس (*Dionysius*)، و ليبرا (*Libera*) وهي ابنة كيريس وأخت ليبر، وهي أحيانا إريان زوجة باخوس أو الإلهة برسيفون (*Perséphone*) عند اليونان. [1]

كانت للإلهة كيريس علاقة بالإلهتين الإغريقيتين "ديميتر" و"كوري"، ويعتقد أنها دخلت إلى بلاد المغرب القديم عن طريق صقلية حيث كانت تعبد هناك. [2] ثم انتشرت عبادتها في قرطاجة وانتقلت إلى نوميديا في فترة الملك ماسينيسا. [3]

وكانت الإلهة كيريس تسهر على زراعة القمح وازدهار الفلاحة وسائر النباتات الأخرى، لذلك وصفها بلين القديم قائلا: «**إن الطبيعة وهبت كيريس كل أرض إفريقيا، أما الزيت والخمر فقد اكتفت بألا تمنعها عن هذه البلاد، وأن تضمن لها العزة والمجد عن طريق الحصاد**». [4]

وكانت المعبودتين الإغريقيتين ديميتر *Demeter* وكوري *Coré* آلهة الخصوبة قد اتخذتا كآلهة من طرف القرطاجيين في بداية القرن الرابع ق.م.، ويحتمل أنهم أعطوا

1– *جفري بارندر، المرجع السابق، ص ص 326، 391–392.*

2– *Dict. Univ. Hist. Géo., p. 369.*

3– *Carcopino (J.), le culte des Cereres et les Numides, R. Hist., t. CLIX, 1928, pp. 21- 22.*

4– *Pline L'Ancien, XV, 8.*

لهما أسماء بونية، أما ديميتر فقد عرفت في روما باسم "كيريس" (*Cérès*). وكانت عبادتهما واسعة الانتشار في شمال إفريقيا خلال الفترة الرومانية، وعلى الخصوص منها كيريس الأم التي لا شك أنها مجدت أيضا باسم "تلوس" [*] (*Tellus*) أي "الأرض الربة"، وكانتا الحاميتين الكبيرتين للزراعة. [1]

وقد يكون بعض المغاربة القدماء قد تلقوها قبل ذلك، [2] إلا أننا لا نملك الأدلة المؤكدة لذلك. وتظهر صورة الإلهة كيريس متوجة بالسنابل على نقود تعود إلى عهد "هيمبسال الثاني" [**] ملك نوميديا. [3] وعلى عملة أخرى أصدرها الملك "بطليموس"[***] (*Ptolémée*) آخر ملوك موريطانيا. [4] لكننا أيضا لا نستطيع أن نؤكد بأنها الإلهة كيريس.

---

* – *وجد نقش مكرس للإلهة "تلوس" في معبدين أقيما لها في مدينة "كويكول" Cuicul جميلة حاليا، أحدهما في وسط المدينة والثاني في جنوب شرقها، ورد هكذا:*

TELLURI GENETRICI RESPVBLICA CVICVLITAN orum TEMPLVM FECIT

- Ballu (A.), Ruines de Djemila (Antique Cuicul), Rev. Afri., LXII, 1921, (pp.201-274), p.234.

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. IV, p. 267.*

2- *Ibid., t. VI, p. 157.*

** – ***هيمبسال الثاني*** *(Hiempsal II) (60-106 ق.م)، ملك نوميدي ابن غودا أخ يوغرطة، والذي خلفه في الحكم حسب نقيشة لاتينية عثر عليها الباحث الفرنسي "شباسيير" في توبورسيكوم نوميداروم (خميسة حاليا قرب قالمة)، ذلك أن حكم غودا كان قصيرا (106-105 ق.م). - Chabassière (M.), Rev. Arch., Constantine, 1868, p. 129.*

3- *Charrier (L.), Description des monnaies de la Numidie et de la Maurétanie, Typographie Alexandre Carle, Bône, 1886, p. 14.*

*** – ***بطليموس،*** *(1 ق.م-40م) ملك موريطانيا القيصرية (23م- 40م)، تولى عرش أبيه يوبا الثاني إثر وفاته سنة 23م، تزوج بطليموس جونيا أورانيا من سلالة سورية إغريقية، اهتم بتمدين المملكة وتعميرها وتقويتها عسكريا، وجعل أيديمون (Aedemon) وهو أحد عتقائه قائدا عسكريا فوزيرا للدولة، وحد المملكة وجمع كل القبائل الأمازيغية تحت سلطته، لكن الحكومة الرومانية في عهد "كاليغولا" (Caligula) (37م- 41م)، كانت تترقب تطلعاته، وتمكن الإمبراطور الروماني "كاليغولا" من استدراجه واغتياله بمدينة "ليون" الفرنسية سنة 40م. حمداوي جميل، المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، 2013، ص ص 206-210.*

4- *Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p. 157.*

وقد حاول "جيروم كاركوبينو" [1] أن يثبت في مقاله عن "عبادة الإلهة كيريس في شمال إفريقيا" أن انتشار عبادة هذه الإلهة يمثل جانبا من جوانب انتشار الهلينة (*Hellénisme*) في الشمال الإفريقي القديم، اعتمادا على ما ورد في بعض المصادر الأدبية من أن الإلهة كيريس هي الإلهة الأولى في منطقة مثل إفريقيا يقوم اقتصادها أساسا على الفلاحة.

وأيده مؤرخون آخرون من أبرزهم "ج. ش. بيكار" في كتابه "ديانات إفريقيا القديمة". [2] كما حاول "غ. كامبس" إيجاد دور لـ "ماسينيسا" في إدخال طقوس هذه العبادة إلى المملكة النوميدية. [3]

ويبدو أن محاولات مؤرخي المدرسة الكولونيالية تريد أن ترسخ فكرة أن الإنسان المغربي عاجز عن أي إبداع فكري أو ديني. والحقيقة أن هذا الإنسان في غير حاجة إلى استيراد معتقدات تتعلق بنشاطه الفلاحي، كما لا ننكر أن هناك تمازج بين المعتقدات الليبية المحلية والمعتقدات الوافدة الإغريقية أو الرومانية، لكن تبقى المعتقدات المحلية دائما هي الأصل.

4-الإله أسكولابيوس (*Aesculapius*): هو إله الطب والشفاء عند الرومان، وهو نفسه الإله "أسكليبيوس" (*Asclépius*) (أنظر الشكل رقم 17 ص 164) عند الإغريق، ابن الإله زيوس (*Zeus*) وعروس البحر "كورونيس" (*Coronis*)، كان بارعا في فن الشفاء،

1- *Carcopino (J.), Le culte des Cereres, R. Hist., t. CLIX, 1928 :dans Aspects mystiques de la Rome païenne, pp. 13- 27*

2- *Picard (G. Ch.), les religions de l'Afrique antique, pp. 100- 129.*

3- *Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Massinissa ou les débuts de l'histoire,Libyca, t. VIII, 1960.*

خشي أبوه زيوس أن يجعل الناس خالدين فقتله بصاعقة، وهو والد "هيجيا" (*Hygieia*) إلهة الصحة عند اليونان. (1)

وتشير بعض المصادر الكلاسيكية مثل "سترابون" و "أبيانوس" إلى أن الإله أسكولابيوس يمكن أن يماثل الإله الفينيقي "أشمون" (*Eshmoun*) إله مدينة صيدا (*Sidon*) في الساحل الفينيقي. (2)

وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن هذا الإله اعتبر من قبل القرطاجيين بمثابة الإله الشافي. وقد يماثل في وظيفته الإله الليبي "ماكورغوم" (*Macurgum*). (3)

وقد عثر على العديد من التماثيل للإله "أيسكولاب" في عدة مواقع في"أماديرا" (*Ammaedera*) "حيدرة حاليا" بالقرب من تبسة. (4) وأقيم له معبدا فخما في موقع قمة تل بيرصة (*Byrsa*) (5) بقرطاجة في تونس. وكان المعبد واسع المساحة ومحاط بسور ويتسع لمئات من العباد والمريدين.

ويشير "بوليبيوس" أن عائلة البارسيد (*Barcides*) التي أسست مدينة قرطاجنة في إسبانيا، أقامت للإله "أسكولابيوس" (*Aesculapius*) معبدا على قمة ربوة مدينة قرطاجة الجديدة. (6)

1- *جفري بارندر، المرجع السابق، ص 321.*

2- *Strabon, XVII, 3, 14 ; Appien, Histoire romaine, trad. Par H. White, London, 1912- 1928, Lib. 130.*

3- *محمد الصغير غانم، الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص 114.*

4- *Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire…, p. 246.*

5- *Tite Live, XLI, 22 ; XLII, 24 ; Strabon, XVII, 3, 14 ; Appien, Lib., 130.*

6- *Polybe, X, 10, 8.*



(ب)



(أ)

الشكل رقم 17: تمثالي الإله أسكولابيوس.

أ- تمثال الإله أسكولابيوس من الرخام الأبيض ممدد في الحديقة العمومية بمدينة مداوروش، في وضعية وقوف فقد بعض أجزائه كالذراع الأيمن والجزء السفلي ابتداء من منتصف الفخذين. أما الرأس فقد تعرض لتشويهات جذرية، يرتدي الإله لباس التوجة Toge، يغطي الكتف والذراع الأيسر، يدور ليلّف بالظهر.

ب- تمثال الإله أسكولابيوس شبه كامل ورد في كتاب غزال وجولي حول مدينة مداوروش الصادر سنة 1922، يصل علوه إلى حوالي 1.90م يرتكز جسمه على الرجل اليمنى المستقيمة أما اليسرى فتنطوي إلى الوراء. شعره طويل ومتموج، لحيته كثيفة، لباسه ينزل إلى أسفل الساقين مشكلا بينهما ثنايا مستقيمة وسميكة تنتهي بشكل ذيل.

نقلا عن: أ-عينوش حسينة، المرجع السابق، ص 35.

ب- *- Gsell (S.), Joly (Ch.-A.), M'daourouch, 1922, PL. XII, fig. 3.*

وتشهد العديد من النقوش اللاتينية على عبادة "أسكولابيوس" في المقاطعات الرومانية بإفريقيا، ويعتقد "ج. توتان" في كتابه " العبادات الوثنية" أنه الإله أشمون. (1)

وبدأت عبادته في روما سنة 293 قبل الميلاد، حينما أرسلت بعثة إلى "أبيدا" و"روس" تطلب النجدة من الآلهة للقضاء على الطاعون الذي انتشر بالمنطقة، فظهر الإله أيسكولابيوس في هيئة ثعبان، ولما وصلوا إلى نهر التيبر "*Tibre*" ترك السفينة ونزل في إحدى الجزر، فأقام الرومان له معبدا هناك. (2)

وكان الثعبان مكرسا للإله أسكولابيوس، وقد أسنده بعض الباحثين المحدثين أيضا إلى أشمون، اعتقدا منهم بأن ذلك هو سبب تمثيل أشمون للإله أسكولابيوس. (3)

ولما كان ينظر إلى الثعبان على أنه الحيوان الشافي، فقد وجد في العديد من الأنصاب الإفريقية التي تعود إلى الفترة اللاحقة لتدمير قرطاجة، والتي لها علاقة مباشرة بعبادات ذات الأصل البوني. حيث نلاحظ ثعبان أو ثعبانين في عدة أنصاب نذرية وجدت في تونس وفي الشرق الجزائري، خاصة أنصاب تيبيليس (*Thibilis*) "عنونة" "*Announa*" حاليا قرب قالمة، الذي يظهر حيوانا يصاحب رجلا يحمل قربانا. (4)

1- *Toutain (J.) , Cultes païens…, I^ère^ partie, I, pp. 335- 336.*

2- *Tlatli Salah-Eddine, la Carthage punique, édition librairie d'Antique et d'Orient, Paris, 1978, pp. 186- 187.*

3- *Gsell (S.) , H.A.A.N., t. IV, p. 320.*

4- *Delamare (H. Al.) , Exploration scientifique de l'Algérie, Archéologie, Imprimerie Nationale, Paris, 1850, pl. 167, fig. 5, texte explicatif par Gsell (S.), Ernest Leroux, Paris, 1912, p. 148.*

5-الإلهة كايليستيس (*Caelestis*): كانت الإلهة كايليستيس سيدة القمر. هل ورثت هذه السيادة عن تانيت؟ هذا هو الاعتقاد الأرجح حتى في غياب الأدلة والبراهين غير القابلة للدحض. فإذا كانت تانيت بني بعل على ما يبدو، إلهة خاصة بقرطاجة، يمكن أن نفترض أنها اقتبست من بعض المعبودات الأهلية. (1)

والملاحظ أن "هيرودوت" أكد في القرن الخامس قبل الميلاد، أن كل الليبيين كانوا يعبدون القمر في نفس الوقت مع الشمس. (2) وهكذا يبدو أن الاسم المستعمل عادة للدلالة على "تانيت بني بعل" لم يكن "أوبس" (*Ops*) ولا "نوتريكس" (*Nutrix*) وإنما كان "كايليستيس" (*Caelestis*). (3)

وبهذه الصفة التي أخذت كالاسم، كان الرومان يشيرون إلى إلهة ذات أصل فينيقي. (4) والتي أصبحت فيما بعد الإلهة الرئيسة في مدينة قرطاجة الجديدة (قرطاجنة *Cartagena*-)، وتلقى الاحترام والولاء في كامل الشمال الإفريقي القديم. (5)

لذلك كانت تقدم على شرفها العديد من الأنصاب والتماثيل، خاصة في المناطق التي قامت وتأصلت فيها الحضارة القرطاجية. ويلاحظ التناقض بين الكتابات البونية التي تصف تانيت بني بعل "بالأم" والنصوص اللاتينية التي تنعتها بالإلهة العذراء (*) (*Virgo Caelestis*). (6)

1- *Gsell (S.), H.A.A.N., IV, p. 251.*

2- *Hérodote, IV, 188.*

3- *Gsell (S.), M.E.F.R., XIX, 1899, p. 63.*

4- *Hérodien, V, 6, 4.*

5- *Tertullien, Apol., 24 ; Toutain (J.), Cultes païens..., 1er partie, III, p. 29.*

*- *كانت **كايليستيس** التي توصف بالعذراء خلال الفترة الرومانية، تعرف أيضا باسم "هارو" (Haro) وهو الاسم الذي يتطابق مع "السيدة".* *-Tertullien, Apol., 23.*

6- *Apulée, Métamorphoses, VI, 4 ; Firmicus Maternus, De l'erreur profane des religions IV, 1.*

إن وصف كايليستيس بـ "الأم" يقرأ في نصبين نذريين عثر عليهما في قرطاجة. أما وصفها "بالعذراء" فنجده في نصب واحد من بين عديد الإهداءات الموجهة إلى هذه الإلهة التي وجدت على الأرض الإفريقية. [1] وإذا كان ذلك التناقض حقيقيا فذلك يعود ربما إلى تغيير في المعتقدات حصل بين الفترة البونية والفترة الرومانية.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الإلهة "كايليستيس" كانت من أهم الآلهة القرطاجية التي استمرت عبادتها خلال الفترة الرومانية. وإذا كنا لا نجد لها ذكرا باسم "فينوس-كايليستيس" (*Venus-Caelestis*)، فإنه بالمقابل وجدت العديد من الإهداءات الإفريقية موجهة إلى الإلهة "جونون–كايليستيس" (*Iuno- Caelestis*).[2]

وحينما يتحدث "أبوليوس المادوري" عن جونون (*Junon*) التي اتخذت من قرطاجة إقامتها المفضلة، فإنه يصفها بالإلهة العذراء التي يحملها أسد عبر السماء. [3]

تمارس كايليستيس تأثيرا كبيرا على خصوبة الطبيعة، فهي التي تؤثر في سقوط الأمطار التي تساعد على نمو المحاصيل. [4] لذلك نجدها توصف في إحدى النقوش اللاتينية باسم: (*Spicifera*). [*] ويشير اسمها على أنها سيدة وإلهة السماء - فهي معبودة قمرية على الخصوص- حسب ما ورد في نقيشة [**] مهداة إلى "ديانا كايليستيس" (*Diana Caelestis*). [5]

1- *C.I.L., VIII, 9796.*

2-*Decret (F.), et Fantar (M. H.), Op. cit., p.273 .*

3-*Apulée, Métamorphoses, VI, 4 ; C.I.L., VIII, 16810.*

4-*Tertullien, Apol., 23.*

- C.I.L., VII, 739.

- C.I.L., 999.

* – *أي "حاملة السنابل" أو "التي تنتج السنابل".*

** – *وجدت هذه النقيشة في قرطاجة.*

5-*Benseddik (N.) , Un nouveau témoignage du culte de Tanit - Caelestis à Cherchell ? Ant.Afri., t.20, 1984, p.179.*

وهذا ما أكده "هيروديان" فيما بعد في القرن الثالث الميلادي. [1] ويرفق اسمها في بعض الأحيان بأسماء بعض الآلهة الإغريقية والرومانية مثل الإلهة "هيرا" (*Hera*) الإغريقية، والإلهة "فورتونا" (*Fortuna*) والإلهة "ديانا" (*Diana*) الرومانية. [2]

لقد كان في معبد "كايليستيس" بقرطاجة خلال الفترة الرومانية عرافات تأثرن بالروح المقدسة، كن يتكهن بنبوءات ذائعة الصيت. [3] ذلك أن القرطاجيين كبقية الشعوب الأخرى، يعتقدون أن الآلهة يبعثون أحلاما لمعرفة مشاريعهم المستقبلية.

وقد حافظ سكان المغرب القديم على عبادة آلهتهم المحلية منها الإلهة "كايليستيس" خلال الفترة الرومانية، حيث وجد اسمها منقوشا بالحروف اللاتينية ضمن مجموعة الآلهة التي ارتبطت بالكهوف والمغارات إلى جانب الإله البوني "باكاكس" (*Bacax*) في كهف جبل الطاية بقالمة وذلك خلال العهد الإمبراطوري الأول. [4]

أما مجموعة الآلهة التي تشكل مجمع آلهة منطقة ما، فقد عثر على نقش في "قصر البوم" بالقرب من تبسة يحمل أسماء آلهة "ماجيفا" (*Dii Magifae*) الخمسة وهي: ماسيدانيس، ثيليلفاي، سوقانيس، إيسدانيس، وماسيديس.

(*Masidenis, Thililvae, Sugganis, Iesdanis, et Masiddice*) [5]

ويبدو أن اسم "ماجيفا" يشير إلى المنطقة التي ارتبطت بها هذه الآلهة. يضاف إلى هذه المجموعة مجموعة أخرى تتكون من ثلاثة آلهة محلية اكتشفت أسماؤهم

1- *Hérodien, V, 6, 4.*

2- *Boissier (G.) , La religion Romaine, t. I, Paris, S.d., pp. 61- 74.*

3- *Histoire Auguste, Pertinax, IV, 2.*

4- *C.I.L., VIII, 18828- 18857.*

5- *Gustave (M.), « les divinités libyques », R.S.A.C., 1900, pp. (177-193) ; Gsell (S.), I.l.Alg., I, 2977.*

بهنشير رمضان تدعى بالآلهة المورية (*Dii Mauri*)، والتي يعود تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع للميلاد وهي: فودينا، فاكورتوم، وفارسيس، (*Fudina*، *Vacurtum* ، *Varsis*). (1)

لقد كشفت النقوش التي عثر عليها في نوميديا عن أسماء آلهة محلية منها الآلهة المورية، مما يوحي أن عبادتها لم تقتصر على موريطانيا القيصرية فحسب، وإنما شملت مختلف أرجاء المغرب القديم. (الخريطة رقم 2 ص 170)

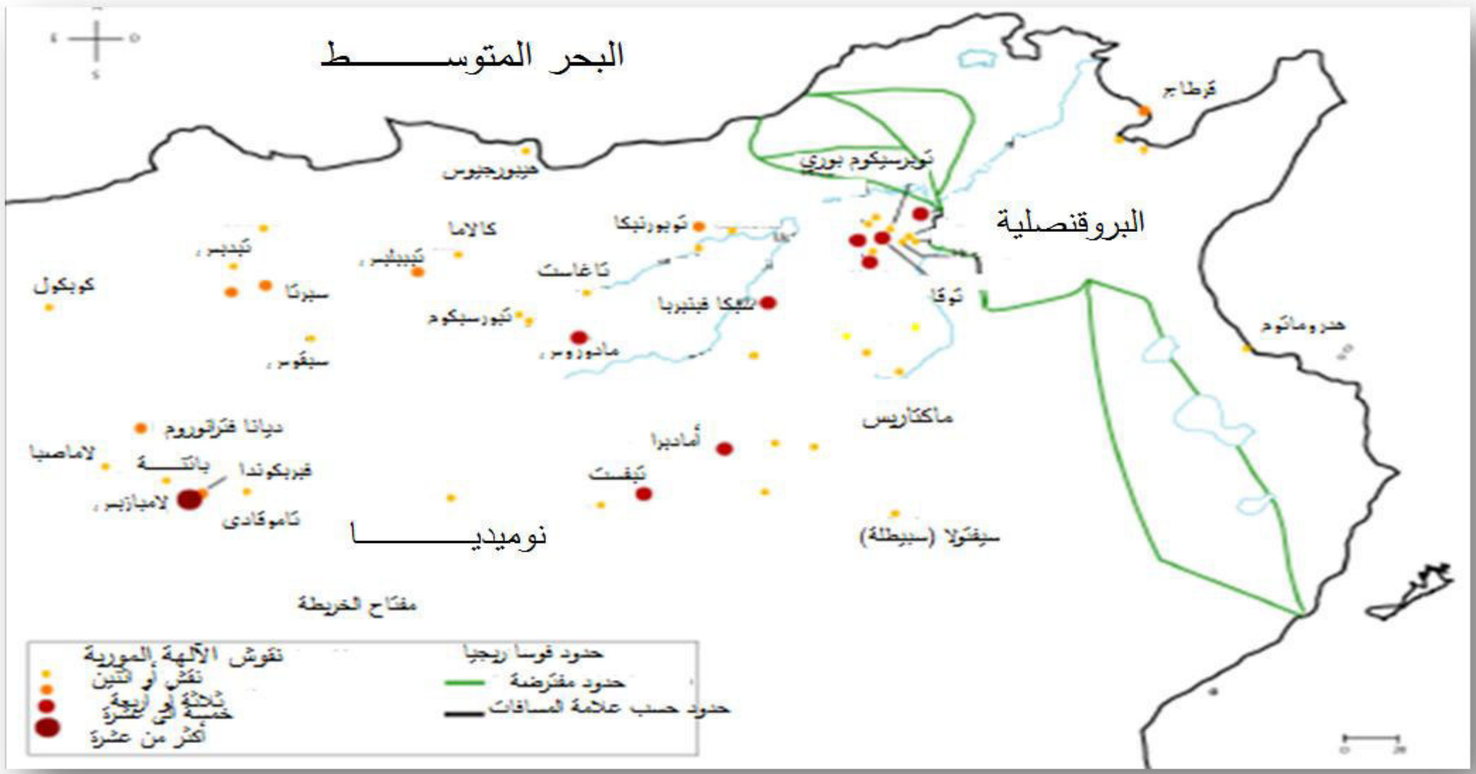
ووجد مجمع آلهة صغير في مدينة باجة (*Béja*) بتونس نقشت على نصب أسماء سبعة آلهة (*) كتبت بالأحرف اللاتينية وهي على النحو الآتي: ماكورتام، ماكورغوم، فيهينام، بونشور، فارسيسيما، ماتيلام، وإيونام. (لشكل رقم 18 ص 172).

(*Maqurtam, Macurgum, Vihinam, Bonchor, Varsissima, Matilam, Iunam*). (2)

1- C.I.L., VIII, 14444.

*- **الآلهة السبعة:** أشارت بعض الدراسات إلى أن أصلهم في الموروث الشعبي المغاربي القديم هم الرقود السبعة، وهؤلاء في الرواية الدينية ليسوا سوى أهل الكهف الذين استيقظوا في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس. ونظرا لإيمان المغاربة القدماء بالأرواح فقد كانوا يظنون أنهم يسكنون المغارات في أعالي الجبال. مها عيساوي، المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم، أطروحة دكتوراه، (غير منشورة)، جامعة قسنطينة، 2009-2010، ص. 449.*

2- Camps (G.), « L'inscription de Béja et le problème des Dii Mauri », R. Af., 1954, t. 98, pp. 234- 260 ; Merlin (A.), Divinités indigènes sur un bas relief Romain de la Tunisie, C.R.A.I., 1947, pp.355-371.



خريطة رقم 2 : توزيع نقوش الآلهة المورية في نوميديا والبروقنصلية.   (بتصرف الباحث)

نقلا عن: *Béatrice Pasa, Recherches sur l'Africa Vetus , Thèse Doctorat, Université de Toulouse, 2011, p.704.*

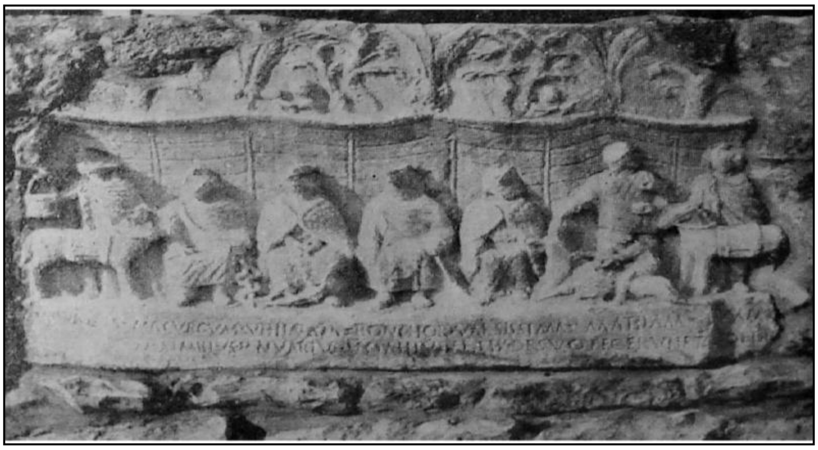
يتضح من هذه الأسماء أن اسمين على الأقل أسماء آلهة ليبية هما (*Maqurtam, Macurgum*) وإلهين بونيين هما (*Matilam, Bonchor*). أما اسم (*Varsissima*) فيبدو أنه قريب من (*Varsis*) المذكور آنفا، ويحتمل أن يكون الإله فارسوتينا (*Varsutina*) الذي ذكره ترتوليانوس.[1] على أنه معبود خاص بالموريين في نفس درجة الإلهة "أتارغاتيس" (*Atargatis*) عند السوريين والإلهة "كايليستيس" (*Caelestis*) عند الأفارقة،[2] التي كانت معبودة محلية ثم استنسخت وحلت محل الإلهة تانيت القرطاجية ثم جونون الرومانية، واستمرت عبادتها في المغرب القديم حتى الفترة المسيحية.

نستنتج مما سبق أن المجتمع المغربي القديم وإن تأثر بسياسة الرومنة إداريا، إلا أنه لم يتأثر بها دينيا، بل استطاع "أفرقة" الديانة الرومانية وفق معتقداته التي آمن بها منذ آلاف السنين، كما أن السيطرة الرومانية عجزت عن منع سكان المغرب القديم من نوميد ومور وجيتول من عبادة آلهتهم المحلية.

1- روبين دانيال، التراث المسيحي في شمال إفريقيا، تر. سمير مالك، دار منهل الحياة، بيروت، 1999، ص 36.

- Tertullien, Ad Nationes, 11, 8.

2-Benabou (M.), la résistance Africaine à la romanisation, édition Maspero (F.), Paris, 1975, p. 289.



(أ)



(ب)

الشكل رقم 18: المعبودات الليبية:

أ–نقش باجة (*Béja*) البارز بتونس يمثل الآلهة الليبية السبعة.
ب–نقش بارز اكتشف قرب برج هلال بتونس يمثل المعبودات الليبية.

نقلا عن: أ– *Camps (G.) , Qui sont les Dii Mauri ? Op.cit., p.137.*

ب– *Béatrice Pasa, Recherches sur l'africa Vetus, Op.cit.,, p.764 .*

6-الإله أبولون (*Apollon*): يعد الإله الإغريقي "أبوللو" (*Apollo*) أو"أبلو" الاسم القديم، أو "أبولون" (*Apollon*) إله متعدد الوظائف في الأساطير اليونانية، فهو إله الغناء والموسيقى والشعر. كان تأثيره قويا بين الآلهة يجعل الناس يدركون خطاياهم ويطهرهم منها. [1] ولهذا سمي أحيانا "فوبوس أبوللو" (*Phoebus Apollo*) أي "أبوللو" المطهر. وهو لقب الإله "أبوللو" عند اليونان ويعني المنير أو المضيء [2]، وهو ابن الإله "زيوس" (*Zeus*) و"ليتو" (*Leto*) وشقيق "أرتميس" (*Artémis*). [3] (أنظر الشكل رقم 19 ص 174)

ويلاحظ أن اسمه المزدوج "فوبوس–أبوللو" كان مثيرا للخلاف، فهو إله الشفاء وإله الشمس، كان المركز الرئيس لعبادته مزدوجا أيضا، فهو يوجد في جزيرة "ديلوس" (*Délos*) و"دلفي" (*Delphy*)، كما أنه يرتبط ارتباطا مزدوجا بالشمال والشرق، وهذا يشير إلى أصله المركب، فهو إله الشمس الذي يرسل أشعته فتنتشر الوباء كالسهام، وهو في نفس الوقت إله الشفاء الذي يستطيع أن يأتي بالطاعون وأن يعالجه.

ولقد أشرف "أبولون" في العصور الكلاسيكية على الثقافة أيضا بمعناها الواسع: الموسيقى، والأدب، والفكر الراقي. [4]

وذكر "أبولون" في القسم المشهور الذي أدلى به "هانيبال" القائد القرطاجي في معاهدة التحالف مع "فيليب الخامس" ملك مقدونيا سنة 215 ق.م. [5]

1- *جفري بارندر، المرجع السابق، ص 320.*

2- *المرجع نفسه، ص 354. - Corippus, Joh., III, 71- 98.*

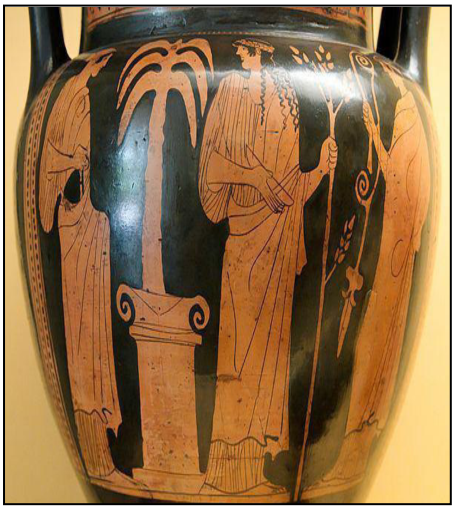
3- *Corippus, Joh., I, 186-196 ; Gustave (M.), Op.cit., pp. (177-193).*

4- *جفري بارندر، المرجع السابق، ص ص 53، 75.*

5- *Polybe, VII, 3, 9.*



(ب)



(أ)



(ج)

الشكل رقم 19: أبولون وأخته أرتميس.

أ-تمثال الإله الإغريقي "أبوللو"، "أبولون" عند الرومان إله الغناء والموسيقى والشعر، وهو المطهر من الذنوب وإله الشفاء. (نسخة القرن 4 ق.م متحف بيو-كليمنتينو *Pio- Clementino*، الفاتيكان-روما).

ب-مزهرية تظهر أبولون وأخته أرتميس إلهة الصيد والقمر يحيطان بنخلة أين ولدا (يعود تاريخها إلى 450 ق.م، متحف مدريد الأثري).

ج-عملة سكت في بداية الفترة التاريخية تحمل رأس أبولون وبعض رموزه.

نقلا عن: *-Louis Séchan et Pierre Lévêque, les grandes divinités de la Grèce, éditions E. de Boccard, Paris, 1966, p. 358.*

-Pierre Chantraine, « Réflexions sur les noms des dieux helléniques », Ant. Class., XXII, 1953, p. 65.

وكان للإله "أبولون" عدد من المعابد في المغرب القديم أشهرها معبدي "بولا ريجيا" (*Bulla Regia*) حمام الدراجي حاليا، و"مكثر" (*Maktar*) بتونس خلال الفترة الرومانية. (1)

وإذا لم يذكر "بعل حمون" في قسم "هانيبال"، فلأن القرطاجيين كانوا يماثلونه بالإله "أبولون" على أساس علاقته بقرص الشمس، بينما نجد آخرون يماثلونه بالإله "هيراكليس" (*Héraclès*). فالتشخيص مع "أبولون" باعتباره إله الشمس، كما كان عليه "بعل حمون". (2)

ويحتمل أن تكون هذه العبادة قد اتخذت في "مكثر" (*Maktar*) التي عثر فيها على العديد من الأنصاب النذرية البونية التي تشهد على الاهتمام الواسع لعبادة بعل حمون خلال الفترة الرومانية. (3) ومن جهة أخرى تشير النقوش اللاتينية إلى أن أبولون كان أحد آلهة المدينة الرئيسيين إن لم يكن الإله الرئيس. (*)

كما وجدت معابد أخرى للإله "أبولون" في قرطاجة بالقرب من الساحة العامة بين الميناء وربوة بيرصة (*Byrsa*) (**)، ومعبد آخر في أوتيكا (*Utique*) حسب ما ذكره بلين القديم، والذي أقيم في أواخر القرن الأول الميلادي من قبل المعمرين الأوائل. (4) وحسب النصوص الإغريقية واللاتينية فإن رأس سيدي علي المكي قرب أوتيكا كان

1-*Merlin (A.), le Temple d'Apollon à Bulla Régia, Paris, 1908, pp. 17- 18.*

2-*Gsell (S.), H.A.A.N., IV, p. 291.*

3-*Ibid., IV, pp. 291-292.*

*- *تشير هذه النقوش إلى أن أبولون كان له العديد من الكهنة.* *- C.I.L., VIII, 619.*

**- *إضافة إلى ما ذكره أبيان، يؤكد سترابون، وفالير ماكسيم وجود معبد أبولون.* *- Appien, Lib., 127 ; Strabon, XVII, 3, 13 ; Valère- Maxime, I, 1,18.*

4-*Pline L'Ancien, XVI, 216.*

يسمى قديما رأس أبولون، [1] أو رأس الإله الجميل (*Promunturium Pulchri*)، [2] والذي يقع شمال خليج قرطاجة.

ويحتمل أن يكون هذا الاسم قد أعطي أيضا إلى رأس إفريقي آخر بالقرب من المستوطنة الفينيقية "إيول" (*Iol*) "شرشال حاليا" حيث يذكره بلين باسم "رأس أبولون" (*Promunturium Apollinis*). [3]

وأعتقد أن "أبولون" الذي عبد في بعض المناطق في إفريقيا الرومانية، كان من أصول فينيقية وعلى وجه الخصوص في "أويا" (*Oea*) "طرابلس حاليا" حيث سكت بعض العملات (الشكل رقم 19 ص 174) في بداية الفترة التاريخية تحمل رأس أبولون (*Apollon*) وبعض رموزه. [4]

وقد ذكر "أرسطو" (*Aristote*) إلها ليبيا يدعى "أبولون الليبي" كان ابنا لآمون (*Ammon*). وأشار "كوريبوس" (*Corippus*) بعد ذلك بحوالي ثمانية قرون أي خلال الفترة البيزنطية، إلى أن هياكل (مذابح-*Autels*) للإله أبولون وجدت بواحة آمون. [5]

يتضح مما سبق أن مجال عبادة الآلهة الرومانية في المغرب القديم كان يشمل الرومان الذين حلوا بالمنطقة كمستوطنين، والمغاربة الذين ترومنوا، ثم بقية سكان إفريقيا الذين تأثروا بسياسة الرومنة دون أن يستطيعوا مقاومتها، إضافة إلى بقية المعبودات المحلية التي تدخل في الموروث الحضاري الليبو- نوميدي.

1-*Polybe, III, 22, 5 ; 23, 1.*

2-*Tite Live, XXIX, 27, 2 ; XXX, 24, 8.*

3-*Pline, V, 2, 20 ; Ptolémée, IV, 2, 2 ; Gsell (S.), A.A.A., f. 4, (Cherchel), p. 8 ; f.12, (Orléansville), n° 21.*

4-*Merlin (A.), le temple d'Apollon à Bulla Régia, p. 16, pl. III, Fig. 2.*

5-*Corippus, Joh., III, 84.*

الباب الثاني

ظهور المسيحية وعوامل انتشارها في المغرب القديم

الفصل الأول: ظهور المسيحية في المغرب القديم

الفصل الثاني: عوامل انتشار المسيحية في المغرب القديم

الفصل الثالث: موقف السلطة الرومانية من حركة التنصير في المغرب القديم

الفصل الأول:

ظهور المسيحية في المغرب القديم

المبحث الأول– مفهوم المسيحية لغة واصطلاحا

المبحث الثاني– نشأة المسيحية وتطورها

المبحث الثالث– ظهور المسيحية في المغرب القديم

المبحث الرابع– طرق انتقال المسيحية إلى المغرب القديم

المبحث الخامس– اضطهاد المسيحيين في المغرب القديم

تعد المسيحية الديانة السماوية التوحيدية الثالثة التي ظهرت بعد الديانة الحنيفية واليهودية من الناحية الكرونولوجية، وقد نشأت في الشرق الأدنى القديم، وتحديدا في فلسطين على عهد المسيح (عليه السلام) ولما ظهرت المسيحية أخذت تزاحم اليهودية في بلاد الشام قبل أن تنتقل إلى المغرب القديم.

بعدما تناولت المعتقدات الوثنية في المغرب القديم قبل ظهور المسيحية في الباب الأول، أعالج في هذا الباب ظهور المسيحية وعوامل انتشارها وتوغلها في المغرب القديم، محاولا تحديد مفهومها متلمسا تطور مبادئها وطقوسها وكتبها وطوائفها وفرقها القديمة، مبرزا موقف السلطة الرومانية من حركة التنصير منذ ظهورها في المغرب القديم إلى أواخر القرن الخامس الميلادي.

المبحث الأول: مفهوم المسيحية لغة واصطلاحا:

أولا–المسيحية لغة: مسح مسحا الشيء: أي أزال الأثر عنه، يقال في الدعاء للمريض: "مسح الله ما بك من علة" أي أزالها وعافاك. ومسحه بالدهن: أمر يده عليه به. [1] والمسح إمرار اليد على الشيء، والتمسح القول الحسن، والممسوح بمثل الدهن وبالبركة وبالشؤم، والكثير السياحة كالمسيح. [2]

يرى "ابن منظور": [3] أن المسيح هو الصديق وبه سمي عيسى لصدقه. وورد في الموسوعة اللاهوتية أن المسيح عيسى بن مريم سمي مسيحا لأنه كان سائحا في الأرض لا يستقر، ولأنه مسح بالبركة والمسيح من مسح إذا سار في الأرض وقطعها، والمسيح هو الرجل الكثير السياحة. [4]

---

1 – *الزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت، د. ت، ج2، ص 226.*

2 – *الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، د. ت، ج1، ص 249، الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م، ص 260.*

3 – *لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، د. ت، ص 594.*

4 – *M. Bergier (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, t. 2, Paris, Panckoucke, 1789, p.768.*

ويذكر "الشهرستاني": (1) أن المسيح كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله، وقد أعرب المسيح في القرآن على فعل مسح. وقد ذكر في الكتاب المقدس "التوراة" بصيغة "مشيخا" فعرب، وفي المعاجم اللغوية قيل "موسى" وأصله "موشي". (2)

وقيل المسيح الممسوح بالدهن وبزيت الكهنوت والملك. (3) ولأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن، أو كأنه ممسوح الرأس أو مسح عند ولادته بالدهن. (4) وأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحيه عند ولادته لقوله تعالى(5):﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾.

<u>ثانيا-المسيحية اصطلاحا:</u> هي الدين السماوي الذي يدعو إلى التوحيد، المنزل على المسيح عيسى (*) بن مريم (عليه السلام). كما عرفت المسيحية في المصادر العربية بالنصرانية نسبة إلى مدينة الناصرة (**) التي أقام بها المسيح إلى أن بلغ سن الثلاثين سنة. (6)

---

1 – *الملل والنحل، تح. سيد كيلاني، دار الجيل، بيروت، 1986م، ج1، ص 220.*

2 – *رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، ط3، دار المشرق، بيروت، 1984م، ص 206.*

3 – *أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تع. محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج1، ص 62.*

4 – *المقريزي، الخطط المقريزية، تح. خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج2، ص 482.*

5 – *سورة مريم: الآية 31.*

* – ***عيسى***، *"Jésus-Christ" ولد في بيت لحم سنة أربع (4) ق.م. على الأرجح، عاش في بلدة الناصرة إلى سن الثلاثين لذا سمي الناصري، هو عبد الله ورسوله وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه. Attias (J. C.) et Benbassa (E.), Dictionnaire de Civilisation Juive, Larousse- Bordas, Paris, 1998. p. 184.*

** – ***الناصرة***، *قرية الشام بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا، وقد ذكر الإنجيل يسوع بالناصري كثيرا لأنه نزل أرضا يقال لها ناصرة " Nazareth "، ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح. عبد العزيز الجندي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج5، ص ص 291-292، ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص 212، البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، تح. هلال مصيلحي، ج3، دار الفكر، بيروت، 1982م، ص 118.*

6 – *أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 62.*

ويرى "الشهرستاني" [1] أن النصرانية نسبة إلى أنصار عيسى (عليه السلام) وهم القائلون بنبوته، وبالأقانيم [*] الثلاثة، وأن عيسى هو المبعوث حقا بعد موسى (عليه السلام) المبشر به في التوراة.

ويذكر الأب "رفائيل نخلة اليسوعي" أن النصرانية لفظ من الألفاظ المقتبسة من السريانية [**] التي أطلقها اليهود على كل من اتبع ديانة المسيح، وأصلها "نصراني- *Nosroyo*"، أو "نصرايا- *Nasraya*".[2]

في حين يرى "جواد علي" أن هذه التسمية عبرانية الأصل من" *Nazarenes*" أي الناصريين، وهي إحدى الفرق اليهودية القديمة المتنصرة. [3] وقيل لتناصرهم فيما بينهم ونصرة بعضهم بعضا. [4]

وينسبهم "ياقوت الحموي" إلى الناصرة التي اشتق اسم النصارى منها وفيها كان مولد المسيح عيسى، في حين يرى أهل بيت المقدس غير ذلك، بأن المسيح ولد في بيت لحم. [5]

أما "المقريزي" فينسبهم إلى قرية الناصرة كذلك، ونصران عنده من أبنية المبالغة، ومعناها أن هذا الدين من ينصره. [6] وقد وردت لفظة النصارى في القرآن الكريم في

---

[1] - *الملل والنحل، ج1، ص 220.*

* - ***الأقانيم**، كلمة سريانية الأصل مفردها" أقنوم" Qnoûmo، وهو الشخص الكائن المستقل بذاته، والأقانيم الثلاثة هي الأب، الإبن، والروح القدس، رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 173، محمد أحمد الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ط1، دار القلم، دمشق، 1992، ص 209.*

** - ***السريانية**، "Syriaque" لغة الآراميين من الفصيلة الفرعية السامية للغات الآفرو–آسيوية، وهي من اللغات الشمالية الغربية، وصارت اللغة الرسمية منذ حوالي 500 ق.م في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، محمود محمد محفوظ، الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، بيروت، 2001م، ج3، ص 1400.*

[2] - *غرائب اللغة العربية، ص 207.*

[3]- *جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ج6، ص 582.*

[4]- *الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 220.*

[5]- *ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 251.*

[6]- *الخطط المقريزية، ج2، ص 482.*

قوله تعالى[1]:﴿**فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾. وفي سورة أخرى يقول سبحانه وتعالى[2]:﴿**يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيينَ مَنْ أَنَّصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ من بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ عَلَىٰ عَدُوهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ** ﴾، وبذلك صارت كلمة النصارى علما أطلق على ديانة المسيح عند المسلمين.

أما علماء اللغة فلهم آراء في أصل ومعنى لفظة النصارى: ذهب "الزبيدي" [3] إلى أن النصرانية نسبة إلى قرية الناصرة أو نصران التي ينسب إليها المسيح. لذلك قيل له الناصراني (*Nazaréen*)، وجمعه نصارى وهم أتباع المسيح وأمته. [4]

وقد وردت كلمة النصرانية في نصوص بعض شعراء القرن الخامس، ففي الشعر العربي القديم ذكر أمية بن أبي الصلت النصارى في هذا البيت:

أيام يلقى نصاراهم مسيحهم والكائنين له ودا وقربانا. [5]

وقال جابر بن حني التغلبي [*]:

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى دم. [6]

وأن حاتما الطائي [**] قال في شعر له:

1– *سورة آل عمران: الآية: 52.*

2– *سورة الصف: الآية: 14.*

3 – *تاج العروس، ج3، ص 568، مادة (نصر).*

4 – *M. Bergier (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, Op.cit., p.742*

5 – *جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 583.*

* – ***جابر بن حني التغلبي،*** *(ت سنة 564م)، هو جابر ابن حني بن حارثة بن عمرو بن غنم بن تغلب، كان شاعرا نصرانيا مقدما، وقد تفاخر بدينه في شعره، وكان مع امرئ القيس حين خرج إلى الروم مستنجدا بقيصر. المرزباني، معجم الشعراء، تح. سالم الكرنكوي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1935م، ص 206–207.*

6– *لويس شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب، ج4، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1956م، ص 188.*

** –***حاتم الطائي،*** *(ت سنة 605م)، هو ابن عبد الله بن سعد الطائي، وكان نصرانيا، اشتهر بالكرم، وكان إذا هل الشهر ينحر عشرا من الإبل فيطعم الناس، قال ابن السكيت: إنما سمي هزومة لأنه شج أو شج، وإنما سمي طيء لأنه أول من طوى المناهل. ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، دار المعارف بمصر، 1912م، ج1، ص 241.*

وما زلت أسعى بين ناب ودارة بلحيان حتى خفت أن أتنصرا. [1]

وكذلك قول حسان بن ثابت: [2]

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد.

نستنتج من الأبيات – المذكورة آنفا–هذا إن صح أنها من الشعر العربي القديم، أن لفظ النصارى كان مستعملا عند العرب على الأقل قبل ظهور الإسلام.

خلاصة القول أنه من خلال ما أورده المؤرخون والمفسرون وعلماء اللغة حول مفهوم النصرانية، فإننا نرجح أنها تنسب إلى مدينة الناصرة التي أقام بها المسيح إلى أن بلغ سن الثلاثين، وبدأ دعوته منها، كما أطلقت على أولئك الذين ناصروه واتبعوا ديانته.

أما على صعيد التسميات التي عرف بها المسيحيون، فقد أطلق قدماء النصارى على أنفسهم عدد من التسميات منها لفظة "التلاميذ" (*Disciples*)، والتي تقابلها في اللغة اللاتينية لفظة (*Discipulus*) [3] أي تلاميذ المسيح. أما لفظة الحواريون [*] (*Apostolus*) فتعني أولئك الذين ينظرون إلى المسيح على أنه معلمهم الأول.[4]

وقد جاء ذكر الحواريين في القرآن الكريم، في قوله تعالى[5]:﴿**فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ**

---

1 – *لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط2، دار المشرق، بيروت، 1967م، ص 107.*

2 – *ديوان حسان، ص 24.*

3 - *Gaffiot (F.) , Dictionnaire Abrégé Latin Français, Hachette, Paris, 1936, p.200.*

* – ***الحواريون***، *"Apostolus" باللغة اللاتينية، والحواريون جمع حواري وهي كلمة أرامية الأصل" Héworoto " وتعني دقيق أبيض. وهم تلك الجماعة التي آمنت بعيسى عليه السلام ووقفت إلى جانبه لنشر دعوته في بني إسرائيل، وهم اثنا عشر حواريا تتلمذوا على يد المسيح عليه السلام، وهم: شمعون الصفا أو"بطرس"، شمعون القناني، أندرواس، يعقوب بن زيدي، يعقوب بن حلفي، يهوذا الإسخريوطي، فيليبس، برثولماوس، يوحنا، لوقا، توما، متى وهم رسل المسيح الذين سألوه نزول المائدة. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، 1985م، ج1، ص 120، مرقس: 3: 16-19.*

4 – *جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 584.*

5 – *سورة آل عمران: الآية 52.*

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، وقال تعالى[1]:﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ آمَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً منَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.**

وذكر "ابن منظور" [2] أن الحواري هو البياض، والحواريون هم صفوة الأنبياء، وأنصار عيسى (عليه السلام). وكانوا قصارين وملاحين وعددهم إثني عشر رجلا. [3]

وقد عرف قدماء النصارى جماعتهم بـ: "الإخوة" أو "الإخوة في الله" (*)، ذلك أن العقيدة قد آخت بينهم فأصبحوا إخوة، ثم أصبحت كلمة أخ المفردة تدل على رجل الدين. [4] وظهرت تسميات أخرى: كالقديسين "*les Saints*"[5] والمؤمنين [6] والمختارين، والأصفياء، والفقراء، والأصدقاء. [7]

أما في القرآن الكريم فلم ترد مصطلحات "عيسوي" و "مسيحي"، و "يسوع"، بل ذكرت ألفاظ عدة مثل "نصارى" و "نصراني" و "نصرانية"، و "أنصاري" في عدة سور من القرآن الكريم[8]، قال تعالى[9]:﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ**

---

1 – *سورة المائدة، الآيتان 111-112، سورة الصف، الآية 14.*

2 – *لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 2000م، ج4، ص 265.*

3 – *ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1982م، ج1، ص 314.*

* – *تذكر الأناجيل أحيانا لفظ "إخوة" أو "أخوات" للمسيح، والكلمتان يونانيتان هما: "Odelphai" و" Adelphoi" وتستخدمان للتعبير عن إخوة أو أخوات بالمعنى البيولوجي، وأصلهما سامي بمعنى أقرباء، وربما كان المقصود بهما أولاد العمة أو الخالة، متى: 13: 46 –50، مرقس:6: 1–6، موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م، ص108.*

4 – *أعمال الرسل: 1، 16.*

5 – *رسالة بولس الرسول، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، 1، 1.*

6 – *أعمال الرسل، 5، 14.*

7 – *جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 585.*

8 – *سورة البقرة، الآيات 111، 113، 120، 135، 140، سورة آل عمران: الآيتان 52، 67، سورة المائدة: الآيات 18، 51، 69، 82، سورة التوبة: الآية 30، سورة الحج: الآية 17، سورة الصف: الآية 14.*

9 – *سورة البقرة، الآية 62.*

مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾. وقوله جل جلاله [1]:﴿ **وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً ممَّا ذُكِرُواْ بِهِ﴾**. وقال عز وجل[2]:﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتْ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾**.

يبدو أن إطلاق القرآن الكريم لهذه التسميات السابقة على النصارى، تمييزا لهم عن اليهود وعن أهل الأديان الأخرى، وقد ذكر القرآن الكريم لفظ المسيح تارة وبلفظ عيسى تارة أخرى في ثلاث عشرة سورة. [3]

أما أماكن العبادة ومؤسسات النصارى الدينية، فهناك "الكنيس" و"الكنيسة"، و"الإكليزيا" [*] *Ecclésia* باللغة اليونانية وتعني "المجمع" وهو موضع عبادة اليهود والنصارى، كما تعني المحل الذي يجتمع فيه المواطنون. [4]

وقد تطلق على جماعة من المؤمنين أتباع المسيح والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآرامية، فلفظة "كنوشتو" *Knouchto* و"كنشت" *Knecht* تعني في السريانية إجتماع ومجمع، كما تعني كنيسة، وتطلق بوجه خاص على كنيس اليهود. [5]

ويلاحظ الباحث أن المصادر العربية تميز بين الكنيس وهو موضع عبادة اليهود، والكنيسة وهي موضع عبادة النصارى، وذهب بعض علماء اللغة ومنهم الأب "رفائيل

1– *سورة المائدة، الآية 14.*

2 – *سورة التوبة، الآية 30.*

3 – *عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، مكتبة رحاب، الجزائر، 1987م، ص 372.*

* – ***الإكليزيا، (Ecclésia)***، *لفظ يوناني كان يطلق على الجمعية الشعبية في حكومة البلديات، وقد أطلقه المسيحيون على تلك الحجرات الخاصة أو المعابد الصغيرة التي كانوا يجتمعون فيها على غرار المجامع اليهودية. ثم أصبحت هذه التسمية تطلق على المبنى ابتداءا من القرن الرابع الميلادي. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج 11، ص 277.* *- Chevallier (R.), Dictionnaire de la littérature latine, Paris, Larousse, 1968, p.899 ; Gy, (P.M)., « La liturgie comme explication éventuelle : analyse des sources, églises doubles et groupes d'églises du point de vue de l'histoire de la liturgie », In : An.Tard., 4, 1996, p. 51.*

4 – *جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص ص 649 –651.*

5 – *رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 204.*

نخلة اليسوعي" إلى اعتبار الكنيسة متعبد اليهود، وهذا خلط في دقة المصطلح بين الكنيس والكنيسة.

المبحث الثاني: نشأة المسيحية وتطورها: ظهرت المسيحية كغيرها من الديانات التوحيدية الأخرى في الشرق الأدنى القديم، وتحديدا في بلاد الشام، التي احتدم فيها الصراع بين القوى الكبرى آنذاك، بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط العالم القديم. إذ تنافست عليها القوى الدولية المجاورة لها من مصرية وبابلية وآشورية وحيثية، ثم تصارعت عليها أعظم الإمبراطوريات في ذلك الزمان وهما إمبراطورية الشرق الفارسية، وإمبراطورية الإسكندر المقدوني الإغريقية.

وقد ظهرت المسيحية في عهد الإمبراطور تيبريوس قيصر (*)، حيث أعلن عيسى (عليه السلام) رسالته في مطلع القرن الأول الميلادي ودعا إلى الإيمان بالله وإلى المحبة والسلام. [1] ومن الأهمية بمكان أن أتناول في هذا السياق ميلاد المسيح بالدراسة والتحليل، نظرا لما لهذا الميلاد من أهمية في عالم الخلق والنبوة والوحي.

أولا-تبشير مريم بعيسى (عليه السلام): يذكر "ابن كثير" أن مريم كانت في خدمة الكنيسة ببيت المقدس مع ابن عمها يوسف النجار (**)، وقد زعمت النصارى أنه تزوجها، إلا أنه لم يقربها إلا بعد أن رفع المسيح. [2]

---

*- *تيبريوس قيصر (Tibérius Claudius Nero Caesar)، (42 ق.م-37 م) ثاني إمبراطور روماني، (14م-37م) بعد "أغسطس" Augustus (27 ق.م-14م)، ابن "ليفيا" و"تيبريوس نيرو"، تبناه "أغسطس أوكتافيوس" (Augustus) الذي كان زوج أمه منذ السنة الرابعة للميلاد، ثم خلفه فيما بعد في الحكم، امتدت توسعاته إلى نهر الراين بوسط أوروبا. اشتهر بسياسته المالية المحكمة. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م، ص 64، أمين سلامة، التاريخ الروماني، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1959م، ص ص 428-429.*

- Bouillet (M.N.), Dic. Univ. Hist. Géo., Paris, Hachette, 1878, p.187.

[1] - *الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم وحضارته، مطبعة بغيجة، قسنطينة، 2010، ج2، ص 357.*

** - *يوسف النجار، هو "يوسف بن يعقوب بن ماثان" النجار، كان نجارا حكيما وهو ابن عم مريم، وهو أول من أنكر حملها. ابن كثير، قصص الأنبياء، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2001، ص 452.*

[2] - *المصدر نفسه، ص 451.*

وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف ابن عمها، انطلقا معا إلى المغارة لملء القلل ثم يعودان إلى الكنيسة. وكانت تخرج من المسجد أحيانا بمفردها في زمن حيضها، أو لحاجة ضرورية كاستقاء ماء أو الحصول على غذاء.

فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبريل، انطلقت وحدها إلى المغارة لاستقاء الماء، قال تعالى[1]:﴿ **وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً**﴾، أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل (**عليه السلام**) ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**﴾ [2]، فقال لها: يا مريم إن الله بعثني إليك، فلما رأته قالت ﴿**إِنِيۤ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّا**﴾[3]، فقال جبريل: ﴿**إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِكِ لأَّهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً**﴾ [4]، أي رسول ربك ولست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك.[5] قال عز وجل[6]:﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً**﴾، فأجابها الملك جبريل: ﴿ **قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَينٌ**﴾ [7].

فاستسلمت مريم لقضاء الله فنفخ جبريل في جيب درعها ثم انصرف، فحملت بعيسى (**عليه السلام**) وكان يوسف النجار ابن عمها يلازمها دائما، لذلك استعجب الأمر حينما رأى مظاهر الحمل عليها وذلك لما يعلم من ديانتها وعبادتها ونزاهتها فسألها: « **يا مريم هل ينبت زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، قال: هل يكون شجر من غير غيث؟ فأجابت: نعم، قال: وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذر، وخلق الشجر من غير مطر، وخلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى، قال، بلى.** » [8]

1- *سورة مريم، الآية 16.*
2- *سورة مريم، الآية 17.*
3- *سورة مريم، الآية 18.*
4- *سورة مريم، الآية 19.*
5- *M. Bergier (l'abbé),Op.cit., p.576.*
6- *سورة مريم، الآية 20.*
7- *سورة مريم، الآية 21.*
8- *ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 308-309.*

فعلم أن الذي بها شيء فوق الطاقة البشرية، ولا يسعه أن يسألها بعد ذلك، كما رأى في منامه أن يمسكها ولا يشهر بها، لأنها بريئة من الدنس. [1]

وقد ذكرت الآيات أنها لما حملت أتتها خالتها زوجة زكريا الذي كفلها فقالت: إني حبلى، فقالت لها مريم: وأنا أيضا حبلى، فاعتنقتها أم يحي وقالت لها: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك [2]، مصداقا لقوله تعالى[3]:﴿ **أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِقاً بِكَلِمَةٍ منَ ٱللَّهِ** ﴾، وكانت مريم تقول: كنت إذا خلوت، حدثني وكلمني، وإذا كنت بين الناس سبح في بطني [4]، مصداقا لقوله تعالى[5]:﴿ **فَنَادَاهَا**﴾.

واختلف المفسرون والمؤرخون في مدة حملها، فقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة أو ثمانية أشهر، وقيل: تسعة أشهر. [6] ويذكر ابن كثير: «**أن المشهور والظاهر أنها حملت به كما تحمل كل النساء بأولادهن، فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر.** » [7] وقد استأنسوا لذلك لقوله تعالى[8]:﴿**فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً**﴾.

وقد سكتت المصادر عن مدة الحمل، ولو كانت غريبة لذكرت، والظاهر أنها حملت به المدة الشائعة كما تحمل النساء وهي تسعة أشهر. [9]

ولما أحست مريم بالمخاض خرجت إلى جانب المحراب الشرقي فأتت أقصاه، قال تعالى [10]:﴿ **فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ**

1- *إنجيل متى، 1، 20.*
2- *ابن كثير، المصدر السابق، ص 453.*
3- *سورة آل عمران، الآية: 39.*
4- *ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 310.*
5- *سورة مريم، الآية: 24.*
6- *عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص 378.*
7- *ابن كثير، المصدر السابق، ص 453.*
8- *سورة مريم، الآية: 22.*
9- *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961م، ص 16.*
10- *سورة مريم، الآية: 23.*

نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾، أي اضطرها المخاض على اللجوء إلى جذع النخلة في بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم (**عليه السلام**) ولما اتهمها بنو إسرائيل ولم يصدقوها مع أنهم يعترفون أنها كانت من الناسكات العابدات فقد كانت تتمنى الموت قبل هذا الحال. [1] قال عز وجل[2]:﴿ **فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً.** ﴾

وذكر المفسرون ومنهم "سيد قطب" أن "سريا" هو النهر الصغير أجراه الله تحتها. والأرجح أنه ينبوع جرى للحظته أو تدفق من مسيل ماء في الجبل. وكان جذع النخلة مقطوعا ويابس فهزته، فإذا هو نخلة. وقيل كان مقطوعا، فلما أجهدها الطلق احتضنته فاستقام واخضر. [3] وقيل لم تكن النخلة مثمرة لأن ميلاده كان في فصل الشتاء. [4] ولما ولدته أتت قومها وهي تحمله:﴿ **قَالُواْ يٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً** ﴾. [5]

وكان "يوسف النجار" قد تركها في المغارة أربعين يوما، ثم جاء بها إلى أهلها، فلما رأوها قالوا ما هذه الفعلة الشنيعة التي اقترفتيها. [6]

ويذكر "أبو الفداء" أنها لما ولدت وأتت به قومها، ذهب إبليس فأخبر بني إسرائيل فأقبلوا عليها ينكرون فعلتها وأرادوا رجمها بالحجارة. [7] ولما اتهموها بالفجور أشارت إلى المسيح (**عليه السلام**) وعمره آنذاك أربعون يوما. (*) وقالت لهم خاطبوه وكلموه﴿ **قَالُواْ**

1– *سليمان مظهر، قصة الديانات، ط2، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، 2002م، ص 379.*

2– *سورة مريم، الآيتان، 24-25.*

3– *سيد قطب، في ظلال القرآن، ط12، دار الشروق، بيروت، 1986م، ج4، ص 2307.*

4– *ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 310-312.*

5– *سورة مريم، الآية، 27.*

6– *ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 310-311.*

7– *أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 62.*

* – *نطق المسيح في المهد مع قومه وعمره أربعين يوما، ثم أمسك عن الكلام حتى بلغ سن النطق المعتاد عند الأطفال، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان، محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 16.*

كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً. ﴾[1] فأنطقه الله حيث جاهر القوم بقوله:﴿ **قَالَ إِنِي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً.** ﴾ [2] وقد أراد قومها أن يرجموها فلما تكلم عيسى (عليه السلام) تركوها.

ثانيا–__ميلاد عيسى (عليه السلام)__: تباينت آراء المؤرخين والباحثين في تاريخ ومكان ميلاد عيسى بن مريم. يرى أصحاب الرأي الأول أن ولادته كانت بعد مضي ثلاثمائة وثلاث وستين (363) سنة من غلبة "الإسكندر المقدوني" (*) على أرض بابل. [3]

ويرى أصحاب الرأي الثاني أن ولادته كانت في بيت لحم سنة ثلاثمائة وأربع (304) لغلبة الإسكندر. [4] وكانت مريم قد حملت به وعمرها ثلاث عشرة (13) سنة، وقيل خمسة عشرة (15) سنة [5]، وقيل عشرون (20) سنة. [6] والأرجح أنه ولد في بيت لحم قرب بيت المقدس سنة أربع قبل الميلاد (4 ق.م). [7]

1– سورة مريم، الآية: 29.

2– سورة مريم، الآيات: 30–33.

** – **الإسكندر الأكبر** (Alexandre le grand)، (356– 323 ق.م)، ملك مقدونيا (336– 323 ق.م) ابن فيليب الثاني وأولمبيا، اعتلى العرش سنة 336 ق.م وعمره لا يتعدى 20 سنة، أراد تكوين إمبراطورية عظمى في الشرق فبدأ حملته سنة 334 ق.م، استولى على بابل سنة 331 ق.م، بلغت توسعاته حدود الهند بوصوله إلى نهر الهندوس، توفي ببابل في 13 يونيو سنة 323 ق.م، أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، 1978م، ص 158، آيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، تعريب عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، 1988، ص 201، 44- 43.Dic. Univ. Hist. Géo., pp - .*

3– ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 307.

4– أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 62.

5– ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 307–308.

6– عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص 380.

7 - Christophe Attias et Esther Benbassa, Dictionnaire de Civilisation Juive, p. 184 ; De Choist (l'Abbé), Histoire de l'Eglise, t. I, Paris. Jean Baptiste Coignard, 1703, pp.8-9.

ويذكر "ابن كثير" أنه لما ولد خرت الأصنام في مشارق الأرض ومغاربها، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض. (1)

وقد قدمت جماعة من حكماء المجوس(*) إلى أورشليم لرؤية هذا المولود الجديد، فسألوا عن مكان الملك. فلما علم بهم "هيرودس" (**) ملك اليهود، دعاهم إليه وعلم بأمرهم وما جاؤوا من أجله، فانتابه الخوف على ملكه من هذا المولود، ثم دعا الكهنة اليهود، وسألهم عن مولد المسيح فقالوا: في بيت لحم اليهودية حسب النبوءات. وطلب من المجوس إيجاد الصبي ليسجد له، وكان ينوي قتله. (2) إلا أن المجوس لما وجدوا المسيح وأمه، أدهشهم الموقف حينما رأوا الملائكة محاطة بهما. فسجدوا له وقدموا هداياهم، ثم عادوا إلى بلادهم من غير أن يعرجوا على "هيرودس" لأنهم بوحي من الله نهوا عن العودة إليه. (3)

وفي هذا الوقت بالذات أوحى الله إلى مريم أن تنطلق بالمسيح إلى مصر مصداقا لقوله تعالى(4):﴿ **وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾، كما ظهر ملاك الرب في الحلم لـ "يوسف النجار" أن يأخذ مريم وابنها إلى مصر، لأن "هيرودس" يطلب الصبي ليقتله، فأخذهما "يوسف" وسار بهما إلى مصر. (5) ولما علم

1– *ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 465.*

* – ***المجوس***، *لفظة فارسية وهي جمع "مغوس" Magus، وتعني عابد النار، وهي من الألفاظ التي دخلت اليونانية ولغة بني إرم. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط5، دار الجيل، بيروت، 1999م، ص 308، رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 269 .*

** – ***هيرودس***، *Hérode Antipas ، (22 ق.م– 39م) ، ابن هيرودس الأكبر، والي الجليل بفلسطين، وهو لقب أطلقه اليونان على كل من يولون من بني إسرائيل نائبا عليهم، وهو الذي قدم المسيح أمام الحاكم الروماني بلاطس Pilate ليحاكمه. Dic. Univ. Hist. Géo., p. 865.*

2 – *سليمان مظهر، المرجع السابق، ص 380، عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص 385.*

3 – *اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط6، دار صادر، بيروت، 1995م، ج1، ص 69.*

4– *سورة المؤمنون، الآية: 50.*

5 – *ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 312، ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 468.*

"هيرودس" بذلك أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم ممن لا يتجاوز سنهم سنتين. [1] وقد أقاموا بمصر اثنتي عشرة سنة. [2]

واختلف المفسرون في معنى الربوة: هل هي المكان الذي ولد فيه المسيح وهو محلة بيت المقدس؟ أو هي أنهار بدمشق أو مصر؟ وقيل هي الرملة. [3]

والأرجح أن المقصود بالربوة هي مصر التي أقام بها صحبة "يوسف" ووالدته مدة اثنتي عشرة سنة. ولما بلغتهم أخبار وفاة "هيرودس" عاد عيسى وأمه إلى بلاد الشام ونزلا الناصرة. ولما بلـغ المسيح سن الثلاثين من عمره، عمده "يوحنا المعمدان" [*] في نهر الأردن. [4]

وبعد تعميده صام المسيح أربعين يوما، ثم بعثه الله رسولا لبني إسرائيل. [5] قال الله تعالى[6]:﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ إِني رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدقاً لمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْبَيِنَاتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾. ولما شرع في التبشير بدعوته، راح يتنقل بين مدن وقرى الجليل، وكان الحواريون الذين اتبعوه اثني عشر رجلا يلازمونه، وقد استمرت دعوته ثلاث سنوات وثلاثة أيام. [7]

---

[1]– *اليعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص 69.*

[2]– *ابن كثير، المصدر السابق، ص 466.*

[3]– *ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص 312.*

* – ***يوحنا المعمدان*** *Jean-Baptiste، هو النبي يحي بن زكريا (عليهما السلام) ابن خالة المسيح، عاش في برية اليهودية ثم ظهر على شاطئ الأردن يعمد بالماء ويبشر بمجيء المسيح، قطع "هيرودوس" رأسه بتحريض من زوجته "هيرودية" سنة اثنان وثلاثين (32) للميلاد. ابن كثير، المصدر السابق، ص 433، Dic. Univ. Hist. Géo., p. 952.*

[4]– *أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص ص 62-63، ابن كثير: المصدر السابق ص 467.*

[5]– *اليعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص 72.*

[6]– *سورة الصف، الآية: 6.*

[7]– *الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 220.*

ثالثا-معجزات عيسى (عليه السلام): المعجزة: في اللغة مأخوذة من العجز الذي هو نقيض القدرة. [1] وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي مرسل مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة. والمقصود بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول. [2]

كان للمسيح ورسالته معجزات ليدحض بها مفتريات اليهود، وليبين طبيعة الديانة الجديدة التي جاءت مكملة ومطهرة للديانة الموسوية. فتلك المعجزات جاءت لتحيي الجوانب الروحية، وإقامة الدليل على وجود الروح في النفس البشرية. [3] ذلك أن اليهود لم يكونوا يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم. فلما جاء عيسى (عليه السلام) من غير أب، كان ذلك إعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها، وتلك آية الله في عيسى وأمه مريم. [4] قال تعالى[5]:﴿ **وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَاهَا وَٱبۡنَهَآ آيَةً لِّلۡعَالَمِينَ** ﴾.

وقد أيد الله عيسى بن مريم ببعض المعجزات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم خمسة منها في سورة المائدة في قوله تعالى[6]:﴿ **إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلاً وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَابَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَاةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِينِ كَهَيۡئَةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡراً بِإِذۡنِي وَتُبۡرِىءُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِي وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوتَىٰ بِإِذۡنِي**﴾

ذكرت الآية الكريمة خمس معجزات: **المعجزة الأولى:** الكلام في المهد وذلك ليكون آية على طهر أمه وعفافها، وبراءة عرضها من أن يعلق به شئ مما تلوكه

---

[1]– *البغدادي، الفرق بين الفرق، مطبعة المعارف مصر، 1380هـ، ص. 170.*

[2]– *أحمد علي عجيبة، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2005، ص.23.*

[3]– *الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم وحضارته، ج2، ص 359.*

[4]– *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 18.*

[5]– *سورة الأنبياء، الآية: 91.*

[6]– *سورة المائدة، الآية: 110.*

الألسنة، وتوسوس به الظنون. **والمعجزة الثانية:** معرفة الكتاب (التوراة والإنجيل) أي أن الله أتاه علم الكتاب وفهمه ليكون آية على صدقه ورسالته. **أما الثالثة:** فهي نفخ الروح في الطير، فالله سبحانه خلق على يديه طيرا من طين، فالخالق هو الله، ولكن جرى الخلق على يد عيسى. **والمعجزة الرابعة:** إبراء الأكمه، فكان عيسى يحيي الميت بعد خروج روحه، والمحيي هو الله وإنما أجرى ذلك على يد المسيح برهانا وآية على رسالته. **والمعجزة الخامسة:** إحياء الموتى، فكان يحيي الميت بعد خروج روحه، فالمحيي هو الله وإنما أجرى ذلك على يد عيسى آية على صدق رسالته.

ووردت **المعجزة السادسة:** في سورة المائدة أيضا، قال عز وجل [1]:﴿ **إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً من ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً منَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً منْكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ * قَالَ ٱللَّهُ إِني مُنَزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنيَ أُعَذبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذبُهُ أَحَداً منَ ٱلْعَالَمِينَ**﴾.

يتضح من الآية الكريمة السابقة معجزة إنزال المائدة من السماء بطلب من الحواريين لتطمئن قلوبهم ويعلموا أن عيسى (عليه السلام) قد صدقهم بما قال.

أما **المعجزة السابعة:** فقد ذكرت في سورة آل عمران، وهي إنباؤه (عليه السلام) بأمور غائبة عن حسه، فقد كان ينبئ صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. [2] وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله [3]:﴿ **وَأُنَبئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ.** ﴾

---

[1]– *سورة المائدة، الآيات:112-115.*

[2]– *ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 468.*

[3]– *سورة آل عمران، الآية: 49.*

ويمكن أن نستنتج من الآيات الكريمة السابقة تلك المعجزات (*) التي أيد الله بها عيسى لتكون حجة على قوم بني إسرائيل. وإن كان في الحقيقة أن مولده في حد ذاته لأكبر معجزة فضلا عن نطقه وهو في المهد صبيا.

قال تعالى[1]:﴿ **قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.** ﴾ لكن في الوقت ذاته يمكن لنا أن نتساءل: لماذا كانت معجزاته من ذلك النوع من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص والمجذوم؟

لما بعث الله المسيح أيده بمعجزات من جنس ما يعرف قومه، حتى يكون عجزهم حجة عليهم، وعلى غيرهم ممن هم دونهم في الطب، فقد غلب على زمانه الطب الطبيعي، فكانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان. [2]

وذهب "أبو زهرة" إلى أن زمان المسيح قد ساده إنكار الروح، فكانت معجزته إعلانا لوجود الروح حيث أوجد الطير وأحيا الأموات بإذن الله ودعوة إلى الإيمان بالبعث والنشور والحياة الآخرة. [3]

** – من معجزات المسيح التي ذكرت في القرآن أنه صور من الطين كهيئة الطير وقيل هو الخفاش، فينفخ فيه فيصير طائرا، وإحياء الموتى، وممن أحياهم عازر وكان صديقا له وكان قد مات منذ ثلاثة أيام، كما أحيا سام بن نوح، وعزير النبي، ويحي بن زكريا، وإبراؤه الأكمه والأبرص، وهما مرضان استعصى على العالم قديمه وحديثه إيجاد دواء لهما، وإنزال المائدة بطلب من الحواريين، وإنباؤه صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾. سورة آل عمران، الآية: 49، أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 63، ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص ص 313-315، الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 220، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ص 480-481.*

1 – سورة مريم، الآية: 21.

2 – ابن كثير، البداية والنهاية، تح. أحمد ملحم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ج2، ص 471.

3 – محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص.20.

وفي هذا السياق يذكر "الشهرستاني" معجزات المسيح (عليه السلام) قائلا: «***كانت له آيات ظاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ووجوده وفطرته آية كاملة على صدقه، ذلك أنه وجد من غير نطفة سابقة، ونطقه من غير تعليم سابق.*** » [1]

وبالرغم من أن الله بعث عيسى (عليه السلام) بتلك البينات وأيد رسالته بتلك المعجزات، إلا أن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظا شدادا. فبنو إسرائيل قوم استهوتهم المادة، فقد كان نساكهم وسدنة الهيكل، يجمعون المال من نذور الهياكل والقرابين، وزعموا أن لهم منزلة دينية ومكانة سامية بين قومهم، فكان من العسير عليهم التنازل عن عليائهم وإمتيازاتهم. فلما جاء المسيح ندد بتصرفاتهم وأفعالهم ونادى بأن الناس جميعا سواء أمام ملكوت الله، فلم يرق ذلك لأحبار اليهود، فأنكروا عليه ذلك وناصبوه العداء.

وبدأوا يخططون ويتآمرون ويكيدون له، ويحرضون الحكام الرومان عليه. وانتهى بهم الأمر إلى أن تمكنوا من حمل "بيلاطس" (*Pilate*) الحاكم الروماني [*] على أن يصدر أمرا بالقبض عليه والحكم عليه بالإعدام صلبا. [2]

واجتمع عظماء اليهود وأحبارهم فقالوا: إنا نخاف أن يفسد علينا ديننا، ويتبعه الناس، فقال لهم " قيافا" رئيس الكهنة: «***لأن يموت رجل واحد خير من أن يذهب شعب بأسره، فأجمعوا على قتله.*** » [3]

---

[1] – *الملل والنحل، ج1، ص 220.*

* – ***بيلاطس Pilate***، *هو الحاكم الروماني الذي قدم إليه اليهود المسيح ليحاكمه، فلما رأى أن المسيح لم يفعل شيئا يمس بسلطان الحاكم قال لليهود: حاكموه أنتم حسب شريعتكم، وجاء بطشت، وغسل يديه، وقال: أنا بريء من دم هذا البار، فقال اليهود: دمه علينا وعلى أبنائنا. ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 118.*

[2] – *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 23.*

[3] – *اليعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص 76.*

ولما أعلم الله المسيح أنه مخرجه من هذه الدنيا، جزع من ذلك ودعا الحواريين وصنع لهم طعاما. (*) وكانت اليهود في تلك الأثناء تسعى في طلبه، وقد حضر أحد الحواريين إلى "هيرودس" (*Hérode*) الحاكم اليهودي.

ويذكر "أبو الفداء" [1] أن هذا الحواري هو "يهوذا الإسخريوطي" وهو أحد تلاميذه، فدلهم عليه، ولما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل فرفعه إلى السماء.

يرى "ابن الأثير" [2] أن يهوذا هو الذي دخل الغرفة التي رفع منها المسيح (**عليه السلام**) وبقدرة الله تعالى تغير يهوذا في النطق والوجه فصار شبيها بالمسيح، ولما خرج إليهم اعتقدوا أنه المسيح فقتلوه وصلبوه، قال تعالى [3]:﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾، ويؤكد الله تعالى ذلك في قوله[4]:﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً** ﴾. ونلاحظ أن القرآن الكريم قرر أن الله لم يمكنهم من عيسى بل نجاه من أيدي اليهود الآثمة.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في موته ورفعه إلى السماء. يرى بعض المفسرين منهم "القرطبي" [5]: « ***أن الله تعالى رفعه بجسمه وروحه إليه، ثم أحياه وأنزله إلى أمه مريم بعد سبعة أيام، وهي عند المصلوب تبكي ومعها امرأة كان المسيح قد أبرأها من الجنون، وقد أمر مريم بأن تجمع الحواريين، فبثهم في الأرض رسلا يبلغون رسالته.*** »

** – يعرف عند النصارى بالعشاء الأخير أو العشاء السري، وقد خص به المسيح تلاميذه من الحواريين الاثني عشر وطلب منهم أن يجتهدوا له في الدعاء حتى يؤخر الله أجله. ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 490.*

[1]– المختصر في أخبار البشر، ج1، ص 64.

[2]– الكامل في التاريخ، ج1، ص 318.

[3]– سورة النساء، الآية، 157.

[4]– سورة النساء، الآية، 157.

[5]– الجامع لأحكام القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م، ج6، ص ص 9–10.

وذكر "الشهرستاني" [1] أن المسيح لما نزل رأى شخصه شمعون الصفا (*)، وهو أكثر الحواريين علما وأدبا وزهدا.

ويرى فريق آخر من المفسرين (**): أن المسيح عاش إلى أن توفاه الله كما يتوفى أنبياءه، وقد أخذوا في ذلك بظاهر قوله تعالى[2]:﴿ **إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ ويذكر القرآن الكريم في موضع آخر قوله تعالى[3]:﴿ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُل شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾.

فقد أورد "القرطبي" [4] في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه، والوفاة في كتاب الله على ثلاثة أوجه: وفاة بالموت وذلك في قوله تعالى[5]:﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلأَنفُسَ حِينَ مَوْتِـهَا** ﴾، ووفاة النوم، قال الله تعالى[6]:﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِٱللَّيْلِ**﴾، يعني الذي يميتكم، ووفاة الرفع قال تعالى[7]:﴿ **إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ والتوفي هنا يستعمل في أخذ الشيء وافيا كاملا، أي جسدا وروحا.

---

[1]– *الملل والنحل: ج1، ص 221.*

*– ***شمعون الصفا***، اسمه الأصلي "سمعان" وقد غيره المسيح وسماه "بطرس"، وهو تلميذ "يسوع" وأحد الرسل الإثني عشر، يلقب بالقانوني أو الغيور، يقال أنه التقى ب"يهوذا" الرسول في فارس، كان وأخوه "أندرواس" صيادين عندما دعاهما المسيح ليتبعاه، تذكر مصادر القرن الثاني الميلادي أنه ترك أنطاكية إلى روما، استشهد في عهد "نيرون" Néron مصلوبا سنة 67م في نفس اليوم الذي استشهد فيه بولس. متى، 10، 4، مرقس، 3، 18، لوقا، 6، 15، ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 120، الموسوعة العربية الميسرة، ج1، ص 527.*

**– *من هؤلاء المفسرين: الزمخشري، ابن كثير، ابن عباس، والبخاري.*

[2]– *سورة آل عمران، الآية 55.*

[3]– *سورة المائدة، الآية 117.*

[4]– *الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص ص 376–377، البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح. إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ج2، ص 341.*

[5]– *سورة الزمر، الآية 42.*

[6]– *سورة الأنعام، الآية 60.*

[7]– *سورة آل عمران، الآية 57.*

وورد في تفسير "ابن عباس" أن عيسى لم يقتل بل رفعه الله إليه روحا وجسدا، ويفسر كلمة﴿ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي** ﴾أي رفعتني من بينهم. [1] ويرى الزمخشري [2]: أن الله عصم المسيح من أن يقتله الكفار، ورفعه إليه وهو نائم حتى لا يلحقه خوف ويستيقظ وهو في السماء آمن مقرب.

وفي شرحه للآية الكريمة: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِهَ لَهُمْ**﴾، [3] يذكر "الزمخشري" [4] أن اليهود اختلفوا في قتل المسيح، فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال البعض: رفع إلى السماء، وقال البعض الآخر: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا. وهذا دليل على أن المسيح رفع جسدا وروحا إلى السماء.

أما "ابن كثير" [5] فيرى: أن الله رفع المسيح إليه جسدا وروحا وأن الذين كانوا معه من الحواريين في البيت قد شاهدوا رفعه، من روزنة فتحت في سقف البيت، وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء كما قال تعالى[6]:﴿ **إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِني مُتَوَفيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾.

ويبدو من المصادر الدينية المسيحية [7] أن قرار صلب وقتل المسيح – حسب زعمهم–اتخذه السنهدرين [*] الذي قام بمحاكمة المسيح سنة 29م.

---

[1]– *الفيروز آبادي، تنوير المقباس، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، (د.ت)، ص ص 85، 105.*

[2]– *الكشاف، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، 1977م، ج1، ص ص 432-433.*

[3]– *سورة النساء، الآية 157.*

[4]– *الكشاف، ج1، ص ص 579-580.*

[5]– *تفسير القرآن العظيم، ج2، ص ص 428-429.*

[6]– *سورة آل عمران، الآية 57.*

[7]– *إنجيل مرقس، 14، 53-65، إنجيل متى، 26، 57-68.*

* – ***السنهدرين*** *Sanhédrin، مصطلح إغريقي الأصل"Synedrion"، ويعني المجلس أو المجمع الديني اليهودي الأعلى، تأسس في أورشليم سنة مائة وواحد وأربعون (141) قبل الميلاد، وبقي قائما إلى أن ألغي في العهد الروماني سنة سبعين (70) ميلادية بعد خراب أورشليم، يتكون من مجلسين: السنهدرين الصغير: ويتألف من 23 عضوا ويعقد جلساته في المدن وهو أشبه ما يكون بمحكمة للعدالة المحلية، والسنهدرين الكبير يتألف من 71 عضوا وهو مجلس أعلى مقره بأورشليم داخل حرم الهيكل. أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 179.* *- Dict. Univ. Hist. Géo., pp. 1694-1695 ; J. C. Attiass et E. Benbassa, Op. cit., p 247.*

تلك هي الديانة المسيحية كما جاء بها عيسى (عليه السلام) ودعا إليها، وتلك معجزاته. ويمكننا أن نتساءل في هذا السياق: ما مصير المسيحية بعد أن رفع المسيح إلى ربه؟ وما الذي أدخل عليها، خاصة ما تعلق بشخص المسيح نفسه؟ وما مصادر المسيحية وكتبها المقدسة؟ وما هي مجامع المسيحيين الدينية؟ وما هي الفرق المسيحية القديمة؟ وما الأدوار التاريخية التي مرت بها المسيحية حتى ظهرت في المغرب القديم؟

<u>رابعا: بولس والمسيحية الجديدة</u>: تعرض المسيحيون بعد المسيح (عليه السلام) إلى شتى ألوان التعذيب والاضطهاد –حسب ما تذكره مصادرهم –مما جعلهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحيانا، أو يصمدون أحيانا أخرى.

وأشد ما نزل بهم كان في عهد الأباطرة الرومان نيرون (*) *Neron*، وتراجانوس (**) *Trajanus*، وديكيوس (***) *Decius*، وديوكليتيانوس. (****) واستمرت سياسة

*– ***نيرون***، *Nero Claudius Caesar*، *(37-68م)، إمبراطور روماني (54م-68م)، ابن كلوديوس بالتبني اتسمت تصرفاته بالقساوة، فقتل أمه ثم زوجته، وأحرق روما سنة 64م واتهم المسيحيين وبدأ اضطهادهم، كان يعتقد أنه شاعر وفنان كبير حتى أنه قال وهو يحتضر: "ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي"، مات منتحرا.*
Suétonius, Vies des douze Césars, trad. M.Baudement, Paris, 1845, XXXII, XXXIV ; Fredouille (J.C.), Dictionnaire de la Civilisation Romaine, Larousse, Paris, 1968, p.171.

– ***تراجانوس* *(Marcus Ulpius Trajanus)*، *(52-117م) إمبراطور روماني (98-117م)، من أصول إيطالية أسبانية، ولد سنة 52م بإيطاليكا* *Italica* *(بأسبانيا)، دخل الجيش مبكرا، ثم أصبح حاكما على جرمانيا سنة 96م، تبناه الإمبراطور نيرفا (Nerva) سنة 97م وأصبح شريكا في الحكم برتبة قيصر، خاض عدة حروب في داسيا Dacie (رومانيا حاليا) على نهر الراين فأخضع الإمبراطورية البارثية وأرمينيا وبلاد الرافدين، اضطهد المسيحيين فكان عهده الاضطهاد الثالث لهم. توفي سنة 117م وهو يحاول إخماد ثورة اليهود ضده.* *Aurélius Victor, Epitomé, Vies des empereurs Romains, par M.N. Dubois, Paris, 1816, XIII ; Dion Cassius, Histoire Romaine, Trad. par .E. Gros, Paris, 1867, LXVIII.*

– ***ديكيوس، *Decius Messius*، *(201-251م) إمبراطور روماني (249م-251م)، بعد توليه العرش، استمر في اضطهاد المسيحيين (الاضطهاد السابع)، وعرفوا سنة 250م شتى أنواع التعذيب، ومنهم أصحاب الكهف أو شهداء أفسوس Ephesus الذين ذاع أمرهم حتى بلغ مكة عاصمة الحجاز.* *- Dic.Univ.Hist.Géo., p.505.*

****– ***ديوكليتيانوس***، *Valerius Jovius Aurelius Dioclétianus* ، *(245- 313م) إمبراطور روماني (284- 305م) عين ماكسيميانوس شريكا له سنة 286م ثم قنسطانس كلور الأول وغالريوس قيصرين (مساعدين للإمبراطور) سنة 293م، ونجحت هذه السياسة فأعيدت بريطانيا إلى حظيرة الإمبراطورية سنة 296م وأخضع الفرس سنة 298م، لكنه اضطهد المسيحيين وأخفقت اصطلاحاته الاقتصادية، اعتزل الحكم سنة 305م، قضى خريف عمره في سالونا (Salone) .* *- Dic.Univ.Hist.Géo., p.533.*

الاضطهاد والتنكيل بالمسيحيين إلى مجيء قسطنطين(*) في مطلع القرن الرابع الميلادي، الذي اعتنق المسيحية سنة 313م، وأصبحت المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية.(1) فتنفس المسيحيون الصعداء، وخف الاضطهاد عنهم نوعا ما، ذلك أن كتب المسيحية التي فقدت سندها كان بسبب ذلك الاضطهاد. (2)

لقد بلغت المسيحية مرحلة من التطور التاريخي بعد رفع المسيح (عليه السلام) بفترة وجيزة، وأخذت منحنى آخر في مجالات الحياة الدينية والدنيوية. ويعتبر بولس (**) أول من حمل لواء الديانة المسيحية بعد حادثة الصلب في ثوبها الجديد. (3)

كان القديس بولس يهوديا قبل أن يعتنق المسيحية، وكان مواطنا رومانيا ومن الفريسيين إحدى الفرق اليهودية المتشددة وحينما يتحدث بولس عن نفسه يصرح بيهوديته قائلا: «***أنا رجل يهودي، أنا فريسي ابن فريسي، على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم.*** » (4)

أحدث بولس انقلابا شاملا في المسيحية بعد اعتناقه لها، واستطاع أن يؤسس ديانة جديدة تختلف تماما عن المسيحية التي جاء بها المسيح (عليه السلام) والحديث عن

** - **قسطنطين**، (288م- 337م)، إمبراطور روماني (306م- 337م)، هو كايوس فلافيوس فالريوس أورليوس قسطنطينوس Caius Flavius Valerius Aurelius Constantinus، ابن قسطنطينوس كلورس وأمه القديسة هيلانة Sainte – Hélène، نودي به إمبراطور بعد وفاة والده ، اعتنق المسيحية سنة 313م لأسباب سياسية لا دينية، وأصدر منشور "ميلان" الذي أقر فيه الحرية الدينية، كان أريوسيا كوالده، لم يعمد إلا وهو على فراش الموت، دعا إلى مجمع "نيقية" Nicaea سنة 325م وبذلك أوجد المجامع الدينية بإشارة من والدته، نقل عاصمته إلى "بيزنطة" التي أعاد بناءها في الفترة (324- 336م) وسماها "القسطنطينية".* -*Claude Augé, Dictionnaire Universel Encyclopédique, t. III, Paris, Larousse, S.D., p.218.*

1- جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 613.

2- رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ط1، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص 60.

*** - **بولس**، **St. Paul**، (10م-67م)، قديس اشتهر بلقب رسول الأمم، اسمه الأصلي شاؤول، نشأ نشأة يهودية، كان من أعنف مضطهدي المسيحية، كلف بمقاومة المسيحيين بدمشق سنة 35م ثم اهتدى على طريق دمشق وعمده حننيا، فأصبح من أنشط المبشرين بالمسيحية في القرن الأول في آسيا الصغرى واليونان، وقبض عليه في أورشليم وسيق إلى روما وحكم عليه بالإعدام وصلب وقطع رأسه في67م في عهد نيرون، تتلخص آراؤه في الرسائل، له أربع عشرة رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة وإلى بعض تلاميذه. Dic.Univ.Hist.Géo., p.1444.*

3- الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم، ج2، ص ص 360-361.

4- سفر أعمال الرسل، الإصحاح 23، 6-9.

أفكار بولس وعقيدته ودوره في تطوير المسيحية، إنما هو حديث عن المؤسس الحقيقي للمسيحية الجديدة المعاصرة. [1]

نشأ بولس في بيئتين مختلفتين أثرتا تأثيرا واضحا في تكوين شخصيته، وورد في سفر أعمال الرسل تفصيل عن حياته. [2]

ذكر "ول ديورانت" أن مولد بولس كان في مدينة طرسوس [*] وهي مدينة تعد حلقة اتصال بين آسيا الصغرى وبلاد الشام، وفيها تشبع بالفلسفة اليونانية. [3] وتربى بولس في بيئة ثانية هي أورشليم على يد "غمالائيل" [**] الذي لقنه المبادئ والعقائد اليهودية حيث أن مدرسته تعد من ألمع المدارس اليهودية في القرن الأول الميلادي. [4]

ومما يذكره "ابن حزم" [5] عن بولس: « ***كان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء (عليهم السلام) خلقه الله تعالى في بطن أمه مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه البتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة؟ ولا روح القدس؟*** »

يبدو أن بولس يعتبر أول من نادى بعالمية المسيحية، وذلك في رسائله الموجهة إلى كنائس العالم المختلفة أو الموجهة إلى بعض تلاميذه، والتي يكون قد كتبها في عهد "نيرون" في الفترة من سنة 54م إلى سنة 62م. [6]

يمكننا أن نتساءل في هذا السياق: ما الذي أضافه بولس إلى المسيحية؟ يمكن للباحث أن يحدد ذلك في النقاط الآتية:

---

[1]– *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 147.*

[2] – *سفر أعمال الرسل، الإصحاح 22: 3-21، الإصحاح 26: 12-21.*

* – ***طرسوس***، *مدينة بثغور الشام، كانت تسمى قديما كدنوس، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، كانت ثغرا لبلاد كيليكيا، دخلها الإسكندر الأكبر، تقع في تركيا حاليا على نهر طرسوس (قره صو) وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل بحر الروم شمالا غرب حلب. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 32، عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 388.*

[3]– *ول ديورانت، المرجع السابق، ج11، ص 249.*

** – ***غمالائيل***، *هو حفيد "هلل" وقد خلفه في رئاسة السنهدرين. المرجع نفسه، ص 250. للمزيد أنظر أدناه، ص 207.*

[4]– *محمد أحمد الحاج، المرجع السابق، ص ص 142-143.*

[5]– *الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، 1985م، ج1، ص 110.*

[6]– *أحمد علي عجيبة، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، ص.173.*

1-جعل بولس من المسيحية ديانة عالمية مفتوحة لجميع الأمم بأن تساهل في بعض التشريعات التي كانت تضايق الوثنيين. فأحل الخمر، وأباح أكل لحم الخنزير، وأبطل الختان، ونقل العيد الأسبوعي من السبت إلى الأحد ليوافق يوم الشمس عند الوثنيين.

2-ابتكر فكرة الخطيئة أي أن الله أرسل المسيح ليكفر عن خطيئة البشر بموته على الصليب فداء لهم.

3-حول المسيحية من عقيدة التوحيد إلى عقيدة التثليث، والقول بألوهية المسيح.

4-أخرج المسيحية من البساطة اليهودية إلى تعقيدات الفكر اليوناني. [1]

والمتمعن في قصة القديس بولس وتحوله إلى المسيحية التي رواها سفر أعمال الرسل -المذكور آنفا- يدرك دور اليهود في دفع بولس إلى تغيير معالم المسيحية، ويجعلها ديانة جديدة مليئة بالأفكار الوثنية ولا تمت إلى المسيحية الحقيقية التي جاء بها عيسى (عليه السلام) بصلة. فأسلوب الخداع والكذب والنفاق وتحريف الحقائق صفات عرف بها اليهود على مر العصور. ويصفهم القرآن الكريم في قوله تعالى[2]:﴿ **وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ منْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ آمِنُواْ بِٱلَّذِيَ أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوۤاْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلاَ تُؤْمِنُوۤاْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىۤ أَحَدٌ مثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم** ﴾.

لقد قارن "أحمد شلبي" [3] بين موقف بولس و"عبد الله بن سبأ" اليهودي، ونشر المبادئ الفاسدة. ويكمن الفرق بينهما في أن أفكار ابن سبأ لم تعمر ولم تدم مدة طويلة، بينما أفكار بولس نمت وتطورت ودامت فترة زمنية طويلة لأنها وجدت المناخ الملائم لانتشارها.

1- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج11، ص 275.*

2- *سورة آل عمران، الآيتان: 72-73.*

3- *أحمد شلبي، المسيحية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م، ص 124.*

لذلك استطاع "بولس" أن يؤسس معتقدات مسيحية جديدة على حساب المسيحية التي جاء بها عيسى (عليه السلام)، بعد أن ضاع إنجيل عيسى واندثر، لم يبق للمسيحية مصدر تستند إليه، في عقائدها وشرائعها ومبادئها. ومن ثمة استطاع بولس أن يؤسس لها شريعة لا تمت بصلة لعقيدة المسيح، لذلك كان المؤسس الأول للمسيحية الحديثة. حيث تمكن أن يقنع الحكام الرومان بالديانة الجديدة، وجعل طاعتهم من طاعة المسيح، الأمر الذي خفف من اضطهاد الحكام الرومان للمسيحيين وساعد على انتشارها. وبذلك تحولت المسيحية من ديانة شرقية إلى ديانة غربية. [1]

وهكذا تقوم المسيحية عند بولس على خمسة أسس وهي:

1-القول بالتثليث: (*Trinité*) وهو عماد وجوهر العقيدة المسيحية، ومعناه أن الله يتمثل في ثلاثة أقانيم: الأب، الإبن، والروح القدس. [2] وهو ما اتفقت عليه الفرق المسيحية الثلاثة، من أن الخالق الإله جوهر واحد ذو ثلاثة أقانيم، وأن الابن هو الكلمة، والروح هي الحياة (الروح القدس)، والأب هو القديم الحي المتكلم، وأن هذه الأقانيم الثلاثة متفقة في الجوهرية، مختلفة في الأقنومية. [3]

وفي هذا السياق يشير "محمد أبو زهرة" [4] أن المصادر المسيحية تذكر أسس عقيدة التثليث على أنها: « **طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الإبن، والله الروح القدس. فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير.** » ويفهم من هذا الكلام أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق.

1- *الطاهر ذراع، الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، إشراف محمد البشير شنيتي، جامعة قسنطينة، 1990، ص 134.*

2- *الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 221. عن* ***الأقانيم*** *أنظر أعلاه، ص 180.*

3- *الأسد آبادي، المغني في أبواب التوحيد، تح. محمود الخضري، ج5، الدار المصرية، القاهرة، 1958، ص 81.*

4- *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 91.*

وتجدر الإشارة أن عقيدة التثليث لم ترد دفعة واحدة على المسيحية، بل نمت وتدرجت من مجمع نيقية (*) إلى مجمع القسطنطينية (**) ومجموع قرارات هذين المجمعين اكتملت عقيدة التثليث نهائيا في نهاية القرن الرابع الميلادي.

غير أن الإيمان بعقيدة التثليث خلق للنصارى مشكلة معقدة وهي قضية التوفيق بين الوحدانية التي هي سمة الأديان السماوية التوحيدية، وبين عقيدة التثليث التي هي عقيدة طارئة على المسيحية.

وقد ظهرت عقيدة التثليث منذ فجر التاريخ لدى شعوب كثيرة، ولعل البابليين هم أول هذه الشعوب التي آمنت بها، ولليهود ضلع في ذلك. [1] ويبدو أن اليهود قد أطلعوا وهم في بابل على تقاليد ومعتقدات سكان بابل، ولما عادوا بعد السبي الذي وقع سنة 586 ق.م، نقلوا تلك الأفكار والمعتقدات ومنها عقيدة التثليث إلى بلاد الشام. [2]

يبدو أن السبب الذي دفعهم لذلك هو تحريف ما جاء في التوراة من البشارة بنبوة محمد **(صلى الله عليه وسلم)** خاتم الأنبياء، ومنها ما ورد في سفر التثنية: « **يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون.** » [3]

لذلك اتجهوا إلى التشكيك في اسم خاتم الأنبياء وبلده ونسبه وأوصافه وزمن مجيئه، واستعملوا شتى الطرق والوسائل للتشويش عن فكرة خاتم الأنبياء وبث فكرة التثليث.

---

* – ***مجمع نيقية***، *Nicaea* ، *هو أول مجمع كنسي انعقد سنة 325م في عهد قسطنطين، وحضره 318 أسقفا. حدد معنى النصرانية وأصولها ووضع تعريف للإيمان الصحيح، كما أدان أريوس.* - *Peltier, (Abbé Ad.-Ch.)., Dictionnaire des conciles, Ateliers catholiques, Paris, 1847, t. 2, pp.63-74.*

** – ***مجمع القسطنطينية***، *Constantinople*، *هو ثاني مجمع كنسي انعقد سنة 381م في عهد "ثيودوسيوس" الأول (379–395م) وانتهى بإقرار ألوهية روح القدس، وبذلك تقرر التثليث في الديانة المسيحية، حضره 150 أسقفا.*
-Dic.Univ.Hist.Géo., pp.445, 454.

[1] – *أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 112.*

[2] – *محمد أحمد الحاج، المرجع السابق، ص ص 152–153.*

[3] – *الإصحاح 18: 15.*

2-ألوهية المسيح: يذكر "أحمد شلبي" [1] أن رجال الدين المسيحيين يرون أن عيسى هو ابن الله وليس الإله، نزل إلى الأرض وقدم نفسه قربانا، فصلب وقتل تكفيرا عن خطيئة البشر. وقد ظهرت فكرة ألوهية المسيح في زمن المسيح نفسه أي في مطلع القرن الأول الميلادي [2] وأشاعها الجنود الرومان. لكن الفكرة نمت وترعرعت فيما بعد وحمل لواءها بطريرك الإسكندرية. وقد أدى الاختلاف حول فكرة ألوهية المسيح إلى انقسام كنائس النصارى في مطلع القرن الرابع الميلادي إلى حزبين أحدهما يؤمن بألوهية المسيح والثاني ينكرها. [3]

وقد وردت إشارات في الكتب المقدسة إلى لاهوت المسيح، منها إنجيل متّى: «***هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.*** » [4] وفي إنجيل يوحنا : «***في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء، والكلمة صارت جسدا وحل بيننا، ورأينا مجده مجدا، كما للوحيد من الأب مملوءا نعمة وحقا .*** » [5]

وفي إنجيل متّى: « ***وحينما ركب بحر الجليل أظهر طبيعتي لاهوته وناسوته الكليتين وذلك بينما كان نائما هاجت الرياح، واضطربت الأمواج، فقام من النوم وأسكتها، فصار هدوء عظيم.*** » [6]

يتضح من النصوص السابقة أن المسيحيين يعتقدون أن عيسى ابن الله، أو أنه هو الكلمة التي صارت جسدا، وأن له طبيعتين لاهوتية وناسوتية. فبنومه أظهر ناسوته، وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته. ويبدو أن ذلك تناقضا صريحا، ومحاولات يائسة من المسيحيين لتقديم الدليل على ألوهية المسيح (عليه السلام).

---

[1]- *أحمد شلبي، مقارنة الأديان-المسيحية، ص 112.*

[2]- *محمد أحمد الحاج، المرجع السابق، ص 195.*

[3]- *الطاهر ذراع، الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، ص 136.*

[4]- متى، *3: 18.*

[5]- يوحنا، *1: 1، 3-4.*

[6]- متى، *8: 23-27.*

3-القول بالروح القدس: تعد مؤلفات الآباء والقديسين من أهم مصادر الكنيسة المسيحية، وبموجبها يعتقد المسيحيون أن ما كتبوه هو من روح القدس. [1]

لذلك كان أحرى على المسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية.

4-صلب المسيح: جاء في الإنجيل [2]: «***إن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب، ويخلص ما قد هلك.*** » أي أن عيسى (عليه السلام) بمحبته ورحمته قد صنع طريقا للخلاص، وهو الذي يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته. وكان التكفير الذي قام به عيسى هو الصلب، وقد اختلفت الأناجيل الأربعة في قصة صلبه وقيامه. [3]

هـ-المسيح يدين ويحاسب: جاء في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس [4]:« ***لابد أننا جميعا نظهر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد، بحسب ما صنع، خيرا كان أم شر***ا. »

ففي رأي بولس أن الأب لا يدين أحدا، بل أعطى ذلك للابن، فأعطاه سلطان محاسبة الإنسان، لأنه ابن الإنسان أيضا. ولابد أن يظهر جميع الناس أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان قد صنع خيرا أو شرا. كما نلاحظ من النص أن الذي سيحاسب البشر ويجازيهم بما فعلوا إنما هو المسيح بن مريم، هذا حسب مزاعم المسيحيين.

يتضح مما سبق ذكره، أن المسيحية كانت وحدانية في دعوتها، إنسانية في مضمونها إلى أن جاء بولس اليهودي، الذي لما عجز عن محاربة المسيحية بالعنف والاضطهاد قرر أن يلجأ إلى سلاح أخطر وهو الدس والتحريف والتدمير الداخلي. لا شك أن لشخصية بولس وأفكاره ميزات ساعدته على نشر وتعميم أفكاره وإقناع الجماهير بالمسيحية الجديدة. ومن أبرز ما تميز به: تأثره بالروح والفلسفة الإغريقية، وتربيته

1- *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 174.*

2- *لوقا، الإصحاح 1: 1.*

3- *محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 98.*

4- *الإصحاح 5: 10.*

اليهودية على يد اليهودي غمالائيل في أورشليم، فدرج على أسلوب اليهود في الكيد والعمل في الخفاء. أما الجنسية الرومانية فقد أكسبته الجرأة وأبعدت عنه الاضطهاد الذي طال المسيحيين في تلك الفترة.

خامسا- الكتب المقدسة عند المسيحيين: يشمل كتاب النصارى المقدس التوراة والإنجيل (*) ورسائل الرسل، وهي المصادر الثلاثة الأساسية التي يعتمد عليها المسيحيون في ديانتهم، وتسمى التوراة "أسفار موسى الخمسة" أو "كتب العهد القديم"، أما الأناجيل والرسائل فتسمى "كتب العهد الجديد".

والإنجيل يشتمل على عقيدة ألوهية المسيح (عليه السلام) في زعم المسيحيين –كما بينت آنفا–والصلب والفداء، أي أنه يشتمل على جوهر المسيحية بعد المسيح. [1] والأناجيل المعتمدة عند المسيحيين أربعة، حيث تعترف بها الكنائس وتقرها معظم الفرق المسيحية وتأخذ بها، وقد وضعت ما بين القرنين الأول والثالث الميلاديين وهي: [2]

1–إنجيل متّى ***Matthew***: (**) ذكر الباحثون وجمهور مؤرخي المسيحية أن متّى، وهو أحد حواريي وتلاميذ المسيح الذين يسميهم المسيحيون رسلا، أن متّى كتب إنجيله باللغة

** – **الإنجيل**، كتاب الله المنزل على عيسى (عليه السلام) وهو كتاب المسيحيين المقدس. أصل الكلمة يونانية (Evangélion) معناها "الخبر الجيد" أو "البشارة"، وهو كتاب يتضمن أخبار المسيح من يوم ولادته إلى وقت خروجه من هذا العالم، كتبه بإلهام أربعة من الرسل (Apostoloi) وهم: متى ومرقس ولوقا ويوحنا. الحسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، مكتبة عمان، الأردن، 1995، ص 13.*

-Martigny (l'Abbé J.A.), Dictionnaire des antiquités chrétiennes, Paris, librairie Hachette, 1877, pp.298-301.

1– أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 145، الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 221.

2– الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم، ج2، ص 363.

*** – **متّى**، Matthieu (Matthaeus) ، أحد حواريي المسيح، عاش في القرن الأول للميلاد، يدعى أيضا "لاوي" أو "ليفي" Lewi بن حلفى، من خان الجليل، صاحب أول إنجيل حسب الترتيب الكنسي، كان من العشارين (أي جباة العشور) للدولة الرومانية في " كفر ناحوم" من أعمال الجليل بفلسطين، اختاره المسيح تلميذا من تلاميذه، ولما صعد المسيح، جال للتبشير في الحبشة ثم بلاد فارس، كتب إنجليه بالعبرية، قضى 23 سنة مبشرا بالمسيحية في بلاد فارس و بالحبشة حتى قتل بها في حوالي سنة 62م.*

- Dic. Univ. Hist. Géo., p.1209.

العبرية ببيت المقدس التي وجدت بها أقدم نسخة كتبت باليونانية. [1] ويحتمل أن يكون متّى نفسه هو صاحب الترجمة اليونانية. [2]

إلا أنهم اختلفوا في تحديد تاريخ تدوينه وكيف وصل إلينا باللغة اليونانية، لأنه مقطوع السند إلى الكاتب والتاريخ. والراجح أن يوحنا صاحب الإنجيل الرابع هو الذي ترجمه في عهد الإمبراطور الروماني "كلاوديوس" (*) *Claudius*. وقد دون في الفترة ما بين سنة 37م وسنة 64م، أي قبل خراب أورشليم بحوالي ست سنوات، إذا ما اعتمدنا السنة الأخيرة. [3]

يبدو أن اليهود كانوا يحرفون الأناجيل نظرا لعداوتهم للمسيحيين، وأن الناصريين من اليهود الذين دخلوا في الملة المسيحية حرفوا الإنجيل العبراني. فهل نستطيع قبول هذا الإنجيل والحكم عليه بالصحة والأخذ منه في أمور الحياة؟

الحق أن الباحث لا يستطيع أن يجزم بتاريخ محدد، لغياب نص يرشد إلى ذلك. وقد كتب متّى إنجليه لليهود يبشر بالمسيحية، ويوجه خطابه للمؤمنين من اليهود خاصة. لذلك كتب باللسان العبري وفي أرض سكنها اليهود وهو الذي انفرد بتأليف أول إنجيل في منتصف القرن الأول الميلادي.

1– *أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 145.*

2– *يحي محمد علي ربيع، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، ط1، دار الوفاء، مصر، 1994م، ص ص 128-129.*

* – ***كلاوديوس*** *Claudius Nero Drusus، (ليون 10 ق.م-54م)، إمبراطور روماني (41-54م)، أبوه دروسوس الأكبر وعمه تيبريوس، وجده الجنود الرومان مختبئا وراء ستار في القصر عند مصرع كاليغولا Caligula فأخرجوه وأقاموه إمبراطورا، دعم الإمبراطورية ووسع رقعتها، زار بريطانيا وحولها إلى ولاية رومانية سنة 43م، دبر مقتل زوجته الثالثة، أما زوجته الرابعة أجريبينا الثانية فكانت ابنة أخيه، دست له السم بعد أن حرضته على تعيين ابنها نيرون خليفة له بدلا من ابنه بريتانيكوس، بعد مقتله خلفه نيرون. - Dic. Univ. Hist. Géo., p.424.*

3– *محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 41.*

2-إنجيل مرقس Saint Marc : (*) اسمه يوحنا ويلقب بمرقس، ليس من الحواريين وإنما من اليهود اللاويين. يعتبر إنجيله ثاني الأناجيل، وهو أقصرها وأقدمها. (1) ويتضمن الخطاب إلى جميع الأمم دون تحفظ على عكس إنجيل متّى، اختاره المسيح من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس-في اعتقادهم-من بعد رفعه، وألهموا التبشير بالمسيحية. (2)

ويذكر "أبو الفداء" أن مرقس كتب إنجيله بناء على طلب أهالي "رومية" وباللغة الرومية، أي كتب للرومان، ذلك أنه كان ينكر ألوهية المسيح. (3) بينما ذكر "محمد أبو زهرة" أن مرقس صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية وكتبه باللغة اليونانية، وشرح بعض كلماته باللغة اللاتينية. (4)

والحقيقة أن مؤرخي وكتاب المسيحية مثل "ابن البطريق" والدكتور "بوست" لم يناقضوا هذا الرأي الأخير. وقد اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي كتب فيه إنجيل مرقس، ويبدو أنه كتب بين سنتي 56م و63م. (5)

ويرى بعض الباحثين أنه كتب في الفترة ما بين سنتي 39م و75م. ونلاحظ بين التاريخ الأول والثاني فترة طويلة تصل إلى ست وثلاثين (36) عاما وهي فترة طويلة

* - **مرقس (.Mark (St**، اسمه "يوحنا" ويلقب بـ "مرقس"، لم يكن من الحواريين الإثنى عشر، لكنه أحد الإنجيليين الأربعة، أصله من اليهود، ولد في قورينائية وعاش في القرن الأول الميلادي مع أسرته في أورشليم في وقت ظهور المسيح، وهو من الأوائل الذين أجابوا دعوته، لازم خاله "برنابا" وبولس الرسول، مؤسس كنيسة الإسكندرية سنة 52م، رحل إلى أنطاكية مبشرا ثم إلى قبرص وشمال إفريقيا ودخل مصر فكانت مستقرا له، قتله الوثنيون بعد أن سجنوه وعذبوه سنة 52م، نقلت رفاته إلى البندقية خلال القرن التاسع الميلادي. *Dic. Univ. Hist. Géo., p.1181.*

1- يحي محمد علي ربيع، المرجع السابق، ص 29.

2- محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 42.

3- المختصر في أخبار البشر، المصدر السابق، ج1، ص 145.

4- محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 43.

5- داود علي الفاضلي، أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم، مكتبة المعارف، الرباط، 1986، ص.165.

لكتابة إنجيل يدعي أهله أنه كتاب وحي سماوي. [1] لكن معظم الباحثين يعتقدون أنه كتب فيما بين سنة أربع وستين (64) وسبعين (70) ميلادية. [2]

3-<u>إنجيل لوقا</u> <u>*Saint Luc*</u> **:** [*] اختلف الباحثون في أصله هل هو روماني أم أنطاكي من مدينة أنطاكيا؟ كما اختلف في نوع العمل الذي كان يمارسه، هل كان مصورا أم طبيبا؟ لكنهم اتفقوا على أنه من تلاميذ بولس، وأنه لم يكن من الحواريين لأنه لم ير المسيح (عليه السلام) ولم يسمع منه. [3] يعتبر إنجيله الإنجيل الثالث المقدس لدى النصارى، يتناول الأخبار والوصايا من الناحية الإنسانية. [4]

وقد ذكر "أبو الفداء" أن القديس لوقا كتب إنجيله بالإسكندرية باللغة اليونانية. [5] والمرجح أنه كتب في قيصرية [**] بفلسطين خلال مدة أسر بولس في روما سنة 61م. كما اختلف في السنة التي كتب فيها هذا الإنجيل بين سنتي 58 و64 م، ودون فيه ما سمعه من بولس، ولعله أضاف إليه جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من إنجيل مرقس بعد اطلاعه عليه. [6]

تدلنا مقدمة إنجيل "لوقا" على أن إنجليه كان عبارة عن رسالة وجهها إلى صديقه اليوناني "ثاوفيلس"، وكان يقصد تثبيت صديقه في إيمانه الجديد إذ يقول: « *.. **إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء***

---

[1]- *يحي محمد علي ربيع، المرجع السابق، ص 143.*

[2]- *داود علي الفاضلي، المرجع السابق، ص.165.*

* - ***لوقا*** *Saint Luc، ولد في أنطاكية ودرس الطب ومارسه بنجاح، لم يكن من أصل يهودي، رافق بولس وهو من تلاميذه، في أسفاره وشاركه في أعماله، وهو كاتب سفر أعمال الرسل، قتل في سنة 70م، كتب إنجليه قبل خراب أورشليم وبعد وفاة بطرس وبولس.* - *Dic. Univ. Hist. Géo., p.1130.*

[3]- *الشهرستاني، المصدر السابق، ج2، ص 36.*

[4]- *الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم، ج2، ص 364.*

[5]- *المختصر في أخبار البشر، ج1، ص 145.*

** - ***قيصرية،*** *Caesarea بلدة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، كانت قديما من أعيان أمهات المدن. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 478.*

[6]- *داود علي الفاضلي، المرجع السابق، ص.165.*

معاينين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به...». [1]

يستنتج الباحث من كلام لوقا أنه لم يدع في صدر حديثه أنه يكتب بإلهام من الروح المقدسة، بل يصرح أنه يكتب من اجتهاده الشخصي لأنه تتبع كل شيء بتمعن منذ البداية.

4-<u>إنجيل يوحنا</u> <u>*Saint Jean* :</u> (*) يعتبر آخر الأناجيل، وينسب هذا الإنجيل الرابع إلى يوحنا الرسول أحد تلاميذ يوحنا المعمدان. وكان من أقرب وأحب التلاميذ إلى المسيح (عليه السلام)، فهو الذي اتكأ على صدره في العشاء الأخير، [2] وله سلم المسيح أمه وهو على الصليب ليعتني بها. [3] وقد كتب "يوحنا" إنجليه بأفسوس *Ephesus* (**) باللغة اليونانية. ويعتقد أغلب الباحثين أن يوحنا كان أول أسقف بأفسوس التي توفي بها. [4]

وقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوينه، والأرجح أنه كتب في أواخر القرن الأول الميلادي. [5] ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كتب في سنة 95م أو 98م وقيل 96م.

1– لوقا، الإصحاح 1: 1-4.

** – **يوحنا**، Jean (St.)، هو يوحنا بن زبدي الصياد، أحد الحواريين، ولد في بيت صيدا من أعمال الجليل بفلسطين، كان المسيح يحبه، وهو الذي طلب منه المسيح أن يحضر أمه وهو على الصليب، ضعف وعجز عن الوعظ في أواخر أيامه، كتب إنجيله ورسائله الثلاث، وسفر الرؤيا باللغة اليونانية، ألقي عليه القبض سنة 95م واقتادوه إلى روما حيث رماه الإمبراطور "دومتيانوس" في زيت يغلي، لكنه لم يصب بأذى، وقد لبث يبشر بالمسيحية بآسيا الصغرى حتى توفي شيخا في حوالي سنة 100 أو101م.* - *Dic. Univ. Hist. Géo., p.952.*

2– يحي محمد علي ربيع، المرجع السابق، ص 32.

3– يوحنا، الإصحاح 19: 27.

*** – **أفسوس** (Ephesus)، مدينة يونانية قديمة على بحر إيجة، مركز تجاري هام منذ القرن الثامن ق.م، ومركز ديني هام لوجود معبد أرتميس (Artemis)، قام القديس "بولس" بالتبشير فيها، انعقد بها مجمع أفسس الأول سنة 431م، تقع بقاياها قرب قرية "سلجوق" في مقاطعة إزمير التركية حاليا.* *-Dic. Univ. Hist. Géo., p.607.*

4– أبو الفداء، المصدر السابق، ج1، ص 145.

5– يحي محمد علي ربيع، المرجع السابق، ص 160.

حيث اجتمع أساقفة آسيا وطلبوا من "يوحنا" أن يكتب عن المسيح وينادي بإنجيل مما لم يكتب في الأناجيل الثلاثة السابقة، وطلبوا منه إثبات ألوهية المسيح. (1)

لذلك كان إنجيل "يوحنا" من أكثر الأناجيل شأنا وخطرا في نظر الباحثين لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح. الأمر الذي جعل الكثيرين يشككون في صدق القول بأن واضعه هو "يوحنا". كما يؤكد من جهة أخرى مناقضة هذا الإنجيل للأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح. (2)

ويلاحظ الباحث أن هذه الأناجيل الأربعة التي سبق ذكرها، لم تنزل على عيسى (عليه السلام) لكنها منسوبة إلى بعض تلاميذه وحوارييه. وقد كتبت بعد مدة طويلة من زمن المسيح، أي أنها كانت متأخرة عن زمانه. لذلك يتساءل الباحث: هل هناك إنجيل يعد إنجيل عيسى غير الأناجيل الأربعة المذكورة آنفا؟ وهل في كتابات مؤرخي المسيحية ما يثبت أن هذا الإنجيل كان موجودا فعلا؟

من خلال اطلاعي على الأناجيل وجدت عبارات تذكر كلمة "بشارة" (وهي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية). وقد وردت هذه الكلمة في إنجيل متّى ما نصه (3):« ***وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض، وكل ضعف في الشعب.*** » يبدو أن عبارة بشارة الملكوت هي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية. (4)

وورد في إنجيل مرقس: «***بعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.*** » (5)

1– *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 49.*

2– *داود علي الفاضلي، المرجع السابق، ص.167.*

3- *St. Matthew: 4: 23.*

4 – *رفائيل نخلة اليسوعي، المرجع السابق، ص 254.*

5- *St. Mark: 1: 14-15.*

وجاء في رسالة "بولس" إلى أهل رومية [1] واشتياقه إلى زيارة روما، ومما ورد في الإصحاح الأول: « ***أولا أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم، أن إيمانكم ينادى به في كل العالم، فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم، متضرعا دائما في صلواتي عسى الآن أن يتيسر لي مرة بمشيئة الله أن آتي إليكم.*** »

وهكذا نجد كلمة "إنجيل" أو كلمة "بشارة" تأتي مضافة إلى ملكوت الله، أو إنجيل الابن، أو غير مضافة كما هي في إنجيل متّى. ويؤكد مؤرخو المسيحية بوجود رسالة في القرن الأول الميلادي تعتبر أصلا لهذه الأناجيل وما جاء به المسيح (عليه السلام). وهي ما يمكن أن نسميه الإنجيل الأصلي، ويقر هؤلاء المؤرخون بأن هذا الإنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب. [2] إلا أن هذا الإنجيل اندثر وطمست أخباره ولم يعد له وجود، وهو الذي ذكر في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة. [3]

<u>سادسا-الفرق المسيحية القديمة</u>: نشأت الفرق المسيحية مع بداية الخلاف حول طبيعة المسيح، حيث اختلفت الآراء وتباينت وتعددت قرارات المجامع الكنسية حول هذه القضية. لذلك أتناول الفرق المسيحية القديمة بالدراسة والتحليل مبينا رأيها ومعتقداتها وموقفها من المسيح، فيما يتوافق مع حدود البحث، مركزا على الفرق الرئيسية الأربعة مع ذكر بعض الفرق التي تفرعت عنها.

1-**<u>الأريوسية</u>** <u>*Arianisme*</u>: ظهرت هذه الفرقة في أوائل القرن الرابع الميلادي، حينما بدأ "أريوس الإسكندري" (*) في نشر مذهبه سنة 312م، والأريوسيون هم أتباعه الذين

---

1 – *رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح الأول، 8-10.*

2– *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 52.*

3– *سورة آل عمران، الآيات 3، 48، 65، سورة المائدة، الآيات 46، 47، 66، 68، 110، سورة الأعراف، الآية 157، سورة التوبة، الآية 111، سورة الفتح، الآية 29، سورة الحديد، الآية 27.*

*– *أريوس **Arius** الإسكندري، (256م-336م)، ولد في "قورينائية" أو "الاسكندرية"، أسقف كنيسة الإسكندرية التي قاومها منذ أوائل القرن الرابع الميلادي والتي كانت تقول بألوهية المسيح، يلقب برشيد قومه، وهو أكبر تلاميذ "مار بطرس"، أعلن سنة 312م أن عيسى ليس إلها وأنه عبد مخلوق، قاوم عقيدة التثليث، أدانه مجمع نيقية المنعقد سنة 325م. - Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 1113-1114.*

قالوا: أن عيسى ليس إلها، وإنما عبد الله مخلوق كسائر الأنبياء والرسل، [1] وأنه كلمة الله التي خلق بها السماوات والأرض. [2]

ظهرت الأريوسية في زمن "قسطنطين" الذي بنى مدينة القسطنطينية، [*] وهو أول من تنصر من الأباطرة الرومان سنة 313م، وكان على مذهب "أريوس". [3]

وذكر "الشهرستاني": «***أن أريوس زعم أن الله واحد، سماه أبا، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء، وهو مخلوق قبل خلق العالم، وهو خالق الأشياء.*** » [4] وانتشر هذا المذهب بعد وفاة "أريوس" سنة 336م عند القوط [**] واللومبارديين [***] والوندال الذين عملوا على نشره في المغرب القديم. [5]

والحقيقة أن مذهب الأريوسية بدأ في الاضمحلال بعد مجمع نيقية سنة 325م، وما زال يتناقص حتى انقرض في بداية النصف الثاني من القرن السابع الميلادي. [6]

---

[1]– ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص 197.

[2]– داود علي الفاضلي، المرجع السابق، ص.234.

** – **القسطنطينية:** " Constantinople»: عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية العثمانية، سميت باسم "قسطنطين" الذي بناها بموقع " بيزنطة" –Byzance– في الفترة (324م–336م) وتم تدشينها سنة 330م، فتحها السلطان "محمد الفاتح" سنة 1453م، أطلق عليها الأتراك اسم "إسطنبول"، أقيمت على سبعة تلال على مضيق البوسفور، كانت أكبر مدينة في أوروبا في العصور الوسطى، بلغ مجموع سكانها في القرن العاشر مليون نسمة، محمود محمد محفوظ، المرجع السابق، ج3، ص 1380. - Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 453-454.*

[3]– ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 109.

[4]– الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 227.

*** – **القوط**، شعب من الشعوب الجرمانية القديمة، ينحدر من الجوتار في جنوب السويد، انقسموا في القرن الرابع (4م) الميلادي إلى قسمين: القوط الغربيين، والقوط الشرقيين، كانوا حلفاء للإمبراطورية الرومانية وديانتهم الآريوسية، محمود محمد محفوظ، المرجع السابق، ج3، ص 1890.. - Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 778.*

**** – **اللومبارديون**، ينسبون إلى لومبارديا Lombardia ، وهي منطقة وسط إيطاليا، غزتهم روما في القرن الثالث قبل الميلاد.. - Dic. Univ. Hist. Géo., pp.1108-1109.*

[5]- الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم، المرجع السابق، ج2، ص 369.

[6]- Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 113.

2-**النسطورية** [*] ***Nestorianisme***: ظهرت هذه الفرقة في أوائل القرن الخامس الميلادي. يذكر "أحمد سوسة" أن الفرقة النسطورية ظهرت سنة 431م كفرقة مناوئة لكنيسة القسطنطينية. [1] ترى أن للمسيح طبيعتان وجوهران أحدهما لاهوتي والآخر ناسوتي لهما مشيئة واحدة. [2] وأن القتل والصلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وأن مريم لم تلد الإله وإنما حملت بالمسيح وولدته من جهة ناسوته[3].

وحسب "الشهرستاني" فقد قالت النسطورية: « ***أن الله تعالى واحد ذو ثلاثة أقانيم، اتحدت الكلمة بجسد عيسى (عليه السلام) لا عن طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا عن طريق الظهور كما قالت اليعقوبية، بل إن الكلمة أشرقت على جسد المسيح كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وظهور النقش على الشمع إذا طبع الخاتم.*** » [4]

يتضح من النص السابق أن النسطورية ترى أن مريم لم تلد إلها بل ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني، وهذا الإتحاد ليس بالمزج كما قالت الملكانية وجعلهما شيئا واحدا، وليس اتحادا حقيقيا كما قالت اليعقوبية، بل اتحادا مجازيا، لأن الإله منح المسيح المحبة، ووهبه النعمة، فصار بمنزلة الابن، فالنسطورية إذن ترى أن المسيح لم يكن فيه عنصر إلهي قط، ولم يكن إلها ولا ابن إله.

---

*- تنسب إلى "**نسطوريوس**" Nestorius (380م-451م) ولد في جرمانيقية قيصرية بسورية، نصبه الإمبراطور "ثيودوسيوس الثاني" (408-450م) بطريركا على القسطنطينية سنة 428م، وقد اعترض على تسمية "مريم العذراء" بوالدة الإله، فكفر وعزل من منصبه، وانعقدت بذلك ثلاث مجامع دينية في "أفسوس" Ephesus "431م، و"خلكيدونية " Chalcedon " 451م، و"القسطنطينية" 553م، توفي سنة 451م في إحدى واحات ليبيا، وبعد وفاته أمر "ثيودوسيوس الثاني" بإحراق جميع كتاباته. المسعودي، التنبيه والإشراف، مطبعة بريل، ليدن، 1893م، ص 148.*

Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 1340 ; Bergier M. (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, p. 578.

1- *أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 95.*

2- *ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 196.*

3- *المقريزي، المصدر السابق، ج4، ص 422.*

4- *الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 224.*

وكانت النسطورية منتشرة في العراق والموصل والجزيرة وبلاد فارس والهند. ويلتزم النسطوريون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به غيرهم من الكنسيين، إلا أن أساقفتهم يلتزمون التبتل والامتناع عن الزواج. [1] وقد انقرضت هذه الفرقة لأن المجامع الدينية بدء بمجمع أفسوس الأول سنة 431م عزلت "نسطوريوس" وكفرته، وأبعد عن منصبه ونفي إلى مصر وتوفي بمنفاه سنة 451م. [2]

يشير "الشهرستاني" [3]: « **أن نسطوريوس ظهر في زمان المأمون**[*] » . ويذكر "ابن الأثير" في السياق نفسه [4] « **من العجائب أن الشهرستاني وهو مصنف كتاب الملل والنحل، يذكر أن نسطور كان أيام المأمون وهذا تفرد به، ولا أعلم له في ذلك موافقا.** »

والواقع أن ذلك مخالف للحقيقة التاريخية، حيث أن المأمون عاش في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وتولى الخلافة سنة 813م، [5] في حين أن "نسطوريوس" توفي سنة 451م، أي في منتصف القرن الخامس الميلادي.

3-**<u>الملكانية</u>** [**] <u>*Monarchianisme*</u>: ظهرت هذه الفرقة في منتصف القرن الخامس الميلادي، وهي مذهب جميع ملوك النصارى باستثناء الحبشة وبلاد النوبة، ومذهب

1- *البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص 288.*

2- محمد *أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 146.*

3- الشهرستاني، *المصدر السابق، ج1، ص 224.*

*- ***المأمون**، (170-218هـ/ 786-833م)، هو عبد الله بن هارون الرشيد، سابع الخلفاء الراشدين من بني العباس في العراق، أحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، كانت مملكته تمتد من إفريقيا غربا إلى خراسان وما وراء النهر والسند شرقا، يلقب بالإمام العالم، تولى الخلافة بعد خلع أخيه سنة 198هـ/ 813م، أنشأ بيت الحكمة وقرب إليه العلماء والفقهاء، ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 144.*

4- *ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص 332.*

5- *أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 215.*

** - *يسمى أتباعها أيضا " **الملكيون**-Melkites " أي أعوان الإمبراطور نسبة إلى الملك مرقيانوس الذي أيد قرارات مجمع خلقدون سنة 451م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية (القائلة بطبيعة واحدة للمسيح)، وقد لقبهم مخالفوهم بهذا اللقب ازدراء منهم ووقوفهم في صف الملك مرقيانوس. محمود محمد محفوظ، المرجع السابق، ج4، ص ص 2329-2330.*

جميع نصارى إفريقية، وصقلية والأندلس وبلاد الشام. [1] وهم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية.[2] وقيل الملكانية نسبة إلى ملك الروم. [3]

وحسب "الأسد آبادي" فإن قولهم في طبيعة المسيح: « **أن القديم جوهر واحد ذو أقانيم ثلاثة، وأن الأقانيم هي الجوهر، والجوهر غير الأقانيم.** » [4]

أي أن الرب عبارة عن ثلاثة أشياء: أب وابن وروح القدس، وأن عيسى إله تام كله، وإنسان تام كله، وليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل (الناسوت) وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك (اللاهوت). [5] وأن مريم ولدت الإنسان والإله، وأنهما معا شيء واحد. [6]

وقد ظهرت الملكانية كرد فعل على مذهب النسطورية التي قالت بأن للمسيح أقنومين كاملين، على العكس من ذلك ترى المونوفيزية (*) أن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية التي تلاشت فيها الطبيعة الإنسانية. [7] وعنهم أخبرنا القرآن الكريم، قال تعالى[8]:﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**﴾.

1– *البيروني، المصدر السابق، ص 288.*

2– *الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 222.*

3– *فخر الدين الرازي، إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ص 115.*

4 – *الأسد آبادي، المصدر السابق، ج5، ص 81.*

5 – *ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 196.*

6– *ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 111.*

* – ***المونوفيزية***، *Monophysites: مذهب الطبيعة الواحدة، ظهر في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، بعد انتشار آراء أوطيخا (Eutychès) التي رفضها مجمع خلقدون سنة 451م. Dic. Univ. Hist. Géo., p.1277. -* محمود محمد محفوظ، الموسوعة العربية الميسرة، ج4، ص 2394.

7 – *المرجع نفسه، ج4، ص 2393.*

8 – *سورة المائدة، الآية 73.*

ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن الملكيين منهم الكاثوليك الذين يعترفون برئاسة بابا روما، ويسمون الروم الكاثوليك، وتعد الكاثوليكية اليوم امتدادا لهذه الفرقة. ومنهم الأرثوذكس الذين لا يعترفون بهذه الرئاسة ويسمون الروم الأرثوذكس. (1) والملكانية منتشرة اليوم في سوريا ومصر وفلسطين وكنيستهم تسمى كنيسة الروم. (2)

خلاصة القول أن الملكانية ترى أن للمسيح طبيعتين لاهوتية وناسوتية، وهذا مذهب الكاثوليك الذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون وهم: الأب، الابن، والروح القدس.

د-**اليعقوبية** (*) *Jacobinisme*: ظهرت هذه الفرقة في منتصف القرن الخامس الميلادي. وهي فرقة مسيحية تنسب إلى "يعقوب البردعي"، تعد إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح. (3) "قام البردعي" بزيارات عديدة في أرجاء العالم المسيحي الشرقي بهدف بعث الحياة في نفوس مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيين) وتنظيمهم تنظيما قويا. (4)

ويشير "الرازي" (5): « **أن اليعقوبية ترى أن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح كاختلاط الماء باللبن.** » أي أن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين: إحداهما طبيعة الناسوت، والأخرى طبيعة اللاهوت، وأن هاتين الطبيعتين تركبتا فصارا

---

1 – *محمود محمد محفوظ، المرجع السابق، ج4، ص 2330.*

2 – *أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 105.*

* – ***اليعقوبية*** *أو اليعاقبة Jacobites ، هم أتباع يعقوب البردعي Baradaeus Jacobus (505 – 578م) راهب سوري، عينه الإمبراطور ثيودوسيوس أسقفا لمدينة أديسا Edessa " الرها" في شمال بلاد النهرين سنة 541م، لقب بالبرادعي لأن لباسه كان من خرق برادع الدواب، وعرف أيضا بالزلزل لأنه زلزل الإيمان الكاثوليكي في بلدان آسيا، وكان يعتقد أن جسد المسيح غير قابل للآلام وأن ما ذاقه من الآلام في الصلب كان خياليا، عكس ما كان يعتقده نسطوريوس، توفي بمدينة الرها سنة 578م. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 338.*

-Dic. Univ. Hist. Géo., p.943.

3 – *محمود محمد محفوظ، المرجع السابق، ج4، ص 2648.*

4 – *آيدرس بل، المرجع السابق، ص 174.*

5 – *الرازي، المصدر السابق، ص 115،*

إنسانا واحدا وجوهرا واحدا هو المسيح. [1] بينما يذكر "الشهرستاني": « **أن اليعاقبة قالوا بالأقانيم الثلاثة، ولكنهم قالوا بأن الكلمة صارت جسدا ودما، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده، بل هو هو.** » [2]

وجاء ذكرهم في القرآن الكريم قال تعالى:﴿ **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ.** ﴾ [3] وفي نفس السياق يورد عنهم "ابن قيم الجوزية" [4]: « **وقالوا إن مريم ولدت إلها، والقتل والصلب وقع على الجوهر الذي هو من جوهرين، كاتحاد الماء يلقى على الخمر فيصيران شيئا واحدا.** » [5]

الحق أن اليعقوبية ظهرت في منتصف القرن الخامس الميلادي، إلا أنها تنسب إلى "يعقوب البردعي" الذي ظهر في بداية القرن السادس الميلادي لأنه كان من أنشط دعاتها، وكانت أكثر اليعاقبة منتشرة في مصر والنوبة (*) والحبشة والأرمن (**)، وتعد الكنيسة الأرثوذكسية اليوم امتدادا لليعقوبية. [6] وذكر "المسعودي" [7] اليعاقبة فقال: « **اليعقوبية هم نصارى وديارهم مما يلي الموصل وجبل الجودي.** (***)»

1– *ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 195.*

2– *الملل والنحل، ج1، ص ص 225-226.*

3– *سورة المائدة، الآية 72.*

4– *ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص 195.*

5– *ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 117.*

* – ***النوبة***، *بلاد واسعة عريضة جنوبي مصر، وهم نصارى أهل شدة في العيش، بلادهم بعد أسوان، ويغتسلون من الجنابة ويختتنون. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص ص 308-309.*

** – ***الأرمن***، *وهم سكان أرمينية بجانب أذربيجان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 160.*

6– *محمد أحمد الحاج، المرجع السابق، ص 203.*

7– *مروج الذهب، ج2، ص 101.*

*** – ***جبل الجودي***، *جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح لما نضب ماء الطوفان، ويقع جنوب شرق الأناضول (تركيا حاليا) وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى:* ﴿ ***وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين*** ﴾ *سورة هود: الآية 44، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 179، خالد فائق العبيدي، الآثار والتاريخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ص ص 12-13.*

نستنتج مما سبق أن اليعاقبة يعتقدون أن المسيح جوهر واحد وأقنوم واحد، ولكنه جوهر من جوهرين، أو هو طبيعة من طبيعتين، إحداهما إلهية والأخرى إنسانية، ولكنهما تركبتا كما تركبت النفس والبدن. وقد يجد الباحث في هذا الموضوع أن هناك فرق أخرى تفرعت عن هذه الفرق الكبرى – السابقة الذكر–وعقائدها إما أنها بقايا الوثنية، أو مزيج من اليهودية والنصرانية ومنها:

1–**<u>الناصريون</u>** *Nazarenes*: ظهرت فرقة الناصريين في أوائل القرن الأول الميلادي، أي في عهد بولس الرسول (10–67م). وهي الفرقة التي أقرت رسولية بولس، ويصفهم الربانيون(*) بأنهم جماعة من الهراطقة (**) اليهود ظهروا بغور الأردن. [1]

يرى بعض المؤرخين أنهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لإنجيل متّى كالأبيونيين، ويقولون بألوهية المسيح (ابن الله) وأنه مولود مريم العذراء. [2] وفي ذلك يخالفون مذهب أبيون (*Ebion*). [3] وقد حافظوا على ناموس موسى وشريعته وإن لم يلزموا بها المسيحيين من غير اليهود.

** – الربانيون Rabbinites : من أكبر فرق اليهود، والربان هو الحبر أو الحاخام، كتابهم التلمود، وهو أعلى منزلة عندهم من التوراة، وتناقضهم فرقة القرائين Karaites ، وقد أطلقوا على أنفسهم لقب "الإخوان" أو " الرفقاء" Compagnons ، عبد المنعم الحفني، موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م، ص 115.*

*** –الهراطقة Hérésie: ذكر هذا المصطلح في المصادر اليهودية القديمة في نهاية عهد الهيكل الثاني، وفي القرون الأولى من ظهور المسيحية، وقد أطلق على الوثنيين أو الملحدين Païens وكل من يتبع أساليبهم وطرقهم ويخالف الشريعة اليهودية.*

- Jean Christophe Attias, Op.cit., pp. 121- 122.

[1]– عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص 236.

[2]– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص ص 635–636.

[3]– عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص ص 236–237.

2-**الكسائيون**[*] *Elkesaïtes* : فرقة ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن، وقد نبعت من اليهودية. [1]

والكسائيون موحدون، وشريعتهم هي شريعة موسى، غير أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والحساب والعقاب. [2] لذلك استمرت هذه الفرقة تحافظ على الختان وحرمة السبت وسائر أحكام الشريعة الموسوية. [3] وذكر "عبد المنعم الحفني" [4]: أنهم قاموا بالاغتسال في النهر بقصد التطهر لذلك سموا بـ"المغتسلين".

3-**السبيليون** [**] *Sabelliens*: مذهب هرطقة ظهر في القرن الثالث الميلادي، ويهدف هذا المذهب إلى تقليص تميز الأقانيم الثلاثة في عقيدة التثليث. [5]

4-**الأبيونيون** [***] *Ebionites*: فرقة من اليهود المتنصرين تنسب الى مؤسسها أبيون. عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي ربما تعني الفقراء، لأنهم كانوا من نكرات اليهود. وقيل ربما هذا الاسم هو الذي أطلقوه على أنفسهم بمعنى أنهم الفقراء إلى الله. ظهرت هذه الفرقة وانقرضت في القرن الرابع الميلادي. [6]

** - نسبة إلى " **الكسائي**" Elkessai مؤسسها الأول، وقيل نسبة إلى رجل اسمه القصي أو القاصي مشتق من الأرامية بمعنى المستتر، وقيل معناها اللغوي " القوى الخفية" في لغة بني إرم، وقد تعني المتخفون تحت الكساء، وقيل الكساء هو الكتاب المنسوب إليهم، جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 636.*

1- عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص 184.

2- عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص ص 183 -184.

3- جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 636.

4- موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص 184.

***- هم أتباع مذهب "السبيلية" **Sabellianisme** الذي أسسه سابيليوس Sabelius صاحب هذه البدعة التي ظهرت في القرن الثالث الميلادي. - Dic. Univ. Hist. Géo., p.1657.*

5- جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص 624.

**** - نسبة إلى **أبيون Ebion** مؤسس الفرقة، كتابهم المقدس الناموس (الأسفار الخمسة) وهي تسمية عبرانية الأصل تعني الفقراء إلى الله، وهم ينكرون ألوهية المسيح، وبذلك فهم يخالفون الكسائيون. المرجع نفسه، ج6، ص 635. Dic. Univ. Hist. Géo., p.578.*

6- عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص 48.

وكانت هذه الفرقة تتمسك بالناموس، وتقر جميع شرائع موسى، وعندهم أن المسيح ورث الشريعة عن موسى، وأنه لا كتاب سوى الأسفار الخمسة. [1]

وتعتبر عيسى هو المهدي المنتظر وترفض الإقرار بألوهيته. وقد ذهب فريق من الأبيونيين مذهب الغنوصيين، [*] فقالوا: أن المسيح هو آدم، وقال فريق آخر بأنه الروح القدس حل بآدم ثم بالآباء، وأخيرا حل بعيسى فلما صلب عيسى صعد الروح القدس الذي هو المسيح إلى السماء. [2]

5-**المارونية** [**] *Maronisme*: ظهرت هذه الطائفة في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين، وتنسب إلى القديس مارون، ويسمى أتباعه المارونيين، وكانت له اتصالات مع يوحنا فم الذهب *Jean Chrysostome* أسقف القسطنطينية في منفاه. (الشكل 20 ص 225).

يرى أصحاب هذه الملة أن المسيح ذو طبيعتين، لكنه ذو إرادة أو مشيئة واحدة، وهي المشيئة والإرادة الإلهية لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد. [3]

وقد شايعه في هذا الرأي بعض مسيحيي آسيا، لذا اجتمع مجمع القسطنطينية السادس سنة 680م وأصدر قرارا بتكفير يوحنا مارون ولعنه وطرده. ونزلت بأصحاب

1- *عبد المنعم الحفني، المرجع نفسه، ص 49.*

* - *نسبة إلى كلمة "غنوصية" **Gnosis**، الإغريقية والتي تعني المعرفة، وهي حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر الهلينستي وأساسها أن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر مما يتم بالإيمان والأعمال الخيرة. محمود محمد محفوظ، المرجع السابق، ج3، ص 1698.*

2- *عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص 48.*

** - *تنسب إلى يوحنا **مارون Jean Maron**، قديس عاش في القرن الخامس، عين أسقفا في سنة 405م، تنسك في القورشية (سوريا الشمالية)، اتصل به يوحنا فم الذهب Jean Chrysostome أسقف القسطنطينية في منفاه، كتب سيرته ثيودوريتس، وإليه ينسب الموارنة، وتلاميذه هم رهبان دير مارون الشهداء الثلاثمائة والخمسون (350) الذين قتلهم المونوفيزيون لأمانتهم لمجمع خلقدون سنة 451م، توفي سنة 433م. - Dic. Univ. Hist. Géo., p.1196.*

3- *محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 147.*

هذا المذهب اضطهادات شديدة دفعتهم إلى الفرار واللجوء إلى جبل لبنان واعتصموا به. ولا زالت هذه الطائفة موجودة في جبل لبنان حتى اليوم.

6-**البربرانية (*):** فرقة مسيحية ظهرت في القرن الخامس الميلادي، يقول أصحابها أن عيسى وأمه مريم إلهان من دون الله عز وجل. (1)

يذكر "ابن حزم" أن أصحاب هذه البدعة كانوا من الوثنيين الذين يعبدون الزهرة، وحينما اعتنقوا المسيحية شبهوا إلهتهم بمريم وأطلقوا عليها اسم إلهة السماء. (2)

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يقولون بألوهية مريم في قوله تعالى: (3) ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّه** ﴾، وقوله تعالى(4) أيضا: (**بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُل شَيْءٍ عَلِيمٌ**).

ويرد القرآن الكريم على هذه الفرقة التي كانت تقول بألوهية المسيح وأمه معا في قوله تعالى(5):﴿ **مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِديقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ ٱلطَّعَامَ** ﴾.

وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض في نهاية القرن الثالث الميلادي، ويبدو من ذكرها في القرآن الكريم أنه كان لا يزال لها أتباع إلى مطلع القرن السابع الميلادي.

---

* – *تسمى هذه الفرقة أيضا **المريميون** نسبة إلى مريم العذراء، وقد شبهها أتباع الفرقة بإلهة السماء عند الرومان فينوس "Venus"، ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص 110.*

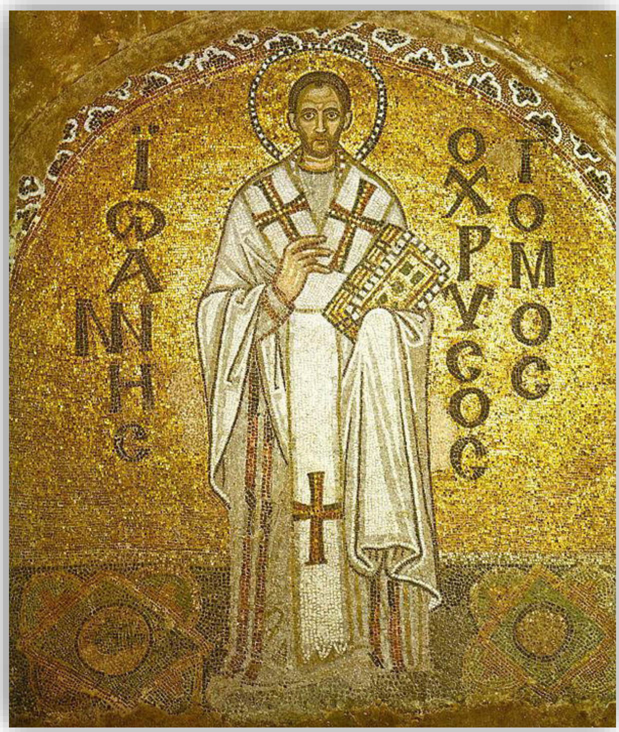
1- *Bergier M. (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, pp. 578-581.*

2- *ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص 110.*

3- *سورة المائدة: الآية 116.*

4- *سورة الأنعام: الآية 101.*

5- *سورة المائدة: الآية 75.*



الشكل رقم 20:

يوحنا فم الذهب *Jean Chrysostome* أسقف القسطنطينية.

نقلا عن: *https://upload.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/20.

وفي هذا السياق يقول "ابن تيمية" [1]: « **ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا، وقال آخر: لو سألت أحد النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم، لقال الرجل قولا وامرأته قولا وابنه قولا ثالثا.** »

خلاصة القول أن النصارى يختلفون في طبيعة المسيح (**عليه السلام**) وهم لا يدركون حقيقة عقيدة التثليث بدليل اختلافهم وتباين فرقهم في هذا الموضوع، وعلاوة عن كون هذه العقيدة تصطدم بالفطرة السليمة والعقل البشري، فإنه لا يوجد لها سند من الوحي أو حتى من النصوص الأصلية المنزلة. وقد نشأت هذه الفرق مع بداية الخلاف حول طبيعة المسيح، وبقي الخلاف مستمرا، فموضوعه بقي مبهما ولم يتوصل فيه النصارى إلى رأي صريح موحد.

المبحث الثالث–ظهور المسيحية في المغرب القديم: أثار ظهور المسيحية في المغرب القديم نقاشا واسعا بين المؤرخين والباحثين خاصة ما تعلق بتاريخ ظهورها، وطرق انتقالها وانتشارها في بلاد المغرب القديم.

فقد وصف بعض المؤرخين المسيحية في المغرب القديم خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، بأنها كانت بمثابة الصفحة البيضاء في تاريخ التنصر، دلالة على كون هذا الدين الجديد ظل يكتنفه الغموض ويحيطه الصمت منذ ظهوره في فلسطين في عهد الإمبراطور "تيبريوس قيصر" [*] (*Tibérius Caesar*) والذي حمله عيسى (**عليه السلام**) وجمع حوله بعضا من أنصاره داعيا إلى الله.

---

[1]– *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج2، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، 1963م، ص 155.*

* – ***تيبريوس** قيصر (Tibérius Caesar)، (42 ق.م-37 م) ثاني إمبراطور روماني، (14م–37م) بعد أغسطس Augustus (27 ق.م–14م)، للمزيد أنظر أعلاه، ص. 185.*
- Dict. Univ. Hist. Géo., p.1877.

وبدأ الحواريون (*) الإثني عشر (12) في الانتشار في مختلف جهات العالم القديم لينشروا هذا الدين كما أمرهم المسيح (عليه السلام) بذلك، إلى أواخر القرن الثاني الميلادي أي في حوالي سنة مئة وثمانون (180) للميلاد، وهي السنة التي جرت فيها أول عملية إعدام مسيحيين (**) بقرية شيلي(***) (*Scili*).[1]

ويرجع بعض مؤرخي المسيحية (****) في المغرب القديم هذ الصمت إلى السرية التي كان يحيط بها معتنقو هذه العقيدة حركتهم الدينية، تجنبا للاضطهاد والمتابعة من طرف الأباطرة الرومان الذين كانوا يلاحقونهم لاختلافهم معهم في الديانة وما تشكله عليهم من خطر في بلاد المغرب، لأنهم كانوا على الديانة الوثنية.

فقد أمر البروقنصل بقطع رؤوس اثني عشر (12) مسيحيا في قرية شيلي في 17 جويلية سنة 180م. ومع ذلك فقد عرف المغرب القديم الديانة المسيحية قبل هذا التاريخ حسب ما ذكره "ج. ب. ميناج" (*J.P.Mesnage*) و"بول ألار" (*Paul Allard*). وإعدام هؤلاء المسيحيين في قرية "شيلي" أدى إلى ارتفاع عدد معتنقي هذه الديانة الجديدة في بلاد المغرب القديم، والخطر الذي أصبحوا يشكلونه على عبادة

---

* – ***الحواريون***، *باللغة اللاتينية (Apostolus-Apostoli)، أصل الكلمة من "ح و ر" أي الصفوة التي أخلصت في تصديقها ونصرتها لعيسى، وهناك من ردها إلى الأثيوبية من كلمة "حواريا" أو العبرية من "حبور" و معناها تلميذ وجمعها تلاميذ المسيح. للمزيد أنظر أعلاه، ص. 203.* *-Dict.Univ. Hist. Géo., p. 96.*

** – *ذكر بعض المؤرخين أسماء الشهداء وهم: سبيراتوس – نازيراتوس – ستينوس – فتوريوس – فليكس - أكيلينوس - كالستينوس – دوناتا – فاسيا – جانواريا – جنيروزا – وسوغاندا.* - *Cuoq (Joseph.), l'église d'Afrique du nord du II^e au XII^e siècle, Paris, éditions du centurion, 1984, p.15.*

*** – ***شيلي*** *أو شيليوم (Scili- Scillium)، برج هلال حاليا، حسب "ميناج" فهي مدينة تقع في مقاطعة البروقنصلية (Proconsulaire)، تعتبر من المدن المحصنة التي تقدر مساحتها ما بين ثلاثة (3) وعشرة (10) هكتار.* *Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne, Évêchés et ruines antiques, d'après les manuscrits de Mgr.Toulote et les découvertes Archéologiques les plus récentes, Paris, Ernest Leroux, 1912, p.219 ; Paul Allard, Histoire des persécutions, 1903, p.459.*

1- *Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du nord, Alger, Sned, 1978, p.186.*

**** – *نذكر منهم:* *-Tertullien, Apologétique, trad. J.P.Waltzing, Paris, Bloud et Gay, 1914.*

الإمبراطور وعلى السلطة الرومانية برمتها. وحسب "ترتوليانوس" [*] (*Tertullianus*) فإن عملية إعدام المسيحيين سنة 180م تمت على يد البروقنصل "فيجليوس ساتورنينوس" [**] (*Vigéllius Saturninus*) وهي أول عملية اضطهاد وقعت في إفريقيا البروقنصلية في ظل الاحتلال الروماني.[1]

رغم وقوع هذه الاضطهادات فإن المؤرخين وعلماء الآثار لم يتمكنوا من العثور على أدلة مادية أو كتابية تشير إلى تاريخ ومكان محدد لظهور المسيحية في المغرب القديم. واعتقد – حسب نصوص "ترتوليانوس" التي اطلعت عليها – أن الميسحية دخلت إلى بلاد المغرب القديم في أواخر القرن الثاني للميلاد.

يذكر "الثعالبي" [***] مستندا في رأيه إلى "وهب بن منبه" [****] أنه: « **بعد رفع المسيح، تفرق الحواريون، فاتجه شمعون– بطرس إلى روما، وأندري ومتّى إلى بلاد آكلي لحوم البشر** [*****] (***Anthropophages***)**، وتوما إلى الشرق الأدنى والهند، وفيليبس ويهوذا نحو**

---

* – ***ترتوليانوس***، *Quintus Septimius Florens Tertullianus*، *مؤرخ مسيحي ومؤسس الأدب النصراني اللاتيني، من أكبر المدافعين عن العقيدة النصرانية – Apologiste – ولد بقرطاجة في حوالي 160م وتوفي بها في حوالي 240م، كان وثنيا ثم اعتنق المسيحية، سافر إلى روما سنة 204 م وبعد عودته اعتنق المونتانية (Montanisme) وهي بدعة تنسب إلى مؤسسها مونتانوس (Montanus) أحد هراطقة القرن الثالث الميلادي الذي ادعى النبوة واستطاع أن يقنع بعض الناس منهم ترتوليانوس، وكانت بدعته منتشرة في فريجيا (Phrygie) وغلاتيا (Galatie) بآسيا الصغرى وإفريقيا، كان له تأثير واسع على تشكل اللغة اللاتينية اللاهوتية من أهم أعماله (l'Apologie). ترتوليانوس، المنافحة أو دفاع عن التوحيد، ترجمة عمار الجلاصي، منشورات توالت 2001، ص4، روبين دانيال، التراث المسيحي في شمال افريقيا، ترجمة سمير مالك، دار منهل الحياة، بيروت، 1999، ص ص 82-85.* *- Dict.Univ. D'Hist. et Géo., pp. 1854-1855.*

** – *حسب ترتوليانوس فإن البروقنصل الذي أشرف على عملية إعدام المسيحيين تلقى عقوبة من السماء حيث أصبح كفيفا بعدما نفذ الإعدام في حق هؤلاء المسيحيين، وهذا اعتقاد خرافي.* *- Tertullien, ad Scapulam, 3; Allard (P.), Op.cit., p.457.*

1 -Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique (origines, développements, Extensions), Rev. Afri., n° 57, 1913, p.440.

*** – ***الثعالبي***، *ولد في سنة 961م وتوفي في سنة 1038م.*

**** – ***وهب بن منبه***، *من أصل فارسي ولد في ذمار بالقرب من صنعاء سنة 34هـ/654 م وتوفي بها في حوالي سنة 114هـ/732م. ابن النديم، الفهرست، تحقيق ناهد عباس ط1، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، 1985، ص22.*

***** – *يقصد بهذه البلاد: الحبشة وبلاد السودان.*

القيروان وإفريقيا، ويوحنا إلى أفسوس، وجاك إلى القدس، وبارتلوماوس إلى بلاد العرب (الحجاز)، وشمعون إلى برقة وبلاد البربر » .[1]

وأشار "ابن خلدون" [2] في نص يعتبر من أهم النصوص التاريخية، إلى بعض مبشري المسيحية من الحواريين، ومنهم أولئك الذين تولوا مهمة التبشير في إفريقيا من أمثال "فيليب" (*Philippe*) و"شمعون القناني" (*Simon de cana*)، وقد استند في نصه هذا إلى مؤرخين مسيحيين وجاء في النص ما يأتي :« **وعند علماء النصارى أن الذي بعث من الحواريين إلى روما بطرس ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حواريا، وإلى السودان والحبشة متى العشار وأندرواس، وإلى أرض بابل والشرق توماس، وإلى إفريقيا فليبس، وإلى أفسوس (*Ephesus*) قرية أصحاب الكهف يوحنا، وإلى أورشليم (*) وهي بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القناني.»**

يتضح من النصوص السابقة أن هناك تباين بين المؤرخين فيمن أرسل إلى روما وإلى إفريقيا، فقد ذكر "ابن خلدون" أن "فليبس" اتجه نحو إفريقيا، أما "الثعالبي" فأضاف "يهوذا"، وذكر أيضا أن "بطرس" صاحب "شمعون" إلى روما، بينما ذكر "ابن خلدون" "شمعون" و"بولس". وهكذا نجد بعض مؤرخي العهد الإمبراطوري، قد اقتفوا أثر "ابن خلدون" و"الثعالبي"، وقد ذكر هؤلاء أن مرقس "سان مارك" *Saint Marc* أوكلت له مهمة التبشير في مصر وقرينة (*Cyrène*) وطرابلس، وقد يكون الوحيد الذي كان يجوب هذه المناطق في شمال إفريقيا. فقد واصل الحواريون مهمة التبشير في مناطق

---

[1]- *Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique…, p.390.*

[2]- *ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص294.*

** – **أورشليم، Jérusalem**، هو اسم بيت المقدس بالعبرانية، وأصل الاسم كنعاني من "يرو- شالم" أو"يرو- شلم" " وشالم أو شلم اسم إله كنعاني يعني السلام، وله علاقة بالإله الآشوري "شلمانو" (Shulmanu) وقد دخلت التاريخ العبراني واليهودي منذ حوالي القرن العاشر قبل الميلاد حينما افتك "داود" (1000–960 ق.م.) المدينة من اليبوسيين ليجعل منها عاصمة سياسية ودينية لمملكته وقد خلفه ابنه "سليمان" (960–922 ق.م.) الذي أقام الهيكل والذي خربه فيما بعد الإمبراطور الروماني " تيتوس" (Titus) سنة 70م. وتعرف بيت المقدس أيضا باسم إيلياء وقيل معناه: بيت الله. ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح. عبد العزيز الجندي، ج. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص 279، خليل سركيس، تاريخ القدس المعروف بتاريخ أورشليم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001، ص ص 8–10،*
Attias (Jean Christophe.) et Benbassa (Esther), Op.cit.,, pp.137-139.

مجاورة كمقاطعات إفريقيا الرومانية وموريطانيا، وكانوا قد سلكوا الطريق الساحلي، وهو السبيل الوحيد الذي كان يربط بين حواضر الإسكندرية وطرابلس وقرطاجة. [1]

ويرى بعض آباء الكنيسة المسيحية أن المغرب القديم كان قد حل به اثنان من الحواريين هما: "فيليب" (*Philippe*) الذي نزل بمنطقة البروقنصلية أي إقليم قرطاجة الرومانية، و"شمعون القناني" (*Simon de cana*) الذي نزل في ليبيا. [2] وبذلك فهم يتفقون مع ما ذهب إليه "ابن خلدون". غير أنه يجهل لحد الآن مصير هذين المبشرين، رغم أن بعض مؤرخي المسيحية [*] في بلاد المغرب القديم ذهبوا إلى القول بأن المبشرين تركا أثرا واضحا في أوساط الناس.

فقد ذكر المؤرخ الفرنسي "جون بول ميناج" [3] (*J.P.Mesnage*) أنهما تمكنا من استقطاب أتباع لهما، وقاموا بدور بارز في نشر المسيحية بين أوساط الجماهير الريفية في المناطق الداخلية. بينما أشار "بول مونصو" [4] (*P.Monceaux*) إلى أن عناصر من قبائل الجيتول [**] والمور [***] اعتنقت الديانة المسيحية في أواخر القرن

---

[1]- *Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique…, p.291.*

[2]- *De Choist (l'Abbé), Histoire de l'Eglise, Op.cit., p.71.*

* – *منهم على وجه الخصوص : ج. بول ميناج وبول مونصو.*

[3]- *Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique..., p.390.*

[4] - *Mesnage (J.P.), Ibid., p. 397.*

** – *الجيتول Gaetulii، هم سكان إفريقيا الأوائل إلى جانب الليبو Libyes، يصفهم سالوست بأنهم عمالقة متوحشون يتغذون على لحوم الحيوانات الضارية لا يحكمهم قانون ولا عرف ولا زعيم، ويعتبرهم سترابون أكثر القبائل اللوبية عددا، وهم سكان منطقة واسعة تمتد إلى الجنوب من المناطق التي يقطنها المور والماسيل والمازسيل وهي منطقة جرداء وذات مناخ جاف.* - *Sallustius, Guerre de Jugurtha, trad. Gérard Walterd, Gallimard, Paris, 1968, LXXX,1 ; XVIII, 1, XIX, 5 ; Strabon, Géographie, trad., Amédée Tardieu, Hachette, Paris, 1867, XVII, 3, 2 ; Tite Live, Histoire romaine, trad. Nisard, Firmin Didot, Paris, 1869, XXIII, 18, 1 ; Ait Amara (O.), recherches sur les numides et les maures face à la guerre, depuis les guerres puniques jusqu'à l'époque de Juba I^er^, thèse de doctorat, université Jean Moulin, Lyon 3, direction du Pr. Y. Le Bohec.*

*** - *المور Maures، أول من استعمل لفظ موريزيا–Maurusii للدلالة على بلاد المغرب هم الإغريق القدامى، أما اللاتين فذكروا كلمة "موري-Mauri"، وحسب بلين فهي اسم قبيلة كانت ضارية في إحدى جهات نهر الملوية، وقد أعطت اسمها لمملكة تقع غرب المملكة النوميدية وهي مملكة موريطانيا يحدها من الشرق نهر ملوية ومن الغرب المحيط الأطلسي وتعود أصول هذه المملكة إلى أواخر القرن الرابع ق.م.* *-Polybe, Histoire générale, trad. Félix Bouchot, Paris, 1847, XV, 11,1 ; Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, trad. Ferd. Hoefer., Hachette, Paris, 1865, XII, 80,3 ; Pline l'Ancien, H. N., Paris, 1848-1850, V, 17 ; Gsell(S.), H. A. A.N., Hachette, Paris, 1927, t. V, PP.88-95.*

الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي، بفضل الدور الذي قام به هذين المبشرين في المغرب القديم.

وذهب "مونصو" إلى القول بأن الفضل في انتشار المسيحية في إفريقيا يعود لعناصر شرقية منها اليهود، ولم يكن للبعثات التبشيرية، التي كانت ترسلها كنيسة روما لتنصير الولايات الرومانية في شمال إفريقيا أي دور في عملية التبشير. [1]

يبدو أن هذا الرأي مخالف للحقيقة، ذلك أن اليهود كانوا يرفضون التبشير باليهودية فقد كانوا مجتمعا منغلقا على نفسه، فكيف يبشرون بالمسيحية؟

يرى "مونصو" أن المسيحية في عهد "ترتوليانوس" في منتصف القرن الثاني الميلادي، مرت بثلاث مراحل: بدأ التبشير في المرحلة الأولى انطلاقا من المدن الساحلية والموانئ وخاصة في قرطاجة، ثم انتشرت وتوسعت في المرحلة الثانية في المناطق الداخلية، أما المرحلة الثالثة فقد تغلغلت الديانة المسيحية في الأوساط الريفية، إلا أنها لم تبرز بشكل واضح إلا في أواخر القرن الثاني الميلادي، وهي المرحلة التي كان "ترتوليانوس" يفتخر ويعتز بها، [2] انطلاقا من مقولته الشهيرة مخاطبا الوثنيين:« **نحن لم نخلق إلا البارحة، ومع ذلك أصبحنا نملأ كل مكان، نحن في المدن، والمقاطعات والجزر، في مجالسكم ومخيماتكم، في القصور والساحات العامة، كل شيء لنا، لم نترك لكم سوى معابدكم.** » [3]

وكان "ترتوليانوس" قد ألقى هذا الخطاب سنة 197م، وهذا ما يؤكد أن المسيحية قد انتشرت واتسع نطاقها لتشمل المناطق الداخلية والريفية في أواخر القرن الثاني الميلادي في البروقنصلية ونوميديا، وحسب "ترتوليانوس" فإن عدد المسيحيين كان قد تزايد خلال هذه الفترة، وكانوا ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية.

---

[1] -*Monceaux (P.), H.L.A.C., Ernest Leroux, Paris, 1901, t. I, p.9.*

[2] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., I, p.3.*

[3] -*Tertullien, l'Apologétique, par E.M. Gaucher, Auteuil-Paris, 1898, XXXIX, 77.*

المبحث الرابع: طرق انتقال المسيحية إلى المغرب القديم: يرى بعض المؤرخين (*) أن بذور المسيحية الأولى في المغرب القديم كانت قد بثتها عناصر شرقية، إلا أن تنظيم حركة التنصير قد تمت على يد بعثات كانت ترسلها كنيسة روما. لذلك يمكن القول أن كنيسة روما تعتبر أما لكنيسة قرطاجة. [1]

وإذا كان المصادر القديمة قد سكتت عن تاريخ نشأة كنيسة قرطاجة، فإن بعض الباحثين المحدثين أشاروا إلى أن أقدم أسقف وجد في قرطاجة هو"أغريبينوس" (*Agrippinus*) الذي عاصر "ترتوليانوس"، وهو الذي دعا إلى عقد أول اجتماع لأساقفة البروقنصلية ونوميديا في حوالي سنة مائتين وعشرون (220) للميلاد حضره سبعون (70) أسقفا، واعتبر أول مجمع كنسي إفريقي. [2] ويدل عدد المشاركين في هذا الاجتماع على أن المراكز الأسقفية الجهوية كانت عديدة في تلك الفترة.[3]

يرى بعض رجال الدين مثل "جون بول ميناج" (*J.P.Mesnage*) و"أودولان" (*A.Audollent*) أن ظهور المسيحية بالمغرب القديم يعود إلى زمن المسيح (عليه السلام) وهو ما شكك في صحته "شارل أندري جوليان" مستندا في رأيه إلى أن هؤلاء المسيحيين اعتمدوا على العاطفة أكثر من اعتمادهم على روح الدقة والتحري في تحديد تاريخ الوجود المسيحي في بلاد المغرب القديم.[4]

---

* – *من أبرز هؤلاء المؤرخين: فوي بول لوجاي.*

[1]- *Voy (P. J.), « les origines de l'église d'Afrique et de l'église de Rome », Mélanges Godfroid, 1908, pp.2-25.*

[2] - *De Prats (Jean), l'église Africaine Ancienne et Moderne, Alfred Mame et fils éditeurs, Tours, 1892, p.10 ; Cuoq (J.), Op.cit., p.17.*

[3]- *Julien (Ch. A.), Op.cit., pp. 185-186.*

[4]– *شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تر. مزالي وبن سلامة، ج1، الدار التونسية للنشر، 1983، ص 255.*

في حين يعتقد "مونصو" و"لوغلي" أن تعايش المعتقدات الوثنية المحلية مع المعتقدات الشرقية البونية في المغرب القديم، كان له دور بارز في تسهيل مهمة المبشرين الأوائل بالمسيحية في المغرب القديم. (1)

ومن الشواهد المادية على أن المسيحية دخلت مبكرا إلى مناطق كثيرة من بلاد المغرب القديم، وجود بقايا أحد عشر (11) كنيسة مسيحية قديمة تعود إلى زمن الحواريين في أواخر القرن الأول الميلادي في مواقع مختلفة بجبل نفوسة غرب ليبيا. (*)

وهكذا فقد تباينت آراء المؤرخين والكتاب المسيحيين حول طرق انتقال المسيحية إلى المغرب القديم (خريطة رقم 3 ص 236) وذهبوا في ذلك مذاهب شتى:

1- يرى فريق من المؤرخين المحدثين مثل: "جون بول ميناج" و"شارل أندري جوليان"– رغم غياب الأدلة المادية الصريحة– أن المسيحية دخلت إلى بلاد المغرب القديم عن طريق التجار الشرقيين وعبر الموانئ خاصة قرطاجة وحضرموت (*Hadrumetum*) "سوسة" حاليا في تونس.(2)

2–ويرى فريق آخر مثل "بول مونصو" (*P. Monceaux*) و"دوشان" (*L.Duschene*) أن المسيحية دخلت المغرب القديم عن طريق أشخاص قدموا من الشرق وقاموا بنشرها

1- Leglay (M.), Saturne Africain, Histoire..., p.487 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., I, p.10.

* – وهي كنائس: فورساطة (Forsata) أو فيرساطة (Fersata)، والجزيرة (El-Djezira) وبورتورة (Bortoura) أو بوقتورة (Boght'oura) وتينباتين (Tinbatin) وأغرمينان (Agherminan) أو أرارمينا(Arermina)، وتوكيت (Toukit) ونسيم (Nésim) أو ميسين (Mesin) وتامزدة (Temezda) وتازورايت (Tazourait)، وطارما (Tarma) وتارميسة (Termisa).
- Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique..., p.392.

2- Julien (Ch. A.), Op.cit., p185 ; Mesnage (J.P.), Op.cit., p404.

في المنطقة. [1] وما يدل على ذلك –حسب دوشان– بعض العادات الآسيوية التي مازالت ماثلة في الطقوس الإفريقية، كإجراءات تعميد الهراطقة. [*] [2]

يبدو أن المسيحية قد وجدت المناخ الملائم في معابد اليهود (*Synagogues*) التي كانت تمثل مراكز أولى تبلورت فيها حركة التنصر، ووجدت فيها المسيحية أول المبشرين بها. [3] واستفادت من ازدهار المستعمرات اليهودية المنتشرة على طول السواحل الإفريقية.[4]

ومهما يكن من أمر، فإن المسيحية أخذت في الانتشار داخل المدن في بلاد المغرب القديم. وامتدت إلى المناطق الداخلية وبين الجماهير الرومانية كما أشار إلى ذلك "ترتوليانوس": « **كما تلاحظون فنحن كثر، نملأ كل مكان، وينتشر المسيحيون من الجنسين ومن كل الأعمار في الحقول كما في القصور المحصنة.** » [5]

يتضح مما سبق أن حركة التنصير في بلاد المغرب القديم قد انتشرت بطرق متعددة وأساليب مجهولة، فبالرغم من أن المسيحية احتضنتها الطبقات الاجتماعية الدنيا التي وجدت فيها بغيتها الروحية والاجتماعية، خلافا لما كانت عليه الديانة الرومانية الرسمية التي كرست النظام الطبقي والتمايز الاجتماعي، إلا أن هذا لا يعني أن طبقة

---

[1]- *Audollent (A.), Dic.hist. et de Géographie ecclésiastique, t. I, Art Afrique, 1912, p.709.*

* – ***الهرطقة،*** *Hairesis ، كلمة يونانية تعني الاختيار والتفضيل، ثم الرأي المنفصل، وأخيرا البدعة (Secte) من اللاتينية (Sequi) أي "اللحاق بـ "، وهي بالمعنى الأوسع مجموعة من الأشخاص الذين يعتنقون المذهب ذاته، إلا أن أتباع البدعة يلتحقون برأي تعتبره السلطة الكهنوتية أو غالبية أعضاء الكنيسة الرسمية خاطئا فالأمر بالنسبة لها ليس رأيا و إنما انحرافا عن المبادئ الإيمانية الأساسية. ويلتر(ج)، الهرطقة تاريخ البدع الدينية المسيحية، تعريب جمال سالم، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص ص 15-19، -Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., pp.585 -586.*

[2] - *Duschene (L.), les origines du culte chrétien, Paris, 1898, pp.220-222 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., t. I, p.7.*

[3]- *Tertullien, Apologétique, trad. par J.P.Waltzing, 2e édit., Paris, librairie Bloud et Gay, 1914, IX ; Duschene (L.), Op.cit., p.6.*

[4]- *Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique…, p.389.*

[5]-*Tertullien, I, 7, p.17.*

الأثرياء والأرستقراطية لم تحتضن المسيحية، لكن احتضانها وتقبلها لهذا الدين الجديد كان بدرجة أقل من حماس الطبقات الاجتماعية الدنيا لها من عمال وفلاحين وعبيد.

المبحث الخامس: اضطهاد المسيحيين في المغرب القديم:

نستشف من الأخبار التي نقلها لنا "ترتوليانوس" طبيعة الفئات الاجتماعية التي طالها الاضطهاد. فقد دلت أحداث قرية طبربة الصغرى (*Thuburbo Minus*) سنة مائتان وثلاثة (203م) قرب قرطاجة، أن الذين أعدموا امرأة تدعى القديسة فيفيا بربيتوا [*] (*St.Vivia Perpétua*) وهي امرأة ميسورة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية كان عمرها اثنان وعشرون (22) سنة مع شخصين آخرين، وعبدين، وحكم عليهم وكيل الإمبراطور بالإدانة –لأنهم مسيحيين ورفضوا إحياء عبادة الإمبراطور– برميهم للحيوانات الضارية التي افترستهم.[1]

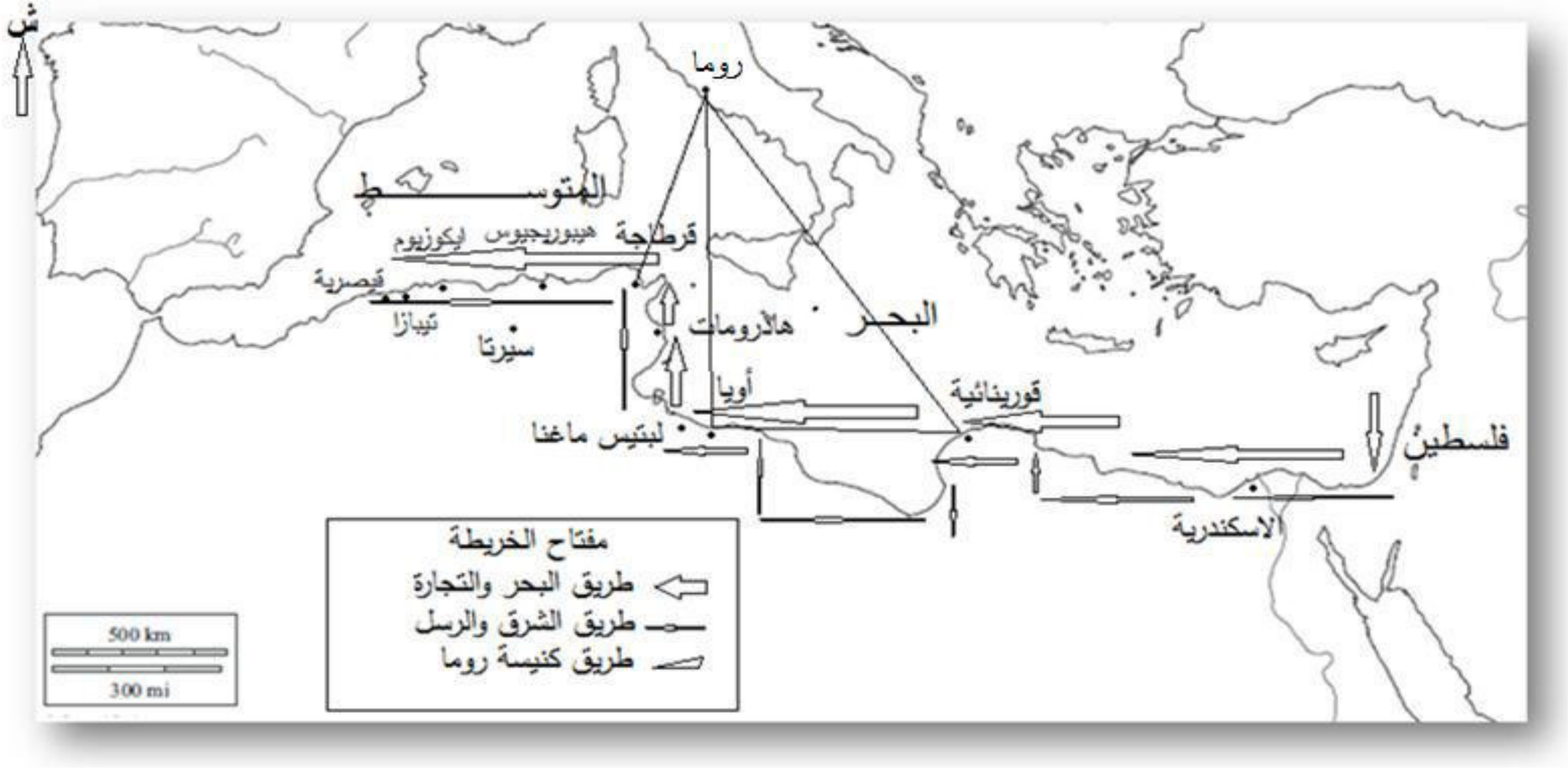
لقد وجدت هذه الديانة استجابة لدى كل طبقات المجتمع والدليل على ذلك أن شهداء قرية طبربة الصغرى الستة كانوا ينتمون إلى ثلاث فئات، اثنان من الطبقة الأرستقراطية، واثنين منهم من الطبقة الفقيرة، واثنين من الرقيق. [2]

وقد اتخذ المسيحيون من إعدام هؤلاء رمزا للتضحية والفداء من أجل المسيح، واعتبروا في طليعة شهداء العقيدة المسيحية، ذلك أن هؤلاء الضحايا كانوا من الطبقة الدنيا، وهي طبقة وضيعة في نظر طبقة الأغنياء والأرستقراطيين.

** – تروي القديسة "بربيتوا قصة مأساتها وآلامها تقول : «كنت بين يدي المضطهدين حين جاء أبي لزيارتي وحاول التأثير علي لكي أغير رأيي فقلت له : أنا مسيحية، كلنا بين يدي الله، ولن يحدث إلا ما أراد.»* - *Anonyme, Vie des saints d'Afrique, imprimerie Facultés des catholiques, Lille, 1885, pp. 29-34.*

1- Julien (Ch. A.), Op.cit., p.16 ; Cuoq (J.), Op.cit., p.16.

2- Yanoski (J.), l'Afrique Chrétienne, 1844, p.6 ; Anonyme, Op.cit., pp.29-30.



خريطة رقم 3: طرق انتقال المسيحية إلى المغرب القديم.

(رسم وتصميم الطالب الباحث) إطار الخريطة: *D'après : w.w.w. méditerranée. net*

ووصف "ترتوليانوس" طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تربط بين أفراد المجتمع في المغرب القديم في عصره من جهة، والعلاقات السائدة بين ذلك المجتمع والسلطة الرومانية من جهة أخرى قائلا: «***إن ما يؤاخي بيننا هو هذه الممتلكات، التي تفرق فيكم الأخوة، إننا موحدون ذهنيا وروحيا، ولا نتردد في تقسيم ممتلكاتنا بيننا، إن كل شيء مشترك بيننا عدا زوجاتنا.***» [1]

لذلك يمكننا أن نتساءل: كيف يمكن لطبقة النبلاء والأرستقراطيين – وهم الذين يعيشون على التمايز الطبقي– أن يقبلوا بإشراك غيرهم في ممتلكاتهم؟ وأن يكونوا على قدم المساواة مع هذه الطبقة التي كانوا ينظرون اليها على أنها طبقة وضيعة – في نظرهم طبعا–؟

وأشار "ترتوليانوس" أيضا في مقام آخر إلى طبيعة هذه الفئة التي ناصبت المسيحيين العداء، بأنها فئة كان همها الوحيد التناحر على الأموال. [2]

تعرض المسيحيون لاضطهاد الوثنيين أكثر من اضطهاد السلطة الرومانية لهم. [3] وذكر "ترتوليانوس" أن الوثنيين كانوا يسارعون بإحراق المتنصرين قبل محاكمتهم.[4] يبدو أن هذا العمل كان عملا لا يسمح به القانون لو أنه مورس ضد أفراد متنصرين من طبقة النبلاء والأثرياء، فالقانون الروماني كان يحمي أعضاء هذه الطبقة من الأذى.

واعتمادا على ما أورده مؤرخو الفترة الرومانية (*) في هذا السياق، فإن بعض القضاة الرومان كانوا يمعنون في تعذيب المتنصرين الذين يرفضون عبادة الإمبراطور

1-Tertullien, Apol., XXXIX, 11.
2-Tertullien, Apol. , XXXIX, 7.
3-Monceaux (P.), H.L.A.C., I, p.28.
4-Tertullien, Apol., XV, 4, 5, 7.

** – تمتد هذه الفترة في المغرب القديم من تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م. إلى تاريخ الغزو الوندالي سنة 430م.*

بإبعاد النار عن وجوههم حتى تطول مدة تعذيبهم، [1] حسب القاعدة المعروفة لدى الرومان بـ :"*Légitime Cocti*". [*]

وحسب "لوبلان" نقلا عن "أوزبيوس" (*Eusèbius*) فإن أحد المضطهدين بالنار كان يحاول ابتلاع اللهيب لينفذ إلى صدره، حتى تقصر مدة تعذيبه ويعجل بموته. [2]

وأشار "ترتوليانوس" إلى تزايد العداء الشديد للمتنصرين إلى درجة أن طبقة الأثرياء والسلطة الرومانية تحمل مسؤولية الكوارث الطبيعية إلى المسيحيين قائلا :« ***إذا فاض نهر التيبر (Tibre) بروما على أسوار المدينة، أوجف نهر النيل، ولم يبلغ الحقول، وإن أمسكت السماء ماءها، أو زلزلت الأرض أو حلت مجاعة أو انتشر وباء تتعالى الصيحات : " فليلق بالنصارى إلى الأسود ...! Chritianos ad Leonem".*** » [3]

كان الوثنيون يرفضون دفن جثث المسيحيين في مقابرهم بقولهم: « ***ليس هناك مقابر (Areae non sint)*** » ، [4] بل قاموا بتخريبها.

وهكذا يتضح من النصوص السابقة، أن المضطَهَدين من المسيحيين كانوا من الطبقات الاجتماعية الدنيا التي لا يحميها قانون ولا تحظى بأي مساندة ودعم من المجتمع.

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن: « ***الطبقة المحرومة وجدت في المسيحية ملاذا للتقوى التي جرحتها الآلام وعاصرها الشقاء، وأنهكها الإجحاف والضيم الاستعماري.*** » [5]

---

[1]-*Lactance (C. F.), De Mortibus Persecutorum, in R.Q.H., t. LXXIV, 1903, XII ; Pline l'ancien, H.N., trad. par E. Littré, J. J. Dubochet, Paris, 1850, XXII, 31.*

* – *المقصود بالعبارة اللاتينية Légitime cocti "حرق أو طبخ طبقا للقانون". - Freund (G.), Grand Dictionnaire de la langue latine, trad. par N. Theil, t. I, Firmin Didot, Paris, 1929, p.523.*

[2]-*Edmond (le Blant), «Notes sur quelques actes des martyrs », in M.A.H., t. V, 1885, p.102.*

[3]- *Tertullien, Apol., XL, 2, p.104.*

[4]- *Id., ad. Scapulam, 3 ; Apol., XXXVII.*

[5] - *شنيتي م . ب، حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن الرابع، مجلة الأصالة، 60، 1978، ص 26.*

وهذا ما يدفعنا إلى القول أن أغلبية المتنصرين ينتمون إلى هذه الطبقة، التي وجدت في المسيحية ملجأ وملاذا يخلصها من الآلام والمآسي التي كانت تعاني منها، باعتبارها ديانة التوحيد والأخوة كما أشار إلى ذلك "ترتوليانوس" بقوله: « ***إننا إخوة نتعاطف فيما بيننا*** ». [1]

نستنتج مما سبق أن الطبقة الدنيا من المجتمع كانت قد وجدت في الديانة المسيحية محتوى فكريا ونفسيا تقاوم به المجتمع الوثني، الذي ناصبها العداء واستعمل ضدها كل الوسائل لتحطيم معنوياتها. فقد كان المجتمع الوثني يرى في هذه الفئات المتنصرة، أنها فئات دخيلة عليه تهدد كيانه، بما تنشره من أفكار هدامة – في نظره– لذلك كان الوثنيون يتوجسون خيفة وريبة من المسيحيين.

وقد لخص "ترتوليانوس" في كتابه "المنافحة– *Apologéticum*" نظرة الوثنيين إلى المسيحيين بأنها كانت تتم عن توجس وارتياب شديدين إلى الحد الذي كانوا يرونهم جنسا آخر أدنى حيث قالوا: « ***إنهم جنس ثالث مخيف*** » [*] (*Usque que Tertium genus*). [2]

وكان الوثنيون يفضلون التعامل مع الفلاسفة وأفكارهم على التحدث مع المسيحيين، ذلك أن الطبقة المتنورة تنتمي إلى طبقة النبلاء والأشراف، فهي تفضل الوثنية على المسيحية التي هي في نظرهم دين الفقراء والعبيد.

وكان للإجراءات القانونية التي اتخذها الأباطرة الرومان ضد المسيحيين من اضطهاد ومطاردة، أثر بارز في تبني أسلوب السرية والكتمان من طرف معتنقي المسيحية، لأن هذا الدين الجديد كان يقوم على مبادئ ترفض عبادة الإمبراطور، ويعمل

---

[1]-*Tertullien, Apol., XXXIX ,6 ,8.*

* – *المقصود هنا بالجنس الثالث، أن المسيحيين اعتبروا جنسا ثالثا من الناحية العقائدية ذلك أن المجتمع الروماني كان يتكون من وثنيين ويهود.*

[2]- *Tertullien, Apol., I, 8, 20.*

على نشر المحبة بين جميع الناس، ويرفض التمايز الطبقي، فالنبلاء والأرستقراطيين والفلاحين والعبيد والإمبراطور، الكل سواسية أما الله. [1]

كان المسيحيون يتجنبون ما يثير حساسية السلطة الرومانية، ومن ثم مارسوا شعائرهم الدينية على الصورة التي وصفها "ترتوليانوس" قائلا:« ***كنا نجتمع يوميا نتدارس الكتاب المقدس، وعن طريقه نغذي إيماننا، ونعزز ثقتنا، ونثبت تمسكنا بديننا، وفي هذه الاجتماعات نتواصى بالموعظة والطاعة، وكان لدينا صندوق نجمع فيه الأموال، وأنه لم يجمع من رسوم مفروضة، بل كل يساهم فيه كل حسب استطاعته، وفقط إن شاء، لا أحد مكره على الإسهام، فهو أشبه بصندوق التقوى، وعلى المائدة وقبل الأكل نبدأ بالصلوات، ولا نأخذ من الطعام والشراب إلا ما نحن بحاجة إليه، وننتهي من الطعام كما بدأناه، ثم ينصرف الجميع لقضاء حاجياتهم.*** » [2]

يتضح مما سبق أن المسيحية كانت تقوم على مبادئ سامية كالمحبة والإخاء والتعاون ومساعدة الفقراء والضعفاء، وتدعو إلى التقوى وعبادة الله الواحد، وهي ديانة التوحيد. لهذا وجدت استجابة واسعة في أوساط أهالي المغرب القديم منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، رغم ما لحقهم من الأذى والاضطهاد من قبل السلطة الرومانية –الذي سبقت الإشارة إليه–، ليس هذا فحسب بل وجدت هذه الديانة استجابة لدى كل طبقات المجتمع من الطبقة الأرستقراطية، والطبقة الفقيرة، ومن الرقيق. [3]

وهذا ما يدفعنا إلى القول أن هذه الاستجابة الواسعة من طرف كل طبقات المجتمع، إنما تعود إلى مبادئ هذه العقيدة التوحيدية التي تتسم بالطابع الإنساني، والتي سمحت لهذه الطبقات بالتطلع إلى الخلاص الروحي، تلك السمات التي غابت في المعتقدات الوثنية التي سادت المغرب القديم قبل ظهور المسيحية بمبادئها السامية.

---

[1]-*Tertullien, Apol., XXXXVIII, 1.*

[2]- *Tertullien, Apol., XXXIX, 3, 5.*

[3]-*Yanoski (J.), Op.cit., p. 30.*

الفصل الثانـي

عوامل انتشار المسيحية في المغرب القديم

المبحث الأول– العوامل السياسية

المبحث الثانـي– العوامل الاقتصادية

المبحث الثالث– العوامل الاجتماعية

المبحث الرابع– العوامل الدينيـــة

رغم أن المغاربة القدماء ألفوا المعتقدات الوثنية قبل ظهور المسيحية، إلا أننا نتساءل: هل وجدت المسيحية قبولا في أوساط السكان؟ وما العوامل التي ساعدت على ظهورها وتغلغلها في أوساطهم؟ هل اقتصر اعتناق المسيحية على طبقة من طبقات المجتمع المغربي القديم؟ أم اعتنقها السكان بفئاتهم المختلفة؟

لقد تعايشت في المغرب القديم معتقدات وثنية متباينة الأصول والطقوس وربما كان من الناس من عبد عددا من المعتقدات المختلفة. [1] وإلى جانب الديانة الوثنية الرومانية، وهي الديانة الرسمية التي كانت تقوم على عبادة الإمبراطور باعتباره الكاهن الأعظم المؤله. كانت هناك معتقدات شرقية بونية اعتنقتها الطبقات الاجتماعية الدنيا التي كانت تقيم في المدن والأرياف. [2]

من المواصفات السابقة يمكن حصر عوامل توغل المسيحية وانتشارها في المغرب القديم فيما يأتي:

<u>المبحث الأول: العوامل السياسية:</u> تعمق الخلاف داخل الكنيسة الافريقية حينما طلبت الكنيسة الكاثوليكية تدخل السلطة الإمبراطورية لدعمها ومواجهة الكنيسة الدوناتية المنافسة لها في المغرب القديم.

لقد زعم الدوناتيون أن المسؤولين الحقيقيين عن القطيعة بين الكنيستين هم أولئك الذين يسمون أنفسهم بالكاثوليك، فهم المنشقون الحقيقيون، لذلك اتهموا أساقفة قرطاجة وعلى رأسهم الأسقف "مونسوريوس" (*Mensurius*) و"كايكيليانوس" (*Caecilianus*) وأتباعهم، وأقحموا كل البابوات الذين تعاقبوا على الكرسي البابوي في بداية القرن الرابع

---

[1] -*شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص264.*

[2]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., I, p.3.*

أمثال: "ماركيلينوس" (*Marcellinus*) و"ماركيلوس" (*Marcellus*) و"ملكياد" (*Melchiade*) و"سيلفستر" (*Silvester*). (1)

واستجابت السلطة الرومانية لطلب الكنيسة الكاثوليكية، فأرسل الإمبراطور "قسطنطين"(*) اثنين من المحافظين اللذين وصلا إلى قرطاجة سنة 316م هما الأسقفين "أونوميوس" (*Eunomius*) و"أولمبيوس" (*Olympius*) وكلفهما بإجراء تحقيق في عين المكان بهدف تحقيق الوحدة الدينية. قضى المبعوثان أربعين يوما في مهمة رسمية قصد جس نبض الكنيستين المتناحرتين وإقرار أيهما الكنيسة الكاثوليكية الحقة، حتى ولو أدى الأمر إلى عزل المتخاصمين "كايكيليانوس" و"دوناتوس" وانتخاب أسقف جديد. (2)

وهكذا غادر المحافظان الإمبراطوريان قرطاجة، بعد أربعين يوما من التحقيقات، حاملين تقريرهما إلى الإمبراطور "قسطنطين" الذي أصدر حكما في 10 نوفمبر سنة 316م يعتبر فيه أن الأسقف "كايكيليانوس" هو الأسقف المنتخب والشرعي لكنيسة قرطاجة، واعتبر المنشقين الدوناتيين خارجون عن القانون. (3)

يعد تدخل السلطة الرومانية في الشؤون الدينية في المغرب القديم سابقة غير مشهودة، لما يحمله هذا التدخل من خطورة على مستقبل ومصير الكنيسة وتحويل مهامها، من مناصرة الحق والعدل ومشاركة المؤمنين شقائهم الروحي والبدني، إلى مناصرة السلطة الزمنية، وفي ذلك ابتعاد عن دورها ورسالتها النبيلة.

1- Optat (St.), I, 13; Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I, 4, 6.

** – **قسطنطين** Caius Flavius Aurelius Constantinus، (274م–337م) إمبراطور روماني (306–337م) ولد في نايسوس Naissus سنة 274م، ابن كونستانس كلور و هيلانة، تولى العرش كشريك خلال الفترة 306–323م، قاد عدة حروب صد خلالها القوط والفرنجة، وشهد عهده حروبا أهلية، انتصر فيها على غريمه "ماكسنتيوس" سنة 312م، اعتنق المسيحية سنة 313م، توفي في نيكوميديا في 22 ماي سنة 337م. - Dict. Univ. D'hist. Et Géo., p. 415 ; Claude Augé, Dictionnaire Universel Encyclopédique, t. III, Paris, Librairie Larousse, S.D., p.218.*

2- Optat (St.), I, 26.

3-Augustin (St.), C.Cresc., III, 71, 82 ; Epist., 43, 2, 5 ;Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 25.

ومما يدل على تدخل السلطة السياسية في شؤون الكنيسة في المغرب القديم، إشرافها على عقد مجمع روما في قصر "الاتران" [1] (*Domus Faustae in Laterano*) في أكتوبر سنة 313م والذي دعى إليه الإمبراطور "قسطنطين" على إثر الطلب الذي تقدم به المنشقون لمحاكمة الأسقف "كايكيليانوس".

ومهما يكن من أمر، فقد برأ المجمع –بعد ثلاث جلسات– ساحة الأسقف "كايكيليانوس" وأقر شرعية سيامته، في حين وبخ "دوناتوس" بقسوة. [2] وهذا بعد الاطلاع على ملف يحتوي على مجموعة من الوثائق المتعلقة باستدعاء المجمع للانعقاد ومنها:

1- عريضة المنشقين الدوناتيين إلى قسطنطين (*Libellus Criminum Caeciliani*). [3]

2- تقرير البروقتصل"أنولينوس" (*Anulinus*) في 15 أفريل سنة 313م. [4]

3- رسالة قسطنطين إلى البابا ميلتياد(*Miltiade*) يدعوه إلى ترأس المحكمة الكنسية. [5]

4-رسائل الإمبراطور إلى الأساقفة الغاليين للحضور إلى روما. [6]

5-رسالة قسطنطين إلى بروقنصل إفريقيا يأمره باستدعاء "كايكيليانوس" مع عشرة ممثلين عن كل فريق من الفريقين المتنازعين الدوناتي والكاثوليكي، للحضور إلى إيطاليا، وتقرير "أنولينوس" الثاني الذي بلغ فيه بذهاب الأفارقة إلى روما. [7]

لقد استخدم " كايكيليانوس" (*Caecilianus*) كل وسائل الدعاية ضد منافسه "دوناتوس" لحمل قسطنطين على الاعتراف بشرعية انتخابه وسيامته، في حين اتهم غريمه بإثارة القلاقل والاضطرابات وإشاعة الفوضى وتهديد استقرار وأمن المغرب القديم.

---

[1]-*Optat (St.), I, 23.*
[2]-*Optat (St.), I, 24- 25; Augustin (St.), Epist., 43, 2, 4- 5.*
[3]-*Optat (St.), I, 22, III, 3; Augustin (St.), Epist., 88, 2; 93, 4, 13.*
[4]- *Augustin (St.), Epist., 88, 2.*
[5]-*Eusèbe, Hist. Eccles., X, 5, 18.*
[6]-*Optat (St.), I, 23; Augustin (St.), Epist., 53, 2, 5; Eusèbe, X, 5, 18.*
[7]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 339.*

لذلك عاب الدوناتيون بمرارة على الكاثوليك مساعيهم المتكررة لدى الأباطرة الرومان بهدف شن عدة حملات لاضطهادهم، وتواطؤهم مع جلادي " القديسين". [1]

وحاول الدوناتيون أن يظهروا أيضا أن تاريخ كنيستهم كان دوما حافلا بتقديم قوافل الشهداء، وأن العناية الإلهية انتقمت من أولئك الذين اضطهدوهم. وقد كتب "بتيليانوس" (*Petilianus*) أسقف "سيرتا" عن أعداء الله قائلا:« **لقد هلك "ماكاريوس" (*Macarius*)، وهلك "أورساكيوس" (*Ursacius*)، وهلك كل نبلائكم بانتقام من الإله، فأورساكيوس بعدما قتل في معركة ضد البرابرة، مزقت جثته بمخالب الجوارح والكواسر وأسنان الكلاب.** » [2]

لقد لخص الأساقفة الدوناتيون شكاويهم وتظلماتهم ضد الجلادين الذين اضطهدوهم في رسالة إلى المحافظ الإمبراطوري "ماركيلينوس" (*Marcellinus*) فيما يأتي:« **إننا نحمل خصومنا مسؤولية الاضطهاد والمعاملة الوحشية الفظيعة التي نتعرض لها نحن وأسلافنا لمدة تزيد عن قرن وبدون هدنة ولا مهادنة، لقد أرسل خصومنا عدة وكلاء ومبعوثين إمبراطوريين منهم : "ليونتيوس" (*Léontius*)، "أورساكيوس" (*Ursacius*)، "ماكاريوس" (*Macarius*) "بولوس" (*Paulus*) "طورينوس" (*Taurinus*)، و"رومانوس" (*Romanus*)، الذين أراقوا الدم المسيحي بقتل "القديسين". حيث قام هؤلاء بقتل أساقفتنا ونفي وإبعاد بعضهم، ومطاردة المسيحيين، وحظر الأغنياء، وسلب ونهب الفقراء، ومصادرة كنائسنا، وكل من يرفض الاهتداء يعامل معاملة سيئة، ففي مدينة بغاي وحدها أريقت دماء العديد من المسيحيين، كيف يمكن أن ننكر كل هذه الجرائم؟**» [3]

كان الكاثوليك يؤاخذون الأساقفة الدوناتيين على عنف أتباعهم وأنصارهم، فيجيبون أنهم غير مسؤولين عن إساءة الثوار الريفيين (الدوارين).

---

[1]-*Augustin (St.), Cont. Litter. Petil. II, 92, 202; Cont. Epist. Parmen., I, 8-11.*
[2]-*Id., Cont. Litter. Petil., II, 92, 202.*
[3]-*Id., Epist., 108, 6, 18 ; Cont. Epist. Parmen., I, 11, 17.*

لا شك أن هناك نوع من المبالغة في الاتهامات المتبادلة بين الفريقين المتخاصمين، وكان "أوغسطين" قد كتب إلى أحد الأساقفة المنشقين قائلا: « ***لنبعد هذا العتاب المتبادل الذي لا طائل من ورائه، والذي انغمس فيه الجهلة من كلا الحزبين، لا تلومني عن رعن " ماكاريوس" ولا ألومك عن وحشية الدوارين، فإذا لم تكن أنت غير مسؤول عن هذه، فأنا غير مسؤول عن تلك.*** » (1)

لقد كشفت الدوناتية عن حركتها الاحتجاجية ضد تدخل السلطة الزمنية، ونادت بضرورة تطبيق مبدأ حرية المعتقد، (2) ووضع حد لحملات الاضطهاد من كل الطرفين المتخاصمين. والواقع أن كل الكنائس كانت تدعو إلى ذلك، لكن حينما تستحكم كنيسة ما وتكون هي سيدة الموقف تصبح هي التي تمارس الاضطهاد.

وينطبق ذلك على الكنيسة الكاثوليكية نفسها، فخلال ثلاثة قرون كانت تطالب بحرية المعتقد والعبادة. لكن بعد أربع سنوات فقط من صدور مرسوم ميلان (*Milan*) الذي أعلن عن هذه الحرية، عاد الاضطهاد الذي سلط على الدوناتيين وكان في صالح الكاثوليكية. ولا يختلف الأمر، لدى الدوناتيين كذلك، فإذا كانوا يحتجون على تدخل السلطة الزمنية، فلا ننكر أنهم أول من دعا سنة 313م إلى تدخل الإمبراطور "قسطنطين". (3)

وألغى الإمبراطور "جوليان" (*Julien*) (361–363م) فيما بعد، سياسة سلفه في منتصف القرن الرابع. وأعاد بناء الكنيسة الدوناتية، ودفعها إلى نفوذ أكبر كأن لم يكن من قبل، بعدما كرس الحرية الدينية بموجب مرسوم سنة 362م. (4)

1-Augustin (St.) , Epist., 23, 6.
2-Optat (St.), III, 3-4; Augustin(St.), Cont.Epist.Parmen., I, 8,13 ; Cont.Gaudent., I, 19,20.
3-Optat (St.), I, 22; Augustin (St.), Epist., 88, 2.
4 -Salama (Pierre), Les voies Romaines de l'Afrique du Nord, imprimerie officielle, Alger, 1951, p.64.

استفاد الدوناتيون من مرسوم يعيد لهم حقوقهم، لكنهم استنفذوا وأساءوا استعمال صلاحيات كنيسة شبه رسمية ضد خصومهم الكاثوليك. [1] ويتمثل رد فعلهم في عمليات السلب والنهب والحرق والاستيلاء على الكنائس بالقوة واضطهاد أعدائهم.

وطالب الدوناتيون في نهاية القرن الرابع من المحاكم المدنية استعادة كنائسهم. [2] والتمسوا في سنة 406م من والي البريتوار (*Préfet du Prétoire*) التدخل لإنهاء النزاع بين الكنيستين. [3] وأبدوا موافقتهم على المشاركة في مناظرة قرطاجة سنة 411م التي ترأسها المحافظ الإمبراطوري " ماركيلينوس". [4]

يبدو مما سبق أن الدوناتيين عارضوا دوما وبشدة، تدخل السلطة المدنية في النزاع الدائر بين الكنيستين المتناحرتين في المغرب القديم من جهة. [5] ومن جهة أخرى نجد أن "مونصو " (*P. Monceaux*) يعيب عليهم أنهم أول من بادر إلى دعوة السلطة السياسية للتدخل. فلو فرضنا أن الإمبراطور "قسطنطين" أبدى موقفا مغايرا للذي أعلنه سنة 313م، لكانت الدوناتية الكنيسة الرسمية والكاثوليكية الكنيسة المنشقة، والكاثوليك هم اللذين سيعترضون على هذا الموقف، وبذلك قد تتغير الأدوار. [6]

لقد حاول "قسطنطين" من خلال مبعوثيه إلى المغرب القديم القيام بعمليات إحصاء الفقراء وتوزيع الصدقات، للقضاء على الزاد الشعبي للحركة الدوناتية وإفراغها من محتواها، فتدخل "دوناتوس" ووضع حدا لذلك ومنع على أتباعه قبول تلك الإعانات والمساعدات، فأفشل بذلك مسعى المبعوثين. ومن ثمة شكلت الحركة الدوناتية بارتباطها مع محيطها البشري والجغرافي المظهر الأكثر بروزا لمعارضة الأهالي للكاثوليكية المدعمة من السلطة الزمنية خلال مدة تزيد عن قرن من الزمن. ولم تكن هذه المعارضة

---

[1]-*Optat (St.), II, 16- 19.*
[2]-*Augustin (St.), Cont. Cresc., III, 56, 62; Cont. Epist. Parmen., I, 10, 16.*
[3]-*Id., Epist., 88, 10.*
[4]-*Id., Brevic. Collat., I, 4.*
[5]-*Optat (St.), I, 22; III, 3- 4; Augustin (St.), Cont. Litter.Petil., II, 84, 185.*
[6]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p, 190.*

مجرد خلاف بسيط نتج عن انتخاب وسيامة "كايكيليانوس" كأسقف لكنيسة قرطاجة. [1]
إن هذا النزاع ما كان إلا مبررا لبروز الانشقاق سمح للمغاربة القدماء بأن تكون لهم كنيسة مسيحية خاصة بهم، فكانت كنيسة مقاومة.

لقد مثلت نوميديا معقلا للدوناتية، وكانت الكنيسة الدوناتية، كنيسة حقيقية، بشخصيتها المتميزة، بمعابدها وكنائسها، وأساقفتها وشهدائها، كنيسة قادت المقاومة الدينية ضد الكاثوليكية المدعمة من السلطة الزمنية، والتي تعد شكلا من أشكال المقاومة السياسية في المغرب القديم.

<u>المبحث الثاني-العوامل الاقتصادية</u>: كانت الثروة الزراعية التي تزخر بها أراضي المغرب القديم، إحدى المبررات الأساسية لاحتلاله من طرف الرومان. واعتبرت الأراضي المحتلة خارج ايطاليا ملكا للشعب الروماني (*Ager Publicus*) واعتبرها القانون الروماني أراضي أعداء مهزومين. [*]

وبذلك فأراضي المغرب القديم تدخل ضمن أملاك الدولة الرومانية مع بعض الاستثناءات، تلك الأراضي التي سيطرت عليها روما بالقوة وأخضعت شعوبها وكانت مصدر قوة الإمبراطورية التي بنت عليها مشاريعها الاقتصادية. [2]

إذ يكفي أن نذكر تلك الأساليب الإغرائية التي كان ينتهجها دعاة التوسع الاستعماري الروماني للتأثير على أعضاء مجلس الشيوخ ودفعهم لاحتلال بلاد المغرب.

---

[1]- *Courtois (Christian), « de Rome à l'islam… », <u>Rev.Afri</u>., vol.86, 1942, (pp.24-55), p 31.*

** – كانت السلطات الرومانية تطلق على المهزومين مصطلح "Dediticii" ومصدره "Deditio" ويعني الاستسلام والرضوخ، وعلى هذا الأساس فالرومان يقصدون الذين هزموا واستسلموا. - Freund (G.), Grand Dictionnaire de la langue latine, Op.cit., p. 742 ; Tite Live, I, 38.*

[2] - *هشام الصفدي، تاريخ الرومان،ج1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1967، ص214.*

فقد ركز كل من "كاتوس" (*Catus*) (*) ويوليوس قيصر(**) (*Julius Caesar*) في خطاباتهم أمام مجلس الشيوخ على ثروات بلاد المغرب الزراعية، وأنها في متناولهم وعلى مسافة قريبة منهم.(1) وفي هذا الاتجاه انتهجت السلطة الرومانية سياسة اقتصادية تقوم أساسا على مصادرة الأراضي من أهالي المغرب القديم وتمليكها للوافدين الجدد، خاصة الأراضي الخصبة التي أصبحت أملاكا عامة للدولة الرومانية.(2)

واستولت على مزيد من الأراضي لتمليكها للطبقة الأرستقراطية والمعمرين وقدماء المحاربين. إذ لا يحق تمليك هذه الأراضي إلا للمواطنين الرومان الذين يتمتعون بحق المواطنة الرومانية. (***) بالرغم من أن الإمبراطور "كراكلا" (*Caracalla*) (****)

---

*- كاتوس أو كاطون *Caton .M. Porcius Catus*، (234-149 ق.م.) من مواليد مدينة توسكلوم *Tusculum* كان قاضيا *Praetor*، شارك في الحرب البونية الثانية، قنصل في سنة 195 ق.م. ثم مراقب عام *Censor* في سنة 185 ق.م.، حارب العادات اليونانية، يعتبر عدو عائلة سيبيون *Scipion*، خطيب وكاتب بارع، ساهم في تدمير قرطاجة وهو صاحب شعار : لتدمر قرطاجة *Delenda Est Carthago*. - *Albert (P.), Histoire de la littérature Romaine, C. Delagrave, 1871, T. I, liv. II, IV, 2 ; Christol (M.), et Nony (D.), Rome et son Empire, Hachette livre, Paris, 1990, p.78.*

** - يوليوس قيصر *Caius Julius Caesar*، (101-44 ق. م) إمبراطور روماني (49-44 ق. م.) لعله أول من حمل لقب إمبراطور، من عائلة الأشراف *Patriciens* أصبح حبرا *Pontife* في سنة 73 ق.م، ثم مراقبا ماليا *Quaestor* في سنة68 ق. م بإسبانيا، ثم حبر أعظم في 63 ق.م، وقاضيا *Préteur* سنة 62 ق.م، ثم حكم إسبانيا ، اتهم بضلوعه في مؤامرة كاتيلينا *Catilina*، قتل سنة 44 ق. م داخل قاعة مجلس الشيوخ الروماني. - *Suétone, Vie des douzes Césars, trad. M. Baudement, Paris, 1845, I, II, VI, IX, XIX.*

1- *Picard (G.Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Paris, 1990, p.69.*

2- *Pline l'ancien, XVIII, 35.*

*** - تصنف المواطنة الرومانية إلى ثلاث درجات: الأولى مواطنة رومانية وهي أعلى درجة، والثانية مواطنة لاتينية تؤدي بصاحبها إلى مواطنة رومانية والثالثة مواطنة إيطالية وهي أدنى درجة، ولا يمكن للإيطالي الانتقال إلى المواطنة الرومانية إلا بعد المرور على المواطنة اللاتينية. شنيتي م. ب، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، ص 173.

**** - **كراكلا**، *Marcus Aurelius Antoninus Bassianus*، (188 م-217 م) إمبراطور روماني (211-217م)، يعرف باسم كراكلا نسبة لمعطف جلبه من غاليا (فرنسا حاليا)، ولد في مدينة ليون (*Lyon*) وهو الابن البكر لسبتيموس سفيروس، خلف والده بعد وفاته سنة211م، بعد أن قتل أخوه جيتا (*Géta*)، من أعماله العنيفة إحراق الإسكندرية لمجرد إشاعة ترددت أن سكانها كانوا يسخرون منه، اتجه بجيوشه إلى بلاد الرافدين، وهناك قتله أحد ضباطه يدعى "مارتياليس" (*Martialis*) سنة 217م بالقرب من أوديسا (*Edessa*) " الرها- أورفة حاليا" في بلاد ما بين النهرين، عاصره المؤرخ "هيروديان (*Hérodien*) الإغريقي وهو الذي أرخ له. - *Hérodien, Histoire Romaine de Marc Aurèle à Gordien, trad. Denis Roques, Paris, 1990, IV, VII, XXI, XXIV ; Aurelius Victor, Epitomé, trad. M.N.A. Dubois, Paris, 1846, XXI.*

كان قد أصدر قانونا سنة 212م يعترف فيه بحق المواطنة لكافة رعايا الإمبراطورية حتى ولو كانوا أجانب (*Pérégrini*).

والحقيقة أن اكتساب المواطنة كان بعيدا عن متناول جميع فئات المجتمع خاصة منهم الأهالي. حيث تتطلب شروطا صعبة لا تتوفر إلا في الفئات الميسورة وقلة قليلة من الأهالي. ورغم صدور القانون–الآنف الذكر– الذي يقر بحق المواطنة لجميع رعايا الإمبراطورية، فإن الأملاك الواسعة ظلت حكرا على أعضاء مجلس الشيوخ الروماني.[1]

وهذا ما حدا بالقديس "سبريانوس" (*St.Cyprianus*) إلى القول: « **إن الأغنياء أضافوا أملاكا إلى أملاكهم، وأقصوا الفقراء ووسعوا أراضيهم.** » [2]

وقد انعكست سياسة مصادرة الأراضي التي مارستها روما تجاه الفلاحين المغاربة الصغار سلبا على الإنتاج الزراعي نتيجة تحول هذه الملكيات إلى المعمرين الجدد، حيث لجأ المغاربة إلى المناطق الجرداء والسفوح الجنوبية لجبال الأوراس والحضنة. [3]

وهكذا تكون روما قد حققت بذلك أهدافها في عزل القبائل عن بعضها وتجنب أية محاولة لاتحادهم والحصول على أراضي زراعية سخرت أساسا للمستوطنين.

وفي ظل هذه الأوضاع بدأت بوادر أزمة اقتصادية تلوح في الأفق في أواخر القرن الثاني الميلادي. وتفاقمت الأزمة الاقتصادية كتفاقم الأزمة السياسية مع مطلع القرن الثالث الميلادي. إذ تولت أسرة "غورديانوس" [*] (*Gordianus*) الحكم في بداية

---

[1] -*Piganiol (A.), L'Empire chrétien (325-395), P.U.F., Paris, 1947, p.414.*

[2]- *Gsell (S.), L'Algérie dans l'antiquité, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1903, p106.*

[3]- *شنتيتي محمد البشير، « التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية» ، مجلة الأصالة، عدد 41، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجزائر، 1977، ص7.*

* – *هو اسم عائلة ملكية من أصول تركية من كابادوس Cappadoce أو غالاتيا Galatia ويحتمل أنها انحدرت من جدها الأول أنطونينوس Antoninus الذي عاش في القرن الأول ق.م، حكمت هذه الأسرة الإمبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي، ومن الأباطرة الذين اعتلوا العرش في بداية سنة 238م غورديانوس الأول Marcus Antoninus Gordianus الذي حكم ثلاثة أسابيع فقط.*

- Aurelius Victor, Epitomé, XXVII.

سنة 238م، وكان ذلك تدشينا لعهد اتسم بالاضطرابات في المغرب القديم، التي امتدت إلى كامل أرجاء الإمبراطورية الرومانية.[1] ومن بين أسباب تلك الأزمة:

1 -سعي البورجوازية المحلية وطبقة الأثرياء - بعد أن رأت أن وزنها السياسي بدأ يتعاظم بدخول بعض أفرادها إلى مجلس الشيوخ الروماني وإلى صفوف طبقة الفرسان- إلى اعتلاء مناصب عليا في السلطة.

2-تزايد حركات التمرد التي شهدتها بعض المقاطعات الإفريقية التي كانت توفر عددا هاما من المجندين. لأن المغرب القديم وصفه بعض المؤرخين الكلاسيكيين على أنه "**أرض غنية بالرجال**". [2] فقد كان يوفر الفرق المساعدة (الشكل 21 ص 254) للجيش الروماني، خاصة فرق الفرسان النوميد والمور التي كانت تتميز بفعاليتها وقدرتها القتالية.

3-تأثر المغرب القديم بالاضطرابات السياسية وهو الذي يمثل قاعدة الأنونا (*) - اقتصاديا- حيث يقدم إنتاجا فلاحيا يشكل فيه القمح والزيت المصدر الرئيس له.

أعطت هذه الأهمية السياسية والعسكرية والاقتصادية لبلاد المغرب القديم، للمغاربة شعورا بأن أرضهم تلعب دورا متميزا في حياتهم وعلاقاتهم الخارجية، لذلك تمسكوا بها وسيضحون من أجلها بكل ما أوتوا من قوة.

---

[1] *- Julien (Ch.A.), Op. cit, pp. 194-195.*

[2] *- Hérodien, Histoire Romaine, trad. par Léon Halévy, Firmin Didot, 1860, VII, 4,3.*

** - الأنونا Annonae، يطلق هذا المصطلح خلال الفترة الرومانية على نظام أقامته السلطة في المغرب القديم يقضي بجمع وتخزين ونقل القمح وضمان وصوله لتموين سكان روما بالمواد الغذائية مجانا بصورة منتظمة أو استثنائية، أو بيع تلك الماد بأسعار منخفضة (Annonae civica)، ثم تطور هذا النظام إلى ضريبة يدفعها الأهالي عينا، كما يشمل المواد التي توضع تحت تصرف الإدارة العسكرية (Annonae militaris). وكانت الأنونا تتكون أساسا من القمح ثم ابتداء من منتصف القرن الثالث أصبحت تشمل الخبز، ثم فيما بعد الزيت، ومنذ عهد "أورليانوس" أصبحت تتكون من الخمر وشحم الخنزير والفواكه الجافة.*

- Freund (G.), Op.cit., p.171 ; Cagnat (R.), l'annone d'Afrique, C.T., t. XXV, n° 97-98, 1977, (pp.205-235), p. 205.

يبدو أن الأعباء الملقاة على السلطة الرومانية، والحاجة إلى مصادر مالية إضافية، قد تزايدت باضطراد خلال القرن الثالث للميلاد مما أضر بتوازن الإمبراطورية سياسيا واقتصاديا، وهذا ما دفعها إلى زيادة الضرائب وتنويعها. (1)

لذلك مارست أسلوب القوة لفرض إتاوات جديدة، حيث لجأ "سبتيميوس سفيروس" (*Septimius Severus*) (*) (الشكل 22 ص 255) إلى فرض ضريبة استثنائية على الأهالي،(2) أو القيام بأعمال جبرية دون أجر(عمل السخرة – *corvée*) على سكان المناطق المتاخمة لخط الليمس (**) (*limes*)، أو تقديم مؤن إضافية للجيش كإطعامه وإيوائه وتوفير الحيوانات لتنقلاته. (3)

وأرغم الأغنياء في عهد "كراكلا" (*Caracalla*) (الشكل 22 ص 255) على أداء أعباء قسرية، وهي هبات تقدم للإمبراطور تقدر حسب رؤوس الأموال التي يمتلكها هؤلاء. وقد وصفها مؤرخو القرن الثالث الميلادي المنتمين لهذه الطبقة ومنهم "ديون

1- *Piganiol (A.), « l'impôt Foncier », in M.A.H., T.27, 1907, pp.125-126.*

* – ***سبتيميوس سفيروس*** *L. Septimius Aurelius Severus ، (146-211 م) إمبراطور روماني (193-211 م) من أصول إفريقية، ولد في مدينة لبتيس ماغنا Leptis Magna "لبدة" في ليبيا حاليا. تزوج أميرة سورية تدعى يوليا دومنا (Julia Domna)، كانت أسرته تنتمي إلى عائلة الفرسان وحكمت مدة تزيد عن أربعين سنة (193-235 م)، من أشهر أباطرتها سفيروس مؤسس الأسرة السيفيرية وابنيه كراكلا وجيتا وألكسندر سفيروس، في سنة 208م وأثناء حملة على بريطانيا لصد هجمات الكاليدونيون، لقي حتفه في يورك (York) في 4 فيفري سنة 211 م. رستوفتزف م.، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي و الاقتصادي، ج1، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957، ص476. -Aurelius Victor, Epitomé, XX ; Dic. Univ. Hist. Géo., pp.1747-1748 ; Aelius Spartianus, Histoire Auguste, trad. Par M. Fl. Legay, C.L.F.Panckoucke, Paris, 1844, t. I, XIX.*

2-*Van Berchem (D.) «l'Annone militaire dans l'empire Romain au 3 e siècle»,M.S.N.A.F., LXXX, 1937, PP.117- 119.*

** – ***الليمس*** *Limes، خط دفاعي، وشريط حدودي يفصل بين المناطق الخاضعة للإمبراطورية الرومانية والمناطق الواقعة خارج سيطرتها، وهو عبارة عن طريق تمتد عليه مراكز عسكرية وحصون Castellum، وظيفتها حماية المناطق التابعة للإمبراطورية، يبدأ من منطقة سيزوروم Sizurum "مغنية حاليا" ويمر بالمناطق الجبلية يطوقها من الشمال ولا يتوغل في المناطق الداخلية، ومن أهدافه صد هجمات الأهالي واستتباب الأمن في المناطق الداخلية. - Massiera (P.), « la station de Tatilti », Rev.Af., N°79,1936, I, pp.465-476 ; Carcopino (J.), « Le limes de Numidie », Syria, VI, p.119, n°5 ; Michel Jacques-Henri, le vocabulaire latin des institutions Romaines, Université Libre de Bruxelles, 2001, p.65.*

3 *-Dion Cassius, Histoire Romaine, Trad. E. Gros, Firmin didot, Paris, 1867, LXXXIIV, 10, 4.*

كاسيوس" (*) (*Dion Cassius*) و"هيروديان" (**)(*Hérodien*) بأنها أشبه ما تكون بالسرقة الخالصة. [1]

لقد أثرت هذه السياسة الاقتصادية أثرا بالغا في تفكيك البنية الاقتصادية للأهالي، فتفاقمت حدة البؤس وانتشر الفقر وعم الجوع. وبالرغم من أن الإمبراطورية الرومانية كانت مستقرة أمنيا، إلا أن النظام الاقتصادي ظل بدائيا، رغم أن عدد السكان كان قليلا إلا أن حاجاتهم تكاد تكون معدومة. وازداد ضعف وفقر الأهالي، كما ركدت التجارة، واقتصرت على المواد التي تحتاجها الطبقة الأرستقراطية فقط. [2]

وكان من نتائج هذه السياسة أن عم السخط والتذمر، فشمل السكان الذين صودرت أراضيهم، بل وامتد هذا السخط إلى فئة الفلاحين الصغار. وتدهورت الأوضاع الاقتصادية، وراجت تجارة العبيد بأسعار زهيدة، حتى أن كثيرا من الأحرار أصبحوا أرقاء في أيدي المحتكرين وأسياد الأرض، رغم أن الدستور الذي أصدره الإمبراطور "كراكلا" والذي عرف بـ "دستور أنطونينيانوس"(***) (*Constitution Antoninianus*) (الشكل

** – **ديون كاسيوس**، مؤرخ يوناني، ولد في نيقية (Niceae) في حوالي 155م، ابن "كاسيوس أبرونيانوس" Cassius Apronianus، تقلد عدة مناصب: سيناتورا في عهد الإمبراطور "كومودوس"، وقنصلا في عهد "ألكسندر سيفيروس" في سنة 229م، وحاكما في آسيا الصغرى وإفريقيا، اعتزل السياسة في حوالي 235م وكرس بقية حياته للبحث والدراسة في نيقية (Nicée) فكتب «التاريخ الروماني» في 80 جزءا وصلنا منها 19 جزءا فقط.* - *Dict. Univ. Hist. Géo., p.534.*

*** – **هيروديان**، مؤرخ يوناني، عاش في القرن الثالث الميلادي، ولد في الإسكندرية، كلف بعدة مهام إدارية في روما، كتب تاريخ زمانه في 8 أجزاء من وفاة الإمبراطور "ماركوس أوريليوس" إلى مجيء أسرة "غورديانوس" إلى الحكم (180-238م).* - *Dict. Univ. Hist. Géo., p.866.*

[1] - *Piganiol (A.), l'Empire chrétien…, pp.401-402.*

[2] - *Julien (Ch.A.), Op.cit., p.196.*

**** – **دستور أنطونينيانوس**، أصدره الإمبراطور "كراكلا" سنة 212م، ومن نتائج هذا الدستور ظهور فئة من المواطنين خاصة من الجيش والإدارة ممن يحملون اسم "ماركوس أوريليوس" (Marcus Aurelius) وهو اسم "كراكلا" في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي إكراما له.* - *Dict. Univ. Hist. Géo., p.336.*

رقم 23 ص 257) يمنح المواطنة الرومانية (*Civitate Romana*) إلى جميع أحرار الإمبراطورية الرومانية ممن كانوا في وضعية الأجانب (*Pérégrini*).[1]

وقد أصاب هذا القانون كبرياء الطبقات العليا من المجتمع الروماني والطبقة الحاكمة في مختلف مدن وأقاليم الإمبراطورية في الصميم، واعتبرته تنقيص من قيمتها ومساسا بمكانتها الاجتماعية.[2] لذلك عمت مظاهر السخط وازدادت حدة التذمر في ظل هذه الأوضاع الاقتصادية المتدهورة، التي شملت مختلف طبقات المجتمع المغربي القديم من ملاك الأراضي والفلاحين الصغار والمتوسطين.



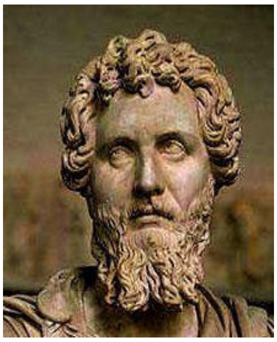
الشكل 21: نصب يمثل فارسا نوميديا بلباس روماني من الفرق المساعدة.

نقلا عن:. *w.w.w. wikemedia.org*

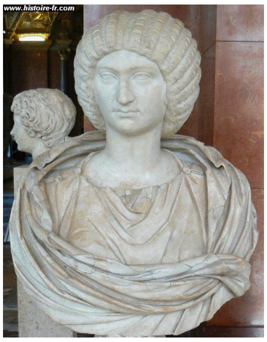
تاريخ الزيارة: 02/ 08/ 2015.

[1]- *Dion Cassius, LXXVII, 9,5.*

[2]- *روستوفتزف م.، المرجع السابق، ص498.*



(أ)



(ب)



(ج)



(د)



(هـ)



(و)

الشكل 22: أفراد الأسرة السيفيرية:

أ–رأس تمثال الإمبراطور سبتيموس سيفيروس من متحف اللوفر باريس.
ب–تمثال نصفي للإمبراطورة يوليا دومنا زوجة سبتيموس من متحف اللوفر باريس.
ج–ميدالية من متحف برلين تحمل صورة لأفراد الأسرة السيفيرية، ويبدو رأس جيتا مهشما بعد اغتياله سنة 212م.
د–رأس تمثال للإمبراطور كراكلا *Caracalla* من متحف اللوفر باريس.
هـ–رأس تمثال للإمبراطور جيتا *Geta* من متحف اللوفر باريس.
و–رأس تمثال للإمبراطور إلاغابيل *Elagabal* من متحف اللوفر باريس.

نقلا عن: أ– ب – ج: *www.ancient.history.com.*

د – هـ – و : *www.cosmovisions.com.*

وألحقت هذه السياسة التي انتهجتها السلطة الرومانية منذ أوائل القرن الثاني إلى أوائل القرن الثالث للميلاد، أضرارا جسيمة بالأهالي، وهذا ما دفعهم- حسب بعض الآباء ومؤرخي الفترة المسيحية- إلى اعتناق المسيحية لأنهم وجدوا فيها ضالتهم، وما تحمله من مبادئ نبيلة سامية كالتآخي والتآزر ومساعدة الفقراء والمعدمين.

من ذلك ما أشار إليه "ترتوليانوس" : « ***كان المسيحي لا يأكل إلا حينما يجوع، ويقدم يد العون للفقراء، ولا يأخذ من الطعام إلا ما هو بحاجة إليه، وجلوسه على مائدة الطعام أشبه بدرس منه بمأدبة أكل.*** » [1]

ولعل ما زاد في تنامي عدد المتنصرين خلال القرن الثالث الميلادي، تزايد عدد الإداريين المكلفين بجباية "الأنونا" نظرا للظروف الصعبة التي أضرت بتوازن الإمبراطورية الرومانية سياسيا واقتصاديا. فقد كان جهاز الجباية يتكون من مجموعة من الإداريين، ولعل أهم منصب في هذا الجهاز هو متصرف التموين وكان مقره في روما،[2] وكانت له ممثليات في قرطاجة، وعدد من المدن بالمغرب القديم.

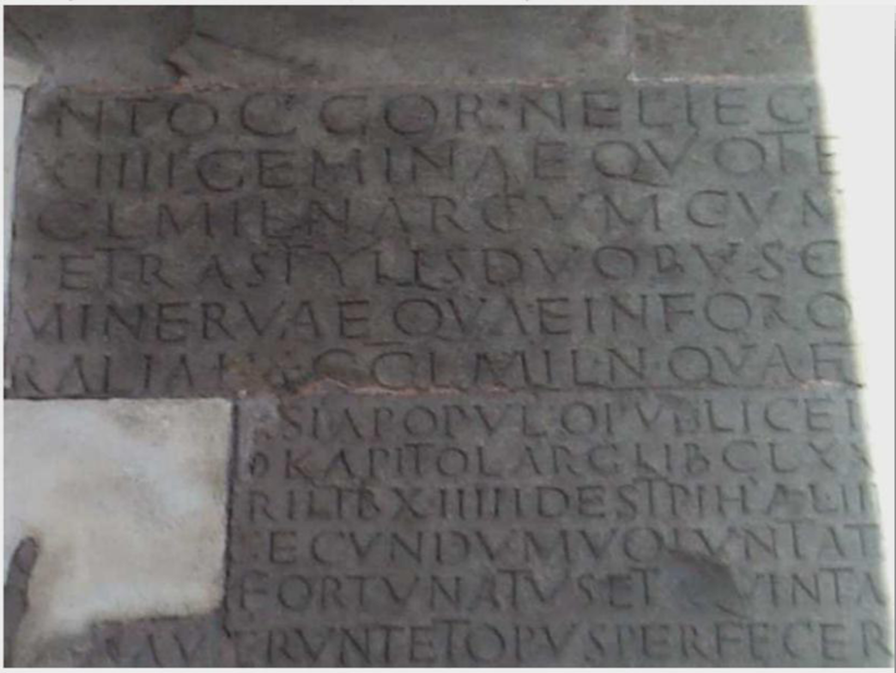
ولما تزايد عدد هؤلاء الإداريين عجزت الدولة عن مراقبتهم، إذ كانوا يتجاوزون صلاحياتهم ويجبرون الأهالي على دفع ضرائب إضافية لصالحهم. وهو ما نستشفه من خطاب إمبراطوري وجه إلى بروقنصل إفريقيا سنة 400م جاء فيه:« ***إن الإمبراطور متوجس من حدوث تجاوزات من طرف محصلي الضرائب، ويأمر بالتحقيق في الكشوف المسلمة لأصحابها الغارمين بعد دفع ما عليهم حتى لا يقعوا ضحية مطالب جديدة، باستثناء المتهمين بالتزوير.*** » [3]

---

[1]- *Tertullien, Apol., XXXIX, 16, 17, 18,19.*

[2] - *Codex Théodosianus, Ed.Th. Mommsen, P. Meyer, 2e édit., Berlin, 1954, XI, I, 13.*

[3]- *Cod. Théod., XII, 6, 27.*



الشكل رقم 23 : نص المواطنة المعروف بدستور أنطونينيانوس في تيفست.

أقام أهالي تيفست في سنة 212م قوس نصر على شرف كراكلا الذي منحهم حق المواطنة، وهو إهداء من كايوس كورنيليوس ايغريلياني قائد الفرقة 14 المسماة جيميناي *Geminae* وهو من أثرياء تيفست لأخويه يدعوهما إلى تقديم جزء من ثروتيهما للإلهة مينرفا.

نقلا عن: مها عيساوي، *المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، جامعة قسنطينة، 2009-2010، ص 431.*

لقد ساهمت العلاقات التجارية والاقتصادية في توحيد الطوائف المسيحية في قرطاجة وروما في كنيسة واحدة في منتصف القرن الثالث الميلادي، حتى أن معتنقي هذا الدين الجديد وشهداءه والذين انشقوا عنه، كانوا يتنقلون من روما إلى قرطاجة والعكس كما لو كان تنقلهم من ضاحية لأخرى بنفس المدينة. (1)

وهذا ما يدل على أن المسيحية توسعت بالمدن الساحلية أكثر من غيرها من المناطق الأخرى حيث يتم توظيف اليد العاملة التي تساهم في تحصيل الأنونا.

فقد كانت المدينتين الساحليتين: "روسيكاد" (*Rusicade*) "سكيكدة حاليا" و"هيبو–ريجيوس" (*Hippo-Régius*) "عنابة حاليا" تمثلان منفذا لمنطقة "سيرتا" (*Cirta*) الداخلية ومخزنا للأنونا التي يتم تحصيلها من نوميديا. (2)

وكانت لهذه المدن علاقات وطيدة مع روما ومع الشرق القديم. ويبدو أنها قد تلقت الإنجيل في وقت مبكر، يحتمل أن يكون في نهاية القرن الثاني الميلادي. (3) ويبقى هذا مجرد افتراض يحتاج الى تحقيق وتأكيد.

لقد تزايد عدد المتنصرين في منتصف القرن الثالث الميلادي، رغم الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في تلك الفترة، فقد ذكر "ج. ب. ميناج" أن أحد الأفارقة يدعى "كيليرينوس" (*Célérinus*) عرض أمام الإمبراطور بروما سنة 250م، بعد تسعة عشر (19) يوما من السجن والتعذيب بتهمة أنه مسيحي، كما أرسلت مجموعة من السجناء المسيحيين تتكون من خمس وستون (65) سجينا من قرطاجة إلى روما. (4)

خلاصة القول أن هذه الإجراءات الاقتصادية، قد سمحت بتجمع مصادر الثروة في أيدي فئة قليلة من المجتمع، هي طبقة الأثرياء والأرستقراطيين التي مكنها نفوذها من التحالف مع السلطة الرومانية، ومارست هذا النفوذ على سكان المدن والأرياف وهم

---

[1]- *Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique…, p.464.*

[2]- *C.I.L., VIII, 7960.*

[3]- *Mesnage (J.P.), le christianisme en Afrique…, p.465.*

[4]- *Ibid., pp.464-465.*

أكثرية المجتمع المغربي القديم، فتزايدت الفجوة بين الفئتين مما أدى إلى نشوب صراع طبقي-اجتماعي بين الفقراء والأغنياء غذته الدوافع الدينية مع تزايد عدد المتنصرين في أواخر القرن الثالث الميلادي.

<u>المبحث الثالث- العوامل الاجتماعية</u>: شكل الواقع الاجتماعي للأهالي حالة من السخط والتذمر تجاه السلطة الرومانية وطبقة الأثرياء، نتيجة اتساع الفجوة بين الطبقات الاجتماعية وانتشار الظلم والطغيان والاستغلال.

لقد كانت الشرائح الاجتماعية الدنيا من المجتمع المغربي القديم تعاني العبودية والاضطهاد المدمر اقتصاديا. وكانت تقبع في بؤس الإمبراطورية الرومانية، وبحثت تلك الشرائح عن مخرج لتلك الأوضاع المزرية، لكن كل الانتفاضات دلت على أن مقاومة السلطة الرومانية قد فشلت في الخروج من تلك الوضعية المتردية الصعبة التحمل. [1]

ففي تلك الظروف الصعبة، ظهرت المسيحية بتعاليمها ومبادئها التي تدعو إلى الإخاء والتسامح والمساواة والتآزر ومساعدة الفقراء، فتطلعت إليها تلك الطبقات الدنيا.

وقد أشار "ترتوليانوس" إلى الدوافع التي حملت سكان المغرب القديم على اعتناق الديانة المسيحية بقوله: « **إنكم تنظرون إلينا - يقصد الوثنيين- على أننا إخوة غير شرعيين لأنه لا مسرحية تتغنى بأخوتنا، أنتم تحطمون الأخوة، أما نحن - المسيحيون- فمتحدون روحيا وفكريا.**» [2]

يتضح مما سبق أن الديانة المسيحية قد حظيت بإقبال واسع من قبل أفراد الطبقات الدنيا في المجتمع المغربي القديم، الذين وجدوا في تعاليمها غايتهم الروحية وطموحهم الاجتماعي. وهي مبادئ وتعاليم تفتقر إليها الديانة الرومانية الرسمية، التي كانت مجسدة للتمايز الاجتماعي، مكرسة للنظام الطبقي.

---

[1]- *ف. دياكوف و س. كوفاليف، الحضارات القديمة، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، ط1، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2000 م، ج 2، ص677.*

[2]- *Tertullien, Apol., XXXIX, 10,11.*

علاوة على ذلك، فالعلاقات الاجتماعية التي كانت تربط أفراد المجتمع المسيحي كانت تقوم على أساس من الأخوة والتعاون والتضامن.

والحق أن الظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي، هما اللذان دفعا سكان المغرب القديم إلى تقبل هذا الدين الجديد، رغم الاضطهادات المتلاحقة التي تعرضوا لها منذ عهد الإمبراطور "نيرون" (*) حتى أواخر القرن الثاني للميلاد، حيث سقط أولى الشهداء الأفارقة في قرية شيلي (*Scilli*)–التي سبقت الإشارة إليها–سنة 180م.

اتسع نطاق حركة التنصير في المغرب القديم، مع بداية القرن الثالث الميلادي وتزايد الشعور بالعداء للديانة الوثنية الرومانية التي كانت تقوم أساسا على عبادة الإمبراطور وتقديسه، وقد حملت النصب المقدمة رموزا لذلك، حيث عثر عليها في مناطق عديدة من المغرب القديم. (**)

تأثر المغرب القديم في منتصف القرن الثالث الميلادي بالوضع العام الذي كانت تعيشه الإمبراطورية الرومانية، والذي كان يتسم بالاضطرابات السياسية والاقتصادية. فقد احتدم الصراع بين الإمبراطور "فاليريانوس" (***) (*Valérianus*) و"ايميليانوس" (****) (*Emilianus*) الإمبراطور ذو الأصول الإفريقية المغتصب للسلطة، حيث أن سلطته

** – **نيرون**، Lucius Domitius Claudius Néro، (37–68 م) خامس إمبراطور روماني (54–68 م)، للمزيد أنظر أعلاه، ص 199.*

*** – منها النصب الذي عثر عليه في كويكول (Cuicul) "جميلة حاليا" يحمل إهداء من قائد الفرقة الأغسطية الثالثة إلى الإله جوبيتر.* - *Carcopino (J.), Le limes de Numidie..., p.380.*

**** – **فاليريانوس** P. Licinius Valérianus، (190–260م) إمبراطور روماني (253–260م) تولى العرش بعد وفاة الإمبراطور غالوس Gallus، قاد حملة ضد منافسه على العرش إيميليانوس الذي اغتصب السلطة فتخلص منه سنة 253م، ثم حملة أخرى ضد سابور الفارسي، لكنها انتهت بأسره وتعذيبه لعدة سنوات ثم قتله وعلق جلده في القصر، يعتبر ثامن إمبراطور اضطهد المسيحيين سنة 257م.* - *Trebellius (Pollin), Histoire Auguste, trad. par F.L. legay, C.L.F. Panckoucke éditeurs, Paris, 1844, t.1, I-VII ; Dict. Univ. Hist. Géo., p.1935.*

***** – **ايميليانوس** M.J. Aemilius Emilianus، إمبراطور روماني (حكم مدة أربعة أشهر سنة 253م) من أصول إفريقية، ولد في موريطانيا، قائد الجيش الروماني ضد الفرس، تسبب بخيانته في أسر الإمبراطور فاليريانوس، أعلنه الجيش إمبراطورا ثم قتله سنة 253م.* - *Trebellius (P.), XXI ; Dict. Univ. Hist. Géo., p. 601.*

اعترفت بها نوميديا وموريطانيا فقط.[1] مما أدى إلى انقسام الإمبراطورية الرومانية في سنة 253م على نفسها بسبب التنافس على العرش.

وكان من نتائج ضعف روما في تلك الفترة، تزايد قوة القبائل الأمازيغية التي انتفضت في ثورات متلاحقة ضد السلطة الرومانية، وبدت كأنها الشكل الجهوي للأزمة التي كانت تمر بها الإمبراطورية الرومانية في منتصف القرن الثالث الميلادي.[2]

وقد خلدت بعض الأنصاب انتصارات الأباطرة الرومان على القبائل الأمازيغية، منها نصب عثر عليه في كويكول (*Cuicul*) "جميلة حاليا" يعود تاريخه إلى سنة 255م، يحمل إهداء من قائد الفرقة الأغسطية الثالثة (*III^{e} légio Augusta*) إلى الإله "جوبيتر" [*] (*Jupiter*) يشكره على مساعدته في توفيق الإمبراطور الذي تحقيق عدة انتصارات على القبائل الأمازيغية.[3]

وأقام الليغاتوس "ماكرينيوس ديكيانوس" (*Macrinius Décianus*) قائد الفرقة العسكرية في نوميديا في سنة 259م نصبا شكرا للآلهة على النصر الذي حققه في منطقة "ميلاف" (*Milev*) "ميلة" حاليا،[4] وفي تخوم نوميديا وموريطانيا على قبائل

---

[1]- C.I.L., 21829; R.S.A.C., 8e Vol., 1876-1877, p.143.

[2]- Carcopino (J.), « l'insurrection de 253 d'après une inscription de Miliana », Rev.Afri. n°60,1919, p.380,

** – جوبيتر (Jupiter)، يعتبر من أكبر وأقدم الآلهة الرومانية، يعرف عند الإغريق بالإله "زيوس" Zeus، وهو سيد الآلهة اليونانية والرومانية، ابن ساتورن Saturne وري Rhée، أقيمت له عدة معابد في الكابتول الذي يجمع زوجته جنون Junon وابنته مينارف Minerve. محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في قرطاج، منشورات البحر المتوسط، تونس، 1999، ص 316.*

-Dict. Univ. Hist. Géo., pp.979-980.

[3]- Carcopino (J.), l'insurrection de 253…, p.380.

[4]- Ibid., pp.380-381.

الباوار[*] (*Bavares*) وحلف القبائل الخمس [**] (*Quinquegentiani*) وقبائل الفراكسيننس (*Faraxinenses*). [1]

وقدم حاكم مقاطعة موريطانيا القيصرية (*le praeses*)[***] في 263م نصبا بـ "زوكابار"[****] (*Zucchabar*) "مليانة" (*Miliana*) حاليا، شكرا للآلهة الوطنية بمناسبة عودة الأمن والاستقرار إلى المقاطعة بعد إخماد الانتفاضات البربرية في المغرب القديم. [2]

وقد توغلت حركة التنصر عند القبائل الجيتولية والمورية في منتصف القرن الثالث الميلادي، وضمت المجامع الكنسية التي انعقدت في قرطاجة خلال سنوات 220م و255م و256م، أساقفة من نوميديا وعدد قليل من أساقفة موريطانيا في المجمع

---

* – ***الباوار** أو **البابار**، قبائل بربرية وصفتها بعض المصادر والنقوش اللاتينية بالشعب الكبير Gentis multus، واشتهرت بكثرتها وقوتها. ظهرت هذه القبائل على مسرح الأحداث خلال القرن الرابع الميلادي، وتنقسم حسب بعض المؤرخين إلى باوار غربيين "ناحية تلمسان" وباوار شرقيين "جبال البابور–القبائل الشرقية"، وفيهم الجبليون المزارعون والبدو الرحل، وكانوا ينتجعون في منطقة تمتد من نهر ملوية غربا إلى سهول سطيف العليا شرقا.* - *Camps (G.), « les Bavares », Rev. Afri., n°99,1955, p.277 ; Thouvenot (R.), Rome et les Barbares Africains, à propos d'une inscription de Volubilis, publications du service des Antiquités du Maroc, VII, 1945, p.181.*

** – ***حلف القبائل الخمس**، كونفدرالية قبائل كانت تتمركز في منطقة ساحلية بين بجاية ودلس، وتتكون من القبائل التالية: ماسينيسن، تيندن،ايسفلن، يوبلاني، وبيسالن، تحولت إلى قوة ضاربة في المنطقة بقيادة فاراكسن (Faraxen) الذي تمكن من اكتساح مقاطعة نوميديا.* - *Ammien Marcellin, Histoires, imprimerie Jean-Marie Bruyset, Lyon, 1778, XXVIII, 6 ; XXIX, 5 ,2.*

1 -*C.I.L., VIII, 2615.*

*** – *لم يشر النقش إلى اسم الحاكم ولكن ذكر باسم حاكم المقاطعة "Praeses Provinciae".* - *Gaffiot (Félix.), Dictionnaire Abrégé Latin-Français, librairie Hachette, Paris, 1936, p.494.*

**** – ***زوكابار**، Zucchabar، هي مدينة مليانة حاليا، ذكرتها النصوص القديمة بعدة أسماء: Malliana-Maliana-Manliana، هذا الترادف يرتكز على التشابه في الأسماء، وحسب ليون الإفريقي فإن المدينة كانت تعرف خلال الفترة الرومانية باسم (Magnana). وذكرها أميانوس ماركيلينوس باسم Zucchabari ، أما مسلك أنطونينوس فيحدد موقعها بين " الخضرة" (Oppidum Novum) و "عمورة" (Sufasar)، إذ تبعد عن Oppidum بحوالي 18 ميلا وعن Sufasar بحوالي 19 ميلا. وقد عثر على نقش يذكر عائلة باسم (Manlia) وأن اسم المكان Manliana مشتق من اسم هذه العائلة، أو اسم زوجة أحد الفرسان الرومان تدعى (Manlia Secundilla)* - *Gsell (S.), A.A.A., f. 13, Miliana, 70 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, pp. 462 ; Ammien Marcellin, XXIX, 5, 20.*

2- *Carcopino (J.), l'insurrection de 253…, Op.cit., p.283.*

الكنسي الذي انعقد في سنة 256م. ويبدو أن مجمعا كنسيا انعقد سنة 250م في لمبازيس (*Lambaesis*) [*] قرب باتنة، ضم تسعين (90) قسا لمحاكمة أحد المبتدعين الهراطقة. [1]

بدأ الاضطهاد في عهد الامبراطور "فاليريانوس" (*Valérianus*) في شهر أوت سنة 257م. [2] أي بعد أربع سنوات من توليه الحكم، حيث أصدر أحكاما بالإعدام وبالأشغال الشاقة على عدد من أساقفة نوميديا، [3] ومن بين هؤلاء القديس "سبريانوس" (*St. Cyprianus*) الذي أعدم سنة 258م. [4]

يظهر من نقيشة سيرتا [**](*Cirta*) التي عثر عليها "ستيفان غزال" (*S.Gsell*) منقوشة على صخرة عند مدخل وادي الرمال، أسماء عدة شهداء في مقدمتهم: القديسين "ماريان" (*St.Marien*) و"جاك" (*St. Jacques*) [5] الذين تم إيقافهم صحبة عدد آخر

** – **لمبازيس** Lambaesis-Lambèse ، هي مدينة تازولت حاليا، تقع جنوب شرق باتنة بحوالي 11 كلم، كانت بلدية (municipe) خلال الفترة الرومانية في سنة 197م وربما منذ سنة 173م، صنفها القديس سبريانوس كمستوطنة (colonia) في منتصف القرن الثالث للميلاد، كانت السلطة الرومانية ترسل إليها المعتقلين السياسيين لأنها كانت مقر حاكم نوميديا. -Toulotte (Mgr.), Géographie de l'Afrique chrétienne, Typographie Oberthur, Rennes-Paris, 1892, p.55 ; C.I.L., t. VIII, 2528,2598 ; Gsell (S.), A.A.A., f.27, Batna, 224 ; Dict. Univ. Hist. Géo, p. 1033 ; De la Marre (A.H.), Recherches sur l'ancienne ville de Lambèse, imprimerie de Crapelet, Paris, 1850, pp. 28-32.*

1- Gsell (S.), l'Algérie dans l'Antiquité…, p.91.

2- Cagnat (R.), l'Armée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, imprimerie Nationale E. Leroux, Paris, 1913, p.65.

3- Gsell (S.), l'Algérie dans l'Antiquité…, pp.91-92.

4- Monceaux (P.), H.L.A.C., II, p.232.

*** – **سيرتا** (Cirta - Constantine)، كانت تعرف خلال الفترة البونية باسم " كرتن" أي العاصمة المحصنة، تقع على وادي الرمال، كانت عاصمة نوميديا في عهد ماسينيسا ويوغرطة، وخلال الفترة الرومانية أرسل إليها يوليوس قيصر المغامر "سيتيوس" فأصبحت مستوطنة Colonia Sittianorum Cognomine ثم شكلت فيما بعد مع: روسيكاد "سكيكدة" وميلاف "ميلة" وشولو "القل" ما يعرف بالإتحاد السيرتي "Coloniae Cirtenses"، انعقد بها أول مجمع دوناتي في 5 مارس سنة 305م ضم 11 أسقفا، أعاد قسطنطين بناء المدينة سنة 314م بعد أن دمرت أثناء صراعه مع الطاغية ألكسندر وماكسنتيوس (Maxentius). - C.I.L., VIII, 979,1847 ; Gsell (S.), A.A.A., f.17, Constantine, 126 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne, pp.275-279 .*

5- C.I.L., VIII ; Anonyme, Vies des Saints d'Afrique, pp.46-48.

من الأشخاص سنة 259م خلال فترة اضطهادات "فاليريانوس" بمزرعة قرب سيرتا، نقلوا إلى لمبازيس (*lambaesis*) مقر إقامة حاكم نوميديا حيث حوكموا وأعدموا هناك مع عدد من الرجال، وقد سكتت المصادر والمراجع عن أسمائهم. [1] وعرفوا فيما بعد بشهداء سيرتا.

ويرى بعض المؤرخين المسيحيين منهم الأب "تولوت" (*Toulotte*) من جهة أخرى أنهم حوكموا في لمبازيس، لكنهم أعدموا في سيرتا وهو ما تبينه نقيشة سيرتا. [2] وهذا ما يجعلنا نرجح فرضية أن أغلب الذين اعتنقوا المسيحية، كانوا من الطبقة الدنيا في المجتمع، على الأقل في القرون الثلاثة الأولى من ظهور المسيحية ببلاد المغرب القديم.

ولما كان أغلب هؤلاء المضطهدين من الطبقة الدنيا أي الفقراء، فقد دعا القديس "سبريانوس" إلى ضرورة الاعتناء بهم بقوله: «***إنهم يقاومون بشجاعة نادرة إلى جانبنا، ولم يتخلوا عن المسيحية رغم الاضطهادات العنيفة والمتكررة.***» [3]

وهكذا يتضح موقف السلطة الرومانية من المسيحية التي ناصبتها العداء منذ أيامها الأولى كما أشار إلى ذلك "ترتوليانوس" [4]: « ***لقد تم نكران الحقيقة منذ ولادتها، ومنذ أيامها الأولى تعاملوا معها كعدو.*** »

نستنتج مما سبق، أن أغلب المضطَهَدين من المسيحيين، كانوا من الطبقة الدنيا في المجتمع المغربي القديم، على اعتبار أن هذه الطبقة لا يحميها القانون ولا تحظى بدعم من المجتمع. فقانون العقوبات الروماني –كما ذكرنا آنفا– يميز بين نوعين من الناس بناء على المنزلة الاجتماعية، فهو يبيح الحكم بالإعدام رميا إلى الحيوانات

---

[1] - *Gsell (S.), « Observations sur l'inscription des martyrs de Constantine », R.S.A.C, n° 9,1895-1896, pp.212-213.*

[2]- *Toulotte (Mgr.), Géographie de l'Afrique chrétienne, Op.cit., p.38.*

[3] - *Cyprien (St.), Lettres, trad. par L. Bayard, Paris, les belles lettres, 1923- 1933, XII, 2.*

[4] - *Tertullien, Apol., VII, 3.*

الضارية على من تثبت ضده تهمة الإجرام من الطبقة الدنيا، وتستثني هذه العقوبة من يرتكب نفس الجرم من طبقة الأشراف. [1]

المبحث الرابع–العوامل الدينيـــة: يمكننا أن نتساءل: ما الذي فتن أرواح الجماهير المسيحية وانجذبت نحو الدوناتية؟ هل يعود ذلك إلى مبادئها المتفردة، وعنادها الطائفي الذي كان الكاثوليك يعاتبونها عليه؟

لقد كانت الدوناتية تستجيب لطموحات الجماهير بفضل هذه المبادئ، وبفضل نظرتها الواقعية إلى دور الإنسان في الحفاظ على الأسرار المسيحية، وميولها التقليدية، واحترامها للتقاليد الإنجيلية الإفريقية، وصرامة نظامها، وتصورها للكنيسة التي أنتجت استقلالية المسيحية المحلية، وخصوصيتها الوطنية، ومعارضتها للسلطة الرومانية.

كان تصور الدوناتيين للكنيسة دوما ينحصر في تشكيل كنيسة وطنية خالصة، فمنظري الحزب كانوا يعتبرون أن الكنيسة الحقيقية، من حيث المبدأ، كانت دائما عالمية، ويعترفون أيضا أن هذه الكنيسة كانت منتشرة عبر كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وقد شملت الشعوب البربرية أيضا.

لكن من جهة أخرى كانوا يرون أنها انحصرت في زمانهم في المغرب القديم فقط، ويعتقدون أن مسيحيي روما والبلدان الأخرى قد ضلوا الطريق حينما تضامنوا مع المتخاذلين والمرتدين المغاربة، وبذلك أصبحوا متواطئين معهم دون أن يشعروا، فنقلوا لهم الدنس والرجس وراثيا، لذلك لا يوجد المسيحيين الحقيقيين إلا في جماعات حزب "دوناتوس". [2] إذن، فكنيسة "دوناتوس" هي الوحيدة في العالم التي تمثل الكنيسة الحقيقية.

---

[1]- *شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق، ص ص 270-271.*

[2] - *Optat (St.), II, 1-13; Augustin (St.), Epist., 93, 10, 44.*

لقد رفضت الدوناتية دائما ألقاب الاحتقار والازدراء التي نعتها بها خصومها مثل: حزب أو فريق "دوناتوس" (*Pars Donati*)، والمنشقون الدوناتيون (*Schisma Donati*)، والدوناتيين (*Donatistae*). [1] وكانت في نظر أتباعها وأنصارها هي الكنيسة الحقيقية الوحيدة واستمرت في المطالبة بهذا اللقب. ففي سنة 313م حينما قدم المنشقون قرار الاتهام ضد "كايكيليانوس" كان باسم الكنيسة الكاثوليكية (*Libellus Ecclesiae Catholicae*). [2]

وأثناء محاكمة الأسقف "فليكس الأبتونجي" (*Félix d'Apthungi*) في سنة 314م بدأ محامي المنشقين خطابه بهذه العبارات: «***أنا أتكلم باسم وجهاء وأعيان*** [*] ***(Séniores) الشعب المسيحي، والقانون الكاثوليكي...*** ». [3]

واستند أحد الهجائين بعد ذلك ببضع سنوات، ببيان شهداء "أبيتينا" (*Abitina*) حتى يظهر أن كنيسته هي "الكنيسة الوحيدة المقدسة، وأنها الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية". وأقحم هجاء آخر "الشيطان" نفسه، محاولا تفسير الاختلاف وسوء التفاهم حول هذا الاسم قائلا:« ***استطاع الشيطان أن يحفظ هذا الاسم المقدس "الكاثوليك" لأولئك المتخاذلين المرتدين، حتى يقنع الجميع بأن الكاثوليكيين الحقيقيين كانوا من المنشقين والمبتدعة.*** » [4]

وقد دعم مجادلو هذه الطائفة نفس الطرح بكل قوة. فلما انعقدت مناظرة قرطاجة سنة 411م، انحصرت المناقشات بين الكاثوليك والدوناتيين حول هذا الموضوع. وحاول

---

[1]- *Augustin (St.), Brevic.Collat., III, 3, 3 ; 4,5.*

[2]-*Augustin (St.), Epist., 88, 2 ; 93, 4, 13.*

** – **الأعيان**، كانوا من العامة ويشكلون نوعا من مجلس استشاري يساعد الأسقف في مناقشة قضايا الرعية، وإدارة أملاك الكنيسة وترميم بناياتها. وربما كانوا ينتخبون لأداء هذه المهمة، ويبدو أن وجودهم كان ظاهرة خاصة بالمغرب القديم في القرنين الرابع والخامس. وكان لهم دور فعال في الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية، ففي سنة 312م ساهم الأعيان في الانشقاق في قرطاجة، وفي سنة 392م أعطوا الإشارة للاحتجاجات ضد تصرفات "بريميانوس"(Primianus) ودعوا إلى عقد المجامع. عن دور الأعيان أنظر: - Monceaux (P.), H. L. A. C., IV, P. 143 ; Frend (W.H.C.), The Séniores Laïci and the origin of the church in North Africa, J.T.S., XII, 2, 1961, pp. 280- 284.*

[3]- *Monceaux(P.), H.L. A. C., IV, p. 169.*

[4]- *Augustin (St.), Brevic. Collat., III, 3, 3; 4, 5.*

كل طرف التأكيد على أنه الممثل الحقيقي" للكنيسة الكاثوليكية"، في الوقت الذي بقيت مسألة الارتداد التي يعتقد أنها كانت وراء الانشقاق خارج إطار المناقشات.

يشكل إخلاص ووفاء أتباع الدوناتية وأنصارها أحد أهم معالمها الدينية المميزة عبر تاريخها الطويل، علاوة على الحقد الذي كانوا يكنونه للكاثوليك. ولعل من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى مقت وكره الكنيسة الكاثوليكية المنافسة لهم: أنها اغتصبت – في اعتقادهم– الاسم المقدس "كاثوليك" وأقصت خصومهم وصنفتهم في فئة المبتدعة والهراطقة والمنشقين. [1]

ويعود السبب الثاني إلى تنامي الحقد تجاه الكنيسة الكاثوليكية، لأن كنيسة "المتخاذلين" كانت هي الكنيسة الرسمية، وكانت تلقى الدعم الكامل من السلطة الزمنية وهي التي أثارت الاضطهاد ضد الدوناتيين. [2] ويتمثل السبب الثالث في أن المؤمنين من كلا الكنيستين كانوا يتواجدون معا في المدن والقرى، ويتنازعون الأنفس والأراضي والكنائس، وتصل المنازعات أحيانا إلى استعمال العنف، ويكنون الحقد لبعضهم البعض، فكان صراعهم بمثابة الإخوة الأعداء. [3] وقد يكون هذا السبب الثالث هو الأقرب إلى المنطق.

لقد اعتبرت كنيسة "دوناتوس" الكاثوليك على أنهم مجرد وثنيين عوام، لأنهم قاموا بتسليم الكتب المقدسة أثناء اضطهادات الإمبراطور" ديوكليتيانوس"، وتضامنوا مع الخونة الذين قاموا بتسليمها، وقبولهم إرث المتخاذلين والمرتدين. وبذلك فقدوا كل حقوقهم في لقب "المسيحيين" فتعميدهم، وأسرارهم، وطقوسهم، كل ذلك أصبح باطلا ولا قيمة له. [4] لذلك كان هجاؤوا حزب "دوناتوس" يعتبرون الكاثوليك بأنهم حلفاء الشيطان. [5]

---

[1]- *Optat (St.), II, 1-13; Augustin (St.), Brevic.Collat., III, 3, 3.*
[2]-*Optat (St.), I, 5-6; III, 1-10; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., 11, 18, 40.*
[3]-*Optat (St.), I, 3 ; II, 18-19 ; Possidius, Vita Augustini, P.L. 32, col. 54-55, éd.Pellegrino, 1955, 8-16.*
[4]-*Optat (St.), III, 11; Augustin, (St.), Epist., 35, 3.*
[5]-*Id., Cont. Litter. Petil., 11, 17, 38.*

ويذكر "أوبطا الميلي" أن المبعوثين الإمبراطوريين "ماكاريوس" (*Macarius*) و"بولوس" (*Paulus*)، حينما قدما إلى إفريقيا سنة 347م لتطبيق مرسوم الوحدة أرغما المؤمنين على تعظيم صورة كانت بمذبح كنيسة في نوميديا. [1]

وقد وجدت هذه الروايات صدى لدى الدوناتيين، بعد ذلك بحوالي ستين سنة. ففي عام 408م كتب "أوغسطين": « ***كم من الدوناتيين الذين ترددوا في اجتياز عتبة كنيستنا، والذي منعهم أقوال بعض المفترين والوشاة، بأننا نضع أشياء معينة على مذبح الإله*** ... » [2]

وحاول أسقف روما الدوناتي في سنة 378م أن يثبت أن البابا "داماس" (*Damase*) نفسه كان وثنيا. [3] يبدو أن أغلب المنشقين في المغرب القديم كانوا يعتقدون جازمين أن الكاثوليك وثنيين، لذلك عاملوهم على هذا الأساس.

يتعذر علينا أن نتصور الحد الذي بلغه هذا الحقد، وقد تأكد بشكل خاص في كل ما له علاقة بالعبادة. فمجرد حضور كاثوليكي في معبد "القديسين" (*les Saints*) فإن ذلك يعتبر تدنيس له. لذلك منع الكاثوليك من دخول كنيسة المنشقين، وحدث في مدينة "هيبو– ريجيوس" (عنابة حاليا) أن منع أحد الكهان كان يراقب أبواب الكنيسة الدخلاء والمتطفلين من اجتياز المدخل. [4]

ولما يستعيد الدوناتيون كنيسة من الكاثوليك، فإنها لا تكرس للعبادة إلا بعد تطهيرها كلية. وتبدأ عملية التطهير بكسر الكؤوس وكل الأثاث الذي استعمل في الطقوس، وقد يباع أحيانا. [5] ثم يخرب المذبح أو يحرق، أو على الأقل يتم حكه وتقشيره بقوة بشكل يزيل آثار أيدي المحتفل بالقداس المدنسة، [6] ثم تغسل الأرضية

---

[1]-*Optat (St.), III, 12.*
[2]-*Augustin (St.), Epist., 93, 5, 17.*
[3]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p 171.*
[4]-*Augustin (St.), Epist., 108, 5, 14.*
[5]-*Optat (St.), VI, 2.*
[6]-*Optat (St.), VI, 1.*

والجدران بالماء المالح. [1] أما الكاثوليك الذين انضموا إلى الكنيسة الدوناتية، فقد شبهوا بالوثنيين سواء منهم المتدينين العوام أو رجال الدين والأساقفة، وأصبحوا مضطرين للندم والتوبة، فيعاد تعميدهم، وسيامتهم من جديد. [2]

يبدو أن التزمت الكنسي الدوناتي قد حقق عدة انتصارات خاصة في عهد الإمبراطور "جوليان" (*Julien*). حيث قام بعض الأساقفة النوميد تدعمهم "عصابات الدوارين" –كما وصفهم "أوبطا الميلي"–[3] بحملة للاستيلاء على الكنائس، وحمل الجماهير على اعتناق المسيحية الحقة. وكانوا يجوبون مناطق كثيرة في نوميديا وموريطانيا، فأثاروا الرعب في المدن والقرى. فقد كانوا يهاجمون الكنائس لتطهيرها – حسب اعتقادهم– موبخين المؤمنين، وقتل رجال الدين، وتطهير الكاثوليك من الأرواح الخبيثة، وإهانة الأساقفة والقساوسة والشمامسة الذين يأتونهم طوعا أو كرها.

خلاصة القول أن ما ساعد على انتشار وتوغل العقيدة المسيحية في المغرب القديم، مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية. رغم ما اعترض سبيلها من مصاعب وعقبات طيلة ثلاثة قرون إلى أن اعتنق "قسطنطين" المسيحية واعتبرها ديانة رسمية للدولة الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي.

وقد ساعدت هذه العوامل على تقوية روح التضامن والتآزر بين أفراد الطائفة المسيحية، كما كان لها الأثر العميق في نفوس المقهورين والمضطهدين وفي تقوية إيمانهم لمواجهة الوثنيين والسلطة الرومانية.

---

[1]-*Optat (St.), II, 21; VI, 6; Augustin (St.), Epist., 108, 5, 14.*

[2]-*Saumagne (Ch.), « Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? les circoncellions d'Afrique », A.H.E.S., t. IV, 1934, p.56.*

[3]- *Optat (St.) , II, 19-26 ; VI, 4.*

الفصل الثالث:

موقف السلطة الرومانية من حركة التنصير في المغرب القديم

المبحث الأول–مرحلة العداء الشديد للمسيحيـة (64م–311م)

المبحث الثاني–مرحلة الاحتواء وتنصر السلطـة (311م –392م)

المبحث الثالث–مرحلة الانشقاقات زمن أوغسطين(392م–430م)

تعرض المسيحيون في المغرب القديم خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد من ظهور المسيحية إلى حركة اضطهاد واسعة. لكن الأطول في تاريخها هي تلك التي شنها الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (*Dioclétianus*) منذ سنة 303م. وبالرغم من استقالته في سنة 305م إلا أن الاضطهادات استمرت إلى سنة 311م في ظل حكم الرباعية (*Tétrarchie*). (*) (الشكل رقم 24 ص 272)

وبلغت تلك الاضطهادات درجة من الحدة والعنف كادت أن تدمر الكنيسة المسيحية بصفة جذرية من خلال مصادرة الممتلكات، وتهديم الكنائس، وحرق الكتب المقدسة، وتوقيف الأساقفة ونفيهم. [1]

وأسفرت تلك الاضطهادات عن حالة من الهيجان والاضطرابات والانقسامات في صفوف المسيحيين، مما يوحي بأنها كانت فعالة في بعض المناطق، وأن حالات الردة كانت كثيرة، وأقدم الكثير من المسيحيين على شراء تذاكر التضحية وكانوا يتظاهرون بتسليم الكتب المقدسة، والواقع أنهم سلموا للسلطات الرومانية كتب الهرطقة.

* – *مصطلح يطلق على شكل من أشكال الحكم يتقاسم فيه السلطة أربعة أشخاص، ويبدأ حكم الرباعية مع تولي الإمبراطور "ديوكليتيانوس" الحكم سنة 284م، أشرك معه "ماكسيميان هرقل" في السلطة في سنة 285م بمنحه القسم الغربي من الإمبراطورية وكان يقيم في ميلان، بينما تولى هو القسم الشرقي، وكانت إقامته في نيكوميديا Nicomédie "إزمير" في تركيا حاليا، وفي سنة 293م تقاسم الحكم أربعة أباطرة: "غاليريوس" و"كونستانس" برتبة قيصر César، "غاليريوس" يساعد "ديوكليتانوس" في البلقان أما "كونستانس" فيساعد "ماكسيميان" في الغرب. وكان "غاليريوس" قيصر يحكم اليونان و"إلليريا" Illyria ، وإقامته في سيرميوم Sirmium ، و "كونستانس" قيصر يحكم: غاليا، أسبانيا، وبريطانيا وإقامته في مدينة تراف Trèves، أما "ديوكليتيانوس" فكان برتبة أغسطس Auguste وتولى حكم مصر وآسيا وإقامته في نيكوميديا Nicomédie ، وماكسيميان أوغسطس تولى حكم إيطاليا وإفريقيا وكانت إقامته في ميلان Milan ثم عرف هذا التقسيم تحسنا بعد وفاة ثيودوز Théodose سنة 396م فظهرت أربع مقاطعات هي بلاد الغال، إيطاليا، إلليريا والشرق.*

- Dict. Univ. Hist. Géo., p.1856 ; Batiffol (P.), la paix Constantinienne et le Catholicisme, Paris, Lecoffre Librairie, 1929, pp.155-156.

[1] *- Meslin (M.), Hadot (P.), A propos du donatisme, A.S.S.R., n° 4, 1957, p.143.*



الشكل رقم 24: معلم الحكام الأربعة (*Tétrarques*).

نحت بارز من الرخام السماقي يعود إلى القرن الرابع يمثل الحكم الرباعي مع تولي الإمبراطور "ديوكليتيانوس" الحكم سنة 284م. نقل هذا المعلم من القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية إلى كنيسة القديس "مرقس" في البندقية.

نقلا عن: *-Michel Christol et Daniel Nony, Des Origines de Rome aux Invasions barbares, Hachette, Paris, 1974, p. 206.*

وكانت نهاية الاضطهادات بصدور قرار "ليكينيوس" (*Licinius*) سنة 311م وهو قرار التسامح الذي رفع السيف عن رقاب النصارى، والذي أتبعه تحول غير منتظر لوضعية الكنيسة، بعد اعتناق الإمبراطور "قسطنطين" (*Constantin*) للمسيحية وجعل من الكنيسة المضطهدة كنيسة محمية بقوة القانون ثم حليفة للدولة فيما بعد. [1] جدير بنا قبل أن نخوض في تاريخ الاضطهاد الروماني، أن نذكر ببعض الحقائق العامة عن تلك الاضطهادات.

1- يشير بعض المؤرخين أن المسيحيين تعرضوا إلى عشرة اضطهادات من سنة 64م إلى سنة 313م وهي السنة التي يسميها المسيحيون "سنة البراءة"، وشاعت عند المؤرخين باسم "مرسوم ميلانو"، [2] الذي ينص على وقف الاضطهاد. وهذا يعني أن الاضطهاد امتد حوالي مائتين وخمسين (250) سنة تعاقب فيها كثير من الأباطرة على اضطهاد المسيحيين وهم: "نيرون" (54-68م)، "دومتيانوس" (81-96م)، "تراجانوس" (98-117م)، "ماركوس أوريليوس" (166-177م)، "سبتيموس سفيروس" (193-211م)، "ماكسيميانوس" (235-238م)، "دكيوس" (249-251م)، "فاليريانوس" (253-260م)، "ديوكليتيانوس" (284-305م) "غاليريوس" و"ماكسيميانوس" (305م-313م). وهذا التقسيم عرفي اصطلح عليه المؤرخون إذ لا يعني أن الاضطهادات حدثت عشر مرات فقط، فهناك اضطهادات أخرى وقعت في فترات متقطعة مثل اضطهاد "كراكلا" (211م).

2- أن الاضطهاد الروماني حدث بموجب تشريع صدر عن الإمبراطور "نيرون" (*Néron*) سنة 64م والذي يقضي بمنع اعتناق الديانة المسيحية.

3- أن تلك الاضطهادات كانت قد مست جميع المسيحيين.

---

[1]- *Meslin (M.), Hadot (P.), Op.cit., pp.143-144.*

[2]- *رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ج 2، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص 77.*

يمكن أن نميز إذن ثلاث مراحل في تاريخ الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في المغرب القديم، والذي طبع السياسة الدينية للإمبراطورية الرومانية منذ ظهور المسيحية.

أولا-مرحلة العداء الشديد للمسيحية (64م-313م): تبدأ هذه المرحلة منذ ظهور المسيحية إلى مطلع القرن الرابع الميلادي وتنقسم هذه المرحلة إلى فترتين:

1-فترة الاضطهادات المتقطعة: وتبدأ من اضطهادات الإمبراطور "نيرون" (*Néron*) سنة 64م إلى بداية اضطهادات "ديوكليتيانوس" سنة 303م.

2-فترة الاضطهادات العنيفة: وتبدأ من سنة 303م مع اضطهادات الإمبراطور "ديوكليتيانوس" وتنتهي سنة 313م بصدور "مرسوم ميلان" في عهد الإمبراطور "قسطنطين".

ثانيا-مرحلة الاحتواء وتنصر السلطة (313م -392م): وهي مرحلة احتواء السلطة الرومانية للمسيحية منذ صدور المرسوم الإمبراطوري سنة 311م الخاص بالتسامح الديني.

ثالثا-مرحلة الانشقاقات الداخلية زمن "أوغسطين" (392-430م): تبدأ هذه المرحلة سنة 392م وهي السنة التي توفي فيها "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) زعيم الكنيسة الدوناتية وعين فيها "أوغسطين" أسقفا جديدا لأبرشية هيبو-ريجيوس (*Hippo-Regius*) "عنابة حاليا"، وقد لعب دورا بارزا في إحداث الانشقاق داخل الحركة الدوناتية لإضعافها، إلى سنة 430م تاريخ الغزو الوندالي للمغرب القديم.

<u>المبحث الأول -مرحلة العداء الشديد للمسيحية (64م-311م):</u> تبدأ هذه المرحلة منذ ظهور المسيحية إلى مطلع القرن الرابع الميلادي تاريخ تبني السلطة الرومانية المسيحية كديانة رسمية للدولة، وتنقسم هذه المرحلة إلى فترتين:

أولا-فترة الاضطهادات المتقطعة: (64-303م) وشملت القرون الثلاثة الأولى للميلاد إلى مطلع القرن الرابع الميلادي، ومن أبرز الأباطرة الذين اضطهدوا المسيحيين خلال هذه الفترة: "نيرون" (64-68م)، "دومتيانوس" (95م)، "تراجانوس" (106م)، "ماركوس أوريليوس" (166-177م)، "سبتيموس سفيروس" (199-204م)، "كراكلا" (211-

217م)، "ماكسيميانوس" (235-238م)، "دكيوس" (250-251م)، "فاليريانوس" (258-260م)، "أوريليانوس" (275م) و"ديوكليتيانوس" (303-305م). (*)

1-**الاضطهاد في عهد نيرون (**) (64-68م):** اتسم عهد "نيرون" في البداية بالحكم الصالح وذلك بتوجيه من معلمه الفيلسوف "سيناك" (*Sénèque*)، لكن سرعان ما انقلب حكمه إلى كابوس من المؤامرات والاغتيالات حتى أصبح عهده مضربا للأمثال في الاغتيال. كان الإمبراطور "نيرون" أول إمبراطور روماني اضطهد المسيحيين في سنة 64م. فمنذ الأيام الأولى للكنيسة المسيحية علمت بها السلطة الرومانية وميزت بينها وبين اليهودية، فقد سمح لليهود بممارسة شعائرهم الدينية، في حين تعرض المسيحيون للاضطهاد الذي استمر عدة سنوات إلى نهاية عهده سنة 68م.

لقد تجاوز الاضطهاد أسوار روما ليصبح عاما، حيث شمل مختلف أرجاء الإمبراطورية. وحمل "نيرون" المسيحيين مسؤولية حريق روما سنة 64م، وأذيقوا بسببه ألوانا من التعذيب والاضطهاد. (1)

يذكر "تاسيت" (*Tacite*): « **أن الحكم الذي صدر ضدهم لم يكن بناء على أدلة واضحة تثبت أنهم هم الذين أشعلوا النار في المدينة. بل أدينوا لأنهم يكرهون الجنس البشري كله.** » (2)

يتضح من النص أن الشكوك الموجهة إليهم تحولت إلى اتهامات أخرى أكثر خطورة، حيث كان ينظر إليهم على أنهم جنس بشري من نوع خاص، يكنون الحقد للنوع الإنساني.

\- التواريخ المذكورة تمثل فترة الاضطهاد بالنسبة لكل إمبراطور ولا تمثل فترة الحكم.

***- **نيرون**، Nero Claudius Caesar ، (37- 68م)، إمبراطور روماني (54م- 68م)، ابن كلوديوس بالتبني، كان يعتقد أنه شاعر وفنان كبير حتى أنه قال وهو يحتضر: "ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي"، مات منتحرا. للمزيد أنظر أعلاه، ص 199.* - *Fredouille (J.C.), Dictionnaire de la Civilisation Romaine, Op.cit., p.171.*

(1)- *Allard (P.), Histoire des Persécutions, t. I, p.61.*

(2)- *Tacite, Annales, trad. Par J.L. Burnouf, Paris, Librairie Hachette, 1859, XV, 38.*

ويشير في مقام آخر أن المسيحية لم تكن لها حظوة في الأوساط الشعبية في عهد "نيرون"، وأن الافتراءات التي انتشرت وألصقت بها كانت السبب في الاتهامات الموجهة إليها، ولهذا أدين المسيحيون بضلوعهم في حريق روما، ليس بإثبات أدلة مباشرة، ولكن لأن المسيحيين بإمكانهم ارتكاب أي جريمة. [1]

وكان لانتشار الإشاعات ضد هذه الديانة الجديدة على المجتمع الروماني، أن أدين أتباع المسيحية من قبل الإمبراطور "نيرون" نفسه على أنهم أعداء الشعب، وأحداث سنة 64م اتخذها "نيرون" ذريعة للتنكيل بهم.

وأشار "سويتونيوس" (*Suétonius*): « ***أن نيرون سلط على المسيحيين أقسى أنواع التعذيب واعتبر عقيدتهم باطلة وخرافة وأنهم أشرار.*** » [2]

لكننا نلاحظ أن "سويتونيوس" كتب هذه العبارة في الفقرة السادسة عشر من سيرة "نيرون" الذاتية، في حين تحدث عن حريق روما في الفقرة الثامنة والثلاثين. وأعتقد أنه لا توجد أية علاقة بين الحدثين، فسبب اضطهادهم يعود لاعتناقهم هذه الديانة الجديدة، واتهامهم بالحريق لم يكن إلا حجة افتعلتها السلطة الرومانية. وكان ذلك إيذانا ببداية الاضطهاد الديني الذي مس أتباع المسيح (**عليه السلام**) في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية.

أصيبت العاصمة روما في شهر جويلية سنة 64م أي في السنة العاشرة من حكم "نيرون" بحريق مروع لم تشهد مثله من قبل، ظل مشتعلا مدة تسعة أيام حتى التهم ثلثي المدينة. [3] وإذا كان مسيحيو روما قد اتهموا جماعيا بحريق روما، ونظرت إليهم السلطة الرومانية على أنهم مجموعة من مثيري الحرائق وطائفة فوضوية وعدمية (نظرية تنكر

---

[1]- *Tacite, Annales, XV, 44.*

[2]- *Suétonius, Néro, XVI.*

[3]- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 2، ص 135.*

القيم الأخلاقية)، فليس غريبا على هذه السلطة أن تبحث في المقاطعات الأخرى خارج روما عن فروع هذه الديانة وامتداداتها وتشعباتها.

وقد بلغ الأمر بالإمبراطور "نيرون" أن أصدر مرسوما يعطي لهذه الاضطهادات الشكل القانوني. وفي هذا السياق يذكر المؤرخ الأسباني "بول أوروز" (*) (*P. Orose*): « ***أن نيرون نكل بالمسيحيين وأمعن في تعذيبهم وأذاقهم آلام الموت، ثم أمر باضطهاد جميع المسيحيين في كل المقاطعات.*** » (1)

ووقع على المسيحيين ألوانا من التعذيب والاضطهاد، حيث لم يكتف "نيرون" بتعذيبهم بل كان يسخر منهم ويزدريهم، بأن ألبسهم جلود الحيوانات وتركوا تلتهمهم الكلاب، وسمر عليهم في الصلبان، ودفن الكثيرون منهم أحياء. ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران لتكون مشاعل في الليل. (2)

ويضيف "سولبيس سيفير" (*Sulpice Sévère*) بعد أن ذكر وحشية "نيرون" بحجة معاقبة المتسببين في حريق روما: «... ***وهكذا بدأت الاضطهادات ضد المسيحيين، ثم منع نيرون الناس من اعتناق أية ديانة بموجب قانون، وفي ضوء القوانين الرسمية منع اعتناق المسيحية.*** » (3)

مما سبق ذكره يمكن ملاحظة مرحلتين متتاليتين للاضطهاد، المرحلة الأولى تتميز بشن حملة واسعة من الاضطهادات ضد المسيحيين تنفيذا لأوامر أصدرها نيرون، والمرحلة الثانية تتسم بصدور مجموعة من المراسيم الإمبراطورية تمنع اعتناق المسيحية.

---

*- ***بول أوروز*** *Paul Orose*، *(385-418م) مؤرخ مسيحي ولد في تاراكو Tarraco بإقليم كاتالونيا في إسبانيا حاليا، في نهاية القرن الرابع الميلادي، كان أحد تلاميذ القديس أوغسطين، سافر إلى فلسطين سنة 415م، وكان من المتحمسين ضد بدعة البيلاجيوسية Pélagianisme، من أبرز مؤلفاته: Historiarum Adversus Paganos libri. VIII يتناول فيه تاريخ المسيحية منذ البدء إلى سنة 417م.*
- Dict. Univ. Hist. Géo., p.1394.

1- *Orosius (P.), Adversus paganos, éd. K. Zangemeister, 1882, VII, 5.*

2- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 2، ص 137.*

3- *Sulpice Sévère, Chroniques, trad. par André Lavertujon, Paris, Hachette, 1899, II, 41.*

يذكر "لاكتانتيوس" (*) (*Lactantius*) في نفس السياق: « ***أن نيرون كان يرى أن عددا كبيرا من الناس تخلوا عن عبادة الأوثان واعتنقوا الديانة الجديدة، ليس فقط في روما ولكن في كل أرجاء الإمبراطورية، وذلك سيؤدي حتما إلى تحطيم المعبد السماوي وإلغاء العدالة.*** » (1)

يبدو أن تأكيد مؤرخي القرن الرابع الميلادي ومنهم "لاكتانتيوس" على كثرة عدد الذين رفضوا عبادة الأوثان منذ عهد "نيرون" أمر مبالغ فيه. ذلك أن مصطلح كثرة العدد (*Multus*) استعمله بعض المؤرخين ورجال الدين الذين عاصروا "نيرون" مثل: "تاكيتوس" (*Tacitus*) (**) والقديس "كليمان الإسكندري" (***) (*St. Clément d'Alexandrie*).

وقد كتب "بلين الصغير" (*Pline le jeune*) بعد أقل من خمسين سنة من وفاة "نيرون" قائلا: « ***في إحدى المقاطعات الرومانية أهملت المعابد، وتوقف الناس منذ مدة طويلة عن تقديم القرابين الاحتفالية، كما تخلوا عن تجارة الضحايا.*** » (2)

يمكن أن نفترض صحة ما قاله "لاكتانتيوس"، ونسلّم بأن عددا كثيرا من أتباع المسيحيين تناقص بسبب المجازر التي ارتكبت سنة 64م، الأمر الذي دفع "نيرون" إلى إصدار أول مرسوم لاضطهاد المسيحيين بشكل عام.

---

*-**لاكتانتيوس**، Lactantius مؤرخ مسيحي (250-325م)، من أصول إفريقية عاصر الإمبراطور "ديوكليتيانوس".*
-Dict. Univ. Hist. Géo., p.1021.

1- Lactantius, De Mort. Pers., 2,6 ; Homo (L.), les empereurs Romains et le christianisme, Paris, Payot, 1931, p.152.

*** - **تاكيتوس** (Cornelius Tacitus)، مؤرخ لاتيني عاش في القرنين الأول والثاني الميلاديين (54-130 أو 134م) عاصر الإمبراطور "نيرون".*
- Dict. Univ. Hist. Géo., p.1833.

**** - **كليمان الإسكندري**، أسقف الإسكندرية عاش في القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد، اضطهده سبتيموس سفيروس سنة 202م، توفي سنة 217م.*
- Dict.Univ. Hist. Géo., p. 426.

2- Pline le jeune, Epistolae, X, 97.

يشير "أوزيبيوس" أن منافحة كتبت حوالي سنة 172م تنسب إلى "مليتون دي سارد" (*Meliton de Sarde*) قائلا: « ***إن الإمبراطورين "نيرون" و"دومتيانوس" دون سواهم، هما من وضع الإيمان المسيحي موضع الاتهام.*** » (1)

ويذكر "ترتوليانوس" (*Tertullianus*) في نفس السياق وبعد خمس وعشرين سنة بعد ذلك أي في حوالي سنة 197م قائلا: « ***أن "نيرون" هو أول من شهّر السيف الإمبراطوري وبمنتهى الوحشية ضد العقيدة المسيحية، التي ظهرت وبدأت تتطور في روما، ثم تبعه "دومتيانوس"، وفيه شيء من وحشية "نيرون"، لكنه احتفظ معها بشيء من الإنسانية، فما لبث أن ارتدع بسهولة عما شرع فيه بل وأعاد كذلك من أمر بنفيهم، هكذا دوما كان مضطهدونا: بغاة عتاة كفرة فجرة. ومنذ عهد نيرون بدأت محاكماتنا وإداناتنا. إن هذين الإمبراطورين الشريرين هما دون سواهم أعداؤنا.*** » (2)

يتضح من النصين السابقين أن الإمبراطور "نيرون" هو أول من نفذ عمليات اضطهاد ديني علني قاس ضد المسيحيين، وأن ما قام به لم يكن نابعا من تصرفات وحشية عابرة أو عنف عفوي بعيد عن الأسباب الدينية.

ويمكننا أن نتساءل هنا: كيف وقع التوافق بين "ترتوليانوس" و"مليتون دي سارد" وهما اللذان عرف عنهما كتابات المنافحة عن المسيحية، رغم أنهما كتبا في فترات متباعدة عن بعضهما تصل إلى ربع قرن.

يحتمل أن يكون "نيرون" و"دومتيانوس" من بين الأباطرة الرومان ومن أبرز الطغاة الذين أصدروا مراسيم وقوانين ضد المسيحيين خاصة خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن الأول إلى أواخر القرن الثالث للميلاد.

---

[1] - *Eusèbe, Hist. Eccles., III, 20, 7 ; IV, 26, 6.*

[2] - *Tertullien, Apol., V.*

بينما كانت براءة الإمبراطور "تراجانوس" (*Trajanus*) إلى "بلين الصغير" (*Pline le jeune*) [1] إجابة عن طلب استشارة تحدد المجال القانوني ليس إلا، وتفترض تشريعا سابقا.

وقد أدان "ترتوليانوس" صاحب هذا التشريع الأول من نوعه، وهو "نيرون" الذي أعطى لهذه القوانين التي تحكم بالإبعاد والنفي على المسيحيين بلا محاكمة اسم "المؤسسة النيرونية" (*Institutum Néronianum*). [2]

واتهم "سويتونيوس" [3] (*Suétonius*) الإمبراطور "نيرون" باحتقار وازدراء كل الديانات عدا ديانة الآلهة السورية، والتي تخلى عنها فيما بعد واعتنق ديانة أخرى أكثر انحطاطا وإذلالا.

أما عن موقفه من الدين، فقد أثرت عليه دراسة الفلسفة. وفي هذا السياق يذكر "ول ديورانت": «***إن القدر الضئيل الذي ناله من الفلسفة حرر عقله من قيود الدين دون أن تنضج حكمته، وكان يزدري جميع أنواع العبادات.*** » [4]

وبالرغم من الدروس التي كان ""نيرون" يتلقاها على يد معلمه الفيلسوف "سيناك" (*Sénèque*) – وربما بسببها– فقد كان دائم الشكوك والارتياب من الفلسفة، الأمر الذي دفعه إلى اضطهاد الفلاسفة أنفسهم ومنهم: "كورنيتوس" (*Cornutus*) و"أبولونيوس" (*Appolonius*)، و"ميزونيوس" (*Musonius*) و"روفوس" (*Rufus*).[5]

بعد كل هذه المعاناة التي تكبدها المتنصرون الأوائل، وبعد وفاة "نيرون" في 11 جوان سنة 68م عرفت الكنيسة فترة من الأمن والسلم مع السلطة الزمنية دامت قرابة الثلاثين سنة، إلى أن تجددت الاضطهادات في عهد الإمبراطور "دومتيانوس".

---

[1] *- Pline le Jeune, Correspondance, X, 96- 97.*
[2] *- Tertullien, Apol., V, VI.*
[3] *- Suétonius, Néro, LVI.*
[4] *- ول ديورانت، المرجع السابق، ج 2، ص 128.*
[5] *- Allard (P.), Persécutions des deux premiers siècles, p. 67.*

2-الاضطهاد في عهد دومتيانوس (*) (81- 96م): كان "دومتيانوس" محبا للسلطة والنفوذ متعطشا للقوة والجبروت. فما أن قضى أخوه "تيتوس" نحبه سنة 81م حتى هرول إلى ثكنات الحرس الإمبراطوري وحصل من الجنود على موافقتهم على ترشيح نفسه إمبراطورا حتى قبل أن يبدي السناتو (مجلس الشيوخ الروماني) رأيه في ذلك. (1)

عمل في العشر سنوات الأولى من عهده على إصلاح أحوال البلاد، إلا أنه سرعان ما تحول إلى مضطهد للمسيحيين بعدما رفضوا أن يعبدوه إلها، وتأليه أبيه وأخيه وزوجته. وقد أنشأ طائفة من الكهنة ليشرفوا على عبادة أولئك الأرباب. وطلب من الموظفين ألا يذكروه إلا بلقب "سيدنا وإلهنا". وقد طلب من المسيحيين أن يقدموا القرابين بين يدي تمثاله، فلما أبوا أعدمهم في سنة 93م. (2)

وحسب "سولبيس سيفير": « ***فإن تيتوس وضباطه كانوا يفضلون تحطيم الهيكل قبل كل شيء حتى يتم القضاء نهائيا على الديانة اليهودية والمسيحية، ذلك أن الديانتين تمتلكان قواسم مشتركة، فالمسيحيين انبثقوا من اليهود، فإذا استؤصل الجذع فالفرع سيهلك ويتلاشى لاحقا*** » (3)

يتضح مما سبق أن الرومان كانوا يعتبرون المسيحيين واليهود أنهم إخوة أعداء، فهم ينحدرون -دون شك- من أصل واحد. فحينما أقدم الإمبراطور "تيتوس" (*Titus*) سنة 70م على تحطيم الهيكل، اجتمع بالمجلس الحربي -وقبل إعطاء الأمر بالهجوم على أورشليم -أشار إلى أن أتباع الديانة الموسوية وتلاميذ المسيح (عليه السلام) فرعان

---

*- **دومتيانوس** *Titus Flavius Domitianus*، (51- 96م) إمبراطور روماني (81- 96م)، هو الابن الثاني للإمبراطور "فسباسيانوس" *Vespasianus*، ولد في روما، خلف أخوه تيتوس سنة 81م، اتسم حكمه في البداية بالعدل والحرية، أنجز الكثير من المعالم في روما، وأعاد ترميم مكتبة أغسطس ثم تحول إلى حاكم وحشي شرس، اغتال عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ والشخصيات البارزة، ولم ينج من بطشه حتى أقاربه مثل: سابنيوس وكليمانس، وقام بأفظع الاضطهادات في حق المسيحيين، كان يريد أن ينظر إليه على أنه إله، بعد مؤامرة قادتها زوجته دومتيا *Domitia* انتهت باغتياله سنة 96م من طرف إيتيان *Etienne*، وهو ابن المعتقة دوميتيلا *Domitilla*.*

- Aurélius Victor, Epitomé, XI ; Suétonius, Domitien, I- XXIII.

1- *أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة، القاهرة، 1975، ص 183.*

2- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 2، ص 157.*

3- *Suétonius, Néro, LVII.*

من أصل واحد، مع الاعتراف بتعارض الديانتين، فإذا استؤصل الجذع (اليهودية) فالفرع (المسيحية) سيهلك ويتلاشى حتما.

تمتعت الكنيسة المسيحية في بداية حكم الأسرة الفلافية بالأمن والازدهار. ومن الشواهد التي تدل على ذلك، العثور على عدة معالم ونقوش وكتابات قبرية (*Epitaphes*) تؤكد أن المسيحيين تمتعوا فعلا بفترة أمن وسلام، الأمر الذي ساعد على توسع حركة التنصير في المغرب القديم. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل نجد أن فرعا من العائلة الإمبراطورية الفلافية اعتنقت المسيحية في نهاية القرن الأول الميلادي. [1]

وذكر "سويتونيوس" أن "دومتيانوس" حاول في البداية أن يتسم عهده بالحكمة، وأن يجمع بين صرامة وعنف الإمبراطور "فسباسيانوس" (*Vespasianus*) ولطف واعتدال الإمبراطور "تيتوس" (*Titus*). [2]

أما "ديون كاسيوس" [3] فقد ذكر تفاصيل دقيقة عن تصرفاته، ومنها أنه دفن كهنة الإلهة "فستا" [*] (*Vesta*) وهم أحياء، وأعاد زوجته "دوميتيا" (*Domitia*) بعد أن كان قد طلقها متهما إياها بالفجور.

لم تدم هذه السياسة طويلا، فالإفلاس الذي بدأت تعاني منه خزينة الدولة نتيجة مشاريع البناء الضخمة، [4] وتكاليف الحفلات التي لا تنتهي ليلا ونهارا، إضافة إلى نشوة

---

[1]- *Ammien Marcellin, XVIII.*
[2]- *Suétonius, Domitien, 7,8.*
[3]- *Dion Cassius, LXVII, 12,3.*
*- ***فستا*** *(Vesta)، هي إلهة النار عند الرومان، ابنة الإله "ساتورن" (Saturne) و"أوبا" (Opa)، ويعتبر "نوما بومبيليوس" (Numa Pompilius) ثاني ملوك روما، أول من شيد معبدا لها في روما وعين العذارى الكاهنات ليكن حارسات على النار المقدسة (les Vestales)، إلا أن هناك من ينسب بناء هذا المعبد إلى "رومولوس" (Romulus).*
- Denys d'Halicarnasse, Antiquités Romaines, livre. II, (les Vestales), LXV, LXVI ; Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., pp. 696- 697.
[4]- *Plutarque, Public. , 15.*

وهوس السلطة المطلقة وجنون تقديسه. [1] فقد كان يريد أن ينظر إليه على أنه إله. كل ذلك دفعه إلى تبني أساليب "نيرون" والتي كشفت عن وجه الطاغية الحقيقي.

بدأ "دومتيانوس" (*Domitianus*) أمام هذه الوضعية –وبهدف إعادة التوازن إلى خزينة الدولة–يبحث عن مصادر لتمويل الخزينة، ووجدها في الضرائب التي فرضت على كل من يقدس الإنجيل من اليهود والنصارى. وأعاد إحياء المراسيم التي أصدرها "نيرون" في حقهم. [2]

وكان ابن عم "دومتيانوس" القنصل "فلافيوس كليمانس" (*Flavius Clémens*) نفسه من بين أبرز ضحايا تلك الاضطهادات، التي كانت بداية لسلسلة عنيفة من الاضطهاد والتنكيل مست المسيحيين الذين رفضوا أداء الضريبة.

وقد أورد "ديون كاسيوس" (*Dion Cassius*) ملخصا عن تلك الاضطهادات قائلا: « ***... وفي سنة 95م، حكم دومتيانوس بالموت على ابن عمه فلافيوس كليمانس وكان قنصلا، وأدينت زوجته فلافيا دوميتلا (Flavia Domitilla) وهي قريبته، وقد اتهموا بالإلحاد والزندقة مع مجموعة أخرى تبنت التقاليد اليهودية، وأعدم البعض وصودرت أملاك البعض الآخر، أما زوجته دوميتلا فقد حكم عليها بالنفي إلى جزيرة بانداتاريا (*) (Pandataria)***.» [3]

يتضح من النص السابق أن "فلافيوس" وزوجة "دومتيانوس" أدينوا بسبب اعتناقهم المسيحية، فالاتهام بالإلحاد والزندقة في تلك الفترة لم يكن له معنى آخر في لغة الوثنيين

---

[1] - *Suétonius, Domitien, 4 ; Dion Cassius, LXVII, 8.*

[2] - *Dion Cassius, LXVII, 13.*

* – ***بانداتاريا***، *جزيرة من جزر البحر التيراني Mare Tyrrhenum ، تقع على الساحل الجنوبي لمقاطعة اللاتيوم Latium الساحل الغربي لإيطاليا حاليا، وكانت إحدى مناطق النفي والإبعاد في عهد الإمبراطورية الرومانية، و بها توفيت يوليا Julia ابنة أوغسطس، وأغريبين Agrippine زوجة جرمانيكوس Germanicus وأوكتافيا Octavia ابنة كلوديوس Claudius، وإليها نفيت دوميتيلا زوجة دومتيانوس.* - *Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1419.*

[3] - *Dion Cassius, LXVII, 13.*

سوى المسيحية، وهذا ما أشار إليه القديس "جوستان" [*] (*St. Justin*) في أول منافحة (*Apologie*) له كتبها بعد خمسين سنة من وفاة "فلافيوس كليمانس" حيث قال: « ***إنهم ينادوننا ملاحدة وزنادقة.*** » [1]

وذكر "أتيناقوراس" [**] (*Athénagoras*) أيضا أن الوثنيين كانوا يصفونهم بأوصاف نابية إذ قال: « ***إنهم يتهموننا بثلاث جرائم: أننا زنادقة، ونتغذى على لحوم البشر، وزناة المحارم.*** » [2]

يشير "أوزبيوس" إلى أن أحد القناصل الرومان حاول في نفس الفترة التي عاش فيها "أثيناقوراس" في القرن الثالث الميلادي، أن يفتك من أحد الشهداء عبارة اللعنة على المسيحيين قائلا: « ***ليسقط الزنادقة.*** » [3] وكان الإلحاد في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد من بين الاتهامات الموجهة إلى الأتقياء والمؤمنين من المسيحيين في المغرب القديم. [4]

وقد اتهم الإمبراطور "قسطنطين" نفسه في بداية القرن الرابع الميلادي أنه «**احتضن إيمان الإلحاد**». [5] ونعت الإمبراطور "جوليان" المرتد (*Julien l'apostat*) الديانة المسيحية بعد ذلك بحوالي نصف قرن بديانة «**الإلحاد *والزندقة***». [6]

---

* – *القديس **جوستان "يوستينوس"**، من آباء الكنيسة يعرف بالفيلسوف، منافح وشهيد مسيحي ولد ما بين سنة مئة (100) و114م وتوفي في حوالي سنة 162م أو سنة 168م، ولد في مدينة فلافيا نيابوليس (Flavia Néapolis) نابلس" في فلسطين حاليا، كان وثنيا ثم أصبح مسيحيا أفلاطونيا. هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، 1991، ص 936.* *- Dict. Univ. Hist. Géo., p. 98.*

[1]- *Justin (St.), Apologies, trad. par Louis Pautigny, Paris, Alfonse Picard, 1904, I, 6, II, 3.*

** – ***أتيناقوراس Athénagoras**، فيلسوف أفلاطوني، عاش في القرن الثالث الميلادي، من مواليد أثينا (اليونان)، اعتنق المسيحية واستقر بالإسكندرية أين كتب أشهر مؤلفاته: منافحة عن المسيحيين، وبحث حول البعث (Traité de résurrection).* *- Dict. Univ. Hist. Géo, p. 132.*

[2]- *Athénagoras, Apologie des chrétiens, trad. par M. de Genoude,Paris, A.Royer éditeurs, 1843, III.*

[3]-*Eusèbe, Hist. Eccles., IV, 15, 18.*

[4]- *Minucius Félix, Octavius, 8, 10.*

[5]- *Eusèbe de Césarée, Histoire de la vie de Constantin, trad. Par M. Cousin, Paris, Damien Foucault, 1687, I, 15.*

[6]-*Julien l'apostat, Œuvres Complètes, Par Eugène Talbot, Paris, Henri Plon, 1863, Epist. 49, pp. 461, 553.*

وحسب "تاسيت" فإن هذه التهم بالزندقة والإلحاد لم توجه إلى اليهود على الإطلاق. (1) فقد وجهت تلك التهم المزدوجة بالإلحاد وباتباع التقاليد اليهودية ضد المسيحيين وحدهم. (2)

وقد أشار إلى ذلك "ترتوليانوس" قائلا: « ***مارس دومتيانوس، وفيه شيء من وحشية نيرون، العنف ضدنا نحن المسيحيين، ولكن لما بقي يحتفظ بشيء من الإنسانية تراجع عن مشروعه وأعاد المبعدين والمنفيين، هكذا كان مضطهدونا دوما، بغاة، عتاة.*** » (3)

نستنتج مما سبق أن الاضطهاد في عهد "دومتيانوس" رغم قصره، إلا أنه مس كل طبقات المجتمع، فقد طال الإضطهاد العائلات النبيلة (*Honestiores*) وطبقة الباترسيان (*Patricians*) التي أشار إليها "ديون كاسيوس" (*Dion Cassius*) و"سويتونيوس" (*Suétonius*) سواء في روما أو في المقاطعات الرومانية الأخرى. كما مست هذه الإضطهادات الطبقة الدنيا (*Humiliores*)، ورغم ذلك توسعت حركة التنصير لتشمل كل الطبقات في المغرب القديم.

ولنا أن نتساءل عن التحول المفاجئ في تصرفات "دومتيانوس" قبيل وفاته، من كان ينتظر أن يجد في حياة هذا الإمبراطور الوحش جانبا من الحكمة والإنسانية؟

3-<u>الإضطهاد في عهد تراجانوس (*) (98-117م)</u>: تمتع المسيحيون بفترة أمن وسلام طويلة المدى نسبيا تمتد من نهاية عهد نيرون سنة 68م إلى بداية اضطهادات "دومتيانوس" سنة 95م، وفترة أخرى قصيرة بعده.

1- *Tacite, Histoires, V, 5.*

2- *Gibbon (E.), History of the decline and fall of the Roman Empire, XVI.*

3- *Tertullien, Apol., V, 3, 4.*

* - ***تراجانوس*** *Marcus Ulpius Trajanus*، *(52-117م) إمبراطور روماني (98-117م)، من أصول إيطالية إسبانية، ولد سنة 52م في إيطاليكا Italica "بإسبانيا"، تبناه الإمبراطور "نرفا" Nerva، وتولى الحكم بعده، للمزيد أنظر أعلاه ص 199.* *- Aurélius Victor, Epitomé, XIII ; Dion Cassius, LXVIII.*

اعتلى " تراجانوس" العرش الإمبراطوري بعد وفاة الإمبراطور "نرفا" (*Nerva*) في شهر جانفي سنة 98م، ودشن عهده في بداية القرن الثاني بإصدار مجموعة من المراسيم والقوانين ضد المسيحية. وقد أمر الولاة أن يمنعوا الاجتماعات السرية، ولما كان من عادة المسيحيين أن يؤدوا الصلاة في الخفاء هربا من الاضطهاد، فقد وقعوا بذلك تحت طائلة القصاص. (1)

وفي هذا السياق أصدر " تراجانوس" أمرا في سنة 106م إلى جميع ولاته في أنحاء الإمبراطورية بأن يقضوا على المسيحيين ويمنعوا اجتماعاتهم، فسامهم الولاة أبشع أنواع العذاب والتنكيل وقتلوا منهم أعدادا كثيرة. وقد استخدم الإمبراطور ساحة الملعب "الكوليزيوم" في إعدام المسيحيين بإلقائهم إلى الوحوش الضارية. وأقام عروضا استمرت 123 يوما هلك فيها كثير من المسيحيين. (2)

وصلت المسيحية في سنة 112م إلى مقاطعة "بثينيا" (*Bithynie*) (*) في شمال غرب آسيا الصغرى ليس كعبادة جديدة انتشرت على ضفاف البحر الأسود، ولكن كديانة متجذرة منذ فترة طويلة، في أوساط سكان المدن والأرياف على حد سواء، فتراجعت بذلك الوثنية، وأصبحت المعابد شبه مهجورة. (3)

في ظل هذه الظروف عين "بلين الصغير" (**) (*Pline le jeune*) حاكما على مقاطعة "بثينيا"، مما شجع دعاة وعبدة الأوثان على إحياء ديانتهم الوثنية.

1- *Allard (P.), Histoire des Persécutions, t. I, p. 146.*

2- *عزت زكي، المسيح وفلاسفة أثينا، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، 1986م، ص 125.*

* – ***بثينيا*** *Bithynie، منطقة تقع شمال غرب الأناضول بآسيا الصغرى، من أهم مدنها: بروسيا، نيقيا، نيكوميديا، وخلقدونية، كانت مملكة صغيرة مستقلة قبل أن يخضعها الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد، وأصبحت مقاطعة رومانية في سنة 183م.*
- Dict Univ. Hist. Géo., p. 236.

3- *Pline le jeune, Epistolae, X, 97.*

** – ***بلين الصغير*** *Caecilius Plinius Secondus ، (62 – 115م)، مؤرخ روماني ولد في كوم Côme ، ابن أخ بلين القديم، شغل عدة مناصب في عهد "تراجانوس" كان آخرها قنصل سنة 100م، ثم عين بروقنصل على مقاطعة "بثينيا" في آسيا الصغرى، كان حليما متسامحا مع المسيحيين، من مؤلفاته: في مدح تراجانوس، والرسائل (Lettres) في 10 أجزاء.*
- Dict Univ. Hist. Géo., p. 1507.

يذكر المؤرخ الألماني "تيودور مومسن" (*T. Mommsen*) أن "بلين الصغير" – وكان واليا في آسيا الصغرى – بعث رسالة إلى الإمبراطور "تراجانوس" في نهاية سنة 112م يخبره فيها بالإجراءات التي يمكن أن تتخذ ضد المسيحيين، ومما جاء فيها:

« ... ***لا نعرف هل نعاقب عشوائيا أم نبحث عن المذنبين؟ وإلى أي حد يمكننا أن نغفر لمن تاب ورجع، أو معاقبة المتهم الذي ارتد وتراجع عن المسيحية؟ هل نعاقبهم فقط لأنهم يحملون اسم "مسيحيين" أو نعاقب الجرائم المرتبطة بهذا الاسم؟*** » [1]

بعد إثارة تلك الأسئلة، اتخذ "بلين" قرارا وأضاف قائلا في الرسالة: « ***لقد اتخذت إجراءات ضد أولئك الذين سلموا لي على أنهم مسيحيين، وطلبت منهم إن كانوا كذلك، فالذين اعترفوا سألتهم مرة ثانية وثالثة مع تهديدهم بالعقاب، فالذين أصروا أنفذ عقوبة الإعدام فيهم، مقتنعا أن عنادهم يستحق تلك العقوبة. وقد وجهت التهمة إلى كثيرين فأنكروا أنهم نصارى، وكرروا الصلاة على الأرباب، وقدموا البخور والخمور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأرباب، بل إنهم شتموا المسيح.*** » [2]

وكانت إجابة تراجانوس قصيرة وملزمة بما تحمل من مسؤولية اتخاذ القرار والشعور بالانضباط في إدارة الإمبراطورية قائلا: « ***لقد اتبعت، عزيزي بلين، السبيل الواجب اتباعه في معالجة قضايا المسيحيين الذين أحيلوا إلى المحاكمة، حيث لا نستطيع أن نأخذ بقاعدة موحدة وثابتة لكل الحالات، لا يجب أن نبحث عن النصارى، لكن إذا أدينوا تجب معاقبتهم، وإذا أنكر أحدهم أنه مسيحي، فيجب أن يثبت ذلك عمليا، إذ يتوجب عليه أن يتوسل ويتضرع لآلهتنا بتقديم القرابين، عندئذ يمكن أن***

---

[1]- Mommsen (T.), Etude sur Pline le Jeune, trad. Morel, 1873, p.70 ; Pline le Jeune, X, 96-97.

[2] - Pline le Jeune, Epistolae, X, 97 ; Homo (L.) , Les empereurs…, Op.cit., pp. 138- 141.

يحصل على العفو بعد توبته، لكن في بعض حالات الاتهام، يجب أن لا يكون الإبلاغ عن مجهول عشوائيا، فهذا العمل ممقوت وهو غريب عن عصرنا.» [1]

توحي النصوص السابقة أن "تراجانوس" كان يشجع الجحود والارتداد والكفر، لذلك نجده يعفو عن المارقين ويعاقب المسيحيين. ولو تمعنا جيدا المصطلحات التي وظفها في رسالته إلى "بلين الصغير" لوجدنا أنها تنم عن الاتجاه نحو استعمال السلطة إلى أقصى الحدود، وذلك – فيما أعتقد– سلوكات وتصرفات غير أخلاقية وغياب كلي للمنطق.

وقد ألقى "ترتوليانوس" (*Tertullianus*) الضوء على بعض الجوانب غير المنطقية التي وردت في رسالة "تراجانوس" إذ قال: « ***كانت توقيفات تراجانوس متناقضة، فمن جهة يمنع البحث عن النصارى كونهم أبرياء، ومن جهة أخرى يأمر بعقابهم كمدانين، إنه يعفو ويعاقب في نفس الوقت. ثم إن ثبت لديكم أننا مجرمين، فلم تعاملوننا بخلاف ما تعاملون به أمثالنا. بينما يفترض أن تلقى نفس الجريمة نفس المعاملة، إذا اتهم الآخرون بما نتهم به نحن. وفي مقام آخر يمكنهم إثبات براءتهم بأنفسهم أو بتوكيل غيرهم، ويمنحون حق الرد ليجادلوا عن أنفسهم. إذ لا يجوز إطلاقا أن يدان متهمون دون الدفاع عنهم وسماع أقوالهم. النصارى وحدهم يمنعون كليا من قول ما يبرئهم ويعلى الحق ويقي القاضي مزلة الظلم. ينتظر منهم فقط ما يكفل تأجيج الحقد العام: الاعتراف بالاسم، لا بإيضاح الجرم.»*** [2]

وقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين أن "ترتوليانوس" انساق وراء أهوائه واستغل قدرته على الفصاحة والبلاغة والبيان وبذلك وقع في التناقضات. [3] والواقع أن "ترتوليانوس" كان محقا إلى حد ما في تعليقه على رسالة "تراجانوس". ذلك أن النقاط الأكثر وحشية في هذه الرسالة أنها كانت تعبر عن استخفاف نادر بالحقيقة والعدالة.

---

[1] - *Pline le Jeune, X, 98.*
[2] - *Tertullien, Apol., 2.*
[3] - *Allard (P.), Histoire des Persécutions ..., t. I, p. 165.*

وهكذا خف الاضطهاد نوعا ما بعد الرد الذي أرسله " تراجانوس" إلى "بلين الصغير" الذي أجابه بالموافقة على سياسته، ونصحه ألا يتصيد المسيحيين بل يحاكمهم إذا أبلغ عنهم وثبتت عليهم التهمة.

4-**الاضطهاد في عهد ماركوس أوريليوس [*] (166-177م):** تمتعت الإمبراطورية في عهد "ماركوس أوريليوس" بالاستقرار والرخاء نتيجة حكمته، لذلك وصفه بعض المؤرخين بالفيلسوف. فقد كان من الفلاسفة الرواقيين، [**] تلك الفلسفة التي تلقاها في صباه والتي أثرت في حياته. [1]

أما موقفه من المسيحية فقد تأثر بما كان يسمعه عنها، فأصدر أوامره بمنع البدع والهرطقة. وقد نظر الولاة إلى تلك الأوامر على أنها إشارة من أعلى سلطة في الدولة للتصدي للمسيحيين. ومما أثار الإمبراطور أكثر ضد المسيحيين، موقفهم من الخطر الذي كان يهدد الإمبراطورية وهو وباء الطاعون الذي جاء مع الجنود الرومان العائدين من الشرق، وذلك بعد رجوعهم من الحرب ضد البارثيين [***] في سنة 166م. [2]

---

*- ***ماركوس أوريليوس***، *Marcus Aurelius Antoninus، (121-180م)، إمبراطور روماني (161-180م)، ولد في روما من عائلة إيطالية نبيلة كانت تقيم في إسبانيا، عينه "هادريانوس" واليا على روما رغم صغر سنه، كان يلقب بالفيلسوف، وصفته الكنيسة الكاثوليكية أنه أفظع مضطهد للمسيحيين، وكان متسامحا مع تجاوزات الإمبراطورة "فوستين" "Faustine".*

- Ernest Renan, Marc-Aurèle et la fin du Monde Antique, Calmann Lévy édit., Paris, 1882, pp. 1-17 ; Dic. Univ. Hist. Géo., p.143.

- ***الرواقية*، *Stoïcisme مدرسة فلسفية أنشأها " زينون الكيتومي" Zénon de Citium (336-246 ق.م.) بمدينة أثينا في أوائل القرن الثالث ق.م.، ويطلق على أنصار تلك المدرسة اسم " الرواقيون" أو " أصحاب الرواق" لأنهم كانوا يجتمعون في رواق مسقوف وملون كانت تلقى فيه المحاضرات الفلسفية.*

-Dic. Univ. Hist. Géo., pp. 1808-1809.

[1]- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 2، ص 424.*

- ***البارثيون، *Parthes، هم الذين أسسوا الإمبراطورية البارثية في آسيا الصغرى في سنة 255 ق.م. بزعامة البارثي "أرساك" Arsace على حساب إمبراطورية السلوقيين. دخلت في عدة حروب مع الإمبراطورية الرومانية. انهارت سنة 226م، وقامت على أنقاضها الإمبراطورية الساسانية.*

- Dic. Univ. Hist. Géo, p.1437.

[2]- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 2، ص 420.*

وانتقل الوباء إلى كل أصقاع الإمبراطورية، فانتشر في آسيا الصغرى واليونان ومصر وغاليا (فرنسا حاليا)، وفتك بآلاف من سكان روما. وقد اعتبر المسيحيون هذا الوباء إشارة على نهاية العالم، لذلك جلبوا لأنفسهم الكراهية وتولدت لدى الوثنيين الرغبة في الانتقام منهم. فانفجر الاضطهاد في عدة أقاليم من الإمبراطورية أبرزها مدينة "سميرنة" في آسيا الصغرى (إزمير في تركيا حاليا) ومدينة " ليون" سنة 177م. (1)

وهكذا عومل المسيحيون بقسوة في عهد "ماركوس أوريليوس"، حيث ذاقوا ألوانا من التعذيب، فقد جلدوا بالسياط ومزقت جلودهم بآلات حادة وألقيت إلى الوحوش الضارية، كما ربطوا إلى أعمدة وأحرقوا كالمشاعل.

5-**الاضطهاد في عهد سبتيموس سفيروس** (*) (199-204م):

بدأ الاضطهاد في عهد الإمبراطور "سبتيموس سفيروس" حينما أصدر مرسوما في 202م يحظر على الرعية اعتناق اليهودية أو المسيحية لأن الإمبراطور كان وثنيا. (2) وما دفعه إلى ذلك أن اليهود لما تمردوا وأعلنوا ثورتهم على السلطة رفض المسيحيون الانخراط في الجيش. (3) وقد وصل بهم الأمر إلى حد التخلي عن الأوامر الإدارية والعسكرية. (4) وهو ما عبر عنه أحد المجندين من المسيحيين قائلا: «***لا يمكن أن أخدم الجندية، لا يمكن أن أعمل شرا، أنا مسيحي.*** » (5)

---

[1]- *ول ديورانت، المرجع نفسه، ج 2، ص 421.*

*- **سبتيميوس سفيروس** *L. Septimius Aurelius Severus* ، (146-211 م) إمبراطور روماني (193-211م) من أصول إفريقية، ولد في مدينة لبتيس ماغنا *Leptis Magna* "لبدة" في ليبيا حاليا. أنظر أعلاه، ص 251.
-Crevier (J.B.), Histoire des Empereurs Romains depuis Auguste jusqu'à Constantin, Paris, Firmin Didot, 1828, t. VII, pp. 55-58.

[2]- *Paul Allard, Histoire des persécutions pendant la première moitié du 3° siècle,(Septime Sévère, Maximin, Dèce), Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1905, p. 98.*

[3]- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 3، ص 334.*

[4]- *سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ص 249.*

[5]- *Julien (Ch. A.), Op.cit., p. 208.*

يبدو أن الاضطهاد في عهد "سبتيموس سفيروس" كان الأول من نوعه الذي وقع على المسيحيين واليهود معا، وشمل كل أرجاء الإمبراطورية من الإسكندرية شرقا إلى روما غربا مرورا بقرطاجة وأنطاكية. واشتد الاضطهاد أكثر حينما رفض أتباع الديانتين أن يقدموا الذبائح لتماثيل الإمبراطور فتعرضوا للتعذيب والحرق وقطع الرؤوس.

6-**الاضطهاد في عهد ماكسيميانوس [*] (235-238م):** كان الإمبراطور "ماكسيميانوس" أميا لم ينل شيئا من التعليم، تولى العرش الإمبراطوري إثر الثورة على الإمبراطور "ألكسندر سيفيروس". وقد ساهم في اغتيال الإمبراطور وأمه ومستشاريه في شهر مارس سنة 235م. [1] حكم الإمبراطورية مدة ثلاث سنوات ومع ذلك لم تطأ قدماه مدينة روما، فقد كان رجلا عسكريا. وبالرغم من ذلك فقد اضطهد المسيحيين اضطهادا شديدا، وكان اضطهاده لآباء الكنيسة أشد. وأصدر أمرا بقتلهم حيث حملهم مسؤولية نشر تعاليم المسيحية، منهم الفيلسوف المسيحي الأب "أوريجان *Origène*" الذي استطاع النجاة . [2]

7-**الاضطهاد في عهد دكيوس [**] (249-251م):** تميز عهد "دكيوس" بعدم استقرار الأوضاع في الإمبراطورية، وهذا ما حدا بالإمبراطور إلى اتخاذ الإجراءات الحاسمة لمواجهة تلك الأوضاع. فأصدر مرسوما في شهر جوان سنة 250م ينص على أن يقدم كل السكان الأحرار (غير العبيد) من رجال ونساء وأطفال الذبائح لآلهة الإمبراطورية، وأن يسكبوا لها السكائب ويأكلون من الذبائح، وعندما يقدم شخص ذبيحة كان يعطى

---

*- **ماكسيميانوس**، *Caius Julius Verus Maximinus Thrax*، *إمبراطور روماني (235-238م)، تولى العرش بعد وفاة الإمبراطور ألكسندر سيفيروس، ولد في طراقيا Thrace من أصول قوطية Goths، كان مجرد جندي بسيط في عهد الإمبراطور كومودوس، ثم ارتقى إلى قائد العشرة Centurion في عهد كراكلا، وقائدا tribun للفيلق الرابع في عهد ألكسندر سيفيروس، كان قاسيا في اضطهاد المسيحيين.* - *Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1214.*

[1] - *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 3، ص 335.*

[2] - *Eusèbe, Hist. Eccl., VI, 28; Orose, XIX, I.*

- **ديكيوس، *Decius Messius*، *(201-251م) إمبراطور روماني (249م-251م)، اضطهد المسيحيين (الاضطهاد السابع)، وأصدر أوامر مجحفة في حقهم، وعرفوا سنة 250م شتى أنواع التعذيب، ومنهم أصحاب الكهف أو شهداء أفسوس Ephesus. للمزيد أنظر أعلاه، ص 220.* - *Dic.Univ.Hist.Géo., p.505.*

شهادة بذلك. وحدد المرسوم مهلة تقتضي أن يعلن كل فرد عن وثنيته، وإن امتنع بعد انقضائها يعتبر مسيحيا، وبذلك يكون معرضا للعقوبات. (1)

ونجهل ما إذا كان الإمبراطور قد حضر عملية الإحصاء الشامل للمسيحيين في قرطاجة التي أمر بها دون إقامة أية تهمة ضدهم. وقد أشرف على العملية قضاة المجلس البلدي (*Duumviri*) انضم إليهم فيما بعد بعض وجهاء المدينة، الذين كانوا يمنحون للأفراد الشهادات بعد أداء الصلوات وتقديم الأضاحي للإمبراطور المقدس. (2)

دفعت تلك الإجراءات الناس رجالا ونساء إلى أن يهرعوا إلى الهياكل بالكابيتول في ربوة بيرصة (*Byrsa*) يحيطون بالآلهة ويتضرعون إليها بالصلاة والدعوات. وفي خضم هذه الحمى يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهد كأن الأمر لا يعنيهم، وظلوا كسالف عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهة الوثنية. (3)

وقد نجح المرسوم في إحداث ردة بين بعض المسيحيين، وكانت عقوبة من لا يحصل على تلك الشهادة الموت. (4) ويبدو أن الإمبراطور عين في كل مدينة شخصا مختصا لاستقبال تلك الأضاحي والصلوات. ثم يوقع بالتصديق على أن الشخص المذكور أدى في حضرته تلك الشعائر الدينية. (5)

يتضح مما سبق أن الإمبراطور "دكيوس" طبق ذلك المرسوم على المسيحيين بصرامة، فكان من نتائجه أن ذاقوا ألوانا من التعذيب والتنكيل، وتعرضوا إلى الإبادة الجماعية وارتد منهم أعداد كثيرة.

1- Paul Allard, Histoire des persécutions pendant la première moitié du 3° siècle, p. 339.

2- Massabeiau, les sacrifices ordonnés à Carthage au commencement de la persécution de Décius, R.H.R., 1884, p.68. .

3- Delattre (P.) , Inscriptions de Carthage, X, Bulletin Epigraphiques, T.V, 1885, p.90.

4- أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج.1، دار المكشوف، بيروت، 1955، ص. 34.

5- سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ص 295.

8-**الاضطهاد في عهد فاليريانوس (*) (253-260م):** لم يهنأ المسيحيون بفترة راحة، فبعد وفاة الإمبراطور "دكيوس" سنة 251م خلفه الإمبراطور "غالوس" *Gallus* خلال الفترة (251-253م) الذي واصل الاضطهاد. وكان حينها قائد فيالق ميسيا (*Messie*) حيث كان الجيش الروماني مطوقا من طرف القوط في إحدى مستنقعات طراقيا (*Thrace*) ويحتمل أن تلك الظروف ساعدته على اعتلاء العرش. (1)

عرفت الإمبراطورية في عهد "غالوس" انتشار داء الطاعون، وقد هاله تطور الوباء -ورغبة منه في تهدئة غضب الآلهة-أمر بتقديم الأضاحي وإقامة الصلوات على شرفها، على غرار ما فعله "دكيوس". ولما كانت الديانة المسيحية تمنع المشاركة في مثل هذه الطقوس، فقد لوحظ هذا الامتناع من طرف الوثنيين الذين اجتمعوا في ساحة سيرك قرطاجة وتعالت الأصوات "الموت للقديس سبريانوس" *St.Cyprianus*، وكان ذلك إيذانا ببداية اضطهاد المسيحيين. (2)

لكن حين تولى "فاليريانوس" العرش الإمبراطوري أظهر بعض التسامح للمسيحيين، وقد وصفه "أوزبيوس" قائلا: « **كان لطيفا نحو رجال الله، محبا لهم، إذ لم يعاملهم أحد من الأباطرة قبله بهذا اللطف وهذه الرقة. وحتى الذين قيل عنهم أنهم مسيحيون لم يظهروا له مثل تلك المحبة والود والكرم التي أظهرها في بداية حكمه، فبيته كان يبدو كأنه كنيسة لأنه كان مليئا بالأشخاص الأتقياء.** » (3)

---

*- **فاليريانوس** P. Licinius Valérianus، (190-260م) إمبراطور روماني (253-260م) تولى العرش بعد وفاة الإمبراطور "غالوس" Gallus، يعتبر ثامن إمبراطور اضطهد المسيحيين سنة 257م، قتله "سابور" الفارسي سنة 260م وعلق جلده في القصر. للمزيد أنظر أعلاه، ص. 260.*

- Dict. Univ. Hist. Géo, p.1935.

1- *Zosime, Hist. Rom., I, 23, 24.*

2- *Paul Allard, les dernières persécutions du troisième siècle (Gallus, Valérien, Aurélien), Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1898, p.20.*

3- *Eusèbe, Hist. Ecclés., VII, 10, 3.*

استمر هذا التسامح مدة قصيرة، وذلك بسبب المشاكل التي واجهت الإمبراطورية في تلك الفترة. (*) وتنفيسا عن فشله في حلها أصدر "فاليريانوس" مرسومه الأول الخاص باضطهاد المسيحيين سنة 257م والذي نص على منع رجال الدين من العبادة، ودعا الأساقفة ليمثلوا أمام المحاكم الإمبراطورية. كما يأمرهم بتقديم الذبائح على شرف الآلهة ويحظر عليهم الاجتماع في أماكن العبادة ومنعهم من دخول المقابر. (1)

ولما لاحظ "فاليريانوس" أن المرسوم الأول لم يأت بثماره، أصدر مرسوما ثانيا في سنة 258م أشد ضراوة وقسوة. ونص على أن كل رجل دين مسيحي لا يذعن لأوامر الإمبراطور يجب أن يقتل. كما نص المرسوم أيضا على تجريد أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان من رتبهم، وإذا استمروا على مسيحيتهم بعد المصادرة تقطع رؤوسهم، وتصادر أملاك السيدات الشريفات ويتعرضن للنفي، ويرسل عمال القصور الملكية الذين اعتنقوا المسيحية إلى معسكرات العمل الشاق. وقد أرفق "فاليريانوس" نص المرسوم برسائل موجهة إلى حكام القاطعات. (2)

وكان من نتائج هذا المرسوم أن ذاق المسيحيون ألوانا من التعذيب والتنكيل، فارتد الكثيرون منهم حفاظا على حياتهم. فبعضهم ألقي في قمائن الجير المشتعلة كما حدث لمجموعة من المسيحيين في مدينة أوتيكا. وكان مسيحيو الإسكندرية قد لاقوا نفس المصير في عهد "دكيوس". (3) وقطعت رؤوس من صمدوا منهم القديس "سبريانوس" (*St.Cyprianus*) الذي ألقى عليه البروقنصل "غاليريوس ماكسيموس" (*Galerius Maximus*) القبض وقطعت رأسه في قرطاجة بعد محاكمته سنة 258م. (4)

- عن المشاكل الاقتصادية والتهديدات والأخطار الخارجية التي كانت تواجه الإمبراطورية في تلك الفترة. أنظر: ول ديورانت، المرجع السابق، ج 3، ص 337.

[1]- *Paul Allard, Histoire des persécutions pendant la première moitié du 3° siècle, p. 332.*

[2]- *Paul Allard, les dernières persécutions du troisième siècle, pp. 80-79.*

[3]- *Eusèbe, Hist. Eccl., VI, 41, 17.*

[4]- *Augustin (St.), Ennar.in Psalm., XXXII, 6.*

بعد وفاة "فاليريانوس" سنة 260م خفت وطأة الاضطهاد بعض الوقت مع اعتلاء "غالينوس" (*Gallienus*) ابن "فاليريانوس" العرش الإمبراطوري (260-268م) الذي أصدر أول مرسوم يقضي بالتسامح الديني واعترف بأن الديانة المسيحية من الأديان المشروعة (*religio licita*). وأمر بوقف الاضطهاد وأن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم الكنسية، وأقر حقوق الكنيسة المسيحية في حرية العبادة وامتلاك أماكن التعبد والمقابر والصدقات. [1]

وحدثت اضطهادات خفية في الأربعين سنة التالية إلى أواخر القرن الثالث الميلادي، لكن سرعان ما تعرض المسيحيون للاضطهاد الأكبر في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس".

ثانيا: فترة الاضطهادات العنيفة: تبدأ هذه الفترة من سنة 303م في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" وتنتهي سنة 311م مع بداية عهد الإمبراطور "قسطنطين". وشهدت اضطهادات الأباطرة "ماكسيمينوس"، "غاليريوس" و"ديوكليتيانوس".

1-**<u>الاضطهاد في عهد ديوكليتيانوس [*] (284-305م):</u>** يرى بعض المؤرخين أن "ديوكليتيانوس" (الشكل 25 ص 298) من أبرز الأباطرة الرومان نتيجة الإصلاحات الكثيرة التي قام بها في الإمبراطورية كلها. فقد أدرك أن الإمبراطورية مترامية الأطراف وأنه من الصعب على حاكم واحد أن يقوم بحمايتها. لذلك قرر في سنة 293م توزيع السلطة على أربعة أشخاص وهو ما عرف بالسلطة الرباعية [**] *Tétrarchie*. [2]

---

[1]- *Eusèbe, Hist. Eccl., VII, 13.*

*- ***ديوكليتيانوس***، *Valerius Jovius Aurelius Dioclétianus*، *(245-313م) إمبراطور روماني (284-305م) عين "ماكسيميانوس" شريكا له سنة 286م ثم "قنسطانس كلور" الأول و"غالريوس" قيصرين (مساعدين للإمبراطور) سنة 293م، اضطهد المسيحيين وأخفقت اصطلاحاته الاقتصادية، اعتزل الحكم سنة 305م. للمزيد أنظر أعلاه، ص 199.*

**- *عن هذه السلطة أنظر أعلاه، ص 271.*

[2]- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 3، ص 359.*

أما عن اضطهاد "ديوكليتيانوس" للمسيحيين فلم يكن مصاحبا لتاريخ توليه العرش في سنة 284م. فقد كان متسامحا معهم، وبدا –في بداية عهده– أن حكمه سيعزز الأمن والسلام في الدين والسياسة على السواء. وقدر بعض الباحثين تلك المدة بحوالي عشرين سنة (284–303م) ثم ما لبث أن انقلب على المسيحيين وأذاقهم ألوانا من التعذيب والتنكيل. [1]

وقد اختلف المؤرخون حول أسباب اضطهاد "ديوكليتيانوس" للمسيحيين. يرى البعض منهم أنه قام باضطهاد المسيحيين حفاظا على الوحدة السياسية والدينية للإمبراطورية، لما رأى المسيحيين ينصرفون عن عبادة الإمبراطور، وهو أمر كان يرى فيه تهديد لسلامة الإمبراطورية وأمنها. [2]

ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن "ديوكليتيانوس" وضع مبدأ جديدا يضفي الصفة المقدسة لشخص الإمبراطور. فأطلق على نفسه لقب "جوفيوس" *Jovius* الذي يعني ممثل "جوبيتر" كبير الآلهة على الأرض. [3] وكان يريد إحياء العقائد الوثنية التي قامت عليها الإمبراطورية. وأن الانحراف عن الوثنية في نظر المسؤولين كان معناه التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة. [4]

لذلك نظر الوثنيون إلى المسيحيين على أنهم عناصر هدامة ومخربة تريد هدم التراث الديني والمجد الروماني العريق لتقيم على أنقاضه ديانة غريبة. [5] وبناء على

---

[1] - *مصطفى العبادي، مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، الانجلو المصرية، القاهرة،1985، ص 293.*

[2]- *الحويري محمود محمد، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص 158.*

[3] *-Moreau (J.), la persécution du christianisme dans l'empire romain, P.U.F., Paris, 1956, p.111.*

[4]- *أندريه ايمار، وجانين أوبوابيه، تاريخ الحضارات العام، ج 2، روما وإمبراطوريتها، منشورات عويدات، بيروت، 1986، ص 560.*

[5]- *سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ص 350.*

ذلك قرر "ديوكليتيانوس" تصفية المسيحيين خاصة بعدما تسللت المسيحية إلى الجيش الروماني والى أجهزة الدولة الإدارية.

ويرى البعض الآخر من المؤرخين أن "ديوكليتيانوس" لم يكن هو صاحب فكرة اضطهاد المسيحيين، وإنما انساق وراء "غاليريوس" *Galerius* شريكه في حكم ولايات الشرق الذي كان يكن حقدا شديدا للمسيحيين. ويكون قد أوعز إليه أن مشاكل الإمبراطورية يمكن أن تحل إذا سحقت المسيحية، وأن تعود روما إلى عهودها السابقة بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة. (1)

يبدو أن "ديوكليتيانوس" لم يكن الداعي إلى الاضطهاد الكبير الذي تعرض له المسيحيون، وإن كان هو الذي أمر به فقد فعل ذلك تحت ضغط من القيصر"غالريوس".

هكذا بدأت اضطهادات "ديوكليتيانوس" في سنة 299م وذلك أثناء تقديم القرابين. حيث يذكر "ول ديورانت": « **في يوم من أيام تقديم القربان في الإمبراطورية حدث أن رسم المسيحيون علامة الصليب ليتقوا شر الشياطين، ولما عجز العرافون عن أن يجدوا في أكباد الحيوانات المذبوحة العلامات التي كانوا يرجون تفسيرها ألقوا الذنب على وجود كفار مسيحيين.** » (2) وأعلنوا أن الآلهة تضيق بكفر المسيحيين، لذلك تأبى أن تكشف عن أنباء الغيب المحجب.

عندئذ غضب "ديوكليتيانوس" وأصدر أمرا أن يقرب جميع الحاضرين القرابين إلى الآلهة ابتداء من زوجته وابنته حتى أصغر حراسه ومن يخالف أمره يجلد، كما يجب أن يمتثل جميع أفراد الجيش لهذا الأمر ويفصل من الخدمة كل المتمردين. (3)

---

[1]- *ول ديورانت، المرجع السابق، ج 3، ص 378.*

[2]- *المرجع نفسه، ج 3، ص 379.*

[3]- *سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ص 351.*



(أ)



(ب)

الشكل رقم 25: الإمبراطور ديوكليتيانوس.

أ–وجه عملة ديوكليتيانوس تظهره مرتديا التوجة القنصلية، وتعني الأحرف *DN* = *Dominus Nostrum* "سيدنا أومولانا". وظهر العملة تبرز مقر إقامته في سبالاتو *Spalato (Split)* بعد اعتزاله الحكم.

ب–تمثال نصفي للإمبراطور ديوكليتيانوس من الرخام يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي بقصر " فو–لوفيكونت" *Vaux-le-Vicomte* (50 كلم جنوب شرق باريس).

نقلا عن: *https://upload.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/20.

ثم أصدر "ديوكليتيانوس" القرار الإمبراطوري الأول الخاص باضطهاد المسيحيين في 23 فيفري سنة 303م، الذي تضمن تدمير الكنائس وحرق الأناجيل أو جمعها من الناس وتحريم القيام بأي صلوات أو شعائر مسيحية. (1)

ومما زاد الأمر سوءا أن أضرمت النار في نفس اليوم الذي صدر فيه القرار في قصر "ديوكليتيانوس" الذي فزع فزعا شديدا لأن النار بلغت حجرة نومه. ووجهت أصابع الاتهام بالطبع إلى عدد من المسيحيين، لأن الحرائق نشبت عقب صدور القرار الأول، وأن المسيحيين ارتبطوا بفكرة إشعال الحرائق منذ حريق روما سنة 64م، وألقت السلطات القبض على كثير من المسيحيين وسجنوا وعذبوا ومات عدد منهم. (2)

وصدر القرار الإمبراطوري الثاني في صيف سنة 303م الذي تضمن القبض على الكهنة والقساوسة المسيحيين وزجهم في السجون، حيث حملهم القرار مسؤولية الاضطرابات السياسية التي عرفتها الإمبراطورية. ولما امتلأت السجون ولم يعد هناك مكان لهم، اضطر القائمون عليها تسريح مجرمي الحق المدني ليعوضوا بالمسيحيين. (3)

واضطر "ديوكليتيانوس" إلى إصدار القرار الإمبراطوري الثالث في مطلع سنة 304م قبيل احتفاله بعشرينية توليه العرش وكان ذلك أثناء مرضه، ويقضي بالعفو على المسجونين المسيحيين إذا ما قبلوا تقديم القرابين إلى الآلهة الرومانية، أما الذين رفضوا فإنهم يتعرضون للاضطهاد أو ينفذ فيهم حكم الإعدام. (4)

استغل "غاليريوس" مرض وغياب الإمبراطور "ديوكليتيانوس" الذي عاد إلى نيكوميديا ولم يظهر على مسرح الأحداث إلا في 1 مارس سنة 305م. فأصدر قرار الاضطهاد الرابع في فيفري سنة 304م الذي يفرض على جميع المسيحيين في كل

---

[1] -*Moreau (J.) , La persécution du christianisme dans l’empire Romain, p.117.*

[2]- *سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 352.*

[3] -*Moreau (J.), Op.Cit., p.119.*

[4] -*Moreau (J.), Ibid., pp.119-120.*

أرجاء الإمبراطورية تقديم الذبائح للإمبراطور. وحينئذ نزل الاضطهاد على الجميع ولم يستثن أحدا. وأن أي رفض للقرار يعرض صاحبه للأشغال الشاقة في المناجم أو الإعدام. [1]

طبقت قرارات الاضطهاد في جميع أنحاء الإمبراطورية بدرجات متفاوتة، وكان تطبيقها في المغرب القديم بقسوة شديدة. ونظرا لكثرة الذين قتلوا، فقد بالغ بعض الكتاب القدامى في وصف ألوان التعذيب والاضطهاد الذي وقع على المسيحيين، (الشكل رقم 26 ص 301) لذلك وجب تناول تلك الروايات بحذر سواء ما تعلق بعدد القتلى أو ألوان التعذيب كقطع الأرجل والأيدي والأنوف أو حرق الجثة، أو سكب الرصاص الذائب على الأجزاء الحساسة من الجسم. [2]

يمكن القول أن اضطهادات "ديوكليتيانوس" خلال الفترة 303-305م كانت أشد ما ابتليت به الكنيسة الإفريقية وأعظم اضطهاد وقع عليها بعد "نيرون" في منتصف القرن الأول الميلادي. وقد ولدت تلك الاضطهادات العداء للسلطة الرومانية. ولما حدث الانشقاق سنة 312م وانقسمت الكنيسة الإفريقية إلى فريقين وتيارين دينيين متصارعين، وقفت هذه السلطة منذ الوهلة الأولى إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية التي اعتبرتها الكنيسة الحقيقية ضد الكنيسة المنشقة "الدوناتية". فازداد العداء لهذه السلطة، واتخذ دعم السلطة الزمنية للكنيسة الكاثوليكية أشكالا متعددة منها: إصدار القرارات والمراسيم والقوانين الإمبراطورية، مصادرة الممتلكات والكنائس، نفي الأساقفة ورجال الدين، اضطهاد المقرين بعقيدتهم، واستخدام وسائل الدعاية لتشويه وتكفير أتباع الحركة الدوناتية.

[1]- *Lactance (C. F.), De Mortibus Persecutorum,17.*
[2]- *Eusèbe, Hist. Ecclés., VIII, 12.*



الشكل رقم 26: مشهد للاضطهاد في عهد ديوكليتيانوس.

صورة جدارية (*Fresque*) بيزنطية تعود إلى القرن الثامن الميلادي لعملية جلد "القديس إيراسموس" *Saint Erasmus* بالسوط أمام الإمبراطور ديوكليتيانوس "واقفا". (المتحف الوطني بروما)

نقلا عن: *https://upload.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/20.

2-**الاضطهاد في عهد غاليريوس (*) وماكسيمينوس(**) (305م-313م)**: اعتزل "ديوكليتيانوس" الحكم بسبب مرضه في 1 ماي سنة 305م، وذكر "لاكتانتيوس" أن اعتزاله كان تحت ضغط "غاليريوس". (1) وفي الوقت ذاته أعلن "ماكسيميانوس" اعتزاله الحكم أيضا وفاء للعهد الذي قطعه على نفسه أمام "ديوكليتيانوس". حينئذ عين "قسطنطين" إمبراطورا في الغرب، و"غاليريوس" إمبراطورا في الشرق. واختار "قسطنطين" "فاليريوس سيفيروس" نائبا له، في حين اختار "غاليريوس" ابن شقيقه "ماكسيمينوس". (2)

شجع "غاليريوس" الاضطهاد بمجرد أن اعتلى العرش الإمبراطوري، واستعمل جميع وسائل التعذيب فزاد عدد المضطهدين في كل أرجاء الإمبراطورية، وقد ساعده في ذلك نائبه "ماكسيمينوس"، بينما اكتفى "قسطنطين" بحرق عدد قليل من الكنائس. وأصدر الإمبراطور "غاليريوس" أمرا في سنة 308م يقضي بمواصلة الاضطهاد، ونتيجة قساوته وفظاعته فقد اضطر الكثير من المسيحيين إلى الارتداد عن دينهم. (3)

ووصلت الشراسة بـ"ماكسيمينوس" بعد أن أصدر أحكاما ضد المسيحيين بالأشغال الشاقة والعمل بالسخرة في المناجم والمحاجر، أن يقتل الأطفال والنساء والشيوخ الذين يرفضون تقديم الأضاحي للآلهة الوثنية والتخلي عن المسيحية. (4)

---

*- ***غاليريوس***، *Caius Galerius Valerius Maximianus*، *إمبراطور روماني (305-311م)، كان راعيا ثم جنديا وأصبح جنرالا، تبناه ديوكليتيانوس وزوجه ابنته وعينه قيصرا صحبة كونستانس كلور في سنة292م، أصبح في سنة 305م سيد الإمبراطورية وتولى حكم الشرق وإيطاليا. وبعد وفاة كونستانس في سنة 306م أصبح قسطنطين شريكه في الحكم. كان يكن حقدا شديدا للمسيحيين. توفي سنة 311م.* *-Dic. Univ. Hist. Géo., p. 719.*

- ***ماكسيمينوس*، *Daïa (**Daja**, ou **Daza**) (Galerius Valerius Maximinus)*، *إمبراطور روماني (309-313م)، ابن شقيق غاليريوس الذي عينه برتبة قيصر سنة 305م، تولى حكم مصر وسوريا، نادى به الجيش قيصرا سنة 307م، تقاسم الحكم مع قسطنطين وليكينيوس بعد وفاة غاليريوس سنة 311م، وبقي سيد الشرق في نيكوميديا التي استأنف منها اضطهاد المسيحيين، مات منتحرا سنة 313م.* *- Dic Univ. Hist. Géo., p.1214.*

1- *Lactance (C. F.) , De Mortibus Persecutorum,18*.

2- *Duruy (V.), Histoire des Romains, Akademische Druck-U.Verlagsanstalt, Graz Austria, 1970, t.VI, p.617.*

3- *Paul Allard, la Persécution de Dioclétien et le triomphe de l'église, t.2, Paris, Vitor Lecoffre, 1900, pp. 116-120.*

4- *Eusèbe, Hist. Ecclés., IX, 1, 3-6.*

وقد توقف الاضطهاد في سنة 311م حينما أصيب "غاليريوس" بمرض خبيث، حيث أصدر قرار التسامح الديني الذي سمح بمقتضاه للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية وإعادة بناء وفتح كنائسهم في كل أرجاء الإمبراطورية بشرط أن يذكر الإمبراطور والدعاء له في الصلوات. (1)

وبعد وفاة "غاليريوس" سنة 311م، أعلن "قسطنطين" مرسوما أبرم في ميلان سنة 313م يتضمن مبدأ التسامح العام.

المبحث الثاني-مرحلة الاحتواء وتنصر السلطة (311م-392م): وهي مرحلة احتواء السلطة الرومانية للمسيحية منذ صدور مرسوم التسامح الديني الإمبراطوري سنة 311م إلى سنة 392م تاريخ دخول "أوغسطين" حلبة الصراع مع الدوناتية.

لقد اختلفت مواقف السلطة الرومانية تجاه الديانة المسيحية حدة، ومن فترة زمنية لأخرى، منذ اجتماع الأساقفة النوميد المنشقين في قرطاجة سنة 312م إلى انعقاد المناظرة سنة 411م التي أصدرت حكمها الرسمي بالموت على الحركة الدوناتية، وانبنت هذه المواقف على ثلاث أساليب انتهجتها السلطة الرومانية تجاه الحركة الدوناتية.

فبمجرد أن استلم "قسطنطين" السلطة في روما، تغيرت نظرته إلى المسيحيين. فانشغل بقضايا المغرب القديم، وعبر عن رغبته في إصلاح الأضرار التي لحقت بالكنيسة المحلية جراء اضطهادات "ديوكليتيانوس". فبادر بمراسلة البروقنصل "أنولينوس" (*Anulinus*) خلال الفترة (312-313م) يأمره باسترجاع ممتلكات الطوائف المسيحية المصادرة. (2)

1- *Paul Allard, la Persécution de Dioclétien et le triomphe de l'église, t.2, p.159.*

2 -*Eusèbe, Hist. Eccl., X, 5; 15- 17.*

وعبر "قسطنطين" في رسالة أخرى عن إرادته في إعفاء كهنة الكنيسة الكاثوليكية التي يرأسها "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) من الضرائب والنفقات العمومية، والتي تعد أول مراسلة رسمية تضمنت أولى الإشارات للمنشقين الأفارقة. (1)

فقد أثبتت محاضر البروقنصلية (*Acta Proconsularia*) أن "أنولينوس" أطلع "كايكيليانوس" والكاثوليك على فحوى المرسوم الإمبراطوري، مع دعوتهم إلى السعي لتحقيق الوحدة الدينية في المغرب القديم.

وراسل الإمبراطور" كايكيليانوس" في قرطاجة يبلغه أن الكنائس الإفريقية ستصلها مساعدات مالية مخصصة من قبله، وبالإجراءات الواجب اتخاذها فور وصول هذه المساعدات لتوزيعها على المتضررين، ووعده بدعمه ضد المحرضين على الاضطرابات. كما حثه على طلب المساعدة من الحكام في حالة كانت الحاجة إلى ذلك. وأرفق الرسالة الإمبراطورية بكشف مالي يبين طرق توزيع المساعدات على الطوائف المعنية. (2)

وألزم "قسطنطين" في نفس الوقت، البروقنصل "أنولينوس" وكاهن إفريقيا "باتركيوس" (*Patricius*) بدعم " كايكيليانوس" ضد المنشقين الدوناتيين. (3)

يعد الموقف الذي اتخذه الإمبراطور "قسطنطين" من الصراع الدائر داخل الكنيسة الإفريقية تدخلا سياسيا في شؤون الكنيسة. وقد اتضح منذ البداية أن "قسطنطين" اختار صف "كايكيليانوس" والكنيسة الكاثوليكية على خصومها الدوناتيين الذين اعتبروا منشقين عن الكنيسة الرسمية. لذلك حدثت القطيعة منذ انعقاد مؤتمر المحتجين في قرطاجة سنة312م، وساهم مجمعي روما في سنة 313م وآرل (*Arles*) سنة 314م في تكريس الخلاف بين الطرفين الكاثوليكي والدوناتي.

---

[1]- *Eusèbe, Hist. Eccl., X, 7.*
[2] - *Ibid., X, 6, 2.*
[3] - *Ibid., X, 6, 4.*

وقد حاول الإمبراطور "قسطنطين" من خلال رسائله الرسمية التي صبغت سياسته الإفريقية خلال الفترة من سنة 321م إلى سنة 330م – بعد أن سئم من الاضطهاد وصارع عناد المنشقين دون جدوى– أن يتراجع في الأخير عن موقفه في محاولة لحفظ ماء الوجه. فبعث رسالة مؤرخة في 5 ماي سنة 321م إلى كاهن إفريقيا "فرينوس" (*Vérinus*) يأمره بوقف المتابعات، وإعادة المنفيين، والسماح للمنشقين بحرية العبادة، وتقبل الوضع الراهن. [1]

وبعد ذلك، أصدر ما يشبه "الإعلان الإنجيلي"، حيث دعا وحث فيه الكاثوليك على التنازل عن موقفهم لصالح السلام، وأن يتحلوا بالصبر في مواجهة استفزازات المنشقين. ورغم ذلك استمرت الاضطرابات، لذلك اضطر قسطنطين إلى إرسال بعض الأساقفة الشرقيين كحكام إلى المغرب القديم. لكن نظرا للتطور الذي عرفته الأريوسية (*) والذي أحدث اضطرابا في الشرق، عدل عن هذه الفكرة، واكتفى بتبليغ أسفه في رسالة وجهها إلى الأسقف "ألكسندر" (*Alexandre*) والقس "أريوس الإسكندري" (**) (*Arius*) في بداية سنة 324 م. [2]

وبعد ذلك بست سنوات، بلغته أخبار عن تزايد جرأة الدوناتيين إلى درجة أنهم اضطهدوا بعض الكاثوليك في نوميديا. فبادر بمراسلة أحد عشر(11) أسقفا كاثوليكيا في مقاطعة نوميديا في 5 فيفري سنة 330م، ووعدهم باحترام امتيازات رجال الدين وكنائسهم، وبناء كنيسة جديدة بقسنطينة تعويضا لهم عن الكنيسة التي اغتصبها

---

[1] -*Augustin (St.), Epist., 141, 9.*

* –***الأريوسية***، *مذهب جديد ظهر في حوالي سنة 312م في زمن قسطنطين، ينسب الى أريوس Arius الإسكندري كان ضد عقيدة التثليث، يرى أن عيسى ليس إلها وإنما عبد مخلوق كسائر الأنبياء والرسل، وأنه كلمة الله التي خلق بها السماوات والأرض، أدين المذهب من طرف عدة مجامع كنسية خاصة مجمع نيقية (Nicée)سنة 325م ومجمع القسطنطينية سنة381م، اعتنقت عدة شعوب المذهب الأريوسي خاصة منها الشعوب البربرية كالقوط والوندال واللومبارديون واختفى في حوالي سنة 660م. للمزيد أنظر أعلاه، ص 213. .Ditc. Univ. Hist. Géo., p.113 -*

** – ***أريوس*** *Arius الإسكندري، (256م–336م)، ولد في "قورينائية" أو "الاسكندرية"، أسقف كنيسة الإسكندرية التي قاومها منذ أوائل القرن الرابع الميلادي. للمزيد أنظر أعلاه، ص 213.*

[2] - *Eusèbe de Césarée, vie de Constantin, II, 66- 69.*

المنشقون الدوناتيون، ووجه هذه التعليمات إلى القنصل " فالنتينوس" (*Valentinus*) حاكم نوميديا. [1] وهكذا، وبعد الاعتراف بالعجز في مواجهة قضايا الكنيسة الإفريقية المعقدة، تنتهي مراسلات "قسطنطين" الرسمية حول الانشقاق الإفريقي.

قدم المنشقون الأفارقة التماسا إلى محكمة الإمبراطور، بعد صدور قرارات مجمع آرل (*Arles*) سنة 314م التي أدانت الدوناتية، إلا أن المحكمة ترددت لمدة سنتين، قبل أن تعيد المحاكمة مرة أخرى، ويصدر حكم "قسطنطين" (*Judicium Constantini, Imperialis Sententia*) في ميلان (*Milan*) في الأيام الأولى من شهر نوفمبر سنة 316م، ليتم تبليغه في 10 نوفمبر إلى كاهن إفريقيا "أوميليوس" (*Eumelius*).[2]

وتضمن الحكم أن " كايكيليانوس"، افترى عليه خصومه، وأن انتخابه وسيامته تمت بطريقة شرعية. ونتيجة لذلك، فهو الأسقف الشرعي الوحيد في قرطاجة. وإذا كان النص الأصلي للقرار الإمبراطوري قد ضاع، فإن "أوغسطين" حفظ على نص الرسالة التي بعث بها "قسطنطين" إلى "أوميليوس" ويلخص منها حكمه فيما يأتي: «***أدرج هنا العبارات التي استعملها "قسطنطين" في رسالته إلى "أوميليوس" كاهن إفريقيا، حيث قرر إعادة دراسة القضية بين الطرفين، وأنه تأكد من براءة " كايكيليانوس"***. » [3]

وبعد أن استعرض "قسطنطين" الظروف التي لجأ فيها الطرفان إلى المحكمة الإمبراطورية بعد صدور الأحكام الأسقفية، يضيف الإمبراطور: « ***اعترفت بوضوح في هذه المحاكمة أن "كايكيليانوس" بريء، وأنه يسهر على أداء كل الواجبات الدينية، ويخدمها على الوجه الأكمل، ويبدو لي أنه لم يرتكب أخطاء، خلافا للاتهامات التي وجهت له في غيابه من طرف خصومه، بدافع الرياء والخداع.*** » [4]

---

[1]- *Cod. Theod., XVI, 2, 7.*
[2]- *Augustin (St.), Contra. Cresc., III, 71, 82.*
[3]- *Id., Epist., 43, 2, 4.*
[4]- *Id., Contra. Cresc., III, 71, 82.*

يبدو جليا من نص الرسالة أن قرار "قسطنطين" تضمن إدانة صريحة للدوناتية، ذلك أن الكاثوليك دفعوا الإمبراطور لاستخلاص الشرعية من الحكم الذي أصدره. ومن جهتهم قام المنشقون بمضاعفة العنف ضد الكاثوليك بهدف معاقبة السلطة الزمنية بقسوة. وهكذا صدر أول قانون لحظر الدوناتية في بداية سنة 317م، كما صدر في نفس الوقت مرسوم الوحدة الدينية في الكنيسة الإفريقية. (1)

ومن الغريب أن نص هذا القانون الهام لم يرد ذكره في "قانون تيودوسيوس" *Code Théodosien*، إلا أنه ورد في مرسوم أصدره الإمبراطور "غراتيانوس" (*) (*Gratianus*) في أواخر القرن الرابع الميلادي، ويشير أهم بند في القانون إلى مصادرة الكنائس التي استولى عليها المنشقون وإعادتها إلى الكاثوليك، ومصادرة ممتلكات أولئك الذين يقاومون بإصرار ويقفون حجر عثرة أمام الوحدة الدينية في المغرب القديم. (2)

وحسب "أوغسطين" فإن هذا القانون كان قاسيا، لأنه يتضمن بنودا أخرى موجهة أساسا ضد قادة المنشقين ومعاقبتهم بالنفي والإعدام. وحسب شهادة القديس "أوغسطين" دائما فإن القوانين التي صدرت في وقت لاحق ضد الدوناتية كانت تأكيدا لقانون قسطنطين –السالف الذكر–.

---

[1]- *Augustin (St.), Epist., 93, 4, 14.*

* – ***فلافيوس غراتيانوس*** *(Flavius Gratianus)، إمبراطور الغرب (367– 383م) ولد في 18 أفريل سنة 359م، ابن الإمبراطور فالنتنيانوس الأول، شارك أباه في الحكم سنة 367م وهو ابن ثماني سنوات، بعد وفاة والده سنة 375م كان غراتيانوس يقيم بمدينة تراف (Trèves) بعيدا عن والده الذي كان يقود حملة عسكرية في نهر الدانوب، فانتهز القادة العسكريون الفرصة وقاموا بتنصيب أخوه الأصغر فالنتنيانوس الثاني ولم يكن يتعدى 4 سنوات حتى لا يقف حاجزا أمام طموحاتهم. بعد وفاة عمه فالانس Valens إمبراطور الشرق عين مكانه أحد أبرز جنرالاته "تيودوز" Théodose سنة 379م وكان يمقت الوثنية لذلك نزع من الكابيتول تمثال الانتصار، قتل من طرف خصمه "ماكسيم" سنة 383م قرب ليون "فرنسا".*

- Dict. Univ. Hist. Géo., p. 787.

[2] - *Augustin (St.), Epist., 93, 4, 14.*

انتهج "قسطنطين" سياسته الجديدة بعد انتصاره على غريمه "ماكسانتيوس"[*] (*Maxentius*) وبدا واضحا أن" كايكيليانوس" هو المستفيد الوحيد في المغرب القديم من السخاء والكرم الإمبراطوري. وكان المنشقون الأفارقة يحضرون أنفسهم لجني ثمار هذا التحول في مواقف الإمبراطور. ولما انحاز إلى " كايكيليانوس"، دفعهم ذلك إلى تبني سلسلة من الإجراءات طويلة الأمد أسفرت عن إدانتهم في نهاية المطاف، من طرف محكمة الإمبراطور بتهمة الافتراء. وكان المنشقون قد تعرضوا منذ سنة 317م إلى حملات النفي والمصادرات والمضايقات البوليسية اتخذت ألوانا متعددة والتي تجددت بعد ذلك. [1]

تلقى الدوناتيون هذه الأحكام على أنها سلسلة جديدة من الاضطهاد شبيهة باضطهادات "ديوكليتيانوس" في بداية القرن الرابع (303-305 م).

وقد عبر "دوناتوس الأكبر" عن رأيه صراحة في خطبة وعظ ألقاها في شهر مارس سنة 318م على شرف مسيحيي طائفته كانوا ضحايا مقاومتهم لقرار الإدانة الإمبراطوري بقوله: « ***إذا لم يكن إثبات تاريخ الإضطهادات كتابة عديم الفائدة، وإذا لم نتمكن من إعطاء قراءة للأعياد التي تقام على شرف الشهداء، فلماذا لا نقرأ تاريخ الإحتيالات الماكرة، والافتراءات، والمكائد، التي تحت غطاء الدين تخدع الأرواح، إن التحضير لهذه الاجتماعات ضروري، حيث لا يكشف العدد عن نفسه صراحة، وكما يقال : فإن أعداء الإنسان قد يكونوا في عقر داره، إذن من الغريب على العقيدة أن نكتم مجد الشهداء عن طريق الصمت أو إخفاء حجة كاذبة ما هو مطابق للخلاص والنجاة.*** » [2]

---

* - ***ماكسانتيوس***، *ابن ماكسيميان هرقل، لقب بأوغسطس بعد وفاة الإمبراطور قنسطانس كلور سنة 306م، خاض عدة حروب في بلاد الغال وإفريقيا، كان قاسيا في اضطهاد المسيحيين، انهزم أمام قسطنطين عند أسوار روما في معركة جسر ملفيوس (Milvius) سنة 312م، مات غرقا بعد فراره من المعركة.* - *Gilbert Meynier, l'Algérie des origines, de la préhistoire à l'avènement de l'islam, éditions la découverte, Paris 2007, p. 151 ; Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1213.*

[1] - *Brisson (J.P.) , Op.cit., pp. 309- 310.*

[2] - *Ibid., p. 310.*

تعرضت كنيسة " دوناتوس" وأتباعه للاضطهاد بعد صدور قانون "قسطنطين" سنة 317م الذي يأمر باستعادة الكنائس والمعابد من المنشقين. الأمر الذي أدى إلى صدامات ومواجهات عديدة بين المنشقين والكاثوليك بعدة كنائس في قرطاجة وخلفت العديد من الضحايا، الذين دفنوا في المعابد التي سقطوا بها. وقد حملت الشواهد القبرية والنقوش أسماء الضحايا (*Titulationes Nominum*)، تلك الشواهد التي تذكر باضطهاد "كايكيليانوس".

وكشفت الحفريات التي جرت في قرطاجة عن بقايا شواهد قبرية (*Epitaphes*) ووثائق مسيحية في كنيسة مسيدفة (*) (*Mcidfa*)، منها حجر مصقول كتب عليه أسماء القديسة" بربوتيا" (*Perpétue*) وشهداء آخرين من قرية "تبوربو مينوس" (*Thuburbo Minus*). كما وجدت بقايا ألواح من الرخام حيث تبين النقوش أسماء وتواريخ ذكرى شهداء دوناتيين قتلوا سنة 317م. (1)

لقد صرع العديد من الدوناتيين بالعصي ودفنوا في معبد مسيدفة، وقتل آخرون في كنائس أخرى وأقيمت لهم مآتم ضخمة ووضعت جثثهم بالقرب من المذبح. وحسب الأب "دولاتر" (*P. Delattre*) فإن عددهم كان يتراوح ما بين خمسة عشر (15) وعشرون (20) اسما تمكن من قراءة اسمين منهم هما: "أكيلينوس" (*Aquilinus*) و"فيكتوريا" (*Victoria*). (2) ويعتقد "فيكتور الفيتي" (*Victor de Vita*) أن كنيسة مسيدفة (*Basilica Majorum*) هي إحدى هذه الكنائس التي حوت قبور القديسة "بربوتيا" (*Perpétue*) والقديسة " فاليكيتي" (*Félicité*). (3)

** – اكتشفت كنيسة **مسيدفة** Basilica Majorum سنة 1906م وتقع في مكان مرتفع بين محطة القديسة مونيكا Sainte -Monique ومحطة المرسى (Marsa) في قرطاجة. -Vaultrin (J.), les Basiliques Chrétiennes de Carthage, Rev. Afri. , n° 73, 1932, p. 259.*

1- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 469- 470.

2- Delattre (P.), La Basilica Majorum (Puits rempli de squelettes), in : C.R.A.I., 1908, pp. 59- 69.

3- Victor de Vita, I, 3, 9.

كما عثر على بقايا نقش في بئر قرب الكنيسة يحمل عبارة (*Sanctus*) أي "المقدس"، ذلك أن الدوناتيين يزعمون أنهم يحتكرون القدسية والطهارة، ويعتبرون أمواتهم قديسين وأطهار. (1)

لقد مرت أربع سنوات (317–321م) من الاضطهاد والعنف والفوضى والتي أتعبت الفريقين الدوناتي والكاثوليكي دون أن يتمكن أحدهما من تحقيق الانتصار على الآخر. لذلك طلب الأساقفة الدوناتيين العفو، من خلال عريضة (*libellus*) تقدموا بها إلى الإمبراطور "قسطنطين". هذا الالتماس دفع الإمبراطور للعدول عن مواقفه، فأصدر مرسوم التسامح بلغه إلى كاهن إفريقيا "فرينوس" (*Verinus*) في 5 ماي سنة 321م، والذي يمنح للمنشقين حرية العبادة، وعودة المنفيين، كما وضع حدا للاضطهادات والمتابعات في حقهم. (2)

ونجهل لحد الآن ما إذا كان المرسوم قد منح صراحة للطوائف الدوناتية التمتع بالكنائس التي استطاعت الحفاظ عليها عشية صدور المرسوم. لكن هذا الامتياز كان نتيجة طبيعية للبند المتعلق بحرية العبادة، وهكذا أقر مرسوم التسامح ورسخ ضمنيا الوضع الراهن. (3)

ويمكننا أن نتساءل هنا عن الأسباب الحقيقية التي دفعت الإمبراطور "قسطنطين" إلى إصدار مرسوم التسامح: هل كان نابعا فعلا من إرادة حقيقية لإحلال السلام في المغرب القديم وتحقيق الوحدة الدينية التي كان ينشدها؟ أم كان قراره استجابة للعريضة التي تقدم بها الدوناتيون؟

الحقيقة أن الإمبراطور "قسطنطين" انحاز منذ البداية إلى صف "كايكيليانوس". وكان هدفه أن تكون الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة الوحيدة والشرعية في المغرب

---

[1] - *Vaultrin (J.) , Op.cit., pp. 276- 277.*
[2] - *Monceaux (P.) , H.L.A.C., IV, p. 198.*
[3] - *Meynier (G.) , Op.cit., p.156.*

القديم، يستطيع استخدامها ضد أي حركة معادية له. ولم يكن يرمي إلى تحقيق الوحدة الدينية والسلام بين الكنيستين بقدر ما كان يهدف إلى ترويض الحركة الدوناتية وإفراغها من محتواها حتى تتخلى عن مبادئها ومواقفها المتصلبة كي يستطيع توجيهها والتحكم فيها كيفما شاء.

لقد عجز "قسطنطين" عن تحقيق أهداف سياسته الجديدة، فبالرغم من صدور قرار التسامح إلا أن الاضطهاد لم يتوقف نتيجة التضامن بين السلطة الزمنية والكنيسة الرسمية، مما ولد ثورة حقيقية في صفوف المعدمين، ذلك أن هذه الحركة الاجتماعية قد عظم شأنها دون أن يكون بينها وبين الدوناتية أي اتصال رسمي. وكان السبب الأساسي لتلك الثورة العداء المشترك للسلطة الرومانية وشدة بؤس الكادحين من الفلاحين والفقراء الذين جعلتهم الإمبراطورية لقمة سائغة للطبقة الأرستقراطية الرومانية أو المترومنة. [1]

وقد استغلت هذه الثورة فرصة الصراع بين الكاثوليك والدوناتيين لتقويض أركان الوجود الروماني في المغرب القديم.

اضطر "قسطنطين" إلى العودة للمصالحة وتبني سياسة السلم بعد فشله في القضاء على الدوناتية بأسلوب العنف. فأعلن عن مجموعة من الامتيازات استفاد منها رجال الدين الكاثوليك في 1 سبتمبر سنة 326م وحرم منها المنشقون الذين أجبرهم على أعمال السخرة (*munera*). [2] وبلغ القنصل "فالنتينوس" (*Valentinus*) حاكم نوميديا في 5 فيفري سنة 330م باتخاذ كافة الإجراءات لضمان الحصانة الكاملة لكهنة الكنيسة الكاثوليكية الذين أخضعوا من طرف الدوناتيين لنفقات وأعباء الإدارة البابوية. [3]

---

[1] - *Julien (Ch. A.), Op.cit., p. 216.*
[2] - *Cod. Theod., XVI, 5, 1.*
[3] - *Cod. Theod., XVI, 2, 7*

لكن الملاحظ أن هذه السياسة استفاد منها الكاثوليك فقط دون غيرهم، وهي سياسة ترمي إلى تحقيق هدفين: الأول حمل الدوناتيين على التخلي عن مبادئهم والانسحاب من كنائسهم نتيجة الظلم الذي قد يشعرون به جراء تطبيق سياسة "قسطنطين".

والهدف الثاني تشجيع الدوناتيين على ترك الانشقاق والعودة إلى الكنيسة الكاثوليكية الرسمية التي انشقوا عنها للاستفادة من هذه الامتيازات التي استفاد منها الكاثوليك، ولإنجاح سياسته قام "قسطنطين" بزيارة إلى المغرب القديم. فأعاد بناء مدينة سيرتا ورمم أسوارها التي هدمت أثناء صراعه مع عامله في إفريقيا "ماكسنتيوس" (*Maxentius*) لتحمل اسمه "قسطنطينة" (*) (*Constantin*) وذلك منذ سنة 325م [1] لتصبح عاصمة نوميديا. وقد أعطى أهمية لهذا الإقليم بهدف القضاء تدريجيا على الدوناتية. ورغم محاولات الاحتواء، إلا أن الحركة تجذرت أكثر في صفوف السكان، رغم الاضطهاد الذي استمر بعد ذلك.

خلف الاضطهاد في عهد "قسطنطين" الكثير من الضحايا في موريطانيا القيصرية التي عثر في أحد معابدها على نقش إهدائي مؤرخ في سنة 329م يبدو أن له علاقة بتاريخ الدوناتية. ويحمل أسماء ستة شهداء منقوشة على حجر كلسي وضع فوق باب المعبد قضوا في 21 أكتوبر سنة 329م وهم "روقاتوس" (*Rogatus*)، و"ماينتوس"

** – **قسنطينة**، مدينة نوميدية تقع على نهر لمساقا Ampsaga "وادي الرمال حاليا"، كانت عاصمة المملكة النوميدية في عهد صفاقس وماسينيسا ويوغرطة، عرفت باسم "كرتن" (KRTN) خلال الفترة البونية وتعني المدينة المحصنة، في سنة 46 ق.م بعد هزيمة يوبا الأول (Juba I) أمام القيصريين، عين قيصر César المغامر "ستيوس" Sittius حاكما على مقاطعة سيرتا فحملت اسمه Cirta Sittianorum Civitas، دمر قسم كبير منها أثناء الصراع بين دوميتيوس A.L.Domitius وعامل إفريقيا "ماكسانتيوس" Maxentius سنة 311م، وقد أعاد الإمبراطور قسطنطين بناءها ورمم أسوارها وحملت اسمه (Constantina) سنة 325م، ولا تزال تحمل هذا الاسم حتى اليوم.*
- Berthier (A.), Constantina, raisons et répercussions d'un changement de nom, R.S.A.C., Vol. 71, 1969- 1971, p. 79 ; Dict. Univ. Hist. Géo., pp. 421, 453 ; مهنتل جهيدة، *التطور الحضاري بمدينة قسنطينة (كرتا) في الفترة القديمة. أطروحة دكتوراه في الآثار القديمة، جامعة الجزائر، 2008- 2009، ص ص 39- 41.*

1- *Aurelius Victor, Epitomé, XLI.*

(*Maientus*)، و"ناسوس" (*Nasseus*)، و"ماكسيما" (*Maxima*). وحمل هذا النقش أيضا في 1 نوفمبر 329م اسمي "بناجيوس" (*Bennagius*)، و"سكستوس" (*Sextus*). هذا المعبد الذي حوا قبور الشهداء الستة كان قد شيده آباء الضحايا "بريموسوس" (*Primosus*)، و"كامبوس" (*Cambus*)، سقط هؤلاء الضحايا سنة 329م في إحدى المعارك والمواجهات المعهودة بين أتباع الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية، لكن لاشيء يثبت ما إن كانوا من الدوناتيين أو الكاثوليك. [1]

إن ارتفاع عدد الضحايا جراء المواجهات الدامية بين الفريقين لدلالة واضحة على فشل سياسة "قسطنطين" التي كانت تهدف إلى تحقيق السلام والوحدة الدينية في المغرب القديم، من خلال إصدار القوانين والمراسيم الإمبراطورية. يضاف إليها حوالي ثلاثين (30) رسالة رسمية، يمكن أن توفر العناصر الأساسية لإعادة إنشاء وتشكيل تاريخ الانشقاق الإفريقي خلال الفترة الممتدة من سنة 313م إلى سنة 330م.

إن أغلب هذه الوثائق هي عبارة عن: رسائل قسطنطين، وتقارير حكام المقاطعات الإفريقية، وقرارات الإشعار والتبليغ الموجهة إلى كبار الموظفين، وهي وثائق هامة تتعلق بتاريخ الدوناتية في المغرب القديم.

وهذا ما يدفعنا إلى القول أن الحركة الدوناتية ازدادت قوة وتنظيما رغم كل المراسيم والأحكام الآنفة الذكر التي صدرت ضدها، وأصبحت تشكل خطرا ليس على الكنيسة الكاثوليكية فحسب ولكن على الوجود الروماني في المغرب القديم.

رغم حدة الاضطهادات في بداية القرن الرابع الميلادي إلا أنها كانت حاسمة في تاريخ الصراع بين المسيحية والسلطة الزمنية. حيث عرف المغرب القديم هدوء نسبيا منذ صدور قرار التسامح سنة 321م. إلا أن الصراع تجدد في عهد الإمبراطور "قنسطانس"

---

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 473- 474.*

(*Constant*) الذي أصدر مرسوما في سنة 347م يكتسي بالنسبة للسلطة الرومانية أهمية بالغة، إذ كان يهدف إلى إعطاء ضربة قاضية للدوناتية في المغرب القديم.

وهكذا أوكل الإمبراطور مهمة إعادة السلم الديني في المغرب القديم إلى محافظين هما "بولوس" (*Paulus*) و"ماكاريوس" (*Macarius*)، اللذان وصلا إلى المنطقة، حسب ما أشار إلى ذلك "أوبطا الميلي" (*Optatus*). [1] وكان يتنقلان من مدينة إلى أخرى يدعوان الأهالي إلى الوحدة بيت الكنيستين المتنافستين، والعمل على استرضاء المتعصبين من المنشقين. وكانا يقومان بتوزيع المساعدات على الجماعات الفقيرة، ويحتمل أنهما قدما الهدايا إلى بعض زعماء المنشقين.

لقد باءت محاولات الإصلاح بإتباع أسلوب الإقناع وتوزيع الصدقات وأسلوب الإغواء والتضليل بالفشل، بسبب عناد وتصلب المنشقين، ونتيجة معارضة "دوناتوس الأكبر" الشديدة (*Donatus le Grand*) وتعليماته التي وجهها إلى أتباعه برفض المساعدات. [2]

اتبع الإمبراطور "قنسطانس" منهجا يقوم على مبدأ ثابت هو القضاء على الدوناتية باللجوء إلى أسلوب الإغراء وتوزيع الصدقات، لاستمالة المنشقين إلى السلطة المركزية وحملهم على التخلي عن الدوناتية والعودة إلى الكنيسة الرسمية، الأمر الذي أدى إلى فشل سياسته.

لذلك اعتبر الدوناتيون وجود المحافظان الإمبراطوريان في المنطقة وقيامهما بكل ذلك النشاط – المذكور آنفا–تدخلا من السلطة السياسية في القضايا الدينية.

[1] - *Optat (St.) , III, 1, 3- 4.*
[2] - *Optat (St.) , III, 3.*

وهذا ما جعل الدوناتيين يعاتبون الكاثوليك على لجوئهم الى السلطة الزمنية، ودعوتها إلى التدخل في المسائل الدينية، ويحتجون في نفس الوقت على القوانين والمراسيم الإمبراطورية، وتحملوا على مضض عنف وصرامة السلطة الرومانية. (1)

وأشارت تقارير المحافظين الإمبراطوريين إلى استمرار الاضطرابات في نوميديا، مما دفع الإمبراطور "قنسطانس" إلى تغيير منهجه تجاه المنشقين في المنطقة. وقرر إصدار قانون للوحدة، ويعني هذا إعادة وضع قانون الحظر الذي أعلنه "قسطنطين" في سنة 316م موضع التنفيذ، والذي توقف بعد صدور مرسوم التسامح سنة 321 م. (2)

وتضمن مرسوم "قنسطانس" عدة بنود تتمثل فيما يأتي:

1–دمج الكنيستين المتنافستين في كنيسة واحدة في كل المدن الإفريقية.

2–حل كل الطوائف والجماعات المنشقة.

3–منح الكنائس وممتلكات المنشقين إلى الكنيسة الكاثوليكية.

4–حظر إعادة التعميد.

5–نفي المتمردين والعصاة خاصة منهم الأساقفة.

6– يحق للمحافظين ومختلف أعوان السلطة المدنية –في حال وجود مقاومة–اللجوء إلى القوة العمومية، وتدخل الجيش وقائده كونت إفريقيا. (3)

وتشير النصوص إلى أن الدوناتيين بتصرفاتهم تجاه المحافظين يكونون قد قطعوا كل اتحاد ووحدة الشعور مع بقية العالم المسيحي.

وقد أشار إلى ذلك "أوبطا الميلي" في رده على خصومه الذين اشتكوا من فظاظة وعنف المحافظين الإمبراطوريين "بولوس" و"ماكاريوس" قائلا:« ***إن العالم كله مبتهج بالوحدة الكاثوليكية ماعدا جزء من إفريقيا، أنتم– يقصد الدوناتيين– تشتكون من دعاة وحدة***

1- *Brisson (J.P.), Op.cit., p. 291.*
2- *Monceaux (P.) , H.L.A.C., IV, p. 241.*
3- *Ibid., p. 242.*

الكنيسة المبعوثان "بولوس وماكاريوس" بأنهم ارتكبوا الجرائم، لكن لا إيطاليا اشتكت، ولا غاليا "فرنسا" حاليا"، ولا أسبانيا، ولا بانونيا(*) (Pannonia) ولا غلاتيا(**) (Galatia) ولا اليونان، ولا آسيا، لم نرسل إلى كل هذه المقاطعات أي مصلحين. » [1]

يبدو أن مرسوم "قنسطانس" تبعته مجموعة أخرى من الوثائق والمراسيم التي تتعلق بإجراءات التنفيذ، أصدرها المحافظين الإمبراطوريين أو الحكام الأفارقة مثل بروقنصل قرطاجة أو كاهن إفريقيا. وأشارت إحدى هذه الوثائق أن المرسوم البروقنصلي لما علق في قرطاجة في يوم 15 أوت سنة 347م، قام أحد الدوناتيين يدعى "ماكسيميانوس" (*Maximianus*) وزميله "إسحاق" (*Isaac*) بتمزيقه. فتعرضا للقتل ثم رميت جثتيهما في البحر قبل أن تلفظهما الأمواج ويلتقطهما الدوناتيين، الذين فقدوا شهيدا آخر من مدينة "نوفابترا" (*Nova Petra*) في نوميديا هو "ماركولوس" (*Marculus*) الذي صار قبره محجا للكثير من الدوناتيين. [2]

لقد خلف سقوط هؤلاء الضحايا في قرطاجة ونوميديا موجة غضب عارمة أدت إلى عدة مناوشات ومواجهات بين الدوناتيين والكاثوليك، مما دفع المحافظ "ماكاريوس" إلى استخدام كل وسائل العنف من نفي، ومصادرة الممتلكات، وتحويل الكنائس الدوناتية إلى الكاثوليك. [3]

** - **بانونيا** (Pannonia)، منطقة قديمة في أوربا الوسطى، تشمل حاليا شرق النمسا وغرب المجر وكرواتيا، يحدها من الشمال والشرق نهر الدانوب الذي يفصلها عن ألمانيا، سكانها من أصول كلتية (Celtes)، تعرضت للغزو الروماني في عهد "أوكتافيوس أغسطس" (Octave Auguste) سنة 35 ق.م وأخضعها في سنة 9 ق.م، قسمها "تراجانوس" (Trajanus) في بداية القرن الثاني الميلادي إلى قسمين: بانونيا العليا وبانونيا الدنيا، غادرها الرومان في بداية القرن الرابع، فخضعت للهون فالأستروقوط ثم اللومبارديون والسلاف، ثم سيطر المجريون على جزء كبير منها في نهاية القرن 11م.*
- Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1420.

*** - **غالاتيا** (Galatia)، منطقة قديمة في آسيا الصغرى، استقر بها الكلتيون Celtes خلال القرن الثالث (3) ق.م، ثم الإغريق في سنة 278 ق.م، احتلها الرومان سنة 189 ق.م، وأصبحت في عهد أغسطس (25 ق.م) مقاطعة رومانية، قام بالتبشير في القسم الجنوبي منها بولس الرسول (St. Paul).*
- Ibid., p. 719.

1 - Brisson (J.P.), Op.cit., p. 192.
2 - Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 242, 471.
3 -Brisson (J.P.), Op.cit., p. 291

واعتقد المحافظان الإمبراطوريان أن هذه الأساليب – المذكورة آنفا– التي نفذت في قرطاجة ونوميديا ستمكن من إعادة الوحدة الدينية إلى المغرب القديم بين الدوناتيين والكاثوليك.

وقد أورد "بريصون" أحد النصوص التي تدين فيها الحركة الدوناتية تلك الأعمال القمعية التي قام بها "ماكاريوس" بمباركة الكنيسة الرسمية بقوله: « **لقد شاركت الكنيسة في التمييز الاجتماعي بين الخير والشر، إن هؤلاء الخونة اضطهدونا، وطلبوا منا أن نرسل عرائض افتراء إلى كل أمراء هذا الزمان خلافا لتعاليم وأوامر الله، تحت التهديد بالحظر والنفي. لقد أريقت دماء المسيحيين من طرف: "ليونتيوس" (*Leontius*) و"أورساكيوس" (*Ursacius*) و"ماكاريوس" (*Macarius*) و"بولوس" (*Paulus*) و"طورينوس" (*Taurinus*) و"رومانوس" (*Romanus*)، ومحافظين آخرين الذين أرسلتهم السلطة الزمنية لقتل القديسين.** » (1)

وخلال هذه الفترة تعرض بعض الأساقفة للقتل، والبعض الآخر للنفي، مما قلب أوضاع العالم المسيحي رأسا على عقب. كما تعرضت العذارى للاغتصاب، وأبعد الأغنياء، وجرد الفقراء من ممتلكاتهم، وصودرت الكنائس، وأجبر الأساقفة على الهروب، لا أحد يستطيع تصور الجرائم التي ارتكبوها: نفي الأساقفة، اضطهاد رجال الدين، الاستيلاء على المعابد، معاقبة كل من يقاوم. وفي مدينة بغاي وحدها أريقت دماء أعداد كثيرة من المسيحيين بسبب هؤلاء المحافظين. لقد دفعت سياسة الاضطهاد سنة 347م في نوميديا الكثير من الدوناتيين إلى طلب الشهادة، ومعاداة الكنيسة الكاثوليكية، كما تركت في نفوس الآخرين آثار عميقة وتمكنت الأحقاد والضغائن من النفوس.

وخلف تدخل الجيش الذي أرسله " قنسطانس" (*Constance*) بهدف استعادة الوحدة الدينية، الكثير من الضحايا خاصة في مدينة بغاي (*Bagai*). وأذعن الدوناتيون بالقوة، وكلما اقتربت القوات من المدن أقفرت من أهلها، وفي بعض الأحيان كانت

---

1 - *Brisson (J.P.), Op.cit., p. 290.*

تنشب معارك طاحنة بين الطرفين، وبهذه الطريقة أمكن إعادة النظام إلى نوميديا. غير أن القمع بلغ درجة من الحدة جعل الكاثوليك أنفسهم يترددون في الدفاع عن "بناة الوحدة" (*) الذين تركوا في المغرب القديم سمعة سيئة شبيهة بسمعة الجلاد. (1)

تضمن المرسوم الإمبراطوري الإجراءات التي اتخذها البروقنصل والمحافظين الإمبراطوريين لضمان إعادة الوحدة الدينية إلى المغرب القديم. وتنص إحدى تلك الإجراءات على منع إيواء المنشقين الذين رفضوا الانصياع والانقياد للمرسوم. (2)

وأصدر كاهن إفريقيا مرسوما مماثلا تم تبليغه إلى المقاطعات الإفريقية الأخرى، وبوجه خاص في المدن النوميدية، ومن جهة أخرى توجه المحافظون الإمبراطوريون مباشرة إلى الجماهير الشعبية. من ذلك أن "ماكاريوس" (*Macarius*) وجه خطابا إلى السكان شرح فيه نص المرسوم الإمبراطوري، وتبرير إجراءات التنفيذ المتخذة لحث وحمل المنشقين على قبول الوضع الراهن. (3)

كان نشاط محافظي ومبعوثي الإمبراطور كثيفا تؤكده الأحداث الآتية: قصة "ماكسيميانوس" (*Maximianus*) وزميله "إسحاق" (*Isaac*) في قرطاجة، وحادثة "ماركولوس" في نوميديا، ودور الكونت "سيلفستر" (*Silvestre*) وقواته في المناوشات والصدامات التي حدثت في بغاي، وروايات أوبطا الميلي، وخطاب "غراتوس" (*Gratus*) في مجمع قرطاجة سنة 348م، ونفي "دوناتوس الأكبر" والعديد من الأساقفة. (4)

تركت هذه الأحداث التي شهدتها قرطاجة ونوميديا أثرا بالغا في نفوس الدوناتيين. وقد دلت النقوش على آثار تلك الحوادث، حيث عثر في "دلعى" (*Dalaa*) بين ماسكولا

---

* – *المقصود ببناة الوحدة هنا هما المحافظان الإمبراطوريان "ماكاريوس" و"بولوس".*

[1]- *Julien (Ch. A.), Op.cit., p. 217.*
[2]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 242.*
[3]- *Optat (St.), VII, 6.*
[4]- *Optat (St.), III, 3- 4.*

(*Mascula*) "خنشلة" حاليا وتفيست (*Theveste*) "تبسة" حاليا في نوميديا، على صندوق مستطيل الشكل يحمل رفاة أحد شهداء المنشقين يدعى "فليكيانوس" (*Felicianus*) يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي. (1)

كما عثر في خرائب وأطلال "دلعى" على شعار الدوناتيين الخالد " *Déo Laudes Agamus*". (2) ووردت في النقش عبارة (*selae*) *Vege* ذلك أن فجيزيلا هي المدينة التي التقى فيها "ماركولوس" وبقية نواب المجمع الدوناتي بـ "ماكاريوس" سنة 347م. وبهذه المدينة أوقفوا وعوملوا معاملة سيئة، الأمر الذي أدى إلى حدوث أعمال عنف. وقد يكون "فليكيانوس" (*Felicianus*) أحد المنشقين الذين كانوا ضحية عنف الكاثوليك في فجيزيلا (*Vegeselae*)، حيث قتل في 29 جوان سنة 347م، أما " ماركولوس" فقد سجن ثم قتل في 24 نوفمبر 347م. (3)

تجدر الإشارة أن نقشا آخر وجد في معبد قرب فجيزيلا، في هنشير بوسعيد (*Henchir Bou -Said*) لكنه غريب نوعا ما، فهو عبارة عن صخرة بطول 0,57 سم وعرضه 0,23 سم تظهر شخصا في يده اليسرى عصا، ويده اليمنى مكبلة بالأغلال، وأسفله باب يحتمل أنه يشير إلى باب سجن، وفوق رأسه نقشت عبارة (*Donatus Milex*). (4) مما يوحي أن هذه الرموز دوناتية والنقش يشير إلى شهيد.

وكانت الوثائق التي تتعلق بالدوناتية والشهداء في المغرب القديم، إذا أرادت أن تذكر بتاريخ الاضطهاد والصراع مع الكاثوليكية والسلطة الزمنية فإنها تشير إلى السجون والأغلال. وكان الدوناتيون أثناء مواجهاتهم مع الكاثوليك مسلحين بالعصي ولا يحملون السكاكين، لأنهم يزعمون أن المسيح نهاهم عن استخدام السكاكين. (5)

1- *Gsell (S.), A.A.A., f. 28, n° 171.*
2- *C.I.L., VIII, 2308.*
3- *Monceaux (P.) , H.L.A.C., IV, pp. 474- 475.*
4- *Ibid., p. 475.*
5- *Jacques-Paul (Dir.), Pluquet (l'abbé J.-Jh. Claris), Dictionnaire des Hérésies, des erreurs et des schismes, t. I, Ateliers catholiques, Paris, 1847, p. 649.*

انعقد مجمع دوناتي في نوميديا سنة 347م، وسط حملة من الرعب والهلع، بعد المهمة الدموية التي قادها "ماكاريوس" والتي خلفت الكثير من القتلى في بغاي، في محاولة للتدخل لوقف أعمال العنف. وعن هذا المجمع قال أحد الكتاب الدوناتيين: «***عقد أساقفتنا مجمعا وأرسلوا بعثة إلى "ماكاريوس" تتكون من عشرة أساقفة يشهد لهم بالبراعة اختارهم المجمع. وكان على هؤلاء الأساقفة أن يحملوا إلى "ماكاريوس" التحذيرات اللازمة ليكف عن جرائمه، أو على الأقل وقف نزيف الدم في ساحة المعركة الدينية.*** » [1]

اجتمع الأساقفة العشرة بمبعوث الإمبراطور، وقدموا احتجاجاتهم على القمع الذي مورس على الدوناتيين، ودعوا المبعوث إلى بذل الجهد الكافي لإحلال السلام. إلا أنهم لما التقوا بالمحافظ الإمبراطوري "ماكاريوس" في فجيزيلا (*Vegesela*) أساؤوا التصرف معه. فما كان على المحافظ إلا أن واجههم بالعنف، إذ ضرب بعضهم بالعصي، وألقى البعض الآخر في السجن، ومنهم من قتل في مدينة "نوفابترا" [*] (*Nova Petra*) مثل الأسقف "ماركولوس" (*Marculus*) الذي أصبح أحد أشهر شهداء الدوناتية. [2]

وهكذا أدت تلك الأحداث التي شهدتها نوميديا إلى التحالف والتلاحم بين الدوارين والدوناتيين. [3] الذين أطلقوا على أنفسهم "جنود المسيح" (*Milites Christi*)، أما قادتهم فلقبوهم باسم "رؤساء القديسين " (*Sanctorum Duces*). [4]

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 335- 336.*

* – ***نوفابترا Nova Petra***، *تعني الصخرة الجديدة، وهي منطقة تقع على بعد 20 كلم عن "ديانا فيترانوروم" Diana Veteranorum "زانة حاليا" شمال باتنة، وتبعد بحوالي 22 كلم عن "جميلاي" Gemellae "القصبات حاليا" في الموقع المسمى هنشير بن خليفي أو هنشير إنكدة حاليا عند سفح جبل أغمروال، اعتبرت مدينة مقدسة لدى الدوناتيين بعد مقتل ماركولوس.* *-Tissot, (Ch.), Géographie comparée de la province Romaine d'Afrique, T.2, imprimerie nationale, Paris, 1888, p. 509 ; Toulotte (Mgr.), Op.cit., p. 242 ; Gsell (S.), Recherches Archéologiques en Algérie, Paris, 1893, p. 200 ; Id., A.A.A., f.27, n° 3, 62 ; Ragot (W.), «le Sahara de la province de Constantine », R.S.A.C., XVI, 1873- 1874, p.228 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p.287.*

[2]- *Ibid., p. 336.*

[3]- *شنيتي، محمد البشير، "حول الدوناتية وثورة الريفيين خلال القرن 4 م"، المرجع السابق، ص. 32.*

[4]- *Optat (St.), III, 4; Augustin (St.), Epist., 108, 6, 18.*

عقد مجمع قرطاجة الكاثوليكي في سنة 348م بعد تلك الأحداث، برئاسة "غراتوس" (*Gratus*)، وبحضور بعض الأساقفة المنشقين الذين انضموا إلى الكنيسة الرسمية عشية انعقاد المجمع. [1] وكان المجمع يهدف إلى إعادة تنظيم الكنيسة الإفريقية التي توحدت عنوة بمرسوم "قنسطانس" (*Constant*)، وذلك بعد الانتصارات التي تحققت على الانشقاق الدوناتي.

وهذا ما أشار إليه رئيس المجمع "غراتوس" في خطابه الافتتاحي قائلا: « ***حمدا لله، إلى العلي القدير، وإلى المسيح، الذي وضع حدا للانشقاق، وأمر " قنسطانس" لإعادة الوحدة، بإرسال مبعوثيه "ماكاريوس" و "بولوس" إذن، بإرادة الله نجتمع اليوم وكأننا جسم واحد. لقد عقدنا عدة مجامع في جل المقاطعات، لكن اليوم ينعقد مجمع إفريقيا كلها في قرطاجة بفضل الله، لنناقش القوانين الضرورية، لكن يجب أن نتذكر تعاليم الكتابات المقدسة. تذكروا إن الوحدة عادت، يجب أن نظهر أن قرطاجة لن تضعف قوة القانون، ومع ذلك لا يجب أن نتخذ قرارات أكثر قسوة.*** » [2]

نصت القوانين الكنسية التي أصدرها مجمع قرطاجة سنة 348م على منع إعادة تعميد الهراطقة والمنشقين، الذين انضموا إلى الكنيسة الرسمية، وحظر شهداء الدوناتية الكاذبين [*] وتنظيم عبادة القديسين. ورغم كل هذه القوانين فإن السلطة الزمنية عجزت عن القضاء على الدوناتية كما ذهب إلى ذلك " أوبطا الميلي". [3]

يبدو أن الوحدة الدينية التي تحدث عنها "غراتوس" ظاهرية فقط، حيث لم يتم القضاء على الدوناتية بصورة تامة ونهائية. تلك الحركة التي وإن قل نشاطها بفعل العنف الممارس ضدها، إلا أنها ظلت راسخة في نفوس أتباعها في المغرب القديم.

1- *Monceaux (P.), H.L.A.C., III, p. 221.*
2- *Ibid., IV, p. 350 ; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 261.*

*- *حسب "غراتوس" فإنه لا يجب تسمية أو تصنيف أولئك الذين يقومون بإلقاء أنفسهم من أعالي الصخور، ويقتلون أنفسهم أو ينتحرون بهذا الشكل من الشهداء، فهم بذلك يرتكبون الخطيئة والإثم، ليس بهذه الطريقة ولا هو زمان صنع الشهداء الكاذبون* *Pseudo- Martyrs*.
- Monceaux, H.L.A.C., IV, pp. 350- 351.

3- *Optat (St.), II, 15.*

ظلت الأوضاع هادئة في المغرب القديم إلى غاية سنة 355م، حيث عرفت الدوناتية مرحلة تعد الأخطر في تاريخها وفي علاقتها مع الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الزمنية.

فقد أصدر الإمبراطور "قنسطانتوس الثاني" *Constantius II*(*) قانونا في سنة 355م يؤكد أن حملة رسائل الهجاء ومقالات النقد مازالت مستمرة، (1) عقب الأحداث التي شهدتها مدينة "كاربي" (**) (*Carpi*) والتي خلفت عددا من الضحايا من الكهنة والشمامسة الكاثوليك أثناء مواجهات مع أتباع "دوناتوس". (2) ويؤكد ذلك استمرار تدخل السلطة السياسية في المسائل الدينية في المغرب القديم.

توفي "دوناتوس الأكبر" في سنة 355م وانتخب" بارمنيانوس" (*Parmenianus*) أسقفا لكنيسة قرطاجة وجثليق "كبير الأساقفة" الدوناتيين. مما أعطى للحركة الدوناتية نفسا جديدا، فكانت بمثابة النار التي تخمد تحت الرماد وتنتظر الريح كي تنبعث من جديد. (3)

وتمكن "بارمنيانوس" من إعادة بناء الكنيسة الدوناتية، وأعاد لها قوتها بعد أن ترأسها مدة تناهز سبع وثلاثين (37) سنة. وعرفت الكنيسة الكاثوليكية، خلال هذه المرحلة، فترة من الهدوء دامت خمس عشرة سنة (348–362م) تمكنت خلالها

*- ***قنسطانتوس الثاني*** *Flavius Julius Constantius*، (317–361م) إمبراطور روماني (337–361م)، الابن الثاني للإمبراطور قسطنطين، تقاسم العرش مع أخويه بعد وفاة والدهم سنة 337م، وتولى حكم الشرق واليونان، كان ضعيفا لذلك عجز عن إخضاع الفرس، دعم الأريوسيين واضطهد القديس أثاناز *St. Athanase*، توفي في 3 نوفمبر سنة 361م.* *-Ammien Marcellin, XXI, 15 ; Dic.Univ.Hist.Géo., pp.451-452.*

1- Cod. Theod., IX, 34, 6.

***- بناية قديمة، وهي عبارة عن خرائب وأطلال لا زالت تعرف إلى اليوم باسم "كنيسية" أو "مرايسة Mraisa أو "كاربي" Carpi في تونس حاليا، لكن يجهل موقعها، كانت قديما كنيسة مسيحية، من أشهر أساقفتها "سوغونديونس" Secundinus، وفيراتيانوس" Veratianus و"أنطونيوس" Antonius.* *- C.I.L., VIII, n°994 ; Gsell (S.), A.A.T., f. 21 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, pp. 121- 122.*

2- Optat (St.) , II, 18

3- Optat (St.) , III, 3.

التخلص من أعدائها الدوناتيين بالتقتيل والطرد والنفي والاضطهاد نتيجة تحالفها مع السلطة الرومانية. (1)

والملاحظ أنه مع تولي "جوليان" (*Julien l'apostat*) العرش الإمبراطوري سنة 362م، وكأن الكنيسة المنشقة انبعثت من جديد وازدادت قوة أكثر من ذي قبل.

فقد انتهج الإمبراطور "جوليان" سياسة مغايرة لسابقيه تماما، فأعاد مذهب تعدد الآلهة إلى الوجود، وقاد حملة شرسة ضد المسيحية. إذ لم يكتف بحرمان رجال الدين الكاثوليك من امتيازاتهم، لكن فجر حربا دينية في كل مكان بحجة التسامح الديني فأعاد المنفيين والمبعدين، وأعلن حرية العقيدة بالنسبة لكل الطوائف وأباح الهرطقة والبدع. (2)

انتهز الدوناتيون هذه الفرصة، فوجه بعض أساقفتهم وأبرزهم: "بونتيوس" (*Pontius*) و"روقاتيانوس" (*Rogatianus*)، و"كاسيانوس" (*Cassianus*)، عرائض إلى الإمبراطور "جوليان" يطالبونه بتصنيف الدوناتية ضمن الفرق والطوائف التي تستفيد من الحرية الدينية. ويعني هذا إلغاء مرسوم "قنسطانس" الذي صدر سنة 347م وعودة المنفيين واستعادة الكنائس، والحق في الحياة. (3)

لذلك، أصدر "جوليان" مرسوما في بداية سنة 362م استجاب فيه لمطالب الدوناتيين مثل: حرية العبادة، وعودة المنفيين، واستعادة الممتلكات. (4) وبانبعاث الانشقاق الدوناتي من جديد يكون "جوليان" قد أعلن الحرب الدينية.

عمت مظاهر الفرح والبهجة معظم المدن والقرى في المغرب القديم وهي تستقبل مرسوم جوليان. وسارع "بارمنيانوس" (*Parmenianus*) إلى الاجتماع بأتباعه في

1- *Julien (Ch.A.) , Op.cit., p. 218.*
2- *Optat (St.) , II, 16- 17 ; Augustin (St.), Conf., VIII, 5, 10 ; Ammien Marcellin, XXII, 5 ; Cod. Theod., VIII, 5, 12 ; XII, 1, 50.*
3- *Optat (St.), II, 16 ; III, 3 ; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 97.*
4- *Optat (St.), II, 16 ; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 83 ; 184 ; Epist., CV, 2, 9, Cod. Theod., XVI, 5, 37.*

قرطاجة، حيث دعا المنفيين إلى العودة وإعادة بناء الكنيسة الدوناتية. ومن ثم بدأ الدوناتيون يحضرون أنفسهم لإشفاء غليلهم من أحقاد طويلة، حسب ما أشار إلى ذلك "أوبطا الميلي" و"القديس أغسطين". (1)

عبر "أوبطا الميلي" بعد ذلك في سنة 366م، عن استيائه من مرسوم "جوليان"، وفقدان الكاثوليك لامتيازاتهم، في رده على "بارمنيانوس" حيث قال:« ***لقد عاد جنونكم إلى إفريقيا، لحظة خروج الشيطان من سجنه، ألا تخجلوا، أنتم الذين لديكم ذكريات سارة مع العدو لقد عدتم وانتم مشحونين بداء الحقد والانتقام، كنتم حاذقين في الإغراء مخيفين في التقتيل، إنكم تحرضون على قتل أبناء السلام، لقد طردتم الكثير من الأساقفة من مقراتهم، بواسطة عصابات من المرتزقة، والكثير منكم تسبب في عمليات تقتيل فظيعة، والتي بعث حكام تلك الفترة تقارير بشأن تلك الجرائم والآثام.*** » (2)

إذا كان أوبطا الميلي يتهكم من الدوناتيين ويعيب عليهم تحالفهم مع عدوهم جوليان (*Julien l'apostat*) –الذي لقب بالوثني المرتد– وما نعموا به من حرية رغم قصر فترة حكمه. فإن ذلك حسب اعتقادي يعد ردة فعل طبيعية عن سنوات الظلم والاضطهاد الذي تعرضوا له على يد الكاثوليك تدعمهم السلطة الرومانية بالمراسيم والقوانين الإمبراطورية.

كان الكاثوليك يعيبون على الإمبراطور "جوليان" تدخله في المسائل الدينية الإفريقية، بمقاطعة الكنيسة الكاثوليكية ومنح الحرية الكاملة للهرطقة والبدع. فلما صدر المرسوم الإمبراطوري تضمن جزء من عريضة الدوناتيين، خاصة العبارة الشهيرة التي حررها الأسقف الدوناتي "بونتيوس" (*Pontius*) والموجه إلى "جوليان" إذ قال:« ***بالقرب منه فإن العدالة فقط تجد سبيلها*** » . (3)

1- *Optat (St.), II, 15- 19 ; Augustin (St.), Cont. Epistul. Parmen., I, 12, 19.*
2- *Optat (St.), II, 17.*
3- *Augustin (St.), Epist., 93, 4, 12.*

وقد أورد "أوغسطين" جانبا من نص المرسوم: « ***إننا نأمر "روقاتيانوس" (Rogatianus) و"بونتيوس"(Pontius) و"كاسيانوس" (Cassianus) الأساقفة الآخرين ورجال الدين، نأمرهم حتى تكون العدالة كاملة ومنصفة بإلغاء كل الإجراءات التي اتخذت في حق الدوناتيين خطأ، خارج نص المرسوم، وإعادة الأشياء كما كانت إلى حالتها الأولى.*** » [1]

ورغم ذلك، فإن المنشقين نعموا بمرسوم "جوليان" لمدة قصيرة لا تتعدى عشرين شهرا، وانقلبت الأوضاع بعدها رأسا على عقب بعد وفاة "جوليان"، حيث أصيب في إحدى المعارك ضد الفرس، ومات متأثرا بجراحه في 26 جوان سنة 363م. [2]

دخلت الكنيسة المنشقة مرحلة اضطهاد رسمي خلال فترة تمتد من سنة 363م إلى سنة 391م، صدرت خلالها العديد من المراسيم والقوانين الإمبراطورية ضد المنشقين. فقد أصدر الإمبراطور "فالنتنيانوس الأول" [*] (*Valentinianus*) مرسومين (*De Famosis Libellis*) [3] في 20 فيفري سنة 373م بعد هزيمة "فيرموس" (*Firmus*) الذي دعمه المنشقون. ووجه مرسوما آخر إلى قنصل إفريقيا "يوليانوس" (*Julianus*) الذي نص على منع إعادة التعميد، وعزل أي أسقف أعاد التعميد. [4]

وأصدر ابنه الإمبراطور "غراتيانوس" [**] (*Gratianus*) قانونا في 22 أفريل سنة 376م ينص على مصادرة الأماكن التي يجتمع فيها المنشقون، وهدد بفرض عقوبات صارمة ضد كل من يسمح ويسهل عقد اجتماعاتهم. [5]

---

[1] *- Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 97, 224.*

[2] *- Ammien Marcellin, XXV, 3.*

*- ***فالنتنيانوس الأول*** Flavius Valentinianus، (321- 375م) إمبراطور روماني (364-375م) ابن غراتيانوس كونت إفريقيا، أعلن أغسطس من طرف الجيش في نيقية (Nicée). للمزيد أنظر أدناه، ص 440.*

[3] *- Cod. Theod., IX, 34, 7- 8.*

[4] *- Augustin (St.), Epist., 105, 2, 9 ; Cod. Theod., XVI, 6, 1.*

*** - ***فلافيوس غراتيانوس*** (Flavius Gratianus)، إمبراطور الغرب (367-383م) ولد في 18 أفريل سنة 359م، ابن الإمبراطور فالنتنيانوس الأول، تولى الحكم وهو ابن ثماني سنوات. للمزيد أنظر أعلاه، ص 307.*

[5] *- Cod. Theod., XVI, 5, 4.*

وصدر مرسوم 17 أكتوبر سنة 377م موجه إلى "نيكوماكوس فلافيانوس" (*Nichomachus Flavianus*) كاهن إفريقيا يجدد القانون–المذكور آنفا–بمنع إعادة التعميد، مطالبا الحكام بمنح كل كنيسة مارست هذه العملية إلى الكاثوليك. (1)

وبطلب من مجمع روماني تقدم بعريضة في حوالي نهاية سنة 378م أصدر كل من "فالنتنيانوس" و"غراتيانوس" مرسوما موجه إلى الكاهن "أكيلينوس" (*Aquilinus*) يقضي بنفي "كلوديانوس" (*Claudianus*) (*) زعيم الدوناتيين في روما، أحد أبرز منافسي البابا " داماس" (*Damas*). (2)

تضاعفت المراسيم ضد المنشقين في السنوات اللاحقة تحت تأثير الإمبراطور "تيودوسيوس الأول" (**) (*Théodosius 1er*) (الشكل 27 ص 328) الى غاية صدور قانون 15 جوان سنة 392م والذي ينص على دفع غرامة مالية قدرها عشرة ليرات ذهبية. (***) (3)

لقد سكتت المصادر عن مرحلة هامة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في المغرب القديم، منذ تولي "جوليان" العرش الإمبراطوري وبعد وفاته سنة 363م. (4) فقد عجز الكاثوليك –وهم خصوم المنشقين–عن بذل أي جهد ونشاط لمدة تناهز الأربعين (40)

---

[1]- *Cod. Theod., XVI, 6, 2 ; Augustin (St.), Epist., 87, 8 ; 105, 2, 9.*

*– **كلوديانوس Claudianus**، أسقف دوناتي ورئيس طائفة عرفت باسمه "الكلوديانيين" Claudianiste ، أسس في قرطاجة بعد عودته من روما، كنيسة متميزة في أواخر القرن الرابع الميلادي –حوالي 380م–، وحسب أوغسطين فإن هذا الإنشقاق لم يتعد – على ما يبدو– مدينة قرطاجة، ولم يعمر إلا بضع سنوات. *Augustin (St.), Cont. Cres., IV, 9, 11 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 48, 129 ; R.H.R., t. 63, 1911, p. 189.*

[2]- *Augustin (St.), Epist., 13, 8.*

– ***تيودوسيوس الأول (379–395م) ابن الكونت " تيودوز" الذي حارب "فيرموس"، بعد وفاته في 395م قسمت الإمبراطورية بين ولديه "هونوريوس" إمبراطور الغرب و" أركاديوس" إمبراطور الشرق. أنظر أعلاه، ص 652.*

***– *تقدر قيمة الليرة الذهبية في تلك الفترة بحوالي 5.600 فرنك فرنسي قديم حسب ما حدده "شارل صوماني" في سلم العقوبات التي فرضت على الدوناتيين، وبذلك فإن عشرة ليرات ذهبية تقدر بحوالي 56.000 فرنك فرنسي.*
-Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles, A.H.E.S., 1934, p.357. (أنظر جدول العقوبات، الملحق 4).

[3]- *Augustin (St.), Cont. Epistul. Parmen., I, 12, 19 ; Cont. Litter. Petil., II, 83, 184.*

[4]- *Optat (St.), II, 15- 19 ; III, 3 ; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 92, 203.*

سنة منذ انعقاد مجمع "غراتوس" سنة 348م. حيث لم تنعقد خلال هذه الفترة أية مجامع كاثوليكية في المغرب القديم، وحتى لما انعقد اجتماع قرطاجة سنة 390م، يبدو ألا أحد كان يفكر في الكنيسة المنشقة وهي تزداد قوة يوما بعد يوم. ربما يكون الكاثوليك في هذه الفترة قد يئسوا وعجزوا عن إيقاف التطور المذهل للانشقاق الإفريقي.

وتشير المصادر (*) في مقام آخر أنه خلال مدة الأربعين سنة، انعقد مجمعين استأنفا المقاومة ضد كنيسة " دوناتوس"، وهما مجمعين رومانيين وليس إفريقيين.

انعقد المجمع الروماني الأول سنة 378م، الذي قدم شكوى إلى الإمبراطورين "فالنتنيانوس" و"غراتيانوس" ضد " كلوديانوس" (*Claudianus*) الأسقف الدوناتي في روما. والذي اتهم بإزعاج وإرباك البابا "داماس" (*Damase*)، وضد أسقف إفريقي آخر يدعى "رستيتتوس" (*Restitutus*)، حيث اتهمهم المجمع بنعت الأساقفة الكاثوليك بالمدنسين والوثنيين. فما كان على الإمبراطورين "فالنتنيانوس" و"غراتيانوس" إلا أن أصدرا مرسوما في نهاية سنة 378 م يأمر كاهن إفريقيا "أكيلينوس" (*Aquilinus*) بنفي "كلوديانوس" الذي طرد من روما، فالتحق بزملائه في قرطاجة. [1]

وانعقد المجمع الروماني الثاني بعد ثماني سنوات أي في سنة 386م ودرس قضية الانشقاق الدوناتي وإعادة التعميد، ومصالحة أتباع "كلوديانوس" الذين عرفوا بـ "الجبليين" (*Montenses*) وكانوا قد انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية في غياب زعيمهم، بوضع اليدين على الرأس (للتبريك). [2]

يبدو أن الأوضاع قد تغيرت مع نهاية القرن الرابع الميلادي، بدخول أوغسطين وحملته في سنة 392م ضد الدوناتية.

- من هذه المصادر نذكر: كتاب أوبطا الميلي "ضد الانشقاق الدوناتي" "De Schismate Donatistarum" الذي كتبه في حوالي سنة 366م، وكتاب أوغسطين " الرد على رسالة بتيليانوس" الذي كتبه بين سنتي 400 و403م.

[1] - *Augustin (St.), Contra Cresconium, IV, 9, 11.*

[2] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 353.*



(أ)



(ب)

الشكل رقم 27: الإمبراطور "تيودوسيوس الأول"

أ-نقد يظهر صورة الإمبراطور "تيودوسيوس الأول"
ب-صورة الإمبراطور "تيودوسيوس الأول" (379-395م) ابن الكونت "تيودوز" بعد وفاته سنة 395م قسمت الإمبراطورية بين ولديه "هونوريوس" و"أركاديوس".

نقلا عن: *w.w.w.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/22.

المبحث الثالث-مرحلة الانشقاقات الداخلية زمن أوغسطين (392-430م): بعد فشل الأساليب والسياسات السابقة التي انتهجتها الإمبراطورية الرومانية بهدف القضاء على الدوناتية، وعلى مدار ثمانين سنة (312-392م)، تفاقمت الأوضاع في نهاية القرن الرابع الميلادي بتحالف الدوناتية مع ثورة الريفيين وثورات القرن الرابع الأخرى، فاتجهت السلطة الزمنية إلى استخدام وسيلة أخرى علها تتمكن من القضاء على جذور الحركة وهي وسيلة الاختراق والتصفية، بعدما استخدمت في مراحل سابقة وسائل عديدة كالاحتواء والإغراء والقمع والاضطهاد التي لم تجد نفعا.

ظلت الحركة الدوناتية متماسكة إلى غاية وفاة "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) سنة 392م، وهو الذي أعاد بناء الكنيسة الدوناتية وأعاد لها قوتها وترأسها لمدة سبع وثلاثين (37) سنة. [1] وهي السنة التي عين فيها أوغسطين أسقفا جديدا لأبرشية هيبو-ريجيوس (*Hippo-Regius*) "عنابة حاليا"، ولعب دورا هاما في إحداث الانشقاق داخل الحركة الدوناتية لإضعافها. وقد استخدم جميع الوسائل بما فيها أسلوب القوة، بل دعا إلى ضرورة اللجوء إلى "***إرهاب مجد***" تقوم به السلطة لحمل المنشقين على العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية، وبرر ذلك بقول المسيح: «***ادفعوهم إلى دين الله دفعا***» (*compelle intrare*).[2]

ونتيجة لذلك حدثت مواجهات دموية في المناطق الجنوبية من نوميديا في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس، وأشارت النقوش [*] التي اكتشفت بالمنطقة إلى تلك

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 337.*
[2]- *Julien (Ch.A.), Op.cit., pp. 226- 227.*

*- *عثر على العديد من هذه النقوش الرائد قينان (Guénin) قائد حوز تبسة في سنة 1908م، في منطقة هنشير الأبيض على بعد 15 كلم غرب الشريعة " تبسة"، ثم اكتشف غزال نقوشا أخرى في سنتي 1923م و 1928م. للمزيد أنظر:* *Leschi (L.) , «Recherches épigraphiques dans le pays des Nememchas », Rev.Afri., n° 72,1931, (pp.262-293.).*

الصراعات الدامية، في الوقت الذي كانت فيه السلطة الرومانية منشغلة ببناء الصروح وتوسيع الملكيات. (1)

وقد أصدر الإمبراطور " ثيودوسيوس" (*Théodosius*) خلال هذه المرحلة قانونا في 15 جوان سنة 392م، ينص على إرغام المنشقين الذين يقومون بسيامة الأساقفة ومن يقدم التسهيلات والمساعدات لعقد الاجتماعات المحظورة، على دفع عشرة ليرات ذهبية، وعلى مصادرة الأماكن التي تعقد فيها هذه الاجتماعات. (2)

يوحي نص القانون السابق، إذا ما قورن بالقوانين السابقة، بأنه معتدل نوعا ما، حيث أنه لم يستهدف الدوناتيين فقط ولكن كل المنشقين من مختلف الطوائف، إذ يفرض غرامات مالية على كل من يحرض على العنف أو يتغاضى عنه. وكان "أوغسطين" نفسه ينفر اللجوء إلى استخدام أسلوب الإرغام والضغط، ومع ذلك كان يلتمس تطبيق القانون الذي يسمح بمعاقبة الذين تسببوا في الاعتداءات أو المتواطئين معهم.

وهنا بدأ التحول الحقيقي في هذه المرحلة، وهي الفترة التي دخل فيها "أوغسطين" الساحة، والتي استرجع فيها الكاثوليك قوتهم بالهجوم على خصومهم الدوناتيين.

وكانت الكنيسة الدوناتية تمر –في تلك الفترة –بأخطر مراحلها بظهور الانشقاقات والانقسامات داخلها، في الوقت الذي كان فيه الجيش الروماني وقادته يعملون على إخماد ثورات القرن الرابع. (3) في هذا الوقت بالذات توفي زعيم الحركة الأسقف "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) سنة 392م، فانتخب "بريميانوس" (*Primianus*) الذي احتج على انتخابه الأسقف "ماكسيميانوس" (*Maximianus*) وراسل الأساقفة الدوناتيين يطالبهم بإجراء تحقيق في شرعية انتخابه.

[1]- .Leschi (L.) , «Recherches épigraphiques, Ibid., p.275.

[2]- Cod. Theod., XVI, 5, 21 ; Augustin (St.), Epist., 66, 1 ; 88, 7 ; Cont. Litter. Petil., II, 83,184.

[3]- Cherbonneau (M.) , «L'inscription du tétrastyle de Potitus à Constantine», in R.S.A.C., n°13, 1869, p. 127.

وبذلك بدأ الانشقاق يلوح في الأفق، فانعقد اجتماع في مدينة قرطاجة برئاسة "ماكسيميانوس" في الوقت الذي عمدت الكنيسة الكاثوليكية في المجمع الذي انعقد في 8 أكتوبر سنة 393م في "هيبون" (*Hippone*) إلى استقبال رجال الدين الدوناتيين الذين يرغبون في العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية ضمن المدنيين، والسماح للذين لم يمارسوا إعادة التعميد وللذين يجلبون معهم كل أتباعهم بالاحتفاظ بمناصبهم الدينية. كما اقترح المجمع إمكانية تعيين الكهان من بين الذين عمدوا في صغرهم في الكنيسة الدوناتية. [1]

يستخلص من قرارات مجمع "هيبون" أن الكاثوليك كانوا يريدون حرمان الدوناتية من القاعدتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما، وهما مبدأ إعادة التعميد والاستشهاد. فتخلي الدوناتية على هذين المبدأين في نظر أتباعها يعتبر تراجعا عن مبادئها وخضوعها للكنيسة الكاثوليكية صاحبة هذا القرار. كما يعد في نفس الوقت خضوعا للسلطة السياسية المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية وهذا الخضوع رفضه أتباع الدوناتية.

لقد عقد المنشقون سلسلة من المجامع تبادلوا فيها الحرمان والطرد: مجامع ماكسيميانية في "قرطاجة" و"كبرسوسا"، مجمع بريمياني في "بغاي"، وهكذا وفر مؤتمر الماكسيمانيين الفرصة للكاثوليك لظهور انشقاق جديد خرج من رحم الانشقاق الدوناتي، وبذلك تكون القطيعة قد تمت داخل الكنيسة الدوناتية.

واجه "بريميانوس" بعد انتخابه معارضة شديدة من طرف "ماكسيميانوس" حيث اتهم بطرد أربعة شمامسة منهم "ماكسيميانوس"، فاحتج مجلس الأعيان (*Seniores*) على هذا الحكم التعسفي، وطالب من جميع الأساقفة الدوناتيين إجراء تحقيق حول الموضوع. [2]

---

[1] - *منصوري خديجة،« الصراع الدوناتي الكاثوليكي »* ، *مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، عدد 12، 2002، ص ص 45- 46.*

[2] - *Augustin (St.), Epist., 108, 2, 5.*

استجاب ثلاثة وأربعون (43) أسقفا لهذا النداء كان أغلبهم من إقليم "بيزاكينا" (*Byzacena*) "في الجنوب التونسي حاليا"، وعقدوا اجتماعا في قرطاجة بعد عدة أشهر من انتخاب "بريميانوس" أي في نهاية سنة392م. وجرت المداولات في جو يسوده الأمن والهدوء. وأرسل المجلس مبعوثين (*Legati*) إلى "بريميانوس" يدعونه للحضور لكنه رفض. وبعد الاستماع للشهود وتقديم التظلمات والشكاوى، أدين "بريميانوس" بالإجماع، مع إعطائه مهلة لتبرير مواقفه، وتم تبليغ كل الطوائف الدوناتية بهذا القرار. (1)

سارع الماكسيميانيون إلى عقد مجمعا معاديا لـ "بريميانوس" في 24 جوان سنة 393م في "كبرسوسة" (*Cabarsussa*) في إقليم "بيزاكينا" الذي أصبح مركزا لنشاطاتهم، برئاسة عميدهم "فيكتورينوس المونكياني" (*Victorinus de Munaciana*) حضره مئة (100) أسقف، أعادوا الاطلاع على الدعوى الموجهة ضد "بريميانوس" وأكدوا الإدانة السابقة بالإجماع، وأعلنوا خلع "بريميانوس" من منصبه كجثليق وكبير الأساقفة الدوناتيين.

نلاحظ أن الحكم الذي أصدره مجمع "كبرسوسة " (*Sententia Decretum*) في شكل رسالة كنسية شمل ثلاثة أضعاف من المتهمين والمشتبه بهم وهم: "بريميانوس" (*Primianus*)، ثم الأساقفة ورجال الدين المنتمين إلى حزبه، وأخيرا اللائكيون (العلمانيون). ومما جاء في الحكم: « ***قررنا نحن الأساقفة في حضرة الروح القدس إدانة "بريميانوس" مدى الحياة، ولا يجب أن يكون الاتصال به سببا في تدنيس الكنيسة بعدوى بعض الجرائم.*** » (2)

كما أصدر الكهنة بيانا آخر لمقاطعة "بريميانوس" المدان مع تهديده بالعزل والحرمان ومنحوا له مهلة ستة أشهر من أجل توبته، وجاء فيه ما يأتي: « ***قررنا نحن والروح القدس منح مهلة للمتأخرين من أجل الاهتداء حسب الشروط الآتية: كل من يهمل التوبة***

1- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 357.*
2- *Augustin (St.), Cont. Cres., IV, 6, 7.*

من الأساقفة ورجال الدين منذ تاريخ إدانة "بريميانوس" ولم يتخل عن الاتصال بالمدان، يتعرض لنفس العقوبات. » [1]

اتجه الماكسيميانيون بعد صدور حكم إدانة وعزل "بريميانوس" إلى قرطاجة وانتخبوا "ماكسيميانوس" وأعلنوه جثليقا وكبير أساقفة إفريقيا من طرف اثني عشر(12) أسقفا، حسب التقاليد المعمول بها والمتبعة في الكنيسة الإفريقية.

ورغم كل الشكاوى والتظلمات المقدمة ضد "بريميانوس" فإن أغلب الدوناتيين انضموا إليه، واستجابوا لندائه لما دعاهم للحضور إلى "بغاي" في نوميديا لعقد مجمع عام لكل أساقفة إفريقيا (*Concilium Plenarium, Universale*) حضره ثلاثمائة وعشرة (310) من الأساقفة البريميانيين جاءوا من كل المقاطعات، وبرئاسة "بريميانوس" نفسه أصدروا حكمهم في 24 أفريل سنة 394م: طرد وحرمان "ماكسيميانوس" والأساقفة الإثني عشر(12) الذين أشرفوا على سيامته، وتهديد كل أساقفة قرطاجة المتمردين بالحرمان والطرد في أجل ثمانية أشهر.

وهكذا بدأت تتهاوى الرسائل الكنسية في المغرب القديم كله على الطوائف المنشقة معلنة اللعنة الكنسية البريميانية. [2] كما عقد في الفترة (396–397م) مجمعين للأساقفة البريميانيين في نوميديا، المجمع الأول عقد في قسنطينة والثاني في ميلاف (*Milev*) "ميلة حاليا". [3]

يبدو أن المداولات في هذين المجمعين تمحورت حول الإجراءات الواجب اتخاذها ضد الماكسيميانيين الذين عادوا إلى الكنيسة الدوناتية. وعقد مجمعا آخر أكثر أهمية في

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 358.*
[2] - *Augustin (St.), Epist., 51, 2 ; 108, 2, 5- 6 ; Cont. Epistul. Parmen., I, 11.*
[3] - *Id., Cont. Petil., I, 10, 11.*

" تاموقادي" [*] (*Thamugadi*) برئاسة "بريميانوس" بعد هزيمة الثائر "جيلدون" سنة 397م. [1]

وكان "أوبطاتوس التاموقادي" (*Optatus de Thamugadi*) في هذه الفترة أكثر قوة في المنطقة، فقد توغل على رأس بعض أتباعه إلى غاية البروقنصلية حتى يحمل الحزبين المتنافسين على العودة إلى السلم الدوناتي. وتمكن فعلا من إعادة بعض الماكسيميانيين إلى الكنيسة الدوناتية. وعلى إثر هذا النجاح اجتمع الأساقفة البريميانيين في "تاموقادي (*Thamugadi*) للثناء على "أوبطاتوس" وإحياء حفل سيامة " بريميانوس" على رأس الكنيسة الدوناتية (*Optati natalitia*).[2]

في هذا الوقت كان النبلاء من الإقطاعيين يضغطون على فلاحيهم حتى يعودوا إلى الكاثوليكية، وكانت الدعوة إلى المسيحية الكاثوليكية منتشرة بكثرة في الضيعات الكبرى التي عمل فيها كبار الملاك على تنصير معمريهم حتى يوطدوا الوحدة الدينية في الأراضي النوميدية.

وبذلك مكنت المسيحية الأسياد من إخضاع الفلاحين المعدمين، وأخضعوهم إلى سلطة الكنيسة. وبعد صدور قانون 31 ديسمبر سنة 400م الذي يفرض على مالك الأرض المقيدة في السجل العقاري أن يبقى إجباريا فيها، كان المعمرون يشددون الرقابة على عمالهم، ويساومونهم في معيشتهم حتى يخضعوا للكنيسة الكاثوليكية. [3]

---

*- ***تاموقادي***، *Thamugadi مصطلح من أصول نوميدية يعني "مدينة الخير"، نظرا لوقوعها في سهل خصيب. أمر الإمبراطور تراجانوس (98-117م) في سنة 100م القائد "موناتيوس غالوس" Munatius Gallus ببناء تيمقاد، ثم منحها التسمية الرسمية: Colonia Marciana Trajana Thamugadi، وهي مدينة عسكرية أقيمت لإيواء الجنود المتقاعدين Veteranus.*

- Cagnat (R.), Carthage, Timgad, Tébessa, les Villes Antiques de l'Afrique du Nord, librairie Renouard & Laurens éditeurs, Paris, 1909, p. 47 ; Dominique Sorel, La Pénétration Romaine en Afrique du Nord dans l'Antiquité, Un exemple : Timgad Jusqu'à la mort de l'Empereur Trajan, CIHEAM, Options Méditerranéennes, n° 18, pp.35-39.

1- Augustin (St.), Epist., 34, 5.

2- Augustin (St.), Epist., 108, 2, 5 ; Cont. Litter. Petil., 23, 53.

3- Julien (Ch. A.), Op.cit., p. 223.

ومن الأمثلة على ذلك أن "بوبليكولا" (*Publicola*) – وهو أحد النبلاء الأغنياء في منطقة الأرزوج (*) (*Arzuges*) والد القديسة "ميلانيا الصغرى" (*St.Melania*) – بعث رسالة إلى "أوغسطين" سنة 398م يخبره فيها عن طبيعة معاملة المعمرين وكبار الملاك للأهالي والمزارعين. أوضح فيها أن الضباط الرومان الذين يتولون حراسة الحدود كانوا يجبرون الأهالي على أداء القسم بشياطينهم حتى يتأكدوا من إخلاصهم. وكان "بوبليكولا" يريد أن يعرف ما إذا كان مسموحا لهؤلاء المزارعين أن يتلقوا مثل هذا القسم من الوثنيين، وإن كان القسم لا يدنسهم هم ومحاصيلهم، وإذا كان بإمكانهم الاستفادة من مياه الآبار واللحوم التي يمكن أن تكون مدنسة بسبب تلك الطقوس الوثنية. [1]

لقد سعت الإدارة الرومانية خلال هذه المرحلة للقضاء على الحركة الدوناتية بكل ما أوتيت من قوة، بعقد المجامع الكاثوليكية وإصدار القوانين والمراسيم المعادية للدوناتية والتي تنص على حظرها وحلها، إضافة إلى أوضاع اقتصادية ومعيشية صعبة عاشها الدوناتيون في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للميلاد.

منعت المجامع الدوناتية في هذه الفترة الاستشهاد الإرادي على أتباعها الذي أصبح يشكل فضيحة بتزايد عدد الضحايا وتعدد وتنوع طرق الانتحار. [2] من أجل ذلك عقد البريميانيون مجمعا في نهاية سنة 403م في نوميديا للتداول والتشاور حول صيغة الجواب الذي يرسل إلى الكاثوليك الذين اجتمعوا في قرطاجة وأعلنوا عن مشروع مؤتمر

---

*- **الأرزوج (Arzuges)**، اختلف المؤرخون في تحديد هذه المنطقة، فقد ذكر "كورطوا" Courtois أن النص الأساسي هو نص "أروسيوس"، الذي يشير إلى أن كلمة "أرزوج" كانت تطلق على سكان الإقليم الطرابلسي Tripolitana. وبشأن عقيدة قبائل "الأرزوج" أشار أوغسطين أنهم كانوا من المشركين، ووردت إشارات أخرى تدل على أن هناك حياة مسيحية متطورة في تلك المنطقة، بدليل وجود إقليم كنسي باسم: Arzugitana الذي ورد ذكره في وثائق كنسية تعود إلى القرن الرابع الميلادي.*

- *Courtois (Ch.), les vandales et l'Afrique…, p. 93.*

Orosius (P.), Adversus Paganos, I, 2, 90.

[1]- *Mesnage (J.P.), « le christianisme en Afrique… », Op.cit., pp. 544- 545.*

[2]- *Augustin (St.), Epist., 185, 2, 8 ; Contra Cresconium, III, 49, 54.*

عام مضاد للدوناتيين. ثم صادق المجمع على القرار الذي اتخذه "بريميانوس" الذي يقضي بدعوة كل الأساقفة الدوناتيين إلى رفض المقترح الذي تقدم به الكاثوليك. (1)

لذلك قام الإمبراطور "هونوريوس" (*) ووزيره "ستيليكون" (*Stilichon*) – بعد تزايد عمليات الدوارين– بإصدار مجموعة من القوانين بهدف القضاء على الانشقاق الإفريقي نهائيا. وتم إحياء قانوني "قسطنطين" سنة 316 م و"قنسطانس" سنة 347 م، بصدور مرسوم 12 فيفري سنة 405م الذي ينص على استعادة الوحدة الدينية في المغرب القديم بكل الوسائل.

وتضمن المرسوم بنودا هامة منها: تحقيق الوحدة الدينية لصالح الكاثوليك في كل المدن الإفريقية. واعتبار الانشقاق الإفريقي من الهرطقة وأصحاب البدع. وتطبيق كل القوانين السابقة الصادرة ضد المبتدعة على المنشقين. منع إعادة التعميد، ومصادرة الممتلكات، وعتق العبيد الذين تم تعميدهم بالقوة. منح كنائس المنشقين إلى الكاثوليك، نفي الأساقفة، وفرض غرامات مالية على كل المخالفين لتنفيذ هذا المرسوم. (2)

وأصدر "هونوريوس" قانونا بهذا الشأن في 5 مارس 405م موجه إلى "ديوتيموس" (*Diotimus*) بروقنصل إفريقيا يأمره بنشره في كامل المقاطعات الإفريقية. (3)

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 365.*

*- ***هونوريوس*** *Flavius Honorius، (384-423م)، إمبراطور روماني (395-423م)، هو الإبن الثاني للإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (379-395م)، منحه أبوه لقب أغسطس "شريك في الحكم" في سنة 293م، كان عمره 9 سنوات لما توفي والده في سنة 395م فتقاسم مع أخيه أركاديوس Arcadius (395-408م) حكم الإمبراطورية، وكان من نصيبه القسم الغربي منها. كان ضعيف الشخصية أمام الجنرال الوندالي ستيليكون Stilichon الذي كان يمارس الوصاية عليه (395-408م)، ثم أمام " ألاريك" القوطي Alaric الذي نهب روما سنة 410م، ثم الجنرال الروماني "فلافيوس قسطنطينوس" Flavius Constantinus (410-421م). توفي هونوريوس سنة 423م عن عمر يناهز 38 سنة، وترك الإمبراطورية الغربية لخليفته فالنتينيانوس III ضعيفة أمام مغتصبي الحكم وهجمات الشعوب المتبربرة. Dic.Univ.Hist. Géo., p.890.*

[2]- *Cod. Theod., XVI, 5, 38 ; 6, 3-5 ; 11, 2 ; Augustin (St.), Epist., 88, 5-10 ; 93, 4, 14.*

[3]- *Cod. Theod., XVI, 11, 2.*

ومتابعة لتنفيذ القرارات الإمبراطورية، كلف الإمبراطور "هونوريوس" في 8 ديسمبر سنة 405م بروقنصل إفريقيا "ديوتيموس" أن يسهر على تطبيق القوانين ضد المنشقين ومعاقبة المتمردين والعصاة بلا هوادة. (1)

قام مجموعة من الأساقفة الدوناتيين –وسط الاضطهادات التي صاحبت مرسوم الوحدة سنة 405م–بإحياء المشروع الكاثوليكي لحسابهم، وتوجهوا نحو "رافين" (*Ravennes*) في شهر جانفي سنة 406م وطلبوا من والي البريتوار (*Prétoire*) استدعاء مؤتمر عام يجمع الحزبين المتناحرين. (2)

وبالرغم من توجيه هذه الدعوة إلا أن الاضطهادات والمواجهات الدموية استمرت. فقد عثر على نقش شمال شرق تيارت بمقاطعة موريطانيا القيصرية يعود إلى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس يعتقد أنه لشهيد دوناتي. (3)

وعثر في كنيسة سيلاق (*Sillegue*)(*) بموريطانيا السطيفية على نقش يحمل عبارة (*Bonis bene*) بشاهدة قبر أحد الشهداء الدوناتيين، وهي شبيهة بالشعار الدوناتي الشهير "لله الحمد" (*Deo Laudes*)(**)يعود لفترة نقش تيارت المذكور آنفا.(4)

---

[1]- *Cod. Theod., XVI, 5, 39.*

[2]- *Augustin (St.), Epist., 76, 4; 88, 7; Contra Crescomium, III, 45, 49.*

[3]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 474.*

*- *هي منطقة **بني فودة** أو خربة محجوبة حاليا بمنطقة **ساتافيس** Satafis "عين الكبيرة" حاليا قرب سطيف، ظهرت بها المسيحية مبكرا، وحسب النقوش التي اكتشفت بالمنطقة فإنها تعود إلى الربع الأول من القرن الرابع الميلادي أي في حوالي سنة 324م والأسقف الوحيد المعروف الذي ينسب إليها هو Redux Nobalicianensis وكانت أثناء الفترة الرومانية تعرف باسم Novaricia وخلال الفترة الاستعمارية الفرنسية باسم « Périgotville ».*

- C.I.L., VIII 10930, 20478 ; Gsell (S.), A.A.A., f. 16, Sétif, 216 ; Id., Satafis et Thamalla in M.A.H., t.15, 1895, pp.33-70 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne, pp. 369- 370.

**- *Deo Laudes ، هي صيحة الدوارين المدوية عندما يهاجمون المعمرين الرومان وهي الصيحة التي طالما أزعجت القديس أوغسطين وكان يسميها بوق المجازر.* *- Le Blant (Edmond), L'épigraphie Chrétienne en Gaule et en Afrique Romaine, 1890, p.110.*

[4]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 474.*

لذلك تقدم الدوناتيون في سنة 406م إلى السلطات الرومانية بطلب عقد مؤتمر عام يجمع الطرفين المتنازعين الدوناتي والكاثوليكي. وجاء قانون 15 نوفمبر سنة 407م يأمر البروقنصل "بورفيريوس" (*Porfyrius*) خليفة "ديوتيموس" (*Diotimus*) في قرطاجة أن يظهر الحلم تجاه العائدين إلى الكاثوليكية، وأن يكون متصلبا ومتشددا مع المنشقين. [1]

نلاحظ أن القوانين الإمبراطورية تزايدت خلال الفترة التي سبقت انعقاد مناظرة قرطاجة سنة 411م. ففي سنة 408م بعد وفاة "ستيليكون" (*Stilichon*) وزير "هونوريوس" صدر قانون في 24 نوفمبر 408م موجه إلى "دوناتوس" (*Donatus*) بروقنصل إفريقيا ينص على الحكم بالإعدام على كل من يحدث الاضطرابات ويخل بنظام الاجتماعات الكاثوليكية من المنشقين. [2]

بعد ذلك بثلاثة أيام أصدر الإمبراطور "هونوريوس" في 27 نوفمبر سنة 408م قانونا يمنع على المنشقين عقد الاجتماعات، ويصادر ممتلكاتهم ونفي كل المتهمين. [3]

وصدر قانون 13 جانفي 409م يحكم بالإعدام على الذين يقومون بعمليات سلب ونهب الكنائس وأماكن العبادة أو يشتمون الأساقفة ورجال الدين، ووجهت تعليمات صارمة إلى حكام المقاطعات لطلب القوات عند الحاجة من كونت إفريقيا. [4]

بعد صدور كل هذه القوانين، أصدر الإمبراطور هونوريوس" مرسوما موجه إلى "هيراكليانوس" (*Heraclianus*) كونت إفريقيا في جانفي سنة 410م. [5] إنه مرسوم حقيقي للتسامح، حيث يعلن فيه صراحة حرية كل الطوائف الدينية باعتناق الديانة

---

[1]- *Cod. Theod., XVI, 5, 41, 43.*
[2]- *Cod. Theod., XVI, 5, 44.*
[3]- *Cod. Theod., XVI, 5, 45.*
[4]- *Cod. Theod., XVI, 2, 31.*
[5]- *Cod. Theod., XVI, 5, 51.*

المسيحية بحرية كاملة، وهو ما أطلق عليه القديس "أوغسطين" اسم "حرية الهلاك الأبدي". [1]

دفع هذا المرسوم الكاثوليك للتحرك بسرعة فعقدوا مجمع قرطاجة في 14 جوان سنة 410م والتمسوا من الإمبراطور التراجع عن قراره والدعوة إلى عقد مؤتمر عام بين الطرفين الدوناتي والكاثوليكي. [2]

تسلم "هيراكليانوس" كونت إفريقيا خلال مدة قصيرة من اجتماع الكاثوليك، قانونا إمبراطوريا جديدا مؤرخ في25 أوت سنة 410م يلغي مرسوم التسامح. وينص على الحكم بالإعدام أو الحظر والإبعاد على المنشقين الذين يعقدون اجتماعات محظورة. [3]

نلاحظ هنا مدى السرعة التي صدر خلالها المرسوم الإمبراطوري بعد اجتماع الكاثوليك في قرطاجة، وهذا يدل على مدى التحالف المتين الذي يربط السلطة السياسية بالكنيسة الكاثوليكية لمواجهة الدوناتية ومحاولة القضاء عليها بكل الوسائل.

في تلك الأثناء، وافق الإمبراطور على المشروع الذي تقدم به مجمع قرطاجة، وكلف محافظ خاص هو السيناتور "ماركيلينوس" (*Marcellinus*) لدعوة ورئاسة المؤتمر العام المزمع عقده بين الطرفين المتخاصمين الدوناتي والكاثوليكي، وأصدر بشأن ذلك قانونا في 14 أكتوبر سنة 410م. [4]

يعد مرسوم الوحدة الذي أصدره الإمبراطور "هونوريوس" في 30 جانفي سنة 412م تأكيدا نهائيا للحكم الذي أصدره "ماركيلينوس" ومرسومه المؤرخ في 26 جوان سنة 411م ضد الدوناتيين. ويعتبر هذا المرسوم – بما تضمنه من بنود– أسوأ من مرسوم سنة 405م. فإضافة إلى أنه فسخ وألغى كل إجراءات التسامح السابقة، أكد

---

[1]- *Augustin (St.), Contra Gaudentium, I, 24, 27.*
[2]- *Id., Brevic. Collat., III, 2, 2.*
[3]- *Cod. Theod., XVI, 5, 51.*
[4]- *Cod. Theod., XVI, 11, 3 ; Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 1 ; III, 2.*

قوانين القمع، ثم خصص وفصل أنه يجب على كل الدوناتيين، سواء كانوا رجال دين أو لائكيين أحرار أو عبيد، رجال أو نساء أن يعودوا إلى الكنيسة الكاثوليكية، وأن يتخلوا عن كنائسهم وممتلكاتهم الأخرى لصالح الكاثوليك.

يبدو أن السلطة الرومانية كانت تهدف من وراء هذا المرسوم إلى تصفية الدوناتية بشكل نهائي مع مطلع القرن الخامس الميلادي. وإلا كيف نفسر ورود كل الفئات الاجتماعية في المرسوم والتخلي عن كل الكنائس والممتلكات ومنحها للكاثوليك؟

تلقت الكنيسة المنشقة ضربة قاتلة بصدور قانون 21 مارس سنة 413م وهو القانون الذي يؤكد الإجراءات السابقة التي اتخذت ضد الدوناتية، وينص على معاقبة كل من يمارس إعادة التعميد ومن يسمح به. (1)

ثم أصدر الإمبراطور "هونوريوس" قانونا موجه إلى بروقنصل إفريقيا "يوليانوس" (*Julianus*) في 17 جوان سنة 414م ينص على: حرمان المنشقين من حقوقهم المدنية، مصادرة كنائسهم ومنحها للكاثوليك، نفي الأساقفة المنشقين، فرض غرامات على المخالفين للقانون، وتسليط العقوبات الجسدية على العبيد والمعمرين (*colons*). (2)

وبعد انتشار الشائعات التي راجت في إفريقيا عقب وفاة "ماركيلينوس" –محافظ مناظرة قرطاجة سنة 411م–أن السلطة الزمنية تنوي إلغاء كل الإجراءات التي اتخذتها ضد الدوناتية. صدر مرسوم 30 أوت سنة 414م يؤكد الإجراءات المتخذة في مناظرة قرطاجة. (3)

1- *Cod, Theod., XVI, 6, 6.*
2- *Cod. Theod., XVI, 5, 54.*
3- *Cod. Theod., XVI, 5, 55.*

وأصدر الإمبراطور "هونوريوس" مرسوما آخر في 25 أوت سنة 415م يقضي بتعليق قانون 25 أوت سنة 410م من جديد، والذي يحكم بالإعدام وبحظر وطرد كل المنشقين المتهمين بعقد الاجتماعات المحظورة. [1]

وينص الأمر الإمبراطوري الصادر في 6 نوفمبر سنة 415م، على متابعة كل من يمارس التعميد ومصادرة ممتلكاته والأماكن التي تمارس فيها هذه الأعمال، وضع وتحريم منح المساعدات والهبات أو تلقيها على المنشقين. [2]

وقد تواصل صدور القوانين بعد وفاة "هونوريوس" في بداية عهد "فالنتنيانوس الثالث" [*] (*Valentinianus III*)، الذي أصدر قانونا في 6 جويلية سنة 425م وجه إلى بروقنصل إفريقيا "جيورجيوس" (*Georgius*) ينص على حظر وتحريم كل أنواع الهرطقة والبدع والانشقاقات. [3] وأصدر أمرا إمبراطوريا آخر في 6 أوت سنة 425م ينص على طرد الهراطقة والمنشقين من المدن. [4]

وقد توجت هذه القوانين والمراسيم الإمبراطورية التي صدرت في حق الدوناتيين، بصدور قانون 30 ماي سنة 428م والذي يؤكد كل القوانين السابقة ومنها: إعادة كل الكنائس إلى الكاثوليك، وحرمان المنشقين والهراطقة من أي مكان للعبادة على التراب الروماني، تجديد تحريم إعادة التعميد، ومنع سيامة الأساقفة، وحظر الهبات

---

[1]- *Cod. Theod., XVI ; 5, 56 ; 5, 51.*

[2]- *Cod. Theod., XVI, 5, 58.*

*- ***فالنتنيانوس الثالث*** *(Valentinianus III)، إمبراطور الغرب (425-455م)، ابن الجنرال "قنسطانس" Constance وبلاسيديا، ولد في رافين سنة 419م، نصب على عرش ايطاليا في سنة 425م من طرف فرق إمبراطورية الشرق. تولت أمه السلطة مكانه فخسرت إفريقيا التي سلمها بونيفاس إلى الوندال. كان إمبراطورا ضعيف الشخصية، احتلت ايطاليا في عهده من طرف أتيلا (Attila) سنة 452م، قتله بترون ماكسيم سنة 455م.* - *Dict.Univ .Hist. Géo., p.1935 ;Mercier (E.), la population indigène de l'Afrique sous la domination Romaine, Vandale et Byzantine, R.S.A.C., t.30, 1895-1896, p.173.*

[3]- *Cod. Theod., XVI, 5, 63.*

[4]- *Cod. Theod., XVI, 5, 64.*

والمساعدات، كما هدد المخالفين للقانون بالنفي والغرامات المالية، بما في ذلك حكام المقاطعات الذين لا يسهرون على تنفيذ القوانين الإمبراطورية. (1)

يعد قانون سنة 428م آخر الوثائق التي أمكن الاطلاع عليها، وهي مجموعة من قوانين الحظر القاسية التي استمرت في الصدور إلى عشية الغزو الوندالي للمغرب القديم، وفي فترة أسقفية القديس "أوغسطين" التي استهدفت القضاء على الدوناتية.

وهكذا توالت القوانين منذ مناظرة قرطاجة سنة 411م والتي حكمت بالموت على الحركة الدوناتية إلى غاية وفاة القديس "أوغسطين" سنة 430م عشية الغزو الوندالي للمغرب القديم.

خلاصة القول أن السلطة الزمنية أمعنت في سن القوانين وتسليط العقوبات على المنشقين الدوناتيين، والمتهمين والمخالفين منهم للقوانين. ووضعت سلما للعقوبات حسب ظروف المتهمين ومراتبهم الاجتماعية، فكان الأساقفة ورجال الدين معرضين للنفي خارج إفريقيا أو إبعادهم وتغريمهم وعزلهم في مقاطعات نائية. وأما اللائكيون فيتعرضون للعقوبات المالية إذ تختلف نسبتها تبعا لرتبهم الاجتماعية، وفي حالة عنادهم وتصلبهم تصادر ممتلكاتهم، أما العبيد والمعمرين فيمكن إعادتهم إلى طريق الصواب –حسب تعبير الكاثوليك–وإلى الديانة الحقة بعقابهم جسديا من طرف أسيادهم ومن يملكونهم. ويمكن أن يتعرض المحافظون الإمبراطوريون أنفسهم لعقوبات مالية إذا لم يسهروا على تطبيق القوانين أو التبليغ عن المتهمين. وهذا كله –كما زعمت الكنيسة الكاثوليكية المدعمة من السلطة الزمنية–من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة للديانة المسيحية وخزينة الدولة.

1- *Cod. Theod., XVI, 5, 65.*

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة-1

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم

الجزء الثاني

إعداد الطالب: الربيع عولمي

إشراف الأستاذ الدكتور: الطاهر ذراع

أعضاء لجنة المناقشة

	الأستاذ	الرتبة	الصفة	الجامعة
01	أ. د. رشيد باقة	أستاذ	رئيسا	جامعة باتنة-1
02	أ. د. ذراع الطاهر	أستاذ	مشرفا مقررا	جامعة أدرار
03	أ. د. بلقاسم رحماني	أستاذ	عضوا	جامعة الجزائر -2
04	أ. د. بلقاسم بوقرة	أستاذ	عضوا	جامعة باتنة-1
05	أ. د. مسعود شباحي	أستاذ محاضر- أ	عضوا	جامعة باتنة-1
06	أ. د. يوسف عيبش	أستاذ	عضوا	جامعة سطيف

السنة الجامعية: 1436-1437 هـ /2015-2016م

الباب الثالث

انقسام الكنيسة المسيحية وظهور الحركة الدوناتية في المغرب القديم

الفصل الأول: أسباب الانشقاق الديني في المغرب القديم

الفصل الثاني: ظهور الحركة الدوناتية في المغرب القديم

الفصل الثالث: تطور الحركة الدوناتية في المغرب القديم

الفصل الأول

أسباب الانشقاق الديني في المغرب القديم

المبحث الأول–الأسباب الدينية

المبحث الثاني–الأسباب السياسية

المبحث الثالث–الأسباب الاقتصادية والاجتماعية

عرفت الأوساط الدينية في المغرب القديم صراعا في بداية القرن الرابع الميلادي، أدى إلى ظهور انشقاق ديني تجسد في انفصال مجموعة من رجال الدين عن باقي زملائهم في السلك الكهنوتي، وتأسيس حركة دينية اصطلح على تسميتها بـ"الحركة الدوناتية". من هذا المنطلق أعالج في هذا الباب الثالث الذي قسمته إلى ثلاثة فصول أسباب الانشقاق الديني في المغرب القديم الذي أدى إلى انقسام الكنيسة الإفريقية وظهور الحركة الدوناتية وتطورها من بداية القرن الرابع إلى أواخر القرن الخامس الميلادي، وموقف السلطة الرومانية منها.

<u>أسباب الانشقاق الديني في المغرب القديم</u>: لا يزال الانشقاق الديني وجذوره في المغرب القديم يكتنفه الكثير من الغموض. لهذا كان علي استعراض تاريخ تنظيم الدوناتية، الذي سيسمح بالكشف عن الأسباب والدوافع الحقيقية للانشقاق. ويمكنني أيضا من معرفة خصائص الدوناتية ومبادئها وطموحاتها ودورها الاجتماعي والسياسي.

يتطلب البحث أن أميز بين الأسباب التي تعود إلى فترة الاضطهادات الكبرى في عهد "ديوكليتيانوس" 303–305م، وبين قضية "المرتدين" والمتخاذلين" (*lapsi*) في عهد القديس "سبريانوس" (*) (*St.Cyprianus*) في منتصف القرن الثالث؟ وأتساءل: هل تكمن جذور الانشقاق في صعوبة تسوية وضعية العديد من المسيحيين الذين ضعفوا بطريقة أو بأخرى خلال تلك الاضطهادات؟ أم للصراع خلفيات أخرى؟

انفجر الخلاف داخل الكنيسة الإفريقية قبل تحقيق الوحدة الدينية، بعد ظهور ما يعرف بـ "بيان شهداء قرية أبيتينا" عقب الأحداث التي شهدتها هذه القرية بالبروقنصلية في مطلع سنة 304م، وانعقاد مجمع سيرتا سنة 305م الذي ضم الأساقفة النوميد،

** –**سان سبريانوس**، Thascius Caecilius Cyprianus، هو أحد أبرز آباء الكنيسة اللاتينية، ولد في قرطاجة حوالي سنة 200م من أبوين وثنيين، درس البلاغة وعلم البيان فأصبح فصيحا، اعتنق المسيحية ثم أصبح أسقف قرطاجة في سنة 248م، اضطهده الإمبراطور "دكيوس" Décius، وفي عهد الإمبراطور "فاليريانوس" Valerianus (253-260م)، تعرض للنفي ثم استشهد في سنة 258م. -Dict. Univ.Hist. Géo., p.486.*

ومما زاد من خطورة المشكلة تبادل الرسائل بين "سوكوندوس" (*Secundus*) كبير أساقفة نوميديا و"مونسوريوس" (*Mensurius*) أسقف قرطاجة، وما تضمنتها من حملات الطعن والقدح والذم. [1] إضافة إلى تلك الخصومات الشخصية بين الأساقفة، ومكائد ودسائس "دوناتوس الأكبر" و"لوكيلا" (*Lucilla*)، على حسب ما أورده "أوبطا الميلي". يضاف إلى ذلك كله طموحات بعض الأساقفة الذين خابت آمالهم في الوصول إلى تحقيق مآربهم، والمتمثلة أساسا في تولي رئاسة أسقفية قرطاجة. [2]

أدت كل تلك الخلافات والمكائد إلى قطيعة نهائية بعد انتخاب "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) أسقفا جديدا لكنيسة قرطاجة سنة 311م. [3]

لقد تعددت أسباب ودوافع الانشقاق في الكنيسة الإفريقية، منها الأسباب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ودوافع ذاتية، منها الظاهرة ومنها الخفية، وتظافرت كل تلك الأسباب والدوافع وشكلت المناخ الملائم لظهور الحركة الدوناتية.

<u>المبحث الأول- الأسباب الدينية:</u> لعل التطورات التي عرفتها الكنيسة الإفريقية في الفترة الممتدة من انعقاد مجمع سيرتا (*Concilii Cirtensis*) سنة 305م الى سنة 312م، تحمل بعض جذور الانشقاق الديني.

وحسب المعطيات الواردة في كل من كتابات رجال الدين، والمحاضر الرسمية لبعض القضايا التي عرضت أمام الجهاز الإداري للسلطة المدنية. فإن جذور الانشقاق تعود إلى اضطهاد "ديوكليتيانوس" (*Dioclétianus*) للمسيحيين في الفترة 303-305م [4]، وإلى أحداث قرية "أبيتينا" (*Abitina*) بالبروقنصلية سنة 304م، التي

[1]- *Optat (St.), I, 13-16; Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 27, 30.*
[2] -*Optat (St.), I, 16-18 ; Augustin (St.), Epist., XLIII ,6 ,17*
[3]- *Optat (St.), I, 19-20 ; Augustin (St.), Cont. Cresc., III ,28 ,32.*
[4]- *Optat (St.), I, 13-14.*

أثارت حماس الجماهير المسيحية، فأخذت تدعو إلى القصاص من المرتدين ووصفهم بالكفار. [1]

وتسببت تلك الأحداث مرة أخرى في ظهور مشكلة العناصر التي ارتدت عن المسيحية بسبب ضعفها أثناء الاضطهاد، وتسليمها الكتب المقدسة.

ومما زاد في خطورة المشكلة، اختلاف رجال الدين حول قبول أو رفض هؤلاء المرتدين، هذا الاختلاف دفع مجموعة من الأساقفة الذين رفضوا عودة المرتدين إلى صفوف الكنيسة إلى الانفصال عن الأساقفة الذين تسامحوا مع العناصر المرتدة، وتأسيس كنيسة تضم حسب مؤسسيها العناصر التي صمدت أثناء الاضطهاد الديني دون غيرهم، وهي الكنيسة التي عرفت فيما بعد بالكنيسة الدوناتية.

يضاف إلى ذلك، سوء تنظيم الكنيسة الإفريقية، فالمقاطعات الكنسية منذ أن نشأت لم تتمتع باستقلال حقيقي. فالمغرب القديم من قورينائية (*Cyrénaïque*) شرقا إلى موريطانيا الطنجية (*Tingitane*) غربا كان خاضعا وتابعا لأسقف قرطاجة مباشرة الذي مارس سلطة الأب على هذه المقاطعات دون أن يكون له هذا اللقب "الرتبة". [2]

من هنا تنامت الأحقاد والضغائن بين أساقفة العديد من المقاطعات، وعبروا عن تحديهم المستمر لقائدهم المشترك في قرطاجة. ومن هذه الأحقاد انبثقت عديد الانشقاقات [*] – كما ذكرنا آنفا– داخل الكنيسة المنشقة نفسها. [3] وعلى ضوء ذلك لم يكن الانشقاق من فرقة مبتدعة تستهدف المساس بجوهر العقيدة المسيحية، وإنما انشقاق محلي تركز في المغرب القديم بصفة عامة وفي نوميديا بوجه خاص.

---

[1]-*Brisson (J.P.), Autonomisne et Christiainsme dans l'Afrique Romaine, éd. de Boccard, Paris, 1958, p. 292.*

[2]- *Monceaux (P.) , H.L.A.C., III, p.85.*

* – *من هذه الانشقاقات : الماكسيميانيين– الروغاتيين– والكلوديانيين.*

[3]- *Augustin (St.), Epist., 87,10 ; Cont.Cresc., IV, 6,7 ; Cont. Litter. Petil., II, 83.*

من هذا المنطلق، اختلف مفهوم الانشقاق والبدعة "الهرطقة" (*) بين المجادلين الكاثوليك والدوناتيين، وحدث تغير مفاجئ في الآراء في مطلع القرن الخامس. وقد حاول الأسقف الدوناتي "كريسكونيوس" (*Cresconius*) أن يبين أن زملائه في النحلة ليسوا من المبتدعة، ولا يختلفون مذهبيا مع الكاثوليك، وقدم تعريفا للبدعة (الهرطقة) والانشقاق إذ قال: « ***الهرطقة (heresie) أو البدعة طائفة تتكون من عدة أفراد مذهبهم مختلف عن غيرهم، أما الانشقاق فهو عبارة عن قطيعة بين عدد من الأفراد لهم نفس المذهب*** » .[1]

ومن جهته كان "أوغسطين" مترددا ومحيرا، من وجود مبرر مقنع لإعادة التعميد. فمنذ قرن من الزمن، كان الكاثوليك ينظرون إلى خصومهم الدوناتيين على أنهم مجرد منشقين وليسوا بمبتدعة وهراطقة، لذلك تصور أوغسطين تعريفا نادرا للبدعة والانشقاق قائلا: « ***الانشقاق قطيعة حديثة عهد مع الكنيسة، بسبب بعض الاختلافات في الآراء ووجهات النظر، لأنه لا يمكن أن يكون انشقاق إذا لم يكن للذين يتبنونه آراء مختلفة، أما البدعة فهي انشقاق متمكن ومتأصل.*** » [2]

توحي النصوص السابقة أن الانشقاق قد يصبح بدعة مع مرور الزمن، ويبدو أن هذا التفسير غير منطقي. فالأمثلة التاريخية تبرز لنا أنه غالبا ما يتحول الانشقاق إلى بدعة بمرور الزمن وبعد طول المدة، وهو الأمر الذي لا ينطبق على الدوناتية التي لم تتغير منذ نشأتها في مطلع القرن الرابع. إلا أن قانون سنة 405م (**) الذي صدر في عهد "هونوريوس" (*Honorius*) وقوانين أخرى جاءت مدعمة ومؤكدة له، اعتبر الدوناتية شبيهة بالبدعة والهرطقة، لذلك تم حظرها وعوملت على هذا الأساس.

* – *عن تعريف **الهرطقة** وأصحاب البدع (Hérésie) أنظر أعلاه ص 233.*

1 –*Augustin (St.), Cont. Cresc., II, 3,4.*

2 -*Ibid., II, 7,9 ; Epist., 87,4.*

** – *صدر هذا القانون في 12 فيفري سنة 405م، وكان هونوريوس من خلال القانون مصمما للقضاء على الدوناتية، التي كان يرى فيها بدعة مغلفة بالانشقاق، ولكنها من خلال ممارسة التعميد الثاني فقد تحولت من انشقاق إلى بدعة (هرطقة - Hérésie).* -*Cod. Theod., XVI, 6,4.*

لقد شكل التنافس التقليدي بين كبير أساقفة نوميديا وأسقف قرطاجة، أحد الأسباب الرئيسة التي ساعدت على ظهور الانشقاق في الكنيسة الإفريقية. فظروف انتخاب وسيامة "كايكيليانوس" في سنة 311م بعد وفاة "مونسوريوس" (*Mensurius*) تحمل دلالات مميزة وواضحة. وعلى إثر مكائد عديدة، وقع تسرع في اتخاذ قرار انتخابه، وفي "غياب النوميديين" حسب ما أورده "أوبطا الميلي". [1] لذلك ظهر سخط واستياء لدى النوميد، الذين طالبوا خطأ أو صوابا، بضرورة استشارتهم في اختيار زعيم الكنيسة الإفريقية. [2]

وفي تلك الأثناء، اتصل المنشقون في قرطاجة بأساقفة نوميديا وأطلعوهم على ما كان يجري بالكنيسة الإفريقية، فما علموا بذلك حتى أسرعوا مع كبير أساقفتهم "سوكوندوس" (*Secundus*) وانضموا إلى المعارضين لانتخاب "كايكيليانوس".

وسرعان ما اجتمع المعارضون الذين وصل عددهم إلى سبعين (70) أسقفا وعقدوا مجمع المنشقين في قرطاجة سنة 312م بمنزل "لوكيلا" (*Lucilla*). وقرروا عزل زعيم الكنيسة المنتدب "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) وعدم شرعية انتخابه، مبررين ذلك بعدم حضور أساقفة نوميديا، وعدم العمل بالتقاليد والأعراف الإفريقية في تعيين أسقف قرطاجة. فضلا عن اتهام الأسقف "فليكس الأبتونجي" (*Félix d'Aptonge*) الذي أشرف على سيامة (تعيين) "كايكيليانوس"، بالتخاذل والضعف وبتسليم الكتب المقدسة أثناء فترة الاضطهاد الديني لسنة 304م. وبالتالي فهو مرتد عن المسيحية ولا يجوز له –حسب رأيهم–تنصيب وسيامة "كايكيليانوس". [3]

---

[1] *-Optat (St.), I, 18.*
[2] *- Augustin (St.), Brevic. Collat., III, 16, 29.*
[3] *- Id., Cont. Epist. Parmen., I, 1,5.*

ولعب النوميديون الذين حضروا مجمع قرطاجة فيما بعد، دورا هاما في كنيسة "دوناتوس" إلى تاريخ انعقاد مناظرة قرطاجة سنة 411م، حيث نجد أن جثليق نوميديا كان يتمتع بحق التصدر والتقدم على جثليق قرطاجة. (1)

يتضح مما سبق أن ظهور الدوناتية في المغرب القديم في بداية القرن الرابع للميلاد، يعود إلى مجموعة من الأسباب لعل أبرزها: أن الأساقفة النوميديين طعنوا–وعلى رأسهم الجثليق "سوكوندوس" (*Secundus*)– في سيامة أسقف قرطاجة "كايكيليانوس" وبعض الأساقفة الذين انتخبوه في هذا المنصب، بتهمة تسليم الكتب المقدسة والأواني الكنسية إلى السلطة الرومانية الوثنية أثناء "الاضطهاد الأكبر" في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" *Dioclétianus* (303–305م).

المبحث الثاني–الأسباب السياسية: بدأ تدخل السلطة الرومانية في الشؤون الدينية للكنيسة الإفريقية منذ عهد الإمبراطور "قسطنطين" الذي انتهج سياسة متميزة بعد انتصاره على غريمه "ماكسانتيوس" (*Maxentius*). وقد اتسمت تلك السياسة بالانحياز إلى صف "كايكيليانوس" الذي أصبح المستفيد الوحيد في المغرب القديم من الكرم والسخاء الإمبراطوري. الأمر الذي دفع أسقف قرطاجة إلى اتخاذ جملة من الإجراءات التي تحولت إلى أحكام أدانت الدوناتية.

ويظهر أن السلام بين الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية سيستغرق وقتا أطول، وتكرس ذلك بصدور مجموعة من الأحكام الإمبراطورية ابتداء من سنة 317م، ومنها حملات النفي، ومصادرة الكنائس، والمضايقات البوليسية، التي اتخذت أشكالا وألوانا متعددة. (2)

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.165.*

[2]-*Brisson (J.P.), Op.cit, pp. 309- 310.*

والحق أن الإجراءات التي اتخذها الإمبراطور "قسطنطين"، وعمليات القمع التي طالت أنصار الكنيسة المنشقة، اعتبرها الدوناتيون على أنها اضطهاد جديد ضد كنائسهم. والتي أدت في النهاية بعد حوالي قرن من الزمن إلى إدانة الدوناتية وتجريمها بموجب القرارات الصادرة عن مجمع قرطاجة سنة 411م.

وجاء رد فعل "دوناتوس" الأكبر فيما بين سنتي 318-319م في خطاب إلى أنصاره يدعوهم فيه، إلى مقاومة الحكم الإمبراطوري حيث قال:« ***إذا كان لا جدوى من إثبات تاريخ الإضطهادات الجلية، وإعطاء قراءة لأعياد الميلاد على شرف الشهداء من أجل بناء المؤمنين، فلماذا لا يقرأ تاريخ الإحتيالات الماكرة، وتاريخ المحتالين والكذابين، الذين تحت غطاء الدين، يخادعون الأرواح، وكما يقال أن أعداء الإنسان يوجدون في عقر داره، ليس من الدين ولا من التقوى أن نكتم أو نخص مجد الشهداء عن طريق الصمت أو الحقد.*** » (1)

ولنا أن نتساءل: هل كان هذا الخطاب يعبر فعلا عن شعور المنشقين الحقيقي؟ أم أن هذا الشعور كان منتشرا بينهم منذ أول اختبار للقوة بين المنشقين والسلطة الزمنية؟

وهكذا يعتبر هذا الخطاب أول وثيقة ساعدت الباحثين على معرفة جذور هذا الانشقاق، وهو الموقف الذي أصبح -فيما بعد-مشتركا عند كل الدوناتيين.

لقد تعرض أنصار الكنيسة الدوناتية "المنشقة" إلى العديد من الإضطهادات، بعد تطبيق قانون "قسطنطين" سنة 317م، الذي أمر بالقضاء على المنشقين والإستيلاء على معابدهم وتخريب كنائسهم-كما سلف الذكر- وأسفرت المواجهات عن سقوط العديد من الضحايا.

فقد عثر في كنيسة مسيدفة (*Mcidfa*) قرب قرطاجة على شواهد قبرية ونقوش تحمل أسماء الشهداء (*Titulationes Nominum*) وهي النقوش التي حفظت ذكرى اضطهادات "ديوكليتيانوس". وكشفت الحفريات عن حجر مصقول يحمل أسماء القديسة

---

[1]- *Brisson (J.P.), Op.cit, pp. 310- 311.*

"بربوتيا" (*St. Perpetue*) وشهداء "تبوربو" الآخرين (*Thuburbo*)، مع قطع من سلسلة ألواح من الرخام تحمل نقوشا لأسماء الشهداء وتاريخ ذكراهم. (1)

ووجدت أيضا أجزاء أخرى تضم قطعتين من الرخام الأبيض عليها نقوشا تحوي كل منها قائمة ما بين خمسة عشر (15) وعشرون (20) اسما، يحتمل أنها للشهداء الدوناتيين الذي قتلوا في سنة 317م. (2)

نلاحظ أن الكثير منهم قد صرعوا بالعصي ودفنوا بالمعبد، بعد أن أقيمت لهم مآتم ضخمة ووضعت أجسادهم بالقرب من المذبح (*Autel*). لقد خلد الدوناتيون موتاهم الذين وصفوهم بـ "القديسين" (*Sanctus*). (3)

ومن القوانين الإمبراطورية التي حفظها قانون "تيودوز" (*Theodose*) والتي كانت لها علاقة مباشرة بالدوناتية خلال هذه الفترة، تلك المتعلقة برسائل القذف والتشنيع والقدح (*famosi libelli*) الموجهة ضد الكاثوليك، فعمليات التبليغ التي كان يقوم بها المنشقون كانت في أكثر الحالات ضد مجهول. وأولى هذه القوانين أعلن عنها في قرطاجة في 29 مارس سنة 319م وتنص على البحث عن أصحاب هذه الرسائل ومعاقبتهم. (4)

ونشر قانون آخر في قرطاجة في 25 فيفري 320م، موجه إلى بروقنصل إفريقيا يذكر هذا الحاكم أن الإتهامات الواردة في الرسائل لا يجب أن تلحق الضرر بالأشخاص الذين تم التشهير بهم، حتى ولو حفظت هذه الرسائل في أرشيف البروقنصل أو أرشيف كاهن إفريقيا. (5) ونجد أيضا أوامر مماثلة في مرسومين: الأول صدر في 4 ديسمبر 320م والثاني أعلن عنه في 21 أكتوبر 328م. (6)

---

[1]-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 469 ; Julien (Ch.A.), Op.cit, p. 212.
[2]- Julien (Ch.A.), Op.cit, p. 370.
[3]- Vaultrin (J.), « les basiliques chrétiennes de Carthage », R.Af., N° 73, 1932, pp. 276- 277.
[4]- Cod., Theod., IX, 34, 1.
[5]- Cod., Theod., IX, 34, 2.
[6]- Cod., Theod., IX, 34, 3- 4.

يتضح مما سبق أن هناك ثلاثة قوانين صدرت قبل مرسوم التسامح الذي أعلن عنه الإمبراطور "قسطنطين" سنة 321م. أما القانون الرابع فقد صدر في سنة 328م أي بعد مرسوم التسامح. ونستنتج من ذلك أن الاتهامات بين الكاثوليك والمنشقين قد استمرت حتى بعد صدور مرسوم التسامح.

وانتقلت ظاهرة الانشقاق والاتهامات المتبادلة بين الكاثوليك والدوناتيين إلى داخل الحركة الدوناتية نفسها، والتي عرضت الحركة لخطر شديد.

فقد انتشرت الأخبار في ربوع المغرب القديم في مطلع سنة 320م، عن فضيحة في الكنيسة الدوناتية. ذلك أن "نونديناريوس" (*Nundinarius*) شماس الكنيسة المنشقة في سيرتا كان في خصام مع الأسقف "سيلفانوس" (*Silvanus*). هذا الأخير الذي صفعه، فقرر "نونديناريوس" الإنتقام، فاتهمه بتسليم الأواني المقدسة، وأنه تخاذل أثناء إضطهادات "ديوكليتيانوس" (*Dioclétianus*)–التي سبقت الإشارة إليها–. وهناك مجموعة أخرى من التهم منها: الخيانة والرشوة والسرقة، وتلقي أموال من "لوكيلا" (*Lucilla*) أثناء حملة انتخاب "ماجورينوس" (*Majorinus*) سنة 312م. وحتى في ظروف انتخابه وتوليه رئاسة أسقفية سيرتا سنة 305م باستخدام العنف والحيل وإثارة الفتنة. [1]

وذكرت المحاضر المتعلقة بتلك المحاكمة أنها جرت ببازيليكة ثاموقادي القضائية في 8 ديسمبر سنة 320م برئاسة "زينوفيلوس (*Zenophilus*) حاكم نوميديا، وأسفرت المحاكمة على إدانة "سيلفانوس" وحكم عليه بالنفي. [2]

يبدو أن الحركة الدوناتية تلقت – بموجب تلك الإدانة–ضربة موجعة، خاصة أنها استهدفت أحد زعمائها ومؤسسيها الأوائل الأسقف سيلفانوس، ومست الحركة في

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, 28, 235- 237.*
[2]-*Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 28, 32.*

مبادئها. فإذا كانت الكنيسة الدوناتية قد أسست لكي تنشق وتنفصل عن أولئك المتخاذلين (*Traditors*)، فكيف بها تؤسس بمتخاذلين؟

والحقيقة أن دوافع هذه المحاكمات سياسية، ذلك أن السلطة الزمنية كانت تبحث عن مبررات لإدانة الدوناتية وإظهارها بمظهر الحركة المنشقة المعارضة للسلطة والكنيسة الرسمية معا، ومحاولة تشويه صورتها لدى أتباعها بأنها حركة تضم في صفوفها مبتدعة وهراطقة ومتخاذلين – في نظر السلطة الزمنية طبعا–.

لقد مرت أربع سنوات من الإضطهاد والعنف والفوضى منذ سنة 317م، والتي أتعبت الطرفين دون أن يتمكن أحدهما من الإنتصار على الآخر. ذلك أنه رغم الضرر الذي لحق بأتباعها. فقد قدم بعض الأساقفة الدوناتيين عريضة إلى الإمبراطور "قسطنطين" الذي قرر إصدار مرسوم التسامح في 5 ماي سنة 321م وبلغه إلى كاهن إفريقيا "فرينوس" (*Verinus*)، والذي نص على إرجاع المنفيين، وأنهى الإضطهادات ووضع حدا للمطاردات وأعطى للمنشقين الحق في حرية العبادة. (1)

وهكذا تلقى محافظي الإمبراطورية المرسوم وكلفوا بتطبيقه. وبذلك أضحى "قانون الوحدة" عديم الجدوى، وأقر مرسوم التسامح ضمنيا الوضع القائم. (2)

ويحق للباحث أن يتساءل عن الأسباب التي دفعت الإمبراطور "قسطنطين" إلى اتخاذ هذا القرار ويصدر مرسوم التسامح سنة 321م؟ هل استجاب للالتماس الذي تقدم به المنشقون من الدوناتيين؟ أم أن الإمبراطور كانت له أهدافا أخرى خفية؟

الحقيقة أنه منذ بداية الصراع بين الكاثوليك والمنشقين عن الكنيسة الرسمية في مطلع القرن الرابع الميلادي، انحاز "قسطنطين" إلى "كايكيليانوس" في صراعه مع

---

[1]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 198.*

[2]-*Meynier (Gilbert), L'Algérie des origines, de la préhistoire à l'avénement de l'islam, Paris, éditions la découverte, 2007, p. 156.*

"دوناتوس" الأكبر زعيم الكنيسة الدوناتية. حيث كان "قسطنطين" يرمي إلى تحقيق هدفين أساسين:

-الهدف الأول: دعم كايكيليانوس والكنيسة الرسمية حتى تكون الوحيدة والشرعية في المغرب القديم، ويتمكن من استخدامها ضد أي حركة معادية ومعارضة له.

-الهدف الثاني: محاولة امتصاص غضب السكان الذين بدأوا ينتفضون من أجل تقويض أركان الوجود الروماني في المغرب القديم.

هذا ماحدث فعلا، فقد أدت هذه الإضطهادات التي عادت في عهد "قسطنطين" إلى قيام ثورة حقيقية في صفوف المعدمين الذين لم يكن بينهم وبين الحركة الدوناتية في أول الأمر أي اتصال رسمي. وكان السبب الرئيس لتلك الثورة شدة بؤس الفلاحين الكادحين الذين جعلتهم السلطة الرومانية لقمة سائغة للطبقة الأرستقراطية الرومانية أو المترومنة، والتي لا هم لها سوى استنزاف ثروات المغرب القديم.

وانتهزت الطبقة الكادحة فرصة الصراع بين الكاثوليك والدوناتيين، فكان العداء المشترك للسلطة الرومانية وكنيستها الرسمية عاملا من عوامل إلتآم طبقة المعدمين مع الدوناتيين في جماعات روعت كبار الملاك. [1]

والدليل على ذلك أن "قسطنطين" – في إطار سياسته الدينية – يعود مرة أخرى إلى التمييز بين الكاثوليك والدوناتيين. فأصدر قانونين إمبراطوريين: صدر القانون الأول في 1 سبتمبر سنة 326م، ويتعلق بمجموعة من الإمتيازات الممنوحة لرجال الدين الكاثوليك والتي منع منها المنشقون الذين أصبحوا مجبرين على أعمال السخرة (*Munera*). وصدر القانون الثاني في 5 فيفري سنة 330م أمر فيه القنصل

[1] *- Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 216.*

"فالنتينوس" (*Valentinus*) حاكم نوميديا باتخاذ كافة الإجراءات لضمان حصانة كاملة لرجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية. (1)

وما يدل على فشل سياسة "قسطنطين" الدينية تزايد عدد الضحايا الذين سقطوا خلال المواجهات بين الكاثوليك والدوناتيين. فقد اكتشف في معبد بموريطانيا القيصرية نقش إهدائي يعود تاريخه إلى سنة 329م يحمل أسماء ستة شهداء قضوا في 21 أكتوبر سنة 329م وهم: "روقاتوس" (*Rogatus*)، و"ماينتوس" (*Maientus*)، و"ناسوس" (*Nasseus*)، و"ماكسيما" (*Maxima*). وفي 1 نوفمبر 329م ذكر اسمي: "بناجيوس" (*Bennagius*)، و"سكستوس" (*Sextus*). وجد هذا النقش على حجر كلسي كان مثبتا فوق باب المعبد الذي توجد به مقابر الضحايا، والذي شيد من طرف أولياء الضحايا "بريموسوس" (*Primosus*)، و" كامبوس" (*Cambus*). (2)

حاول الإمبراطور "قسطنطين" القضاء على الحركة الدوناتية باستعمال كل الوسائل السياسية والقمعية، إلا أن محاولاته باءت بالفشل. والدليل على ذلك أن الوثائق الرسمية التي تتعلق بالحركة والانشقاق الكنسي بلغت في الفترة من سنة 313م إلى سنة 330م ثلاثين (30) وثيقة رسمية وهي عبارة عن: رسائل الإمبراطور "قسطنطين"، قرارات التبليغ والتعليمات الصادرة عن كبار الموظفين وتقارير حكام المغرب القديم. (3) وهي وثائق ذات قيمة تاريخية هامة بالنسبة لتاريخ الحركة الدوناتية وجذور الانشقاق في المغرب القديم.

لذلك نجد "قسطنطين" –إدراكا منه بالمخاطر المحدقة بالسلطة وتهديد الوجود الروماني في المغرب القديم– يميل إلى سياسة اللين فيصدر مرسوم التسامح –المذكور آنفا–ويدعو الأساقفة الكاثوليك إلى الإعتدال، ويرسل أساقفة شرقيين، كانوا يجهلون

---

1 -*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 199.*
2 - *Ibid., IV, p. 473.*
3 - *Ibid., IV, p. 199*

حقيقة الجدال والصراع الذي كان دائرا بين الكاثوليك والدوناتيين إلى المغرب القديم لإصلاح ذات البين وتحقيق الوحدة الدينية.

أعتقد أن هذه الإجراءات التي قام بها "قسطنطين"، ماهي إلا محاولات لتبرير الأحداث والإنتقاص من دور الحركة الدوناتية التي تحامل عليها "بول مونصو" بقوله:« ***لقد أوصى "قسطنطين" بحمل الذئاب إلى حظيرة النعاج...*** » . [1]

ورغم ذلك ازدادت الحركة الدوناتية قوة واتساعا، والدليل على ذلك تزايد عدد الأساقفة من سبعين (70) أسقفا سنة 312م، إلى مئتين وسبعين (270) أسقفا حضروا مجمع قرطاجة سنة 336م. [2]

يتضح مما سبق، أن الإمبراطور "قسطنطين" انحاز إلى صف "كايكيليانوس" منذ بداية الصراع بين الكاثوليك والمنشقين عن الكنيسة الرسمية. وكانت أهدافه سياسية بحتة، ترمي الى دعم "كايكيليانوس" والكنيسة الرسمية، حتى يتمكن من استخدامها ضد أي حركة معادية له من جهة. ومن جهة أخرى محاولة امتصاص غضب الأهالي الذين بدأوا ينتفضون من أجل تقويض أركان الوجود الروماني في المغرب القديم.

<u>المبحث الثالث: الأسباب الاقتصادية والاجتماعية:</u> إن محاولة الكشف عن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى الانشقاق الديني في المغرب القديم، تدفعنا للبحث في الظروف نفسها التي كانت تعيشها أريافه خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين. لذا كان علينا أن نتساءل: ما الأسباب التي جعلت الأرياف في تلك الفترة مجالا للاضطرابات؟ وهل كان نظام ملكية واستغلال الأراضي المحرك الرئيس لتلك الاضطرابات؟ ثم ما هي الطبقات المستفيدة والطبقات المتضررة من ذلك النظام الاقتصادي؟ وما هي انعكاساته الاجتماعية؟

---

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 30.*

[2] -*Mesnage (J.P.) , l'Afrique chrétienne…, p. 141*

أولا- نظام ملكية الأرض وطبقة الكوريالبين(*) (*Curiales*): مثلت نهاية القرن الثالث الميلادي منعرجا هاما في تاريخ الإمبراطورية الرومانية وتاريخ المغرب القديم على وجه الخصوص كجزء من تلك الإمبراطورية. فقد عرفت الدولة الرومانية عهدا جديدا اختلف في مظاهره الحضارية اختلافا بارزا عن العهود السابقة خاصة الفترة المعروفة بـ "الإمبراطورية المبكرة" (*le Haut-Empire*) والتي تمتد من 27 ق.م إلى نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الميلادي. (**)

جاءت تلك التطورات التي عرفتها الإمبراطورية بعد وصول الإمبراطور "ديوكليتيانوس" "*Dioclétianus*" (284-305م) إلى العرش سنة 284م، وانتهاء ما يعرف عند المؤرخين بـ" أزمة القرن الثالث" (***) (235-284م)، نتيجة الإصلاحات التي قام بها "ديوكليتيانوس" (284-305م) ثم "قسطنطين" (305-337م) من بعده، والتي سار الأباطرة اللاحقون على نهجها. وكان الهدف من تلك الإصلاحات التي

* - ***الكورياليون، Curiales*** *عرفوا أيضا باسم: Decuriones المفرد: Decurio أي ضابط يقود عشرة فرسان، أو عضو المجلس البلدي Curia، المكون من مائة (100) عضو، وأصبح خلال القرن الرابع باسم: Curiales المفرد: Curialis.* - *Félix Gaffiot, Op.cit., pp. 169, 176 ; Gagé (J.), Op.cit., p. 37*

**- *اختلف المؤرخون حول نهاية "الإمبراطورية المبكرة"(le Haut-Empire)، فهناك من يرى أنها تنتهي في سنة 161م أي بداية حكم "ماركوس أورليوس" (Marcus Aurélius).* - *Rémondon (R.), la crise de l'empire Romain de Marc-Aurèle à Anastase, Paris, Nouvelle Clio, P.U.F., 1964 ; Petit (P.), H. G. E. R., le Haut- Empire (27 av. J.C.- 161 ap. J.C.), t. I, Paris, Seuil, 1974.*
وهناك من يذهب إلى نهاية حكم "السيفيريين" (Severus) أي سنة 235م. -*Chastagnol (A.) , le Bas-Empire, Paris, Colin, 1962, p.7.*

***- *يرى روستوفتزف أن أزمة القرن الثالث تعود إلى الصراع بين بورجوازية المدن من جهة والفلاحين والجيش من جهة ثانية، وقد انطلقت من مدينة "ثيسدروس" (Thysdrus) "الجم" بتونس حاليا، بعد صعود "غورديانوس" (Gordianus) – أحد نبلاء قرطاجة – إلى العرش سنة 238م، عمت الفوضى أرجاء الإمبراطورية، وكثرت اغتصابات السلطة وتدخل الجيش في الحكم، مما أدى إلى أزمة مالية وسلطوية خطيرة، (روستوفتزف م. ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي و الاقتصادي، ج1، ترجمة زكي علي، محمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957، ص 530). وقد تعرضت نظريته إلى عدة انتقادات منها ما ذكره "كاجي"و"بيكار" أن طائفة الجيش في المغرب القديم لم تكن تنحدر من الفلاحين بل من الطبقة المتوسطة من الملاك الذين كانوا يعيشون في المدن.* - *Gagé (J.), les classes sociales dans l'Empire Romain, Paris, N^lle^ éd., 1971, pp. 292- 297 ; Picard (G.Ch.), la civilisation de l'Afrique Romaine, Paris, Plon, 1959, pp. 160- 162.*

مست على الخصوص إعادة النظر في سلطة الإمبراطور وتنظيم الجيش والإدارة وجباية الضرائب. ثم محاولة تقوية السلطة المركزية في مختلف مقاطعات وأقاليم الإمبراطورية، لزيادة موارد الدولة عن طريق جباية الضرائب، والقضاء على الفوضى الناجمة عن كثرة الثورات واغتصابات السلطة علاوة على الأخطار الخارجية. [1]

لقد كان لهذه الإصلاحات نتائج خطيرة على المجتمع الذي أصبح منقسما إلى عدة طوائف متفاوتة من حيث الامتيازات، وألحق الضرر بالفئات المالكة التقليدية أي أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان وبرجوازية المدن. وظهرت فئة جديدة من الأغنياء اعتمدت على نفوذها السياسي في امتلاك الأراضي والعقارات. [2]

ويلاحظ أن الفئات الأكثر تضررا هي الطبقة الأرستقراطية في المدن التي فقدت الحكم الذاتي وأصبحت خاضعة لمراقبة موظفين معينين من السلطة المركزية. فأصبح أفراد تلك الأرستقراطية (الكورياليين-*Curiales*) يرون في مهامهم تكليفا لا تشريفا. إذ أن جباية الضرائب التي كانت تقع على سكان المدن ألقيت على عاتقهم، وفي حالة فشلهم فإنهم يتعرضون لمتاعب من طرف الدولة.

ويبقى التحليل الذي قدمه "روستوفتزف" (*Rostovtseff*) للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع مقبولا. إلا أن قوله بخراب المدن في القرن الرابع الميلادي يحتاج إلى نوع من الدقة والمراجعة.(*)

---

[1]- *روستوفتزف، المرجع السابق، ص ص 606، 612، 616- 617.*

[2]- *المرجع نفسه، ص ص 634- 635.*

*- *إن ظاهرة انهيار المدن لم تكن عامة، فقد شيدت عاصمة جديدة للإمبراطورية البيزنطية هي مدينة القسطنطينية، وظلت المدن القديمة الشرقية مزدهرة مثل: أنطاكيا، والإسكندرية، وفي الجزء الغربي من الإمبراطورية قرطاجة التي كانت تضاهي روما، وإعادة بناء سيرتا (Cirta) التي أصبحت تسمى قسنطينة في عهد الإمبراطور قسطنطين.* - *Picard (G.C.), la Carthage de Saint-Augustin, Paris, Fayard, 1965, pp. 27-28 ; Petit (P.), Op.cit., t. III, p. 197.*

لقد كان الكورياليون خاصة الأغنياء منهم، يبحثون عن وسائل كالغش الجبائي تمكنهم من الوصول إلى مصاف الموظفين الكبار حتى يتسنى لهم الحصول على الامتيازات حسب ما ذكره كورتوا. [1] لذلك كانوا يرغمون السكان على تسديد الضريبة مرتين في السنة، مما أدى إلى صدور قانون في سنة 412م يعاقب هذا الغش عقابا صارما "بفرض الغرامات المالية أو الحكم بالموت". [2]

يمكن القول إذن أن أرستقراطية "جديدة" برزت من بين طبقة "الكورياليين"، ظلت تعتمد في ثرائها على الثروة العقارية، وعلى تصدير بعض المنتجات الفلاحية (زيتون، حبوب). وشكل أفرادها فئة سميت بـ "الأعيان" (*Principales*) وهم أعيان المدن، وكانوا يمثلون فئة سميت بـ "أعيان الأقاليم" (*Sacerdotales*) في أقاليم الولاية الإفريقية.

وتوجد إلى جانب أعيان المدن والأقاليم، فئة الملاك الذين كانوا ينتمون إلى هيئة "اللامعون" [*] (*Clarissimi*) أي مصاف أعضاء مجلس الشيوخ الروماني. [3]

لقد أمكن التعرف على كبار الملاك من خلال المصادر الأدبية [**] التي سمحت بإلقاء الأضواء عليهم وإن كانت تلك الأضواء خافتة، لأن الكتاب الأفارقة في القرن الرابع كانوا من رجال الكنيسة، ولم يعيروا النشاطات غير الدينية أدنى اهتمام.

وتعرف الباحث على بعض الملاك الكبار من رسائل "أوغسطين"، ومن خطبه الوعظية (*Sermones*) ومن "إعترافاته" (*Confessionis*)، فكان يراسل هؤلاء الملاك

1-*Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique, Paris,Arts et métiers graphiques,1955, p135.*

2- *Cod. Theod., XXI, 20.*

*– **اللامعون**، القب تشريفي يمنحه الإمبراطور لمن يشاء من الأغنياء يطلق على الطبقة السيناتورية المسماة بـ "اللامعين" Clarissimi التي لا يتشكل أعضاؤها بالضرورة من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني السيناتو Senato، ويمكن للمرء أن يصبح "سيناتورا" دون أن يمارس عضويته في مجلس الشيوخ.* *-Gagé (J.), Op. cit., p. 42*

3- *Gagé (J.), Ibid., p. 366.*

**– *منها على سبيل المثال: أوسونيوس" Ausonius» في غاليا "فرنسا حاليا"، وسيماكوس" Symmachus" في إيطاليا.* *- Pircard (G.C.), Op, cit., p. 134.*

في شأن فلاحيهم ليحثوهم على اعتناق الكاثوليكية. وهكذا نجح "باماكيوس" (*Pamachius*) وهو من كبار الملاك في إرجاع مزارعيه (*Coloni*) إلى الكاثوليكية في نوميديا. [1] واستطاع "فستوس" (*Festus*) إقناع مزارعيه للدخول في الكاثوليكية في ضيعة قرب مدينة "هيبو–ريجيوس" (*Hippo-Regius*) "عنابة حاليا". [2]

ثانيا–الأراضي الإمبراطورية: كانت الملكيات الكبرى في بلاد المغرب القديم إما بيد الإمبراطور أو بيد فئة من كبار النبلاء. [*] وكانت ضيعاتهم الشاسعة (*Saltus*) متناثرة في عدة أقاليم من الإمبراطورية، وعلى وجه الخصوص في المغرب القديم الذي كان الأرض المفضلة لتلك الملكيات. إلا أن أصحابها كانوا لا يقيمون فيها، فقد كانوا يديرون شؤونها من روما عن طريق أمناء أو وكلاء أو يؤجرونها (*Conductores*) حسب نظام استغلال غير مباشر. [3]

كان الإمبراطور أكبر مالك للأراضي في الإمبراطورية الرومانية، وكانت تلك الأراضي بالمغرب القديم. وقد استحوذ الإمبراطور "نيرون" (*Néron*) (54–68م) على أكبر مساحة. وقامت أسرة "الفلافيين" [**] (*Flaviens*) (69–96م) بمصادرة أراضي كبار الملاك من طبقة الشيوخ. [4]

---

[1]- *Augustin (St.), Epist., LXXXIII.*

[2]- *Augustin (St.), Epist., CIX, 8.*

*- *خصص الهرم الاجتماعي والإداري لقبين تشريفيين إلى أنبل النبلاء، فكانت فئة الأشراف (Spectabiles)، وفوقها حظوة فئة المشاهير (Inlustres).*

- Gagé (G.), Op.cit., p. 355.

[3]- *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, pp. 132- 133.*

- ***الفلافيون*، *اسم عائلة رومانية تنتمي إلى طبقة العوام "أو الغرباء" Plébiens، استطاعت أن تكون ثروة من خلال بناء الأسوار والصناعة والمشاركة في الجيش وانصهرت مع النبلاء Patricians عن طريق المصاهرة، ومن أبرز أباطرتها : "فسباسيان" Vespasien (69– 79م) "تيتوس" Titus (79– 81م) "دومتيانوس" Domitianus (81– 96م)، كما حمل الإمبراطورين "قنسطانس كلور" Constance Clore و"قسطنطين" Constantin (306– 337م) هذا الاسم فيما بعد.*

- Dict. Univ. Hist. Géo., p. 670.

[4]- *Finley (M.I.), l'économie Antique, trad.par Max Peter Higgs, Paris, Minuit, 1973, p.118.*

يذكر "بلينيوس القديم" (*Plinius*) أن نصف أراضي المغرب القديم كانت بيد ستة ملاك من أعضاء مجلس الشيوخ، فما كان من "نيرون" إلا أن أمر بقتلهم وصادر ممتلكاتهم. (1)

يبدو أن أملاك الإمبراطور في المغرب القديم ظلت شاسعة حتى بداية القرن الخامس الميلادي، كما يتضح من أحد قوانين "هونوريوس" (*Honorius*) الذي صدر في سنة 422م. (2)

وكانت هذه الأراضي معفاة من الضرائب إضافة إلى إسناد الأراضي غير المنتجة في إقليم البروقنصلية و"بيزاكينا" (*Byzacena*) إلى من يستغلها مقابل امتيازات معينة. وقد بلغت مساحة هذه الأراضي الكلية حوالي 15.000 كلم^2 أي سدس ($\frac{1}{6}$) مساحة الإقليمين السابقين تقريبا أي حوالي 91.000 كلم^2. (3)

والحقيقة أن تلك المساحة لم تكن مساحة مجموع الأراضي القابلة للزراعة في الإقليمين. ولكن كانت مساحة الأملاك الإمبراطورية فقط، (*) لأنه لو كانت هذه المساحة هي المساحة الإجمالية للإقليمين، فإن ذلك سيكون معناه أن الأوضاع كانت رديئة للغاية، وأن المغرب القديم كان عاجزا على تموين روما بالقمح الكافي لإطعام سكانها.

كانت إفريقيا الممون الوحيد للعاصمة الرومانية، بالأخص في القرن الرابع بعد أن أصبحت مصر توجه قمحها إلى العاصمة الجديدة القسطنطينية، أما فيما يخص نوميديا فقد كانت هي الأخرى مجالا للضيعات الشاسعة (*Saltus*). (4)

---

[1]- *Pline L'Ancien, XVIII, 35.*

[2]- *Cod. Théod., XI, 28, 13.*

[3]- *Courtois (Ch.), les vandales te l'Afrique..., p. 132.*

*- *اختلف المؤرخون حول مساحة الأراضي الإمبراطورية ومساحة مجموع الأراضي القابلة للزراعة في إقليمي بيزاكينا والبروقنصلية، حول هذا الاختلاف أنظر:*
- Lepelley (C.), Déclin ou stabilité de l'agriculture Africaine au Bas-Empire, A propos d'une loi d'Honorius, Ant.Afr., t. I, 1967, pp.139- 140.

[4]- *Warmington (B.H.), Op.cit., p.100.*

لكن الباحث يجهل نسبة الأراضي الإمبراطورية التي كانت بيد الخواص، والتي كانت تتراجع في القرنين الرابع والخامس للميلاد،(*) على ما كانت عليه في عهد "نيرون" و"الفلافيين" (*Flaviens*) بسبب البيع أو الكراء. (1)

نستنتج مما سبق أن طبقة كبار الملاك كانت تحتكر معظم الأراضي في المغرب القديم في القرن الرابع إما بالشراء أو الكراء لأجل غير مسمى، كما كان ينص عليه قانون "هونوريوس".

في الوقت الذي حرم فيه الأهالي –والفقراء منهم على وجه الخصوص–من أراضيهم ومن التمتع بخيراتها، والفئة النشيطة التي كانت تسعى لإيجاد عمل يومي. (2) وهذا ما يوحي بأنها كانت تسعى لتوفير الحد الأدنى من العيش.

ثالثا–الملكية <u>المتوسطة والصغرى (أراضي القبائل والكنيسة)</u>: رغم احتكار طبقة كبار الملاك واستيلائها على معظم الأراضي في المغرب القديم في القرن الرابع. إلا أن هناك أراضي وملكيات صغرى كانت مستغلة من قبل الأهالي والسكان الأصليين أي " الشعوب" (*Nationes*) و" العشائر" (*Gentes*).(*) وقد تقلصت هذه الملكيات بالتدريج كلما توسعت روما في شمال إفريقيا، متبعة منهجية سياسية تقوم على تركيز السكان الأصليين في مناطق محددة، غالبا ما تكون الأراضي القاحلة والوعرة، أو

*– *كانت فئة **المشترون** في القرن الرابع تعرف باسم Perpetuarii، وفئة **المكترون** لأجل غير مسمى باسم Emphytheoticarii،*
- Pigagnol (A.), l'empire chrétien, pp.310-311.

1 - *Picard (G.C.), la civilisation Romaine…, p. 60.*

2 -*Brisson (J.P.), Op.cit., p. 357.*

* – *صنف بعض المؤرخين سكان شمال إفريقيا إلى شعوب وعشائر، إذ من الصعب أن نؤكد بوجود تنظيم قبلي بالشكل الذي كان للقبيلة في إفريقيا ما بعد الفتح الإسلامي، لذا يمكن استعمال المصطلحين القديمين: Gens (عشيرة) و Natio (شعب).*
-Laroui (A.), l'histoire du Maghreb, un essai de synthèse, I, Paris, Maspero, 1970, pp. 59-60.

بينما استعمل "مارسيل بن عبو" مصطلحي "قبيلة" و "نظام قبلي" بتحفظ، *- Benabou (M.), la résistance Africaine à la Romanisation, Paris, Maspero, 1976, p. 427 ; Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, pp.273, 408.*

السهوب والجبال والصحراء. بينما استحوذت تلك الطبقة على أخصب الأراضي، كما وقع لأراضي قبيلة الموزولامي(*) (*Musulames*).

وهكذا اعتبر نظام ملكية الأرض حدثا ذو أهمية بالغة في القرن الرابع، حيث أصبحت بعض الأراضي بيد الكنيسة المسيحية. واتسعت تلك الأراضي بفضل الهبات التي كانت تتلقاها من المؤمنين الأغنياء أو من الإرث، أو بسبب دخول بعض الأثرياء في سلك رجال الدين والتبرع بأملاكهم وثرواتهم كهبات للكنيسة.

وقد اعترفت الدولة الرومانية بحقوق الكنيسة في هذه الممتلكات، بل واستفادت هذه الأخيرة من هبات الإمبراطور نفسه. كما حدث في سنة 330م حينما قام الإمبراطور "قسطنطين" ببناء كنيسة للكاثوليك في مدينة "سيرتا". [1] وأرسل الإمبراطور "قنسطانس" (*Constance*) بعض الهبات سنة 347م إلى الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية لتوزيعها على الفقراء. [2]

وكانت الكنيسة تطالب بإعفائها من الضرائب، حيث تمكنت من الحصول على إعفاء رجال الدين من الضريبة الفردية (ضريبة الرأس-*Capitatio*) ومن الأعباء البلدية (*Munera*)، أما الضريبة العقارية فقد رفضت الدولة إعفاء الكنيسة منها. ذلك أن الأباطرة الرومان بدأوا، ربما يتخوفون من تزايد ثراء ونفوذ الكنيسة. (**) فقد

* - *الموزولامي (**Musulami**)، قبيلة نوميدية كانت تملك أراضي واسعة في حوض نهر المثول (وادي ملاق حاليا يصب في نهر مجردة بتونس)، لكن روما استولت على مساحات كبيرة منها بعد إقامة طريق أماديرا (Ammaedara) "حيدرة" حاليا Haidra – تاكاباي (Tacapae) " قابس" حاليا بتونس"، فكان ذلك أحد الأسباب المباشرة في قيام الثورة سنة 17م إلى سنة 24م بقيادة الثائر "تاكفاريناس "(Tacfarinas) في عهد "أوغسطس" وقد شكلت خطورة كبيرة على الوجود الروماني في المغرب القديم نظرا لتحالف عدة عشائر معها.* -*Benabou (M.), Op.cit., pp. 77- 83.*

1- *Aurelius Victor, Epitomé, XLI.*

2- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 34.*

**- *عن ثروة الكنيسة في المغرب القديم ونفوذها الاقتصادي أنظر:* - *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique..., pp. 138-141.*

أصبحت تكون نوعا من "دولة داخل الدولة"، لذلك حاولوا الحد من هذا الثراء فحظر الإمبراطور"فالنتنيانوس" (*Valentinianus*) الكنيسة من قبول الهبات والإرث من النساء، ومنع الأغنياء من الالتحاق بسلك رجال الدين. [1]

<u>رابعا–نظام استغلال الأراضي:</u> كشفت "النقوش الكبرى" [*] (*Grandes Inscriptions*) التي عثر عليها في حوض نهر المجردة (*Bagradas*) بتونس، عن طبقة من المزارعين كانت تتولى استغلال الأرض بالحصة (*Coloni*) في ضيعات الإمبراطور بتلك المنطقة خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد.

يتضح من هذه النقوش أن نظام استغلال الأرض كان يخضع لتنظيم هرمي، في قمته الإمبراطور أي صاحب الأرض، وفي قاعدته المزارعين، وهناك الوسطاء الذين يشرفون على إدارة الأملاك الإمبراطورية أو الوكلاء (*Procuratores*) وهم

---

[1]- *Piganiol (A.), l'Empire Chrétien, p. 406.*

*- *اكتشفت هذه النقوش في الفترة مابين سنة 1880م وسنة 1906م وأهمها:*

1- نقش هنشير مطيش: *اكتشف عام 1896م وهو عبارة عن عقد تسيير يرجع إلى سنتي 116-117م (C.I.L., VIII, n° 25902) ويتضمن تسوية قانونية أصدرها الوكيل الإمبراطوري Procurator تراجانوس Trajanus في شأن مزارعي إحدى الضيعات الإمبراطورية وهي Villa Magna Varianae، والمسماة أيضا "مباليا سيغا- Mapalia Siga" وهو نص مستوحى من قانون "مانكيانا" Lex Manciana. - Picard (G.C.), Rougé (J.), Textes et documents relatifs à la vie économique et sociale dans l'empire Romain, pp. 115-116.*

2- نقش عين الجمالة: *يعود إلى عهد الإمبراطور "هادريانوس" (117- 138م)، (C.I.L., VIII, n° 25943) وهو عبارة عن مراسلة بين وكلاء الإمبراطور Procuratores وفلاحي ضيعتي: Blandianus و Udensis.*

- Carcopino (J.), « L'inscription d'Ain El-Djemala », <u>M.E.F.R.A.</u>, 1906, pp.356 -481.

3- نقش سوق الخميس: *يرجع إلى سنة 182م وهو عبارة عن ملف لمراسلة بين مزارعي ضيعة Burunitanus والإمبراطور "كومودوس" (Commodus) (180-192م) يشتكون إليه من جور الوكلاء ومسيرو الضيعات (Conductores) لينصفهم في حقوقهم حسب قانون "مانكيانا". - C.I.L., VIII, n° 10570.*

4- نقش عين واسل: *يرجع إلى 198-211م ويتضمن تسوية في نفس الموضوع السابق. - C.I.L., VIII, n° 26416 ; Picard (G.C.), La civilisation de L'Afrique Romaine…, pp. 371- 372 ; Kolendo (J.),sur la Législation relative aux grands domaines, de l'Afrique Romaine, <u>R.E.L.</u>, 1963, pp80- 103 ; Mespoulet (M.), « L'inscription d'Ain Ouassel », in N[lle] <u>R.D.F.</u>, 1892, pp 117-124.*

معينون من قبل الإمبراطور مقرهم قرطاجة. وحدد وضعية المزارعين قانون "مانكيانا"(*) (*Lex Manciana*) الذي منحهم بعض الحقوق ويفرض عليهم بعض الواجبات.

وكان على هؤلاء المزارعين (*Coloni*) أن يدفعوا إلى المالك (*Domini*) صاحب العقار أو إلى المسير(*Conductor*) أو نائبه (*Vilici*) أقساطا من المنتوج والمحصول الفلاحي (*Partes*)، بناء على قانون "مانكيانا" غالبا ما يكون الثلث في القاعدة العامة. (**) وكان عليهم أيضا أن يعملوا مجانا لعدد من الأيام في الجزء المخصص من الضيعة بالسخرة أوالعمل القسري (*Operae*). (***) وفي مقابل ذلك،

- **مانكيانا، لا يعرف أصل لهذه التسمية، ويحتمل أنها مشتقة من اسم T.Curtilius Mancia الذي يكون ربما حاكما أو موظفا أو قنصلا قد كلفه الإمبراطور" فسباسيانوس" Vespasianus (69-79م) حسب سوماني- بمهمة تنظيم أراضي الدولة Ager Publicus وإحصائها في إفريقيا.*
- Saumagne (Ch.), et autres, Tablettes Albertini, Actes privés de l'époque vandale (fin du 5eme siècle), Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1952, p. 141.
- ويعتقد ستيفان غزال أن قانون مانكيانا يرجع إلى عهد قيصر César. - Gsell (S.), H.A.A.N., t.VII, p.86, t.VIII, p.167.

***- كانت نسب الأقساط حسب نوع المحصول، مثلا: ثلث الإنتاج عن القمح، وكذا الشعير ويؤخذ في البيدر، الثلث (أو الربع) عن الفول، والغلة من الخمر ويؤخذ من المعصرة، والثلث عن الزيت ويؤخذ من المعصرة كذلك، وسكستاريوس واحد «Sextarius» (أي السدس ($\frac{1}{6}$)، أو ربع ($\frac{1}{4}$) موديوس« Modius ») من العسل عن كل خلية من النحل.*
- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.589 ; Kolendo (J.), le problème du colonat en Afrique romaine sous le haut-Empire, dans Terre et paysans dépendant dans les sociétés antiques, Paris, 1979, pp.402, 415.

****- كان عدد أيام **السخرة** مختلفا في الضيعات، ونستشف من النقوش أنها كانت تتراوح ما بين ستة أيام واثنى عشر يوما في السنة. فمثلا: في ضيعة « فيلا ماغنا فارياناي- Villa Magna Varianae » (نقش هنشير مطيش)، وفي ضيعة " سالتوس بورونيتانوس –Saltus Burunitanus » (نقش سوق الخميس): ستة (6) أيام في السنة موزعة على النحو الآتي: يومين (2) في الحرث، ويومين (2) في الحصاد، ويومين(2) في العزق (تنقية الزرع من الأعشاب الرديئة)، أما في ضيعة أخرى (نقش قصر مزوار:(C.I.L. VIII n 14428) اثني عشر(12) يوما : أربعة (4) أيام في الحرث، وأربعة (4) أيام في الحصاد، وأربعة (4) أيام في العزق. شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق، ص 80.*
- Kolendo (J.), Ibid., p. 402.

يحق لهم التمتع بقطعهم الأرضية بل يمكنهم أن ينقلوا هذا الحق إلى طرف آخر إما بالبيع أو بالإرث. [1]

تكمن أهمية "قانون مانكيانا " في أنه نظم استغلال أراضي الإمبراطور، وكان معمولا به أيضا في أملاك الخواص. [2] كما تتجلى أهميته أيضا في أنه استمر في الوجود حتى وقت متأخر كما يبدو من ألواح "ألبرتيني" [*] "*Tablettes Albertini*" التي عثر عليها في ناحية جنوب تبسة (بالشرق الجزائري) تتحدث عن فلاحين مانكيانيين *Cultores Manciani* في تلك المنطقة خلال الفترة الوندالية. (الشكل 28 ص 369).

يتضح مما سبق أن وجود الملكيات الواسعة كان جنبا الى جنب مع وجود ملكيات صغيرة يستغلها الفلاحون الصغار. إلا أن الإمبراطور "هادريانوس"[**]

---

[1]- *Saumagne, (Ch.), "Observations sur deux lois Byzantines relatives aux colonat dans l'Afrique du Nord », dans Congrès de Tlemcen, T.2, 1936, Rev. Afr. 1936, pp.485-494.*

[2] - *Picard (G.C.), La civilisation de l'Afrique Romaine., p. 63.*

*- **ألواح ألبرتيني**، *هي ألواح خشبية أغلبها مستطيلة الشكل (260 ملم/ 104 ملم) كتبت بالمداد الأسود (عددها 45 لوحة) تم العثور عليها من قبل الأهالي سنة 1928م بمنطقة تقع جنوب تبسة بحوالي 100 كلم وغرب قفصة بحوالي 65 كلم، ونشرها الباحث الفرنسي أوجين ألبرتيني (E.Albertini) فعرفت باسمه (Tablettes d'Albertini)، تعود هذه الألواح إلى الفترة ما بين 493م و496م أي في عهد الملك الوندالي غونتاموند (Gunthamund) (485 م- 496م) و هي عبارة عن عقود بيع وشراء تتعلق باستغلالية واسعة كانت في ملك رجل يدعى: Flavius Geminius Catullinus، و كانت هذه الملكية تتكون من عدد من القطع الصغيرة (أصغرها لا تضم إلا شجرة زيتون واحدة، و أكبرها لا تتعدى 36 شجرة). ونظرا لصغر حجمها فقد كانت مجمعة، بحيث كان المزارع الواحد (colonus) يستغل عددا منها، وبوسعه أن يورثها لأبنائه أو يبيعها حسب قانون "مانكيانا".*
-Albertini (E.), Actes de vente du Vè siècle trouvés dans la région de Tébessa (Algérie), J.S., 1930, pp.23-40.

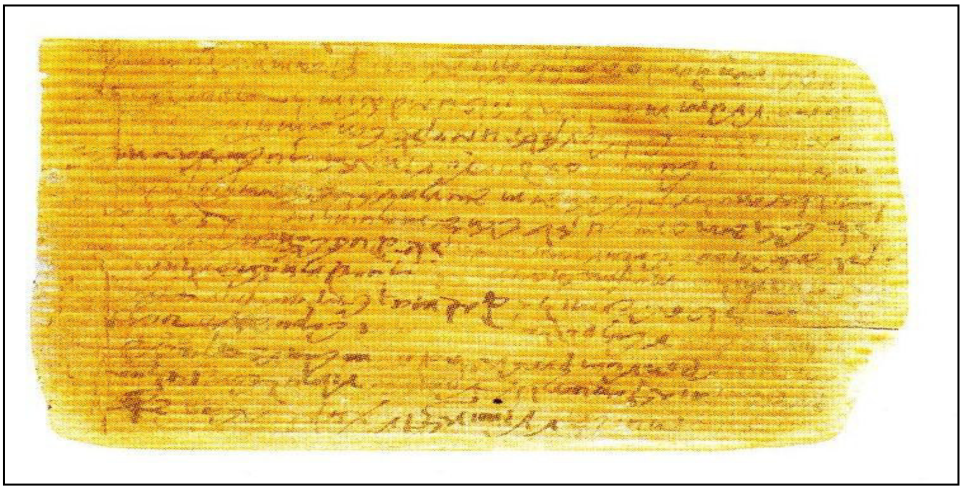
-*هادريانوس**، *Publius Ælius Hadrianus* ، *(76-138م) إمبراطور روماني (117- 138م)، من عائلة إسبانية، ابن عم "تراجانوس" وابنه بالتبني. كان حاكما على سوريا، بعد وفاة "تراجانوس" خلفه على العرش. دعم خط الليمس ببناء حائط "هادريانوس" بطول 80 ميلا شمال بريطانيا لصد هجمات البرابرة. أخمد ثورات اليهود سنة 136م، كما أوقف اضطهاد المسيحيين. كان مولعا بالفن والهللينية، زار كل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية في ظرف خمس رحلات.*
-Dic.Univ.Hist. Géo., p.19.

(*Hadrianus*) (117 –138م) لما نصب على عرش الإمبراطورية لاحظ أثناء تنقلاته عبر المقاطعات الإفريقية الإهمال الذي لحق بالضيعات الواسعة وهي التي كانت مخصصة للإنتاج الزراعي وما أصابها من القحط واتساع مساحة المراعي.

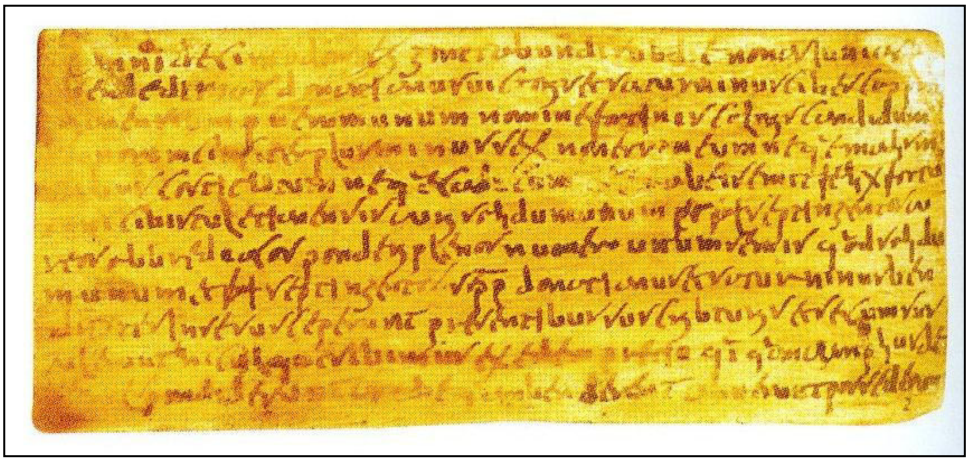
ولعل ذلك الإهمال يعود إلى نوعية اليد العاملة الموظفة في استغلال تلك الأملاك، والمكونة أساسا من العبيد والأجراء الذين لا تربطهم بالأرض أي نوع من الروابط التي تربط صاحب الأرض بأرضه. (1)

لذلك أصدر"هادريانوس" القانون الذي يحمل اسمه (*Lex Hadriana*) سنة117م. ينص هذا القانون على تقديم الدولة امتيازات للمزارعين الذين يرغبون في استغلال المناطق التي لم يشملها المسح بسبب عدم ملاءمتها للزراعة كالسهوب والأدغال والمستنقعات أو المناطق التي استنزفتها زراعة كثيفة للحبوب، أو التي أهملها أصحابها لقلة خصوبتها، أو بعض أراضي الرعي.

1- عبد اللطيف أحمد علي، *التاريخ الروماني، عصر الثورة*، دار النهضة العربية، مصر، 1967، ص 44.



(أ)



(ب)

الشكل رقم 28 : لوحتين من ألواح ألبرتيني:

أ- لوحة من ألواح ألبرتيني تمثل عقد بيع فتاة عذراء مؤرخ في 17 سبتمبر سنة 493م.

ب- لوحة من ألواح ألبرتيني تمثل عقد بيع عبد مؤرخ في 5 جوان سنة 494م.

نقلا عن: *-Duval (N.), les systèmes de datation dans l'est de l'Afrique du nord à la fin de l'antiquité et à l'époque Byzantine, dans « Ktéma », 18, 1993, p.189-211.*

وكان بإمكان هؤلاء المزارعين زراعة هذه المناطق خاصة غرس أشجار الزيتون والكروم، ويمنحهم هذا القانون حق التمتع في تلك الأراضي مع إمكانية توريثها أو بيعها وإعفائهم من الضرائب. لكنه يربطهم بالمالك الكبير (الإمبراطور أو الخواص) أو مسيرو الأعمال (*conductores*)، فيكون عليهم ما على المزارعين بالحصة (*coloni*) حسب مقتضيات "قانون مانكيانا". [1]

لقد تدهورت وضعية المزارعين في القرن الرابع الميلادي في المغرب القديم، رغم صدور قانوني "مانكيانا" و"هادريانوس"، شأنهم في ذلك شأن بقية المزارعين في أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وبموجب تلك القوانين منع المزارعون من مغادرة أراضيهم، فأصبحوا يشبهون العبيد وإن كانوا يحتفظون ببعض الحرية في تنقلاتهم، ويتمتعون ببعض الامتيازات التي خولها لهم قانون "مانكيانا" وضمنتها لهم حماية الإمبراطور. إلا أن تلك الامتيازات والضمانات أصبحت تشبه الأغلال التي تقيدهم إلى الأرض. [2]

ويعرف القديس "أوغسطين" هؤلاء المزارعين قائلا: « ***إنهم أولئك الذين كانت وضعيتهم في مسقط رأسهم تفرض عليهم أن يفلحوا الأرض تحت سلطة المالك.*** » [3]

ونستنتج من قانوني "هونوريوس" لسنتي 412م و414م المتعلقين بالقضاء على الدوناتية في المغرب القديم، أن وضعية المزارعين كانت مشابهة لوضعية العبيد. إذ كان المشرع في قانون سنة 412م –بعد أن حدد قيمة الغرامات المالية المتوقعة في حق الأحرار– قد نص على إيداع العبيد سجن أسيادهم، ومعاقبة المزارعين بالعدد

---

[1]- *روستوفتزف، المرجع السابق، ص 397.* - *Kolendo (J.), Sur la législation, R.E.L., 1963, p. 95.*

[2]- *Picard (G.C.), la Carthage de Saint- Augustin…, p. 140.*

[3]-*Augustin (St.), de civitate Dei, X, I.*

الكافي من الجلدات. [1] وخضع العبيد لنفس العقوبة المفروضة على المزارعين إذ كانوا معرضين لعقوبات جسدية (كالسجن والجلد). [2]

لقد كان "هادريانوس" يأمل في أن يجعل ضياعه الواسعة في مختلف الولايات الإفريقية مزارع نشيطة، يقوم بالعمل فيها مزارعون أحرار في صورة ملاك أو مستأجرين حتى يكون ارتباطهم بالأرض قويا. [3] حيث كان الاتجاه العام في الإمبراطورية هو تثبيت المزارعين بالأرض حتى يتسنى استغلال تلك الأراضي، ومن ثم محاولة تثبيت العمال الفلاحين المتنقلين في المغرب القديم.

يبدو أن طريقة تأجير الأرض للمزارعين بالحصة كانت هي السائدة في المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، خاصة في الملكيات الكبرى (*Saltus*) التي كانت بيد الإمبراطور أو الخواص. وقد تعمم نظام المزارعة على العبيد تدريجيا، بحيث أسندت إلى بعضهم قطع أرضية يستغلونها في مقابل أداء إتاوة أو حصة معلومة من الإنتاج، حسب مقتضيات قانون "مانكيانا" المذكور آنفا.

<u>خامسا–العبيد:</u> ساهمت الحروب التي شنها الرومان خارج حدودهم، وفي منطقة البحر المتوسط على وجه الخصوص، في وفرة العبيد وفي انخفاض أسعارهم واستخدامهم في مختلف الخدمات والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية. وأدت هذه الحالة إلى اعتماد الاقتصاد الروماني خاصة في الميدان الزراعي على العبيد إلى أواخر العهد الجمهوري.[*]

---

[1] - *Cod. Theod., XVI, 5, 52.*

[2]- *Cod. Theod., XVI, 5,54 ; Saumagne (Ch.), Ouvriers Agricoles, <u>A.H.E.S.</u>, 1934, pp. 356- 358.*

[3]- *روستوفتزف، المرجع السابق، ص 432.*

*- *العهد الجمهوري (509– 27 ق.م). للمزيد أنظر أعلاه ص 94.*

لقد استولى الرومان في شمال إفريقيا على الأرض واليد العاملة عقب الحرب البونية الثالثة (149-146ق.م) التي انتهت بتحطيم قرطاجة، ولم تبق على أي قرطاجي حرا طليقا. وكان الشأن كذلك بالنسبة للنوميد الذين قاوموا الاحتلال الروماني.

إن انتقال نظام الضيعات والمزارع الكبرى إلى المغرب القديم دلالة واضحة على وفرة اليد العاملة الزراعية من العبيد. الأمر الذي شجع كبار الملاك الرومان على حيازة الأرض الزراعية في الولاية الإفريقية واستخدام العبيد في استغلالها إلى الحد الذي أثار قلق الإمبراطور "نيرون" (54-68م) الذي قام بمصادرة أراضي شاسعة منهم. (1)

لكن بعد ذلك، أخذ المزارعون بالحصة حسب قانون "مانكيانا" (*Manciana*) مكانة العبيد في الإنتاج. ذلك أن معظم الدراسات (*) حول هذا الموضوع تتفق على أن عدد العبيد تناقص في العالم الروماني على عهد الإمبراطورية. وذلك لكون المسيحية كانت تحارب الاسترقاق، وأن عمل العبيد أصبح عملا قليل الأرباح مقارنة مع أشكال أخرى من العمل وخاصة المزارعة. (2)

يتضح أن العبيد الفلاحين بدأوا يتناقصون من الضيعات الإفريقية ابتداء من أواخر القرن الثاني الميلادي، بسبب الدور الذي لعبته المسيحية في محاربة الإسترقاق، ثم تحول العبيد الى مزارعين بالحصة. وهناك من يذهب إلى أن أهمية ظاهرة الرقيق في المغرب القديم تكاد تكون شبه منعدمة مقارنة مع المقاطعات الغربية من الإمبراطورية الرومانية مثل: غاليا وإيطاليا وشبه جزيرة أيبيريا. (3)

1- *Picard (G.Ch.), La civilisation de l'Afrique romaine..., Op.cit., p. 148.*

*- من هذه الدراسات نذكر :

- *Piganiol (A.) L'empire chrétien…, pp. 448-450.*
- *Gsell (S.), Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine, Mélanges Gustave Glotz, t.I, Paris, P.U.F., 1932, pp.411-412.*
- *Kolendo (J.), le problème du développement du Colonat…, Op.cit., p.398.*

2- *Piganiol (A), l'empire chrétien…, p.304.*

3- *Picard (G.Ch.), la civilisation de l'Afrique romaine…, Op.cit., pp .148-149.*

يبدو إذن– من خلال الدراسات المذكورة آنفا– أن هناك اتفاق بين الباحثين على أن عمل العبيد ودورهم في الضيعات والمستثمرات الكبرى أصبح ضئيلا في هذه الفترة. إلا أن "ستيفان غزال" لاحظ في دراسته "العبيد الريفيين في إفريقيا الرومانية" أن الفلاحين الأحرار كانوا كثيرين في إفريقيا خلال الفترة الرومانية. [1] وهذا لا يعني– طبعا– عدم وجود عدد كبير من العبيد في إفريقيا في الفترة التي نحن بصدد دراستها (القرنين الرابع والخامس للميلاد).

وما يدل على ذلك قول "أوغسطين" في القرن الخامس:« أن ***العبيد كانوا موجودين في كل منزل*** » [2] وأن الحروب التي عرفتها المناطق الثائرة في المغرب القديم كانت توفر عددا معتبرا من الأسرى والعبيد.[3] ويشير "غزال" في هذا الصدد من خلال وثيقة ترجع إلى أواسط القرن الرابع أن موريطانيا كانت تصدر العبيد إلى الأقاليم الأخرى في المغرب القديم.[4]

ويؤكد "أبوليوس المادوري" [5] (*Apuleius*) (*) ذلك حيث ذكر أن زوجته "أميليا بودنتيلا" (*Aemilia Pudentilla*) أهدت لأبنائها 400 عبد بمعية أملاكها.

1- Gsell(S.), Esclaves ruraux…, Op.cit, p. 41.
2- Augustin (St.), Enarr. In Psalm., 124, 7.
3 - Id., Epist., 199, 12.
4- Gsell (S.), Esclaves ruraux…, Op.cit., p .400.
5- Apulée, Apologie, Trad. Victor Bétolaud, Paris, Garnier Frères, 1836, (Introduction) .
*– **لوكيوس أبوليوس المادوري** (Lucius Apuleius)، (125–180م) كاتب وفيلسوف أفلاطوني من أصول نوميدية، ولد في مادوروس Madauros "مداوروش" حاليا قرب قالمة، درس الفلسفة في أثينا ثم مارس مهنة المحاماة في روما، بعد عودته إلى وطنه الأم، تزوج من أرملة غنية تدعى "بودنتيلا" Pudentilla، من أهم أعماله: قصة المسوخ Métamorphoses المعروفة باسم "الحمار الذهبي"«l'âne d'or» في أحد عشر(11) كتابا ألفها سنة 170م في قرطاجة، وثلاث كتب أخرى: "حول مذهب وحياة أفلاطون" و"حول إله سقراط" و"حول العالم"، يتقن اللغتين اللاتينية والإغريقية، لذلك ترجم عدة كتب في الفلسفة اليونانية. - Dict. Univ. Hist. Géo., p. 97 ; Arnaud-Lindet (M.P.), Sources Littéraires de l'histoire de l'Afrique Romaine, dans : Questions d'Histoire, édi. du temps, Nantes, 2005, p.23 ; Podvin (J.L.), les cultes Isiaques en Afrique sous l'empire Romain, dans : Questions d'Histoire, édi. du temps, Nantes, 2005, pp (213-229), p.213.*

كما تفيد المصادر أن القديسة "ميلانيا الصغرى" (*St.Melania Giuniore*) كانت تملك قرب تاغاست (*Thagaste*) "سوق أهراس حاليا" أعدادا كثيرة من العبيد منهم المزارعون ومنهم الحرفيون، وقد أعتقت آلاف العبيد في أراضيها متأثرة بالورع المسيحي عندما ترهبت قبل أن تغادر الأراضي الإفريقية سنة 417م. [1]

والحقيقة، أن هذه الشهادات ذات قيمة تاريخية تفيد في هذا الموضوع (العبيد)، لأن المصادر المادية تشير إلى أن سعر العبيد كان منخفضا [*] من خلال ما نصت عليه "وثيقة زاراي" (الشكل 29 ص 375)، وأن أهميتهم قلت بسبب حالة الاستقرار النسبي التي سادت المغرب القديم في بداية القرن الرابع الميلادي.

غير أن معظم هؤلاء العبيد كانوا يعملون في المنازل (*Domestiques*)، والبعض الآخر يعمل في الصناعات والحرف اليدوية سواء في المدن أو في الضيعات، والفيلات (*Villae*) [2]، وهناك من كان يعمل في رعي الماشية، [3] مثل عبيد "بودنتيلا" زوجة "أبوليوس المادوري" حيث أن عددا وافرا من عبيدها كانوا يعملون كحرفيين في صناعة الحلي (*Multas, Aurifices Argentarios et Artifices*).

يبدو أن مصادر عبيد المنازل كانت غير إفريقية، حيث كشفت الوثائق الأثرية من خلال شواهد قبورهم أن نسبة عالية منهم كانوا من بلاد الإغريق أو الشرق. فقد أمكن رصد نسبتهم في قرطاجة التي تتراوح ما بين 5% و 40%.

1- *Vita (St.) Melania Giuniore, 34; d'après Gsell (S.), Op.cit., p. 402.*

*- *دلت وثيقة الرسوم الجمركية التي اكتشفت في "زارايا" **Zarai** (تقع شمال نقاوس-باتنة) أن سعر الرسم الجمركي بالنسبة للعبيد كان 1,5 دينيي (5=Denier سيسترس Sesters) وهو نفس الرسم على حصان أو بغل، وعليه كان السعر الرسمي للعبد في أوائل القرن الثالث الذي تعود إليه الوثيقة هو 500 دينيي (denier) أو 2000 سيسترس (sesters).*

- Darmon (J.P.), « Note sur le tarif de Zarai », C.T., 48, 1964, pp. 7-

2- *Hamman (A.G.) , La vie quotidienne en Afrique du Nord au temps de Saint-Augustin Paris, 1979, p. 134,*

3- *Gsell (S.), Esclaves ruraux…, Op.cit., p. 406.*



(ب)



(أ)

الشكل رقم 29: وثيقة زاراي:

أ–النقيشة التي تحمل وثيقة زاراي، وتبدو مهشمة في الوسط وفي الأسفل.

ب–صورة منسوخة لوثيقة زاراي، وتبدو أكثر وضوحا.

نقلا عن: *- Darmon (J.P.), Op.cit., pp. 7- 23.*

ويتبين من خلال مهنتهم أنهم يشغلون وظائف منزلية أو إدارية تتطلب مستوى ثقافيا وعلميا كالمحاسبة وتسيير الأعمال وغيرها. (1)

وعثر في "تيفست" (*Theveste*) على عدة أسماء لعبيد من أصل إغريقي. أمكن تمييز خمسة إغريقيين من بين قائمة العبيد المستخرجة من مقابر المدينة وهو ما يمثل نسبة 15% وقد ارتفعت هذه النسبة من عبيد الحضر الإغريقيين إلى حوالي 50% وزادت عن هذه النسبة في مدينة "قيصرية" (*Caesarea*) "شرشال حاليا". (2)

ويحتمل أن معاملة الأسياد للعبيد في الأرياف خاصة كانت سيئة في غالب الأحيان. ولما كان هذا النوع من العبيد (البدو) صعب الانقياد، كان بعض الأسياد يلجأون إلى الضرب والسجن والتكبيل بالأغلال. (3) والبعض الآخر يضع في عنق عبيدهم أطواقا وقد نقشت على تلك الأطواق عبارات تطلب ممن عثر على العبد أن يعيده إلى سيده بالعنوان المكتوب على الطوق.

وتشير المصادر المادية أن الفرار كان مطمحا للعبيد من كلا الجنسين. إذ عثر على هيكل عظمي لامرأة من "بولا ريجيا" (*Bulla Regia*) "حمام الدراجي" بتونس حاليا، دفنت مكبلة بالأصفاد وفي عنقها طوق يحمل النقش الآتي: « **أدولترا-** *Adultéra* "، **اقبض علي إنني هربت من بولا ريجيا.** » (4)

وحسب "بلين الصغير" (5) (*Pline le Jeune*) فإن العبيد كانوا يقومون بعملهم مقيدين بالأغلال خشية أن يفروا. وابتداء من القرن الثاني الميلادي أخذ بعض الأسياد في التخلي عن تقييد عبيدهم. غير أن شهادة "بلين الصغير" ربما كانت تخص العبيد

1- *Lassere (J.M.), Ubique populus, peuplement et mouvement de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 a.c.- 295 ap.c.), Paris, 1977, pp. 430- 431.*

2- *Lassere (J.M.), Op.cit., pp. 432- 433.*

3- *Hamman (A.G.), Op.cit., p. 133.*

4- *Picard (G.C.), La civilisation…, Op.cit., p. 150.*

5- *Pline le jeune, Lettres, trad. de M. Nisard, Paris, Firmin Didot, 1865, III.*

في الأقاليم والمقاطعات الرومانية الأخرى غير إفريقيا. إذ أن هؤلاء كانوا عسيري الانقياد وأنهم كانوا يتحينون الفرص للإفلات من القيود للفرار من أسيادهم.

ويضيف "غزال" (*S. Gsell*) أن العبيد ربما استراحوا من تلك القيود والأغلال ليلا. [1] في حين يذكر "أوغسطين" أن تلك المعاملة السيئة هي التي تدفع ببعض العبيد إلى الهروب من أسيادهم واللجوء ربما إلى"الدوارين" للاحتماء بهم. [2]

ولنا في الشواهد المادية ما يؤكد تلك المعاملة، إذ تبرز لنا لوحات الفسيفساء (فسيفساء بازيليكة تيبازا) مشاهد واضحة لعبيد مقيدين. [3](الشكل رقم 30 ص 382)

وأشار "أبوليوس المادوري" إلى صور التعذيب [*] في كتابه "الحمار الذهبي"، على أن ذلك التعذيب الشنيع ليس سوى وسيلة لتخويف العبيد وردعهم حتى لا يفكروا في الهروب من أسيادهم. [4]

ونستشف من بعض الرسائل التي تبادلها "أوغسطين" و"بوبليكولا" (*Publicola*) أحد الملاك الكبار وأخ القديسة "ميلانيا الصغرى" (*St.Melania Giuniore*) خلال الفترة مابين سنة 366م وسنة 396م، أن كبار الملاك–أمام تناقص أهمية العبيد في العمل الفلاحي– كانوا يلجأون إلى السكان المتاخمين للحدود الرومانية (الليمس)، لتسخيرهم في خدمة الأرض أو استعمالهم في مصاحبة قوافل المسافرين. [5]

ويذكر "بوبليكولا" (*Publicola*) أن السكان الأصليين–الذين أطلق عليهم اسم "المتبربرين" *Barbari* – كانوا يؤدون القسم بـ "شياطينهم " أمام الملاك أو من يقوم مقامهم كمسيري الضيعات مثلا، قبل إسناد المهام إليهم.

---

[1]- *Gsell (S.), Esclaves ruraux…, Op.cit., p. 406.*

[2]-*Augustin (St.), Epist., CVIII, 6, 18; CLXXXV, 4, 15.*

[3]-*Gsell (S.), Cherchell, antique Iol-Caesarea, imprimerie officielle, Alger, 1952, p.30.*

*- *ومما ذكره أبوليوس المادوري عن التعذيب أن أحد الأسياد كان يعذب عبيده بشدهم عراة إلى أشجار التين وطليهم بالعسل، وحينما يشم النمل رائحته يتجمع حولهم وينهش أجسادهم إلى الأحشاء حتى لا يبقى منها إلا الهيكل العظمي.*

- Apulée, Métamorphose, trad. Par V.Bétoloud, Paris, Nisard, 1836, VIII, 22.

[4]- *Ibid., IX, 13.*

[5]- *Augustin (St.), Epist., XLVI.*

ويؤكد "أوغسطين" – في رده على رسالة "بوبليكولا"– قيمة اليمين التي يقسم بها العمال "المتبربرون" مضيفا أنه:« ***إذا لم يعد بالإمكان الاعتماد على قسم أولئك العمال، فإننا لا نرى بقعة من الأرض يمكن الإقامة بها.*** » [1] ذلك أن السكان "المتبربرين" لا يوفرون الحماية لليمس الروماني فحسب، ولكن لكل الأقاليم الأخرى أيضا في المغرب القديم.

وتقع الأقاليم التي أشار إليها " بوبليكولا" في بلاد" الأرزوج" **(*)** (*Arzuges*) (الخريطة رقم 4 ص 380) جنوب خط الليمس الروماني. وتؤكد هذه الإشارة أن كبار الملاك كانوا لا يتورعون في اللجوء إلى يد عاملة لا تربطهم بهم رابطة الدين. إذ أن رسالة "بوبليكولا" تؤكد أن معظم هؤلاء كانوا من المشركين، وإن كان البعض الآخر قد تأثر بعملية التبشير التي كانت تقوم بها الكنيسة المسيحية. وخاصة الكنيسة الدوناتية التي كانت توجه نشاطها إلى السكان غير المترومنين، وبشكل خاص أولئك الذين يتركزون في المناطق المتاخمة لليمس الروماني. [2]

يبدو أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المغرب القديم خلال القرن الرابع، قد كرست ظاهرة الاعتماد على العبيد في العمل الفلاحي بالملكيات الكبرى والتي جسدتها القوانين الفلاحية الآنفة الذكر، بدليل تواصل الوثائق الأثرية التي تتعلق بعبيد الريف طيلة الفترة اللاحقة للاستعمار الروماني.

---

[1]- *Augustin (St.), Epist., XLVII.*

* – ***الأرزوج (Arzuges)***، *نظرا لعدم دقة المصادر، اختلف المؤرخون في تحديد هذه المنطقة، فقد ذكر "كورتوا" Courtois أن النص الأساسي هو نص "أروسيوس"،* *- Orosius (P.), Adversus Paganos, I, 2, 90.*

الذي يشير إلى أن كلمة "أرزوج" كانت تطلق على سكان الإقليم الطرابلسي Tripolitana. *- Courtois (Ch.), Les vandales…, p. 93.*

وبشأن عقيدة قبائل "الأرزوج" أشار "ديسانج" Desanges أنهم كانوا من المشركين، ووردت إشارات أخرى تدل على أن هناك حياة مسيحية متطورة في تلك المنطقة، بدليل وجود إقليم كنسي باسم: Arzugitana الذي ورد ذكره في وثائق كنسية تعود إلى القرن الرابع الميلادي. *- Desanges (J.), Catalogue des tribus Africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, Dakar, 1962, pp. 78- 80.*

كما يشير أوغسطين في حوالي 407–410م إلى وجود انشقاق في صفوف الدوناتيين بذلك الإقليم. *– Augustin (St.), Epist., XCIII, 8, 24.*

[2]-*Audollent (A.), la diffusion du christianisme en Afrique au sud des territoires soumis à Rome après le V^e^ siècle,* C.R.A.I.*, 1942, p. 205.*

كما جسدت هذه القوانين حرص السلطة الرومانية على تكريس ظاهرة الرق في الميدان الفلاحي. من ذلك ما جاء في مرسوم سنة 370م الذي صدر في عهد الإمبراطور "فالنتينيانوس الأول" (*Valentinianus I*) (الشكل 30 ص 382) الذي يمنع بيع الأملاك العقارية دون العبيد. مما يوحي أن العبيد كانوا جزءا من تجهيزات الأملاك، فهم جزء من المزرعة في نظر القانون. [1]

والحقيقة أن التطورات السياسية والاقتصادية التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية خلال القرنين الثالث والرابع، استشعرت حدة الاستعباد. لذلك قامت السلطة الرومانية بإصلاحات اقتصادية صاحبها ارتفاع في قيمة الضرائب وتعديل نظام الجباية، واستحواذ كبار الملاك على الأراضي وبسط نفوذهم بشتى الأشكال على سكان الريف، منها القرض الربوي. [*] وأفضى ذلك كله إلى تردي أوضاع المزارعين الذين عاشوا ظروفا قاسية.

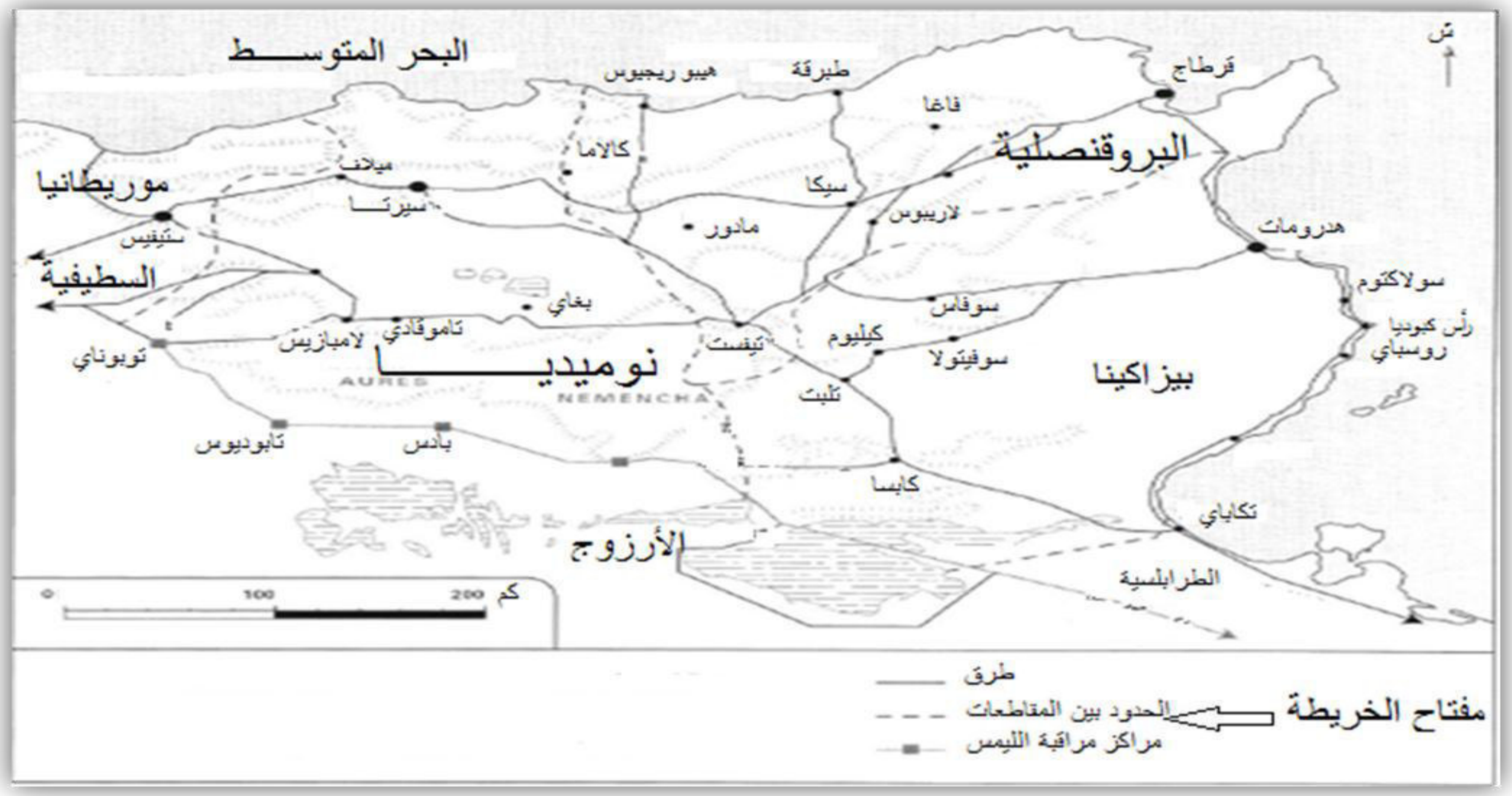
وأمام هذه الأوضاع المزرية، فإن العديد من المزارعين اضطروا إلى مغادرة الحقول. فتحولت المساحات الزراعية الواسعة إلى أراضي بور، خاصة المناطق قليلة الخصوبة، التي كانت الضرائب فيها تتعدى أو تقارب المحصول الزراعي الممكن الحصول عليه.

[1] - *Gsell (S.), Esclaves ruraux.., Op.cit., p. 406.*

*-*كان الدوناتيون يهاجمون "الدائنين" Creditores بصفة خاصة، حسب أوبطا الميلي. وكانوا في الواقع يمارسون قروضا ربوية أثقلت كاهل المزارعين، ويبدو أن بعض رجال الدين مارسوا ذلك، مما دفع مجمع قرطاجة في سنة 397م الى تحريم القروض الربوية.*

- Optat(St.), III, 4.

- Hamman (A.G.) ; Op.cit., p. 142.



الخريطة رقم 4: إقليم بلاد الأرزوج. (ترجمة الطالب الباحث)

نقلا عن: *-Yves Modéran, De Julius Honorius à Corippus : la réapparition des Maures au Maghreb oriental, In: C.R.A.I., 147e année, n° 1, 2003, (pp. 257-285), p. 279.*

ويشير الكاتب الإفريقي "لاكتانتيوس" (*Lactantius*) (*) في بداية القرن الرابع الميلادي أن: «***عدد المستلمين للضرائب كان يتجاوز بكثير عدد المؤدين لها، حتى أن المزارعين لما رأوا مواردهم قد نضبت بسبب كثرة الضرائب، هجروا حقولهم التي تحولت إلى أراضي بور.***» (1)

هكذا كانت أوضاع المغرب القديم الاقتصادية خلال القرن الرابع الميلادي، تلك الأوضاع التي أحدثت تغييرات جوهرية على الصعيد الاجتماعي الناجمة عن تردي الأوضاع الاقتصادية وتعسف القانون الروماني إزاء الطبقة الفقيرة المحرومة والمضطهدة من المجتمع الروماني، كالأحرار والعبيد والمزارعين والعمال الموسميين والحرفيين. تلك الفئات التي كانت تمثل أعلى نسبة عددية من السكان، والقوة المنتجة الأولى في المجتمع.

يبدو أن ما جمع بين فئات هذه الطبقة هو الإحساس بالغبن الاجتماعي وظلم القوانين الرومانية، وكراهية كبار الملاك المستغلين لجهدهم وعرقهم.

---

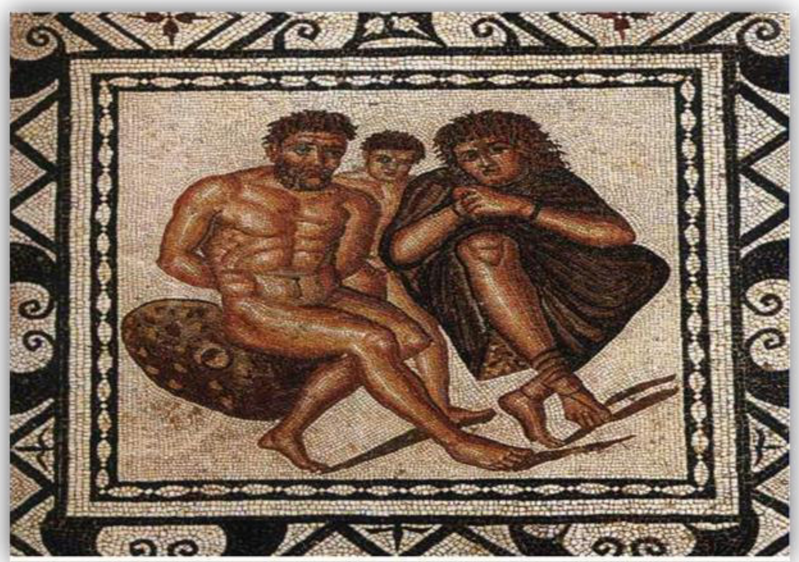
*- ***لاكتانتيوس*** *Lucius Firmianus **Lactantius**، كاتب مسيحي ولد في إفريقيا سنة 250م، اعتنق المسيحية حوالي سنة 300م، يعتبر "أرنوب" Arnobe من أشهر أساتذته، اختاره "ديوكليتيانوس" سنة 290م لتدريس الآداب في نيكوميديا Nicomédie، انتقل من إفريقيا حيث كان يدرس البلاغة في مدينة "سيكا فينيريا" Sicca Veneria "الكاف بتونس حاليا" إلى إيطاليا و احتل مكانة أدبية مرموقة، عينه "قسطنطين" سنة 318م مدرسا لابنه "كريسبينوس" "Crispinus"، توفي حوالي سنة 317م أو 325م. من أهم كتبه: "غضب الإله"، "المؤسسات المقدسة" و"حول موت المضطهدين" De Mortibus Persecutorum الذي يعتبر من أهم مؤلفاته عثر عليه في نهاية القرن 17م فترجم ونشر سنة 1679م.*

-Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1021.

1-Lactantius, De Mortibus Persecutorum, VII, 3.



(أ)



(ب)

الشكل رقم 30: الإمبراطورين فالنس وفالنتينيانوس الأول وفسيفساء تيبازا.

أ–نقد من الذهب الخالص *Solidus* مؤرخ في حوالي سنة 377م (تراف–*Trèves*)، الوجه عليه صورة الإمبراطور "فالانس"، والظهر صورة الإمبراطورين "فالانس" و"فالنتينيانوس الأول" على العرش يحملان الفلك معا.

ب–فسيفساء عثر عليها في حنية "صدر كنيسة" بازيليكة تيبازا القضائية تبين أفراد عائلة من الأهالي أسرى، الرجل وابنه جردوا من ملابسهم ومقيدين عكس المرأة التي يبدو أنها تحمل أساور أو قيود.

نقلا عن: أ– *https://upload.wikimedia.org* تاريخ الزيارة: 2015/08/23.

ب– *- Claudes Sintes, Ymouna Rebahi, Algérie Antique, catalogue de l'exposition 2003, musée de l'Arles et de la Provence antiques, p. 23.*

في هذا الإطار الاقتصادي والاجتماعي بدأت تبرز ردود الفعل الأولى بإرساء قواعد صلبة لاندلاع ثورات القرن الرابع التي كانت طبقية في مظهرها سياسية في جوهرها. وكانت تعبيرا عن التضامن الطبقي بين ضحايا ذلك الوضع. وقد تلقت الدعم من الثوار الريفيين (الدوارين) الذين كانوا يقومون بتحرير العبيد، ويمعنون في الانتقام من أسيادهم بإنزالهم من العربات وإجبارهم على المشي أمامهم بدل العبيد الذين يركبون تلك العربات. [1] فالوضعية هنا أصبحت معكوسة بين الأسياد والعبيد.

[1]- *Brisson (J.P.), Op.cit., p. 327.*

الفصل الثانـي

ظهور الحركة الدوناتية في المغرب القديم

المبحث الأول- أسباب ظهور الحركة الدوناتية

المبحث الثاني–ظهور الحركة الدوناتية وبداية الصراع الدوناتي الكاثوليكي

تبلورت فكرة تأسيس حركة دينية اصطلح على تسميتها بـ "الحركة الدوناتية" في بداية القرن الرابع الميلادي، على إثر اضطهادات "ديوكليتيانوس" (*Dioclétianus*) للمسيحيين في المغرب القديم، وبعد وفاة الأسقف "بولوس" انعقد المجمع الكنسي بمدينة سيرتا سنة 305م لتعيين أسقف جديد للمدينة. والسؤال المطروح هنا: ما الظروف التي ساعدت على ظهور الحركة الدوناتية؟ ولماذا ظهرت في نوميديا دون غيرها من مناطق المغرب القديم؟ وكيف تطورت من حركة دينية محلية إلى حركة ذات طابع اجتماعي- سياسي عارضت الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية على حد سواء في كل الشمال الإفريقي القديم؟

المبحث الأول -أسباب ظهور الحركة الدوناتية: ما زال تاريخ جذور الدوناتية وبداية الانشقاق الدوناتي يكتنفه الغموض. [1] وينطلق المؤرخون أساسا مما اصطلح على تسميته بـ "ملف الدوناتية" [2] الذي يتكون من مجموعة من الوثائق الإدارية والكنسية التي يتراوح تاريخها ما بين سنتي 314م و330م. [3]

والحقيقة، أن بعض رجال الدين الكاثوليك قاموا بجمع تلك الوثائق في ملف خاص، بهدف استعمالها في المساجلات الكلامية مع الدوناتيين وذلك قبل سنة 347م حسب ما ذكره "لويس دوشين" [4] (*L. Duchesne*). وقد توفر هذا الملف بيد أول مجادل كاثوليكي ذكر في كتابات القديس "أوبطاتوس الميلي" [*] (*Sanctus Optatus*

---

[1]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.193 ; Brisson (J.P.), Op.cit., pp.123.*

[2]- *Duchesne (L.), « le Dossier du Donatisme », M.E.F.R., X, 1890, pp. 589- 650.*

[3] -*Ibid., p. 627.*

[4]- *Ibid., p. 649.*

*- ***أوبطاتوس الميلي***، (320م -385م) ولد في إفريقيا، كان أسقف مدينة ميلاف النوميدية (ميلة حاليا على بعد 50 كلم شمال غرب قسنطينة) خلال القرن الرابع الميلادي، من أشهر أحبار زمانه، دافع عن الكنيسة الكاثوليكية ضد الدوناتيين، من أبرز مؤلفاته : ضد الانشقاق الدوناتي "De Schismate Donatistarum" ، توفي حوالي 385م.*

- *Dict.Univ.Hist.Géo, p.1383.*

Milevitanus) الذي انطلق من تلك الوثائق لرواية بداية الانشقاق والرد على الزعيم الدوناتي "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) (*) حوالي سنة 366م.

وقد طال نقاش حاد بين المؤرخين حول صحة بعض الوثائق وأصالتها، (**) باعتبار أنها تخدم الكاثوليكية صراحة. والتي إذا سلمنا بها حرفيا فإنها تبرز أن المنشقين كانوا خليطا من مغامرين وأدعياء حاولوا خداع الكثير من مسيحيي المغرب القديم بإتباع أسلوب المغالطة والإدعاءات الملفقة والأكاذيب.

تبرز مختلف الشهادات التي أشارت إلى بداية الانشقاق، أن اضطهادات الإمبراطور "ديوكليتيانونس" *Dioclétianus* للمسيحيين في بلاد المغرب القديم خلال الفترة (303–305م) أدت إلى ارتداد الكثير منهم. وطرحت مشكلة الانقسام بقوة في الكنيسة الإفريقية، التي ظلت متحدة كما قال القديس "سبريانوس" *St.Cyprianus*: « ***الكنيسة الكاثوليكية واحدة*** » (*De Catholicae Ecclesiae Unitate*). [1]

أصبحت تلك الكنيسة مهددة نتيجة الإضطهادات العنيفة مع بداية القرن الرابع الميلادي، وأدت إلى ضعف همة الكثير من رجال الدين أمام هذا التهديد. حتى أنهم سلموا نسخ من الكتاب المقدس إلى السلطات الرسمية المنفذة للاضطهاد، فاعتبروا لدى

---

*- ***بارمينيانوس، (Parmenianus)*** *أسقف دوناتي، خلف دوناتوس الأكبر على رأس الكنيسة الدوناتية وأبرشية قرطاجة (355-392م) ألف كتابا ضد الكاثوليكية يرجح أنه كان بعنوان : ضد كنيسة المتخاذلين Adversus Ecclésiam Traditorum" ورد عليه أوبطاتوس في كتابه : De Schismate Donatistarum "ضد الانشقاق الدوناتي" والذي كتبه حوالي سنة 366م.* *-Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp.241-263.*

**-*حاولت جل هذه الوثائق تقزيم جذور الدوناتية على أنها مجرد مناوشات وصراعات شخصية ناتجة عن قلة الوعي لدى أساقفة نوميديا، وإلى غاية الفترة التي كتب فيها "بول مونصو Paul Monceaux مؤلفه: "التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية" H.L.A.C. وخاصة الجزء الرابع عن الدوناتية سنة 1912م، فإن معظم الذين أرخوا للدوناتية كانوا يميلون إلى هذا الرأي الذي لا يسمح بتفسير كيف أحدثت مناوشات بسيطة هذا الانقسام العميق في الكنيسة المسيحية؟ وقد رتب دوشين هذه الوثائق والشهادات ترتيبا كرونولوجيا.* *-Duchesne (L.),Op.cit., pp. 627- 640.*

[1] *-Brisson, Op. cit, pp. 70- 71, 156.*

المنشقين "متخاذلين" (*) (*Traditores*)، وعلى العكس من "المرتدين" (*Lapsi*) (**) والمتخاذلين، صمد عدد من المسيحيين بشجاعة أثناء تلك الأزمة، فأودعوا سجون قرطاجة، وأعدم الكثير منهم.

أما المقرون بعقيدتهم (*Confessores*) فقد اتخذوا موقفا متطرفا من المرتدين والمتخاذلين، ورفضوا التعامل معهم بأي شكل من الأشكال بعد انتهاء الإضطهاد سنة 305م. (***)

وكان من ضحايا هذا الاضطهاد شهداء قرية "أبيتينا" (****) بالقرب من قرطاجة في 12 فيفري سنة 304م، الذين اتهموا بعقد اجتماعات ممنوعة. (1)

فبعدما استنطقوا تعرضوا للتعذيب ثم أودعوا السجن بقرطاجة، حيث قرروا طرد كل المسيحيين المتخاذلين الذين ضعفوا أيام الإضطهادات الكبرى، وأصدروا بيانا عرف

---

*– **Traditores** ، من الفعل اللاتيني : *Trado (Transdo), didi, ditum, ere* بمعنى "سلم إلى" أي عملية تسليم الكتب المقدسة إلى السلطة المضطهدة وقد عرفت في النصوص والمعاجم اللاتينية بـ *Traditio* و"المسلم" *(Traditor)*.
- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, p. 657.

– **Lapsi ، من الفعل اللاتيني : *(Labor, Lapsus Sum)* ويعني "الذين أخطأوا" أو "الذين سقطوا". *- Ibid., pp. 353, 357.*

***– سببت هذه الاضطهادت خلافات حادة بين المسيحيين في المغرب القديم، وذلك بعد اضطهادات الإمبراطور دكيوس "*Décius*" (249-250م).
-Warmington (B.H.), The North African provinces from Dioclétian to the Vandal conquest, Cambridge, 1954, p.78.

****– **أبتينا** : *Abitina/ Avitina/ Abithina* ، مدينة صغيرة في حوض نهر المجردة، هي خرائب "شهود الباطن" حاليا قرب مدينة مجاز الباب بتونس.
- Beschaouch (A.), « Sur la localisation d'Abitina... », C.R.A.I., 1976, pp. 255- 266 ; Toulotte (Mgr.), Géographie de l'Afrique Chrétienne, Numidie, p. 108.

ويتعلق الأمر بأربعة وأربعين (44) شهيدا من تلك المدينة، بما فيهم الكاهن "ساتورنينوس" *Saturninus* وأربعة من أبنائه، حيث أودعوا السجن بقرطاجة، وهناك منعهم كايكيليانوس –وكان إذاك شماس لدى "مونسوريوس" *Mensurius*، أسقف قرطاجة– من الطعام حتى ماتوا جوعا.
- Martroye (F.), Op.cit, p.355.

هؤلاء الشهداء خلدهم نقشين عثر عليهما في عين رقادة *Ain Regada* قرب قالمة.
- Audollent (A.), « Mission épigraphique en Algérie », M.E.F.R., 1890, p.526.

1-*Allard (P.), la persécution de Dioclétien, t. I, IV, pp.261-273.*

بـ "تصريح شهداء أبيتينا" (*Abitina*) واعتبر بمثابة قانون. (*) ويدعو إلى ضرورة انفصال "الشهداء *Martyres*" عن كل المتخاذلين. وطلبوا من كل المسيحيين الأطهار الإلتزام به وتطبيقه. وقد تمخضت الدوناتية ووجدت تبريرها التاريخي من خلال هذا الانفصال، فكان الدوناتيون يدعون دوما أنهم خلف الشهداء وكنيسة الصامدين، وأن خصومهم هم "أبناء المتخاذلين". (**) [1]

وأهم ما جاء في البيان ما يأتي: « ***إن كل من اتحد مع الخونة والمتخاذلين، لن يكون في صفنا، ولن يشاطرنا العيش في ملك السموات.*** » [2]

لقد أحدث هذا البيان صدى مؤثرا في مناطق كثيرة من المغرب القديم وخاصة في نوميديا، وأصبح سلاحا ضد "مونسوريوس" *Mensurius* (***) وأنصاره.

ومنذ أحداث قرية "أبيتينا" سنة 304م بدأ الانشقاق يتسع في الكنيسة الإفريقية، الذي اتضحت معالمه بعد انتهاء الاضطهاد ببضع سنوات (311-312م)، خاصة اضطهادات ديوكليتيانوس التي تركت أثرا عميقا في المغرب القديم، تمثل في حدوث الانشقاق في الكنيسة الإفريقية التي ظلت موحدة كما ذكرت آنفا.

---

*- *اعتبر الدوناتيون هذا التصريح بمثابة قانون، لذلك أثاروه في مناظرة قرطاجة سنة 411م، بعد مرور أكثر من قرن على اضطهادات ديوكليتيانوس.* *- Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 209.*

**- *يعتقد الدوناتيون بأنهم انهزموا بقوة العنف وليس بقوة الحق، هذا هو التبرير الديني والتاريخي الذي كان الدوناتيون والكاثوليك يرجعون إليه، لكن لنا أن نتساءل: هل هذا التبرير يكفي لتفسير نجاح وحيوية الحركة الدوناتية خاصة في أرياف نوميديا التي لم تخضع إلا بقوة القمع الذي مارسته السلطة الزمنية الرومانية. ووجدت تبريرها التاريخي من خلال هذا الانفصال، فكان الدوناتيون يدعون دوما أنهم خلف الشهداء وكنيسة الصامدين، وأن خصومهم هم " أبناء المتخاذلين".* *-Brisson (P.), Op.cit., pp.128- 129.*

1-*Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p. 4.*

2-*Ibid., IV, pp. 12-13.*

- ***مونسوريوس (Mensurius)، *أسقف قرطاجة في بداية القرن الرابع الميلادي، ذكره أوبطا الميلي والقديس أوغسطين، وقد اتهمه الإمبراطور ماكسينتيوس (Maxentius) بعدم تسليم الكاهن فليكس (Félix) ولكي يبرئ ساحته لبى دعوة الإمبراطور بزيارة روما، توفي في طريق عودته من روما سنة 311م.* *-Toulotte (Mgr.) , Op.cit., pp. 84- 85 ; Optat (St.), de Schism. Donatist., I, XVI ; Augustin (St.), Contra Litteras Pétiliani, III, XXV.*

تشير الوثائق –المذكورة آنفا–أن الخلافات كانت عميقة. من ذلك ما ذكرته المصادر عن المجمع الكنسي الذي عقد بمدينة سيرتا [*] (*Concili Cirtensis*) في 5 مارس 305م، لتعيين أسقف جديد للمدينة بعد وفاة الأسقف "بولوس" *Paulus*. [1]

وقد تم انتخاب نائب الشماس "سيلفانوس" *Silvanus* [**] كأسقف جديد لمدينة سيرتا، رغم معارضة الكثير من رجال الدين ووجهاء المدينة، الذين اتهموه بالخيانة. [2]

يبدو أن الردة امتدت أيضا إلى نوميديا، حيث انعقد مجمع سيرتا بقيادة الأسقف "سوكوندوس" *Secundus* بحضور اثنى عشر (12) نوميديا منهم: "دوناتوس" *Donatus* من "ماسكولا" *Mascula* خنشلة حاليا، و"فيكتور" *Victor* من "روسيكاد" *Rusicade* سكيكدة حاليا، و"مارينوس" *Marinus* من"أكوا تبيلتانايي" *Aquae Tibilitanae*"حمام دباغ" قرب قالمة، و"دوناتوس" *Donatus* من كالاما *Calama* "قالمة حاليا"، و"بوربوريوس" *Purpurius* من ليماتا *Limata*، و"فليكس" من روتاريوم *Rotarium* و"نابور" *Nabor* من كونتوريونيس[***] *Centuriones*، وكان معظمهم حديثي عهد بالدوناتية. [3]

اقترح رئيس المجمع– قبل إجراءات السيامة (التعيين)– على المجتمعين ضرورة التأكد من أن كل الحاضرين هم أهل لحضور هذا المجمع، ثم بدأ في مساءلة المتهمين

---

*– يرى بابييه (Papier) أن المجمع انعقد في سيرتا في منزل أوربان كاريزي (Urbain Carisi) في 13 مارس، بينما يرى أوغسطين أنه انعقد في 4 أو 5 مارس في منزل أوربان دونات (Urbain Donat). *Papier (A.), Hammam Meskhoutine (Aquae Tibilitanae), B.A.H., n° 14, 1879, (pp. 107-112), p.109.*

[1] - *Optat (St.), I, 13- 14, d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 13.*

– **سيلفانوس، هو أحد الأساقفة الذين طعنوا في انتخاب كايكيليانوس أسقف قرطاجة، وعينوا مكانه ماجورينوس *Majorinus* الذي خلفه دوناتوس الأكبر *Donatus le grand* ، *-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 28.*

[2] - *Ibid., IV, p. 13.*

– **كونتوريونيس**، هي منطقة " **الكنتور**"حاليا ***El–Kantour ، ذكرت في محاضر القديسين الشهيدين "جاك" و"ماريان" (*Magitratus Centurionum Cirtensium*)، إلى جانب سيرتا، ونستنتج من ذلك أنهما كانتا متجاورتين، وقد عثر على بعض الآثار في موقع الكنتور على بعد حوالي 25 إلى 30 كلم شمال قسنطينة. *-Gsell (S.), A.A.A., f.8, (Philipville), 227; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne, pp.311 -312.*

[3] -*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 13- 14 ; Papier (A.), Op.cit., p.109.*

من الخونة (*Traditores*) والمرتدين (*Lapsi*). وبدأ بتوجيه الإدانة إلى الأسقف "بوربوريوس" من ليماتا (*Purpurius de Limata*)، المتهم بقتل اثنين من أبناء أخيه في مدينة ميلاف (ميلة حاليا) حيث سأله رئيس المجمع: « ***هل تعتقد أنك تخيفني كالآخرين؟*** » ، ويجيب "بوربوريوس" :« ***وأنت ماذا فعلت أمام الحاكم والقنصل اللذان أمرا بجمع الكتب المقدسة؟ كيف تمكنت من الإفلات منهم، لو أنك لم تسلم كل الكتب المقدسة؟*** » ، فرد عليه قائلا: « ***نعم لقد قتلت، وسأقتل كل من يزعجني، لا تستفزني أكثر من ذلك لأنني لن أرحم أحدا .*** » [1]

وأهم ما يلفت الانتباه في مجمع سيرتا، ذلك الانشقاق الذي كاد أن يحدث إثر محاولة "سكوندوس" التحقيق مع الأساقفة الحاضرين في هذا المجمع حول مواقفهم من الاضطهاد. حيث اضطر "سكوندوس" كبير أساقفة نوميديا أمام إصرار الأساقفة على الانفصال في حالة مواصلة التحقيق معهم، إلى غض النظر عن مشكلة الارتداد قائلا: « ***إنكم تعرفون بعضكم بعضا، والله يعرفكم*** » ، ويجيبه الجميع:« ***الحمد لله.*** »[2]

أصبح الأساقفة المجتمعون في سيرتا سنة 305م بعد سبع سنوات فيما بعد مؤسسي الكنيسة المنشقة الأساسيين. لا شك أنهم قد استعملوا لغة أخرى في سنة 312م حينما قاموا بسيامة أسقف قرطاجة، وقد أطلقوا على أنفسهم آنذاك اسم "القديسين" (*les Saints*) و"الأطهار" (*les Purs*). [3]

وهكذا تكرس الانشقاق في الكنيسة الإفريقية –كما ذكرت آنفا– منذ سنة 312م تاريخ انعقاد مجمع قرطاجة الذي حضره سبعون (70) أسقفا نوميديا بمنزل "لوكيلا" (*Lucilla*) بقرطاجة، الذين أعلنوا عدم شرعية انتخاب "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) مبررين ذلك بغيابهم عن الاجتماع، ورفضهم العمل بالإجراءات المتبعة في الكنيسة. مما

1-*Duchesne (L.), Op.cit, P. 629.*
2-*Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 27, 31 ; d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 14 ; Optat (St.), I, 13- 14.*
3 -*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 14.*

اعتبر خرقا للأعراف والتقاليد الإفريقية، التي تقضي بتعيين أسقف قرطاجة من طرف كبير أساقفة نوميديا. علاوة على ذلك اتهم "فليكس الأبتونجي" (*Félix d'Aptonge*) الذي أشرف على سيامة (تعيين) "كايكيليانوس"، بتسليم الكتب المقدسة أثناء فترة الاضطهاد الديني سنة 304م في عهد "ديوكليتيانوس" حيث اعتبر مرتدا ومتخاذلا، ولا يجوز له –حسب رأيهم– تعيين وسيامة "كايكيليانوس". (1)

المبحث الثاني: ظهور الحركة الدوناتية وبداية الصراع الدوناتي الكاثوليكي:

كانت بداية التحول في تاريخ الكنيسة في المغرب القديم وظهور الحركة الدوناتية بوفاة "مونسوريوس" أسقف قرطاجة سنة 311م أثناء عودته من روما. (2) وكان قد لبى دعوة رسمية وجهت له من قبل الإمبراطور، وقبل أن يسافر عزم على أن يضع كنوز الكنيسة في مكان آمن، بعد أن وضع قائمة جرد، عهد بها إلى امرأة عجوز وطلب منها أن تسلم هذه الوثيقة إليه بعد عودته أو إلى من سيخلفه.

والتقى "مونسوريوس" بالإمبراطور ومجموعة من الأمراء، بروما وهو حدث غير مسبوق في علاقة السلطة الزمنية بالمسيحية. لكن بعد وفاته بدأت مشكلة البحث عن خليفة له –في ظل مكائد ومؤامرات–وتسبب ذلك في صراع حول الكرسي الأسقفي تطور فيما بعد إلى انشقاق في الكنيسة الإفريقية. (3)

وهكذا عين "كايكليانوس" (*Caecelianus*) أسقفا جديدا لقرطاجة، وقد كان شماسا (*Diaconus*) لدى "مونسوريوس"، غير أن هذا التعيين ("السيامة" *Ordinatio*) تم في غياب كبير أساقفة نوميديا، مما يعد خرقا للأعراف والتقاليد الكنسية المعمول بها في المغرب القديم.

---

[1] - *Augustin (St.), Contra Epistolam Parmeniani, I, 1, 5.*
[2]- *Optat (St.), I, 17.*
[3]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 17.*

وتوجه "سكوندوس" جثليق نوميديا (*Episcopus Primae Sedis*) إلى قرطاجة للاحتجاج على هذا الخرق رفقة مجموعة من الأساقفة النوميد وطعنوا في سيامة "كايكيليانوس"، لكونها تمت - حسب اعتقادهم- على يد شرذمة من الأساقفة المتخاذلين إبان الاضطهاد. [1]

عجز "كايكيليانوس" وفي مدينة قرطاجة نفسها، عن تحقيق الإجماع بحيث اتهمه المتطرفون القرطاجيون بسوء معاملته للمسيحيين السجناء خلال فترة الاضطهاد. حيث كان يقوم بحراسة السجون، وكان يمنع إخوانهم في الدين من زيارتهم ومواساتهم في سجون قرطاجة. [2] وترك المقرون بعقيدتهم يموتون جوعا في السجن، لذلك لقب بالجلاد "*Eudinepisus*" وهو لقب معيب وشائن ذو أصول لغوية بونية.

يتضح مما سبق أن مصالح المتطرفين القرطاجيين المناوئة لـ"كايكليانوس"، مع ادعاءات الأساقفة النوميديين، كرست الانقسام والانشقاق في الكنيسة الإفريقية.

ووجهت الاتهامات إلى "فليكس" *Felix* (*) أسقف "أبثوكني" (**) *Abthugni* بالخيانة والتخاذل أثناء الإضطهادات. [3] وإلى الكاهنين "بطرس" (*Botrus*) "وكايلستيوس" (*Caelestius*) بقرطاجة والمتهمين بتعيين وسيامة "كايكيليانوس" أسقفا جديدا لقرطاجة. [4]

---

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 16- 17.*

[2]- *Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 126-127 ; Raynal (D.), « Culte des martyres et propagande Donatiste à Upenna », C.T., T.XXI, n° 81- 82, 1973, pp. 46- 47.*

*- إن التركيز على الأسقف **فليكس** بالذات كان يعتمد - دون شك- عل حجج دامغة، ولكن التحقيق الذي أمر "قسطنطين" بإجرائه في شأن تهمة "التسليم" الموجهة ضده - برأ ذمته- سنة 315م حسب محضر التحقيق، عن قضية "فليكس الأبتوكني" أنظر: *- Lamirande (E.), Note complémentaire 8 : l'enquête sur Félix d'Aptonge, B.A., 32, pp. 698- 699.*

- خرائب **أبتوكني ***Abthugni***، هي مدينة صغيرة مجاورة لمدينة قرطاجة تعرف حاليا باسم "هنشير السوار" *(Hr.Es-Souar)* جنوب مدينة زغوان بتونس. *- Toulotte (Mgr.), Op.cit, pp. 113- 114 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., P.277 ; Babelon (M.), A.A.T., f. XLII, djebel Fkirine, 52.*

[3]- *Jacques-Paul (Dir.), Pluquet (l'abbé J.-Jh. Claris), Op.cit., pp. 646- 647.*

[4]- *Optat (St.), I, 19 ; Mourre (M.), Dict. encyclopédique d'histoire, Bordas, 1978, p.1408.*

وهكذا توجه سبعون (70) أسقفا نوميديا إلى قرطاجة في سنة 312م وانتخبوا الأسقف "ماجورينوس" (*) (*Majorinus*) أسقفا لكنيسة قرطاجة، بعد إدانة الشماس "كايكيليانوس" وعدم الاعتراف بشرعيته على كرسي الأسقفية، [1] وأمروه بالمثول أمام المجمع لمحاكمته بتهمة الخيانة وتقديم الكتب المقدسة إلى السلطة الرومانية. [2] لكنه رفض وأصر على شرعيته، هذه الشرعية التي رفضها القساوسة النوميديين، الذين وصفهم القديس أوغسطين بأنهم: «***زمرة هائجة وثملة بكأس الخطيئة والفساد الذي شربته ضد كايكيليانوس، لإصدار حكم أعمى دون الاستماع إلى المتهمين.*** » [3]

من هنا بدأ الانشقاق في الكنيسة الإفريقية والذي أخذ يكتسي طابع العلنية وينتشر في كامل المغرب القديم، [4] وإن كانت جذوره تعود إلى أحداث قرية أبتينيا سنة 304م.

وتذكر المحاضر الرسمية بخصوص المفاوضات التي دارت بين "كايكيليانوس" والقساوسة النوميديين الذين وجهوا له التهم، أنه حاول تبرئة ذمته وطلب منهم أن يقدموا أدلة إدانته إن كانت لديهم أدلة. [5]

وتشير المحاضر أن امرأة غنية من أصول إسبانية تدعى "لوكيلا" (**) (*Lucilla*) لعبت دورا هاما في عدم الاعتراف بانتخاب "كايكيليانوس" وسيامته وتعيين

---

*\- **ماجورينوس Majorinus**: أسقف دوناتي اشتهر بالخطابة والفصاحة، انتخب أسقفا لمدينة قرطاجة بعد إدانة كايكيليانوس، لم يذكره أوبطا الميلي بعد انتخابه وسيامته سنة 312م، أما أوغسطين فقد ذكر أنه لا زال على قيد الحياة حتى سنة 313م، ويرجح أنه مات أثناء انعقاد مجمع روما في 2 أكتوبر 313م. - Optat (St.), I, 19 ; Augustin (St.), Epist. 43, 5, 16 ; Dictionnaire des Hérésies, p. 648.*

[1]- *Optat (St.), I, 19.*

[2]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 19.*

[3]- *Augustin (St.), Lettres, XLIII, 215- 216.*

[4]- *Gsell (S.), L'Algérie dans l'Antiquité…, p. 113.*

[5]- *Optat (St.), I, 19- 20.*

***- **لوكيلا** أو **لوسيلا (Lucilla)**، امرأة قرطاجية من أصول أسبانية، وحسب ما ذكره أوبطا الميلي فإن سبب الخلاف بينها وبين كايكليانوس يعود إلى غضب لوكيلا من مطران قرطاجة، التي لم تتقبل نصائحه بعدم تقبيل عظم بشري تعتقد أنه لشهيد، وكان المطران منشغل بتنظيم وتقنين عبارة "رفات القديسين"، ويتهمها أوغسطين بأنها قامت بشراء ذمم أساقفة نوميديا لإدانة كايكيليانوس وتعيين ماجورينوس. - Optat (St.), I, 16 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 15- 16 ; Augustin (St.), Lettres, XLIII, 218- 228.*

القارئ "ماجورينوس" مكانه. وذلك بعقد المجمع المناهض له في بيتها بقرطاجة سنة 312م، والذي تحول إلى مقر لحبك الدسائس وعقد اجتماعات الساخطين. [1] وقد حضره سبعون (70) أسقفا نوميديا، وبعض زعماء بروتوكول سيرتا (305م).

وإذا كان "أوغسطين" قد اتهم [*] "لوكيلا" في حوالي سنة 400م – استنادا إلى تحقيقات جرت بعد سيامة "ماجورينوس"– بأنها قامت بشراء ذمم بعض قساوسة المجمع، واستطاعت أن تحقق هدفها بإدانة "كايكيليانوس" وانتخاب "ماجورينوس". [2]

فإن "مارتروي" (*Martroye*) أرجع الخلاف بين "كايكيليانوس" و"لوكيلا" إلى أحقاد شخصية، حيث قامت هذه الأخيرة بتحريض النوميديين ضد "كايكيليانوس" الذي يكون قد عاتبها فيما مضى حينما كان شماسا. [3]

وحسب اعتقادي فإن تلك الخلافات بين "كايكيليانوس" و"لوكيلا" قد لا تعود إلى أحقاد شخصية ودوافع ذاتية، بقدر ما هي خلافات عميقة بين كنيسة نوميديا وكنيسة قرطاجة بزعامة "مونسوريوس" ثم "كايكيليانوس" فيما بعد، والمتهمين بالخيانة والتواطؤ والتخاذل أثناء فترة الاضطهاد، وبتسليم الأواني والكتب المقدسة إلى السلطة الرومانية.

وبعد وفاة "ماجورينوس" أثناء انعقاد مجمع روما سنة 313م، [4] خلفه الأسقف "دوناتوس الأكبر" [**] (*Donatus*)، الذي أعطى اسمه للدوناتيين (*Donatismus*) وكان يملك صفات القائد، فأسس ودعم – باستعمال كل الوسائل– الكنيسة الجديدة.

---

[1] - *Optat (St.), I, 18- 19.*

– جاءت تلك الاتهامات في كتابه : "ردا على رسالة بارمينيانوس" Contra Epistulam Parmeniani الزعيم الدوناتي (362–392م) ، وهو أحد كتب أوغسطين ضد الكنيسة الدوناتية. - Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp. 165-219.

[2] - *Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., 43, 6,17 ; Contra Cresconium, III, 28- 29.*

[3] -*Martroye (F.), « une tentative de révolution, sociale en Afrique, Donatistes et circoncellions », R.Q.H., T.32, 1904, p. 361.*

[4] - *Optat (St.), III, 3.*

***– **دوناتوس: (Donatus)**، أكد الدوناتيون في مناظرة قرطاجة سنة 411م أن هناك شخصين يدعيان دوناتوس، الأول دوناتوس "الديار السوداء" Donatus Casae Nigrae من مدينة بغاي Bagai (قرب خنشلة حاليا) بنوميديا =*

وقد اعتبر "دوناتوس" الكنيسة الجديدة هي الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية، (1) وسماها "كنيسة الشهداء". (2) وبذلك ظهرت الحركة الدوناتية التي حملت اسمه والتي عرفت أيضا بـ "حزب دوناتوس" (*Pars Donati*). (3)

وهكذا انقسمت الكنيسة المسيحية وتكتل كل فريق لمواجهة الفريق الآخر، فتزعم "كايكيليانوس"(*) (*Caecelianus*) الكنيسة "الكاثوليكية"، وهي حليفة السلطة الزمنية، أما الكنيسة "الدوناتية" فترأسها الأسقف "دوناتوس"(**) (*Donatus*)

وسرعان ما دعمت السلطة الزمنية الكنيسة الكاثوليكية بشكل عام، (***) في حين اضطهد معظم الأباطرة الرومان الكنيسة الدوناتية. (****)

= *وهو الذي صدر في حقه أول حكم ضد الدوناتية في مجمع روما سنة 313م، والثاني دوناتوس "الأكبر" المعروف بالقرطاجي Donatus le Grand الزعيم الدوناتي الذي نظم وقاد الكنيسة الدوناتية لمدة 40 سنة إلى غاية وفاته حوالي سنة 355م.* - *Optat (St.), De Schism. Donatist., I, 22 ; Martroye (F.), Op.cit., p. 368.*

لكن بعض المؤرخين المحدثين يتفقون على شخص واحد يحمل هذا الاسم ومنهم:

- *Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, Op.cit., p. 237.*
- *Warmington (B.H.), The north African provinces…, Op.cit., pp. 78- 79.*
- *Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p. 100 et S.,*
- *Monceaux (P.), « les premiers temps du donatisme et la Question des deux Donat », in C.R.A.I., n° 1, 1916, p.50.*

1- *Augustin (St.), Epist., 88, 2.*

2- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.20.*

3- *Optat (St.), I, 22, 26; Augustin (St.), Contra. Cresconium, II, 1, 2 ; IV, 6, 7.*

- ظل كايكيليانوس على رأس أسقفية قرطاجة إلى غاية وفاته سنة (337م- 340م) وخلفه "روفوس" Rufus الذي توفي حوالي سنة 342م- 343م. - *Maier (J.L.), l'épiscopat de l'Afrique Romaine, Vandale et Byzantine, Bibliothéca Helvetica Romana, XI, Institut Suisse de Rome, 1973, p. 95.*

**- *بقي دوناتوس الأكبر على رأس أبرشية قرطاجة إلى غاية 347م حيث نفي، ومكث في المنفى حتى توفي في حوالي سنة 355م، وظل منصبه شاغرا إلى أن خلفه بارمنيانوس Parmenianus خلال الفترة (363م - 392م)، وكان بريميانوس Primianus – الذي جاء بعده مباشرة- آخر أسقف دوناتي بقرطاجة، وهو الذي شارك في مناظرة قرطاجة سنة 411م، التي انتهت بتحريم الدوناتية.* - *Brisson (J.P.), Op.cit, p. 247.*

***- *بعث قسطنطين Constantin – بعد انتصاره مباشرة على ماكسنتيوس Maxentius سنة 312م في معركة جسر "ملفيوس" (Melvius)- رسالتين إلى بروقنصل Proconsul إفريقيا وإلى كايكيليانوس يبلغهما فيهما قراره بتصفية اضطهاد المسيحيين وبإرجاع الممتلكات إلى الكنيسة التي يتزعمها كايكيليانوس.* - *Eusèbe, Histoire Ecclésiastique, X, 5, 15- 17.*

****- *إذا ما استثنينا بعض الفترات القصيرة (من 361 إلى 363م) على عهد يوليانوس (Julianus) المرتد، ومن 364 إلى 371م في عهد فالنتينيانوس (Valentinianus) وفي سنة 378م على عهد فالانس (Valens) وفي سنة=*

واتجه كل فريق إلى الدفاع عن وجهة نظره وقناعاته، فالدوناتيون سعوا بكل الوسائل إلى إلصاق التهم بالكاثوليك، والكاثوليك سعوا بدورهم إلى نعت الدوناتيين بكل النعوت التي تجعلهم خارجين عن الكنيسة. وأدى هذا الصراع إلى الصدام الفكري خاصة وأن الدوناتيين رفضوا- في أغلب الأحيان- المناظرة المباشرة مع الكاثوليك الذين كانوا يصفونهم بالمتخاذلين والمضطهدين. (*)

وقد رفض الدوناتيين حضور مناظرة قرطاجة سنة 411م- التي قرر الإمبراطور نفسه عقدها بين الكاثوليك والدوناتيين- إلا مرغمين وتحت التهديد. وأدى ذلك إلى تطور الجدل الكلامي بين مفكري الكنيستين، وبروز شخصيات فذة ومفكرين من هذا الجانب أو ذاك، بعضهم لعب أدوارا أساسية في تطور الفكر المسيحي برمته، ونقصد بذلك على الخصوص القديس "أوغسطين"، (**) والفقيه الدوناتي المنشق " تيكونيوس". (***)

والواقع أن تلك المناظرة تعد حدثا بارزا في تاريخ المسيحية في المغرب القديم، إلا أن الدوناتيين لم يكونوا متحمسين لها، وهم الذين مروا بتجارب عديدة سابقة تعاملوا فيها مع الكاثوليك ومع السلطة الزمنية، التي أصدرت في حقهم قوانين ومراسيم عديدة. وأيقنوا أن هذه السياسة التقليدية لن تنطلي عليهم، وهم يعلمون كذلك أن المحافظ الذي سيترأس

=410م على عهد "هونوريوس"، فإن الكنيسة الدوناتية كانت معرضة للاضطهاد مبدئيا على الأقل، خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد، لكن فترات الاضطهاد الحقيقي كانت قصيرة (316، 347، وبعد 411م). - Martroye (F.), La répression du Donatisme et la politique religieuse de Constantin et de ses successeurs en Afrique, M.S.N.A.F., 1914, pp. 23- 140.

**-حاول القديس "أوغسطين" مرارا عقد مناظرات ومساجلات شفوية أو كتابية مع بعض الأساقفة الدوناتيين، ولكنه في غالب الأحيان لم يتمكن من ذلك. : - Lancel (S.), Actes de la Conférence de Carthage en 411, T. I : Introduction, S.C., n° 194, Paris, 1972, pp. 9- 25.*

***- دفعت المساجلة الكلامية مع الدوناتيين "أوغسطين" إلى إعادة التفكير في مشكل الكنيسة والأسرار ككل. عن هذا الجانب اللاهوتي يمكن الرجوع إلى المقدمة التي وضعها "كونغار" لكتاب "أوغسطين" عن الدوناتية. - Congar (Y.M.J.), B.A., 28, pp. 80- 124 ; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 84.*

****- يعد الفقيه الدوناتي "تيكونيوس" Tyconius من الشخصيات الدوناتية التي كان لها تأثير على الفكر اللاهوتي المسيحي، الذي انفصل عن الدوناتيين، لكنه لم يلتحق بالكاثوليك، والذي كان له تأثير على القديس " أوغسطين". - Congar (Y.M.J.), Note complémentaire n° 10, « Parmenianus et Tyconius », B.A., 28, pp. 718- 721.*

المناظرة كاثوليكي، ومع ذلك قرروا خوض تلك المغامرة، خاصة بعد أن طمأنهم "ماركيلينوس" (*Marcellinus*) بأنه سيكون متجردا ونزيها.

استغرقت تحضيرات المناظرة مدة طويلة بلغت حوالي ستة أشهر(*) من تاريخ أول مرسوم أصدره المحافظ "ماركيلينوس" في 19 جانفي411م دعا فيه للمناظرة، إلى تاريخ انعقادها في 1 جوان411م. (1)

حاول المحافظ الإمبراطوري "ماركيلينوس" –بهدف حمل الدوناتيين على المشاركة في جلسات هذه المناظرة –التملق للمنشقين، فوعدهم بإعادة الكنائس والممتلكات إلى كل الأساقفة الذين يبدون رغبتهم للمشاركة في مناظرة قرطاجة. (2)

يبدو أن المحافظ نجح في مسعاه، ذلك أن"بريميانوس" (*Primianus*) الزعيم الدوناتي نفسه المعروف بتشدده، تخلى عن عناده ودعا في رسالة وجهها الى كل الأساقفة الدوناتيين للمشاركة في المناظرة.

يظهر أن هناك تقارب بين ممثلي المقاطعات الكنسية الممثلة في مناظرة قرطاجة (الخريطة رقم 5 ص 399) أي مندوبي الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الدوناتية في هذا المؤتمر، الذي افتتح أشغاله (**) في 1 جوان سنة411م بمدينة قرطاجة.

---

* – *تبدأ هذه المدة من صدور المرسوم الذي أعلنه "ماركيلينوس" في 19 جانفي 411م إلى 1 جوان 411م تاريخ انعقاد المناظرة، وكانت هذه الفترة حافلة بالأحداث: كتعيين مساعدي رئيس المؤتمر، واستقبال الوفود المشاركة، وانتخاب المندوبين، وتوجيه العرائض والرسائل إلى المحافظ الإمبراطوري "ماركيلينوس". وفي18 ماي دخل الأساقفة الدوناتيين مدينة قرطاجة في موكب رسمي، كما حضر أيضا الأساقفة الكاثوليك، وفي 20 ماي أصدر"ماركيليونس" مرسومه الثاني يحدد فيه مكان انعقاد المؤتمر وتاريخه والإجراءات المتعلقة بالمناظرة، وفي 25 ماي اجتمع الأساقفة الدوناتيين وحرروا عريضة أرسلت إلى رئيس المؤتمر كإجابة على المرسوم الثاني تضمنت بعض التحفظات، ثم انتخبوا مندوبيهم وأبلغوهم التعليمات والأوامر (Mandatum).*

- Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 3, 4, 5, 7; II, 3; Epist., CXXVIII, 2.

[1]- *Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 1.*

[2] - *Augustin (St.), Brevic. Collat., I, 2; II, 3.*

**– *انعقد المؤتمر في قاعة واسعة وفاخرة في مدينة قرطاجة تعرف باسم (Thermae Gargilianae) ويبدو من اسمها أنها كانت منطقة غنية بالحمامات المعدنية.*

- Augustin (St.), Brevic. Collat.,, I, 14.

ويشير "أوغسطين" في كتابه:" **ملخص محضر المناظرة مع الدوناتيين**" (*) (*Bevicus collationis cum Donatistis*) أن المؤتمر ترأسه السيناتور "ماركيلينوس" (*Marcellinus*) بمساعدة فريق من المحضرين القضائيين وكتاب المحكمة (*Notarii*) ومندوبي (*Actores*) الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية. واستغرقت أشغال المؤتمر (**) ثلاثة جلسات (1–8 جوان 411م) بإدانة صريحة للدوناتية.

وهي إدانة نظرية مبدئيا، حيث سارع المحافظ الإمبراطوري "ماركيلينوس" بأمر من الإمبراطور "هونوريوس" إلى إصدار مرسوم حظر وإلغاء الدوناتية رسميا في 26 جوان سنة 411م ونشر هذا المرسوم في قرطاجة. [1]

حاول الدوناتيون استعمال جميع الطرق لتأخير التصريح بالحكم، كتحرير مقالات النقد، وخطب الوعظ، وشنوا حملة ضد الكاثوليك وضد رئيس المؤتمر "ماركيلينوس" الذي اتهموه بالارتشاء والتحيز والمحاباة. [2]

**– لما كان محضر مناظرة قرطاجة الذي كتب وقائعه قاضي المؤتمر "ماركيلينوس" طويلا، فقد سهر أوغسطين على تلخيصه لتسهيل قراءته وتوجيه الرأي العام، ويعد الكتاب مصدرا هاما لمعرفة وقائع جلسات المؤتمر. وقد كتبه بعد انتهاء المناظرة في سنة 411م.*

***– دار نقاش حاد بين الكاثوليك والدوناتيين استمر مدة ثمانية أيام (1–8 جوان 411م) في ثلاث جلسات وتتلخص أهم محاور هذا النقاش في الآتي :*

أ–صحة أو بطلان التهم الموجهة إلى الأساقفة الكاثوليك والتي تتعلق بالتخاذل والضعف أثناء فترة الإضطهادات الكبرى في عهد ديوكليتيانوس (Dioclétianus) 303–304م وقضية الارتداد وتسليم الكتب والأواني المقدسة.

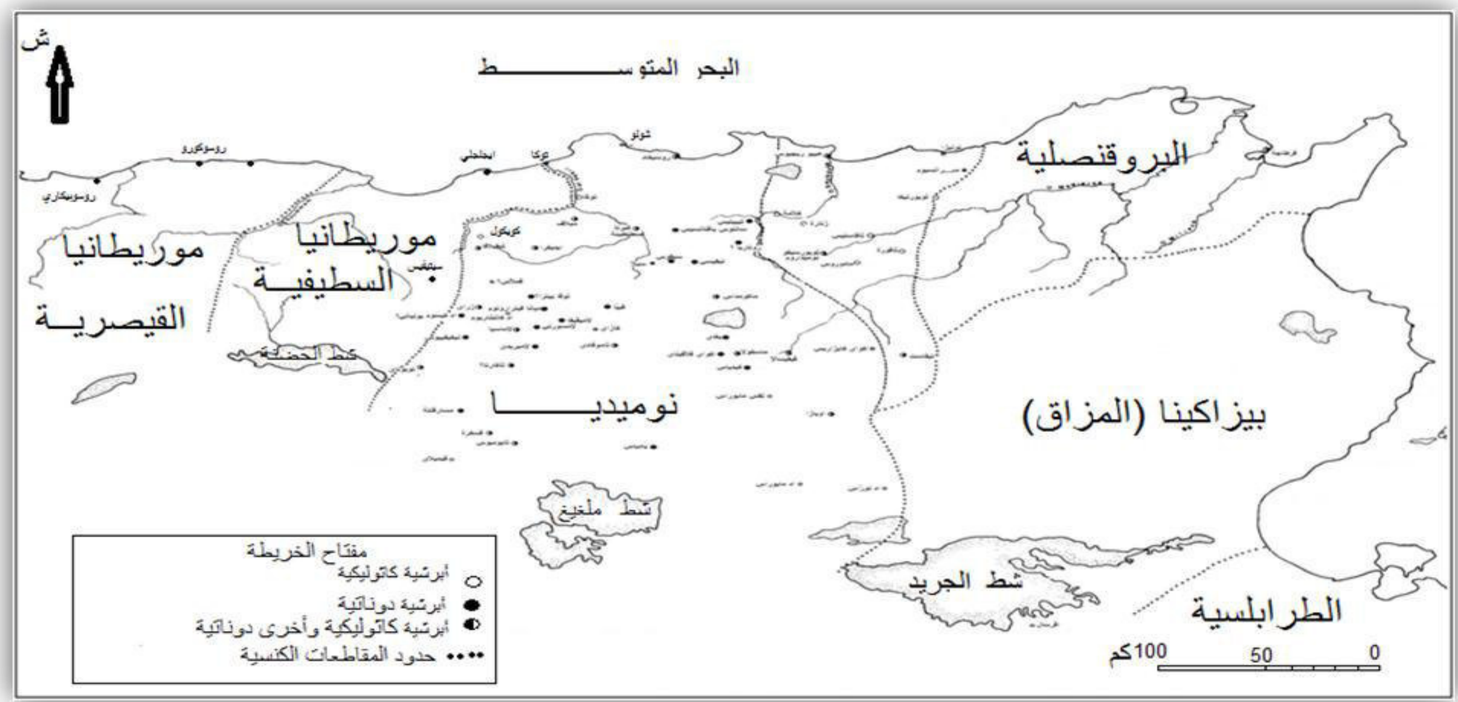
***ب**–أين توجد الكنيسة الحقيقية؟ هل هي الكنيسة الدوناتية أو الكنيسة الكاثوليكية؟*

***ج**–احتجاج ممثلي الكنيسة الدوناتية على اضطهاد السلطة الزمنية لهم.*

***د**–احتجاج ممثلي الكنيسة الدوناتية على العرائض التي تقدم بها الكاثوليك ودعم السلطة السياسية لهم.* - *Actes de la conférence de Carthage en 411, édition de Serge Lancel, Tome III, Paris, Sources chrétiennes, 1972-1975, pp.929, 997.*

1 - Augustin (St.), Brevic. Collat., III, 2, 2.

2-Augustin (St.), Epist., CXLI1,12; Brevic. Collat., III, 18, 36; Julien (Ch. A.), Op. cit., p.224.



خريطة رقم 5: المقاطعات الكنسية الممثلة في مناظرة قرطاجة سنة 411م. (ترجمة الطالب الباحث)

<u>نقلا عن:</u> **-P. Morizot , A. Nasraoui** *,A propos des ruines de la vallée de Mellagou (Aurès, Algérie). Les vestiges chrétiens de Baïnou et la mosaïque découverte à Bouzouamel., <u>C.R. A. I.</u>, 145e année, n°2, 2001, (pp. 877-892.), p.887.*

واستنجدوا بالإمبراطور "هونوريوس" الذي أصدر قانونا في 30 جانفي سنة 412م. (*) واعتبر بمثابة شهادة وفاة الدوناتية، إذ يعترف الإمبراطور ورئيس المؤتمر – من خلال هذا القانون– أن الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة الحقيقية الرسمية الممثلة للمسيحيين. ويأمر بإعادة الكنائس الدوناتية إلى الكاثوليك، ومنع الدوناتيين من حقهم في الاجتماع والعودة إلى الكنيسة الأم التي انفصلوا عنها وإلا صودرت أموالهم وممتلكاتهم وتعرضوا للتعذيب والنفي. [1]

ثم كلف الإمبراطور –لمتابعة إجراءات التنفيذ–حكام إفريقيا بضرورة تحريك قضاة المدن لدعم الأساقفة الكاثوليك في مطالبتهم باستعادة الكنائس، والسهر على التطبيق الحرفي للقوانين. لذلك قام حكام المقاطعات بإصدار قوانين تصب في هذا الاتجاه– مثل المرسوم الذي أصدره "ماكيدونيوس" (*Macedonius*) كاهن إفريقيا سنة 414م الذي يتضمن إعادة الكنائس الدوناتية إلى الكاثوليك، ودعوة الدوناتيين إلى العودة إلى الكنيسة الأم. [2]

والحقيقة أن هذه الإجراءات تذكرنا بأولئك الوكلاء والمبعوثين الإمبراطوريين الذين كانت السلطة السياسية ترسلهم إلى المغرب القديم ليسهروا على تنفيذ القوانين والمراسيم الإمبراطورية مثل المحافظين "بولوس" (*Paulus*) و"ماكاريوس" (*Macarius*) في منتصف القرن الرابع الميلادي. وقد دفعهم حماسهم المبالغ فيه إلى اضطهاد وقمع السكان خاصة المنشقين الذين رفضوا هباتهم وتبرعاتهم.

وصل إلى المغرب القديم وكلاء التنفيذ (*Executores*) والمحافظين الإمبراطوريين، الذين كلفوا بتنفيذ القوانين ضد الدوناتيين وكانوا يتنقلون من كنيسة لأخرى ومن معبد

*- نص قانون 30 جانفي 412م على الآتي: إلغاء كل إجراءات التسامح السابقة، دعوة كل المنشقين بالعودة إلى الكاثوليكية، فرض غرامات مالية على كل المخالفين، مصادرة الممتلكات، فرض العقاب الجسدي على العبيد والكولون، نفي رجال الدين ومنح ممتلكات وكنائس المنشقين إلى الكاثوليك. *Cod.Theod., XVI, 5,52 ; Augustin (St.), Epist., CXXCV, 9,36.*

[1]- *Actes de la conférence de Carthage en 411, Introduction de Serge Lancel, t. I, p.102.*

[2] -*Augustin (St.), Epist., CLV, 4, 17.*

لآخر دعما للكاثوليك. وكان "ماركيلينوس" رئيس مناظرة قرطاجة في سنة 411م أول هؤلاء المحافظين. حيث بقي في المغرب القديم لمدة سنتين بعد المناظرة، إلى أن خلفه "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) الذي أصدر مرسوما في سنة 413م ضد الدوناتيين يتضمن إستعادة الكنائس وتحقيق الوحدة الدينية. [1]

والواقع أن الأساقفة الكاثوليك لم يتعجلوا في تحقيق الوحدة الدينية، خاصة في المناطق التي كان المنشقون يمثلون فيها الأغلبية. فحينما يقوم محافظ إمبراطوري بدعم الكاثوليك، فإن المجامع الكاثوليكية تتدخل أيضا لتهديد المخالفين والرافضين لإعادة الكنائس بالحرمان والخلع.

ورغم ذلك، فإن الدوناتيين نجحوا في الانتقام من الرجل الذي أثار الاضطهاد ضدهم. إنه "ماركيلينوس" رئيس مناظرة قرطاجة سنة 411م، وانتهزوا فرصة محاولة "هيراكليانوس" (*Heraclianus*) كونت إفريقيا وقائد الفرق العسكرية الرومانية، الانفصال عن السلطة المركزية في إيطاليا، التي كلفت الكونت "مارينوس" (*Marinus*) بالقضاء عليه. فقام الدوناتيون باتهام "ماركيلينوس" وأخوه البروقنصل "أبرينجيوس" (*Apringius*) بالتواطؤ مع "هيراكليانوس"–وكانوا على علم بعلاقتهم السيئة مع مارينوس– فأوقفوا وحوكموا بسرعة، ورغم تدخل الأساقفة الكاثوليك والتماسهم العفو من الإمبراطور إلا أنهم أعدموا في 13 سبتمبر سنة 413م.[2]

لاشك أن الدوناتيين هم الذين بلغوا عن "هيراكليانوس" ظنا منهم أن هذه الإدانة إنما هي نتيجة حتمية لأفعاله. [3] لذلك طالبوا بإلغاء الحكم الصادر ضدهم سنة 411م وكل القوانين التي تنص على حظر وتحريم الدوناتية. [4]

---

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 87-88.*
[2]- *Augustin (St.), Epist., CLVI, 3-9.*
[3]- *Orose (P.), Adversus paganos, VII, 42.*
[4]- *Cod. Theod., XVL, 5 ,55.*

سارع الإمبراطور – في تلك الأثناء– إلى اتخاذ إجراءات جديدة ضد المنشقين فأصدر قانون 21 مارس سنة 413م يؤكد فيه القوانين السابقة ضد الدوناتية، خاصة تلك المتعلقة بإعادة التعميد. (1) وفي 17 جوان سنة 414م أصدر قانونا آخر موجه إلى"يوليانوس" (*Iulianus*) بروقنصل إفريقيا ينص على تجريد وحرمان المنشقين من حقوقهم المدنية، وإعادة كنائسهم إلى الكاثوليك، ونفي أساقفتهم، وفرض غرامات مالية على المخالفين حسب رتبهم، والعقاب البدني على العبيد والمعمرين. (2)

ووجه قانونا آخر إلى نفس البروقنصل في 30 أوت سنة 414م حدد–خصيصا– أن إدانة وإعدام "ماركيلينوس" لا تمنع من تطبيق الحكم القضائي الصادر سنة 411م، وأن ذلك لن يغير شيئا في الإجراءات المتخذة ضد الدوناتيين. (3)

ثم أمر الإمبراطور في 25 أوت سنة 415م بإعادة نشر قانون سنة 410م (*) في قرطاجة. (4) وفي 6 نوفمبر سنة 415م أضاف إليه بندا يتعلق بمتابعة كل المتعصبين الذين يمارسون إعادة التعميد بمصادرة منازلهم وأماكن اجتماعاتهم ونفي كل من يعمد ثانية، ومنع المنشقين من تلقي الهبات والتبرعات والميراث. (5)

1- *Cod. Theod., XVI, 6, 6.*
2- *Cod. Theod., XVI, 5,54*
3- *Cod. Theod., XVI, 5, 55.*

– ينص هذا القانون على إلغاء مرسوم التسامح ويفرض الحظر والحكم بالإعدام على المنشقين الدوناتيين الذين يعقدون اجتماعات محظورة. وقد أصدر الإمبراطور"هونوريوس" هذا القانون استجابة لمطلب تقدم به مجمع قرطاجة في 14 جوان سنة 410م بإلغاء مرسوم التسامح والدعوة إلى عقد مؤتمر عام يجمع الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية.
- Monceaux (P.), H.L.A.C, VI, p.261.

4- *Cod. Theod., XVI, 5,56.*
5- *Cod. Theod., XVI, 5,58*

تلك هي آخر القوانين التي أصدرها الإمبراطور"هونوريوس" ضد الدوناتيين والمنشقين، لكن بعد ذلك بعشر سنوات أصدر خليفته الإمبراطور "فالنتيانوس الثالث" (*) (*Valentinianus III*) قوانين جديدة (**) منذ سنة 425م تاريخ توليه العرش.

يبدو أن القوانين السابقة أصبحت حقا مكتسبا، لذلك حرضت وأثارت حماس الوكلاء والمحافظين الإمبراطوريين لمطاردة الدوناتيين. وكان الأساقفة الكاثوليك من جهتهم، يبحثون عن أنجع الطرق لاستكمال الوحدة الدينية. ومن هذه الطرق إعادة تنظيم جماعاتهم وطوائفهم التي تزايدت نتيجة الاهتداءات الكثيرة، وإيجاد الحلول المناسبة لانعدام التوافق بين أساقفة الفريقين الدوناتي والكاثوليكي.

لأجل ذلك انعقد مجمع بيزاكينا (*Byzacena*) في 24 فيفري سنة 418م الذي أعاد إلى التذكير أن المصالحة مع المنشقين المهتدين والذين عادوا إلى الكنيسة الكاثوليكية سيكون فقط بوضع اليدين على الرأس(للتبريك). (1)

وبحثا عن هذه الحلول انعقد مجمع آخر في قرطاجة في 1 ماي سنة 418م واتخذ جملة من الإجراءات الهامة تتعلق بالاهتداءات وتعيين حدود الأبرشيات، كما حدد

---

*- **فالنتنيانوس** ، ***Valentinianus III***، (419-455م) إمبراطور الغرب (425-455م) ابن الجنرال "قنسطانس" ولد في رافين *Ravenne* "إيطاليا" التي كانت مركز إمبراطورية الغرب منذ عهد "هونوريوس" 402م، وأصبحت في سنة 493م عاصمة "ثيودوريك" ملك الأستروقوط *Ostrogoths*، ثم استولت عليها بيزنطة سنة 584م، وجعلت منها مقرا للممتلكات البيزنطية في إيطاليا. نصبه جيش إمبراطورية الشرق على العرش سنة 425م وهو ابن ست سنوات، لذلك تولت أمه "بلاسيديا" الحكم التي خسرت إفريقيا بتسليمها للوندال عن طريق الكونت "بونيفاس"(*Boniface*)، قتله بترون ماكسيم *P.Maxime* سنة 455م.
- Dict.Univ.Hist.Géo., p.1935.

**- من القوانين التي أصدرها فالنتنيانوس الثالث، قانون 6 جويلية سنة 425م موجه الى "جورجيوس" *Georgius* قنصل إفريقيا يأمره بحظر الهرطقة وكل الانشقاقات، وقانون 6 أوت سنة 425م الذي ينص على طرد كل الهراطقة وأصحاب البدع والمنشقين من المدن. وعشية الغزو الوندالي للمغرب القديم صدر آخر قانون في 30 ماي سنة 428م يؤكد قوانين القمع السابقة: كاستعادة الكنائس، ومنع المنشقين والهراطقة من امتلاك أي قطعة أرض تستغل للاجتماع أو الصلاة، وفرض غرامات على سيامة الأساقفة، وحظر إعادة التعميد، وتفرض نفس العقوبات على حكام المقاطعات الذين لا يسهرون على تنفيذ القانون.
- Cod. Theod., XVI, 5, 63; 5, 64; 5, 65.

[1] *-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.93.*

المبادئ–التي يمكن من خلالها–منح كنائس المنشقين القديمة للأبرشيات الكاثوليكية، ووضع الشروط النهائية لتقسيم الكنائس بين الأسقف الكاثوليكي والأسقف الدوناتي المهتدي في الأبرشية الواحدة (*Diocèse*).

واتخذت إجراءات صارمة ضد الأساقفة الذين يتهاونون في متابعة تحقيق الوحدة الدينية، فإذا لم يتمكن أسقف معين في ظرف ستة أشهر– من تاريخ المجمع المذكور آنفا– رغم حضور المحافظ الإمبراطوري من القضاء على الانشقاق، فإنه يتعرض للحرم "الفصل من الجماعة" (*Excommunication*) إلى أن يتم تنفيذ القانون. كما تم تهديد الأساقفة الذين يدعون زورا أنهم استعادوا الوحدة الدينية في أبرشياتهم بالعزل والخلع.

وهكذا انعقد مجمع آخر في 25 ماي سنة 419م في قرطاجة وأكد الشرائع والقوانين الكنسية (*canons*) السابقة المتعلقة بالدوناتية. وكانت قرارات هذا المجمع بالنسبة للمغاربة القدماء بمثابة قانون الوحدة الكاثوليكية. فقد أظهرت قرارات مجامع سنة 418م بوضوح أن أوامر الإمبراطور هونوريوس لم تنفذ في كل مناطق المغرب القديم. [1]

والحقيقة أن جماعات دوناتية بقيت قائمة إلى نهاية القرن السادس الميلادي. والسبب في ذلك، إما أن هذه الجماعات لم تتعرض للحل إطلاقا، أو أنها أعادت تشكيل نفسها بعد زوال الزوبعة، ونعني بها قرارات مناظرة قرطاجة سنة 411م.

لقد عجزت الكنيسة الكاثوليكية رغم دعم ومساندة السلطة الزمنية لها، عن إبعاد الانشقاق عن بعض المناطق في نوميديا وموريطانيا، ففي سنة 418م و419م وسط حملة اضطهادات شرسة ضد الدوناتيين، وفي الوقت الذي كانت فيه المجامع الكاثوليكية في قرطاجة تسجل الاهتداءات، انعقد مجمع دوناتي في نوميديا، بحضور ثلاثون (30) أسقفا، وكان الأساقفة الدوناتيين خلال هذا المجمع يتطلعون إلى الأخذ بالثأر والانتقام من الكاثوليك، لذلك أقروا قانونا كنسيا ينص على أن الأساقفة الذين اهتدوا قسرا يمكن العفو

---

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.94.*

عنهم والحفاظ على رتبهم الدينية في كنيسة "دوناتوس"، إذا لم يتم ترسيمهم في كنيسة "المتخاذلين والخونة".[1]

في تلك الأثناء، واصل المحافظون الإمبراطوريون حملتهم في نوميديا في حوالي سنة 420م وبدعم من السلطة الزمنية، في محاولة للقضاء على المقاومة اليائسة للدوناتيين.

ويعتبر"دولكتيوس" (*Dulcitius*) أحد هؤلاء المحافظين، الذي أصدر مرسومين متتاليين حول تطبيق قوانين القمع ضد المنشقين. وأجهد نفسه لاستعادة الوحدة الدينية في إحدى مراكز الدوناتية العتيقة، إنها مدينة "ثاموقادي" (*Thamugadi*). [2]

كانت هذه الحملة مفيدة بالنسبة للكاثوليك، فالمحافظ "دولكتيوس" نفسه يتحدث عن اهتداءات عديدة في صفوف المنشقين الدوناتيين: منهم الأسقف "غابينوس" [*] (*Gabinus*)، والبعض الآخر [**] فر خارج المدن، وكانوا يبحثون عن أماكن يختبئون فيها هروبا من القمع والاضطهاد. [3]

لقد تم تطبيق القوانين بصرامة، ليس على البريميانيين الذين أدينوا في مناظرة قرطاجة سنة411م فحسب، ولكن على الماكسيميانيين والطوائف الأخرى التي انشقت على كنيسة "بريميانوس" (*Primianus*) أيضا، فصودرت أماكن العبادة، وتجهيزات الكنائس،

---

[1] -*Augustin (St.), Contra Gaudentium, I, 37, 47-48.*

[2] -*Id., Epist., CCIV, 3; Contra Gaudentium, I, 1, 19, 21.*

*- ***غابينوس، Gavinius** أو **Gabinus*** *، أسقف كنيسة فجيزيلا الدوناتي Vegesela " قصر الكلب" قرب خنشلة حاليا، شارك في مناظرة قرطاجة سنة 411م كأحد مندوبي الدوناتية، وذكره "بول ميناج" باسم Gavinus Vegeselitanus.*
-Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p.240.

- *من بين هؤلاء الفارين، نجد بعض **زعماء الدوناتية مثل: "بتيليانوس"Petilianus من قسنطينة، و"أميريتوس" Emeritus من قيصرية Caesarea "شرشال"، و"غودانتيوس" Gaudentius من ثاموقادي Thamugadi، فالأول شارك في مجمع نوميديا سنة 418م أو 419م ثم لم تذكره المصادر بعد هذا التاريخ، أما الثاني فبعدما تخلى عنه أنصاره وعادوا إلى الكاثوليكية انعزل وعاش بقية حياته في قيصرية متقاعدا، و أما الثالث فقد عاش في عزلة منذ مناظرة قرطاجة سنة 411م ثم ظهر فجأة سنة 420م وأصبح زعيم الكنيسة المضطهدة حينما هدد بحرق نفسه مع أنصاره إذا ما انتزع الكاثوليك كنيسته منه.* *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.95 ; Possidius, Vita Augustini, édition H.T.Wesskotten, London, 1919, 16.*

[3] *- Monceaux (P.) , H.L.A.C., IV, p.95.*

وممتلكات المنشقين الأخرى. وعلى سبيل المثال سلمت في مدينة "هيبو–ريجيوس" (*Hippo-Régius*) "عنابة" حاليا، المساكن الحضرية والريفية (*Villae , fundi*) التابعة للكنيسة الدوناتية إلى كنيسة "أوغسطين". (1)

ويذكر "أوغسطين" أن كنيسة بمنطقة "أوزاليس" (*Uzalis*) (*) كان المنشقون قد استولوا عليها في وقت سابق أعيدت إلى الكاثوليك في سنة 420م، ولهذا السبب سميت "رستيتوتا" (*Restituta*). (**) وفي مدينة قرطاجة استعاد الأسقف "أوريليوس" (*Aurelius*) عدة كنائس من المنشقين. (2)

كان نشاط الأساقفة الكاثوليك يرتكز على جبهتين الأولى هي استعادة الكنائس والممتلكات، أما الجبهة الثانية فهي عدم إهمال الجانب النفسي والمعنوي بالتركيز على كسب العقول والأرواح. لذلك استأنفوا حملة الدعاية، والتبشير والوعظ، والمراسلات الرسمية والعمومية، والجدل والمناظرات مع المنشقين. وقد اتخذوا من النقاش الذي دار في مؤتمر قرطاجة سنة 411م والحكم الذي أصدره المحافظ الإمبراطوري قاعدة أساسية لتلك الحملة. (3)

ولنا أن نتساءل: ما مصير الأساقفة الدوناتيين الذين مثلوا الدوناتية كمندوبين في مؤتمر قرطاجة سنة 411م وأنصارهم؟

---

[1]- *Monceaux (P.) , H.L.A.C., IV, p.88*

** – أوزاليس **Uzalis**، هي مدينة العالية El-Alia حاليا في تونس، ذكرها "بلين القديم" Plinus باسم Oppidum Uzalitanum وتعني المدينة الصغيرة أو المحصنة، يذكر "أوغسطين" أن بها طائفة يهودية حيث وجدت بها آثار صومعة ألحقت بقبر القديسين "فليكس" Felix و"جناديوس" Gennadius، وهما اللذان سقطا شهيدين في سنة 304م، أما كنيستها فقد استولى عليها الدوناتيون ثم استعادها الكاثوليك في سنة 420م بعد مناظرة قرطاجة لذلك سميت رستيتوتا (Restituta).* *- C.I.L., VIII, p.1262. n°1204-14331 ; Babelon (M.), Cagnat (R.), Reinach (S.), A.A.T., f.7, Porto Farina, 21 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, pp.25- 26 ; Pline l'ancien, H.N., V, 4.*

***– رستيتوتا (Restituta) من الفعل اللاتيني (Restituo) بمعنى أعاد الشيء إلى شخص ما. - Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, p.555.*

[2] *- Augustin (St.), Contra Gaudentium, I, 6,7.*

[3] *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.88.*

إذا كان بعض الدوناتيين المتشددين قد أصروا على مواقفهم وواصلوا معارضتهم للكنيسة الرسمية والسلطة الزمنية إلى النهاية، فإن البعض اختار النفي الإرادي وتركوا كنائسهم في أيدي الكاثوليك. وكانوا يبحثون عن أماكن تأويهم، ومن أبرز هؤلاء، زعماء الكنيسة الدوناتية مثل: "بتيليانوس" *Petilianus*، و"أميريتوس" *Emeritus*، أما "غودانتيوس" *Gaudentius*، فقد اختار المقاومة ونصب نفسه زعيما للكنيسة المضطهدة انطلاقا من كنيسته في ثاموقادي. [1]

وعرفت موريطانيا القيصرية أيضا متشددين آخرين كالذين عرفتهم نوميديا. فقد كشفت بعض النقوش عن أسماء عدد من الشهداء الذين سقطوا وهم يواجهون الاضطهاد الكاثوليكي منهم "نميسانوس" (*Nemessanus*) أسقف "ألاميلياريا" [*] (*Ala-miliaria*) الدوناتي وأخته "يوليا جيليولا" (*Iulia Geliola*) اللذين أصرا على الاستشهاد في سنة 422م، وشهداء دوناتيين آخرين من أساقفة ورجال الدين وجدت قبورهم في صدر كنيسة نفس المدينة. [2]

يبدو أن معظم المهتدين الذين انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية كان انضمامهم ظاهريا، فكان من الصعب عليهم نسيان عاداتهم السابقة، فقد أزعج بعض المهتدين في

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.96.*

*- ***ألاميلياريا Ala-Miliaria*** ، (بنيان- Benian حاليا) منطقة في موريطانيا القيصرية، تقع حاليا في الغرب الجزائري جنوب شرق معسكر بحوالي 37 كلم، و35 كلم شمال سعيدة. أظهرت النقوش التي عثر عليها في المنطقة أسماء عدة أساقفة منهم "نميسانوس" Nemessanus وهو أسقف المدينة خلال الفترة 404-422م و"دوناتوس" Donatus الذي توفي سنة 439م في سن 80 سنة، وتوجد في قبو الكنيسة سبعة (7) قبور لأساقفة دوناتيين آخرين منهم "يوليا جيليولا" Iulia Geliola أخت "نميسانوس" التي توفيت سنة 422م، ويحتمل أن هذه المنطقة أخذت اسمها من الفرقة العسكرية التي احتلتها في عهد "سبتيموس سفروس" Septimus Severus. - *C.I.L., VIII, pp. 834, 2042, n°21572 ; Gsell (S.), A.A.A., f.32, Mascara, 93 ; Id., Fouilles de Benian, C.R.A.I., 1899, p.276 ; Id., Monuments, t. II, 1981, pp.175-179 ; Leschi (L.), Inscriptions d'Ala-Miliaria, B.S.G.O., t.57, 1936, pp.110-111 ; Encyclopédie Berbère, Paris, Edisud, 1997, t. III, pp.432-438 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p.477.*

[2] - *Gsell (S.) , L'Algérie dans l'antiquité…, pp.68-69.*

منطقة "فوسالا" (*) (*Fussala*) القديس أغسطين أسقف "هيبون" (*Hippone*) إلى درجة أنه هدد بالاستقالة، نظرا لصعوبة التعامل مع هؤلاء المهتدين الجدد الذين عادوا إلى الكنيسة الكاثوليكية. (1)

يتضح مما سبق، أنه رغم قرارات مؤتمر قرطاجة سنة 411م وقوانين الحظر، ونشاط المحافظين الإمبراطوريين، والدعاية المكثفة التي قام بها الأساقفة الكاثوليك، وحيوية أوغسطين، فإن الدوناتية استمرت وبقيت حية إلى عشية الغزو الوندالي للمغرب القديم سنة 430م.

خلاصة القول أن ظهور الدوناتية في المغرب القديم في بداية القرن الرابع ، يعود إلى طعن الأساقفة النوميد في سيامة أسقف قرطاجة "كايكيليانوس"، بتهمة تسليم الكتب المقدسة والأواني الكنسية إلى السلطة الرومانية الوثنية أثناء "الاضطهاد الأكبر" في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" *Dioclétianus* (303-305م). وقد ظل الدوناتيون يصفون أعدائهم الكاثوليك بكنيسة "المتخاذلين" (**) *Traditores*، وكانوا ينعتونهم أيضا بحزب "كايكيليانوس" (*Pars Caeciliani*)، ولم ينعتوهم أبدا "بالكنيسة الكاثوليكية" لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أصحابها الحقيقيين.

هكذا تميز تاريخ العلاقة بين المسيحية والسلطة الرومانية على مدار ثلاثة قرون من الزمن بالعداء الشديد، وضراوة الصراع. ذلك أن السلطة الزمنية سعت بكل ما أوتيت من قوة للقضاء على جذور المسيحية في المغرب القديم، فقد كانت تنظر إليها على أنها عامل هدم لأركان الإمبراطورية الرومانية.

---

*- **فوسالا Fussala**، هي منطقة هنشير زيدة أو زيادي حاليا، إحدى مدن نوميديا، تقع على بعد أربعون (40) ميلا أي حوالي 64 كلم عن هيبون "عنابة" وشرق قالمة بحوالي 15 كلم، ويبدو أن أسقفيتها تأسست في حوالي413م أو 415م، ومن أشهر أساقفتها "أنطونيوس"Antonius الذي شارك في مجمع ميلاف Milev سنة 416م، وبقيت قائمة إلى القرن الثامن الميلادي.* *-C.I.L., VIII, P.1645 ; Gsell(S.), A.A.A., f.9, Bone, n°179 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, pp.394-395.*

[1] *- Augustin (St.), Epist., CCIX, 10.*

***-من المصدر اللاتيني **Traditio**، ويعني تسليم الكتب المقدسة وأواني الكنيسة.* *-Gaffiot (F.), Dictionnaire Abrégé Latin Français., p. 65.*

الفصل الثالث

تطور الحركة الدوناتية في المغرب القديم

المبحث الأول-مرحلة الميلاد والظهور (305-316م)

المبحث الثاني-مرحلة الاضطهاد والقمع (317-392م)

المبحث الثالث-مرحلة الانشقاق زمن أوغسطين (392-430م)

المبحث الرابع-مرحلة الضعف والزوال (430-533م)

تعود جذور الانشقاق في الكنيسة الإفريقية إلى انعقاد مجمع سيرتا في 5 مارس 305م لانتخاب أسقف جديد. [1] إذ أقر هذا المجمع مبدأ الانفصال عن المرتدين والمتخاذلين وأكد أن الكنيسة الدوناتية هي الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية، طالما أن أتباعها صمدوا وتصدوا للاضطهاد. ومن ثمة فهي الكنيسة الوحيدة التي حافظت على مبادئ المسيحية وطهارتها. وعلى مدى أكثر من قرن من الزمن وقفت الدوناتية في وجه الكنيسة الكاثوليكية، بل وضد السلطة الزمنية الرومانية التي كانت تدعمها.

مرت الكنيسة الدوناتية خلال هذه الفترة بأربعة مراحل، ثلاثة منها في الفترة الرومانية، والمرحلة الرابعة في الفترة الوندالية، ثم ضعفت تدريجيا في نهاية الفترة الوندالية لتختفي خلال الفترة البيزنطية مع أواخر القرن السادس الميلادي. سأعالج في هذا الفصل تلك المراحل على النحو الآتي:

<u>المبحث الأول -مرحلة الميلاد والظهور (305-316م)</u>: تمتد هذه المرحلة من انعقاد مجمع سيرتا في 5 مارس سنة 305م قبل شهرين من اعتزال "ديوكليتيانوس" (*Dioclétianus*) إلى سنة 316م تاريخ إدانة الكنيسة الدوناتية المنشقة من قبل الإمبراطور "قسطنطين". [2]

وقد تزايد الاضطهاد في هذه الفترة، الأمر الذي دفع بعض القساوسة إلى الردة والضعف أمام حدة الإضطهادات، حيث اضطروا إلى تسليم الأواني والكتب المقدسة إلى السلطة الزمنية، فكان بروتوكول سيرتا بداية القطيعة بين أولئك الذين ضعفوا وتخاذلوا، وأولئك الذين صمدوا وقاوموا-أي بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة المنشقة "الدوناتية"-، كما اعتبر هذا البروتوكول أيضا بداية لانعقاد سلسلة من المجامع بين الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية. (أنظر الملحق رقم 1)

[1] - *Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., I, 21, 23.*

[2] - *Martroye (F.), « une tentative de révolution sociale… », p.354.*

وقد أثارت حدة هذه الإضطهادات حماسة السكان في المغرب القديم منذ أحداث قرية "أبيتينا" (*Abitina*) حيث أصبح نداء ضحايا تلك الأحداث بمثابة الميثاق الديني والاجتماعي، الذي عرف بتصريح "شهداء أبيتينا". [1] وتخليدا لهؤلاء الشهداء أقيمت الأنصاب المخلدة لهم [2] التي اكتشفت في العديد من مدن وأرياف المغرب القديم.

وذكرت الوثائق النقوشية أسماء بعض شهداء "أبيتينا" والمدن التي ينحدرون منها ومنهم:داتيانوس"(*Datianus*) و"فيكتورينوس" (*Victorinus*) و"فيكتوريا" (*Victoria*) بالقرب من "تيكستار" (*) (*Tixter*)، و"أميريتوس" (*Emeritus*) بـ"هنشير تاغفاغت" (*Hr.Taghfaght*) قرب خنشلة، وعين غراب (*Ain-Ghorab*) بالقرب من تيفست (*Theveste*) "تبسة" حاليا، و"فليكس" (*Felix*) وعثر عليه في عشر مناطق مختلفة، و"لانوياريوس" (*Lanuarius*) من "تلبت" (**) (*Thelepte*)، و"ماريا"(*Maria*) من عين القصر (***) (*Ain el-Ksar*)، و"مارتينوس"(*Martinus*) في كالاما "قالمة" حاليا،

---

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p. 4.*

[2] - *Audollent (A.), « Mission épigraphique en Algérie », Op.cit., p. 526.*

*- ***تيكستار Tixter***، هي خنقة أم الأهدم حاليا (Kh.Oum El-Ahdam) تقع في منطقة الهضاب العليا بين سطيف وبرج بوعريريج، عثر بها على نقش مؤرخ في سنة 359م يحمل أسماء بعض شهداء أبيتينا منهم : داتيانوس وفيكتورينوس وفيكتوريا الذين استشهدوا سنة 259م، ونميسانوس (Nemessanus) وربما هو أسقف توبوناي (طبنة- Thubunae) الذي استشهد في سنة 238م.* *- Gsell (S.), A.A.A., f.16, Sétif, 355 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, pp.345-346.*

- ***تلبت، Thelepte*، هي مدينة "فريانة" حاليا في الجنوب التونسي، كانت تعرف قديما باسم "مدينة الخديمة" (Medinet El-Kedima)، ذكرت في مسلك أنطونينوس، وكانت إحدى مدن الدوناتية الكبرى، عثر بها على بقايا سبع بازيليكات كبرى.* *- Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, pp.310-313.*

- ***عين القصر Ain el-Ksar، هي المعذر حاليا تقع شرق باتنة بحوالي 22 كلم، عثر بها على نقش يعود الى ما قبل سنة 400م يحمل أسماء "فليكس" (Felix) و"نابور" (Nabor)، وهما جنديان أعدما في عهد الإمبراطور "ماكسيميان" (Maximien)، ونقش آخر يحمل اسم القديسة "ماريا" (Maria) وهي إحدى شهيدات "أبيتينا".* *- Monceaux (P.), H.L.A.C., III, pp.114, 185 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p.318 ; Gsell (S.), A.A.A., f.27, Batna, 138.*

و"ماترونا" (*Matrona*) في "عين رقادة" قرب قالمة، وغيرها من أسماء الشهداء الذين سقطوا في قرية "أبيتينا". [1]

والملاحظ هنا، أنني لا أستطيع أن أؤكد أو أفترض أن كل هؤلاء الشهداء الذين ذكروا في النقوش هم من المقرين بعقيدتهم، فالأسماء المتشابهة كثيرة وهذا ما يدفعني للتساؤل ما إذا كانت هناك صلة بين الشهادات والوثائق النقوشية والعلاقة التاريخية؟

لكن يبدو أن أغلب الأسماء التي ورد ذكرها في النقوش هي لشهداء "أبيتينا". وما يدعم هذا الرأي، أن الأبحاث الأثرية كشفت حديثا في خرائب كنيسة مسيحية قديمة بمنطقة "أوبينا" (*Uppena*) [*] في مكان المذبح (*Autel*) عن فسيفساء تعود إلى القرن الرابع الميلادي تحمل أسماء ستة عشر (16) شهيدا من بينهم: الكاهن "ساتورنينوس" (*Saturninus*)، وثلاثة أسماء أخرى تحمل نفس الإسم، واسم " لوكيلا" (*Lucilla*).

ويشير "أوبطا الميلي" أن الأسقف "ساتورنينوس" كان من بين المقرين بعقيدتهم بأبيتينا، مع "لوكيلا"، هذه المرأة التي لعبت دورا هاما في ظهور الدوناتية. [2]

وقد ذكرت الوثائق النقوشية كذلك اسم " أميريتوس" (*Emeritus*)، ويتعلق الأمر هنا بالقارئ (*Lector*) الذي يعتبر من المقرين الأساسيين بعقيدتهم في أحداث "أبيتينا" (*Abitina*)، والذي كانت له سمعة طيبة في أوساط المنشقين.

---

1 - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 466- 467.*

*– أوبينا (**Uppena colonia**)، تقع آثارها في هنشير فراغا (Hr.fragha) قرب هنشير شيغارنية (Hr. Chigarnia) على بعد 92 كلم جنوب تونس العاصمة، وشمال هدرومات (Hadrumète) "سوسة حاليا"، اكتشفت بها عدة نقوش في خرائب كنيسة مسيحية تعود الى الفترة البيزنطية تحمل أسماء عدة شهداء منهم الأسقف "بولوس" (Paulus) وهو أحد أساقفة موريطانيا توفي بها، ومن أشهر أساقفتها "هونوريوس" Honorius Oppennensis.*
Mesnage (J.P.), l’Afrique chrétienne..., p.46 ; Babelon (M.), A.A.T., f.43, Enfida, 148 ; Dominique Raynal, la Basilique d'uppenna : de la Période Vandale à l’epoque Byzantine, Interpretation des résultats des Fouilles de1904-1906, Africa, T.VII-VIII, 1982, p.179.

2 - *Optat (S.), I, 16- 19.*

ونتساءل هنا: هل استفاد "أميريتوس" من تشابه في الأسماء، مع نظيره "أميريتوس" المنشق أسقف " قيصرية " (*Caesarea*) " شرشال حاليا"، وهو أحد زعماء فريق "دوناتوس" زمن القديس "أوغسطين"؟

لقد عثر في خرائب معبد مسيحي "بهنشير تاغفاغت" [1] (*Taghfaght*) قرب خنشلة، على صخرة نقشت عليها عبارة: " المحامي المجيد" (*Gloriosi Consulte*) وهي نصب إهدائي يحمل اسم "أميريتوس". [2] وعثر في كنيسة دوناتية بعين غراب [3] *Ain-Ghorab* "جنوب غرب تبسة" على نقش يحمل إهداء لـ"أميريتوس" على الشكل الآتي: *Dei Consulti Emeriti* [4] أي "إلى أميريتوس محامي الله"، والذي استشهد في أحداث قرطاجة في 12 فيفري 304م. وشيدت هذه الكنيسة من قبل "أوبطاتوس التاموقادي" [*] (*Optatus de Thamugadi*) في أواخر القرن الرابع الميلادي.

وهكذا تميزت هذه المرحلة بانعقاد عدة مجامع كنسية بدء بمجمع سيرتا الذي انعقد في 5 مارس سنة 305م، يعد من أقدم المجامع التي أقرت القطيعة مع الكنيسة الكاثوليكية، وهو المجمع الذي انعقد أساسا لسيامة أسقف مدينة سيرتا. [5]

---

[1] *-C.I.L., VIII, 17714.*

[2] *-Monceaux (L.), H.L.A.C., IV, p. 468.*

[3] *-C.I.L., VIII, 2220, 17614.*

[4] *-Leschi (L.), « Basilique et cimetière donatistes de Numidie (Ain-Ghorab) », Rev.Afr., t.78, 1936, p. 34. .*

- **أوبطاتوس التاموقادي، أسقف مدينة ثاموقادي Thamugadi " تيمقاد حاليا"، من 388م إلى 398م، من أصول نوميدية، كان مستشارا للزعيم الإفريقي "جيلدون" Gildon الثائر على روما (396- 398م)، و قد ربطتهما علاقات صداقة حميمة، لذلك لقب بالجيلدوني Gildonianus، أثار الرعب في كامل نوميديا لمدة عشر سنوات، حارب الكاثوليك والماكسيميانيين، وكان له الفضل في إعادة بعضهم إلى حظيرة الدوناتية، كان وفيا لفريق البريميانيين Primianistes، بعد هزيمة "جيلدون" ألقي عليه القبض إثر اتهامه بالتبعية لجيلدون، وتوفي في السجن سنة 398م.*
-Albertini (E.), « Témoignage épigraphique sur l'évêque Donatiste, Optat de Thamugadi », C.R.A.I., 1939, pp.100-103.

[5] *- Optat (St.), I, 14 ; Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 27, 30.*

وعندما توفي "مونسوريوس" (*Mensurius*) أسقف قرطاجة في أواخر سنة 311م، بدأت سلسلة من المجامع المنشقة بانعقاد مجمع قرطاجة سنة 312م الذي حضره سبعون (70) أسقفا، والذين كانوا في معظمهم من النوميديين، برئاسة جثليق نوميديا "سوكوندوس" التجيسي (*Secundus de Tigisi*). [1]

ويبدو أن اختيار مكان الاجتماع كان بمثابة إعلان الحرب على أسقف قرطاجة الجديد "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) الذي أصبح بعد تعيينه وسيامته زعيم إفريقيا المسيحية.

إلا أن الأساقفة الذين حضروا مجمع قرطاجة طعنوا في سيامة الأسقف "كايكيليانوس" لأنها –حسب رأيهم– تمت على يد مجموعة من الخونة والمتخاذلين أثناء فترة الاضطهاد، ووجهوا اتهامهم أيضا إلى "فليكس الأبتونجي"(*Félix d'Aptonge*) الذي يكون قد تزعم حركة سيامة "كايكيليانوس" وانتخبوا "ماجورينوس" (*Majorinus*) أسقفا لكنيسة قرطاجة مكان "مونسوريوس" المتوفى. [2] وعلى إثر وفاة "ماجورينوس" في شهر أكتوبر سنة 313م في نفس الفترة التي انعقد فيها مجمع روما في 2 أكتوبر 313م، خلفه "دوناتوس الأكبر" (*Donatus le Grand*). [3]

وكانت الإمبراطورية الرومانية في هذه الفترة تمر بأزمة خطيرة عرفت بـ"أزمة العرش" (*) كادت أن تعصف بها. حيث حدث التحول الكبير في نظرة السلطة الرومانية

1- Optat (St.), I, 19.
2- Optat (St.), I, 18; Dict. des Hérésies, Op.cit., p. 646.
3-Augustin (St.), Epist. 93, 10, 43; Brisson (J.P.), Op.cit., p.237.

*– آل العرش بعد استقالة "**ديوكليتيانوس**" سنة 305م، – بموجب مرسوم سنة 293م– إلى كل من القيصرين "غاليريوس" Galérius في الشرق، و"كونستانيوس كلوروس" Constanius Clorus في الغرب، وفي سنة 306م توفي هذا الأخير، وحسب المرسوم السابق فإن العرش يؤول إلى مساعده القيصر "فلافيوس سواريوس" Flavius Soirius، لكن "قسطنطين" ابن "كونستانيوس" أعلن نفسه قيصرا على بريطانيا وغاليا (فرنسا حاليا) وأسبانيا دون تعيين، مما أدى إلى أزمة في العرش انتهت بتولي "قسطنطين" وزميله "ليكينيوس" Licinius السلطة سنة 311م. - Petit (P.), H.G.E.R., t. III, p. 58.*

إلى المسيحية بعد هذه الأزمة باعتناق الإمبراطور "قسطنطين" الديانة المسيحية [*] واعتبارها الديانة الرسمية للإمبراطورية، بعد انتصاره على خصمه "ماكسنتيوس" (*Maxentius*) سنة 312م. [1]

وهكذا أراد "قسطنطين" أن يكون اعترافه بالمسيحية مقرونا بإقامة حصن لها ومركزا جديدا لأشياعها لم تدنسه من قبل تيارات الوثنية القديمة أو تلوث أرضه عبادة الآلهة المزيفة فأنشأ مدينة القسطنطينية، وبإنشاء عاصمة جديدة على البوسفور تأكد انتصار الأثر الشرقي في الحضارة الرومانية. [2]

لقد أصدر "قسطنطين" مع زميله في الحكم "ليكينيوس" (*Licinius*) أغسطس الشرق مرسوم ميلانو[**] (*édit de Milan*) سنة 313م، الذي أنهى عهد اضطهاد الدولة الوثنية للمسيحيين، وأقر مبدأ التسامح الديني وإرجاع الكنائس المصادرة إلى المسيحيين. وأهم ماجاء في المرسوم:« ***نحن الأغسطين قسطنطين وليكينيوس: وبعد تبادل الآراء في ميلانو، اتضح لنا أن مصلحة الدولة تقتضي منا وضع تسوية لبعض المسائل، وخاصة منها تلك المتعلقة بأمور الدين واحترام العبادة. واتفقنا على منح الناس حرية الدين الذي يختارونه. وقررنا وبمحض إرادتنا احترام حرية الناس في اختيار الدين المسيحي. ولن نمنع أحدا***

- عن اعتناق الإمبراطور "قسطنطين" المسيحية سنة 312م- عند معركة "جسر ملفيوس" Pont- Melvius بينه وبين غريمه "ماكسنتيوس" Maxentius- تتضارب الآراء، من أنه رأى صليبا على شمس الغروب مكتوب عليه "بهذا تنتصر" (hoc Vince) ، أو أنه رأى المسيح نفسه في منامه. أندري إيمار، المرجع السابق، ص 563. -Eusèbe, Histoire de la vie de Constantin, Trad. Par cousin, T.I, Paris, Damien Foucault, 1686, XXVIII ; Henri Grégoire, La statue de Constantin et le Signe de la Croix, In : Ant. Class., Tome 1, fasc. 1-2, 1932. pp. 135-143.

[1] *- Brisson (J.P.), Op.cit. , p. 247.*

[2] *- العريني السيد الباز، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، 1965، ص 14.*

- عرف هذا المرسوم لدى بعض المؤرخين بـ "خطأ مرسوم ميلانو"، الذي ينص على التسامح الديني وإرجاع الكنائس المصادرة إلى المسيحيين، وهو في الواقع عبارة عن رسالة بعث بها "ليكينيوس" (Licinius) إلى ولاة الأقاليم الشرقية يخبرهم فيها بهذه القرارات التي اتخذها في مدينة ميلانو باتفاق مع زميله "قسطنطين" بإنهاء اضطهاد المسيحيين وإرجاع الكنائس والممتلكات المصادرة إلى الأساقفة، وصلنا نص هذه الرسالة عن طريق "لاكتانتيوس" في كتابه "عن موت المضطهدين". - Petit (P.), Op.cit., t.3, pp. 58-67 ; Piganiol (A.), l'empire Chrétien, pp. 27-49 ; Lactantius, De Mortibus Persecutorum, XLVII, pp. 132-133 ; Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 215.

من ذلك، والجميع أحرارا في عبادتهم وطقوسهم الخاصة المنتهجة في أمور العبادة، ومتابعة النهج المختار ليرضى عنا الإله وننال بركته. » (1)

يبدو أن الإمبراطور "قسطنطين" عقب انتصاره على خصومه، اقتنع أخيرا – بعد أزمة العرش– أن مصلحة الدولة تقتضي الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة رسمية للدولة الرومانية. لذلك أعتقد أن اعتناق "قسطنطين" المسيحية كان لأسباب سياسية محضة، وذلك بهدف تدعيم حكمه وهو المتهم باغتصاب السلطة بعد إلغائه مرسوم "ديوكليتيانوس" سنة 293م والذي يقضي بأن القيصر (*César*)– في حالة وفاة أو استقالة الإمبراطور– يحق له تولي العرش وتعيين قيصرين مساعدين له.

تجلت القطيعة بين الطرفين الكاثوليكي والدوناتي عندما دعمت السلطة الرومانية الأسقف "مونسوريوس" وأقرت مبدأ انتخاب "كايكيليانوس" مكانه، مما أثار غضب أساقفة نوميديا ورفضوا هذا الانتخاب.

وهكذا تأكدت القطيعة وأصبحت أمرا واقعا، خاصة بعد صدور أحكام مجمع روما سنة 313م، ومجمع آرل (*Arles*) سنة 314م، والأحكام التي أصدرها الإمبراطور "قسطنطين" في 10 نوفمبر 316م والتي يعتبر فيها "كايكيليانوس" هو الأسقف الشرعي لكنيسة قرطاجة، وإدانة المنشقين الدوناتيين، بل ومصادرة كنائسهم ونفي زعمائهم. (2)

واعتبر "كامبس" دعم الإمبراطور "قسطنطين" للكنيسة الرسمية أول مظهر للبابوية القيصرية (*Césaropapisme*) أي وضع الكنيسة في خدمة الإرادة والمصلحة السياسية للإمبراطورية. (3) وبذلك أصبح الدوناتيون تحت طائلة القانون، مما دفع

[1]- *أندري إيمار، وجانين أوبواييه، المرجع السابق، ص 564.*

[2]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.197 ; Julien (Ch.A.), Op.cit, pp. 215- 216 ; Brisson (J.P.), Op.cit, p.290.*

[3]- *Camps (G.), les Berberes, mémoires et identité, 2 eme édit. Paris, 1987, p.179.*

بالدوناتية الى التجذر أكثر. وأصبحت الكنيسة الدوناتية محظورة ومضطهدة، ولم يتوقف الاضطهاد حتى صدر قرار التسامح الديني سنة 321م. [1]

ومما يلاحظ على نص مرسوم ميلانو أيضا، أنه أقر مبدأ عدم تفضيل ديانة على ديانة أخرى، ذلك أن "ليكينيوس" (*Licinius*) زميل "قسطنطين" (*Constantin*) كان وثنيا على دين أجداده. فقد تصرف "قسطنطين" بحنكة سياسية، غير أنه لما قضى عليه وتفرد بالعرش سنة 324م، أبقى على المرسوم، وكان يردد دائما " ***الكل أحرار في ممارسة الدين الذي يختارونه***". وهذا ما يدعم الرأي القائل بأن "قسطنطين" اعتنق المسيحية لتحقيق أغراض سياسية عجز عن تحقيقها عسكريا.

وقد تجلت نظرة "قسطنطين" هذه، في الدعوة إلى عقد مجمع روما بقصر لاتران (*Latran*) في 2 أكتوبر سنة 313م، ترأسه البابا "ميلتياد" أو "ميلكياد"[*] (*Miltiade-Melchiade*) وبحضور ثلاثة أساقفة من غاليا "فرنسا حاليا"، عينهم "قسطنطين" بنفسه وهم: "رتيكيوس" من أوتون (*Reticius d'Autun*)، و"ماتارنوس" من كولونيا (*Maternus de Cologne*)، و"مارينوس" من آرل (*Marinus d'Arles*)، إضافة إلى استدعاء خمسة عشر (15) أسقفا إيطاليا، وبذلك ضم مجمع روما تسعة عشر(19) أسقفا – قاضيا. وبعد ثلاث جلسات أصدر المجمع قرارا بالإجماع يبرئ فيه ساحة "كايكيليانوس" من التهم الموجهة إليه، ويدين "دوناتوس" وزملائه ويؤكد أن انتخاب وسيامة "كايكيليانوس" قد تمت بطريقة سليمة وشرعية حسب التقاليد المتبعة في الكنيسة الإفريقية. [2]

---

[1]- *عقون محمد العربي، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2008، ص 291.*

*– ***ميلتياد** أو **ميلكياد** (Miltiade- Melchiade)**، قديس كاثوليكي، انتخب بابا من 311/7/2م إلى 314/1/11م خلفا للبابا "أوزيبيوس" St. Eusèbe، وهو من أصول إفريقية، حارب الدوناتية، وخلال فترة حكمه أصدر "قسطنطين" مرسوم ميلان.*

- Dict. Univ. Hist. Géo, p. 1227 ; Martroye (F.), « Tentative de révolution sociale... », pp.368, 378.

[2]*- Optat (St.), I, 23- 24 ; Martroye (F.), Op.cit, p. 368.*

يتضح مما سبق أن قرار إدانة "دوناتوس" وزملائه كان أمرا طبيعيا، ذلك أن الذين حضروا مجمع روما كانوا من الأساقفة الكاثوليك وهم الذين عينهم "قسطنطين"، أي السلطة الزمنية التي دعمت الكنيسة الكاثوليكية.

ومن جهة أخرى، ونزولا عند رغبة وإلحاح المنشقين، أمر "قسطنطين" بإجراء تحقيق قضائي حول تصرفات "فليكس الأبتونجي" (*Félix d'Aptonge*). وأجرى هذا التحقيق عدة قضاة، بدأ بمدينة أبثونجي (*Abthungi*) وتواصل في قرطاجة، وانتهى في 15 فيفري سنة 315م بصدور حكم البروقنصل "إيليانوس" (*Aelianus*) يقضي بتبرئة ساحة "فليكس الأبتونجي" من كل التهم المنسوبة إليه. [1]

يبدو أن هذه المحاكمات أنهت القضية –ظاهريا–، لكن الحقيقة أنها زادت من تعقيدها. ذلك أن المنشقين تحفظوا على تركيبة المجمع وعلى تعيين القضاة، بالرغم من أنهم هم الذين طلبوا قضاة محايدين من غاليا "فرنسا حاليا"، فكان من بين تسعة عشر (19) أسقفا الذين حضروا، ستة عشر(16) منهم كانوا من إيطاليا.

وهكذا دعا الإمبراطور "قسطنطين"–بعد مجمع روما–إلى عقد مجمع في 1 أوت سنة 314م بمدينة آرل (*Arles*) في غاليا. [2] حيث مثلت فيه كل مقاطعات الغرب الروماني بحضور وفدي الكنيستين الإفريقيتين المتنافستين.

وحدد مجمع آرل مختلف الإجراءات التأديبية، خاصة ما تعلق بالمرتدين والاتهامات الموجهة إليهم، وضرورة إعادة تعميد الهراطقة والملحدين الذين اعتنقوا المسيحية. [3]

[1] - *Optat (St.), I, 27 ; Augustin (St.), Epist., 43,2 ; d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.22 ; Martroye (F.), Op.cit, pp. 370- 372.*

[2] - *Duchesne (L.), Op.cit., pp. 640- 644 ; Martroye (F.), Op.cit., p. 377.*

[3] - *Ibid., p.380.*

وأكد المجمع فيما تعلق بقضية "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) -بلا تحفظ- الحكم الذي أصدره مجمع روما سنة 313م، وبلغ تلك القرارات المتخذة إلى الإمبراطور وإلى البابا "سلفستر" (*) (*Silvestre*) خليفة البابا "مليكياد" المتوفى في شهر جانفي سنة 314م. (1)

يبدو من خلال قرارات مجمع آرل أنه اتخذ عدة إجراءات أخرى بشأن قضية فرار الجنود من الجيش الروماني ومما جاء فيها:« ***إن كل جندي مسيحي يرمي سلاحه يطرد من المسيحية.*** » (2)

توحي تلك القرارات أن الدوناتيين اعتبروا - في نظر السلطة المدنية- هراطقة خارجون عن القانون. ذلك أن هذه السلطة تحالفت مع الكنيسة الكاثوليكية ضد الدوناتية. وبذلك أعلن الدوناتيون عداءهم للسلطة التي مارست ضدهم اضطهادا قاسيا.

يتضح مما سبق أن الإدانة النهائية للانشقاق الديني الإفريقي حدثت مرتين، الأولى من طرف مجمعين كبيرين في روما وآرل، والمرة الثانية بعد قرار لجنة التحقيق الرسمية الذي صاغه القضاة الذين طالب بهم المنشقون أنفسهم. لذلك كانت لقرارات مجمع آرل- على وجه الخصوص- صدى مؤثرا في المغرب القديم. حيث تم إجماع كنائس الغرب الروماني على إدانة حركة "دوناتوس" وضرورة وضع حد لها، في حين أيدوا شرعية سيامة "كايكيليانوس".

أثارت تلك القرارات موجة من الاحتجاجات فعمت الاضطرابات وشاعت الفوضى، وطالب الدوناتيون بضرورة تدخل الدولة. فاستجاب الإمبراطور "قسطنطين" مبدئيا، لكنه

---

*- ***سلفستر (Sylvestre)***، قديس كاثوليكي، من مواليد روما، عين بابا من سنة 314 إلى سنة 336م، بعد وفاة "مليكياد" في شهر جانفي سنة 314م. تميزت فترة حكمه بنهاية الاضطهاد، وانعقاد مجمع نيقية (Nicée) سنة 325م الذي يعتبر أول مجمع مسكوني.*

- Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1827.

1- Eusèbe, (De Césarée), Hist. Eccles., X, 5, 21.

2- Gsell (S.), l'Algérie dans l'antiquité…, p. 114.

تردد ولمدة سنتين تقريبا. فكان– في عديد المرات– يغير القرارات والإجراءات، ودائم التفكير في أن يرسل قضاة إلى المغرب القديم أو أن يذهب هو بنفسه لحل النزاع الدائر هناك أحيانا، أو طرح القضية بروما أحيانا أخرى. لذلك أمر البروقنصل أن يرسل له "إينجنتيوس" (*Ingentius*) المتهم بتزوير وتمويه الحقيقة أثناء محاكمة "فليكس" الأبتونجي. [1] واستدعى "قسطنطين" الطرفين المتنازعين إلى روما، فحضر "دوناتوس" لكن "كايكيليانوس" غاب عن الحضور. [2]

وأمام استمرار الاضطرابات والتحريض بين الكاثوليك والدوناتيين قرر "قسطنطين" وضع حد للنزاع القائم في المغرب القديم. فأوفد اثنين من المحافظين إلى قرطاجة هما الأسقفان "أولمبيوس" (*Olympius*) و"أونوميوس" (*Eunomius*)، وكلفهما بإجراء تحقيق في عين المكان للحفاظ على وحدة الكنيسة الإفريقية، حتى ولو أدى الأمر إلى عزل المتنافسين: "دوناتوس" و"كايكيليانوس" وتعيين أسقف جديد لقرطاجة يرضى به الطرفين. وبعد أربعين يوما، غادر المحافظان قرطاجة بعد أن أعلنا شرعية سيامة "كايكيليانوس". [3]

أصدر "قسطنطين" –بعد أن تسلم قرار المحافظين– حكما في 10 نوفمبر سنة 316م، يعتبر فيه أن "كايكيليانوس" انتخب وتمت سيامته بطريقة شرعية، وبذلك فهو الأسقف الشرعي لكنيسة قرطاجة. [4] وبذلك اعتبرت الكنيسة المنشقة–أي الدوناتية– خارجة عن القانون.

[1]- *Augustin (St.), Epist., 88, 4 ; Contra Cresconium, III, 70, 81 ; Duschene (L.), Op.cit., p. 645.*
[2]- *Augustin (St.), Epist., 43, 7, 20.*
[3]- *Optat (St.), I, 26 ; Martroye (F.), « tentative de révolution sociale… », pp. 383- 384.*
[4]- *Augustin (St.), Contra Cresconium, III, 71, 82 ; Epist., 43, 2,5.*

وهكذا مكنت تلك الأحكام الصادرة في حق الدوناتية، من تغيير أسلوب ومنهج الحركة الدوناتية. فانتقلت من حركة ذات طابع ديني، إلى حركة ذات طابع سياسي معارض، مما ساهم في نموها واتساعها في مختلف مناطق المغرب القديم.

لقد سطعت الدوناتية في قرطاجة وفي المناطق الداخلية من البروقنصلية، وفي بيزاكينا (*Byzacène*) التي وصلها أساقفة منشقون أرسلهم "دوناتوس"، والذين استقبلوا بحماس شديد في مدن المقاطعة. [1] وحذت مقاطعة الطرابلسية (*Tripolitaine*) حذو بيزاكينا حيث وفرت عدد كبير من المنضوين تحت لواء الدوناتية. [2]

وحسب ما ذكره "أوغسطين" فإن أغلبية المسيحيين في تلك المقاطعات الشرقية الثلاث، بقيت وفية للكاثوليكية. [3] إلا أن الأمر يختلف في نوميديا التي كانت منذ ظهور الدوناتية إلى أواخر القرن السادس الميلادي قلعة الدوناتية، لذلك أطلق عليها اسم "الانشقاق النوميدي".

وقد استطاع الأساقفة النوميد اجتياح مقاطعات موريطانيا الثلاث في أواخر القرن الرابع الميلادي. [4] وأصبحوا فيما بعد أتباعا للأخوين الثائرين "فيرموس" و"جيلدون"، وخاصة للقائد "أوبطاتوس الثاموقادي". [5] وبذلك ضمت الكنيسة المنشقة في صفوفها فئات مختلفة من السكان من معمرين وأهالي من مختلف مناطق نوميديا.

فكانت الكنيسة الدوناتية إذن كنيسة قوية في ثاموقادي (*Thamugadi*)، وبغاي (*Bagai*)، واستمرت قوية لفترة أطول في سيرتا (*Cirta*)، وتاغست (*Thagaste*)، وهيبو-ريجيوس (*Hippo-Regius*) إلى أواخر القرن السادس الميلادي. [6]

---

[1] *-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 112.*
[2] *-Augustin (St.), Epist., 93. 8. 24.*
[3] *-Augustin (St.), Epist., 129, 6.*
[4] *- Optat (St.), II, 17- 19.*
[5] *- Augustin (St.), Contra Litter. Petil., I, 24, 26 ; Epist., 43, 8, 247.*
[6] *- Optat (St.), III, 4; Augustin (St.), Epist., 43, 8. 24 ; Contra. Litter. Petil., II, 23, 53-55.*

يتضح مما سبق، أن الدوناتية تجذرت في مقاطعة نوميديا، إلى حد عجزت فيه المجامع الكاثوليكية، والقوانين الإمبراطورية والإضطهادات الوحشية من استئصالها واقتلاعها من تلك المقاطعة. ويبدو أن الدوناتية خلال هذه المرحلة الأولى وإلى غاية صدور قرار "قسطنطين" في 10 نوفمبر 316م، انحصرت في نوميديا وضواحي قرطاجة حيث بقيت انشقاقا ذو طابع محلي، إلا أن هذه الوضعية تغيرت فيما بعد.

<u>المبحث الثاني-مرحلة الاضطهاد والقمع (317- 392م):</u> شهدت هذه المرحلة الثانية حركة نشيطة في تاريخ الصراع بين الدوناتية من جهة، والكنيسة الرسمية مدعمة من طرف السلطة الرومانية من جهة ثانية، وتمتد هذه المرحلة من أول اضطهاد سنة 317م في عهد الإمبراطور "قسطنطين"، إلى غاية سنة 392م تاريخ دخول القديس "أوغسطين" ساحة مواجهة الدوناتية ومجادلة زعمائها بعد توليه المهام الدينية بأسقفية "هيبو- ريجيوس" *Hippo- Regius* "عنابة حاليا".[1]

وقد عرفت هذه المرحلة عدة أحداث هامة كان لها الأثر البالغ في تطور أو تراجع الكنيسة المنشقة منها: صدور مرسوم التسامح سنة 321م، ومرسوم الوحدة والاضطهاد سنة 347م، ثم رد الفعل العنيف أيام الإمبراطور "جوليان المرتد" (*Julien*) سنة 362م، فصدور عدة مراسيم ضد الكنيسة المنشقة ابتداء من سنة 373م.

تعرض الدوناتيون إلى أول اضطهاد في عهد الإمبراطور "قسطنطين" عندما أصدر قانون سنة 317م الذي يقضي بمصادرة الكنائس الدوناتية وكل الأماكن التي كان يجتمع بها المنشقون ونفي زعمائها، بهدف القضاء عليها.

1- *منصوري خديجة، المرجع السابق ، ص 45.*

لذلك أمر الإمبراطور محافظيه بضرورة تطبيق القانون بصرامة، حيث قامت السلطة السياسية مع رجال الكنيسة الرسمية بمنع الدوناتيين من دخول الكنائس والاعتصام بها. (1)

فما كان على الدوناتيين إلا مواجهة هذه الإجراءات بالدفاع عن كنائسهم، وحدثت مواجهات عنيفة في عدة كنائس في قرطاجة أسفرت عن قتل العديد من المتعصبين– على حد قول مونصو–، ودفنوا في نفس الكنائس التي سقطوا بها قتلى (2)

وقد وصف القديس "أغسطين" مجمع قرطاجة سنة 336م أنه المجمع الذي حضره مئتين وسبعين (270) أسقفا دوناتيا ودام خمسة وسبعين (75) يوما. ومن بين القرارات التي اتخذتها الجمعية العامة (*Statuta Concilii*) استقينا قرار واحد فقط من خلال المصادر لكنه يكتسي أهمية بالغة للباحثين. وهو المتعلق بقبول "الخونة" و"المذنبين" من الكاثوليك المهتدين في الكنائس الدوناتية دون تحفظ ودون إعادة تعميدهم. (3)

والحق أن هذا المجمع كرس – حسب أوغسطين–الوحدة مع المتخاذلين والخونة، وبقي "دوناتوس" متحدا مع الأسقف "دوتريوس" (*Deuterius*) أسقف "ماكريانا" (*Macriana*) ومع كل أساقفة موريطانيا لمدة أربعين سنة. بينما بقي هؤلاء الأساقفة متحدين مع المتخاذلين ويقبلونهم في كنائسهم دون تعميد إلى غاية اظطهادات "ماكاريوس" (*Macarius*) التي بدأت سنة 347م. (4)

وقد اتسع نطاق الدوناتية الجغرافي إذ شمل مختلف ربوع المغرب القديم، فانتقلت من قرطاجة ونوميديا إلى موريطانيا، وأصبحت الحركة الوحيدة السائدة في هذه المناطق

1-*Martroye (F.), « tentative de révolution sociale… », p. 387- 388*
2-*Monceaux (P) H.L.A.C., IV, p. 469.*
3-*Augustin (St.), Lettres, XCIII, X, 43- 44*
4-*- Ibid., XCIII, X, 43.*

مما دفع "أوبطا الميلي" إلى القول:« ***لقد كان الدوناتيون حادي البصيرة في إغرائهم*** ***Subtiles In Seductio Ibus***.» [1]

استفادت الدوناتية من سياسة المماطلة والمجاملة التي انتهجها "قسطنطين"، فازدادت الطوائف المنشقة بسرعة مذهلة. حيث عقد مجمع قرطاجة سنة 336م والذي اتخذ قرارا يسمح للكنائس الدوناتية بأن تقبل في صفوفها الكاثوليك المهتدين دون إعادة تعميدهم. [2]

وكان الدوناتيون في نوميديا يشعرون أنهم الأسياد في هذه المقاطعة. لذلك لم يتوانوا لحظة في اغتصاب أملاك خصومهم، حيث استولوا على بازيليكة سيرتا رغم القوانين الإمبراطورية التي تعارض ذلك.

وبالرغم من تدخل "قسطنطين" الذي أصدر قانون 5 فيفري 330م – المذكور آنفا–والمتعلق بمنح الحصانة الكاملة لرجال الدين الكاثوليك. [3] إلا أنه تراخى في قضية بازيليكة سيرتا التي تركها للمنشقين خوفا من تجدد المواجهات وعمليات العنف بين الطرفين المتنازعين، ووعد الكاثوليك بتشييد كنيسة جديدة على حساب خزينة الدولة.

تفاقمت الأوضاع في عهد الإمبراطور " قسطانتيوس " [*] (*Constantius*) الذي خلف والده "قسطنطين" (*Constantin*) المتوفي في 22 ماي 337م. [4] وكان يعتقد أنه سينجح فيما فشل فيه والده. لذلك حاول السير على خطاه في البداية، فأصدر قانون

1- *Optat (St.), II, 17.*

2- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 30*

3- *Cod. Theod., XVI, 2, 7.*

*- ***قسطانتيوس*** *(Flavius Julius Constantius) : (317– 361م) إمبراطور روماني (337– 361م) الإبن الثاني لقسطنطين ورث العرش عن أبيه سنة 337م واقتسم مع أخويه : قسطنطين II وقنسطانس Constance، الشرق واليونان Grèce ، عرف بوحشيته وفضاعته توفي وهو في طريقه إلى مقاومة القيصر "جوليان– Julien" الذي أعلن نفسه إمبراطورا.* *- Dict. Univ. Hist. Géo., pp. 451- 452.*

4-*Martroye (F.), « tentative de révolution sociale… », p. 392 ; Augustin (St.), 151, 154 ; 164- 171 ; (B.A.28, pp. 171- 177)*

إمبراطوري سنة 338م موجه إلى الأفارقة [1] منتهجا سياسة المهادنة واللين، فأرسل محافظين إمبراطوريين إلى المغرب القديم هما: " بولوس" (*Paulus*) و"ماكاريوس" (*Macarius*)، (*) وكلفهما بتحقيق الوحدة الدينية بين الكنيستين المتعاديتين واستمالة المتعصبين من الدوناتيين – حسب ما أشار إلى ذلك أوبطا الميلي– عن طريق الإقناع أو الإستمالة، بتوزيع المساعدات والمؤن على مختلف الطوائف، بل ومنح الهدايا إلى العناصر المؤثرة في حزب دوناتوس.[2] لذلك عرف "بولوس" و"ماكاريوس" في تلك الفترة بـ " بناة الوحدة" (*Operarii Unitatis*). [3]

عارض "دوناتوس الأكبر" سياسة الإمبراطور "قسطانتوس" القائمة على أسلوب الإغراء وشراء الذمم بمنح المساعدات والصدقات لامتصاص غضب السكان ووقف في وجه مبعوثي الإمبراطور، لأن هذه السياسة تهدف أساسا إلى ضرب الحركة الدوناتية من الداخل.

لذلك وجه دوناتوس رسالة دورية يمنع فيها السكان من قبول المعونات المقدمة من طرف المحافظين، وبذلك أحبط خططهم وآلت هذه السياسة إلى فشل ذريع.

فما كان على المحافظان إلا أن لجأ إلى أسلوب العنف بعد استشارة الإمبراطور، الذي أصدر في منتصف سنة 347م مرسوم الوحدة يقضي بتوحيد ودمج الكنيستين

---

[1]- *Cod. Théod., IX, 34, 5.*

*- ***بولوس وماكاريوس:*** *مبعوثان إمبراطوريان أرسلهما الإمبراطور قسطانتوس وكلفهما بتوزيع المؤن سنة 347م في المغرب القديم خاصة في نوميديا معقل الدوناتية لمحاولة إقناع الدوناتيين بالرجوع إلى الوحدة الدينية الكاثوليكية، لكن دوناتوس لم يستقبلهم بل أمر الفقراء برفض المساعدات المقدمة لهم.وقد اشتهر مكاريوس بعنفه في معاملة الأساقفة الدوناتية خلال قيامه بمهمته.* *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.34 ; Martroye (F.), la Répréssion du Donatisme, pp. 60- 73.*

[2]- *Optat (St.), III, 3- 4*

[3]- *Optat (St.), I, 6- 7, III, 9- 10 ; Brisson (J.P.), Op.cit., p.292*

المتنافستين، ومعنى ذلك حل كل الطوائف المنشقة، ومصادرة جميع الكنائس والممتلكات ومنحها إلى الكنيسة الكاثوليكية. [1]

يعتبر إعلان الإمبراطور " قسطانتيوس" عن قرار الوحدة، استمرارا لقانون والده "قسطنطين" المعلن سنة 316م والذي لم يكن ملغى أو منسوخا صراحة منذ صدوره، لكن تطبيقه بقي معلقا بصدور مرسوم التسامح سنة 321م. [2]

وتم تنفيذ مرسوم الوحدة في مقاطعات البروقنصلية وبيزاكينا (*Byzacene*) والطرابلسية (*Tripolitaine*) دون أية مقاومة. [3] ربما يعود ذلك لقلة عدد المنشقين في تلك المقاطعات، حيث كانوا يشكلون مجموعات غير متماسكة، أو أن الثلاثين (30) سنة من السلم والأمن والازدهار التي عرفها المغرب القديم من 321م إلى 347م أفقدتهم نوعا من حيويتهم.

وجرت الأحداث الدموية في قرطاجة – على عكس المقاطعات المذكورة آنفا– التي كانت تضم عددا وافرا من المنشقين، حيث تعد قرطاجة العاصمة الرسمية للدوناتية، ومقر إقامة الزعيم الدوناتي ومركز النشاط السياسي للحركة وبها انعقدت أهم المجامع الكنسية. [4]

وبدأ العنف حينما علق قرار بروقنصلي بقرطاجة في 15 أوت سنة 347م يتعلق بتوحيد الكنيستين. فقام أحد الدوناتيين يدعى "ماكسيميانوس" (*Maximianus*) بتمزيقه، فأوقف وتم تعذيبه في السجن، ولقي زميله "إسحاق" (*Isaac*) الذي شتم الكاثوليك نفس المصير. وبعد تعذيبهما ألقيا في البحر الذي لفظ جثتيهما فانتشلهما الدوناتيون. [5]

أثار مرسوم " قسطانتيوس" حربا دينية حقيقية في نوميديا، حيث اعتبرت الدوناتية في ثاموقادي (*Thamugadi*)، وتيفست (*Theveste*)، وبغاي(*Bagai*) ديانة وطنية.

---

[1]- *Optat (St.), III, 1, 3; Augustin (St.), Lettres, CV, 2, 9; Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 217.*
[2]- *Cod. Theod., XVI, 6, 2.*
[3]- *Optat (St.), III, 4*
[4]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 125.*
[5]- *Ibid., pp. 35- 36.*

ذلك أن الطوائف المنشقة في هذه المناطق كانت أكثر عددا وقوة من الكاثوليك. وكانت مدينة بغاي من أهم المناطق المعارضة لقرار الوحدة. فقام "دوناتوس" بتنظيم الدفاع على المدينة، واستعان بالثوار الريفيين "الدوارين". -سيأتي الحديث عنهم في الباب الرابع من هذا البحث-، ونشر إعلانا تم توزيعه في تخوم نوميديا وأسواق المنطقة يدعو فيه المسيحيين الحقيقيين للمقاومة والدفاع عن كنائسهم. (1)

حصن "دوناتوس" مدينة بغاي وحول كنائسها إلى مخازن للحبوب وجمع المؤن استعدادا للمواجهة. (2) ولما بلغت تلك الأخبار للمحافظين أن "دوناتوس" قام بالتحضير للحرب، طلبوا مساعدة كونت (*conte*) (*) إفريقيا "سلفستر"(*Silvestre*). فسارت فرقة من الجيش بقيادة أسقف إلى مدينة بغاي، وفي ضواحيها تلقت هذه الفرقة إهانات من قبل الدوناتيين، فما كان على الجيش إلا أن قضى عليها. (3) وشهدت بغاي بعدها مواجهات دامية بين الجيش والدوناتيين في صيف سنة 347م، يحتمل أن "دوناتوس بغاي" لقي حتفه أثناءها، وتم تكريمه فيما بعد كشهيد. (4)

وفي تلك الأثناء، انعقد مجمع إقليمي دوناتي في نوميديا في صيف سنة 347م، بهدف الاحتجاج على أعمال العنف التي قادها "ماكاريوس" (*Macarius*)، والدعوة إلى استعادة السلم والأمن في المنطقة.

وعن هذا التدخل لرجال الكنيسة المنشقة قال أحد كتاب الحركة الدوناتية:« ***اجتمع أساقفتنا وقرروا إرسال عشرة من ألمع الأساقفة إلى ماكاريوس، وحملوا له تحذيرات شديدة،***

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 36*
[2]- *Pallu de Lessert, Fastes des provinces Africaines sous la domination romaine, Tome 2, Paris, 1901, p. 243.*
*- ***الكونت Conte***، وهو منصب استحدثه الإمبراطور قسطنطين الذي عين عددا من أتباعه في مهام متنوعة : مالية، عسكرية وإدارية بجانب الحكام والولاة، وكان كونت إفريقيا يعوض الوالي *Vicerius* أو يعمل قائدا للجيش.
-Petit (P.), H.G.E.R., t. III, p.73.
[3]- *Optat (St.), III, 4.*
[4]- *Optat (St.), III, 6 ; Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, 20, 46*

حتى يتوقف عن جرائمه التي راح ضحيتها الكثير من أنصارنا في ساحة هذه المعركة الدينية. » (1)

اجتمع هؤلاء الأساقفة بالمبعوث الإمبراطوري "ماكاريوس" في مدينة "فيجبزيلا" (*Vegesela*) (*) "قصر الكلب" حاليا شمال الأوراس بين مدينة "تيفست" (*Theveste*) تبسة حاليا و"ماسكولا" (*Mascula*) خنشلة حاليا، وبذلوا كل الجهد لاستعادة السلم. إلا أن تصرفهم اتسم بالفظاظة فكان رد "ماكاريوس" عنيفا إذ أمر بضربهم بالعصي، وزجهم في السجن. (2)

أثارت هذه الأحداث غضب سكان منطقة "فيجبزيلا" الذين دخلوا في مناوشات مع جيش "ماكاريوس" فسقط عدد من الضحايا منهم "فليكيانوس" (*Felicianus*) الذي قتل في 29 جوان 347م بمدينة "فيجبزيلا". (3) مما دفع المبعوث الإمبراطوري إلى إطلاق سراح تسعة أساقفة الذين أرسلهم مجلس سيرتا واحتجز الأسقف العاشر الذي كان أكثرهم صلابة، ويدعى "ماركولوس" (*Marculus*) الذي طاف به في عدة مدن نوميدية ثم قتله بأن ألقى به من أعلى جرف. وقد ادعى الكاثوليك أنه انتحر بهذه الطريقة (**)

---

[1]- *Passio Marculi, p. 761 ; d'aprés Monceaux (P.), H. L .A. C., IV, pp. 335- 336.*

- عن مطابقة فيجبزيلا مع قصر الكلب أنظر : - Cayrel (P.), « une Basilique Donatiste de Numidie », M.E.F.R., LI, 1934, p.114 ; Duval (N.), une nouvelle édition du « dossier du Donatisme », R.E.A., n°35, 1989, pp.171-179, (p.174).

[2]-*Monceaux (P.), H. L .A. C., IV, p. 37.*

[3]-*Birebent (J.), Aquae Romanae, service des antiquités de l'Algérie, p. 364- 365 ; Gsell (S.), Notes d'archéologie Algérienne, B.C.T.H., 1899, p. 455 ; Id., A.A.A., f. 28, n°171.*

***- نلاحظ التناقض والتردد في تصريحات أوغسطين حينما تعرض في بعض الفقرات إلى وفاة "ماركولوس" إذ يرجح الإنتحار على القتل تارة إذ قال: « أما دوناتوس "أسقف بغاي الذي قاوم المبعوثين الإمبراطوريين" وماركولوس الذين تستعملون اسميهما لإذكاء حقدكم، فلا يعرف بصراحة هل رميا نفسيهما من المرتفعات تلقائيا، أو أنه قرار السلطة التي حكمت عليهما بذلك. » ويعترف أوغسطين في فقرة أخرى بأنه لا يملك الحجة على ذلك فيقول:« أنا أحكي ما سمعت عن ماركولوس، ولماذا أرجح هذه الرواية "انتحار ماركولوس"، الله وحده يعرف الحقيقة ».*

على كل مهما اختلفت الروايات حول وفاة ماركولوس فإن ذكراه ظلت خالدة في أذهان الدوناتيين الذين أقاموا له ضريحا في فيجبزيلا (Vegesela) قصر الكلب حاليا قرب خنشلة، كما دخل قائمة الشهداء وخصص له كتاب "آلام ماركولوس" (Passio Marculi) لا زال محفوظا إلى اليوم. - Courcelle (P.), « une Seconde Campagne de Fouilles à Ksar El Kelb », M.E.F.R., 1936, pp. 166- 197 ; Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XLIX, 54. Augustin (St.), Cont.Litter. Petil., II, XX, 46.

في مدينة "نوفابترا" [*] (*Nova Petra*) في 24 نوفمبر سنة 347م. [1]

وأشار "أوبطا الميلي" أن الدوناتيين أكدوا فيما بعد أن جلادي "مكاريوس" ألقوا به حيا من أعلى أحد الجروف وأصبح قبره فيما بعد محجا للكثير من الدوناتيين. [2]

والحقيقة أن مرسوم "قنسطانس" أثار غضب سكان المغرب القديم حسب رواية أوغسطين. ومع انتشار القمع أدى ذلك إلى فرار أغلب الأساقفة ورجال الدين الدوناتيين مع أتباعهم من قرطاجة ونوميديا إلى مناطق أكثر أمنا. [3] وقد نشبت معارك طاحنة أسفرت عن سقوط عدد من الضحايا أضيفوا إلى قائمة الشهداء في فترة عرفها الدوناتيون "بزمن ماكاريوس" (*Macarius Tempora*). [4]

غير أن القمع بلغ درجة من الحدة جعل الكاثوليك أنفسهم يترددون في الدفاع عن "بناة الوحدة" (*Operarii Unitatis*) الذين تركوا سمعة سيئة شبيهة بسمعة الجلاد كما شهد بذلك "أوغسطين". [5]

ولكي تكتمل صورة تحقيق الوحدة باستخدام القمع، قام "ماكاريوس" بنفي "دوناتوس" القرطاجي خارج إفريقيا مع بعض الأساقفة الرئيسيين في الكنيسة الدوناتية،

---

*- ***نوفابترا Nova Petra***، *تعني الصخرة الجديدة، وهي منطقة تقع على بعد 20 كلم عن ديانا (Diana Veteranorum) زانة حاليا شمال باتنة، وتبعد بحوالي 22 كلم عن جميلاي Gemellae (القصبات حاليا) في الموقع المسمى هنشير بن خليفي أو هنشير إنكدة حاليا عند سفح جبل أغمروال، اعتبرت مدينة مقدسة لدى الدوناتيين بعد مقتل ماركولوس.*

- Tissot, Géographie Comparée…, II, p. 509 ; Toulotte (Mgr.), Op.cit., p. 242 ; Gsell(S.), Recherches Archéologiques, p. 200 ; Id., A.A.A., f.27, n° 3, 62 ; Ragot (W.), «le Sahara de la province de Constantine », R.S.A.C., XVI, 1873- 1874, p. 228 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p.287.

1- Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 217.

2- Optat (St.), III, 6 ; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 20, 46 ; Cont. Cresc., III, 49, 54.

3- Augustin (St.), Lettres, LXXXVIII; Julien (Ch. A.), Op.cit. p.217.

4-Optat (St.), III, 1

5-Augustin (St.), Lettres, XLIV, 2, 4.

التي صودرت كنائسها لصالح الكاثوليك. واستطاع بعدها المحافظون الإمبراطورون والحكام أن يبلغوا الإمبراطور أن السلم والوحدة قد تحققا في منطقة المغرب القديم. (1)

تزايد العداء لـ"ماكاريوس" وللكنيسة الرسمية نتيجة تلك الأحداث الدموية التي كان لها أثر واضح في انتشار الدوناتية بين الأوساط الشعبية التي أدانت الكنيسة الرسمية من خلال أحد النصوص الدوناتية التي أوردها بريصون:«***من لا يعرف أن هؤلاء المتخاذلين الذين اضطهدونا، طلبوا منا إرسال عرائض كاذبة إلى كل أمراء هذا القرن، وتحت الضغط والتهديد بالإبعاد حاولوا حملنا على مشاركتهم آرائهم كي نبتعد عن أوامر وتعاليم الله، لقد قامت السلطة الزمنية بإرسال عدة محافظين من أمثال: "ليانتيوس" (Leontius)، "أورساكيوس" (Ursacius)، "ماكاريوس" (Macarius)، "بولوس" (Paulus)، "طورينوس" (Taurinus) و"رومانوس" (Romanus) وغيرهم، لسفك دماء المسيحيين.*** » (2)

وأشار "بريصون" إلى أحداث بغاي الدموية قائلا: «***وقد سقط خلال تلك الفترة العديد من الأساقفة القديسين المحترمين، وتعرض بعضهم للنفي، وتعرضت العذارى الطاهرات للاغتصاب، وأبعد الأغنياء، وجرد الفقراء، وصودرت الكنائس والمعابد، واضطر الأساقفة إلى الفرار، ولا أحد يعلم حجم الجرائم التي ارتكبت، وفي نهاية المطاف، سفكت في مدينة بغاي وحدها دماء العديد من المسيحيين بسبب هؤلاء الخونة المتخاذلين.*** » (3)

لقد أثرت تلك الأحداث – كما أسلفت–في اتساع رقعة الدوناتية خاصة في نوميديا التي شهدت اضطهادات رهيبة في سنة 347م مما جعل "بتيليانوس" (*) (*Petilianus*) أسقف سيرتا يردد ذكرى تلك الإضطهادات في وجه خصومه الكاثوليك

1-*Optat (St.), II, 15 ; I, 4 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 37- 38.*
2--*Brisson (J.P.) , Op.cit., p. 290.*
3--*Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 290-291.*

*- ***بتيليانوس (Petilianus)***، أسقف قرطة (Cirta) قسنطينة حاليا، أحد كبار أساقفة الدوناتية وواحد من بين ممثليهم السبعة في مناظرة قرطاجة سنة 411م، كتب في حوالي سنة 398–399م "رسالة إلى الأساقفة والشمامسة" الدوناتيين ضمنها انتقادات لاذعة للكنيسة الكاثوليكية، ورد عليه أوغسطين بثلاثة كتب في حوالي 400– 403م.*
Quinot (B.), Introduction Génerale au « Contra Litteras Petiliani », B.A., 30, pp.9-41.

قائلا:« *إن الكتاب المقدس يقول: لا تقتل أخاك وأنتم قتلتمونا... ولا تأخذ متاع غيرك، وأنتم نهبتم أملاكنا واعتبرتموها ملكا لكم.* » (1)

وخلفت أعمال العنف عدد من الشهداء حملت النقوش أسماء بعضا منهم، ومنها نقش عثر عليه في منطقة هنشير بوسعيد قرب مدينة "فيجيزيلا" (*Vegesela*) "قصر الكلب" قرب خنشلة حاليا. وهو عبارة عن صخرة بطول 0.57 متر وعرض 0.23 متر وجدت في كنيسة تظهر شخصا مكبل بأغلال يحمل في يده اليسرى عصا، ويده اليمنى مقيدة بسلسلة حديدية، وعل صدره رسم بحرف (*X*)، وفي رأسه باب يحتمل أنه باب سجن، وفي أعلى الرأس نقشت عبارة *Donatus Milex* وتعني "جنود دوناتوس" مما يوحي أن الدوناتيين كانوا مسلحين بالعصي، ولا يحملون السكاكين لأن السيد المسيح عليه السلام – حسبهم– قد نهاهم عن استخدامها. (2)

يبدو أن هذه النقوش قد سجلت تلاحما بين الحركة الدوناتية وثورة الريفيين. وقد ذكر "بول مونصو" *(P.Monceaux)* أن أنصار وأتباع الدوناتية كانوا يدعون بـ "جنود دوناتوس والمسيح" (*Donatus Mile(s) Ch(risti*) ، والثوار الريفيين "الدوارين" يعرفون بـ "جنود المسيح " *Miles Christi*".(3)

وأشار القديس "أوغسطين" أن العصا التي يحملها شخص في نقش هنشير بوسعيد، هي تلك العصا التي تسقط على ظهور الكاثوليك. وهي السلاح المفضل لدى الثوار الريفيين، إذا علمنا أن هنشير بوسعيد كانت تضم العديد من الدوناتيين. ومعنى ذلك أن هذا النقش يشير إلى أن الشهيد الذي يحمل العصا كان دوناتيا، وهو أحد الشهداء الذين ورد ذكرهم في النقش. (4)

1-Augustin (St.), Contra Litteras Petiliani.
2- Jacques-Paul (dir.), Pluquet (l'abbé), Dictionnaire des Hérésies, p. 649.
3- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 476.
4- Augustin (St.), Contra Litteras Petiliani, II, 88, 195 ; Contra Cresconium, III, 42, 46.

بعد كل الانتصارات التي حققتها الكنيسة الرسمية في عهد "ماكاريوس" على الدوناتية بأعمال العنف الممارس ضدها، كاغتيال أنصارها ونفي زعمائها ومصادرة ممتلكاتها، انعقد مجمع كنسي عام في قرطاجة سنة 348م برئاسة "غراتوس" (*Gratus*) أسقف قرطاجة ورئيس الكنيسة الإفريقية، من أجل إعادة تنظيم الكنيسة الكاثوليكية في المغرب القديم، التي أعاد لها الإمبراطور قنسطانس حريتها. (1)

افتتح "غراتوس" هذا المجمع بخطاب احتفالي، حمد فيه الله على عونه في القضاء على المنشقين، وأثنى على الإمبراطور مشيدا بقرار الوحدة، وبعمل "ماكاريوس" و"بولوس". واختتم المجمع أشغاله، حيث أصدر مجموعة من القوانين والشرائع الكنسية، اثنين منها موجهة ضد الدوناتية، الأول يخص رفض إعادة تعميد الهراطقة المنشقين الذين عادوا إلى حظيرة الكنيسة الرسمية. أما الثاني فيتعلق بحظر وتحريم تسمية قتلى الدوناتيين بالشهداء. (2)

ورغم ذلك فقد عجزت هذه القوانين القضاء على الحركة الدوناتية التي ترسخت أكثر في نفوس الجماهير الشعبية في المغرب القديم. رغم أن "أوبطا الميلي" خاطب الدوناتيين قائلا:« **إن شعوب إفريقيا والشرق ومسيحيي ما وراء البحر كانوا متحدين في سلام الوحدة، وأعادوا بناء الكنيسة في جو من الانسجام التام بين أعضائها، في هذا الوقت بالذات كان أساقفتهم وزعمائهم في المنفى، وهم يستحقون ذلك، وفي الكنيسة الرسمية لا يوجد أي انشقاق، فالسلام أصبح يعم كل الشعوب المسيحية**» (3)

والحق أن الحركة الدوناتية لم يتم القضاء عليها كما ذهب إلى ذلك "أوبطا الميلي". صحيح أن الأوضاع كانت هادئة ولم يشهد المغرب القديم أية مقاومة أو اضطرابات إلى غاية سنة 352م، حيث تعد هذه الفترة من أخطر المراحل في تاريخ

1- *Monceaux (P.), H.L.A.C., III, p. 221 ; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 312*
2-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 350.*
3- *Optat (St.), II, 15.*

الحركة الدوناتية والتي فقدت فيها الكثير من رجالها وأتباعها. إلا أن الأوضاع تغيرت في سنة 355م حينما توفي "دوناتوس الأكبر" في منفاه، وانتخب الأسقف "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) خلفا له كأسقف للكنيسة الدوناتية في قرطاجة. [1] فأعطى نفسا جديدا للحركة، التي كانت بمثابة النار تحت الرماد وتنتظر الريح لتشتعل من جديد، على حد وصف "بول مونصو". [2]

وتمكن "بارمينيانوس" طيلة أربعين سنة على رأس أبرشية قرطاجة، من بعث الحركة الدوناتية من جديد. وهو الذي يتمتع بخصال الزعيم، فكان خطيبا وكاتبا وصاحب مذهب، مدبرا للأمور باستقامة. لاشك أن الفضل الكبير في انتشار الدوناتية يرجع إليه، كما اعترف له بذلك خصمه "أوبطا الميلي" الذي قال:« ***كانوا يعبدونه كما يعبدون الله.*** » [3] لقد أمكن للكنيسة في المغرب القديم أن تنعم طيلة 15 سنة (348 – 362م) بالأمن والسلام والوحدة، بعدما تخلصت من أعدائها بالتقتيل والطرد والضغط، باتحادها مع السلطة الزمنية، هذه السلطة التي كانت الكنيسة تتردد في الإستنجاد بها لمواجهة الدوناتية ابتداء من عهد "قنسطانس" (337–350 م).

استفادت الدوناتية من فترة حكم الإمبراطور "جوليان"[*] (*Julien*) – رغم قصرها– (361–363م) من إعادة بعث الحركة بعدما ألغى سياسة سلفه، وخلال عدة أشهر أعيد بناء الكنيسة المنشقة، وازداد نفوذها أكثر من أي وقت مضى. [4]

---

[1] - *Optat (St.), III, 3.*

[2] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 40, 336.*

[3] - *Julien (Ch.A.), Op.cit, pp. 218- 219.*

*- ***جوليان Julien*** *أو* ***يوليانوس،*** *Flavius Claudius Julianus (331–363م) إمبراطور روماني (361–363م) لقب بالمرتد l'Apostat ابن قنسطانس، ولد بالقسطنطنية، كان حاكما على غاليا (فرنسا)، رفض المسيحية، وحاول إحياء الوثنية، وارتدى ثوب الغنوصية Stoicisme كان متعصبا للتراث اليوناني، فيلسوف غامض الفكر، وعدوا لدودا للمسيحيين الذين جردهم من كل امتيازاتهم، ومن أبرز أعماله: القياصرة الإثني عشر les douzes Cesars والرسائل "lettres"، والأعمال الكاملة Oeuvres Completes، توفي في 26 جوان 363م وعمره 32 سنة. شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، تر. عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص 177. Dict. Univ. Hist. Géo., p. 977.*

[4] - *Meynier Gilbert, Op.cit., p. 163.*

استعمل الإمبراطور "جوليان" وسائل خادعة في حملته ضد المسيحية، وحرم رجال الدين الكاثوليك من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها من قبل. وفجر الحرب الدينية في كل مكان بحجة التسامح، فأعاد المنفيين وأعلن الحرية الدينية لكل الفرق والطوائف. (1)

لقد استغل الدوناتيون الفرصة فأرسل عدد من أساقفتهم عرائض أمثال: "بونتيوس" (*Pontius*)، و" روقاتيانوس " (*Rogatianus*) و" كاسيانوس " (*Cassianus*) إلى الإمبراطور "جوليان" يدعونه فيها إلى استعادة حرياتهم الدينية مستندين إلى القانون الذي ينص على حق التمثيل الدوناتي كبقية الفرق، وذلك بإلغاء مرسوم "قنسطانس"، وإرجاع المنفيين والمبعدين الأفارقة. (2)

وهكذا سمحت الإجراءات التي اتخذها الإمبراطور "جوليان المرتد" بموجب "مرسوم إمبراطوري" (*) صدر في بداية سنة 362م يكرس الحرية الدينية، أن يستجيب لمطالب الدوناتيين الذين استعادوا المعابد والكنائس وحرية العبادة، والحق في الحياة، وعودة المنفيين، واسترجاع الممتلكات التي صودرت من قبل. (3) وبهذه الإجراءات يكون الإمبراطور "جوليان" قد أعلن حربا دينية حقيقية.

---

[1]- *Optat (St.), II, 16- 17 ; Augustin (St.), les Confessions, trad. par Joseph Trabucco, Paris, G.F. Flammarion, 1964, VIII, 5, 10.*

[2]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 40- 41 ; Martroye (F.), Op.cit., p. 410.*

*- ***مرسوم جوليان***، صدر سنة 362م وهو عبارة عن عريضة الدوناتيين التي نشرت فيما بعد في 25 فبراير سنة 405م بقرار من الإمبراطور "هونوريوس" (395-423م) حتى يبين أن عمل الدوناتيين هذا كان عملا مقيتا وشنيعا، لما طلبوا من الإمبراطور "جوليان" التدخل وهو وثني ومرتد لإنصافهم، وكان غرض "هونوريوس" من نشر ذلك القانون هو فضح الدوناتيين. *- Cod. Théod., XVI, V, 375, XI, 2. 11.*

[3]- *Optat (St.), II, 16; Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, 97, 224 ; Julien, Œuvres Completes de l'émpereur Julien, par Eugène Talbot, Henri Plon, Paris, 1863, Epitres XXVI, LII ; Socrate, Histoire de L'Eglise, trad. ParM. Cousin, Paris, Damien Foucault, 1686, III, 1.*

وإذا كان القديس "أوغسطين" يصف الإمبراطور "جوليان" بالمرتد (*l'apostat*) والوثني (*Paien*) فإن الدوناتيين أثنوا عليه. فقد عثر في نوميديا على نقش يعظمه يحمل عبارة "مصلح الحرية والعبادات الرومانية". [1]

وفي ذلك إشارة إلى الإمبراطور "جوليان" وعودة الديانة الوثنية التي ظهرت في صفوف بعض الموظفين، ومنهم حاكم نوميديا "كايونيوس ألبينوس" (*Caeonius Albinus*) في الفترة مابين 364 و367م الذي رمم معبدا للإله نبتون (*) (*Neptune*)، في لمبازيس "تازولت" قرب باتنة حاليا. [2]

وأقام معبدا تحت الأرض في سيرتا مكرسا للإله "ميترا"(**) (*Mithra*)، ورمم مقر الكابيتول (*Capitole*) في تيمقاد. [3]

عزم الدوناتيون على تنفيذ بنود مرسوم "جوليان" فعاد المنفيون، واستعادت الكنائس نشاطها، وطالب الأساقفة أمام المحاكم بمعابدهم وممتلكاتهم. وفي غمرة الفرح، قامت مجموعات من المتعصبين، يجوبون مدن وقرى نوميديا وموريطانيا بأعمال عنف لبعث وإحياء طوائفهم. [4]

وقد أذهلت أعمال السلب والنهب والقتل حكام المقاطعات الإفريقية الذين وجهوا تقاريرهم إلى الإمبراطور ليبلغوا عن فضائع وعنف المنشقين. [5] ومن هذه التقارير تقرير

---

[1]- *Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, 97.*

*- *نبتون (Neptune)، إله البحر عند الرومان، ويماثله الإله "بوسيدون" "Poséidon" عند الإغريق، كان نبتون يعبد في سواحل كل من "شولو" القل "Chulu" و"صلداي-بجاية" "Saldae" كإله للبحر، ثم يتحول إلى المياه الجارية في المناطق الداخلية مثل السهول العليا بقسنطينة وتونس، وكانت عبادته تختص ببلاد المغرب القديم. محمد الصغير، الملامح الباكرة للفكر الديني غانم الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين مليلة، 2005، ص 126.*

[2]-*Optat (St.), II, 16.*

**- *ميترا (Mithras-Mithra)، إله فارسي قديم، يرمز إلى الخصب والخلود، دخلت هذه العبادة إلى روما سنة 67 ق.م، ويرمز لها بشاب يرتدي قبعة وسترة خضراء ومعطف يتدلى على الكتف الأيسر، يحمل سيفا غرزه في عنق ثور، وقد اختفت هذه العبادة في نهاية القرن الرابع الميلادي. - Dict. Univ. Hist- Géo, pp. 1264- 1265.*

[3]- *Gsell (S.), L'Algérie dans l'antiquité…, pp. 68- 69 .*

[4]- *Optat (St.), II, 17- 19, III, 3 ; Augustin (St.), Contra. Epist. Parmen., I, 12, 19.*

[5]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 244.*

حاكم موريطانيا القيصرية "أثنيوس" (*Athenius*) الذي كان شاهد عيان على هجوم المنشقين على كنيسة تيبازا (*Tipaza*). [1]

ويشير "أوبطا الميلي" أن الأعمال الشنيعة التي ارتكبت في الكنيسة الكاثوليكية بتيبازا التي هاجمتها مجموعة من الدوناتيين من قتل الأطفال والأساقفة الكاثوليك، واغتصاب النساء، ورمي الأساقفة للكلاب كقربان، لم تكن لتحدث لولا تواطؤ حكام موريطانيا القيصرية. فهو لا يشبه حكام المقاطعات الأخرى الذين وجهوا التقارير إلى الإمبراطور. [2]

وبلغ الأمر بأحد الأساقفة الدوناتيين يدعى "فوستينوس" (*Faustinus*) أسقف "هيبون" (*Hippone*) عنابة حاليا، أن يمنع الخبازين في أبرشيته من طهي الخبز للكاثوليك، رغم أنهم كانوا أقلية، وبذلك حكم عليهم بالموت جوعا. [3]

ورغم كل ما حدث، فإن المنشقين لم ينعموا طويلا بانتصاراتهم، فبعد عشرين شهرا من الحكم توفي الإمبراطور "جوليان" في 26 جوان 363م بعدما أصيب في معركة ضد الفرس بالشرق. [4] فانقلبت الأوضاع رأسا على عقب وفرضت عقوبات جديدة وكان ذلك إيذانا بإشعال نار الفتنة من جديد. [5] وخلفه "جوفيانوس" (*) (*Jovien*) 363 – 364م الذي عبر عن نيته في انتهاج سياسة التسامح تجاه جميع

---

[1]- *Optat (St.), II, 18.*
[2]- *Optat (St.), II, 17 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 43 ; Martroye (F.), Op.cit, p.414.*
[3]-*Augustin (St.), Contra Litteras Petiliani, II, 83 ; Poujoulat (M.), Histoire de Saint Augustin , 5e édition, Alfred Mame et Fils, Tours, 1866, p.230.*
[4]-*Ammien Marcellin, XXV, 3 ; Christol (M.), et Nony (D.), Rome et son empire, librairie Hachette, Paris, 1990, pp. 249, 260 ; Martroye (F.), Op.cit, p. 416.*
[5]- *Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 219.*

*-**جوفيانوس** *Flavius Claudius Jovianus*، إمبراطور روماني (363-364م)، ولد في "سنغيدونوم" *Singidunum* إحدى مدن مقاطعة "داشيا" *Dacie* في رومانيا حاليا، كان قائدا للحرس الإمبراطوري، لما توفي "جوليان" كان الجيش الروماني في حملة ببلاد فارس، وكانت الإمبراطورية تمر باضطرابات خطيرة، لذلك قام الجيش بإعلان "جوفيان" إمبراطورا، فتفاوض مع ملك الفرس "سابور الثاني" *Sapor II* واضطر إلى التخلي عن المقاطعات الرومانية في بلاد الرافدين للفرس، واتجه إلى القسطنطينية لتولي العرش فوافته المنية هناك في 17 فيفري 364م.
- Dict. Univ. Hist- Géo, p 972.

النحل والطوائف المسيحية إلا أن حكمه كان قصيرا استمر ثمانية أشهر (26 جوان 363م –17 فيفري 364م). [1] لذلك عجز عن تحقيق السلم والأمن وتوحيد الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية رغم أنه ألغى الإجراءات التي اتخذها الإمبراطور "جوليان" ضد المسيحيين وأعلن مرسوما عاما للتسامح.

ويتساءل الباحث عن الأسباب الحقيقية التي دفعت الإمبراطور "جوليان" إلى إصدار مرسوم سنة 362م؟ هل كان يهدف إلى خدمة الكنيسة المسيحية؟ ألم يكن العدو اللدود للمسيحيين وهم الذين لقبوه بالمرتد، وكان في صراع حاد مع المسيحية خلال هذه الفترة؟ أم أنه كان يريد تطبيق مبدأ التسامح بين مختلف الطوائف والنحل المسيحية؟

يعتقد بعض المؤرخين الكلاسيكيين ممن اهتموا بالتاريخ الكنسي ومنهم: "سقراط" (*Socrate*) (*) و"سوزومان" (**) (*Sozomene*) أن جوليان أراد أن يكسب حظوة لدى الجماهير الشعبية ويجعل من سابقه – أي الإمبراطور "قنسطانس" (*Constance*) – مقيتا وشنيعا لما أصدر مرسوم الوحدة سنة 347م. [2]

في حين أشار المؤرخ اللاتيني "أميان مارسلان" (***) (*Ammien Marcellin*) الوثني المعاصر لـ"جوليان":« ***أن الإمبراطور "جوليان" استدعى الأساقفة من مختلف النحل***

[1]- *Martroye (F.), Op.cit., p. 416.*

*– **سقراط Socrate**، كاتب مسيحي، عرف بالفيلسوف المدرسي le Scholastique، ولد بالقسطنطنية في نهاية القرن الرابع الميلادي، أكمل كتابة التاريخ الكنسي لأوزبيوس Eusébius بإضافة سبعة كتب تمتد من سنة 306م إلى سنة 439م، لم يكن نزيها ومتجردا في كتابه التاريخ.* - *Dict. Univ. Hist. Géo, p. 1780.*

– ***سوزومان، Sozomene*، مؤرخ إغريقي، ولد بفلسطين في بداية القرن الخامس الميلادي، كان محاميا بالقسطنطنية، كتب التاريخ الكنسي في 9 أجزاء يمتد من 324م إلى 439م.* -*Ibid., p. 1794.*

[2]- *Socrate, Op.cit.., III, 1 ; Sozomene, Histoire de l'église, trad. Mr.Cousin, Paris, Damien Foucault, 1686, V, 5.*

– ***أميان مارسلان، Ammien Marcellin، مؤرخ لاتيني ولد بأنطاكية سنة 320م، توفي بروما سنة 390م، شارك في حرب جرمانيا وغاليا حيث كان ضابطا في الجيش الروماني، صاحب الإمبراطور "جوليان" في حملته ضد الفرس، استقر بروما وكتب "التواريخ- Histoires" في 13 كتابا لم يصلنا جلها، تمتد من عهد نرفا (Nerva) إلى عهد فالانس (Valens) من سنة 96م الى سنة 378م، وما وصلنا تلك الفترة التي عاشها من 352م الى 378م.*
- Dict. Univ. Hist. Géo, pp. 68- 69.

والمذاهب للحضور إلى قصره، وأوعز لهم بلطف أن الخلافات بينهم يجب أن تنتهي، ولكل الحق في الحرية الدينية، وإذا بدا متسامحا فلأنه كان يعتقد أن هذه الحرية ستعمق أكثر الخلافات والانشقاقات وبذلك لن يكون هناك إجماع ضده في المستقبل، مع العلم أن المسيحيين إذا انقسموا حول العقيدة، فإنهم سيكونون أشرس من الحيوانات من معاملة بعضهم البعض. » (1)

يبدو من النص أن الإمبراطور "جوليان" انتهج سياسة مغايرة تماما لسابقيه، فقد تحول من المسيحية إلى الوثنية فلقب "بالوثني" و"المرتد"، واتبع أساليب ماكرة وخادعة لبلوغ أهدافه، ألم يكون فيلسوفا وكاتبا وخطيبا بارعا. وتطورت سياسته الدينية تجاه المسيحية، فتحولت من التسامح إلى العداء، وقد بلغ به الأمر أن منع المعلمين المسيحيين من التعليم، وخيرهم بين الإيمان والتعليم، وبين المسيحية والهللينستية (*Hellénisme*).

وهكذا اتسمت الفترة التي تمتد من سنة 363م تاريخ وفاة "جوليان" إلى سنة 392م بطغيان الجدل بين الكاثوليك والدوناتيين، وصدور العديد من القوانين والمراسيم الإمبراطورية ضد المنشقين.

وهي الفترة التي قاد فيها الكونت "رومانوس" (*Romanus*) جيش إفريقيا من سنة 363م الى سنة 372م، الذي عرف بابتزازه للسكان وبإشرافه على جباية الأموال بطرق غير قانونية، والذي صنف من قبل الدوناتيين كأشرس وأعنف مضطهديهم. (2)

وقد حاول الإمبراطور "فالنتنيانوس الأول" (*) (*Valentinianus I*) خلال تلك الفترة أن يوقف حملة رسائل الهجاء والقدح بين الكاثوليك والدوناتيين، بأن أصدر

1- *Ammien Marcellin, XXII, 5.*

2- *Ammien Marcellin, XXVIII, 6 ; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., III, 25, 29.*

*- ***فالنتنيانوس الأول Flavius Valentinianus***، *(321-375م) إمبراطور روماني (364-375م) ابن "غراتيانوس" كونت إفريقيا، أعلن أغسطس من طرف الجيش في نيقية Nicée، منح لأخيه "فالانس" Valens الشرق واحتفظ هو بالغرب، عرف بوحشيته تجاه معارضيه، ترك ولدين هما "غراتيانوس Gratianus وفالنتنيان الثاني اللذان خلفاه بعد وفاته سنة 375م. هـ. آيدرس بل، المرجع السابق، ص 218. . - Dict. Univ. Hist. Géo, p. 1934*

مرسومين إمبراطوريين (*de Famosis Libellis*) في 20 فيفري سنة 373م وجههما إلى بروقنصل إفريقيا "يوليانوس" (*Julianus*). ينص المرسوم الأول على منع تطبيق التعميد الثاني، وينص الثاني على عزل كل أسقف ثبت أنه أعاد التعميد. (1)

ولما اعتلى ابنه الإمبراطور "غراتيانوس" (*) (*Gratianus*) العرش في سنة 375م أصدر في 22 أفريل سنة 376م، قانونا يدعو فيه حكام إفريقيا إلى مصادرة المقرات والأماكن التي يجتمع فيها الدوناتيون المنشقون، ويهدد بفرض عقوبات صارمة ضد كل من يتساهل في عقد اجتماعاتهم. (2) وأصدر مرسوما ثانيا في 17 أكتوبر سنة 377م موجه إلى "نيكوماكوس فلافيانوس" (*Nicomachus Flavianus*) كاهن إفريقيا، يؤكد الإجراءات السابقة بمنع إعادة التعميد، ومنح كنائس الأساقفة المنشقين المتهمين بإعادة التعميد إلى الكاثوليك، ومصادرة المنازل والملكيات الواسعة (*fundi*) التي تنعقد بها اجتماعات المنشقين. (3)

سعى الإمبراطور "فالنتنيانوس" أثناء حكمه - ثم خلفاؤه من بعده- من خلال هذه المراسيم الإمبراطورية، إلى حماية الكاثوليك وضرب الدوناتية من الداخل وذلك بمحاولة إحداث انشقاق داخلي، ونجحت هذه السياسة فيما بين سنتي 370 – 375م. حيث قام الأسقف الدوناتي "روقاتوس" (*Rogatus*) أسقف مدينة "كارتناي" (*Cartennae*) "تنس" حاليا بموريطانيا القيصرية بفك الارتباط مع الكنيسة الدوناتية وتأسيس كنيسة مستقلة تدعى الكنيسة "الروقاتية" أو "حزب الروقاتيين" (*) "*Pars Rogati*". (4)

---

[1]- *Cod. Theod., IX, 34, 7- 8, d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 44, 244- 245.*

*- ***غراتيانوس*** (**Flavius Gratianus**): (359-833م) إمبراطور روماني (375-383م)، ابن "فالنتنيانوس" الأول شارك والده في الحكم وهو ابن ثماني سنوات، ثم خلفه سنة 375م، قتله أحد ضباطه يدعى "ماكسيميانوس" (Maximianus) سنة 383م في ليون بـ "غاليا" فرنسا حاليا. *- Dict. Univ. Hist.Géo. p. 787.*

[2]- *Augustin (St.), Epist., 87, 8 ; 105, 2, 9 ; Cod. Theod., XVI, 5, 4 ; XVI, 6, 2.*

[3]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 47.*

***-**الروقاتيون**، انشقاق داخل الكنيسة الدوناتية تزعمه "روقاتوس- Rogatus" أسقف مدينة كارتناي Cartennae "تنس " غرب مدينة الجزائر حاليا، بموريطانيا القيصرية حوالي سنة 370م، لكنه ظل محصورا في أسقفية كارتناي وقد واجه هذا الإنشقاق رد فعل قوي من طرف الخط الدوناتي الأرثوذكسي الذي كان يتزعمه "بارمينيانوس" الذي استغل ثورة "فيرموس" (372-375م) للقضاء عليهم. اختفت الروقاتية في بداية القرن الخامس الميلادي.* *- Gsell (S.), Observations Géographiques, p. 13 ; Augustin (St.), Epist., XCIII ; Martroye (F.), R.Q.H., t. 33, 1905, p. 11 ; Monceaux (P.), R.H.R., t. 63, 1911. P. 187.*

[4]- *Augustin (St.), Epist., 87, 10; 93, 1; 20, 21; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 254.*

يبدو أن الكتابات على الشواهد القبرية (*Epitaphes*) التي عثر عليها في مناطق كثيرة من المغرب القديم تدل على وجود هذه الكنائس الموازية للدوناتية.

وحسب "أوغسطين" فهي نحل وطوائف صغيرة محلية، ومن كثرتها يصعب حصرها. إن هذه الانشقاقات التي عرفتها الكنيسة الدوناتية "الأرثوذكسية" عديدة، إذا ما صدقنا قول أوغسطين:« ... ***انقسم الدوناتيون إلى ما لا نهاية، وأصبحوا هشيما من الفرق في إفريقيا وحدها....*** » .[1]

فقد عثر في مدينة "ستيفيس" (*Sitifis*) على نقش كتب على شاهدة قبر يحمل عبارة (*Pars Trigari*) أي فرع أو حزب "تريغاريوس" (*Trigarius*) وهو أحد المنشقين عن كنيسة "دوناتوس" الكبرى الذي أسس كنيسة مستقلة موازية للكنيسة الدوناتية. كما تدل عبارة (*Pars Maximiani*) أيضا على حزب "ماكسيميانوس" الأسقف الدوناتي المنشق. [2]

لقد استطاعت الحركة الدوناتية أن تتحكم في الوضع وتخمد تلك الحركات الانفصالية التي ظهرت هنا وهناك، خاصة بعد تحالفها مع الثائر"فيرموس" (*Firmus*) سنة 372م. وتمكنت بعد ذلك من أن تسيطر على نوميديا وعلى منطقة المغرب القديم.

ورغم الإجراءات التي اتخذها الإمبراطور "غراتيانوس" الذي أصدر مرسوما إمبراطوريا في 17 أكتوبر سنة 377م يدعو فيه كاهن إفريقيا "نيكوماكوس فلافيانوس" خلال الفترة (376-377م) إلى حظر إعادة التعميد، فالملاحظ أن هذا الأخير كان يقف في صف الدوناتيين حتى لقب بـ "رجل حزب المنشقين". [3]

1- Augustin (St.), Contra. Epist. Parmen., XVIII, 37.
2- Id., Epist., 93, 8, 24 ; Contra Cresconium, IV, 6, 7.
3- Id., Epist., 87, 8 ; 105, 2,9 ; Cod. Theod., XVI, 6, 2.

وفي أواخر سنة 378م وحسب عريضة صدرت عن مجمع روماني تتضمن شكوى ضد "كلوديانوس"(*) (*Claudianus*) أسقف روما الدوناتي، أصدر الإمبراطورين "فالنتنيانوس الثاني" و"غراتيانوس" (*Gratianus*) مرسوما يدعو "أكيلينوس" (*Aquilinus*) كاهن إفريقيا إلى نفي الأسقف "كلوديانوس" ممثل الدوناتيين بروما (**) الذي يعد من ألد أعداء البابا "داماس" (***) (*Damasus*). ويبدو أن "كلوديانوس" عاد إلى قرطاجة بشكل نهائي أين حرك انشقاقا جديدا ضد الدوناتية. [1]

لقد تزايدت في هذه الفترة بالذات الطوائف والنحل التي تدين بالدوناتية إلى الحد الذي لا يمكن حصرها على حد تعبير "أوغسطين". [2] ومن أبرز هذه النحل التي كان

*- **كلوديانوس Claudianus**، أسقف دوناتي ورئيس طائفة عرفت باسمه "الكلوديانيين" *Claudianiste*، أسس في قرطاجة بعد عودته من روما، كنيسة متميزة في أواخر القرن الرابع الميلادي حوالي 380م، وحسب أوغسطين فإن هذا الإنشقاق لم يتعد – على ما يبدو- مدينة قرطاجة، ولم يعمر إلا بضع سنوات، وفي سنة 392م في بداية أسقفية "بريميانوس" *Primianus* تصالح الكلوديانيين مع الكنيسة الدوناتية وبذلك التحقوا بالخط الأرثوذكسي الدوناتي. *Augustin (St.), Contra Cresconium, IV, 9, 11 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 48, 129 ; R.H.R., t.LXIII, 1911, p. 189.*

- **دوناتيي روما، كانوا يشكلون أهم مجموعة خارج إفريقيا رغم قلتهم، وقد عرفوا لدى الكاثوليك باسم "*Montenses*" أي الجبليون وكانوا يسمون أيضا "الريفيون" "*Campitae-Campenses-Cutzupitae*"، ربما لأنهم كانوا يجتمعون في ضواحي روما على جبل صخري، في مغارة *Spelunca* ذات مدرجات محاطة بسياج، وقنعوا بهذا المصلى تحت الأرض وتجهيزات بدائية لمدة طويلة، ثم أصبحت لهم كنيسة فيما بعد في عهد القديس جيروم *St. Jérôme* وكان أسقف هذه الكنيسة يعين من إفريقيا التي لم تلعب أي دور إلا في عهد أسقفية "كلوديانوس"، لكن بعد نفيه، دخلت طي النسيان بالرغم من أنها استمرت قرابة قرن من الزمن من أواخر القرن 4م إلى أواخر القرن 5م.
- Optat (St.), II, 4 ; Augustin (St.), Epist., L III. 1, 2 ; Contra Cresconium, III, 34, 38 ; Contra Litteras Petiliani, II, 108.، كان للدوناتيين أسقف بروما يعينونه هناك، وكان أولهم هو فيكتور دي غارب *Victor de Garbe*، وآخرهم فليكس *Félix* الذي يكون قد حضر مناظرة قرطاجة سنة 411 م.
- Monceaux (P.), l'église donatiste après Saint-Augustin, R.H.R., t. LXIII, 1911, p p. 182-183 ; Id., H.L.A.C., IV, p.124.

***- **داماس Damasus**، هو البابا داماس الاول، ولد في البرتغال، انتخب على رأس البابوية من سنة 366م إلى سنة 384م، عقد العديد من المجامع ضد الأريوسية، يحتمل أنه من أصول إسبانية، كلفه القديس جيروم بترجمة الإنجيل فعرفت بالترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، ترك بعض الأشعار المسيحية والكتابات اللاهوتية، توفي سنة 384م.
-Dict. Univ. Hist.Géo, p. 493 ; Piganiol (A.), l'empire chrétien, p. 412.

[1] *-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 124, 245*

[2] *-Augustin (St.), Epist, 93, 8, 25 ; Contra. Epist. Parmen., III, 4, 24.*

لها صدى واسعا في المغرب القديم، تلك التي أسسها " تيكونيوس" (*) (*Tyconius*) الذي نشر خلال الفترة (370 –375م) كتابين هامين، اعترض فيهما على العديد من المبادئ والنظريات الدوناتية، وكان يرى أن خصومها الكاثوليك على صواب. (1)

لذلك عاقبه مجمع دوناتي انعقد سنة 380م لهذا الغرض حيث طرد من الكنيسة الدوناتية فعاش منعزلا بقية حياته. (2)

حاول "بارمنيانوس" (*Parmenianus*) جثليق "كبير أساقفة" قرطاجة –الذي أعاد تنظيم الكنيسة الدوناتية وترأسها لمدة أربعين سنة –إيقاف هذه الفضيحة فبعث رسالة إلى "تيكوينوس" في أواخر سنة 378م فند فيها آراء هذه الأخير، محاولا إعادة هذا "المتهور المغامر" –على حد تعبير أوغسطين–إلى أحضان الكنيسة الدوناتية. (3) إلا أن "تيكونيوس" رفض الانصياع والخضوع، فأدين علنا ورسميا من طرف المجمع الدوناتي الذي انعقد في حوالي سنة 380م، فطرد من كنيسة "دوناتوس" الكبرى. (4)

يبدو أن "تيكونيوس" أسس طائفة قوية لكن انشقاقه زال في فترة قصيرة، لذلك انصرف – بما أنه فقيه ولاهوتي–إلى تفسير وشرح الكتاب المقدس.

---

*– ***تيكونيوس Tyconius***، أحد كبار الفقهاء الدوناتيين، ألف عدة كتب وصلنا بعضها، منها كتاب "في الحرب الداخلية" De Bello intestino كتبه في حوالي 370م، وكتابا آخر في حوالي 375م "عرض فيه مختلف القضايا" Expositiones diversum Causarum، ورد عليه بارمينيانوس سنة 378م، وبالرغم من حرمانه وطرده من الكنيسة الدوناتية بموجب قرار صدر عن مجمع دوناتي سنة 380م،إلا أنه لم يلتحق بالكنيسة الكاثوليكية، وأصدر "كتاب القواعد" Liber regularum حوالي سنة 382م تناول مناهج تفسير الكتاب المقدس Exégèse، ويبدو أن تيكونيوس كان له تأثير كبير على القديس أوغسطين وعلى المفكرين المسيحيين اللاحقين خلال العصور الوسطى بأوروبا، خاصة أنه كان يرى أن الدوناتيين كانوا مخطئين في قضية إعادة التعميد، وفي اعتبار كنيستهم كنيسة القديسين les Saints والأطهار (les purs). - *Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp. 219 ; Martroye (F.), une tentative de révolution sociale…, R.Q.H, T. 33, 1905, p. 12.**

1- *Augustin (St.), Epist., 93, 8 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 49.*

2- *Augustin (St.), Contra Epist. Parmen., I, 1 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., V. pp. 170- 171 ; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 198- 199.*

3- *Augustin (St.), Contra Epist. Parmen., I, 1 ; Epist., 93, 10, 43- 45.*

4- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 50, 337.*

وظهرت في تلك الفترة أيضا نحل وطوائف أخرى محلية، وهي طائفة "أوربانس"(*) (*Urbanenses*)، وطائفة "الأرزوج" (**) (*Arzuges*)، في مقاطعة "الطرابلسية" (*Tripolitana*)، وجنوب "بيزاكينا" (*Byzacena*) "جنوب تونس" حاليا. لكننا نفتقر إلى معلومات وافية قد تفيد الباحثين في معرفة هذه الطوائف معرفة شافية.

كانت المراسيم الإمبراطورية – في هذه الفترة بالذات أي أواخر القرن الرابع الميلادي–تتهاطل على المنشقين، منذ مجيء الإمبراطور "ثيودوسيوس الأول" (***) *(Theodosius Ier)* إلى الحكم سنة 379م الذي شن حملة ضد الهرطقة والبدع.

وتضاعفت القوانين الإمبراطورية من سنة لأخرى حيث أصدر الإمبراطور "ثيودوسيوس" في 3 أوت سنة 379م مرسوما يقضي بحظر كل البدع والنحل، ويمنع المنشقين من الدعوة والتبشير بمذاهبهم، وإعادة التعميد وعقد الإجتماعات. [1]

*- ***الأوربانيون Urbanenses***، *إنشقاق ظهر في أحد أقاليم نوميديا لا تتوفر عنه إلا إشارة واحدة عند القديس أوغسطين الذي قال :« ...والأوربانيين في ناحية من نواحي نوميديا، وغيرهم...» . - Augustin (St.), Contra. Cresconium, LX, 73; Epist. Parm., I, XI, 17; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 222.*

- ***الأرزوج" Arzuges، منطقة يصعب تحديدها نظرا لعدم دقة المصادر، وحسب ش. كورتوا Ch. Courtois أن النص الأصلي هو النص الذي أورده بول أوروز P. Orose وذكر فيه أن الكلمة كانت تطلق على سكان الإقليم الطرابلسي Tripolitana، وحسب بريصون Brisson على القبائل المتناثرة على طول خط الليمس Limes، وحسب إشارات أوردها أغسطين فإن هناك حياة مسيحية في إقليم كنسي هو Arzugitana الذي ورد ذكره في وثائق كنسية تعود إلى القرن الرابع الميلادي ووجود انشقاق في صفوف الدوناتيين في ذلك الإقليم. - Orose (P.), Adversus Paganos, I, 2, 90. (C.S.E.L., V. pp. 32- 33) ; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 222 ;*

ويرفض ديسانج –على عكس كورتوا– أن تكون تسمية الأرزوج قد وصلتنا على شكل "المرازيك" التي هي قبيلة من قبائل الشطوط في جنوب بزاكينا– Byzacena في الجنوب التونسي حاليا، إذ يصعب تفسير اختفاء حرف "الميم"، وإذا اعتبرنا ذلك أقرب إلى الصواب نلمس تقاربا بين الكلمتين "أرزوج" و "رازيك". -Desanges (J.), Catalogue des Tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, Dakar, 1962, pp. 78- 80.

****- ***ثيودوسيوس (Theodosius Ier)***، (346–395م) إمبراطور روماني (379–395م) من مواليد كوكا Cauca بإسبانيا، هو ابن الكونت تيودوز (Théodose) الذي قتله الإمبراطور فالاس (Valens) إمبراطور الغرب سنة 376م، جعل من المسيحية ديانة الدولة الرسمية سنة 380م، منع كل الطقوس الوثنية، بعد وفاته في 15 جانفي 395م بميلانو قسمت الإمبراطورية بين ولديه هونوريوس إمبراطور الغرب، وأركاديوس إمبراطور الشرق، أعطى اسمه للقانون التيودوزي Code Théodosien (435–438م) والذي جمع فيه كل المراسيم والقوانين الإمبراطورية منذ عهد قسطنطين. - Dict. Univ. Hist- Géo. P. 1863.*

[1] *- Cod. Theod., XVI, 5,5.*

وصدر أمر إلى كل رعايا الإمبراطورية في 27 فيفري سنة 380م بإعلان الإيمان بالكاثوليكية وتهديد كل المتمردين والعصاة، وفي 30 جويلية سنة 381م صدر مرسوم يعلن مصادرة كل كنائس المنشقين ومنحها للأساقفة للكاثوليك. أما قانون 19 جانفي سنة 386م فهو خاص برسائل الهجاء والقدح، كما صدر قانون 23 جانفي سنة 386م يحكم بالإعدام على كل الذين يخلون بسلام وأمن الكنيسة الرسمية، والمتهمين بجريمة المساس والقدح في الذات الملكية. [1]

يبدو أن المنشقين الأفارقة –في هذه الفترة – لم تقلقهم هذه المراسيم الإمبراطورية، فإجابة على مجمع روما المنعقد في 6 جانفي سنة 386م الذي يمنع ويحظر إعادة التعميد. جاء رد فعل الكنيسة المنشقة على تلك المراسيم الإمبراطورية بإصدار ما يشبه المرسوم (*forma*) الذي ينص على إعادة تعميد كل كاثوليكي ينضم إلى الكنيسة الدوناتية.

وقد صدر هذا المرسوم ثم أكدته عدة مجامع دوناتية انعقدت في الفترة (386م–392م). ورغم ذلك تواصل صدور المراسيم. ففي 16 جوان سنة 388م صدر مرسوم يمنع الحديث عن العقيدة في الأماكن العامة، ويحكم بالإعدام على كل المخالفين. [2] أما المرسوم الذي صدر في 26 نوفمبر سنة 389م فينص على حظر عقد الاجتماعات (*conciliabula*) على كل المنشقين. [3]

لقد خاب أمل الكاثوليكيين الأفارقة وهم يرون كيف تكاثرت الطوائف المنشقة، خاصة بعد انعقاد مجمع قرطاجة في 16 جوان سنة 390م الذي لم يصدر أية قوانين أو مقترحات تستهدف المنشقين. [4]

---

[1] *- Cod. Theod., XVI, 1, 2 ; 1, 3 ; 34, 9.*
[2] *- Augustin (St.), Epist., 23, 3, 5 ; Cod. Theod., XVI, 5, 5 ; 6, 1-2*
[3] *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 50*
[4] *-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 51*

وقد بذل رئيس المجمع " جنثليوس " (*Genethlius*) أسقف قرطاجة ورئيس الكنيسة الإفريقية كل ما في وسعه لمنع السلطات المدنية من تطبيق هذه المراسيم. وفي 19 ماي سنة 391م صدر مرسوم يؤكد المرسوم السابق له، وهو مرسوم سنة 389م الخاص بمنع اجتماعات المنشقين. (1)

وتوجت هذه المراسيم المتنوعة والمتعددة بأن أصدر الامبراطور "تيودوز الأول" قانون 15 جوان سنة 392م ينص على فرض غرامة مالية قدرها عشرة (10) ليرات ذهبية على رجال الدين في الكنيسة الدوناتية. (2)

يرى الباحث أنه من الصعب تحديد الإطار الذي صدرت فيه هذه المراسيم، وما الهدف منها؟ وهل كانت تستهدف المنشقين أو الهراطقة بشكل عام في المغرب القديم؟

صدرت تلك المراسيم الإمبراطورية – نظريا–حتى تطبق على جميع رعايا الإمبراطورية. لكن نلاحظ أن هناك هوة بين النظري والواقع. فالأمر يتوقف على الظروف والإجراءات الشخصية لحكام المقاطعات ونظرتهم إلى كيفية تطبيق هذه المراسيم. فالدوناتيون في البداية لم يكونوا هراطقة بل اعتبروا ببساطة منشقين، لكن فيما بعد لما احتدم الصراع بين الكنيستين الرسمية والدوناتية وبلغ حد استعمال العنف والعنف المضاد، صنف الانشقاق الدوناتي ضمن دائرة الهرطقة والبدع. (3)

وهكذا توسعت رقعة الحركة الدوناتية، وتعددت فروعها وتشعبت في البروقنصلية، وبيزاكينا، والطرابلسية، والموريطانيتين، واستفادت من ظروف تلك الفترة، ووقفت الند للند مع الكاثوليكية في كل مناطق المغرب القديم. لكنها انفردت بالسيطرة على نوميديا، فقد اكتسحت وملكت قلوب الناس في المراكز الحضرية الكبرى –آنذاك– مثل مدينة هيبون

---

[1]- *Cod. Theod., XVI, 5, 20*

[2]- *Cod. Theod., XVI, 5, 21; Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II. 83 ; Cont. Epist. Parmen, I, 12, 19 ; Benoist (Stephane), Mémoire et Histoire, les procédures de condamnation dans l'Antiquité Romaine, C.R.U., Metz, 2007, p.226*

[3]- *Optat (St.), I, 10, 12; Augustin (St.), Epist, 43, 1 ; Cod. Theod., XVI, 6, 4.*

(*Hippone*) "عنابة" ومدينة بغاي معقل الدوناتية، إلى درجة أن الأسقف الدوناتي لا يجد خصوما في بعض المناطق. وكانت الكنيسة الدوناتية تتقدم كل سنة بخطوة، والكنيسة الكاثوليكية تتراجع خطوات حتى كادت منطقة المغرب القديم أن تكون دوناتية بحتة قبل حلول سنة 392م وهي السنة التي شهدت دخول القديس أوغسطين ساحة المواجهة.

المبحث الثالث –مرحلة الانشقاق والمواجهة زمن أوغسطين (392–430م): ظلت الحركة الدوناتية - وعلى مدار ثمانين عاما- قوية متماسكة، وقفت في وجه الكنيسة الكاثوليكية الرسمية المدعمة من السلطة الرومانية، محبطة كل سياساتها ووسائلها في القضاء على الحركة، أي منذ انتخاب الأسقف "ماجورينوس" (*Majorinus*) أسقفا لكنيسة قرطاجة سنة 312م بعد وفاة "مونسوريوس" (*Mensurius*)، إلى سنة 392م، حيث عرف المغرب القديم حدثين بارزين: يتمثل الأول في وفاة زعيمي الكنيستين المتنافستين، "جنثليوس" [*] (*Genethlius*) أسقف كنيسة قرطاجة الكاثوليكية الذي خلفه "أوريليوس" (*Aurelius*)، ووفاة "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) من أشهر أساقفة وزعماء الكنيسة الدوناتية، الذي أعاد تنظيمها وترأسها لمدة تقارب الأربعين سنة.[1] أما الحدث الثاني فهو تعيين القديس "أوغسطين" أسقفا جديدا على رأس أسقفية هيبو-ريجوس[2] (*Hippo- Regius*) "عنابة" حاليا، والذي لعب دورا بارزا في إحداث الانشقاق داخل الحركة الدوناتية، باستعمال كل الوسائل والإمكانات بما في ذلك شرعية استخدام القوة لإعادة المنشقين إلى الكنيسة الكاثوليكية.[3]

---

*- **جنثليوس Genethlius**، أسقف كنيسة قرطاجة الكاثوليكية في حوالي 390م، وخلفه "أوريليوس" الذي كان في البداية شماسا في كنيسة قرطاجة في سنة 388م في فترة عودة القديس أوغسطين إلى إفريقيا، ثم عين في أواخر سنة 392م أسقفا لنفس الكنيسة، وترأس مجمع هيبون، توفي سنة 392م.* *-Augustin (St.), Epist., XLIV. 5, 12 ; XXII ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, p 5.*

1 -*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.337*

2 - *منصوري خديجة، المرجع السابق، ص 45.*

3 - *شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 300.*

ودعا "أوغسطين" إلى ضرورة اللجوء إلى " ***إرهاب مجد*** " تقوم به السلطة الزمنية لحمل الدوناتيين المبتدعة على الرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكية إعتمادا على قول المسيح (عليه السلام): « ***ادفعوهم إلى دين الله دفعا .*** » [1] (*Compelle Intrare*).

وبعد وفاة زعيم الحركة الدوناتية "بارمينيانوس" سنة 392م تم انتخاب "بريميانوس"(*) (*Primianus*) خليفة له.[2] لم يمكث الجثليق وكبير الأساقفة طويلا في منصبه حتى بدأت الشكوك تحوم حوله، منذ الأشهر الأولى من أسقفيته، نتيجة سياسته التي اتسمت بالتفكك وكثرة الأخطاء والاستبداد والتحيز.

لذلك انزعج منه أقرب الناس إليه من رجال الدين والعلمانيين، وقد ثار ضد الشماس "ماكسيميانوس"(**) (*Maximianus*) الذي كان يرى فيه منافسا خطيرا له لخلافة "بارمينيانوس" (*Parmenianus*)، إضافة إلى أنه من أقرباء دوناتوس الأكبر.

وانتقل بريميانوس إلى الإجراءات العملية، فوجه حكما قضائيا بحرمان وطرد "ماكسيميانوس" وأربعة شمامسة آخرين من الكنيسة الدوناتية. [3]

1- *Julien (Ch.A.), Op.cit., pp. 226- 227.*

*- ***بريميانوس Primianus***، *أسقف دوناتي، خليفة بارمينيانوس بعد وفاته سنة 392م، واجه مصاعب جمة خلال أسقفيته، ويعتبر "ماكسيميانوس" أحد شمامسته، من أكبر المعارضين له، ويعد بريميانوس آخر زعيم من زعماء الطائفة، قبل حلها سنة 411م.* *–Augustin (St.), Contra Epist. Parmen., II, 42 ; III, 11 ; Contra Litter. Petil., I, 13 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, pp. 5, 202.*

2-*Monceaux (P.), H.L.A.C., t.V, p. 224 ; t VI., p. 111.*

– ***ماكسيميانوس Maximianus*، *أسقف دوناتي، زعيم أهم انشقاق عرفته الدوناتية، ظهر بصورة مفاجئة في نهاية سنة 392م في قرطاجة وانتشر في معظم الأقاليم الشرقية، خاصة في إقليم بيزاكينا Byzacena (المزاق)، تزعمه "ماكسيميانوس" أحد شمامسة الزعيم الدوناتي "بريميانوس" Primianus وتبادلا قرارات الحرمان والفصل في مجامع عقدها كل منهما مع أنصاره، مجمع كابارسوسا Cabarsussa سنة 393م الماكسيمياني، ومجمع بغاي Bagai البريمياني، وانتهى السجال بانتصار البريميانيين على حزب الماكسيميانيين Pars Maximiani ; Maximianistae ; Maximianenses سنة 397م وقرروا العفو عن بعضهم وعادوا إلى الكنيسة الدوناتية "الأرثوذكسية"– أي خط بريميانوس– ومع ذلك لم يمت الإنشقاق الماكسيمياني، فقد طالبت الكنيسة الماكسيميانية حضور مناظرة قرطاجة سنة 411م، لكنه ضعف كثيرا وبقي محصورا في بيزاكينا والطرابلسية.* *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp 129- 132 ; Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 223- 230.*

3-*Augustin (St.), Epist, XLIII, 9, 26 .*

يبدو أن الحكم السابق صدر دون علم القاضي، وفي غياب "ماكسيميانوس" والشمامسة، ولم يصدر حسب القوانين والنظم الكنسية، لذلك انتهز حزب الماكسيميانيين فرصة هذا الخطأ للطعن في انتخاب "بريميانوس". ولما تأكد مجلس الأعيان (*Seniores*) أن الإحتجاج لا يجدي نفعا، راسلوا كل الأساقفة الدوناتيين، وطالبوا بإجراء تحقيق حول شرعية انتخاب بريميانوس. وقد استجاب لهذه الدعوة حوالي ثلاثة وأربعون (43) أسقفا معظمهم من بيزاكينا (*Byzacene*) في نهاية سنة 392م بإحدى الكنائس في قرطاجة، إلا أن "بريميانوس" طردهم بعدما استدعى تدخل الشرطة فاجتمعوا في مكان آخر في قرطاجة. (*)

وهكذا أدان الماكسيميانيون "بريميانوس" بالإجماع، وبعثوا برسائل إلى كل الكنائس الدوناتية في المغرب القديم تتضمن عزله من منصبه على رأس الكنيسة الدوناتية. [1]

تسارعت الأحداث مع نهاية القرن الرابع الميلادي، وكانت القطيعة قد تمت داخل الكنيسة الدوناتية. في غضون ذلك، اجتمع الماكسيميانيون ثانية في مدينة "كبرسوسا" (*Cabarsussa*) في 24 جوان سنة 393م في إقليم "بيزاكينا" (*Byzacena*) "المزاق" حاليا، هذا الإقليم الذي سيطروا عليه وجعلوه مركزا لنشاطاتهم، انعقد المجمع برئاسة عميدهم "فيكتورينوس المونكياني" (*Victorinus de Munaciana*) وبحضور حوالي

*- وصلنا ملف مجمع الماكسيميانيين في قرطاجة بشكل غير مباشر عن طريق محاضر مجمع كبرسوسا الذي انعقد في 24 جوان 393م، والشهادات التي قدمها "أوغسطين"، وتتضمن الوثائق الآتية: 1-رسالة مجلس الأعيان إلى "بريميانوس"، *Seniorum Litterae* والعريضة الموجهة إلى أساقفة الحركة *Tractatoria Actis Inserte*. 2-محضر المفاوضات مع بريميانوس. 3-تقارير الجلسات والتحقيقات مع شهادات الشهود، والانتخابات والحكم القضائي *Sententia decretum* 4-الرسالة الكنسية *Tractatoria* التي وجهت إلى كل الكنائس والطوائف المنشقة لتبليغهم بالوقائع والإدانة المؤقتة *Praedamratio-Proejudiciun*. - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 355.*

[1] - *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 354- 355.*

مئة (100) أسقف، الذين أعادوا الإطلاع على الدعوى الموجهة ضد "بريميانوس" واتفقوا بالإجماع على تأكيد الإدانة السابقة. (1)

وتذكر المحاضر، أنه في 24 جوان سنة 393م أعلن الماكسيميانيين عن خلع وفصل (*Excomunicaton*) "بريميانوس" من منصبه، ووجهوا رسائل إلى كل الطوائف الدوناتية في المغرب القديم تتضمن الحكم الذي أصدره مجمع " كبرسوسا"، وهددوا كل من تعامل معه بالحرم في الآجال المحددة. (2) وقد حفظت لنا المحاضر الرسمية مجموعة من التهم التي وجهت إلى "بريميانوس"، ومنها:

1-ضرب أربعة شمامسة (*)دون وجه حق.

2-استخفافه بقواعد النظام.

3-عدم اكتراثه بالإجراءات العملية، إلى درجة أنه أصدر قرارا تعسفيا بفصل ماكسيميانوس في غيابه دون دعوى قضائية وأدلة الإتهام ودون شهود.

لذلك أبلغ مجمع "كبرسوسا" "بريميانوس" بالقرار الذي اتخذه الأساقفة، من خلال رسالة إدانة ومما جاء فيها: «***لقد قررنا نحن الأساقفة، في حضرة روح القدس، أن بريميانوس قد أدين مدى الحياة بالإجماع من طرف مجموع الأساقفة، ولا يجب أن يدنس الكنيسة بعدوى بعض الجرائم التي ارتكبها...*** » (3)

وقد ألحقت الرسالة بشهادة للقديس بولس (*Saint-Paul*) جاء فيها:« ... ***باسم المسيح، ندعو إخواننا، أن ينفصلوا عن كل أخ يسلك طريق الفوضى والاضطراب. إننا ندعم طهارة الكنيسة، وقد ارتأينا أنه من المفيد أن نحذر- عن طريق هذه الرسالة الكنسية*** (*tractoria*) – ***كل القديسين ورجال الدين والمؤمنين بأن يتذكروا دائما بأنهم مسيحيين، وأن يبتعدوا عن هذا الشخص المدان...*** » (4)

1-*Augustin (St.), Lettres, LVIII, 2, 5 ; LXCI, 6.*

2-*Augustin (St.), Contra. Cresc., IV, 6, 7.*

- الشمامسة الأربعة هم: ماكسيميانوس (Maximianus)، روقاتيانوس (Rogatianus)، دوناتوس (Donatus)، وسلقاميوس (Salgamius).

- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 357.

3-*Brisson (J.P.), Op.cit., p. 223.*

4-*Ibid., p. 224 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., t.IV, p. 358.*

يذكرنا الانشقاق الماكسيمياني بميلاد الحركة الدوناتية في بداية القرن الرابع الميلادي: « ***فالانشقاق يولد الانشقاق، تلك هي إرادة الله.*** » حسب "أوغسطين". [1]

إن الاعتقاد بتدخل العناية الإلهية أعاد الثقة إلى الكاثوليك، فبعد ثلاثة أشهر من انعقاد مجمع "كبرسوسة"، انعقد مجمع كاثوليكي موسع بهيبون (*Hippone*) مدينة أوغسطين في 8 أكتوبر 393م، برئاسة " أوريليوس"[*] (*Aurelius*) الأسقف القرطاجي.

والملاحظ أن هذا المجمع كان يحتل مكانة متميزة في التاريخ الديني في تلك الفترة، ذلك أنه أعاد تنظيم الكنيسة الإفريقية، وأقر عدة إصلاحات وقوانين تستهدف الدوناتية مباشرة، منها قانونين كنسيين صادقت عليهما الجمعية هما:

1- احترام كرامة رجال الدين الدوناتيين الذين عادوا إلى الكاثوليكية ولم يعمدوا ثانية.

2- يمكن سيامة المهتدين والتائبين الذين عمدوا في طفولتهم من طرف المنشقين وأن يصبحوا رجال دين. [2]

يبدو أن القوانين الكنسية السابقة الذكر، إما أنها مستوحاة من "أوغسطين" [**] أو أن مجمع هيبون هو الذي اقترح عليه فكرة مقاومة الانشقاق باستعمال كل الوسائل حتى تستعيد كنائس المغرب القديم أمنها ووحدتها الدينية. لقد انضم أغلبية الدوناتيين – بالرغم

---

[1] -*Augustin (St.), Epist., XLIII, 9, 26.*

*- ***أوريليوس Aurélius***، أسقف كاثوليكي، ترأس مجمع هيبو-ريجوس (Hippo-Regius) "عنابة حاليا" سنة 393م، وكان خصما عنيدا للأسقف الدوناتي "بريميانوس" (Primianus) ويعتبر مجمع هيبون أول مجمع كاثوليكي يترأسه من بين المجامع العشرين التي شارك فيها.* *- Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne..., p.5.*

[2] -*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P. 60.*

***- كان أوغسطين خلال هذه الفترة مجرد راع كاثوليكي (Presbyter) بسيط حينما حضر مجمع هيبو-ريجوس (Hippo-Regius) سنة 393م، وتابع أشغاله عن كثب، وربما يكون قد ألهم قراراته، في هذا الوقت بالذات بدأ حملته ضد الدوناتية بكتابة « Psalmus Contra Partem Donati » (مزمور ضد حزب دوناتوس) وهو نشيد نظمه أوغسطين في أسلوب شعبي متداول ليسهل على الرعية حفظه وترتيله، ويدعو فيه إلى الوحدة الكاثوليكية، وقد كتبه في حوالي سنة 392م، أما كتابه الثاني فقد كتبه حينما كان أسقفا لكنيسة هيبو- ريجيوس حوالي سنة 400م وهو: «حول التعميد» (De Baptismo)، أو قد يكون المجمع هو الذي اقترح عليه فكرة محاربة الإنشقاق بكل الوسائل لاستعادة الأمن والوحدة الدينية في المغرب القديم.* *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 61.*

من ذلك–إلى "بريميانوس" الذين استجابوا لندائه حينما دعاهم في سنة 394م، إلى معقل الدوناتية في نوميديا، مدينة بغاي(*) (*Bagai*) (الشكل 31 ص 452) التي احتضنت مجمعا ضم كل المقاطعات الإفريقية *Concilium Plenarium Universale*، حضره ثلاثمائة وعشرة (310) من الأساقفة البريميانيين، وأصدروا برئاسة "بريميانوس" نفسه في 24 أفريل سنة 394م الحكم الآتي:

حرمان وخلع "ماكسيميانوس"، مع اثني عشر (12) أسقفا من الذين أشرفوا على سيامته، وعزل كل رجال الدين المتمردين في قرطاجة، وتهديد كل المنتسبين إلى حزب الماكسيميانيين بالإذعان والخضوع في أجل قدره ثمانية (8) أشهر بالحرم والفصل. وبذلك وجهت رسائل كنسية إلى كل مقاطعات المغرب القديم تحذر الطوائف المنشقة من رعب اللعنة البريميانية. [1]

---

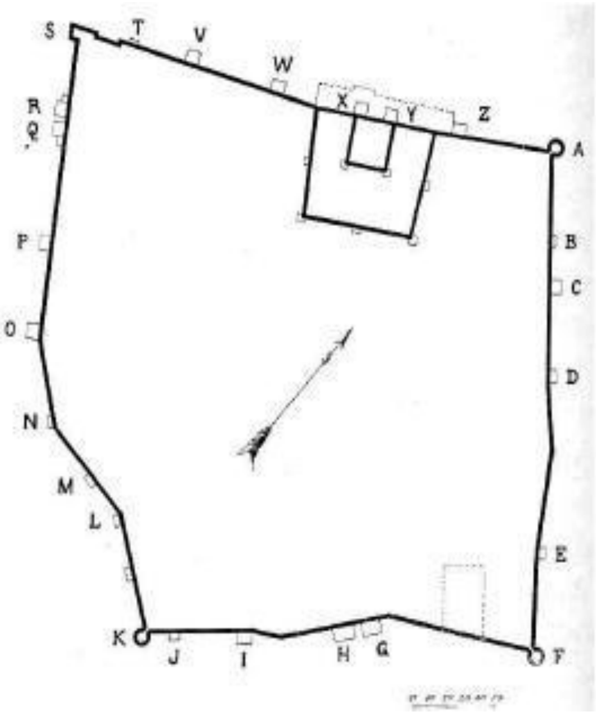
*– **بغاي (Bagai)**: (قصر بغاي أو بغاية حاليا، شمال غرب مدينة خنشلة بحوالي 11 كلم) شمالي جبال الأوراس، ذكرت كأسقفية في المجمع الديني الذي انعقد في قرطاجة سنة 256م، تعتبر من أكبر معاقل الدوناتية، وقعت بها معظم أحداث التاريخ الدوناتي خاصة معركة سنة 347م، وانعقد بها مجمع البريميانيين سنة 394م الذي ضم 310 أسقفا دوناتيا لإدانة ماكسيميانوس وأتباعه حسب أوغسطين، ومع ذلك لم يعثر بها على كنيسة أو بازيليكا. كانت بغاي بلدية رومانية (Municipium Romanum) في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي. لم تذكر بغاي في" مسلك أنطونينوس" (Itinerario Antonini)، ولا في" لوحة بوتينغر" (Table de Peutinger).* *- Optat (St.), III, 1, 4 ; Augustin (St.), Cont. Cresc., III, IV ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne, pp. 253- 255.*

1- Augustin (St.), Epist., LI, 2 ; Cont. Epist. Parmen., I, 11, 18 ; Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 226- 227.



(أ)





(ب)

الشكل رقم 31: بغاي ومخطط القلعة:

أ–قصر بغاي أوبغاية جنوب الأوراس، غير بعيد عن وادي بورغال، وقد ذكر في نص" بروكوبيوس" باسم أبيقاس *Abigas*. توجد القلعة على هضبة تشرف على السهول المجاورة والممتدة حتى شمال الأوراس، والصورة تمثل ما بقي من أسوار القلعة البيزنطية. ب–مخطط القلعة البيزنطية حسب "س. غزال".

أ–تصوير الطالب الباحث بتاريخ 18 ماي 2015.

__نقلا عن:__ ب– *Gsell (S.), Monuments Antiques de l'Algérie, t.II, pp. 357-358.*

وقد لجأ الفريقان إلى السلطة لانتزاع ممتلكات الكنيسة (*) من الفريق الآخر، وتدخل "البريميانيون" بالقوة أحيانا لإسترجاع تلك الممتلكات من "الماكسيميانيين". (1) وانتهى السجال بانتصار البريميانيين سنة 397م، الذين قرروا العفو عن بعض الأساقفة الماكسيمانيين وأرجعوهم إلى حظيرة الكنيسة الدوناتية. (2)

عقد البريميانيون خلال الفترة 396-397م، بعد انتصارهم على الماكسيميانيين، مجمعين الأول بمدينة سيرتا "قسنطينة" حوالي سنة 396م، والثاني في مدينة ميلاف (*Milev*) "ميلة" حاليا" حوالي سنة 397م. وقد جرت المداولات حول الإجراءات الواجب اتباعها تجاه العديد من الماكسيميانيين الذين تصالحوا مع كنيسة دوناتوس الكبرى. (**)

**- تخاصم الفريقان البريمياني والماكسيمياني الكنائس في حملة فريدة من نوعها، ولجأ كل فريق إلى السلطة لإنتزاعها من الفريق الآخر، والغريب أن الدوناتيين لجأوا إلى حكام وقضاة السلطة الرومانية، لمحاولة التخفيف من حدة القمع الذي كانت تتعرض له الكنيسة الدوناتية أو لإلتماس العقوبات ضد المنشقين عنها، واستندوا إلى القوانين والمراسيم الإمبراطورية التي كانت تدعو إلى منح الكنائس إلى الكاثوليك، والسبب ربما كانوا يعتقدون – كما ذكرنا آنفا- أنهم يمثلون الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية، ففي نهاية سنة 394م طالب بريميانوس نفسه باستعادة كنيسة ماكسيميانوس التي أحرقت وهدمت من الأساس -فيما بعد-، وخلال الفترة من 395م إلى 397م صدرت عدة أحكام قضائية تخص استرجاع الكنائس من الماكسيميانيين.* *-Augustin (St.), Cont. Cresc., III, 59, 65 ; Contra. Epist. Parmen., I, 10, 16 ; Contra. Litter. Petil., II, 58 ; Epist., LI, 2- 5.*

[1]*-Augustin (St.), Contra Epist. Parmen., I, 10- 13.*

[2]*-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV., p. 130 ; Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 229- 230.*

***- وفرت مطالب البريميانيين مبررات قانونية حاسمة للكاثوليك سمحت لهم بالتوجه الى المحاكم والمطالبة بالكنائس، واعتمدت الدعاية الكاثوليكية على إظهار التشابه الموجود بين الانشقاق الماكسيمياني في سنة 392م والانشقاق الدوناتي قبل ثمانين سنة، وقد أوردها أوغسطين في كتابه:« الرد على كريسكونيوس Contra Cresconium» فجاءت كالآتي:*

***1**-الدوناتيون" البريميانيون" نددوا بانشقاق "ماكسيميانوس" فلماذا لا يقبلون هم أنفسهم الرجوع إلى الوحدة مع الكاثوليك الذين انشقوا عنهم؟ **2**-الدوناتيون لجأوا إلى السلطة، واستعملوا أحيانا عنف "عصاباتهم" ضد الماكسيميانيين لاسترجاع ممتلكات كنائسهم، فلماذا يعيبون نفس التصرف على الكاثوليك؟ **3**-الدوناتيون قبلوا رجوع الأساقفة الماكسيميانيين إلى حظيرتهم ودون أن يعيدوا تعميدهم، وذلك على عكس المبدأ الدوناتي الذي يفرض إعادة تعميد المنشقين والهراطقة، باعتبار أن التعميد الأول كان مدنسا. فلماذا يعيدون تعميد الكاثوليك الذين انضموا إلى مذهبهم؟*

- Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XV, 18 ; XXV, 28.

كما شهدت سنة 397م أيضا انعقاد مجمعين: الأول بتاموقادي (*Thamugadi*) برئاسة "بريميانوس"، وانعقد قبل هزيمة الثائر "جيلدون" (*Gildon*) بأشهر قليلة. (1)

كان "أوبطاتوس التاموقادي" –في تلك الفترة –الرجل القوي في المنطقة، وبتهديداته فرض السلام على الفريقين المتنازعين البريميانيين والماكسيميانيين، وبعد انتصار البريميانيين بإعادة الماكسيميانيين إلى خط بريميانوس أي إلى الكنيسة الدوناتية "الأرثوذكسية". وقد أثنى المجتمعون في ثاموقادي من البريميانيين على "أوبطاتوس"، بإحياء ذكرى سيامته الكنسية (*Optati Natalitia*). (2)

ويلاحظ أن المجامع الدوناتية التي ذكرها "أوغسطين" –في تلك الفترة –منعت أنصارها من الإستشهاد (الإنتحار) الإرادي (*Martyre volontaire*). (3) والذي أصبح فضيحة في جبين الدوناتية (*)، بالنظر إلى ارتفاع عدد الضحايا وطريقة الإنتحار. ورغم ذلك فإن هذا المنع لم يوقف مسألة الإنتحارات التي لم يشهد المغرب القديم مثيلا لها خاصة في العشرين (20) سنة الأولى من القرن الخامس الميلادي. (4)

وجد البريميانيون أنفسهم – بعد الإنتصار على الإنشقاق الماكسيمياني–وجها لوجه مع الكنيسة الكاثوليكية، وصار الصراع أكثر فظاظة وحدة، والذي خاضه عدة مجادلين وخطباء، (**) كان البريميانون يعتمدون عليهم في المناظرات مع الكاثوليك.

---

[1]- *Augustin (St.), Epist., XXXIV, 5*

[2]-*Id., Contra Litter. Petil., I, 10, 11 ; II, 23 ; Cont. Cresc., III, 60, 66 ; Epist., CVIII, 2, 5.*

[3]-*Id., Contra Cresc., III, 49, 54.*

*– *كان الدوناتيون والدوارون يلقون بأنفسهم من أعلى الجروف طلبا للإستشهاد (الإنتحار الإرادي) –حسب أوغسطين–وكانوا ينتحرون بطرق ثلاث: الماء والنار والإرتماء من الجروف.* *- Id., Contra Litter. Petil., II ; XLIX, 114 ; Contra Cauden. Donatist. Episco., I, XXVIII, 30, 32 ; XXXI, 37 ; Brisson (J.P.), Op.cit., p. 351 ; Vannier (O.), Op.cit., pp. 17- 18.*

[4]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 365.*

**– *من هؤلاء الخطباء والمجادلين: "أميريتوس القيصري" (Emeritus de Caesarea)، "كريسكونيوس" النحوي الدوناتي (Cresconium Crammaticum Donatistam) و"بتيليانوس" (Petilianus) من سيرتا، هذا الأخير الذي يعد الخصم العنيد للقديس "أوغسطين".* *- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 67.*

وبالرغم من كل ذلك، كانت الدوناتية تتراجع نتيجة سياسة أساقفتها التي اتسمت بالتفكك وكثرة الأخطاء، في حين كانت الكاثوليكية تتقدم وتحرز انتصارا بعد انتصار.

وقد انعقد المجمع الثاني في قرطاجة في 28 أوت سنة 397م بحضور كل الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا يأملون الوصول إلى أهدافهم عن طريق الدعاية السلمية والمناقشات والمجادلات الحرة، وأسلوب الإقناع. وحاولوا وضع قواعد النظام – المحددة سابقا–موضع التنفيذ وهي: حظر إعادة التعميد، منع سيامة رجال الدين المهتدين حديثا، إقرار وتأكيد مجموع الشرائع والقوانين الكنسية (*Canons*) التي أصدرها مجمع هيبون (*Hippone*) سنة 393م،[1] وهي القوانين التي ساهمت في تسهيل الاهتداء والتوبة.

ومع ذلك لم ينته الانشقاق الماكسيمياني الذي كان يضم أكثر من مئتي (200) أسقفا. فقد حاول بعض أساقفته حضور مناظرة قرطاجة سنة 411م.[2] لكنه ضعف كثيرا وبقي محصورا في إقليمي بيزاكينا (*Byzacena*) والطرابلسية (*Tripolitana*).

وقد اتضح في السنوات التي تلت مجمع قرطاجة أي في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس وإلى غاية سنة 404م، أن الكاثوليك قاموا بحملة دعائية نشيطة استعملوا فيها وسائل متنوعة: كالرسائل، والمجادلات، والتبشير، التنازل والتسامح، الوعظ والإرشاد، ليبعدوا المسيحيين عن الإنضمام إلى حزب "دوناتوس" أو الإنفصال والإنشقاق عنه.

كانت الكنيسة الكاثوليكية –في ظل تلك المناظرة –تستعين بالسلطة الزمنية التي تقف دائما في صفها. ومع ذلك، ومنذ الأيام الأولى في صراعها مع الدوناتية وإلى غاية سنة 405م، كان هذا الدعم متقطعا وقليل الفعالية، ومن جهة أخرى فإن الكاثوليك لم

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 67- 68.*
[2]-*Augustin (St.), Epist., CVIII, 2, 5.*

يفضلوا هذا الدعم الذي كان نوعا ما معرضا للشبهة، وكانوا دائما يركزون في حملاتهم ضد الدوناتية على الإقناع والدعاية السلمية.

وكانت فاتحة هذا الدعم بأن أصدر الإمبراطور "ثيودوسيوس" (*Théodosius*) قانون 15 جوان سنة 392م. (*) لكن الدوناتيون لم يصبحوا في عداد الذين يعنيهم هذا القانون إلا في سنة 405م حينما صنفوا – قانونا–كهراطقة وليس كمنشقين. ومع ذلك تعرض الدوناتيون لهذه الغرامة الباهضة في حالات خاصة واستثنائية كحالة "كريسبينوس" (*Crispinus*) أسقف كالاما (*Calama*) "قالمة حاليا" بالشرق الجزائري.

ورغم وفاة الإمبراطور "ثيودوسيوس" في بداية سنة 395م وانقسام الإمبراطورية، (الخريطة رقم 6 ص 458) إلا أن ذلك لم يغير شيئا في السياسة الإمبراطورية تجاه الدوناتيين، حيث سارع أبناؤه "هونوريوس" (**) (*Honorius*) و"أركاديوس"(***) (*Arcadius*) إلى تأكيد كل القوانين التي فرضت سابقا على المنشقين والهراطقة في 13 مارس سنة 395م. [1]

وبعد هذا القانون تعرض الدوناتيون لمجموعة هامة من القوانين الإمبراطورية كان لها تأثير بارز على مصير الكنيسة المنشقة.

---

*– *ينص هذا القانون على فرض غرامة مالية قدرها عشرة (10) ليرات ذهبية على كل رجال الدين الهراطقة، ونفس الغرامة على كل من يقدم تسهيلات لعقد الاجتماعات المحظورة، ومصادرة المنازل والأماكن التي تعقد فيها مثل هذه الاجتماعات.*
- *Augustin (St.), Epist., XXCVIII, 7 ; Cod. Theod., XVI, 5, 21.*

– ***هونوريوس (Honorius Flavius)، 384–423م، إمبراطور روماني (395–423م)، إمبراطور الغرب، هو الإبن الثاني للإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (379-395م). للمزيد أنظر أعلاه: ص 336 ، 478.*
-Dic.Univ.Hist. Géo., p.890.

***– ***أركاديوس** Arcadius، إمبراطور روماني (395-408م)، أول أباطرة الشرق، هو إبن ثيودوسيوس الأول Theodosius I (379-395م) الأكبر، تقاسم مع أخيه هونوريوس العرش وعمره 18 سنة، فكان من نصيبه القسم الشرقي من الإمبراطورية، ولما كان إمبراطورا ضعيف الشخصية، تولى الحكم مكانه والي البريتوار "روفين" (Rufin)، وحاجبه "أوتروب" (Eutrope)، وزوجته "أودوكسي" (Eudoxie)، عجز عن وقف هجمات القوط، توفي سنة 408م وعمره 31 سنة.*
- Dic.Univ.Hist. Géo., p.102.

[1]*-Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I, 4, 8 ; Cont. Cresc., IV, 6, 7.*

والواقع أن الخناق ضيق تدريجيا على الكنيسة المنشقة بعد انتهاء فترة التسامح الديني في عهد "يوليانوس المرتد" (*Julien l'Apostat*) سنة 362م، حيث فرضت العديد من القوانين على الدوناتية وخاصة على عهدي "ثيودوسيوس" [1] *Theodosius* (379-395م) و"هونوريوس" *Honorius* [2] (395-423م).

لا يستطيع الباحث أن ينكر أن سياسة الزعماء الدوناتيين اتسمت بنوع من الواقعية والبراغماتية في غالب الأحيان، ذلك أنهم تجاوزوا أحيانا مبادئ الدوناتية خاصة ما تعلق بقضية إعادة التعميد، ومحاولة إقناع السلطة الزمنية بأنهم يمثلون الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية. كما لجأوا إلى السلطات في بعض الأحيان لمحاولة التخفيف من حدة القمع الذي تعرضت له كنيستهم أو لالتماس العقوبات ضد المنشقين عن الخط الدوناتي "الأرثوذكسي".

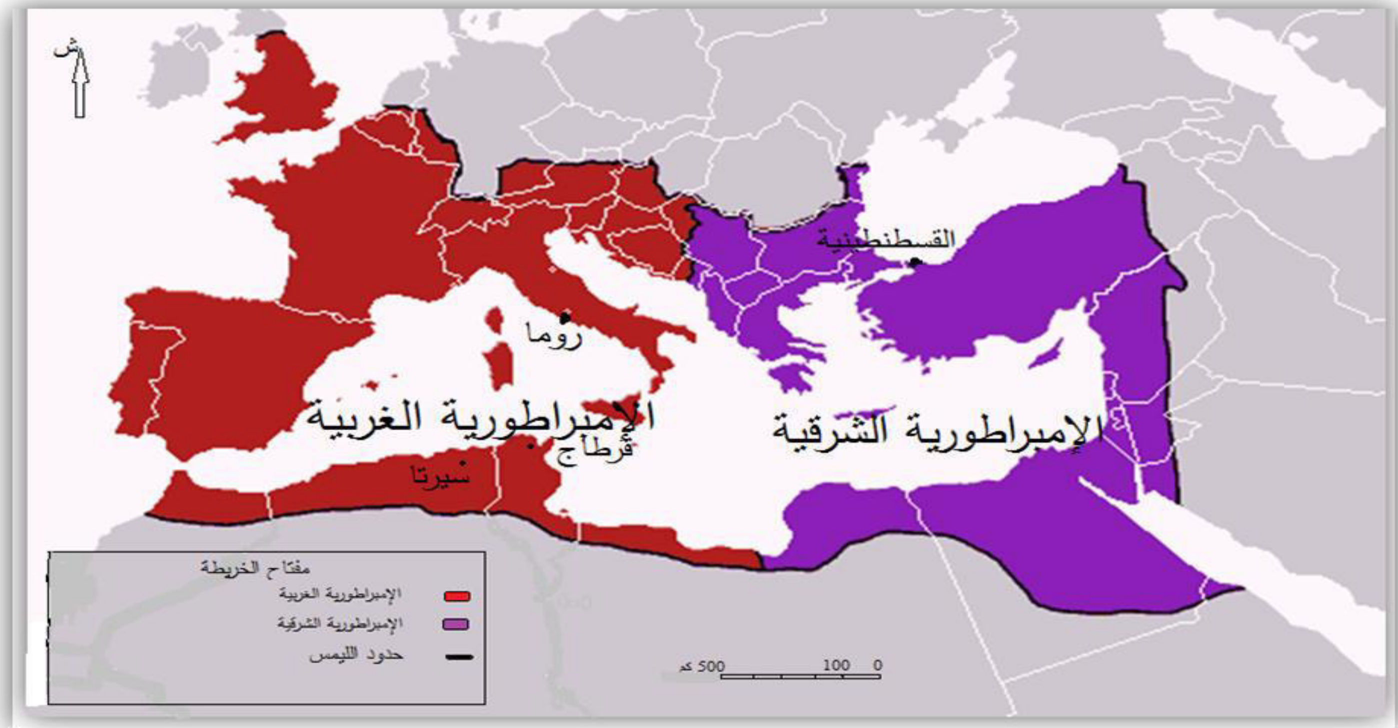
والحق، أنهم دفعوا إلى ذلك دفعا خاصة أن الكاثوليك كانوا يستأثرون بمسامع السلطة ولا يتورعون في توجيهها لصالحهم. فقد تعرض الدوناتيون لإجراءات عامة أخرى تنزع منهم حق الوصاية ومنح الهبات أو استلامها، أو استلام الإرث.

فقد ذكر "أوغسطين" في إحدى القضايا أن رجلا من النبلاء وهو كاثوليكي تقدم بشكوى للإمبراطور بعد وفاة أخته "الدوناتية" في حوالي 399م، يطلب فيها إلغاء وصية أخته التي أوصت بممتلكاتها إلى بعض الدوناتيين منهم أحد أساقفتهم يدعى "أوغسطينوس" (*Augustinus*)، فجاء المرسوم الإمبراطوري يدعو إلى إعادة كل الممتلكات إلى أخ تلك المرأة، مستشهدا في ذلك بنص القانون العام الذي يحرم على الهراطقة والمنشقين حق الوصاية والتبرعات أو استلامها، أو استلام الإرث. وأشار نص القرار أيضا إلى الدوارين توقعا لأي معارضة عنيفة من جهتهم فقد ذكر المرسوم الوسائل الكفيلة لصدهم إذا ما لجأوا إلى العنف. [3]

1- *لائحة القوانين الصادرة ضد الدوناتية في عهد ثيودوسيوس: أنظر الملحق رقم 3 "أ".*

2 - *لائحة القوانين الصادرة ضد الدوناتية في عهد هونوريوس: أنظر الملحق رقم3 "ب".*

3 -*.Augustin (St.), Contra Epist. Parmen., XII, 19, 20.*



الخريطة رقم 6: انقسام الإمبراطورية الرومانية في سنة 395م.

بعد وفاة الإمبراطور "ثيودسيوس الأول " في بداية سنة 395م تقاسم ابنيه العرش فكان القسم الشرقي من الإمبراطورية من نصيب ابنه البكر "أركاديوس" والقسم الغربي من نصيب "هونوريوس".

(رسم وتصميم الطالب الباحث) إطار الخريطة نقلا عن: *D'après : w.w.w.mediteranee.ne*

وتعرض "كريسبينوس" (*Crispinus*) أسقف "كالاما" (*Calama*) الدوناتي، بعد ذلك في حوالي 403م، للإدانة بعد محاكمته، بدفع غرامة مالية تقدر بعشر (10) ليرات ذهبية، طبقا لقانون 15 جوان سنة 392م – المذكور سابقا–، حيث صنف من الهراطقة وأصحاب البدع من طرف بروقنصل قرطاجة. ثم أعفي من دفع تلك الغرامة، الأمر الذي دفع الإمبراطور "هونوريوس" إلى إصدار مرسوم في بداية سنة 404م يؤكد الحكم الأول ويوبخ البروقنصل الذي لم يطبق القانون. ونص على أن يدفع "كريسبينوس" والقاضي وممثل الوظيفة (*Officium*) غرامة مالية تقدر بعشر (10) ليرات ذهبية. [1]

يتضح مما سبق أن كلتا الحالتين السابقتين هي حالات استثنائية، وتبين أن القوانين العامة، في الظروف العادية، لم تطبق على المنشقين الدوناتيين، إلا في سنة 405م حيث اتخذ الإمبراطور "هونوريوس" موقفا حازما من الدوناتية بإصدار مرسوم 12 فيفري سنة 405م يعتبر الدوناتية هرطقة وبدعة، وهو المرسوم الذي نص على الوحدة بين الكنيستين (*Edictum de unitate ; lex de unitate ; lex unitatis*). [2]

وقد اعتبره الدوناتيون بمثابة الحكم بالموت على كنيستهم. ورغم صدور هذا المرسوم إلا أن القمع والاضطهاد تزايد على الحركة الدوناتية، ذلك أن "هونوريوس" ووزيره "ستيليكون" (*Stilichon*) [*] عقدوا العزم للقضاء على الدوناتية واستعادة الوحدة الدينية باللجوء إلى كل الوسائل.

---

[1]- *Augustin (St.), Epist., XXCVIII, 7; Contra Cresc., III, 47, 51.*

[2]- *Cod. Theod., XVI, 5, 38 ; 6, 3- 5 ; 11, 2.*

*– **ستيليكون Flavius Stilico** أو **Stilichon**، جنرال من أصول وندالية، قائد القوات الرومانية في غرب أوربا، والقائد المفضل للإمبراطور "ثيودوز"، تزوج "سيرينا" Serena ابنة أخ الإمبراطور، وأصبح عند وفاة هذا الأخير سنة 395م وصيا على ابنه الصغير هونوريوس، ووصيا على إمبراطورية الغرب، ثم زوجه ابنته فيما بعد. خاض عدة حروب ضد القوط وهزم قائدهم "ألاريك" سنة403م وانتصر على الجرمان سنة 406م. كان ضحية مؤامرة نتيجة نزاع بينه وبين «روفينوس" Rufinus في القسطنطينية، ورغم أنه لم تثبت إدانته إلا أن هونوريوس استمع لهمسات الوشاة فأعدمه في"رافينا Ravenne مقر إقامة الإمبراطور سنة 408م. الحويري محمود محمد، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص ص 161–162. - Claudien, Eloge de Stilicon, par M.Héguin de Guerle, t.2, Paris, Panckoucke, 1833, I, II ; Dict.Univ.Hist.Géo., p.1807.*

لذلك صدر المرسوم المذكور آنفا، الذي يهدف إلى إخضاع المنشقين وتطبيق كل القوانين السابقة التي صدرت ضد الهراطقة بشدة، ومنع إعادة التعميد، ومنعهم من تلقي التبرعات والهبات والإرث، ومصادرة ممتلكاتهم ومنحها للكاثوليك، ونفي الكهنة والأساقفة الدوناتيين. وفرض غرامات مالية على كل المخالفين لهذا المرسوم بما فيهم حكام المقاطعات والقضاة الذين لا يسهرون على تطبيق القانون. (1)

حفزت تلك القوانين الإمبراطورية الأساقفة الكاثوليك – من خلال عقد المجامع– على تحديد المبادئ العامة لسياستهم وطرق تنفيذها. وفي هذا الإطار انعقد مجمعين في قرطاجة، انعقد المجمع الأول في16 جوان سنة 401م، والذي عكف على تأكيد القوانين السابقة التي أصدرها مجمع هيبون (*Hippone*) "عنابة حاليا" سنة 393م ومجمع قرطاجة سنة 397م، كما قرر إرسال سفير إلى أساقفة روما وميلان لعرض أسباب التسهيلات الممنوحة إلى المهتدين. (2)

وانعقد المجمع الثاني في 13 سبتمبر سنة 401م الذي رسم خطة جريئة للمفاوضات والمصالحة مع المنشقين: رغم اعتراض البابا والمجمع الروماني الذي انعقد في صيف سنة 401م. وقد جرت محادثات سلمية مع الدوناتيين وأرسلت إليهم بعثة من الأساقفة الكاثوليك الذين يحملون أوامر محددة (*Mandatum*) وكلفوا بتحقيق الوحدة الدينية. (3)

بذل الأساقفة الكاثوليك قصارى جهدهم للوصول إلى الوحدة بإزالة أحكام الدوناتيين المسبقة، بأن ذكروهم بتصرفات البريميانيين المتناقضة تجاه الماكسيميانيين، ولدعم تلك الرؤية طلب الأساقفة الكاثوليك من حكام المقاطعات الإفريقية إجراء تحقيقات حول المتخاصمين داخل الكنيسة الدوناتية، وتدوين نتائج هذه التحقيقات في محاضر

---

[1]-*Augustin (St.), Contra Cresc., III, 43, 47; Epist, XXCVIII, 5- 10 ; XCIII, 5, 16-19 ; Cod. Theod., XVI, 5, 38 ; 6, 3- 5 ; 11, 2.*
[2]-*Monceaux (P.), H. L. A.C., IV, p.370.*
[3]- *Ibid., IV, p.371.*

رسمية (*Gesta publica*)، ثم إرسال منشور إلى كل زعماء الطوائف لإشعارهم بالإجراءات التي اتخذها المجمع. [1]

ونجهل ما إذا كانت تلك المساعي قد حققت أهدافها، لكن يحتمل أن تكون نية المبعوثين الحسنة قد اصطدمت بعناد المنشقين، وتمسكهم بآرائهم ومواقفهم.

ولما انعقد مجمع ميلاف (*Milev*) "ميلة حاليا" في 27 أوت سنة 402م في نوميديا التي يكثر بها عدد الدوناتيين الجريئين، اكتفى المجمع بتسجيل استقالة " ماكسيميانوس"(*Maximianus*) أسقف فاغا [*] (*Vaga*) الدوناتي، الذي اهتدى وعاد إلى الكنيسة الكاثوليكية مع أخيه "كاستوريوس" (*Castorius*) وكرس حياته من أجل إعادة السلم إلى الكنيسة.[2]

وحاول مجمع قرطاجة الذي انعقد في 25 أوت سنة 403م من جهته، بذل الجهد الكافي للوصول إلى وفاق بين المنشقين والكاثوليك، وجرى نقاش حاسم بين ممثلي الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية بهدف استعادة الوحدة الدينية للكنيسة الإفريقية. [3]

وانخذ المجمع عدة قرارات منها: أنه يجب على كل أسقف كاثوليكي أن يتفاوض في أبرشيته مع زعيم الطائفة الدوناتية، لتحضير الندوة العامة بين الطرفين. وتلقى في هذا الإطار، كل أسقف تعليمات محددة (*Mandatum*) ونموذج للإجراءات (*Forma conventioni Donatistarum*) الواجب إتباعها.

---

[1] - *Monceaux (P.), H. L. A.C., IV, p.70.*

*- **فاغا Vaga**، هي مدينة باجة (Béja) حاليا تقع شمال غرب تونس، عرفت خلال الفترة البيزنطية باسم "ثيودورياس"(Theodorias).*
- C.I.L., VIII., p.154 ; Gsell (S.), A.A., f.18, Béja, 128 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p.36.

[2] - *Augustin(St.), Lettres, LXIX.*

[3] -*Id., Contra Cresconium, III, 45,49 ; Brevic. Collat., III, 5,6.*

وقد طلب " أوريليوس" (*Aurélius*) أسقف قرطاجة من حكام المقاطعات تقديم كافة التسهيلات لإجراء تلك المفاوضات بين الطرفين وتحرير محاضر رسمية بشأنها (*Gesta publica*). [1]

وبالرغم من تنفيذ البرنامج الذي سطره المجمع حرفيا، حيث جرت المفاوضات مع المنشقين في عدة مدن في المغرب القديم، مثل "قرطاجة" [2] و"هيبو–ريجيوس" [3] و"كالاما". [4] ورغم بعض التقدم الذي حققه الأساقفة الكاثوليك، إلا أن الدوناتي "بريميانوس" (*Primianus*) رفض حضور الندوات مع نظرائه الكاثوليك، وفرض ذلك على أنصاره، بأن وجه رسالة إلى كل الأساقفة الدوناتيين يشعرهم فيها بالجواب الذي أرسله إلى "أوريليوس" أسقف قرطاجة. [5] وفي نهاية سنة 403م اتخذ مجمع دوناتي قرارا برفض المفاوضات والندوات مع الكاثوليك. [6]

وهكذا باءت كل المساعي التي كانت ترمي إلى تحقيق السلام والوفاق بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية بالفشل، وأصبحت المواجهة بينهما حتمية.

وفي الوقت الذي كان فيه الأساقفة الدوناتيين يرفضون مشروع الندوات، قامت مجموعات من الدوارين (*Circoncellions*) الذين سيطروا–في تلك الفترة–على الأرياف النوميدية، بمهاجمة الأساقفة الكاثوليك وتهديد مبعوثي الإمبراطورية بالقتل. ففي نهاية سنة403م، فوجئ "بوسيديوس" [*] (*Possidius*) أسقف "كالاما" (*Calama*) "قالمة

---

[1]- *Augustin(St.), Epist., XXCVIII, 7.*
[2]- *Id., Brevic. Collat., III, 4,4 ; Contra Cresconium, IV, 47,57.*
[3]- *Id., Epist., XXCVIII,*
[4]- *Id., Contra Cresconium, III, 46, 50.*
[5]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.71, 372-376.*
[6]- *Augustin (St.), Epist., LXXI, 4 ; XXCVIII, 7 ; Contra Cresconium, III, 45, 49,502-505.*

*– ***بوسيديوس، Possidius de Calama***، أسقف كاثوليكي، كان عدوا للدوناتيين والوثنيين، تتلمذ على يد القديس أوغسطين في هيبو–ريجيوس "عنابة حاليا"، أصبح أسقفا لكنيسة كالاما "قالمة" بعد وفاة الأسقف "ميغاليوس" Megalius سنة 397 م، كان صديقا لأوغسطين، لذلك دون سيرته في كتاب بعنوان: Vita Augustini ، شارك في عدة مجامع دينية في سنة 403م و 407م، كان أحد مندوبي الكاثوليك السبعة في مناظرة قرطاجة سنة 411م، وكان رفقة القديس أوغسطين داخل أسوار مدينة عنابة أثناء حصارها من طرف الوندال سنة 430م، توفي في حوالي سنة 437م.*
-Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne.., pp.296-297.

حاليا" بهجوم مجموعة من الدوارين، فلجأ إلى إحدى المنازل فأحرقوها، وتمكن بعد ذلك من النجاة بمساعدة بعض المعمرين الرومان.(1)

ولما تزايد نشاط الدوارين، مع تصلب مواقف الأساقفة الدوناتيين، طالب الأساقفة الكاثوليك دعم السلطة الزمنية. لذلك قرر مجمع قرطاجة الذي انعقد في 16 جوان سنة 404م إرسال وفد رسمي إلى الإمبراطور لإخطاره بالأوضاع العامة التي يعيشها المغرب القديم في تلك الفترة، والتي تتعلق خاصة بمحاولات المصالحة، ومشاريع الندوات، واستمرار العنف، والتمس الوفد من الإمبراطور "هونوريوس" (*Honorius*) حماية الكاثوليك، وتطبيق القوانين الإمبراطورية على المنشقين والهراطقة بصرامة. (2)

في ظل هذه الظروف قرر الإمبراطور "هونوريوس" اتخاذ إجراءات حيوية وحاسمة، فأصدر قانون الوحدة في 12 فيفري سنة 405م (*) الذي صنف الدوناتية ضمن الهرطقة وأصحاب البدع، واعتبرها خارجة عن القانون، كما حدد الوسائل الكفيلة بالقضاء على الانشقاق الديني. (3)

وأمر الإمبراطور "هونوريوس" بنشر قانون الوحدة *Edictum de unitate* في 5 مارس 405م في كل مناطق المغرب القديم. وكان هذا الأمر بمثابة إعلان عودة الإضطهاد الذي بدأ فعلا في عاصمة البروقنصلية "قرطاجة" في 26 جوان سنة 405م، لذلك قرر الأساقفة الكاثوليك وسط حملة شرسة إضطهاد الدوناتيين. (4)

1- *Augustin (St.), Epist., CV, 2,4 ; Contra Cresconium, III, 46,50.3.*
2- *Augustin (St.), Epist., XXC, 1 ; XXCVIII ,7.*
*- *يذكرنا قانون 12 فيفري سنة 405م الذي أصدره الإمبراطور هونوريوس، بالقوانين التي أصدرها قسطنطين سنة316م، وقنسطانس سنة347م، أي بعد أكثر من نصف قرن، لكن ما يميز قانون هونوريوس أنه يتضمن بندا هاما يعتبر الدوناتية خارجة عن القانون ويصنفها ضمن الهرطقة وأصحاب البدع (Hérésie).*
3- *Cod. Theod., XVI, 6,4.*
4- *Cod. Theod., XVI, 11,2.*

ومن أجل السهر على تنفيذ هذا القانون، عقد مجمع قرطاجة في 23 أوت سنة 405م الذي قرر إرسال وفدا رسميا يحمل رسالة شكر إلى الأباطرة في إيطاليا الذين أعادوا الوحدة والأمن إلى قرطاجة. (1)

وفي نفس الوقت، بعث المجمع رسائل كنسية إلى حكام المقاطعات الأفارقة تدعو إلى تنفيذ أحكام القانون بصرامة من أجل استعادة الوحدة الدينية إلى منطقة المغرب القديم. (2) وفي خضم ذلك، شعر الإمبراطور "هونوريوس" بضرورة إثارة حماس حكام المقاطعات ودعمهم بقانون أصدره في 8 ديسمبر سنة 405م يأمرهم بالسهر على تطبيق القوانين على الدوناتيين. وقد شجع هذا القانون على مطاردة المنشقين ومصادرة ممتلكاتهم وأموالهم. (3)

وهكذا وفر الاضطهاد المناخ الملائم للانتقامات الشخصية. (4) لكن المحافظ الإمبراطوري قرر العدول عن هذه المصادرات - مؤقتا- وإعادة الكنائس إلى المنشقين وذلك لحمل الأساقفة الدوناتيين على حضور مناظرة قرطاجة 411 م. وبذلك عادت الوحدة الدينية إلى قرطاجة -على الأقل- بشكل رسمي منذ صيف سنة 405م. (5)

وبالرغم من أن أوغسطين قلل من حدة هذه الإضطهادات، بدليل احتفاظ المنشقين بكنائسهم، واستمرار نشاط الدوارين، إلا أن الواقع – في تلك الفترة– يثبت عكس ما ذهب إليه أوغسطين. (6) ولنا في ذلك نماذج عديدة من تلك الشكاوى التي تقدم بها ضحايا تلك الاضطهادات منها: وفاة أحد الأساقفة المنشقين جراء الاضطهاد بمدينة

---

1 - *Monceaux (P.) ; H.L.A.C., IV, p.74.*
2 - *Ibid., IV, p.378.*
3- *Ibid., IV, p.379.*
4- *Augustin(St.), Epist., XXCVIII., 11 ; XCIII, 12,5*
5-*Id., Brevic.collat., I ,2.*
6-*Id., Epist., XXCVIII ,8.*

"مومبرون" (*) (*Membrone*) في البروقنصلية، وفي مدينة هيبو- دياريتوس" (**) (*Hippo-Diarrhytus*) "بنزرت حاليا" في الشمال التونسي، قام أحد الأساقفة الكاثوليك يدعى "فلورنتيوس" (*Florentius*) بتسليم الأسقف الدوناتي "فيكتور" (*Victor*) إلى الشرطة، و أورد في شكواه ما يأتي: «***لقد اضطهدني رغم براءتي، وألقى القبض علي، وسلمني إلى السلطة الإدارية (Officium) وزج بي في السجن لمدة ثلاث سنوات.*** » [1]

وفي مدينة "مارازانا" (***)(*Marazana*) في مقاطعة "بيزاكينا" (*Byzacena*) "المزاق" حاليا في الجنوب التونسي، قامت السلطات بحل الطائفة الدوناتية.

كما أعلن أحد الأساقفة الكاثوليك بمنطقة "أوسبيتا" (****) (*Hospita*) في نوميديا أنه لا يوجد من ينافسه من الأساقفة، فرد عليه أسقف دوناتي قائلا:« ***لقد دفعنا الاضطهاد الوحشي إلى الفرار منكم.*** » [2]

---

*- **مومبرون Membrone**، إحدى مدن البروقنصلية، هي مدينة أحمد بوفارس حاليا في شمال شرق تونس، ذكرت في لوحة "بوتينغر" *Table de Peutinger* ومسلك "أونطونينوس" *Itinéraire d'Antoninus*، تبعد بحوالي ستة أميال (حوالي 9.6 كلم) عن مدينة أوتيكا" *Utique*" كانت بها كنيسة في القرن الخامس، ذكرها "تيسو" *Tissot* باسم *Memphonitanus locus*. ويعتقد أنها بقيت إلى القرن 12م ذكرها "الإدريسي" في سياق حديثه عن بنزرت. - *Gsell(S.), A.A.T., f.7, Porto farina ,82; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., p.119.*

- **هيبو- دياريتوس Hippo-diarrhytus، هي مدينة بنزرت *Bizerte* حاليا في أقصى شمال تونس، تقع شمال مدينة أوتيكا العتيقة، بها طريق رومانية تربط بين هيبون *Hippone* "عنابة" وقرطاجة تمر عبر "سميتو" *Simuthu*" "شمتو" شمال تونس حاليا، سلكها أوغسطين حينما انتقل إلى كنيستها. - *C.I.L., 152, 931 ; Gsell (S.), A.A.T, f.2, Bizerte n°63 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., pp.39-40.*

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.75.*

***- **مارازانا Marazana**، هي منطقة هنشير قنارة حاليا في إقليم بيزاكينا *Byzacena* المزاق حاليا في الجنوب التونسي، تقع على الطريق الرابط بين سوفاس" *sufes*" سبيبة حاليا، ومنطقة ريجيا *Regiae*، تبعد عن الأولى بـ 28 ميلا (حوالي 45 كلم) وعن الثانية بـ 20 ميلا (حوالي32 كلم). - *Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., pp.74, 208.*

****- **أوسبيتا Hospita**، مدينة في نوميديا، كانت توجد بها أبرشية يترأسها الأسقف الكاثوليكي" بنيناتوس" *Benenatus* ويعتبر الأسقفين الدوناتيين" لوكولوس" *Lucullus* و"غيداليوس" *Gedalius* من أبرز الأساقفة المنافسين له في المدينة. - *Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., p.416.*

[2]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.75.*

وتوفي أسقف منشق في مدينة "كيزا" (*) (*Quiza*) في موريطانيا القيصرية بسبب الاضطهاد. وجرت في نفس المقاطعة، بمدينة "غراتيانابوليس" (**) (*Gratianapolis*) مجادلة كلامية بين أسقف كاثوليكي و"دوتريوس" (*Deuterius*) الأسقف الدوناتي فقال الأول:« ***إن دوتريوس بقي الوحيد ضدي بدون أنصار***» ، ورد الثاني***:« طبعا لأنك اضطهدتنا وصادرت ممتلكاتنا وأموالنا، ففر الجميع إلا أنا .*** » [1]

يبدو أن السياسة التي انتهجتها السلطة الرومانية في المغرب القديم قد أثمرت باستعادة الكنائس من المنشقين ومنحها للكاثوليك بعد الاضطهادات التي أعقبت قانون سنة 405م المذكور آنفا. (***)

ورغم ذلك فإن الكنيسة الكاثوليكية كانت تبحث دوما لكسب الجماهير واستمالتهم، بأسلوب أكثر نجاعة وهو الدعاية السلمية بطرق شتى منها: التبشير والوعظ، والمجادلات والمراسلات الفردية والجماعية والإعلانات.[2] ونتيجة لذلك تزايدت الإهتداءات، حتى أن مدنا بأكملها تخلت عن الانشقاق الدوناتي وعادت إلى الكنيسة الكاثوليكية، مثل مدينة "تاغاست" (*Thagaste*) "سوق أهراس" حاليا، و"فازاري" (****) (*Vazari*)، و"فاغا"

---

*- **كيزا Quiza**، إحدى مدن موريطانيا القيصرية، تعرف حاليا باسم جسر الشلف "Pont du Chélif" ارتقت إلى مرتبة بلدية Municipe خلال الفترة الرومانية، ذكرت في مسلك أونطونينوس بأنها بلدية Quiza Municipium، كما ذكرها أوغسطين في الرسالة CCIX التي وجهها إلى البابا "سلستان" St.Celestin في حوالي 422-432م.*

-C.I.L, VIII, p.828, n° 9699 ; Gsell (S.), A.A.A., f.11, Bosquet, 2 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., p.484.

*** - **غراتيانابوليس Gratianapolis**، إحدى مدن موريطانيا القيصرية، من أشهر أساقفها "بوبليكيوس" Publicius ، ويعد الأسقف الدوناتي"دوتريوس Deuterius منافسه في المدينة.*

- Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., p.493.

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.76.*

****- عن هذا القانون أنظر أعلاه، هامش ص ص 348، 463.*

[2]- *Augustin (St.), Epist., CV.*

*****- **فازاري Vazari**، توجد عدة مدن تحمل هذا الإسم منها هنشير بدجار وهنشير بيجار، ويحتمل أن المدينة أخذت اسمها من اسم مدينة أقدم منها تدعى "ديدا" Didda تعود إلى زمن القديس سبريانوس في منتصف القرن الثالث للميلاد. Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne..., p.493.*

"باجة" (*Vaga*) حاليا في شمال غرب تونس، كل سكان هذه المدن تخلوا عن الانشقاق الدوناتي وعادوا إلى الكنيسة الكاثوليكية. (1)

لقد حقق مرسوم الوحدة الذي صدر سنة 405م نتائج هامة بالنسبة للكاثوليك، حيث سمح بازدياد عدد المهتدين، وإضعاف حزب المنشقين. ورغم ذلك بقيت الدوناتية حركة مقاومة، حافظت على قوتها وحضورها في نوميديا التي مثلت معقلها الدائم. وما يدل على ذلك أن عدد الأساقفة الدوناتيين الذين حضروا مناظرة قرطاجة سنة411م – فيما بعد–كان تقريبا مساويا لعدد الأساقفة الكاثوليك. (*) (2)

عمد الأساقفة الكاثوليك، لضمان انتصاراتهم، إلى عقد مجمع قرطاجة في 13 جوان سنة 407م لإعادة تنظيم كنيستهم، فبعثوا بوفد رسمي إلى الإمبراطور للحصول على بعض الإجراءات الإضافية ضد الانشقاق الديني.

وحدد الطرفان المبادئ العامة لسياستهما المستقبلية خاصة في المناطق التي شهدت أكثر عدد من الاهتداءات. ومن هذه الإجراءات حق احتفاظ الأساقفة المنشقين، الذين ساهموا في دخول أنصارهم إلى الكاثوليكية قبل صدور مرسوم الوحدة، برتبهم الأسقفية. هذه السياسة الحكيمة التي هي مزيج من التساهل والتسامح الحذر مع الحزم والانضباط، جعلت من الانتصارات الجزئية التي حققتها الكنيسة الكاثوليكية انتصارات دائمة ومستمرة.

يبدو أن السلطة الزمنية صادقت عليها بقانون أصدره الإمبراطور "هونوريوس" في 15 نوفمبر سنة 407م موجه إلى "بورفيريوس" (*Porphyrius*) بروقنصل إفريقيا، ينص

---

1 - *Augustin (St.), Epist., XCIII, 1, 2 ; 5,16.*

*- *بلغ عدد الأساقفة الكاثوليك في مناظرة قرطاجة سنة 411م، حسب "مونصو" 286 أسقفا أما الغائبون فكان عددهم حوالي 120 أسقفا و64 مقعدا شاغرا، أما الأساقفة الدوناتيين فكان عددهم 279 أسقفا وعدد مماثل تقريبا من الغائبين. Monceaux(P.), H.L.A.C., IV, p.84. ويرى "جيلبار مينييه" أن عدد الأساقفة الدوناتيين كان 286 أسقفا، وعدد الأساقفة الكاثوليك 285 أسقفا. -Meynier (G.), Op.cit., p.165.*

2 - *Monceaux(P.), H.L.A.C., IV, p.83.*

على إظهار نوع من الحلم تجاه المنشقين الذين انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية، وفي نفس الوقت استمرار تطبيق كل القوانين –المذكورة آنفا–ضد المتشددين الدوناتيين. (1)

اعتقد الدوناتيون في بداية سنة 408م بعدما وصلتهم أخبار وفاة "ستيليكون" (*Stilichon*) وزير "هونوريوس" القوي وعدو المنشقين اللدود، أنه يمكنهم أخذ الثأر والانتقام اعتقادا منهم أن ستيليكون كان وراء صدور قوانين القمع والاضطهاد. وبما أنه توفي فإن هذه القوانين سوف تؤجل أو تلغى وكل شيء سوف يتغير، لذلك لجأوا إلى نشر مرسوم إمبراطوري مزيف للتسامح في كل مناطق المغرب القديم. (2)

أقلقت تلك الأعمال الأساقفة الكاثوليك الذين عقدوا خلال تلك السنة مجمعين في قرطاجة، الأول في16 جوان سنة 408م وقرروا إرسال وفد إلى الإمبراطور لالتماس تأكيد كل القوانين التي صدرت ضد الدوناتيين. وانعقد الثاني في 13 أكتوبر سنة 408م على إثر عدة محاولات لاغتيال الأساقفة الكاثوليك وحدوث اضطرابات عديدة أسفرت عن مقتل كاثوليكيين والإساءة لآخرين. فكلف المجمع بعثة كنسية حملت عريضة مماثلة إلى إيطاليا تطلب اتخاذ إجراءات مستعجلة. (3) وقد بدأ القديس "أوغسطين" في تلك الفترة نفسها حملته ضد الدوناتية، وذلك بمراسلة "أولمبيوس" (*Olympius*)، الوزير الجديد خليفة "ستيليكون" لتسريع دعم عريضة المجمع. (4)

واستجاب الإمبراطور "هونوريوس" لمطالب الأساقفة الكاثوليك فأصدر قانونا إمبراطوريا في 11 نوفمبر 408م ضد أنصار "جيلدون" (*Gildon*)، وقانونا آخر في 24 نوفمبر سنة 408م موجه إلى "دوناتوس" (*Donatus*) بروقنصل إفريقيا يتضمن الحكم بالإعدام على كل من يخل بنظام الطقوس الدينية في الكنائس، وأصدر في 27

1- Cod.Theod., XVI, 5, 41,43.
2- Augustin (St.), Epist., XCVII, 2-3.
3- Ibid., CV, 2,6.
4- Ibid., XCVII, 2-4.

نوفمبر408م قانونا ثالثا يحظر على المنشقين عقد الاجتماعات، مع مصادرة ممتلكاتهم ونفي المتهمين. (1)

كما أصدر الإمبراطور"هونوريوس" قانونين في سنة 409م، صدر القانون الأول في 13 جانفي ينص على الحكم بالإعدام على كل متهم بسرقة ونهب الكنائس أو قذف الأساقفة ورجال الدين. وصدر القانون الثاني في 15 جانفي، ويتضمن تطبيق كل القوانين على الدوناتيين، وعزل حكام المقاطعات الذين لا يمتثلون للأوامر، ونفي القضاة الذين لا يبلغون السلطة عن المخالفات. (2)

وحدث انقلابا فجائيا في سنة 410م، فقد تلقى "هيراكليانوس" (*) (*Heraclianus*) كونت إفريقيا وقائد الفرق العسكرية الرومانية، مرسوما إمبراطوريا للتسامح مع الدوناتيين يدعو إلى حرية كل الطوائف في ممارسة معتقداتها وشعائرها الدينية. (3) ونجهل لحد الآن الأسباب التي دفعت الإمبراطور إلى إصدار مثل هذا القانون.

هل كان ذلك بسبب هجمات القوط (**) (*Goths*) على إيطاليا؟ أم هي بداية جنوح الإمبراطور إلى الحكمة والتعقل والرغبة في توحيد رعايا الإمبراطورية بعد توحيد الكنيسة؟

1- Cod. Theod., IX, 40, 19 ; XVI, 5, 44, 45 ; Augustin (St.), Epist., C, 2.

2- Cod. Theod., XVI, 5, 46, 47.

*- **هيراكليانوس**، والي إفريقيا، استبد بالحكم مستغلا الصراعات على السلطة بعد تخلي "ديوكليبيانوس" عن العرش الإمبراطوري سنة 305م، فاتخذ لنفسه لقب "امبراطور" من سنة 308م الى سنة 311م، واستعمل سلاح القمح لتجويع روما للوصول إلى تحقيق أهدافه.* *- Saumagne (Ch.), la crise de l'autorité en Afrique au début du IVe siècle, (Observations sur quelques monnaies frappées à Carthage entre 305 et 321 ap. J.C.), R.T., 1921, pp.133-142.*

3- Augustin(St.), Epist., CVIII, 6, 18 ; Cod. Theod., XVI, 5, 51.

*- **القوط**، شعب من الشعوب الجرمانية القديمة ينحدر من الجوتار جنوب السويد، قاموا بغزو اسكندنافيا خلال القرن 3م، ومن جنوب بحر البلطيق استقروا في شمال غرب البحر الأسود في القرن 3م، اعتنقوا المذهب الأريوسي في عهد قسطنطين في بداية القرن الرابع الميلادي بفضل الأسقف "أولفيلاس" Ulfilas. انهارت إمبراطوريتهم في حوالي سنة 375م تحت ضغط الهون Huns، وأصبح لكل فرع من الفزيقوط Wisigoths "القوط الغربيون" والأستروقوط Ostrogoths "القوط الشرقيون" تاريخا مستقلا، وديانتهم الأريوسية. محمود محمد محفوظ، الموسوعة العربية الميسرة، ج3، دار الجيل، بيروت، 2001، ص 1890.* *-Procope, Histoire de la guerre des Vandales, II, Paris, 1852, pp.102-103 ; Simonde de Sismondi, Histoire de la chute de l'empire Romain et du déclin de la civilisation, t. I, Paris, 1835 ; Théodoret, Histoire de l'église, trad. Par M. Cousin, Paris, 1686, IV, 12 ; V, 17.*

على كل، فإن هذا التسامح والحلم الذي صدر عن الإمبراطور أخفق في تحقيق السلام والأمن –للمنشقين– في المغرب القديم.

لذلك قام "ماكروبيوس" (*Macrobius*) أسقف مدينة هيبو–ريجيوس (*Hippo-Regius*) الدوناتي في تلك الفترة، رفقة مجموعة من الدوارين بإعادة تعميد نائب شماس بأبرشية "أوغسطين"، وهم يرددون شعارهم الخالد "لله الحمد" [1] (*Déo Laudes*) وهي العبارة التي كان الدوارون يستهلون بها هجوماتهم، في حين كان الكاثوليك يردون عليهم بعبارة "الشكر لله" (*Déo Gratias*). [2]

وردا على هذه الاستفزازات، طلب الأساقفة الكاثوليك تدخل السلطة الزمنية إلى جانبهم، ومساندتهم في تصديهم للدوناتيين، لذلك عقدوا مجمع قرطاجة في 14 جوان سنة 410م، وبعثوا وفدا رسميا تقدم بعريضة إلى الإمبراطور عرضوا فيها الأوضاع العامة التي يعيشها المغرب القديم، والتمسوا منه إلغاء مرسوم الوحدة وتحضير مؤتمر عام يحضره الطرفين الدوناتي والكاثوليكي تحت إشراف السلطة السياسية. [3]

رحب الإمبراطور بطلب الأساقفة فأصدر قانون 25 أوت 410م يبطل فيه مرسوم التسامح وفرض حظر عقد الاجتماعات على المنشقين والحكم بالإعدام على المخالفين لهذا القانون. وفي نفس الوقت أبدى موافقته على مشروع عقد مؤتمر عام يضم الطرفين المتنازعين، واتخذ إجراءات لتحقيق ذلك. [4]

وبمقتضى قانون آخر أصدره الإمبراطور "هونوريوس" في 14 أكتوبر 410م، يأمر فيه السيناتور "ماركيلينوس" المحافظ الإمبراطوري بالذهاب إلى قرطاجة لتنظيم ورئاسة

---

[1] - Augustin (St.), Epist, CVIII, 5,14 ; CVI- CVIII ; Cont. Litter. Petil., II, 65,146 ; 84,186 ; Cod. Theod., XVI, 5, 51 ; Monceaux (P.) H.L.A.C., IV, p.439 ; Gsell (S.), l'Algérie dans l'antiquité…, p.67.

[2]- Leschi (L.), « Basilique et cimetières donatistes de Numidie »…, p.34 ; Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, pp.279, 282.

[3] - Augustin (St.), Brevic. Collat., III, 2, 2 ; 3, 3 ; 4, 4-5.

[4]- Cod. Theod., XVI, 5,51.

مناظرة بين ممثلي الكنيستين الإفريقيتين بهدف استعادة الوحدة الدينية في المغرب القديم. والواقع أن كل الإجراءات التي اتخذت سابقا كانت في صالح الكنيسة الكاثوليكية. [1]

يتضح مما سبق أن الدوناتية مرت بتجارب فظيعة على امتداد تاريخها الطويل، فقد تلقت ضربات عنيفة في منتصف القرن الرابع، وواجهت مطاردات ومتابعات عديدة لم تكن لتنهض منها لولا الظروف المواتية التي ساعدتها على ذلك. تلك الظروف التي ظهرت أحيانا كمعجزات في صالح الدوناتية خاصة بعد مرسوم الإمبراطور "قنسطانس"، وبفضل رد الفعل الغريب الذي صدر من الإمبراطور جوليان الملقب بالمرتد والوثني.

لقد اختفت تلك الظروف نهائيا بعد المراسيم التي أصدرها "هونوريوس"، ولأجيال عديدة أخرى بعد هذه القوانين، وحافظت الدوناتية على أنصارها ومؤيديها لكنها عجزت عن العودة إلى سابق عهدها، فقد حلت رسميا بموجب قرارات مؤتمر قرطاجة سنة 411م، وبالرغم من ذلك قاومت قبل أن تزول بعد ذلك بحوالي قرنين من الزمن.

المبحث الرابع –مرحلة الضعف والزوال (430 م–533م): تبدأ هذه المرحلة من الغزو الوندالي(*) للمغرب القديم سنة 430م إلى أوائل القرن السادس الميلادي، وهي فترة

---

[1]- *Cod. Theod., XVI, 11, 3.*

* –*الوندال **Vandali**، اسم مشتق من "Wendes" أو "Vendel" وهو اسم قرية سويدية في أوبلاند قد تكون الموطن الأصلي للوندال حسب ما ذكره كورتوا. وهم شعب جرماني سكن منطقة بين نهري الفستولا Vistule والأودر Oder في بولونيا حاليا، على ضفاف بحر البلطيق خلال القرن الثاني الميلادي، ثم تحت قيادة غوندوريك Gonderic وغودجيزيل Godegisil، عبروا نهر الراين في حوالي سنة 406م وقاموا بغزو غاليا Gaule "فرنسا" حاليا، ودخلوا أسبانيا في حوالي 409م، و توسعوا في إقليم "بتيكا" Bétique جنوب إسبانيا التي أخذت اسمهم "وندالوسيا" Vandalousia أو أندلوسيا ثم الأندلس فيما بعد، وبعد مغادرتهم أسبانيا توجهوا نحو إفريقيا في حوالي 428م بقيادة جنسريك Genséric بعدما طلبهم القائد بونيفاس Boniface فاحتلوا موريطانيا ثم أبرشيات إفريقيا حتى وصلوا إلى قرطاجة سنة 439م وحولوها إلى عاصمة لهم. احتلوا روما سنة 455م بعدما استنجدت بهم زوجة فالنتنيانوس الثالث ضد مغتصب السلطة بترون ماكسيم الذي قتل زوجها، وأثناء الغزو البيزنطي لإفريقيا قضى عليهم القائد بليزاريوس Bélisarius في بيزاكينا Byzacène سنة 533م.* *Pline l'ancien, H.N., XIV ; Tacite, Mœurs des Germains, II ; Dict.Univ.Hist.Géo., p.1939 ; Evagre, Histoire Ecclésiastique, trad. M. Cousin, Paris, Damien Foucault, 1686, IV, 16 ; Julien (Ch.), Op.cit., pp.233-234 ; Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique, pp.15-19.*

طويلة شهدت انحطاط وتراجع الدوناتية قبل أن تضعف تدريجيا خلال الفترة الوندالية وتختفي نهائيا خلال الفترة البيزنطية في أوائل القرن السادس الميلادي.

لقد تكررت–مرارا– فكرة أن المنشقين الذين اضطهدتهم السلطة الرومانية والكنيسة الكاثوليكية، جمعتهم المصلحة المشتركة مع الغزاة البرابرة من الوندال.

والحقيقة، أن هذا التصور يبقى مجرد فرضية تاريخية، في غياب الأدلة التي تؤكد أو تنفي ذلك، كما أنني أحاول أن أميز بين المناطق والفترات التاريخية، حيث ينتشر المنشقون بكثرة في مناطق عديدة منها: موريطانيا ونوميديا. ويحتمل أن يكون الدوناتيون والثوار الريفيين (الدوارون) قد اتبعوا أسلوب الأهالي في الانقضاض مع الغزاة على الجماعات الكاثوليكية، التي وصفها "مونصو" بالمدافعين عن الحضارة الرومانية. [1]

لقد استهدف الغزو الوندالي كهنة المدن على وجه الخصوص، واتسمت أعمالهم بالوحشية، من حرق ونهب وتدمير الكنائس، وتعذيب وقتل رجال الدين. لأن الوندال كانوا على المذهب الأريوسي [*](*Arianisme*)، فالحقد والضغينة التي كان يكنها الأريوسيون للكنيسة الكاثوليكية تفسر ضراوة استهداف رجال الدين بمختلف مذاهبهم، وسط الرعب والفظائع التي صاحبت الغزو الوندالي. [2]

يبدو أن الجماعات المنشقة عجزت –في تلك الأثناء –في القسم الشرقي من المغرب القديم خاصة في مقاطعات البروقنصلية وبيزاكينا والطربلسية أن تلعب دورا مهما

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.97-98*

** – نسبة إلى أريوس **Arius**، الأسقف الإسكندري، ولد حوالي 270 م في الإسكندرية التي استقر بها وبدأ في نشر مبادئ المذهب الجديد في حوالي 312م في عهد قسطنطين، كان ضد عقيدة التثليث. يرى أن عيسى ليس إلها وإنما عبد مخلوق كسائر الأنبياء والرسل، وأنه كلمة الله التي خلق بها السماوات والأرض. أدين من طرف عدة مجامع كنسية خاصة مجمع نيقية "Nicée" سنة 325م ومجمع القسطنطينية سنة 381م، نفي عدة مرات، ووقف في صفه الأسقف أوزبيوس Eusébios أسقف نيكوميديا Nicomédie ، ثم استدعاه قسطنطين من المنفى، فانعزل في مدينة القسطنطينية وأصبح بطريركا لكنيستها حتى توفي في حوالي سنة 336م. اعتنقت عدة شعوب المذهب الأريوسي خاصة منها الشعوب البربرية كالقوط والوندال واللومبارديون واختفى هذا المذهب في حوالي سنة 660م.*
Ditc.Univ.Hist. Géo., pp.113-114 ; Zeiller (J.), «L'arianisme en Afrique avant l'invasion Vandale », In R. Hist., T. 173, 1934, pp. 535-541.

[2] - *Victor de Vita, Histoire de la persécution des vandales en Afrique, Trad. S.Lancel, CUF, Les belles lettres, Paris, 2002, I, 4-10 ; 15-18 ; Possidius, Vita Augustini, 38,41.*

في تاريخ الغزو الوندالي. ربما يعود ذلك إلى قلة عدد المنشقين في تلك المقاطعات أو ذوبانهم في الأكثرية الكاثوليكية. ومن جهة أخرى فقد سكتت المصادر الأدبية في تلك الفترة عن احتمال وجود تحالف بين المضطهدين من الدوناتيين والوندال.

ولما أشار أوغسطين في رسائله إلى تقدم البرابرة – يقصد الوندال– واصفا انتصاراتهم، مخلفين الدمار والخراب في كل مكان، من حرق للكنائس، وقتل رجال الدين، وهروب السكان، لم يذكر الدوناتيين معهم.[1]

نستخلص من ذلك – وبشكل غير أكيد–أن المنشقين الدوناتيين لم يستغلوا الفرصة للانتقام، ولكن يحتمل أن تكون بعض الانتفاضات هنا وهناك ولكنها كانت معزولة ومحلية.

وبعدما تمكن الوندال من فرض سيطرتهم الكاملة على المغرب القديم باحتلال قرطاجة سنة 439م وحولوها إلى عاصمة لهم، لم يميزوا بين الطوائف.

فقد طارد الوندال واضطهدوا كل من لا يدين بالمذهب الأريوسي مثل الدوناتيون والكاثوليك والمانويون [*] والوثنيون. [2]

---

[1]- *Augustin (St.), Epist., CCXX, 7 ; CCXXVIII, 1-14.*

*– *"ماني" **Mani-Manès-Manichée**، (216-274م)، أحد هراطقة القرن الثالث الميلادي، ومؤسس الحركة المانوية (Manichéisme) التي تقوم على مبدأ الثنوية التي ترجع الوجود إلى سببين هما: الخير والشر أو النور والظلام، فالله سيد النور، والشيطان سيد الظلام، و المانويين هم تلاميذ ماني وأتباعه، انتشرت أفكاره في الصين والهند وبلاد فارس ومصر وسوريا و العراق، اعتنق هذه النحلة "سابور الأول" ملك الفرس، فتولى "ماني" مهمته كطبيب في قصر الملك، ولما عجز عن شفاء ابنه نفاه الملك، فانتقل إلى بلاد مابين النهرين، ولما فشل في نشر مذهبه عاد إلى بلاده، وفي عهد بهرام الأول حكم عليه بالإعدام ذبحا سنة 274م، وحسب بلوتارك Plutarque فإن مبدأ الثنوية "Dualisme" لم يكن من ابتكار الفرس، فقد عرفته عدة شعوب في العصور القديمة كالمصريين والكلدانيين والإغريق. سعفان كامل، معتقدات آسيوية، ط1، دار الندى، القاهرة، ص ص138–141. Socrate, (le scolastique), Op.cit., I, XXI ; Plutarque, Œuvres morales, traité d'Isis et d'Osiris, trad.D.Richard, Paris, Lefèvre éditeur, 1844, t.V, pp.319-357 ; M. Bergier (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, t. 2, Paris, Panckoucke, 1789, pp.545-555 ; Dict. Univ.Hist. Géo., pp.1174-1175.*

[2]- *Victor de Vita, I, 4-10.*

ومع ذلك، فقد ساهم الغزو الوندالي – بشكل غير مباشر– في إنقاذ ما تبقى من الدوناتية، وإضعاف أكبر أعداء الانشقاق الدوناتي: وهي السلطة الرومانية التي بدأت تفقد مقاطعاتها الإفريقية شيئا فشيئا من جهة، والكنيسة الكاثوليكية التي تعرضت بدورها للاضطهاد الوندالي من جهة ثانية.

وهكذا أضحى المغرب القديم فريسة للفوضى، خاصة المقاطعات الغربية كالموريطانيتين ونوميديا اللتان عجز الغزاة في احتلالهما وفرض سيطرتهم الكاملة عليها، وانتهى بهم الأمر إلى الانسحاب كلية في منتصف القرن الخامس الميلادي (أنظر الخريطة رقم 7 ص 476)، وترك المجال حرا للقبائل المحلية وللطوائف الدينية الأخرى.

واستغلت الدوناتية– بطبيعة الحال– هذه الفوضى السياسية، فالجماعات المنشقة التي قاومت الاضطهادات في عهد "هونوريوس"، استمرت قائمة لكن في ظل أوضاع غامضة. وجماعات أخرى أعادت تشكيل نفسها بعودة الأنصار والمخلصين القدماء، يدفعهم إلى ذلك عدم الخوف من القوانين الإمبراطورية نتيجة اختفاء السلطة الرومانية والتبشير الكاثوليكي فجأة بسبب الاجتياح الوندالي. [1]

وتؤكد الشواهد المادية حضور الدوناتية في المغرب القديم خلال عدة أجيال متعاقبة، إنها كنائس المنشقين التي أثبتت وجودها في موريطانيا إلى منتصف القرن الخامس للميلاد، وفي نوميديا إلى أواخر القرن السادس للميلاد.

كان الغزو الوندالي في موريطانيا، سببا في دفع الطوائف المتنافسة إلى المصالحة فيما بينها، ومن جهة أخرى، فإن الغزاة البرابرة مكثوا فترة قصيرة في المقاطعات الغربية، فقد اكتفوا فقط بنهبها وتخريبها واتخذوها محطة عبور للتوجه نحو

---

[1]- *Victor de Vita, II, 1-2 ; III ,1-14.*

المناطق الشرقية من المغرب القديم، التي جذبهم إليها نداء "بونيفاس" [*] (*Boniface*)، وثروات السكان، وسمعة قرطاجة. فبمجرد مغادرة العصابات الوندالية مقاطعات الغرب، ما لبثت أن عادت الحرب الدينية مرة أخرى بين الطوائف المسيحية. [1]

وقد دلت الكشوفات الأثرية والنقوشية عن بعض أحداث ومشاهد هذه الحرب، في خرائب ألاميلياريا (*Ala-miliaria*) [**] التي كانت مركزا للمقاومة ضد الكنيسة الكاثوليكية، حيث وجدت قبور الأسقف "نميسانوس" (*Nemessanus*) الذي استشهد في 7 أكتوبر سنة 422م، وأخته "يوليا جيليولا" (*Iulia Geliola*) التي استشهدت في 22 ديسمبر سنة 422م في قبو الكنيسة. [2]

وبعد مغادرة الوندال مقاطعة موريطانيا القيصرية في الثلث الأول من القرن الخامس واقتصر تمركزهم على شمال موريطانيا السطيفية ونوميديا، (الخريطة رقم 7 ص 476)، تم دفن رفاة دوناتيين آخرين في قبو نفس الكنيسة وهما: القس "فيكتور" (*Victor*) في 21 سبتمبر سنة 433م، والقس "كريسانس" (*Crescens*) في فيفري سنة 434م. [3] وبعد مراسيم دفن هذا الأخير، عاد الصراع بين الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية من جراء العنف والصدام الذي حدث بينهما. [4]

---

* – ***بونيفاس Boniface***، *جنرال إمبراطورية الغرب وكونت Conte إفريقيا في حوالي سنة 422م، حكم إفريقيا في عهد الإمبراطور هونوريوس ووالدته بلاسيديا Placidie التي وجهت له تهمة التعامل مع الوندال ومساعدتهم في الاستيلاء على إفريقيا باستدعاء جنسريق Genséric (429- 430م). وكان منذ سنة 427م قد أعلن انفصال إفريقيا عن السلطة المركزية الرومانية، توفي حوالي سنة 432م.* - *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique..., p.254 ; Mercier (E.), la population indigène de l'Afrique sous la domination Romaine, Vandale et Byzantine, R.S.A.C., t.30, 1895-1896, (pp.127-211), p.173.*

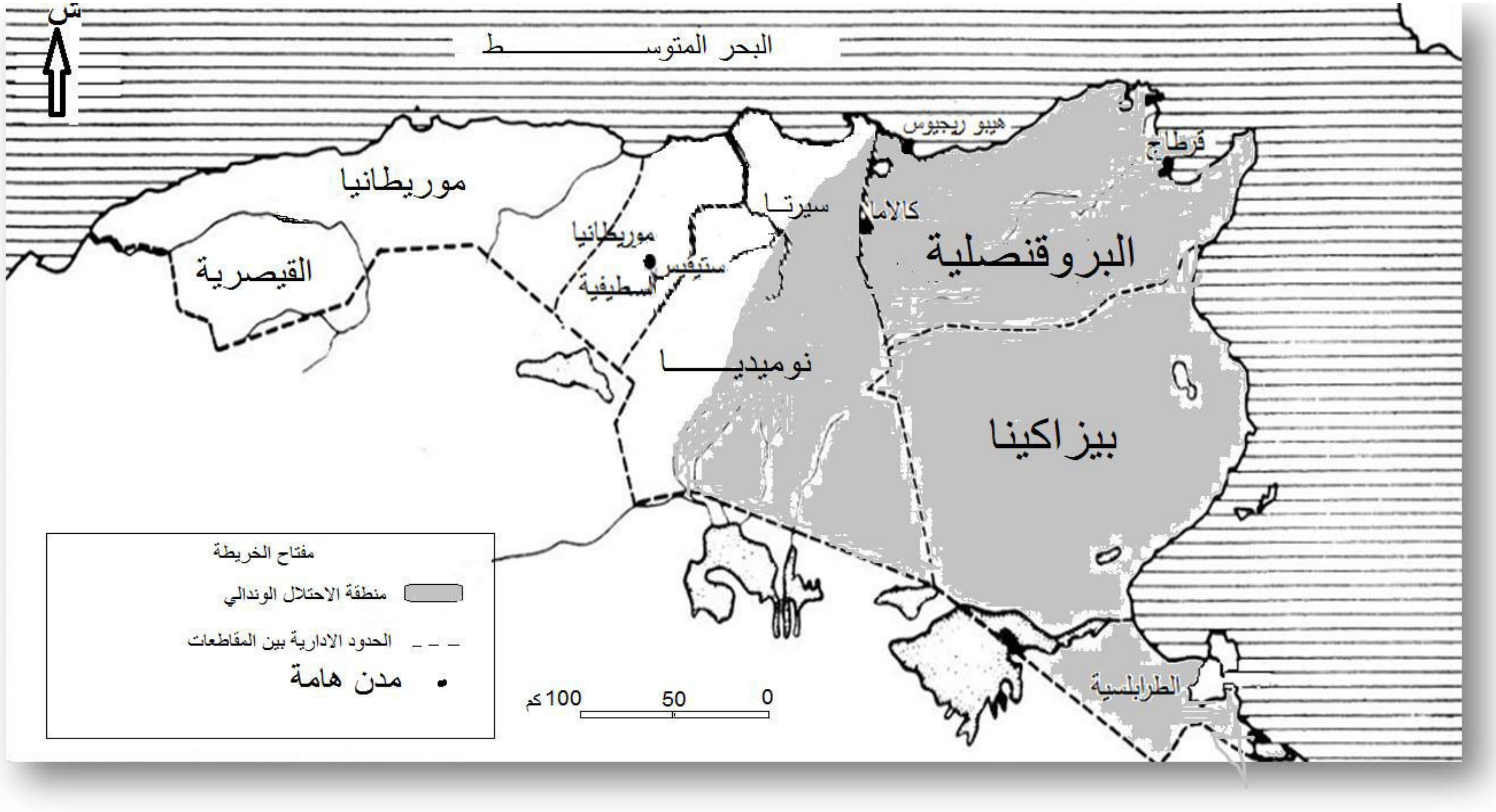
[1]- *Monceaux(P.), H.L.A.C., IV, p.99.*

** – ***ألاميلياريا***، *بنيان حاليا تقع جنوب شرق معسكر في الغرب الجزائري بحوالي35 كلم، أنظر أعلاه، ص 407.*

[2]- *C.I.L., VIII, 21570 ; Gsell (S.), Fouilles de Benian, p.42.*

[3]- *C.I.L., VIII, 21574.*

[4]- *C.I.L., VIII, 21573.*



خريطة رقم 7: تراجع الاحتلال الوندالي في شمال إفريقيا في منتصف القرن الخامس الميلادي. (بتصرف الباحث)

نقلا عن: Ch. Courtois, *les Vandales et l'Afrique*, p.172.

فقد قتلت راهبة دوناتية تدعى "روبا" (*Robba*) في 25 مارس 434م وهي شقيقة "هونوراتوس" (*Honoratus*) أسقف "أكوايي سيرانسيس" (*Aquae Sirenses*) (*) من طرف المتخاذلين (*Lapsi*) أي الكاثوليك كما كان ينعتهم الدوناتيون. [1]

ويبدو أن سنة 434م تدخل في أوج الفترة الساخنة التي أعقبت الغزو الوندالي وما تركه من ردود فعل بين المؤيدين والمعارضين للغزو، فلا نستبعد أن تكون الصدامات التي وثقها هذا الموقع الأثري قد حدثت في ذلك السياق، أو قد تكون إحدى مظاهر الانفجار الناجم عن حالة التوتر والصراع بين أنصار الكنيستين المتنافستين.

استحقت تلك الراهبة لقب الشهيدة، وتكريما لها أقيم معبدا فيما بين سنة 434م وسنة 439م وأعد مدفن لها في قبو الكنيسة، ومن خلال نافذة يمكن للنساك رؤية قبرها وتوقير رفاتها. [2] وبذلك أصبح قبرها مكانا مقدسا للمنشقين في موريطانيا القيصرية.

ومما يدل أيضا على استمرار الدوناتية في هذه المناطق إلى أواسط القرن الخامس الميلادي، تلك الرسالة التي وجهها البابا "ليون الأول" (*Léon I*) (**) في 10 أوت سنة 446م إلى أساقفة موريطانيا القيصرية على إثر اتفاقية وقعت بين الإمبراطور

---

* -*أكوايي سيرانسيس، **Aquae Sirenses**، هي كيرنا Cirna قديما، حمام بوحنيفية حاليا، تقع وسط سلسلة بوكرين الجبلية، ويبدو من اسمها اللاتيني أنها منطقة حمامات معدنية.* -*Monceaux (P.), Enquête sur l'épigraphie chrétienne d'Afrique, C.R.A.I, 1907, p.333 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne..., p.95.*

1- *Gsell (S.), Fouilles de Benian, p.25.*

2-*Gsell (S.), Monuments Antiques de l'Algérie, Paris, 1901, t.II, pp.175-179 ; Id., Fouilles de Benian, p.32-48 ; Julien (Ch. A.), Op.cit, p.236.*

- *ليون الأول **Léon I، المسمى "ليون الأكبر" Léon le Grand، ولد في روما من أبوين من توسكانا (إيطاليا) انتخب على رأس البابوية من سنة 440م إلى سنة 461م تاريخ وفاته، أدان الهراطقة الذين أخلوا بنظام وبوحدة الكنيسة خاصة المانويين والمونوفيزيين، واستطاع في سنة 452م بفصاحته وبلاغته ردع "أتيلا" Attila عن دخول روما، لكنه عجز عن ذلك لما هاجمها جنسريق سنة 455م.* - *Dict. Univ.Hist.Géo., p.1077.*

الروماني"ثيودوسيوس الثاني" (*) (*Theodosius II*) والوندال، ألحقت من خلالها مقاطعة موريطانيا بالإمبراطورية الرومانية لسنوات عديدة. (1)

وهكذا استغل البابا " ليون الأول" هذه الظروف المناسبة لإعادة بناء وتنظيم الكنيسة الكاثوليكية، فراسل في هذا الشأن أساقفة المقاطعة وطالبهم بمحاربة الهرطقة وأصحاب البدع خاصة المانويين والمونوفيزيين.(**) وقد بلغته أخبار تعيين "ماكسيمينوس" (*Maximinus*) أسقفا في أبرشية كاثوليكية، وهو دوناتي اهتدى وعاد إلى الكاثوليكية، فقام البابا بتوبيخ رجال الدين الذين أقدموا على هذا الاختيار غير المتوقع دون أن يرفض انتخابه وسيامته، لكنه طلب بعض الضمانات: فوجه "ماكسيمينوس" رسالة إلى البابا جهر فيها بالعقيدة الدينية الكاثوليكية صراحة.(2)

وقد تعدى تأثير البابا" ليون الأول" حدود المغرب القديم ليصل إلى الضفة الشمالية للبحر المتوسط، التي وصلها دوناتيون من موريطانيا القيصرية هروبا من

---

*- **ثيودوسيوس الثاني Theodosius II**، إمبراطور روماني (408-450م) حكم مدة 42 سنة، ولد سنة 399م، ابن "أركاديوس" وحفيد ثيودوسيوس الأول، كان إمبراطورا ضعيفا، أشرك وزيره وأخته وزوجته في الحكم، خاض حربا ضد الفرس انتهت بعقد اتفاقية سلام سنة 423م بتقسيم أرمينيا. عرف عهده صراعا دينيا ومذهبيا بين الطوائف خاصة النسطورية Nestorianisme المذهب القائل بطبيعتان للمسيح، والمونوفيزية Eutychianisme المذهب القائل بطبيعة واحدة للمسيح، وشهد عهده كذلك كتابة قانون ثيودوسيوس Code Théodosien سنة 438م وهو أول قانون رسمي معروف.*

- Dict. Univ.Hist.Géo., p.1863.

1- Victor de Vita, I, 13

***- **المونوفيزيون Monophysites** ، هم دعاة الطبيعة الواحدة للمسيح، وأتباع "أوتيكاس"أو"أوطيخا" Eutychès وهو أحد الهراطقة اليونانيين، نشر أفكاره في حوالي سنة 448م، فسمي أتباعه بالأوتيكيين Eutychianisme ، أدانه مجمع خلقدونية Chalcédonie ورفض أفكاره في سنة 451م، توفي سنة 454م، انتشرت أفكاره خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، ولازالت منتشرة حتى اليوم في الشرق و مصر والحبشة.*

- Dict. Univ.Hist.Géo., p. 638 ; Evagre, Histoire Ecclésiastique, II, 2,3 ; III, 4,5.

2 - Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.100.

اضطهاد الوندال الذين نزلوا بالساحل الإفريقي بعد أن عبروا مضيق جبل طارق في شهر ماي سنة 429م. (*) (أنظر الخريطة رقم 9 ص 483)

استقر الدوناتيون الهاربون بميناء "ناربون" (*Narbonne*) بغاليا "فرنسا حاليا". فقام "روستيكوس" (*Rusticus*) أسقف "ناربون" –اعتقادا منه بأن هؤلاء الفارين من المنشقين متنكرين في صورة مهتدين عائدين إلى الكاثوليكية–بتوجيه رسالة إلى روما سنة 458م يطلب فيها النصح.

وفي رده كلف البابا أسقف "ناربون" بضرورة إتباع التقليد الروماني الذي أصبح كاثوليكيا فيما بعد، بقبول التعميد الأول مبدئيا، لكن يجب على المنشقين أن يتصالحوا مع الكنيسة بوضع اليدين على الرأس " للتبريك". [1]

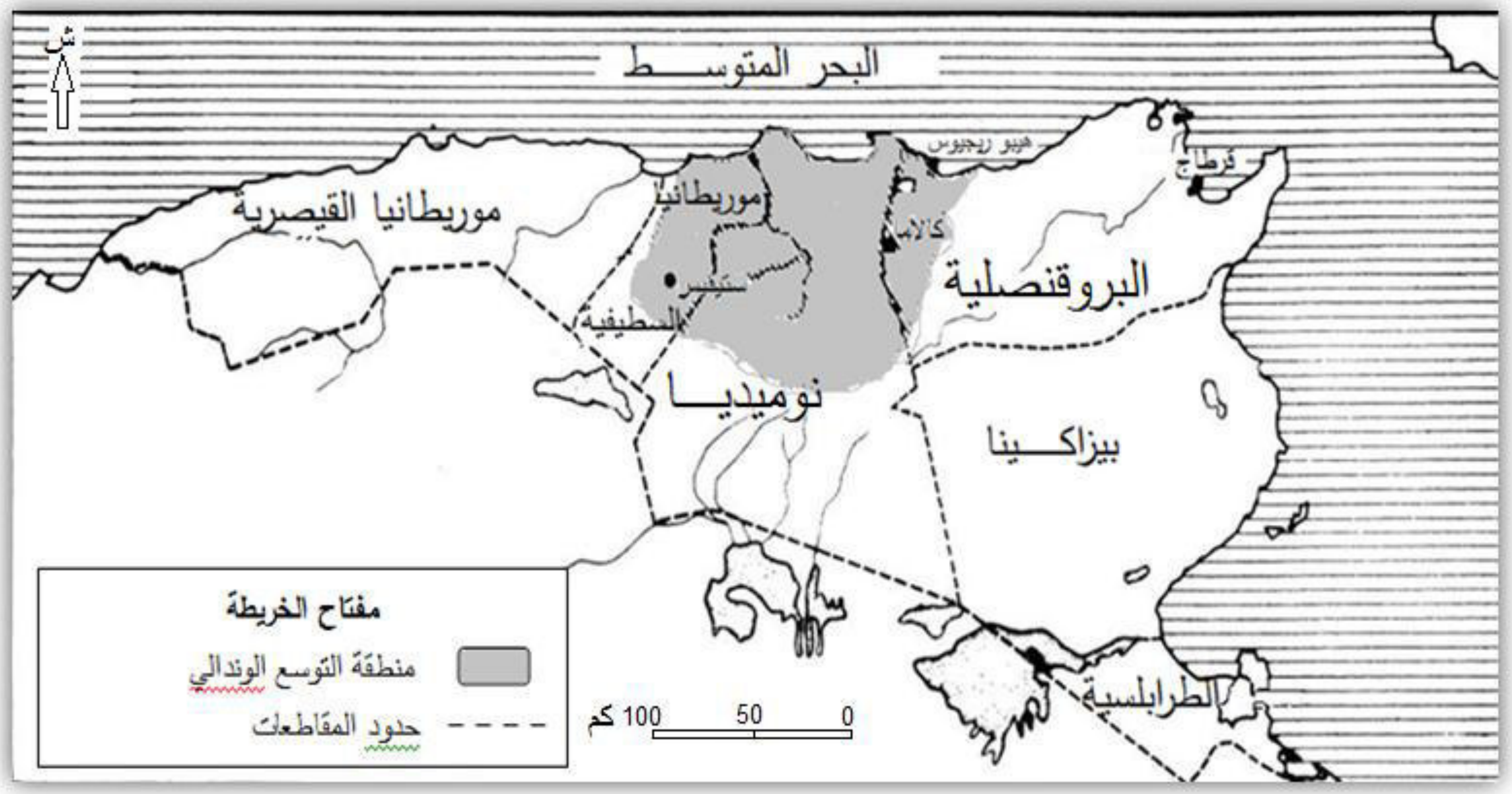
ويبدو حسب الظروف التي كتبت فيها الرسالة، أن المنشقين الأفارقة الذين وصلوا "ناربون" بفرنسا، دفعهم الاضطهاد الوندالي إلى الهجرة خلال الفترة من سنة 455م إلى سنة 458م (أنظر الخريطة رقم 9 ص 483)، أي في نفس الفترة التي قام فيها الوندال بنهب وتخريب روما.

---

*– بلغ عدد الوندال الإجمالي الذين عبروا مضيق جبل طارق ونزلوا بسواحل إفريقيا في شهر ماي سنة 429م، حوالي ثمانون (80) ألف شخص منهم الرجال والنساء والأطفال والمقاتلون، وقد ذكر هذا العدد "فيكتور دي فيتا" وأكده "بروكوبيوس القيصري" فيما بعد. *-Victor de Vita, I, 2 ; Procopius, Bellun Vandalorum, I, 5,18.*

لكن قواتهم تضاعفت بمن انضم إليهم من الأهالي وحسب "جيبون" فإن بعض الرومان انضموا إلى الوندال الذين ضاقوا ذرعا من التسلط الروماني. *-Yanoski (J.), Histoire de la domination des Vandales en Afrique, Paris, éd. Firmin didot, 1844, p.11 ; Gibbon (E.), Histoire de la décadence et de la chute de l'empire Romain, Paris, éd. Lefèvre, 1819, .t.6, .pp.215-216.*

[1] *-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p. 101.*



خريطة رقم 8: التوسع الوندالي في المغرب القديم في الثلث الأول من القرن الخامس الميلادي (435م). (بتصرف الباحث)

نقلا عن:.Ch. Courtois, *les vandales et l'Afrique*, p. 172.

وحينما أيقن "جنسريق" (*) بعجز الإمبراطور عن التدخل لإنقاذ روما، كثف من أعماله الوحشية ضد كل من لا يدين بالمذهب الأريوسي. (1) ومع ذلك، فقد أثبتت بعض الجماعات المنشقة وجودها في نوميديا وموريطانيا بعد الغزو الوندالي. وكانت أكثر نشاطا بحيث أقلقت الأساقفة الكاثوليك، مثل "أسكليبيوس أفير" (*Asclepius Afer*) الأسقف والخطيب النوميدي الذي كان يكتب ضد الأريوسيين والدوناتيين في منتصف القرن الخامس الميلادي. (2)

وكان في قرطاجة أيضا، مجالس للمنشقين تمارس فيها بعض النشاطات الأدبية، وما يدل على ذلك وجود عدة مقاطع وفقرات لافتة للنظر في حولية "كتاب الأنساب" *Liber Genealogus*" ، الذي خضع للتنقيح عدة مرات من طرف الدوناتيين.

ويذكر "مونصو" أن هذا الكتاب في شكله الأولي، ألف في نهاية القرن الرابع الميلادي من طرف أحد الكاثوليك، وبعد عمليات التنقيح والتصحيح اكتمل في قرطاجة في الفترة مابين 405م وسنة411م من طرف أحد المنشقين الذي أضاف إليه خاتمة طويلة تضمنت الاضطهادات في مختلف الفترات، ومرسوم الوحدة سنة 405م، والاضطهادات التي تلت هذا المرسوم والتي استهدفت كنيسة "دوناتوس". (3)

---

*-**جنسريق Genséric**، ملك الوندال (428–477م)، الإبن الثاني للملك "غودجيزيل" Godégisile خلف "غوندوريك"، انتقل من إسبانيا إلى إفريقيا سنة 429م بطلب من الحاكم الروماني "بونيفاس" الذي أعلن تمرده على الإمبراطور "فالنتنيانوس" Valentinianus فاستولى على موريطانيا وقرطاجة في سنة 439م واتخذها عاصمة لمملكته، وبعد مقتل الإمبراطور من طرف "بترون ماكسيم" Petrone Maxime استدعت أرملته "أودوكسي" Eudoxie "جنسريق" إلى إيطاليا لينتقم لزوجها المغتال فاحتل روما سنة 455م ونهبها مدة 14 يوما، ثم ترك كل الأقاليم التي احتلها في أوروبا لابنه "هونوريك" Hunéric سنة 477م. *-Evagre, IV, 14 ; Serge Lancel, « Victor de Vite, témoin et chroniqueur des années noires de l'Afrique romaine au V°siècle », in C.R.A.I., n°4, 2000, pp.1199-1219 ; Dict. Univ.Hist.Géo., p.638.*

[1]-*Victor de Vita, I, 4-10 ; Augustin (St.), Epist. , 22.*

[2]-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.101.*

[3]-*Ibid., p.102.*

وقد ظهرت طبعات جديدة من هذا الكتاب في سنوات 427م، 438م، 455م، و463م، حملت بعض التنقيحات التي قام بها المنشقون في قرطاجة تتعلق خاصة بفترة حكم "جنسريق"، الأمر الذي يسمح بتأريخ هذه الفترة بصورة دقيقة. (1)

يمكن أن نستخلص، أن كنيسة دوناتية كانت موجودة في أواخر عهد "جنسريق" أي في سنة 477م. وكان "بتروس كريسولوغوس" (*Petrus Chrysologus*) الخطيب الكاثوليكي، يسخر ويتهكم – في خطبه ومواعظه– من الشهداء الدوناتيين.

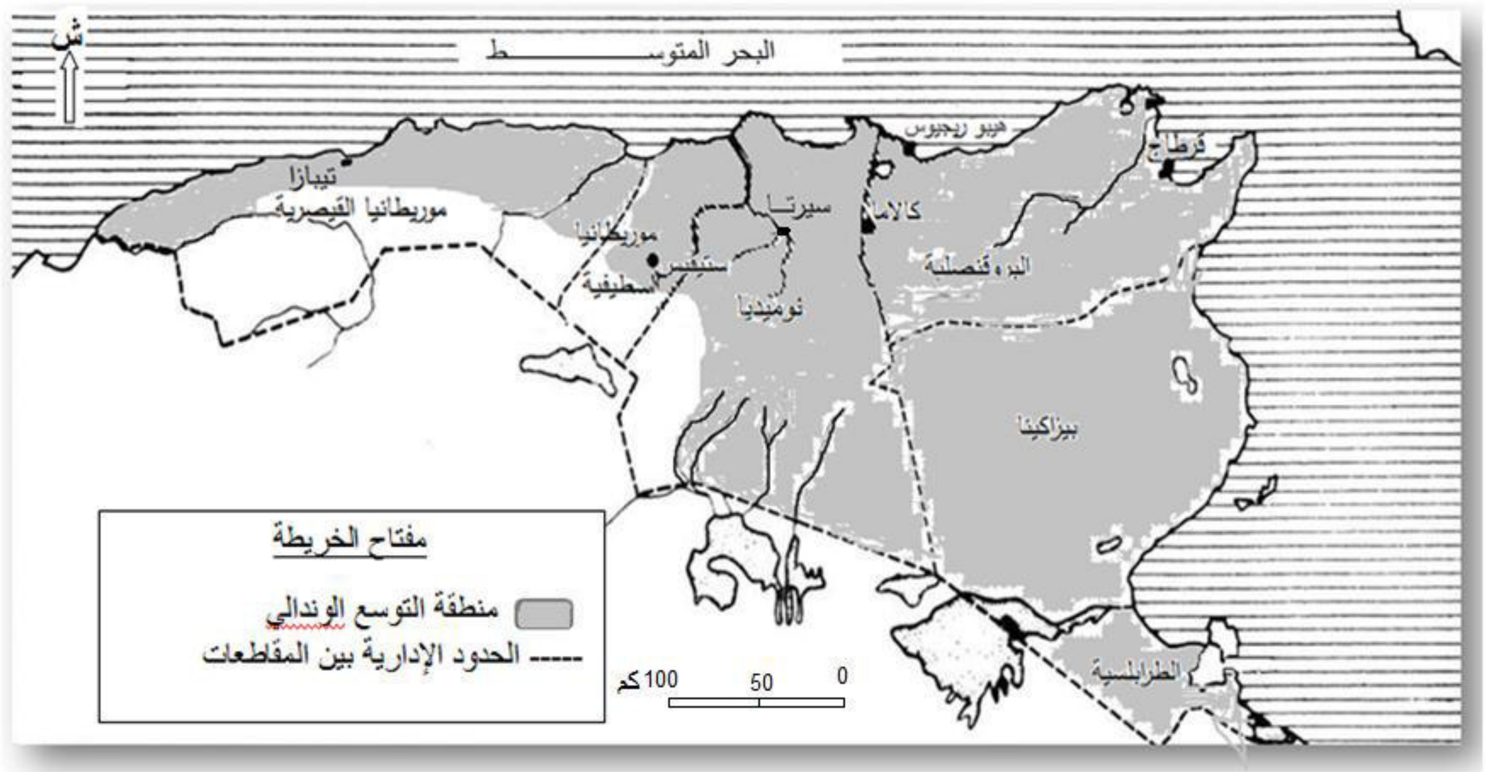
وكتب "تيودوري" *Théodoret*(*) ملخصا –اعتمادا على كتب "أوغسطين"– عن المنشقين الأفارقة في حوالي سنة 453م، تناول فيه مذهبهم الذي قربه إلى الأريوسية، وعن شهدائهم المتطوعين الذين سخر منهم أيضا من خلال نوادر وحكايات مسلية. (2)

يتضح من الكتابات والخطب السابقة أن الانشقاق الديني ظل قائما خلال الفترة الوندالية، سواء تعلق الأمر بالدوناتيين أو الماكسيميانيين. وهكذا عجزت اضطهادات "جنسريق" (*Genséric*) والأريوسيين، كما فشلت قبلها اضطهادات "هونوريوس" (*Honorius*) والكاثوليكية عن استئصال الدوناتية من جذورها وبشكل كامل.

1- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.102-103.*

* –***تيودوري* Théodoret** ، *(387م – 458م) مؤرخ مسيحي، ولد بأنطاكيا Antioche، من أصول شرقية كتب تاريخ الكنيسة في خمسة أجزاء من سنة 325م إلى سنة 429م. من عائلة غنية تبرع بكل أمواله للفقراء ثم ذهب ليعيش في دير (مدرسة راهبات) وأصبح أسقفا سنة 423م في كنيسة كيروس Cyrrhus في سوريا، أدين من طرف مجمع أفسوس Ephèse سنة 449م لحماسه لبدعة الأوتيكيانيزم Eutychianisme، ولم يعد لأسقفيته إلا في عهد "ماركيانوس" Marcienus إمبراطور الشرق (450–457م).* -*Dict. Univ. Hist. Géo., pp.486-487.*

2- *Theodoret, IV, 6.*



خريطة رقم 9: المملكة الوندالية خلال الفترة 455م–458م (الحدود الجنوبية افتراضية). (بتصرف الباحث)

نقلا عن: *Ch. Courtois, Op.cit., p. 172*

اشتد الاضطهاد في عهد الملك الوندالي "هونوريك" [*] (*Hunéric*) الذي خلف والده "جنسريق" المتوفى سنة477م، حيث قام بنفي ما بين أربعة وخمسة آلاف مسيحي إلى منطقة الحضنة، أين استقبلتهم بعض القبائل الصحراوية لتخضعهم للعبودية باتفاق مع الوندال. [1] وأصدر مرسوما في 24 فيفري سنة 484م في قرطاجة، حرم وحظر الكاثوليكية وكل الطوائف الأخرى غير الأريوسية، كما فرض غرامات مالية على الثوار الريفيين (الدوارين). [2]

ويحتمل أن الوندال أطلقوا مصطلح "الدوارين" في إشارة إلى الدوناتيين، إلا أن المرسوم الذي أصدره "هونوريك" موجه بشكل خاص ضد الكاثوليك، مما يذكر ببنود القوانين القديمة التي أصدرها الأباطرة الرومان ضد الهراطقة وأصحاب البدع، والتي استهدفت بشكل خاص المنشقين الأفارقة.

تهدف السياسة التي انتهجها الوندال ضد المسيحيين ومؤسساتهم في عهد "هونوريك" الى مصادرة الأملاك الكنسية وتحويلها إلى الكنيسة الأريوسية التي أصبحت تتمتع بكل الامتيازات، ومنع المسيحيين من أداء طقوسهم بل نفيهم وتشريدهم، وإجبارهم على القيام بأعمال السخرة. [3]

وأدت تلك السياسة إلى انضمام بعض المنشقين إلى كنيسة ملوك الوندال الرسمية، نتيجة الاضطهادات الوحشية، لكن عاقبتهم كانت وخيمة.

---

*- **هونوريك Hunéric**، ثاني ملك وندالي بإفريقيا (477-484م)، خلف والده "جنسريق" الذي توفي سنة 477م، لم يكن عهده سوى استمرارا لعهد والده المتسم بالجرائم، فقد ذبح أخوه "تيودوريك" Théodoric وزوجته وابنه، وقتل كل وزراء وأصدقاء جنسريق، كان أريوسيا، اضطهد الكاثوليك، ويحتمل أنه قام بتعذيب وقتل أربعون ألف (40.000) منهم. حكم لمدة سبع (7) سنوات وعشرة (10) أشهر، ومات موتة شنيعة سنة 484م، فقد ذكر "فيكتور دي فيتا" أن هامة (حشرة طفيلية) نخرت جسده حتى تعفن ودفنت جثته كأشلاء وبقايا جسم بشري.* - *Victor de Vita, V, 1, 2 ; Dict. Univ. Hist.Géo., p. 902.*

[1]- *Moderan (Y.), Une Guerre de Religion, les deux Eglises d'Afrique à l'époque Vandale, Ant.Tard. T.11, 2003, p.21-44.*

[2]- *Victor de Vita, III, 10 ; Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, Op.cit., p.299.*

[3]- *Courtois (Ch.), Victor de Vita et son œuvre, étude critique, Alger, 1954. pp. 38-39.*

فقد ذكر "فيكتور دوفيتا" (*) (*Victor de Vita*) في حوالي سنة 486م أن "نيكاسيوس" (*Nicasius*) وهو أحد المرتدين الذي تخلى عن الدوناتية واعتنق الأريوسية، مات في تلك الفترة مثل "هونوريك" موتة شنيعة وفظيعة. (1)

أعتقد أن بعض المؤرخين المسيحيين (**) بالغوا نوعا ما في تناولهم قضية المرتدين من الدوناتية إلى الأريوسية، أو من الكاثوليكية إلى الدوناتية، وأن مصير هؤلاء سيكون وخيما ووفاتهم ستكون فظيعة، اعتقادا منهم أن ذلك يعد عقابا من السماء، والبعض الآخر (***) كان يسخر ويتهكم من الطوائف والنحل الأخرى واعتبارها ضرب من الهرطقة والبدع، وأن الكنيسة الحقيقية هي الكنيسة الكاثوليكية.

لقد أورد "فيكتور دي فيتا" في كتابه: " تاريخ الاضطهادات الوندالية" وصفا لأعمال التخريب والحرق والقتل التي كان يقوم بها الوندال قائلا: «***قام الوندال بنهب وحرق وقتل كل ما يعترض طريقهم، فقد أحرقوا الأشجار حتى لا يخلفوا وراءهم قوتا ولو كان ضئيلا للذين فروا من وحشيتهم إلى الجبال والكهوف والمغارات، وقد طال أذاهم بشكل خاص الكنائس والمقابر والأديرة، فكانوا يبادرون بإحراق بيوت الصلاة قبل إحراق المدن، واستعملوا كل ألوان التعذيب ضد الأساقفة والقساوسة لحملهم على تغيير مذهبهم...*** » (2)

---

*- **فيكتور دو فيتا، Victor de Vita**، ولد في حوالي سنة 440م، أسقف كاثوليكي بكنيسة "فيتا" (Vita) في بيزاكينا (Byzacène) "المزاق" حاليا، عاش في القرن الخامس الميلادي، فر تحت ضغط اضطهادات "هونوريك" الوندالي ضد الكاثوليك إلى القسطنطينية سنة 483م، وكتب هناك "تاريخ الاضطهادات الوندالية في إفريقيا": Historia Persecutionis Vandalicae Sive Africanae سنة 486م، ومدينة فيتا هي منطقة بني دراج حاليا في الجنوب التونسي، توفي "دو فيتا" قبيل افتتاح الندوة التي دعا "هونوريك" إلى عقدها.* - *Gsell (S.), A.A.T., f.36, Bou ficha, 92 ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, p. 51 ; C.I.L., VIII, p.1280, n°12435.*

1-*Victor de Vita, III, 71 ; V, 1 ,21.*

** - أذكر منهم: -*Tertullianus, ad Scapulam, III.*
-*Victor de Vita, V, 21.*

*** - من أبرزهم: - *Theodoret, IV, 6.*

2-*Victor de Vita, I, 1, 2,3.*

ويصف "بوسيديوس" القالمي(*) (*Possidius de Calama*) جرائم الوندال إذ يقول:« ***...تسببت وحشية وقساوة الوندال في إخلاء البلاد كلها من السكان، ولم ينج من جرائمهم الفظيعة الأساقفة ورجال الدين والكنائس وما تحتويه من أواني مقدسة وزخارف جميلة...*** » (1)

يتضح من النصوص السابقة أن الوندال–وهم على المذهب الأريوسي–كانوا يضطهدون ويقتلون الشيوخ والأطفال ومن يخالفهم في المذهب كالكاثوليك والدوناتيين. وحسب "غوتيي" فإنهم كانوا يمعنون في تعذيب الأساقفة ورجال الدين الكاثوليك على وجه الخصوص قبل أن يقدموا على تدمير المباني وقلع الأشجار والمزروعات وحرق الكنائس وكل ما يعترض طريقهم. (2)

وهكذا تواصلت سياسة الاضطهاد الديني ضد الكاثوليك، فبعد "جنسريق"، و"هونوريك"، جاء "غونتاموند" (**) (*Gunthamund*) إلى الحكم خلفا لـ"هونوريك" المتوفى سنة 484م، ورغم التظاهر بالتسامح الديني الذي أبداه هذا الملك بإلغاء قرارات النفي سنة 485م. (3)

---

*– **بوسيديوس Possidius de Calama**»، أسقف كنيسة كالاما "قالمة" بعد وفاة الأسقف "ميغاليوس" *Megalius* سنة 397م، شارك في عدة مجامع دينية في سنة 403م وسنة 407م، وهو أحد مندوبي الكاثوليك السبعة في مناظرة قرطاجة سنة 411م، توفي في حوالي 437م. *-Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne.., pp.296-297.*

[1]-*Possidius, Vita Augustini, XXVIII, 4, P.L. 32, col. 54-55, éd. Pellegrino, 1955.*

[2]- فايز نجيب اسكندر، الحياة الإقتصادية في الشمال الإفريقي في عهد الوندال، مطبعة الجبلاوي البولاقيةالاسكندرية، 1987، ص 22، *- Gautier (E.F.),, Geisric, le roi des vandales, Payot, Paris,1975.p.153.*

– **غونتاموند Gunthamund، ثالث ملك وندالي (484–496م)، اعتلى العرش بعد وفاة "هونوريك" سنة 484م، اتسم عهده بالتسامح الديني، فتنفس الكاثوليك الصعداء، أعاد الأساقفة المنفيين إلى كنائسهم سنة 487م، وقع اتفاقية تحالف مع الملك "تيودوريك" *Théodoric* لمنع القوط الشرقيين من مهاجمته، توفي في سنة 496م. *-Julien (Ch.A.), Op.cit., p.250 ; Oussedik (T.), la Berbérie, t. 2, Enal, Alger, 1991, p. 95.*

[3]- *Albertini (E.), l'Afrique du Nord Française dans l'histoire, Paris, 1937, p.121.*

فقد أمر بعودة رجال الدين من المنفى واستعادة الأساقفة لكنائسهم سنة 487م بعد توقف الاضطهاد، منهم القديس "أوجين" (*) (*St.Eugène*) الذي تمكن من دخول قرطاجة سنة 487م، والتحق القساوسة الآخرين بمراكزهم سنة 494م وفتحت الكنائس أبوابها ومارس الكاثوليك شعائرهم الدينية بكل حرية. (1)

إلا أن بعض الأساقفة الكاثوليك الذين رفضوا اعتناق المذهب الأريوسي تعرضوا بين الحين والآخر إلى التعذيب والنفي والحظر. (2)

في تلك الظروف، وعلى إثر مناقشات حادة حول ذات المسيح حرم البابا "فليكس" (*Félix*) (**) أسقفي القسطنطينية وأنطاكيا اللذان كانا ضحية الاعتراف المعروف بـ (*Hénotique*) الذي اعتبره الإمبراطور "زينون" (***) (*Zénon*) قانونا سنة 484م والذي أغضب الجميع، فأحدث بذلك قطيعة بين الشرق والغرب دامت خمسا وثلاثين (35) سنة. الأمر الذي جعل "غونتاموند" لا يخاف من تآمر الكاثوليك والإمبراطور ضده، وبإمكانه أن يتسامح دون أن يخشى أي خطر. (3)

---

*- ***أوجين القديس St. Eugene*** *، أسقف قرطاجة سنة 481م، اضطهد في عهد الملوك الوندال خاصة في عهد هونوريك وتراساموند، توفي سنة 505م في غاليا "فرنساحاليا".* *- Dict. Univ.Hist.Géo., p.632 ; Julien (Ch.A.) Op.cit., p.251.*

[1]- *شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص344.*

[2]- *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, p.301.*

** – ***فليكس Félix***، *ولد في روما، انتخب سنة 483م بابا الكنيسة الكاثوليكية، رفض مرسوم الوحدة بين الكنيستين الذي أصدره الإمبراطور "زينون" Zénon، دعا إلى مجمع روما في سنة 487م لوضع حد للانشقاقات الدينية في الكنسية الإفريقية، توفي حوالي سنة 492م.* *- Dict. Univ.Hist.Géo., p.652.*

– ***زينون Zénon *، إمبراطور الشرق (474-491م)، يلقب بالإيزوري l'isaurien نسبة لمنطقة في جبال طوروس بآسيا الصغرى، صهر الإمبراطور" ليون الأول"، وبعد وفاة هذا الأخير سنة 474م أصبح شريكا في الحكم مع ابنه" ليون الثاني"، ونتيجة مقامرته الخمر والنساء، فقد كان مقيتا وشنيعا لدى كل الناس، وخيانته لزوجته كلفته حياته حيث دفن حيا وهو سكران سنة 499م.* *-Procope, Histoire de la guerre contre les Goths, guerres de Justinien, trad. M. Cousin, Paris, 1685, I, 1,3 ; Dict. Univ. Hist. Géo., p.2035.*

[3]- *Julien (Ch. A.), Op.cit., pp.250 -251.*

يمكن القول مع ذلك، أن عهد "غونتاموند" كان أقل وطأة على الكاثوليك من سابقيه. فقد تنفس الأساقفة الكاثوليكيين الصعداء في عهده بعد حصولهم على بعض الحقوق منها حرية التنقل بعد انعقاد المجمع الروماني سنة 487م.

ولعل هذه السياسة وأسلوب اللين الذي عرفه عهد "غونتاموند" يعود إلى بداية التدخل البيزنطي في شؤون المغرب القديم، وتزايد انتفاضات وهجمات القبائل المورية والنوميدية على المراكز الوندالية، مما دفع معظم الونداليين إلى الهروب واللجوء إلى قرطاجة. [1]

وهذا ما أدى إلى تراجع الهيمنة الوندالية على المناطق الداخلية واقتصارها على المناطق الساحلية في المغرب القديم، خاصة بعد فقدان منطقة جبال الأوراس خلال الفترة 483–484م، واكتفى الوندال بفرض سيطرتهم على الشريط الساحلي في موريطانيا القيصرية والسطيفية، (الخريطة رقم 8 ص 480) والجزء الأكبر من نوميديا، إضافة إلى مقاطعتي البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية. (الخريطة رقم 9 ص 483).

واستمر الهدوء في عهد الملك " تراساموند" [*] (*Thrasamund*) الذي اعتلى العرش الوندالي خلفا لأخيه "غونتاموند" المتوفى سنة 496م، و بدأ يبحث عن الأسباب التي أدت إلى رفض الكاثوليك للمذهب الأريوسي وكان يتمتع– بشهادة خصومه – بثقافة نادرة، ويتحلى بنبل الأخلاق.

---

[1]- *Oussedik (T.), Op.cit., pp. 95-96.*

*– **تراساموند**، Thrasamund، رابع ملك وندالي (496–523م)، اعتلى عرش المملكة الوندالية بعد وفاة أخيه "جونتاموند" لأنه أكبر أفراد العائلة سنا، كان واسع الفكر، لم يضطهد المسيحيين كسابقيه، بل استمالهم بتكريمهم وتشريفهم ومجازاتهم، وقد يكون الملك الوندالي الوحيد الذي أعطى محتوى للقيم الإنسانية، حكم دولة الوندال لمدة سبعة وعشرون (27) سنة.*

-Procope, I, 8,9 ; Dict. Univ.Hist.Géo., p.1939.

وقد ذكر "بروكوبيوس" أنه استمال الكاثوليك بتكريمهم والإحسان إليهم ومنحهم الألقاب الشرفية، وإذا ارتكب أحدهم جريمة عن قصد أو عن غير قصد عرض عليه العفو مقابل ارتداده. (1)

وبالرغم من أنه لم يستعمل العنف مثل سابقيه من الملوك الوندال غير أن هذا لا يعني أنه لم يقم بأي عمل ضد الكاثوليك. فقد أبقى على القانون الذي يقضي بمنع تعويض الأساقفة المتوفين. ولما لم يقم الكاثوليك لهذا القانون وزنا، اضطر إلى عزل مئة وعشرين (120) أسقفا من بين الأربعمائة (400) دون أن يقسو في معاملتهم وكان من بينهم القديس "أوجين" (*St.Eugène*) أسقف قرطاجة، و"فولجانس" (*) (*Fulgence*) أسقف روسباي (**) (*Ruspae*) في مقاطعة بيزاكينا (*Byzacène*) "المزاق"، وقد نفي إلى جزيرة سردينيا (*Sardaigne*) مع ما يزيد عن ستين (60) أسقفا سنة 507م. (2)

تعرض الدوناتيون في عهد "تراساموند"، على غرار الكاثوليك للحظر والنفي والاضطهاد فاضطروا للهجرة إلى الضفة الشمالية للبحر المتوسط التي هي أقرب إلى بلادهم، ونزلوا في سواحل غاليا "فرنسا حاليا"، ومن مدينة "ناربون" (*Narbonne*) محطتهم الأولى، توجهوا إلى سهول نهر "الرون" (*Rhöne*) واستقروا أخيرا في " ليون" (*Lyon*). (3)

1-*Procope, Bell. Vandal.,I, 8.*

*– **فولجانس** Fabius Claudius Fulgentius، أسقف روسباي Ruspae-Ruspina بإفريقيا، ولد سنة 468م بمدينة لبتيس مينور -Leptis Minor- "لمطة" في تونس حاليا، تعرض للمضايقات وصودرت ممتلكاته فهاجر إلى روما سنة 500م لزيارة أضرحة الحواريين وهناك عين أسقفا، تعرض للنفي في عهد "تراساموند"، لكن "هلدريك" أعاده إلى أسقفيته، لقب بـ" أوغسطين زمانه"، توفي في 1 جانفي سنة 533م.* - *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, pp.278-280 ; Modéran (Y.), « la chronologie de la vie de Saint Fulgence de Ruspe et ses incidences sur l'histoire de l'Afrique Vandale », M.E.F.R.A., t.105, 1, 1993, pp.135-188 : Dict. Univ.Hist.Géo., p.713.*

*– **روسباي Ruspae** أو **روسبينا Ruspina** ، مدينة صغيرة وأسقفية قديمة تشرف على الساحل الشرقي لتونس، تقع قرب مدينة المونستير "Monastir" حاليا، .* *- Modéran (Y.), Op.cit., p.257.*

2- *Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 251.*

3- *Procope, Bell. Vandal., I, 8.*

وبعدما وصلها الدوناتيون بأعداد كثيرة، أرسل "ستيفانوس" (*Stephanus*) أسقف كنيسة "ليون" رسالة إلى زميله "أفيتوس" (*Avitus*) أسقف "فيينا" (*Vienne*) سنة 502م، يخبره بوصول المنشقين الأفارقة، ويطلب منه النصيحة في كيفية التعامل معهم. (1)

وجاء رد "أفيتوس" بضرورة إعادة تعميد المنشقين طبقا للتقليد المعمول به في الكنيسة الكاثوليكية، كما يجب عليهم أن يتصالحوا مع الكنيسة بوضع اليدين على الرأس "للتبريك" وطلب منه ضرورة الإسراع في تطبيق هذه الإجراءات حتى لا تنتشر الهرطقة والبدع الإفريقية والانشقاق الديني في غاليا "فرنسا حاليا". (2)

وإذا كان "تراساموند" قد آثر- حسب رواية "فولجانس"- امتلاك الأرواح على توسيع ملكه، فإنه لم يغفل عن حماية استقلال بلاده. لذلك حافظ على علاقاته الطيبة مع الإمبراطور "أنستاز" (*) (*Anasthase*) الذي لم يهتم كثيرا بشؤون إفريقيا لانصرافه إلى صيانة إمبراطوريته من الاضطرابات الدينية. لكن الوضع تغير عندما خلفه الإمبراطور "يوستينوس الأول" (*Justinus*) (**) (الشكل رقم 32 ص 491) إذ سرعان ما تصالح هذا الإمبراطور التقي العنيد مع البابا وطالب بحق الإشراف على أسقفية إفريقيا، الأمر الذي أثار مخاوف الملك الوندالي من جديد إزاء الكاثوليك.(3)

1- *Grégoire de Tours, Histoire des Francs, par M. Guizot, Paris, J.Brière, 1824, II, 1-2.*

2- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.103.*

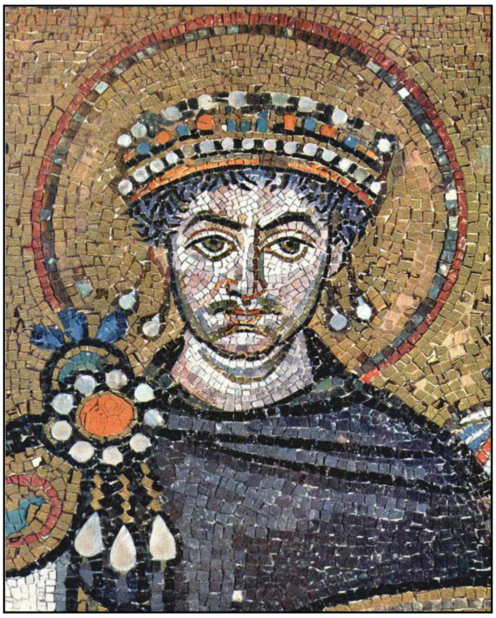
*- ***أنستاز Anasthase I*** ، *(430-518م)، إمبراطور الشرق (491-518م)، تزوج أرملة الإمبراطور "زينون" Zénon، عرف بالإمبراطور التقي والعادل، ثم أصبح عنيفا باضطهاده الكاثوليك وانحيازه للمونوفيزيين أنصار المبتدع أوطيخا Eutychès ، توفي سنة 518م عن عمر ناهز 88 سنة. - Dict Univ.Hist.Géo., P.73.*

- ***يوستينوس Flavius Iustinus Augustus I*، *إمبراطور الشرق (518-527م) الملقب بالعجوز، ولد سنة 450م بتراسيا Thrace "شمال شرق اليونان قديما"، اعتلى العرش بعد وفاة الإمبراطور "أنستاز" سنة 518م، استطاع تهدئة الحروب الدينية في الإمبراطورية، توفي سنة 527م بعدما أشرك حفيده يوستنيانوس في الحكم. – Dict. Univ.Hist.Géo., p.982.*

3 - *Julien (Ch.A.), Op.cit., p. 252.*



(أ)



(ب)

الشكل رقم 32: الإمبراطورين يوستينوس الأول وحفيده يوستنيانوس.

أ–صورة الإمبراطور "يوستينوس الأول" إمبراطور الشرق (518–527م) على وجه عملة من الذهب الخالص *Solidus* .

ب–فسيفساء تمثل الإمبراطور "يوستنيانوس" حفيد "يوستينوس الأول" تعود إلى حوالي سنة 547م توجد حاليا في بازيليكا القديس فيطال *Saint- Vital* برافين *Ravenne* (شمال شرق إيطاليا).

نقلا عن: *https://upload.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/23.

ولما أحس "تراساموند" بتدني الخوف من السلطة في أوساط الرعية، فكر في الزواج لاستعادة نفوذه وهيبته، فتقرب من الإمبراطور "تيودوريك" [*] (*Théodoric*) وطلب يد أخته "أمالافريد" (*Amalafrid*). وقد وطد هذا الزواج السياسي العلاقة وكرس الوحدة التي كانت موجودة أصلا بين العاهلين الجرمانيين. [1]

كان الملك الوندالي يتجنب كل نزاع خارجي، ليتفرغ لثورات الأمازيغ الداخلية التي كانت تؤرقه. لقد نزل سكان الأوراس من الجبال إلى السهول واستباحوا مدن "تيفست" (*Theveste*) و"ثاموقادي" (*Thamugadi*) وبغاي (*Bagai*) ولمبازيس (*Lambaesis*) وأصبحت بعد تخريبها كأنها مدنا ميتة، ولم يقف سيلهم إلا عند حدود سيرتا. [2]

ويرى "غوتييه" (*E.F.Gautier*) أن حركات التمرد هذه ناتجة عن فترة فوضى خلال العهد الوندالي آلت إلى ديكتاتورية، دفعت الفلاحين والمعدمين لأن ينتظموا في نوميديا وموريطانيا وهم الذين كانوا يعانون من استغلال كبار الملاك تحت سلطة أمراء أقوياء وأصبحوا فيما بعد الخصم العنيد للبيزنطيين. [3]

وذكر "بروكوبيوس" أن الثورة تجاوزت حدود نوميديا، حيث استولى الموريون على موريطانيا فنهبوا وقتلوا الكاثوليك والوندال دون تمييز. [4] وقد عثر على نقش قرب مدينة

---

*- **تيودوريك، Théodoric**، (455-526م) ملك الأوستروقوط (القوط الشرقيون)، أصبح قائدا للقوط بعد وفاة والده سنة 472م، شارك في إعادة الإمبراطور "زينون" (Zenon) إلى الحكم سنة 477م، فعين قنصلا سنة 484م، أصدر قانون القوط سنة 500م، تسامح مع الكاثوليك ثم اضطهدهم في أواخر أيامه ردا على اضطهاد الأريوسيين في الشرق.* *-Dict. Univ.Hist.Géo., p.1863.*

[1]- *Oussedik (T.), Op.cit., p.95.*

[2]- *حارش محمد الهادي، التاريخ المغاربي القديم ، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص 246-247.*

[3]- *Gautier (E.F.), le passé de l'Afrique du nord, Alger, livres éditions, 2011, p.175.*

[4]- *Procope, I, 8.*

موزايا [*] (*Mouzaiaville*)، يخلد ذكرى أسقف تحمل ألوان التعذيب ولقي حتفه سنة 495م في "حرب الموريين". [1]

يعتبر أسقف مينا [**] (*Mina*)، الأسقف الوحيد من موريطانيا القيصرية الذي تمكن من المشاركة في مجمع قرطاجة سنة 525م، إذ تعذر حضور الأساقفة الآخرين "لضرورة الحرب" المذكورة آنفا. [2]

يبدو أن الدويلات المستقلة تعددت في نوميديا وموريطانيا القيصرية التي كان يعيش فيها الرومان والأمازيغ جنبا إلى جنب تحت سلطة أمراء أقوياء.

فقد عثر على نقيشة "ألطافا" [***] (*Altava*) [3] المؤرخة في سنة 508م (الشكل 33" أ" ص 496) تحمل اسم "ماسونا" (*Masuna*) أو "مازونا" (*Mazona*) الذي عاصر الملك الوندالي "تراساموند"، والملقب بـ "ملك القبائل المورية والرومان"، وكان يحكم إلى جانب "ألطافا" حواضر أخرى ذكرت في النقيشة وهي: "سفار" (*Safar*) و"كاسترا سيفيريانا" (*Castra Severiana*). [4]

** - هي مدينة **الحاجب** في إقليم تاناراموزا Thanaramusa قديما، البرواقية Berrouaghia حاليا، تبعد بحوالي 63 كلم جنوب غرب الجزائر العاصمة، كانت البازيليكا من أبرز معالمها في القرن الخامس الميلادي حيث عثر بها على قبر أحد الأساقفة الذي قتل سنة 495م.*
- Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, p.463.

[1]- *Gsell (S.), A.A.A., f.4, Medea, 1.*

***- **مينا Mina**، هي مدينة **غليزان** Relizane حاليا، تذكر المصادر الكنسية أن من أبرز أساقفتها : "كايكيليوس" Caecilius Minnensis و"سوكوندوس" Secundus Minnensis، ويعتقد س. غزال أن الخرائب التي وجدت بالموقع الأثري "مينا" هي بقايا كنيسة أو حمامات.*
- Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne.., p.484 ; Gsell (S.), A.A.A., f.21, Mostaganem, 36.

[2]- *Julien (Ch.A.), Op.cit., p 253.*

****- اكتشفت نقيشة **ألطافا** سنة 1877م قرب أولاد ميمون التي تقع على بعد 35 كلم شرق تلمسان، ونشرت وتمت مراجعتها عدة مرات :*
- Cherbonneau, C.R.A.I., 1878, p. 30 ; Gsell (S.), B.S.G.O., 1882, pp.10-14 ; Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, pp. 333-334.

[3]- *توجد النقيشة محفوظة بمتحف وهران. - C.I.L., VIII, 9835.*

[4]- *Camps (G.) , Rex Gentium Maurorum et Romanorum (Recherches sur les Royaumes de Maurétanie des VI^e et VII^e Siècles), In : Ant. Afri., t.20, 1984, (pp.183-218) pp.183.*

وتذكر النقيشة أيضا أسماء حكام محليين كانوا ينفذون أوامر الملك "ماسونا" مثل: مسغيفينيس(*Masgivinis*) وإدير (*Idir*) وماكسيموس(*Maximus*). [1]

النص الأصلي للنقيشة: [2]

PRO*SAL*ET*INCOL*REG*MASVNAE GENT*
MAVR*ET*ROMANOR*CASTRVM*EDIFIC*A*MAS*
GIVINI*PREF*DE*SAFA*R*IIDER*PROC*CAST*
RA*SEVER*IAN*QVEM*MASVNA ALTAVA POSVIT*
ET*MAXIM*PROC*ALT*PERFEC*PP*CCCCLXVIIII*

<u>Transcription</u>:

Pro sal (ute) et incol (umitate), Reg (is) Masunae gent (ium)/Maur (orum) et Romanor (um).

Castrum edific (atum) a Masgivini /pref (ecto) de safar, Iider, proc (urator) ca (stra) severiana.

quem/Masuna Altava posuit et Maximus proc (urator) Alt (avae (/pref (ecti). (anno) p

(rovinciarum) CCCCLXVIIII.

<u>الترجمة العربية:</u>

من أجل صحة ودوام مازونا ملك شعب المور والرومان/شيدت هذه القلعة على يد مسيغيبا حاكم سيفار /عندما كان إيدير وكيلا على قلعة سفيريانا / وهما اللذان أمر مازونا بإنزالهما إلى ألطافا / . وقد أتم البناء مكسيموس حاكم ألطافا/ في 496 بتأريخ المقاطعة أي 508م.

---

[1]- *شنيتي محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص ص 462 – 466.*
- Camps (G.), Rex Gentium Maurorum et Romanorum…, Op.cit., p.193.

[2]*-Marcillet - Jaubert (J.), les inscriptions d'Altava, Publication des Annales de la Faculté des lettres, Aix-en-Provence, 1968, pp. 126-127, n° 194.*

وتحمل نقيشة "آريس" *Arris* (*) في عمق الأوراس (الشكل 33" ب" ص 496) اسم قائد أمازيغي يدعى "ماستياس" (*Masties*) لقب نفسه "إمبراطورا" (*Imperator*) في حوالي 476-477م، وذكرت النقيشة أنه حكم لمدة 40 سنة.[1] ويبدو أنه احتفظ بهذا اللقب ولم ينازعه فيه أحد طيلة هذه المدة.

لقد تصدى "تراساموند" لهجومات الأمازيغ المتكررة التي أصبحت في عهده أشد قوة، وكانت تنطلق من الإمارات المستقلة التي تعددت نتيجة عجز الحكومة الوندالية عن مواجهتها ووضع حد لتكاثرها. ولعل أكبر خطر واجهه "تراساموند" هو خطر قبائل الجمالة الرحل (*chameliers*) الذين ينحدرون من طرابلس، واصطدامه بخطتهم الحربية الجديدة.[2] ووصف قوتييه (*E.F.Gautier*) خطة الجمالة الحربية بأنها تقوم على الكر والفر، والالتجاء إلى الصحراء لاستجماع القوى أو الإفلات من تنكيل الأعداء.[3]

وذكر "بروكوبيوس" أن هذه القبائل الأمازيغية المورية كان يقودها داهية يدعى "غاباوون" (*Gabaon*) (**) الذي تمكن من إلحاق الهزيمة بالوندال في المواجهات التي دارت بين الطرفين في المنطقة الممتدة من طرابلس إلى قرطاجة.[4]

---

* – *اكتشفت النقيشة سنة 1942م غرب مدينة* ***آريس بالأوراس*** *ونشرها "جيروم كاركوبينو" في نفس السنة ثم درسها بعمق في مجلة الدراسات القديمة في سنة 1944م.* - *Carcopino (J.), Un «empereur» maure inconnu d'après une inscription latine. R.E.A., t. 46, 1944, pp. (94- 120).*

واستغل "كورتوا" هذه النقيشة في أطروحته عن الوندال وإفريقيا أورد فيها افتراضات مغايرة لرأي "كاركوبينو" الذي رد عليه مدققا ومؤكدا رأيه في المجلة الإفريقية. - *Courtois (Ch.), les Vandales, 1955; Carcopino (J.), Encore Masties, l'empereur maure inconnu. Rev. Afr., t. 100, 1956, pp. 339-348.*

[1]- *شنيتي محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ، ج2 ،ص ص 452- 466.* - *Pierre Morizot, pour une nouvelle lecture de l'elogium de Masties, In: Ant. Afri., 25,1989, pp. 263-284.*

[2]- *Julien (Ch. A.), Op.cit., p 254.*

[3]- *Gautier (E.F.), le passé de l'Afrique du nord…, pp.175-176 ; Cornevin (R.), Histoire-de l'Afrique des origines au XVI Siècle, t.1, Paris, éd. Payot, 1967, p.130*

** – ***غاباوون Gabaon***، *أحد القادة الأمراء المور في منطقة طرابلس، عرف بذكائه وحكمته، قاد قبائل الجمالة الرحل في حربهم ضد الوندال في منطقة تمتد من طرابلس إلى قرطاجة، تحدى الوندال في عهد الملك "تراساموند"، ولقنهم شر هزيمة.* - *Procope, VIII, 3.*

[4]- *Procope, VIII, 3.*



(أ)



(ب)

الشكل 33: نقيشتي ألطافا وآريس.

أ–نقيشة ألطافا "أولاد ميمون" حاليا شرق تلمسان، التي تحمل اسم "ماسونا" (*Masuna*) أو "مازونا" (*Mazona*) الذي عاصر الملك الوندالي "تراساموند"، والملقب بـ "ملك القبائل المورية والرومان".
ب–نقيشة آريس (بالمتحف الوطني للآثار القديمة–الجزائر) وهي عبارة عن شاهدة قبر الملك "ماستياس (صورة: *Centre Camille Julian*)

نقلا عن : أ– *Février (P.A.), Masuna et Masties, In: Ant. Afri., 24,1988, p.134.*

ب– *Salama (P.), Economie Monétaire de l'Afrique du Nord dans l'antiquité tardive, dans : Actes du II^e colloque international (Grenoble, 5-9 Avril 1983), Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, p.192.*

يستفاد من مضامين نقيشتي ألطافا وآريس، أنها تمثل شواهد مادية على وجود كيانات سياسية مورية خلال القرن الخامس وبداية القرن السادس لا يتطرق إلى حقيقة وجودها أدنى شك.

يتضح مما سبق أن هذه الكيانات كانت تتمتع بالسيادة الكاملة البعيدة عن سلطة الرومان أو الوندال المباشرة، إلا أن شكل هذه السيادة فيها نوع من المزاوجة بين السيادة التقليدية التي حرص فيها الملوك المور على التمسك بها لكونها تحفظ لهم الزعامة على قومهم، وبين السلطة المدنية التي تعودت عليها المجتمعات الحضرية المكونة من المور والرومان. وقد حاول الملوك والأمراء الموريين التوفيق بين شكلي السيادة في تعاملهم مع الوضع الجديد للمحافظة على ولاء كل من الموريين والرومان.

وهكذا اختفى الانشقاق الإفريقي من التاريخ بصورة نهائية في أواخر القرن السادس الميلادي، بعد ثلاثة قرون من الوجود والمقاومة. إن هذا الاختفاء المفاجئ يعود ربما إلى سببين رئيسيين هما:

أولا: أن البابا "غريغوار الأكبر" (*Grégoire le Grand*) (*) لم يذكر الدوناتيين والدوناتية في مراسلاته خلال الست سنوات الأخيرة من فترته البابوية التي انتهت في سنة 604م. ويمكن أن نفترض أن المنشقين هدأوا نوعا ما خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس الميلادي.

ثانيا: إذا كنا نجهل خلال الفترة الممتدة من سنة 590م إلى سنة 598م هل كان المنشقين أكثر نشاطا وجرأة وتهديدا، رغم أنهم وإلى بداية القرن السابع الميلادي كانوا

---

*- ***غريغوار الأكبر***، *ولد في روما في حوالي سنة 540م، وتوفي سنة 604م، انتخب بابا سنة 590م، حينما غزا اللومبارديون إيطاليا استطاع توقيع اتفاقية مشرفة معهم وتنصير بعضهم، ساهم في إلغاء الرق، واهتداء بريطانيا العظمى والأريوسيين، اتهم بحرق الكتب المدنسة ومعابد الوثنيين، ترك العديد من الكتابات، المتعلقة بطقوس وشعائر العبادة في الديانة المسيحية.* *- Dict. Univ.Hist.Géo, p.792.*

يسيطرون على جزء واسع من نوميديا، فإن لم تصلنا أخبارهم بعد هذه الفترة فلأن المصادر التاريخية لم تتحدث عنهم أو تجاهلتهم.

يبدو أن الانشقاق الدوناتي استمر مدة أطول في بعض المناطق، فقد وجد الفاتحون المسلمون الأوائل عند دخولهم الأرض الإفريقية في منتصف القرن السابع الميلادي بعض الجماعات والطوائف التي لا زالت وفية لكنيسة "دوناتوس" في بلاد المغرب القديم.

الباب الرابع

حركة الدوراين وعلاقتها بالدوناتية

الفصل الأول: ماهية الدوارين في المصادر الكاثوليكية والدراسات الحديثة

الفصل الثاني: طبيعة حركة الدوارين

الفصل الثالث: طبيعة العلاقة بين حركة الدوراين والدوناتية

الفصل الأول

ماهية الدوارين في المصادر الكاثوليكية والدراسات الحديثة

المبحث الأول–مفهوم "الدوارين" لغة واصطلاحا

المبحث الثاني –الدوارون في المصادر الكاثوليكية

المبحث الثالث –الدوارون في الدراسات الحديثة

برزت في خضم الصراع الدوناتي الكاثوليكي مجموعة من الناس عرف أصحابها في المصادر الكاثوليكية باسم "الدوارين" (*Circumcelliones*)، حيث كانوا يشكلون رؤوس الدوناتية ضد الكنيسة الكاثوليكية. وبذلك أصبح جزءا هاما من الجدل القائم بين الدوناتيين والكاثوليك يدور حول العنف بين الطرفين. فالكاثوليك يرون في عمل "الدوارين" اضطهاد لكنيستهم، والدوناتيون يرون في تدخل السلطة الرومانية إلى جانب خصومهم اضطهادا لفريقهم. وانطلاقا من هذا التباين فقد قسمت الباب الرابع الى ثلاثة فصول عالجت في الفصل الأول ماهية الدوارين ومختلف التسميات التي وردت في المصادر الكاثوليكية ("أوبطا الميلي" و"أوغسطين") وفي الدراسات الحديثة. وتناولت في الفصل الثاني طبيعة حركة الدوارين، ودرست في الفصل الثالث طبيعة العلاقة بين حركة الدوراين والدوناتية.

<u>ماهية الدوارين في المصادر الكاثوليكية والدراسات الحديثة</u>: أعالج في هذا الفصل ماهية الدوارين محاولا إلقاء الضوء على مختلف التسميات التي وردت في المصادر الكاثوليكية وفي الدراسات الحديثة، واستجلاء أسباب إطلاقها ومدلولاتها.

<u>المبحث الأول–مفهوم "الدوارين" لغة واصطلاحا</u>: يمكن أن نضع حركة الدوارين تحت المهجر في ضوء النصوص القديمة والأبحاث الحديثة، وأن نتساءل: من هم "الدوارون" أو "الثوار الريفيون"؟ هل هم مجرد عصابات متمردة هائمة تحوم حول أهراء الحبوب وتمارس عمليات النهب والسلب، كما حاول المجادلون الكاثوليك أن يصفوهم؟ (1)

أم هم جماعات كانت تتنقل عبر الأرياف النوميدية والموريطانية بحثا عن قوتها؟ أم جماعات من قطاع الطرق تزرع الذعر والخوف في نفوس الآمنين، وتتشكل من المتشردين والناقمين والصعاليك يتنقلون من مدينة لأخرى في نوميديا؟ (2)

1-Monceaux (P.), .H. L. A. C., IV, p.180.
2-Optat (St.), III, 4.

هل هم ثوار قاوموا النظام الروماني؟ أو مجموعة من المصارعين(*Agonisticii*) الذين أطلقوا هذه التسمية على أنفسهم والتي تدل على قوتهم الجسدية وفعاليتهم في مواجهة أعدائهم؟ [1]

أم هم جنود المسيح (*Milites Christi*) كما سماهم الدوناتيون [2] وقد سموا قادتهم بالزعماء القديسين (*Duces Sanctorum*)؟ [3] واتخذت هذه التسميات التي أطلقت على الدوارين طابعا دينيا محضا.

<u>أولا: مفهوم</u> "<u>الدوارين</u>" <u>لغة</u>: أطلقت عدة تسميات على الدوارين، وأمام تعددها كان على الباحث استجلاءها والبحث عن أسباب إطلاقها ومدلولاتها. ويبدو أن معظم الباحثين قد اختلفت آراؤهم وتباينت حول تسمية الدوارين، لذلك لا زالت هذه الحركة تشكل لغزا ومحل تساؤلات عديدة.

تعترض الباحث صعوبات جمة في تحديد معنى كلمة "الدوارين" (كيركوم كليونس) (*Circumcelliones*) غير أن الصعوبة لا تكمن في الاشتقاق اللغوي، فالمصطلح اللاتيني يتركب من جزأين:"*Circum*" و "*cella*". [4] فالجزء الأول: كيركوم "*Circum*" يعني "حول"، أما الجزء الثاني: كيلا "*cella*" فمعناه إما "هري" وجمعها "أهراء" كيلاس (*cellas*) أو "مخزن المؤن" (من خمور أو زيوت أو حبوب). [5] وهذا التعريف اللغوي هو الذي ظل متداولا حتى الآن في المعاجم والقواميس اللاتيينة.

---

1 - Augustin (St.) Epist., CVIII, 6, 18

2- Optat (St.), III, 4.

3-Vannier (O.), « Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat », <u>Rev.Afri.</u> , n° 67,1932, p.1

4- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., pp. 103-111 : Cella, Circum.

5- Ibid., p.103: « cella : 1° endroit où l'on serre qq. ch., grenier, magasin, cellier : cella Vinaria, Olearia, Penaria.

<u>ثانيا–مفهوم "الدوارين" اصطلاحا</u>: يعرف معظم المؤرخين المحدثين[*] "الدوارين" اصطلاحا بأنهم: أولئك الذين يدورون ويحومون حول الأهراء. أما في المصادر الكاثوليكية فقد جاء تعريف "أوغسطين" للدوارين بقوله: « ***كانوا يسمون بالدوارين لدورانهم حول الأهراء.*** » [1] أو أنهم :« ***أولئك الذين يحومون حول الأهراء الريفية (Cellas rusticanas) بحثا عن القوت، ومن ثم جاءت تسميتهم بالدوارين....*** » [2]

يتضح مما سبق أن "أوغسطين" اكتفى في تعريفه بالإشارة إلى الاشتقاق اللغوي، وترك بذلك الباب مفتوحا لعدة تساؤلات وتأويلات.

غير أنه برز في مطلع الخمسينيات تفسيرين جديدين لمعنى"*cella*". فقد افترض الإنجليزي "فراند" (*Frend*) أن كلمة "كيلاس روستيكاناس" (*cellas rusticanas*) التي وردت في نص "أوغسطين" لا تعني "الأهراء الريفية" وإنما معناها "أضرحة الشهداء الريفية" التي كانت متناثرة في الأرياف النوميدية والموريطانية. ذلك أن الدوارين كانوا يشكلون فرقة من الدوناتيين يرتادون تلك "الأضرحة الريفية" للتبرك برفات الشهداء من جهة، والبحث عن قوتهم فيها من جهة ثانية. [3] إذ أن هذه الأضرحة كانت تتوفر في الغالب على مخازن للمؤن ومستودعات غذائية [**] كشف علم الآثار عن بقاياها. [4]

---

*- نذكر منهم:
-*<u>Monceaux</u> (P.), .H. L. A. C., IV, p.180.*
-*<u>Courtois</u> (Ch.), les vandales et l'Afrique, Paris, 1955, p. 144.*
-*<u>Brisson</u> (J.P.), Autonomisme et christianisme…, 1958, p.332.*
1 -Augustin (St.), Enarr. in Psalm., CXXXII, 3.
2-Id., Cont. Gauden., I, XXVII, 32.
3- Frend (W.H.C.), The Cellae of the African Circumcelliones, <u>J.T.S</u>, 1952, pp.89-90.
***- عثر على مخازن للمؤن على شكل مطمورات في أزرو الزاوية جنوب غرب قسنطينة، وهي عبارة عن مطمورتين لخزن الحبوب، وعلى مطمورتين وعلى صفين من الغرف في مشتى التين شمال باتنة. -Berthier (A.), les vestiges du christianisme antique dans la Numidie centrale, Alger, 1942, pp. 139,147.*
4- Frend (W.H.C.), Circumcelliones and monks, <u>J.T.S</u>, vol. II, new series, pp.546-548.

أما التفسير الثاني فقد افترضه الباحث الايطالي "كالدرون" (*Calderone*) سنة 1967م، واعتبر أن الدوارين كانوا نوعا من النساك أو الرهبان الذين يتجولون بين الأديرة، ومن هذا المنطلق فإن المقصود بـ: "*cella*" هو "بيت الراهب". [1]

يتضح من خلال المدلولات الاسمية السابقة التي أطلقت على الدوارين وصفين مختلفين: المدلول الأول الذي درج أصحاب الجدل الكاثوليك على إطلاقه بهدف تشويه هذه الحركة ووصفها بأنها غير أخلاقية تمارس السلب والنهب وتسعى إلى ترويع الناس. وفي نفس الوقت نلمس إقرارا ضمنيا من طرف هؤلاء المجادلين بقوة الحركة وانتشارها من خلال الاعتراف بوجود الدوارين في كل مكان وكل مدينة من المدن النوميدية والموريطانية.

المبحث الثاني –الدوارون في المصادر الكاثوليكية: اختلفت آراء الباحثين حول تسمية الدوارين، ويرجع هذا الاختلاف ربما إلى تباين الآراء حول نشاطات الدوارين، وحول طبيعة حركتهم. وتجدر الإشارة هنا أن مختلف هذه الآراء ترتكز أساسا على نصوص الكتاب الكاثوليك المعاصرين للدوارين أو اللاحقين الذين نقلوا عنهم، وبشكل خاص على كتابات القديسين "أوبطا الميلي" و"أوغسطين" ضد الدوناتية.

نستشف من هذه المصادر الكاثوليكية بعض التسميات التي عرف بها الدوارون مثل "المصارعون" (*Agonisticii*) و"جنود المسيح" (*Milites Christi*)، و"الزعماء القدسيين" (*Duces Sanctorum*) أو "الطوافون حول أضرحة الشهداء"، فهذه التسميات إما أن الثوار الريفيين أطلقوها على أنفسهم، أو أطلقت عليهم من قبل الدوناتيين. [2]

1- Calderone (S.), Circumcelliones, Parola del Passato, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, pp.94-109, (p.102).
2- Optat (St.), III, 4 ; Vannier (O.), « les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste…, Op.cit., p.17.

يبدو أن هذه النعوت لها مدلول إغرائي هدفه إعطاء بعد روحي لحركة الدوارين لاستمالة الأهالي وكسب تعاطفهم.

والحقيقة أن الكتاب الكاثوليك كانوا يعتبرون حركة الدوارين جزء لا يتجزأ من الانشقاق الدوناتي، وأن الدوارين كانوا يمثلون الجناح العسكري للدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا فإنهم لم يتحدثوا عن الدوارين إلا في إطار جدلهم الكلامي مع خصومهم الدوناتيين. [1] ومن ثم فإن اللهجة التي استعملوها للحديث عن الدوارين كانت تحمل الكثير من الازدراء والتحقير، واعتبروهم مجموعات من قطاع الطرق والصعاليك واللصوص وهي شتيمة رومانية – دون شك- غذتها الدعاية الكاثوليكية، وقد تصل هذه اللهجة في بعض الأحيان إلى القذف والسب اللاذعين. [2]

والحق أن كتابات "أوغسطين" (الشكل رقم 34 ص 507) لا تشفي الغليل فيما يساعد على تحديد مدلول الدوارين، وهو الذي عاش جزءا مهما من تاريخ الحركة وخصص فقرات للتنديد بالدوارين، فأثارت كتاباته العديد من التساؤلات.

لذلك كان من الضروري الرجوع إلى النصوص الكاثوليكية-وكتابات "أوغسطين" على الخصوص-وبعيدا عن جو الجدل الكلامي وعبارات القدح والقذف والتجريح.

يبدو أنه من الأفضل الانطلاق من وثيقة رسمية صدرت عن السلطة الإمبراطورية آنذاك، ويتعلق الأمر بقانون "هونوريوس" (*Honorius*) الذي صدر في 30 جانفي سنة 412م، بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة سنة 411م. ويحدد هذا القانون قيمة الغرامات المالية والعقوبات المزمع تطبيقها على الدوناتيين الذين لم يلتحقوا بـ "الوحدة الكاثوليكية"، وينص القانون على ما يأتي:***« اعتبارا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين – سواء منهم الأساقفة أو القساوسة أو العامة- بالكنيسة الكاثوليكية التي***

1- Augustin (St.), Cont. Cres., IV, L, 60; Cont. Epist. Parmen., I, XI, 17, II II, 6.
2- Optat (St.), III, 4.

انشقوا عنها، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا وذلك حسب ما يأتي: "المشاهير" Inllustres: 50 رطلا من الذهب، "الأشراف" Spectabiles: 40 رطلا من الذهب، "السيناتوريون" Senatores: 30 رطلا من الذهب، "اللامعون" Clarissimi: 20 رطلا من الذهب، "أعيان الإقليم" Sacerdotales: 30 رطلا من الذهب، "أعيان المدن" Principales: 20 رطلا من الذهب، "أعيان المجالس البلدية" Decuriones: 5 أرطال من الذهب، "التجار" Negotiatores : 5 أرطال من الذهب، "عامة المدن" plebei: 5 أرطال من الذهب، "الدوارون " Circumcelliones: 10 أرطال(*) من الفضة.» (1)

وفي حالة ما إذا لم يقدم "الأكارون" (**) *Conductores* الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "وكلاء الإمبراطور" (***) *Procuratores* إلى "المكلف بتنفيذ القانون" (*Executor*) كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها، بحيث لا يعفى منها حتى أهل البيت ولتخضع النساء للغرامة الزوجية على انفراد.

وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه–إلى مصادرة ممتلكاته، أما العبيد (*Serve*) الرافضون لتنفيذ هذا القانون فيودعون السجن، وأما المزارعون (*Coloni*) فيتعرضون للجلد، ويمكن لأسيادهم أن يقوموا بتسديد الغرامات المفروضة عليهم. (2)

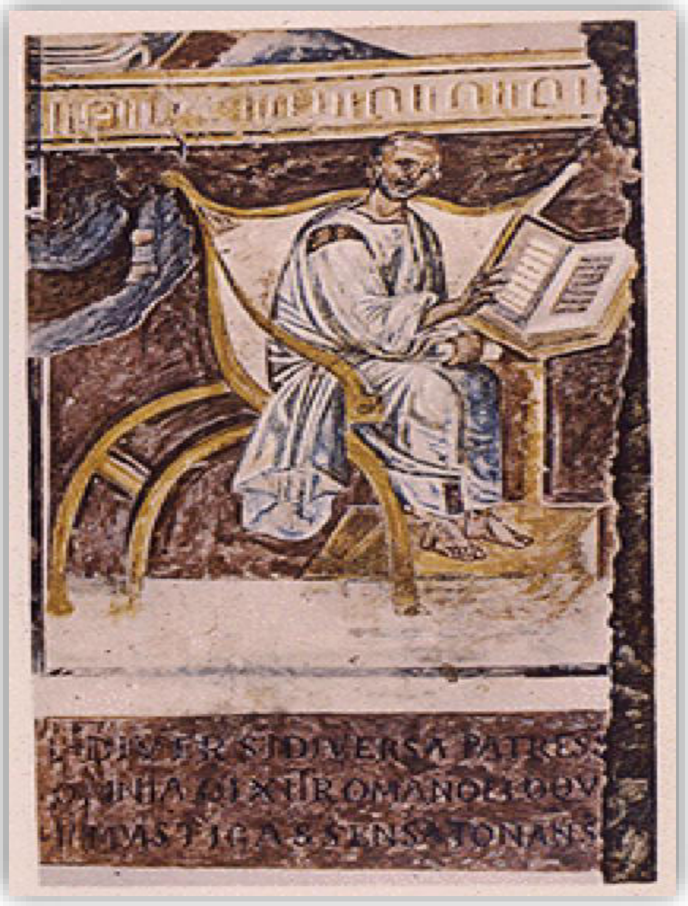
** – يقدر "صوماني" قيمة الغرامة المفروضة على الدوارين (10 أرطال من الفضة) بحوالي 40000 فرنك فرنسي في سنة 1934م (تاريخ نشر مقاله)، وقيمة الغرامة المالية المفروضة على عوام المدن Plebei (5 أرطال من الذهب) بحوالي 28000 فرنك فرنسي، أنظر جدوله: -Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les circoncellions d'Afrique, A.H.E.S., T.VI, n° 28, 1934, (pp.351-364), p. 357.*

1 - Cod.Theod., XVI, 5,52.

***– هم مسيرو أعمال يستأجرون الضيعات الواسعة من الإمبراطورية لمدة معينة (5 سنوات في الغالب) ويستغلون جزء من الأرض استغلالا مباشرا ويسندون الباقي إلى مزارعين بالحصة Coloni. - Kolendo (J.), « Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique romaine », R.E.A., LXV, 1963, p.83.*

****– كان الإمبراطور يعين لإدارة أملاكه عددا من الموظفين يعرفون باسم "وكلاء الإمبراطور" (Procuratores)، وكان مقرهم في المغرب القديم بقرطاجة حيث إدارته، أما إدارة كل ضيعة فتسند إلى وكلاء أقل شأنا ورتبة وهم الذين يشرفون على السير العادي للإنتاج وتطبيق قوانين العمل في كل ضيعة. روستوفتزف، المرجع السابق، ص.397.*

2 - Martroye (F.), « la répression du Donatisme », M.S.N.A.F., t. 78, Paris, 1914, p.134.



الشكل رقم 34: القديس "أوغسطين".

أقدم لوحة عرفت حتى الآن للقديس "أوغسطين" يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي، وهي عبارة عن رسم جداري *fresque* بقصر لاتران *Latran* بروما.

نقلا عن: *https://upload.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/20.

تكتسي الإشارة إلى الدوارين في نص قانوني رسمي مثل قانون "هونوريوس" في حد ذاته أهمية بالغة، إذا ما استثنينا إشارة أخرى في قانون الملك الوندالي "هونوريك" (*Huneric*) ضد الكاثوليك في سنة 484م، والذي هو نسخة منقولة نقلا شبه حرفي عن "قانون هونوريوس". [1]

ويرجع الفضل إلى الباحث الفرنسي "شارل صوماني" (*Ch.Saumagne*) في لفت نظر الباحثين إلى هذا القانون بعد أن كانوا لا يعيرونه اهتماما أو يمرون عليه عرضا دون تحليله واستنتاج ما يمكن استنتاجه من النص.

تتجلى أهمية النص في أنه يحدد قيمة الغرامات المالية حسب مختلف الفئات الاجتماعية (*ordines*)، [*] وبما أن الجنحة هي اعتناق الدوناتية، فإن تفاوت قيمة الغرامة المالية إنما يعود إلى تفاوت الإمكانات المالية لكل فئة من هذه الفئات وحسب المكانة الاقتصادية والاجتماعية لمختلف هذه الفئات المذكورة في القانون.

وتتدرج هذه العقوبات من أعلى الفئات مثل: المشاهير واللامعون والسيناتوريون، إلى الطبقة البورجوازية الحضرية مثل: أعيان الإقليم، وأعيان المدن وأعيان المجالس البلدية، وتجار وعوام المدن مثل: التجار وعامة المدن، إلى الفئات الدنيا مثل: العبيد والمزارعون.

أما فئة الدوارين التي نحن بصدد دراستها فقد صنفت في أدنى مرتبة من الفئات التي تمثل الرجال الأحرار، ومباشرة بعد عامة المدن، لكنها ذكرت قبل فئة العبيد والمزارعين.

1- Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, p.353.

**- Ordines مفردها : Ordo قد تعني فئة، طبقة أو جماعة، لكن" الأوردو" الروماني يتحدد بعوامل قانونية بالدرجة الأولى بينما تتحدد "الطبقة " بمفهومها العصري بعوامل اقتصادية واجتماعية.*

- Gagé (J.), les classes sociales dans l'empire romain, p.39 ; Fredouille (J.C.), Dictionnaire de la civilisation romaine, Paris, Larousse, 1968, p. 66 ; Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, p.438, (col. 3 : ordo, ordines : ordre, classe sociale, (Sénateurs, Chevaliers, Plébéiens à Rome).

وقد اهتم باحثان (*) بدراسة هذا النص فأدخلا بعض التعديلات على قراءة صوماني:

1- يرى "ج. ب. بريصون" (*J.P.Brisson*) أن الفقرة الآتية التي وردت في قانون "هونوريوس": « ***وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه- إلى مصادرة ممتلكاته*** » ، فمصادرة الممتلكات لا تعني الدوارين وحدهم كما كان يعتقد "صوماني".(1) لكن الفقرة تهم كل الفئات التي ذكرت قبل الدوارين، كما تهم الدوارين أيضا. (2) المهم في ذلك أن الدوارين كانوا معرضين لمصادرة ممتلكاتهم كبقية الفئات، مما يعطي الدليل على أن القانون اعترف لهم ضمنيا بامتلاكها.

2- بينما اقترح "تنغستروم" (*E. Tengström*) قراءة أخرى للفقرة الآتية: « ***وإذا لم يقدم "الأكارون" الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "الوكلاء" إلى المكلف بتنفيذ القانون كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها...*** » .(3)

يرى "تنغستروم" أن الضمير (*ipsi*) في الجزء الأخير من الفقرة، لا يعود على الدوارين كما قرأه "صوماني" (4) و"بريصون" (5) ، ولكن يعود على الأكارين والوكلاء.

وقد نالت هذه القراءة رضا بعض الباحثين(**)، فبالرغم من أنها تبدو أكثر تلاؤما مع سياق النص إلا أنها لا تدخل تغييرا ملحوظا عليه، إلا من حيث مسؤولية الوكلاء ومسيرو الأعمال في الضغط على الدوارين كي يتخلوا عن الدوناتية، فهم المكلفون بتسليم الدوارين إلى منفذ القانون (*Executor*).

---

*- *الباحثان هما :*

-*<u>Brisson</u> (J.P.), Autonomisme et christianisme… pp. 335-336.*

-*<u>Tengström</u> (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp.27-31*

1- *Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, p.356.*

2- *Brisson (J.P.), Op.cit., p.355-356.*

3- *Tengström (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp. 27-31 ; d'après Lancel (S.), <u>C.R</u>. de Tengström, <u>R.E.L.</u>, 1965, P. 638.*

4- *Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp. 355,358.*

5- *Brisson (J.P.), Op.cit., p. 335*

** – *أذكر منهم : سارج لانسال وكالدرون.*

- *<u>Lancel</u> (S.), Idem*

- *<u>Calderone</u> (S.), Op.cit., p.89.*

لقد كان الدوارون يشكلون فئة من الرجال الأحرار، المعرضين لأداء غرامة مالية ومصادرة ممتلكاتهم، إذا لم يذعنوا لمقتضيات قانون "هونوريوس". لذلك نرى أن وضعيتهم كانت تختلف عن وضعية العبيد والمزارعين الذين كانوا معرضين للعقوبات الجسدية (السجن والجلد).

ويبدو أن مسيرو الأعمال لم يكونوا متحمسين للمهمة التي أوكلت لهم حسب قانون "هونوريوس"، لذلك صدر بعد ذلك بسنتين قانون في سنة 414م. [1] وكان أقسى عليهم من قانون سنة 412م الذي نص على: ***«أما مستأجري ضيعاتنا، إذا هم سمحوا بممارسة الهرطقة (الدوناتية) فوق أراضينا، فليعاقبوا بأداء قدر من المال يساوي القدر الذي يسددونه عادة ككراء عن الضيعات. وأما المستأجرون الخواص، فإذا سمحوا بانعقاد تجمعات "دوناتية" في الملكيات أو أدى تساهلهم إلى تدنيس الأسرار المقدسة (Sacrum Mysterium)، فليخبر القضاة بذلك الملاك المعنيين. وعلى هؤلاء إما أن يصلحوا اعوجاج المستأجرين، وإما أن يعوضوا من تمادى منهم في غيهم بمديرين متشبعين بالمبادئ الإلهية. وأما الملاك الذين تهاونوا في إخبار السلطة، فليعاقبوا بغرامة مالية قدرها الربع الذي اعتادوا كسبه (من أراضيهم). »***[2]

يبدو أن السلطة الرومانية كانت تعتبر الملاك نوعا من الوسطاء بينها وبين المستأجرين. كما كانت تعتبر هؤلاء الأخيرين وسطاء بينها وبين الدوارين. ومع أن قانون سنة 414م لم يذكر الدوارين صراحة، إلا أنه كان يقصدهم عبر تحميل المستأجرين مسؤولية تجمعات الدوارين وتدنيسهم للأسرار القدسية في الأراضي الإمبراطورية أو أراضي الخواص.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القانون لم يحدد أي عقوبة بخصوص الدوارين، في حين نص على عقوبات خاصة بالعبيد والمزارعين: كالسجن والجلد فضلا عن انتزاع

1- Cod. Theod., XVI, 5-54.

2- Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp.356-357.

ثلث ($\frac{1}{3}$) المكسب بالنسبة للمزارعين. [1] كما أن غياب الدوارين في قانون سنة 414م لا يدل على اختفائهم "كأوردو – *Ordo*" (فئة اجتماعية) لسبب أو لآخر، إذ أن القانون لم يذكر أيضا فئات أخرى مثل: اللامعون (*Clarissimi*) والتجار(*Negotiatores*) وعوام المدن (*Plebei*). [2]

مما يلاحظ على قانون سنة 414م أنه كان أقل صرامة من قانون سنة 412م من حيث قيمة الغرامات المالية المفروضة على الفئات الاجتماعية العليا (المشاهير، الأشراف، اللامعون، السيناتوريون...) في حين كان أكثر تشددا مع الفئات الريفية (مزارعون، عبيد).[*]

وأعتقد أن هذا التفاوت في معاملة القانون للفئتين يعود أساسا إلى:

1-أن الفئات الريفية كانت أكثر تأثرا بالدوناتية من غيرها، وأكثر مقاومة لقانون "هونوريوس" سنة 412م، ومن ثم جاء التشدد من طرف المشرع تجاه هذه الفئات.

2-أن الضغط أصبح مركزا على المستأجرين، إذ أنهم أصبحوا مهددين بفسخ عقودهم مع ملاك الأراضي، مما يدل على أن الدولة لاحظت من تجربة سنتين (412-414م) مدى تهاونهم في تطبيق قانون "هونوريوس" سنة 412م.

ويمكننا أن نتساءل عن مدى تطابق معطيات هذا النص القانوني مع المعلومات التي يمكن استخلاصها من النصوص والمصادر الأدبية عن الدوارين؟

تشير تلك النصوص إلى أن الدوارين كانوا يضمون في صفوفهم عددا كثيرا من السكان الأصليين الذين رفضوا سياسة الرومنة. إذ يذكر "أوبطاتوس الميلي" أنه في حوالي سنة 340م كانت جماعات من الدوارين في نوميديا يترأسها زعيمان يحملان

1- Saumagne (Ch.), Ibid., p.357.

2- Frend (W.H.C.), Circumcelliones and Monks, Op.cit., p.549.

* - *أنظر الجدول المقارن للعقوبات، الملحق رقم 4.*

اسمي"أكسيدو" (*Axido*) و"فازير" (*Fasir*) في سياق حديثه عن المعركة التي دارت بينهم وبين فرق الكونت "طورينوس" (*Taurinus*). [1]

في حين يحدثنا "أوغسطين" عن بداية ظهور جماعات الدوارين التي تعود إلى سنة 317م عشية الإعلان عن مرسوم "قسطنطين" الذي ينص على نزع الكنائس من المنشقين الدوناتيين. [2]

ونلاحظ أن اسمي "أكسيدو" و"فازير" لا ينمان عن ترومن عميق. [3] كما يشير "أوغسطين" إلى أن الدوارين في ضواحي مدينة "هيبو ريجيوس" (*Hippo- Regius*) " عنابة حاليا" كانوا لا يفقهون اللغة اللاتينية. [4] لذلك كانت اللغة البونية (الليبية؟) (*) ضرورية للتفاهم معهم. [5]

1- Optat (St.), III, 4.
2- Augustin (St.), Contra Epistulam Parmeniani, I, 11, 18; Optat (St.), I, 26.
3- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, p.338.
4 - Augustin (St.), Epist., CVIII, 5,14.

* -كان سكان المغرب القديم في عهد أوغسطين يتكلمون إلى جانب اللغة اللاتينية لغات أخرى لا زالت ماهيتها تطرح إشكالا صعبا لم يتم الاتفاق حوله بين الباحثين بعد. كما تساءل هؤلاء عما إذا كانت اللغة البونية قد اختفت أم لا؟ والبونية عند أوغسطين هي اللغة الليبية (التي يفترض أنها أصل اللهجات الأمازيغية الموجودة حاليا في شمال إفريقيا). إن بقاء هذه اللغة السامية طيلة الفترة الرومانية قد ساعد كثيرا على تعريب السكان فيما بعد. وقد كتب الكثير من الباحثين حول هذا الموضوع وانقسموا في ذلك إلى تيارات عدة. حول بيبلوغرافيا الليبية والبونية أنظر: *Benabou (M.), la résistance Africaine à la romanisation, pp. 473-474.*

أ- القائلون بوجود البونية هم:
- Gsell (S.), H. A. A. N., t. IV, p.496.
- Gautier (E.F.), le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1937.
- Saumagne (Ch.), la survivance du Punique en Afrique aux V° et VI° siècles, Karthago, 1954 pp.171-178

ب- القائلون بوجود اللغة الليبية:
- Courtois (Ch.,) St. Augustin et le problème de la survivance du punique, Rev. Afri., 1950, pp.259-282 ; Id., les Vandales l'Afrique…, p.126.
-Warmington (B.H.), The North African Provinces…, Op.cit., 1954, p.89.
-Frend (W.H.C.), The Donatist Church…, Op.cit., 1971, p.57.

ج- القائلون بوجود اللغتين معا (إضافة إلى اللاتينية):
- Benabou (M.), Op.cit., pp.473-489.
- Simon (M.), Punique ou Berbère ? Note sur la situation linguistique dans l'Afrique romaine, Mélanges Isidore Lévy, Bruxelles, 1955, pp.613-629.

5 - Hamman (A.G.), la vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint- Augustin, Paris, 1979, p.60.

وتذكر نصوص كاثوليكية أخرى الدوارين بلهجة تحمل الكثير من الاستغراب والاستهجان، حيث يتحدث عنهم "أوغسطين" قائلا: ***« ... تلك المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تفهم ولا تحتمل ما ننصحها به في سبيل خلاصها، والتي تمارس ضدنا أعمال عنف مسعور لا تكفي كلماتي لتعدادها والتذكير بها وعرضها عرضا مناسبا. »*** [1]

يبدو من النص أن "أوغسطين" يتحامل –كعادته –على الدوناتيين ويصفهم بالمخلوقات، وهو بذلك ينزع عنهم صفة الآدمية، وأنهم جماعات تمارس العنف ضد الكاثوليك. ويشير في فقرة أخرى إلى ذلك التعاون بين الدوارين والكهنة [*] (*Clerici*) الدوناتيين لاقتراف الجرائم في حق الكنيسة الكاثوليكية. [2]

ومهما يكن من أمر، فإن معظم الدوارين كانوا ينتمون إلى أصول إفريقية، مع عدم تأثرهم بقيم سياسة الرومنة وباللغة اللاتينية، وهذا ما يتلاءم مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذي ذكرهم به قانون سنة 412م.

ولما كان الدوارون يتنقلون من مكان لآخر، فإن عدم استقرارهم ساعدهم على عدم التأثر بسياسة الرومنة. وفعلا فقد كان تنقلهم وعدم ثباتهم في مكان معين من أبرز السمات التي اتصفوا بها، والتي أثارت انتباه بعض الكتاب الكاثوليك المعاصرين لهم،[**]

1- Augustin (St.), Cont. Cresc., VI, L, 60.

**-يشكل الكهنة (Clerici) جماعة من الإكليروس في الأبرشية، وهم أصناف ومراتب : الكهنة الكبار : الرعاة : Presbyteri، والشمامسة Diaconi، والكهنة الصغار هم : المرافقون Acolythi، والقراء Lectors ، وكان نفس التنظيم موجودا في الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية، وكان على رأس كل أبرشية أسقف Episcopus، وبجانبه عدد من الكهنة يختارون لخدمة الكنيسة (حرفيا : "يوضعون جانبا"). وقد اتضح الفرق بين الكهنة والعامة أكثر فأكثر منذ بداية القرن الرابع الميلادي، وظهر في القوانين التي أصدرها الإمبراطور قسطنطين: Cod. Theod., XVI, 2, 2 ; - Monceaux (P.), l'église donatiste organisation et caractères, R.H.R., t.63, 1911, pp. 270-271 ; Hamman (A.G.), Op.cit., p.282.*

2- Augustin (St.), Cont. Cresc., VI, L, 61.

***– من هؤلاء نذكر : القديس "فيلاستريوس" (Filastrius) أسقف مدينة بريشيا (Brescia) شمال ميلانو بإيطاليا حاليا، عاش في القرن الرابع الميلادي. كتب مؤلفا عن مختلف البدع المسيحية حوالي سنة 383م. - Chevallier (R.), Dictionnaire de la littérature latine, Paris, Larousse, 1968, p.123.*

ومنهم من وصفهم بـ "*Circuitores*"[1] والتي لا تفيد أكثر من معنى "دوارين" أي الذين يحومون حول الأهراء أو أضرحة الشهداء.

وتحدث عنهم "أوغسطين" في حوالي سنة 420م إذ قدمهم على الشكل الآتي: ***« إنني أتحدث عن وقائع يعرفها المعاصرون حق المعرفة. فمن منا لا يعرف ذلك النوع من الناس الذين لا يكفون عن اقتراف الجرائم الشنيعة، ويستنكفون عن الأعمال النافعة، شديدي القسوة في قتل الآخرين، وبالغي الدناءة في قتل أنفسهم،(**) يرهبون البوادي خاصة، لكن لا يشاركون في الأعمال الفلاحية، يحومون حول الأهراء الريفية (Cellas rusticanas) بحثا عن القوت- ومن ثم جاءت تسميتهم بالدوارين- ومن منا لا يعرف أنهم يمثلون في العالم أجمعه أشهر وصمة عار في جبين الانشقاق الإفريقي. »*** [2]

يلخص هذا النص نظرة الكاثوليك إلى الدوارين، مشيرا إلى أهم السمات التي اتصفوا بها – في رأيهم–، ومنها أن الدوارين كانوا يقترفون جرائم شنيعة باغتيال الكاثوليك. وأنهم لا يتوانون في قتل أنفسهم إراديا (الانتحار الإرادي رغبة في الاستشهاد). وأنهم جنود الدوناتية ورؤوس رماحها، وبذلك فهم يمثلون – حسب "أوغسطين"–أشهر وصمة عار في جبين الدوناتية.

يبدو –حسب شهادة "أوغسطين"– أن الدوارين كانوا يعيشون في الأرياف، برغم لهجة التحقير والازدراء التي وصفها بهم " ***ذلك النوع من الناس***". ونستنتج من ذلك أن الدوارين كانوا –على الأقل في البداية– شبه منحصرين في البادية وإن كانوا لا يشاركون في الأعمال الفلاحية.

1- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.111, (circuitus=action de faire le tour, circuitors= ceux qui rôdent autour).

*** – يشير "أوغسطين" إلى أن انتحارات الدوارين كانت بطرق عديدة، وربما كان المنتحرون يقلدون أحد شهداء الدوناتية المشهورين وهو "ماركولوس" (Marculus) الذي لقي حتفه سنة 347م. - Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XLIX, 54 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp. 69-81.*

2- Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVII, 31- XXIX, 33.

ويؤكد ذلك أقدم نص يتحدث عن الدوارين – وهو الفصل الرابع من الكتاب الثالث لـ"أوبطا الميلي"– حيث ذكر أن الأسقف الدوناتي بمدينة بغاي (*Bagai*) "شمال الأوراس" أرسل المنادين إلى كل ضواحي المدينة وإلى الأسواق ليستنفر الدوارين ويحثهم على مهاجمة البعثة الإمبراطورية سنة 347م.[*] وهكذا يستعمل الكاثوليك نوعا من التهديد للضغط على الدوناتيين كي يوقفوا أعمال عنف الدوارين الموجهة ضد الأساقفة والكنائس الكاثوليكية. [1]

وفي هذا السياق يشير "أوغسطين" في أحد النصوص: ***«كانت الغارات العنيفة التي يقوم بها دواروكم الذين يهجمون علينا على شكل عصابات مجنونة تحت سلطتكم وأوامركم، تؤدي بنا إلى الطرد من كل مكان في البادية، لو لم نحتجزكم كرهائن في المدن؟... »*** [2]

يتضح من النص أن مجال عمليات الدوارين كان مركزا في الأرياف، حيث كانت جماعاتهم تغير على الكنائس والأساقفة وتمثل أكبر خطر على الوجود الكاثوليكي بها.

وحسب "أوغسطين" فإن الدوارين كانوا يتحكمون أيضا في المدن وفي المناطق الريفية التابعة للضيعات (*Fundi*). ولما كان الدوارون يقومون بعمليات في الأرياف فإنهم كانوا يتقدمون أحيانا في غاراتهم على بعض المدن، كما وقع حوالي سنة 409م، حينما قادهم الأسقف الدوناتي "ماكروبيوس" (*Macrobius*) إلى دخول مدينة "هيبو–ريجيوس" (عنابة حاليا). [3]

*– *أرسل الإمبراطور قنسطانس Constans سنة 347م إلى إفريقيا مبعوثين هما: بولس Paulus و ماكاريوس Macarius لحث الدوناتيين على الرجوع إلى الوحدة الكاثوليكية.*

- Martroye (F.), la répression du Donatisme..., p.69.

1 - Optat (St), III, 4.

2 - Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 83,184.

3 - Augustin (St.), Epist., CVIII, 5, 14.

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن المصادر الكاثوليكية كانت تصف الدوارين" بالريفيين" (*Agresti*). (*) ويتفق ذلك مع ما ورد من نعوت في قانون "هونوريوس" سنة 412م من كون الدوارين كانوا يعيشون في الضيعات الإمبراطورية وفي أراضي الخواص تحت إمرة المستأجرين، ولذلك نرى أن هناك تطابقا بين معطيات ذلك القانون والمعطيات التي استقيناها من النصوص والمصادر الأدبية الكاثوليكية.

إذن، نحن أمام رجال أحرار يؤلفون فئة اجتماعية محددة حسب قانون 412م، يعيشون في البوادي، ويتنقلون من مكان إلى آخر، لكنهم يستنكفون عن العمل الفلاحي ويرهبون البوادي خاصة حسب قول "أوغسطين".[1]

ويتحدث بعض الكتاب الكاثوليك في مقام آخر عن "جرائم شنيعة" اقترفها الدوارون، من هؤلاء نجد "أوغسطين" الذي يعدد بعض تلك الجرائم في حوالي 405-406 م قائلا:« ***...تلك القسوة التي تخترع ضدنا ألوانا من الاغتيال والنهب، والحريق وإلهاب العيون وغيرها...*** » [2]

ويذكر في نص آخر جرائم أخرى كان الدوناتيون والدوارون يقترفونها: « ***... في كل يوم نعاني من الأضرار المذهلة التي يقترفها قساوستكم ودواروكم، وهي أضرار أشر من أفعال كل اللصوص وكل النهابين مجتمعين...*** » [3]

توحي النصوص السابقة أن النهب والحريق والتلصص كانت من بين الجرائم التي ذكرها "أوغسطين". لكن الحقيقة أن كل ما تشير إليه النصوص إنما يدخل في إطار المساجلة الكلامية مع الدوناتيين ولا تعطي أي إشارة إلى أعمال قام بها الدوارون. وإذا كان أوغسطين قد تحدث عن مهاجمة الدوارين للكنائس والممتلكات الكاثوليكية، فإن

---

*- *Agreste, paysan, grossier, inculte, brut : Agreste=Agrestis* فلاحي، ريفي، فظ، جاهل، وأمي.
- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.40.
1 - Monceaux (P.), R.H.R., t. 64, 1911, p.42.
2- Augustin (St.), Cont. Cresc. , III, XLIII, 47.
3 - Ibid., III, XLII, 46.

الهدف من ذلك – حسب النصوص نفسها – لم يكن بغرض النهب والسلب، وإنما يندرج ضمن إطار الصراع المذهبي بين الدوناتيين والكاثوليك، وحماية الفقراء والمستضعفين من استغلال وبطش الأغنياء.

<u>المبحث الثالث –الدوارون في الدراسات الحديثة:</u> تعددت آراء الباحثين المحدثين وكتاباتهم حول الدوارين، ويعود هذا التباين في الآراء الى طبيعة نشاطات حركة الدوارين وتنوع أساليبها. وترتكز هذه الآراء أساسا على نصوص الكتاب المعاصرين الذين نقلوا عن المصادر الكاثوليكية، وقدموا عدة أطروحات وفرضيات مثل: "بول مونصو" [1] (*P. Monceaux*) و"أوديت فانيي" [2] (*O. Vannier*) و"ج. ب. بريصون" [3] (*J.P.Brisson*) و"شارل صوماني" [4] (*Ch.Saumagne*) و"تنغستروم" [5] (*E.Tengström*) و "كالدرون" (*S. Calderone*). [6]

يعتبر "مونصو" أن الدوارين: ***« كانوا مغامرين رحل لا بيت لهم ولا مقر، يعيشون من التلصص، ويحبون الطواف حول الضيعات (circumcellas) ومخازن المؤن، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم "المصارعين" (Agonisticii) أو جنود المسيح (Milites Christi). ويدعون أنهم يدافعون عن الكنيسة الحقة، كنيسة دوناتوس والمسيح، ضد الشيطان أي ضد الكاثوليك. وكانت عصاباتهم تتشكل من رعاع الشعب وأوباشه، ومن المستاءين من مختلف الأجناس والجهات، فكان من بينهم الأهالي الذين لا يتكلمون سوى اللغة البونية، والعبيد الآبقون، والمزارعون Coloni المفلسون، والكاثوليك المفصولون عن المجتمع، والمفلسون، والمجرمون***

---

1 - Monceaux (P.), H.L.A.C., le Donatisme, IV, 1912.
2 - Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'Après le Texte d'Optat, <u>Rev. Afri.</u>, n° 67, 1932, pp.13-28.
3 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine, Paris, de Boccard, 1958.
4- Saumagne, Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ?les circoncellions d'Afrique », <u>A.H.E.S</u>., t.VI, n° 28, 1934, (pp. 351-364).
5- Tengström (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp. 27-31 ; d'après Lancel (S.), <u>C.R</u>. de Tengström, <u>R.E.L.</u>, 1965.
6- Calderone (S.), Circumcelliones, Parola del Passato, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, pp.94-109.

ذوي السوابق، فضلا عن السذج المتعصبين. وكان زعماؤهم إما من الأهالي، أو من الكهنة الدوناتيين. » (1)

يوحي النص أن "مونصو" حذا حذو مصادره الكاثوليكية، وتبنى وجهة نظر خصوم الدوناتيين والدوارين، بحكم احتكاكه المباشر والطويل بعمله الموسوعي "التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية."(*)

ويمكننا أن نتساءل عن السبب الذي دفع بـ "مغامرين" و"لصوص" يعيشون من النهب والسلب إلى اتخاذ موقف من الصراع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين، واختيار الاستشهاد الإرادي ولو عن طريق الانتحار، وحمل ألقاب دينية كالمصارعين وجنود المسيح والقديسين. هذا فضلا عن أن أهدافهم كانت ترتقي إلى الذود عن الضعفاء والفقراء ضد تعسف وظلم الأغنياء.

والحقيقة أنه لو كان الدوارون مجرد عصابات من المغامرين واللصوص، وخليطا –حسب مونصو– من العبيد الآبقين والمزارعين المفلسين والمجرمين، لما نظر إليهم قانون "هونوريوس" سنة 412م على أنهم فئة اجتماعية متجانسة نوعا ما. إذ لا يعقل – كما ذكر "صوماني" *Saumagne*–(2) ، أن يعترف المشرع بالوجود الشرعي لعصابات من قطاع الطرق والخارجين عن القانون. ولو كان ذلك صحيحا لكان من السهل على ذلك المشرع أن يأمر بسجنهم وأن يخضعوا للعقوبات المنصوص عليها في قانون 412م.

1- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 180-181.

**– جاء عمله في سبعة أجزاء كتبها خلال الفترة الممتدة من 1901 م إلى 1923م:*

-Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion Arabe.

I– Tertullien et les origines, Paris, 1901.
II– Saint Cyprien et son temps, 1902.
III– le IV eme siècle, d'Arnobe à Victorin, 1905.
IV– le Donatisme, 1912.
V– Saint Optat et les premiers écrivains donatistes, 1920.
VI– la littérature donatiste au temps de Saint Augustin, 1922.
VII– Saint Augustin et le Donatisme, 1923.

2 - Saumagne (Ch.), Ouvriers Agricoles…, pp. 353-354.

وترى "أوديت فانيي" (*O. Vannier*) أن الدوارين في بغاي كانوا يشبهون جماعات من المتسولين والمساكين (*Meskines*) التي شوهدت قبل سنوات (من سنة 1926م) [*] وهي تجوب مناطق مختلفة من الجزائر، نتيجة الصعوبات الاقتصادية التي انجرت عن حالة البلاد آنذاك. [1]

يبدو أنه من غير المنطقي تأييد وقبول هذا الرأي، لأن قانون 412م لم يكن ليرفع جماعات من المتسولين إلى مرتبة "أوردو" (*Ordo*)، أي فئة اجتماعية لها عضويتها في المجتمع الإفريقي آنذاك، وأن يفرض عليها دفع غرامة مالية قدرها عشرة أرطال من الفضة!

وإذا كان "صوماني" قد اعتبر الدوارين مجرد رحل لا يملكون الأراضي و"عمال فلاحيين"، [2] يتنقلون من ضيعة لأخرى بحثا عن العمل وعن القوت في الضيعات أثناء مواسم جني الزيتون وقطف العنب والحصاد. [3] فإن "فراند" (*Frend*) حاول تحديد نوع الأشغال الفلاحية التي كانوا يمارسونها، ورأى أنهم كانوا يشتغلون في الزياتين المنتشرة في نوميديا الجنوبية شمال الأوراس،[4] أي في المنطقة التي تحدثت المصادر عن تركز عمليات الدوارين فيها.

بينما يرى "مونصو"[5] (*Monceaux*) أن الهراوات (*Fustes*) التي كانوا يستعملونها كسلاح في هجماتهم – حسبما جاء في نصوص أوغسطين–[6] كانت عبارة

*– نشرت أوديت فانيي مقالها بعنوان: « الدوارون وعلاقتهم بالكنيسة الدوناتية من خلال نص أوبطاتوس الميلي » ، المجلة الإفريقية، عدد 67، 1926. *Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n°.67, 1926, pp.13-28.*

1- Vannier (O.), Ibid., pp. 26-27.

2- Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles…, p. 359.

3- Ibid., pp. 360, 363.

4- Frend (W.H.C.), Circumcellions and monks, J.T.S., pp. 542-549.

5 - Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P.181.

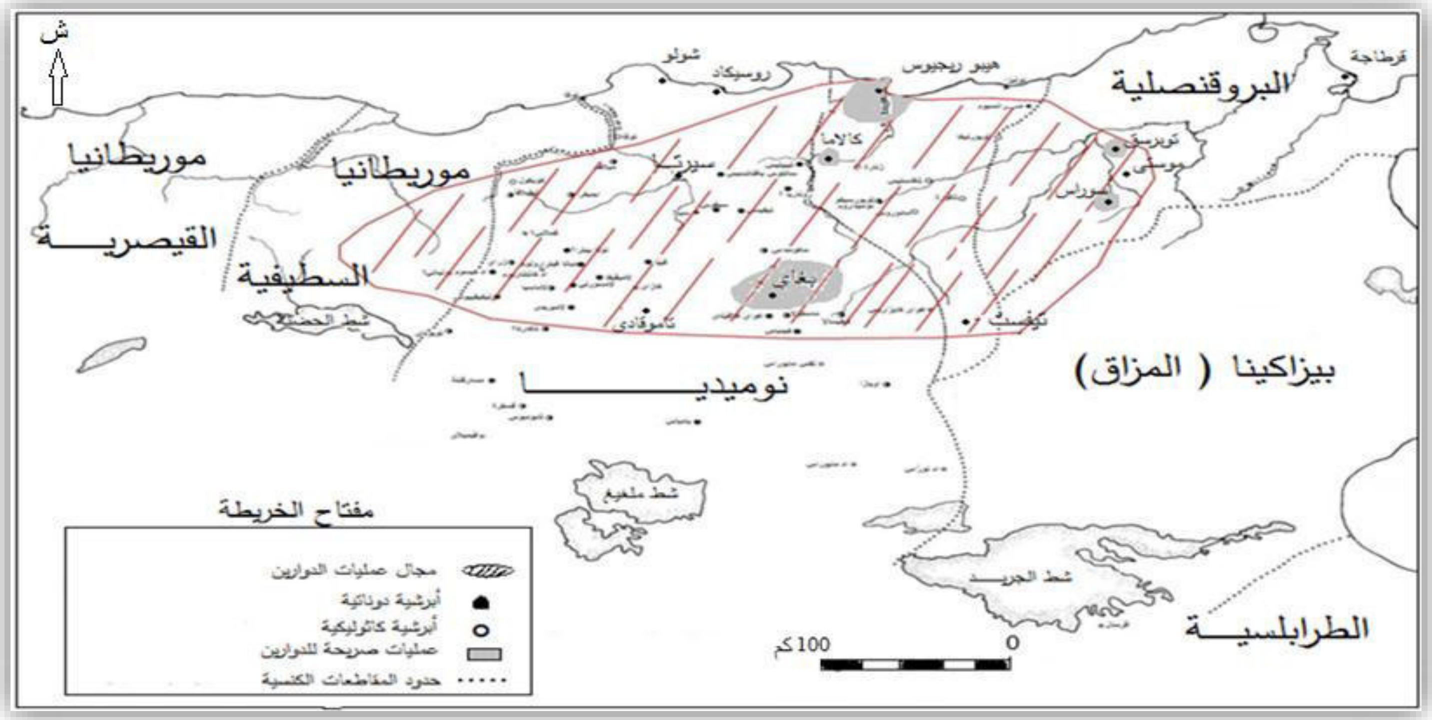
6- Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 144-163.

عن مخابط كانوا يستخدمونها في قطف الزيتون (*Perticae*). [1] وعلى هذا الأساس فإن "الأهراء الريفية" (*Cellas rusticanas*) التي كانوا "يحومون" حولها حسب تعريف "أوغسطين"، [2] كانت بالأحرى "مخازن للزيت" (*Cellae oleariae*). [3]

يبدو من الغريب أن يكون القديس "أوغسطين" قد أهمل الإشارة إلى أن هراوات الدوارين التي كانوا يعطونها الاسم الديني "إسرائيلات" (*Israëls-Israeles*) [*] عبارة عن مخابط الزيتون. [4] ذلك أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى تدعيم مساجلاته الكلامية مع الدوناتيين، بتضخيم الأسلحة التي كانوا يهاجمون بها الكاثوليك.

يظهر أن مجال عمليات الدوارين قد توسع مع مرور الزمن حيث شملت عملياتهم معظم مناطق نوميديا في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للميلاد، ولم تبق مركزة في نوميديا الجنوبية شمالي الأوراس فقط. كما لا يمكن إنكار وجودهم في شمال نوميديا في منطقتي هيبو- ريجيوس (عنابة) وكالاما (قالمة) على وجه الخصوص، كما امتدت شرقا إلى مدن البروقنصلية مثل موستي وتبورسيكوم بوري (تبرسق) وأسوراس . (أنظر الخريطة رقم 10 ص 521).

1 - Frend (W.H.C.), Circumcellions and monks, Op.cit., p. 543
2- Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVII, 31-XXIX, 33.
3- Frend (W.H.C) Circumcellions and monks, Op.cit., p. 543.
- يرى سيمون أن للكلمة أصلا فينيقيا- بونيا حسب الاشتقاق اللغوي : "إسرا" و"إيل" وتعني جنود الله، أو عساكر الرب.
- Simon (M), le judaïsme Berbère dans l'Afrique Ancienne, Revue d'Histoire et de philosophie religieuse (R.H.Ph.R), XXVI, Strasbourg, 1946, p. 21 ; (repris dans ; Recherches d'histoire judéo- chrétienne, Paris –la Haye, 1962, p.46 ; Monceaux (P.), H. L. A.C., IV, P. 181 ; Moliner- Violle, Timgad, ses fouilles et ses découvertes, imprimerie F. Soldati, Batna, 1891, P.12.
4- Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 144-163.



الخريطة رقم 10: مجال حركة الدوارين في القرنين 4-5م

<u>نقلا عن</u>: محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305-429م)، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 2001، ص 362. (بتصرف الباحث)

وهكذا نرى أن المهتمين بحركة الدوارين والدوناتية من الكتاب الأفارقة المعاصرين لهم ("أوبطاتوس" و"أوغسطين") ومن الباحثين المحدثين، قد انقسموا إلى تيارين:

التيار الأول: يركز على ظروف الدوارين الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي، مع إمكانية الاختلاف حول ما إذا كانت للحركة أهداف ثورية [1] أم لا؟ [2]

والتيار الثاني: يرى أن حركة الدوارين حركة دينية في الأساس، فهم إما نوع من الرهبان، [3] أو فرق متنقلة بين أضرحة الشهداء المتناثرة في الأرياف الإفريقية. [4]

وإذا كان "صوماني" قد دافع عن رأيه – السابق الذكر–باعتبار الدوارين "عمالا فلاحيين"، فإن الإيطالي "كالدرون" دافع هو الآخر عن أطروحته التي تعتبر الدوارين "رهبانا"، ويرفض رفضا تاما أن يكون الدوارون عمالا فلاحيين.

ويعتمد "كالدرون" في تبرير أطروحته على برهانين أساسيين هما:

1–يذكر "كالدرون" نص ينسب لـ "إيزيدور الإشبيلي" يشير فيه إلى: ***« أن الدوارين كانوا على صفة الرهبان يتجولون في كل مكان، متنقلين عبر الأقاليم، لم يبعث بهم إلى أي مكان، ولم يستقروا في مكان واحد، بل كانوا دائمي التنقل. »*** [5]

2–يرى "كالدرون" أن الأمر يتعلق بتأويل كلمة "*Cotopita*" [6] التي ورد ذكرها عند "إيزيدور الإشبيلي" وهي مرادفة في المعنى لكلمة *Circumcelliones*: يطلق على الدوارين اسم *Circumcelliones*، فهم "ريفيون" (*Agrestes*)، ويسمون أيضا *Cotopitas* التي هي كلمة إغريقية مرادفة للكلمة اللاتينية *Circelliones*. [7]

1- Brisson (J.P), Autonomisme et christianisme…, Op .cit, p.341.
2- Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965, p. 639.
3- Calderone (S.), Circumcelliones…., Op.cit., p.108.
4- Frend (W.H.C.), J.T.S., 1952, pp. 87-90.
5- Calderone (S.), Op.cit., pp. 100-101.
6- Ibid., pp. 102-105.
7- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., pp. 308-310.

ويعتقد "كالدرون" أن *Cotopita* كلمة قبطية مكونة من شقين: *Ket* (من فعل *Kôet* المرادف للاتيني *Circumuire*: بمعنى دار حول) و*aouvèt* بمعنى: "تجمع للنساء" أو "صومعة الرهبان"، والكلمة المركبة *Két-aouvèt* كانت تنطق *Kétaubit* وبالتالي أعطت *Cotopita* باللاتينية. (1) وهكذا أصبحت كلمة *Cotopita* تعني: " الذي يدور حول بيع الرهبان" وبما أنها مرادفة للكلمة اللاتينية *Circumcellio*، فإن كلمة *Cella* ينبغي أن تفهم بمعنى "بيت الراهب". لذلك وانطلاقا من هذه المقاربات فإن الدوارين كانوا رهبانا متنقلين بين "تجمعات الرهبان" في البوادي الإفريقية.

يبدو أنه من غير الممكن الاعتماد على الإشارات التي أوردها "كالدرون" (*Calderone*) لتدعيم أطروحة الدوارين الرهبان. إضافة إلى أن الكتاب اللاحقين لأوغسطين وقعوا –دون شك–في خلط بين الرهبان المتنقلين الكاثوليكيين (*Moines gyrovagues*) وبين الدوارين. هؤلاء الرهبان الذين انحرفوا عن قواعد الرهبنة بسرعة وبدأوا يغادرون بيعهم للتسكع بين القرى. (2) أما البراهين التي قدمها "كالدورن" فلا تعدو أن تكون مجرد افتراضات.

ومن جهة أخرى فإن الدوناتيين كانوا يعارضون مؤسسة الرهبنة نفسها، على حد قول "أوغسطين" في رده على رسالة "بتيليانوس" (*Petilianus*) أسقف سيرتا:« ***وبعدئذ بدأ ذلك الفم (فم بتيليانوس) الطافح بالشتائم يصب اللوم على الرهبان والأديرة. إنه يأخذ علي أيضا كوني أسست هذا النمط من الحياة. إن بتيليانوس لا يعرف شيئا عن نمط الحياة هذا، أو بالأحرى أنه يتظاهر بجهل شيء معروف جيدا لدى العالم أجمع.*** » (3)

1 - Calderone (S.), Op.cit., pp. 103.107.
2 - Augustin (St.), Epist., CCLXII, 5.
3- Id., Cont. Litter. Petil., III, 40, 48.

يستفاد من النص أنه من غير المنطقي أن يقول "بتيليانوس" ما قاله لو كان الدوارون رهبانا. وحتى لو كانوا "نوعا" من الرهبان، فلماذا لم يغتنم "أوغسطين" الفرصة ليظهر محاسن رهبانه ونظامهم، وعيوب خصومة وفوضويتهم؟ كما أن الدوارين لو كانوا "رهبانا متنقلين"، فمن الصعب عليهم امتلاك الثروة الكافية حتى يفرض عليهم القانون غرامة مالية قدرها عشرة أرطال من الفضة (قانون "هونوريوس" سنة 412 م)، فالناسك – مبدئيا– لا يملك الثروات.

من هم هؤلاء الدوارون إذن، ما مكانتهم في المجتمع؟ وما هو نشاطهم الاقتصادي؟

يتضح مما سبق عرضه من مختلف الأطروحات التي حاولت تفسير ماهية الدوارين أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية (*أوردو- Ordo*) تتألف من رجال أحرار يعيشون في الأرياف الإفريقية، وينتمون–في معظمهم – إلى أصل إفريقي غير مترومن. وكانت مكانتهم الاجتماعية وضيعة، رغم أن نصوص الكتاب الكاثوليك تشير إليهم على أنهم كانوا خليطا من اللصوص وقطاع الطرق والخارجون عن القانون والمغامرين.

إلا أنه لا يمكننا قبول هذه النظرة الأحادية لأن الكاثوليك هم خصومهم فكان من الطبيعي أن يصفوهم بتلك الأوصاف. ومن جهة أخرى فإن الاشتقاق اللغوي لكلمة "دوارين" *circumcelliones* هم أنهم أولئك الذين يدورون ويحومون حول مخازن المؤن ومستودعات الحبوب الموجودة في الضيعات، وكما أن *Cellas rusticanas* لا تعني بيوت الرهبان ولا أضرحة الشهداء بقدر ما تشير إلى الأهراء الريفية. لذلك كان الدوارون –على الأرجح– جماعات من الرحل تبحث عن العمل في الضيعات خلال المواسم الفلاحية (حصاد، قطف العنب والزيتون) وهي تجوب مختلف الأرياف والبوادي الإفريقية، وقد تحصل على مبتغاها باستعمال القوة. وما دفعها الى ذلك الضيم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي الذي مارسه كبار الملاك بمباركة السلطة الرومانية.

وكان من الطبيعي، أن واقع الدوارين الاقتصادي كعمال فلاحيين متنقلين لا ينفي أن يكون لهم واقعا دينيا، لتطلق عليهم عدة تسميات ونعوت "كجنود الله" و"عساكر الدوناتية" و"المصارعين" و"جنود المسيح" وغيرها، وهم يهاجمون الكنائس والأساقفة الكاثوليك، ويزورون أضرحة الشهداء. فلا يجوز إذن تجريد الدوارين من كل السمات التاريخية التي ظهروا بها خلال الصراع الطويل بين الكاثوليكية والدوناتية.

الفصل الثاني

طبيعة حركة الدوارين

المبحث الأول- سمات الدوارين في كتابات أوغسطين

أولا – سمات الدوارين قبل سنة 347م

ثانيا- سمات الدوارين بعد سنة 347

المبحث الثاني: سمات الدوارين الاجتماعية والدينية

أولا- تسميات الدوارين الدينية

ثانيا- الانتحار الإرادي أو الاستشهاد عند الدوارين

ثالثا- تبجيل رفات الشهداء

خلدت الكتابات المعاصرة واقع الدوارين الاقتصادي قبل تخليد واقعهم الديني. لذلك فإن إشكالية الدوارين لا تنحصر في تحديد واقعهم الاقتصادي، بل كان من الضروري البحث عن طبيعة حركتهم وسماتها حتى يتسنى إلقاء مزيد من الضوء على هذه الفئة من المجتمع الإفريقي خلال الفترة الرومانية من تاريخ المغرب القديم. في هذا السياق أعالج في هذا الفصل طبيعة حركة الدوارين وسماتها الاجتماعية والدينية التي اتسمت بها على مدى تاريخها وصراعها الطويل مع الكاثوليكية قبل سنة 347م وبعدها، من خلال المصادر الكاثوليكية والدراسات الحديثة.

المبحث الأول–سمات الدوارين في كتابات "أوغسطين": يمكن أن يكون "أوغسطين" قد بالغ نوعا ما في ذكر عدد انتحارات الدوناتيين، لكن يبدو أنه من الصعب التقليل من أهمية شهادته. وفي نفس الوقت يتعذر قبول تصريحات "أوغسطين" والكتاب الكاثوليك دون تمحيص وتدقيق. لذا كان علي أن أتناول هذه النصوص بكثير من الحذر والحيطة وألا أنزلق وراء قناعات المجادلين الكاثوليك.

أولا –سمات الدوارين قبل سنة 347م: يشير القديس "أوغسطين" في إحدى النصوص ردا على الأسقف "غودانتيوس" [*] (*Gaudentius*): « ***أن المنتحرين نادرا ما كانوا يلجأون إلى "الماء والنار"، وإنما كانت المنحدرات الجبلية هي التي تبتلع منهم الفرق العديدة.*** » [1]

وتحدثنا المصادر عن حادثة أخرى تركت أثرا بالغا في تاريخ الشهداء الأفارقة في القرن الرابع الميلادي، وأثارت نقاشا حادا بين الكاثوليك والدوناتيين. إنها حادثة وفاة "ماركولوس" (*Marculus*) أحد الأساقفة الدوناتيين الذين هلكوا أثناء مقاومتهم "قانون

---

*– *هو أسقف تيمقاد الدوناتي، أحد المثقفين الدوناتيين، وأول دوناتي هاجم القديس "أوغسطين" مباشرة، وكان أحد ممثلي الدوناتية السبعة في مناظرة قرطاجة سنة 411م.* *-Lancel (S.), Actes de la conférence de Carthage en 411, t. II, S. C., n° 195, Paris, 1972, p. 414.*

يجهل تاريخ ومكان ولادته، وحسب "مونصو" فقد ولد في تيمقاد في حوالي سنة 355م، ومارس مهنة "نحوي" Grammaticus، بتعليم الأطفال قواعد النحو والأدب. *- Monceaux (P.), H. L. A. C., VI, p.193.*

1-Augustin (St.), Cont.Gauden., I, XXVII, 31, XXIX, 33.

الوحدة"، القانون الذي أصدره الإمبراطور "قنسطانس" (*Constance*) سنة 347م والذي قام بتنفيذه المبعوثان الإمبراطوريان "بولوس" *Paulus* و"مكاريوس" *Macarius* ضد الدوناتيين خاصة في نوميديا بصرامة شديدة.

ولما وصل المبعوثان الإمبراطوريان إلى نوميديا أرسل الأساقفة الدوناتيين عشرة ممثلين عنهم إلى "مكاريوس" لمحاولة إقناعه بالعدول عن استعمال العنف معهم و"إسداء النصح إليه كي يرجع عن غيه" حسب ما ذكره "بول مونصو". [1] غير أن "مكاريوس" عامل وفد الدوناتيين بازدراء وأمر بجلد الأساقفة، بل احتجز أكثرهم صلابة-وهو الأسقف ماركولوس *Marculus*- وطوف به في المدن النوميدية إلى أن لقي حتفه.

وأكد الدوناتيون فيما بعد أن جلادي "مكاريوس" ألقوا به حيا من أعلى جرف جبل بمنطقة "فيجيزيلا" *Vegesela* (قصر الكلب حاليا قرب خنشلة) بالشرق الجزائري، بينما ادعى الكاثوليك أنه انتحر بهذه الطريقة.[*]

وأيا كان سبب وفاة "ماركولوس"، فإن ذكراه ظلت خالدة في أذهان الدوناتيين، فأقاموا له ضريحا عثر عليه في كنيسة فيجيزيلا "*Vegesela*". [2]

لقد أثارت حادثة وفاة "ماركولوس" ضجة تاريخية وجدلا ظل قائما بين الدوناتيين والكاثوليك حول ظاهرة الاستشهاد أو "الانتحار".

وهكذا كانت بعض الطبقات الشعبية تميل إلى تقديس الشهداء ورفاتهم، لذلك كانت تحاول تقليدهم وإتباع نهجهم في نوع الوفاة التي اختاروها واشتهروا بها.

ثانيا-سمات الدوارين بعد سنة 347م: شهدت مدينة "بغاي" "*Bagai*" حادثة أخرى مماثلة لتلك التي عرفتها منطقة "فيجيزيلا" والتي أدت الى وفاة الأسقف "ماركولوس"

1-Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp.69-81

*- *يتناقض أوغسطين في تصريحاته، فبينما يرجح الانتحار على القتل، نراه في نص آخر يعترف بأنه لا يملك الدليل والحجة على ذلك.* *-Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, XX, 46 ; Cont. Cresc., III, XLIX, 5*

2- Cayrel (P.), Une Basilique donatiste…, Op.cit., pp. 114-142 ; Courcelle, (P.), une seconde campagne de Fouilles…, Op.cit., pp.166-167.

Marculus. يمكننا في هذا السياق أن نتساءل: هل كان المنتحرون من الدوناتيين يشكلون "فرق كاملة" كما ادعى "أوغسطين" أو أن هناك مبالغة في عددهم؟ وأن الانتحارات لا تعدو أن تكون حالات فردية معزولة هنا وهناك شهدتها بعض المدن والأرياف النوميدية؟

أثارت حادثة مدينة "بغاي" "*Bagai*" وهي حادثة مماثلة لتلك التي عرفتها منطقة "فجيزيلا" قبل انعقاد مناظرة قرطاجة سنة 411م، نقاشا حادا بين الدوناتيين والكاثوليك في المناظرة.

يلخص "أوغسطين" النقاش الذي شهدته مناظرة قرطاجة فيما يأتي: « ***... لكن الدوناتيين أثاروا -من جديد- النهاية الأليمة التي عرفها بعض أصحابهم (*) في مدينة بغاي. وكان هدفهم من ذلك التدخل تضخيم الاضطهاد الذي يدعون أنهم يعانون منه، فكان جواب الكاثوليك أن أولئك الناس لقوا حتفهم خلال المقاومة التي نظمت ضد أعمالهم العنيفة، ذلك العنف الذي هددوا به القاضي نفسه. كما ذكر الكاثوليك بالجرائم الشنيعة التي اقترفوها في تلك المدينة حيث أحرقوا الكنيسة ورموا الكتاب المقدس في النار. أما نهايتهم الأليمة، فتعزى – على ما يبدو- إلى عادتهم في الانتحار بالارتماء من أعلى المرتفعات.*** » (1)

نلاحظ في هذا النص التناقض بين التفسير الأول الذي أعطاه الكاثوليك لموت الدوارين. ففي البداية، أكدوا أن الدوارين سقطوا « لقوا حتفهم خلال المقاومة التي نظمت ضد أعمالهم العنيفة » في اشتباك (هل مع أنصار الكاثوليك، أو مع قوات الأمن؟ لا ندري؟). والتفسير الثاني الذي يعزو مقتل الدوارين إلى «عادتهم في الانتحار ».

لذلك نتساءل عما إذا كان "أوغسطين" لم "يخفف" في عداد المنتحرين الذين سقطوا تحت ضربات الجيش أو خلال الاشتباكات التي كانت تقع بين مناصري الكنيستين المتناحرتين الدوناتية والكاثوليكية؟

---

*- *المقصود بهم هنا : الدوارين.*

1-Augustin (St.), Brev. Collat., III, XI, 23.

ويمزج "أوغسطين" في نص آخر بين التفسيرين إذ يقول: « ***وإذا حصل أن لحقتهم المنية، فإن ذلك يرجع إلى كونهم يقتلون أنفسهم أو كونهم يقتلون في حالة تلبس بجريمة العنف الدموي، لا بسبب اعتناقهم للدوناتية، ولا بسبب انشقاقهم المدنس، ولكن لقاء جرائمهم التي يقترفونها يوميا على غرار اللصوص، ويجنون وقسوة لا يتصوران.*** » (1) ففي هذه الحال كيف يمكن التمييز بين "المنتحرين" و"القتلى"؟ وكيف يمكن إعطاء تقدير لأهمية وانتشار ظاهرة "الاستشهاد الإرادي" عند الدوارين؟

يتحدث "أوغسطين" عن آلاف المنتحرين في المؤلف الذي كتبه ردا على الأسقف الدوناتي" غودانتيوس" (*Gaudentius*). (*)

وقد رد "غودانتيوس" في رسالته إلى الوكيل الإمبراطوري "دولكيتيوس"(**) (*Dulcitius*) قائلا: « ***أليس اضطهاد هذا الوضع هو الذي دفع آلاف الشهداء الأبرياء إلى الموت؟ إن المسيحيين وجدوا في المحرقة طريقا مختصرا لانتزاع أرواحهم من الوسخ المدنس...*** » (2)

ماذا كان يقصد "غودانتيوس" بآلاف المسيحيين؟ هل كان يعني تضخيم عدد الدوناتيين الذين احتموا معه في كنيسة تيمقاد، وهددوا بحرق أنفسهم مع الكنيسة إذا ما أقدم الوكيل " دولكيتيوس" على انتزاعها منهم وتسليمها للكاثوليك؟ أو أنه كان يقصد مجموعات أخرى من الدوناتيين أقدموا بالفعل على الاحتراق؟

مهما كان الأمر، فإن "أوغسطين" أجاب على تلك التساؤلات، وكان جوابه واضحا ومقصورا على الدوناتيين إذ قال:« ***من منا يجهل كيف أن العديد من أولئك (يقصد***

1-*Augustin (St.), Ad donatistas post collationen, XVII, 22.*

*- يؤرخ كتاب أوغسطين "الرد على غودانتيوس أسقف الدوناتيين *Contra Gaudentiun donatistarum episcopum*" في الفترة ما بين سنة 418م وسنة 420م حسب مونصو. *- Monceaux (P.), H.L.A.C., VI, pp. 189-199.*

**- هو الوكيل الإمبراطوري المكلف بتطبيق القوانين الصادرة ضد الدوناتيين، الذي أصدر في حوالي سنة 420م قرارين يقضيان بإرجاع ما بقي بيد الأساقفة الدوناتيين من كنائس إلى الكاثوليك. *Augustin (St.), Cont. Gaud., I, XXVI, 29; XXVII, 30-31.*

2-*Ibid., I, XXVIII, 32.*

الدوارين) كانوا قديما يتعاطون كل أشكال الانتحار، وكيف قل الآن نسبيا عدد الذين يلقون بأنفسهم أحياء في الحرائق التي يشعلونها؟ لكن إذا كنت تعتقد أننا سوف نتأثر لآلاف الرجال الذين يقضون على حياتهم بهذا الشكل، فتصور مدى الارتياح العميق الذي نشعر به لكون آلاف الآخرين – وهم أكثر بكثير– بدأوا يتحررون من الحماقة المجنونة لحزب "دوناتوس"... » . (1)

ويذكر "أوغسطين" في نفس السياق: « ***...نعم ! إن أولئك الذين يحرقون أنفسهم لا يتعدى عددهم حتى عدد المحلات الأهلية جدا بالسكان، والتي خلصتها الإجراءات الرسمية،*** (*) ***من كارثة ذلك الانشقاق وذلك الجنون*** » . (2)

يبدو أن ضرورة الجدل الكلامي دفعت "أوغسطين" إلى المبالغة في عدد المنتحرين لإلقاء المسؤولية على الدوناتيين، ومن جهة أخرى أملت عليه تصريحات أخرى بأن يقلل من عدد المنتحرين ليظهر "إيجابيات" تدخل السلطة الرسمية ضد المنشقين.

كان الدوارون – حسب "أوغسطين"– يلجأون إلى الانتحار الإرادي عندما لا تتيح لهم ظروف الاضطهاد فرصة الاستشهاد في المعارك، بل يصل بهم الجنون أحيانا، إلى إرغام الآخرين على قتلهم. (3)

ويقدم "أوغسطين" تفسيرا تاريخيا لهذه الظاهرة قائلا: « ***إن أولئك الذين استطعتم إقناعهم بفكرة اقتراف هذا الإثم (أي الانتحار)، ينتمون في الواقع إلى سلالة أولئك الرجال الذين اعتادوا في القديم أن يقوموا بنفس العمل، فكانوا يرتمون على جماهير المشركين (Pagani) الذين أشهروا أسلحتهم وهم يتأهبون لإقامة شعائرهم الدينية. وكان هؤلاء المشركين ينذرون لأوثانهم كل الضحايا الذين يسقطون بين أيديهم. أما المتعصبون السذج، فكانوا يهرعون إليهم***

1- Augustin (St.), Cont. Gaud., I, XXIX, 33.

– المقصود بها تلك القوانين التي طبقت على الدوناتيين من سنة 412م إلى سنة 420 م تاريخ صدور كتاب أوغسطين " الرد على غودانتيوس أسقف الدوناتيين". *Monceaux (P.), H.L.A.C., VI, p. 189.*

2- Augustin (St.) , Cont. Gaud., I, XXIX, 33.

3 - Id., Ad Cath., XIX, 50 ; Epist., CLXXXV, IV, 15 ; Cont. Gaud., I, XXVII, 31.

جماعات من كل جانب، ويلقون بأنفسهم على الحراب الثاقبة. وهكذا كانوا يحصلون في نوبتهم الجنونية على الموت، وفي حالتهم المتعفنة على ضريح، وفي خداعهم على مقدسين » . (1)

هل كان الدوارون فعلا يرون في الارتماء على سلاح الآخرين نوعا من مقاومة فعالة لاضطهاد السلطة الرسمية لهم، شأنهم في ذلك شأن المسيحيين الأوائل؟ ذلك أن الدوناتيين كانوا يعتبرون أن الكاثوليك مضطهدين لهم.

يبدو أن ادعاءات "أوغسطين" بأن المنتحرين كانوا يرغمون الآخرين على قتلهم بعيدة عن المنطق ولا يقبلها العقل. فالأسقف الدوناتي"غودانتيوس" *Gaudentius* الذي هدد الوكيل الإمبراطوري "دولكيتيوس" *Dulcitius* بحرق نفسه مع مجموعة من أتباعه داخل كنيسة تيمقاد يقول: « ***في هذه الكنيسة، حيث ظل اسم الله ومسيحه يعبد دوما بحق من لدن رعية عديدة- وذلك حسب اعترافك نفسك-*** (*) ***فإما أن نبقى على قيد الحياة ما شاء الله من الأيام، وإما أن نضع حدا لحياتنا في حرم هذا المعسكر الرباني كما يجدر بعائلة الرب. ولكن بهذا الشرط: أن يمارس علينا العنف، عندئذ يقع التنفيذ. فليس هناك أحد يصل به التهور إلى الجري وراء الموت إذا لم يرغم على ذلك. »*** (2)

يتضح من النص أن الأسقف "غودانتيوس" كان مثالا تاريخيا فريدا في الرد على ادعاءات "أوغسطين" بالحجة والبرهان. فإذا كانت وفاة الأسقف " ماركولوس" (*Marculus*) ظلت مثار جدل ونقاش بين الكاثوليك والدوناتيين، أي بين القائلين بانتحاره (وهم الكاثوليك) والمؤكدين بقتله (وهم الدوناتيون). فإننا نجهل كيف انتهت قصة "غودانتيوس" وأتباعه في كنيسة تيمقاد.

لكن المؤكد أن الرجل أخذ الوقت الكافي لتبادل الرسائل مع "دولكيتيوس" التي حولها بدوره إلى "أوغسطين" والذي رد عليها في كتابه الشهير: "*الرد على غودانتيوس أسقف الدوناتيين*" "*Contra Gaudentium donatistarum épiscopum*" في

1- *Lepelley (C.) , «Juvenes et circoncellions : les derniers sacrifices humains de l'Afrique Antique », Ant. Afr., 15, 1980, pp. 261-271.*

*- *يخاطب غودانتيوس الوكيل الإمبراطوري" دولكيتيوس " المكلف بتنفيذ الأحكام التي صدرت ضد الدوناتيين.*

2- *Augustin (St.), Cont. Gauden., II, XIII, 14.*

حوالي سنة 420م. واشترط من جملة ما اشترطه أن يتعرض هو وأتباعه للاضطهاد من قبل السلطة الرسمية ممثلة في الوكيل الإمبراطوري "دولكيتيوس" ليقيم الحجة عليها ويقدم على تنفيذ فعلته وتهديده بالاحتراق داخل الكنيسة.

وفي اعتقادي أن الإنسان لا تصل به الجرأة ودرجة التهور إلى الحد الذي يقدم فيه على الانتحار دون سبب ودون أن يرغم على ذلك. فالأقرب إلى الصواب، أن الدوارين كانوا –على الأقل–يدفعون الكاثوليك وقوات الأمن للاشتباك حتى يحصلوا على الاستشهاد.

يمكن أن نستنتج مما سبق، أن "أوغسطين" ربما بالغ في ذكر عدد المنتحرين وأنه–أحيانا على الأقل–كان يحسب في عدادهم ضمنيا القتلى الذين سقطوا في المعارك مع قوات الأمن والجيش أو مع أنصار الكاثوليك.

المبحث الثاني–سمات حركة الدوارين الدينيـة: تتميز حركة الدوارين بمجموعة من السمات الاجتماعية والدينية التي اتسمت بها على مدى تاريخها وصراعها الطويل مع الكنيسة الكاثوليكية، يمكن أن أذكر بعض تلك السمات فيما يأتي:

أولا–تسميات الدوارين الدينية: ورد ذكر تسمية "الدوارين" في أقدم نص عند "أوبطا الميلي" (*) وهو يتحدث عن تلك الجماعات التي استنفرها " دوناتوس" الأسقف الدوناتي بمدينة بغاي (*Bagai*) لمقاومة البعثة الإمبراطورية وبناة الوحدة وهم يحملون الهدايا والهبات سنة 347م. (1) أما في القوانين الإمبراطورية فقد وصلتنا هذه التسمية في بداية القرن الخامس الميلادي. (**)

**– وردت أول إشارة إلى الدوارين في كتابه "ضد الانشقاق الدوناتي" (De Schismate Donatistarum) والذي يعود تأليفه إلى حوالي 366–367م.*

- Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp. 241-263.

1- Optat (St.), III, 4.

***– من أهم هذه القوانين، قانون "هونوريوس" الصادر في 30 جانفي سنة 412م، وهو أول قانون يشير صراحة إلى الدوارين.*

ولما كان الدوناتيون أنفسهم يعتبرون هذه التسمية وصفا يحمل الكثير من التحقير والازدراء، فقد أطلقوا على الدوارين اسم "المناضلين" (*Agonistici*)، وهي التسمية نفسها التي استعملها القديس "أوغسطين": « ***... ربما سوف يقول الدوناتيون: إن ذوينا لا يحملون اسم "دوارين"، أنتم (الكاثوليكيون) الذين تسمونهم بهذا الاسم لإهانتهم... أما هم (الدوناتيون) فيسمونهم "مناضلين" (Agonistici).*** » (1)

وقد اختلف الباحثون والمؤرخون المحدثون حول هذه التسمية. حيث تعتقد "أوديت فانييه" (*O.Vannier*) أن أسقف بغاي الدوناتي منح لقب "المناضلين" وربما "الزعماء القديسين" (*Duces sanctorum*) للدوارين، اعترافا لهم بالجميل بعد أن هاجموا الفرقة العسكرية المرافقة للبعثة الإمبراطورية التي كانت تحمل الهدايا والهبات للسكان. ودون أن يشعروا فقد واجهوا "بناة الوحدة" (*Operarii Unitatis*)، وبذلك فقد خدم الدوارون مصالح الكنيسة المنشقة. (2)

ويرى "بريصون" (*J.P.Brisson*): « ***أن هذا اللقب قد أطلق تلقائيا على أولئك العمال الفلاحيين الذين، منذ ما قبل سنة 347م، أخذوا مبادرة الثورة للدفاع عن رفاقهم، فكان يقال آنذاك: "الدوارون المناضلون" تماما كما نقول اليوم: "العمال المناضلون".*** » (3)

وهكذا – وحسب سياق يسهل إدراكه وملاحظته في أيامنا هذه– فإن الرعب الذي استلهمه القادة الثوريون قد شمل شيئا فشيئا كل أفراد الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، حتى أصبحوا ينعتون فقط بالدوارين. ودون شك، هل يمكن أن نفهم هذا اللقب بهذا المعنى عند "أوغسطين"؟ وهكذا، وحسب "بريصون"، فإن "أوبطا الميلي" وحده هو الذي احتفظ لنا بالتسمية الأصلية.

يمكن أن نستنتج من كل ذلك، أنه لو أراد "دوناتوس" الأسقف الدوناتي أن ينظم فعلا مقاومة نشيطة ضد حملة "بولوس" و"مكاريوس"، كان من الأفضل عليه أن يستدعي

1-Augustin (St.), Enarr. In Psalm., 132, 6.
2-Vannier (O.), Les circoncellions et leurs rapports avec l'église Donatiste…, pp.25-26.
3-Brisson (J.P.), Op.cit., pp.343-344.

رجال مدربون على القتال والمواجهة بدل "المناضلين". وفي ظل هذه الظروف، فالمسألة لا تتعلق بمعرفة هل انضم جموع الدوارين إلى الدوناتية أم لا؟ ولكن أن نتساءل عن طبيعة العلاقات التي كانت تربط الكنيسة المنشقة بحركة الدوارين الثورية؟

ومن جهة أخرى، وحسب ما ورد في بعض المعاجم والقواميس اللاتينية منها معجم "فليكس غافيو" *Félix Gaffiot* فإن مصطلح "المناضلين" يعني لغويا: الرياضي أو المجالد في الألعاب العمومية. [1]

وقد اقتبس بعض الكتاب المسيحيين هذه المصطلحات الرياضية والعسكرية لوصف الصراع القائم بين المسيحي والعالم الزمني المحيط به، أي الدولة الرومانية. من ذلك أن "ترتوليانوس" (*Tertullianus*) اعتمد هذا الأسلوب في صياغة الأدب المسيحي الإفريقي، حيث كتب دفاعا عن المسيحيين مخاطبا شهداء قرطاجة سنة 202م: « ***... لقد شننتم صراع الحق، ذلك الصراع الذي يلعب فيه الإله الحي دور "رئيس ألعاب المصارعة"، والروح القدس" مدير قاعة التدريب الرياضي"، وتاج الخلد ثمن اكتساب قسط من المادة الملائكية...، لذا فإن مدربكم يسوع المسيح – الذي مسحكم بالروح القدس وهيأكم لهذه المصارعة– أراد قبل أن تدق ساعة الصراع، حرمانكم من الحرية كتدريب مكثف لتمتين قواكم وعزائمكم.*** » [2]

يتضح من النص أن المسيحيين كانوا نوعا من مجالدين في حلبة صراع هي المحكمة، وكان الحاكم يأمرهم باسم الإمبراطور أن يتخلوا عن عقيدتهم وإلا تعرضوا للتعذيب. فالمنتصرون في "الحلبة" هم أولئك المقرون بعقيدتهم (*Confessores*) ولو أدى اعترافهم إلى الشهادة (*Martyrium*)، أما المنهزمون فهم الذين تخلوا عن عقيدتهم المسيحية وقدموا القرابين" للإمبراطور–الإله". [3]

1-Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français,, p.40 :(agon, onis, m : Lutte dans les jeux publics).
2-Brisson (J.P.), Op.cit., p. 304.
3-Lepelley (C.), l'Empire Romain et le Christianisme, Paris, Flammarion, 1969, pp.109-120.

وقد ذكر "أوبطا الميلي" تسمية أخرى أطلقها الدوناتيون على الدوارين، فهم "عساكر المسيح" (*Milites Christi*) المحاربين لعساكر الشيطان الذين تمثلهم السلطة الزمنية الرومانية. (1) كل ذلك يدعو إلى الاعتقاد أن هذه المصطلحات "مناضلين" و"عساكر المسيح" لها مدلول ديني.

ثانيا–الانتحار الإرادي أو الاستشهاد عند الدوارين: تحدث بعض المؤرخين المحدثين عن ظاهرة تقديس الشهداء عند الدوناتيين عامة والدوارين بصفة خاصة. (2) كما تناولتها النصوص الكاثوليكية والتي ربطتها بظاهرة "الانتحار الإرادي" قصد الحصول على درجة "الشهداء".

يشير "أوبطا الميلي" إلى "**الاستشهاد الباطل**" الذي كان ظاهرة متفشية عند الدوارين "المناضلون" حيث كانوا يقومون برمي أنفسهم من أعالي الجروف. (3)

ويذكر القديس "أوغسطين" أن تلك الظاهرة كانت يومية و"عادية" عند الدوارين، وأن طرق الانتحار كانت متنوعة: الارتماء في النار أو من أعلى الجروف، أو الغرق في الماء. (4) بل يلجأ الدوارون أحيانا إلى استفزاز الكاثوليك لتلقي ضربات مميتة. (5)

ونجد طرق الانتحار هذه في نصوص متفرقة للقديس "أوغسطين"، وقد نعثر عليها مجتمعة في نصوص أخرى، منها نص الرسالة التي بعث بها "أوغسطين" إلى الكونت(*) "بونيفاكيوس" (**) (*Bonifacius*) في حوالي سنة 417م والتي جاء فيها:« ***... من ذا الذي حاول الانتقام لضحايا ضرباتهم، اللهم إلا جنونهم هو الذي يعاقبهم؟***

1- *Optat (St.), III, 4.*
2- *Monceaux (P.), H.L.A.C., t. IV, pp.149; t. V, pp.35-47.*
3- *Optat (St.) , III, 4.*
4-*Augustin (St.), Epist., Ad. Cath., XIX, 50 ; Ad donatistas post collationem, XVII, 22 ; Epist., CLXXXV, IV, 15 ; Contra Gauden., I, XXVII, 30.*
5-*Ibid., I, XXVII, 31.*

*- ***الكونت*** *Conte* ، *قائد الجيش في إفريقيا، وهو منصب استحدثه الإمبراطور قسطنطين الذي عين عددا من أتباعه في مهام متنوعة، وكان كونت إفريقيا يعوض الوالي Vicerius أو يعمل قائدا للجيش. أنظر أعلاه، ص 427.*

- ***بونيفاكيوس*، *كان وكيلا عسكريا مكلفا من قبل الإمبراطور هونوريوس بتنفيذ القوانين التي صدرت ضد الدوناتية وتصفية الانشقاق الدوناتي، أنظر أعلاه، ص 475.*

فبعضهم يوجهون إلى صدورهم سيوف الآخرين ويهددونهم بالموت كي يضربونهم الضربة القاضية، وبعضهم يقضون على حياتهم بالماء أو النار في كل مكان، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة كالحيوانات في عذاب جسدي حكموا به على أنفسهم. » (1)

يبدو إذن أننا أمام ظاهرة دينية هي أقرب ما تكون إلى "الصوفية"، ناتجة ربما عن تعصب ديني يمكن وصفه بـ "البدائي". (*)

ومن ثم اتجه بعض الباحثين إلى القول بأن الدوارين لم يكونوا إلا فرقة دينية متعصبة. (2) بينما كان يرى آخرون أن تصرفات الدوارين في تعاطيهم "الانتحار الإرادي" إما يعود إلى تلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية المزرية التي كان يعيشها الدوارون. (3)

ثالثا-تبجيل رفات الشهداء: ترتبط ظاهرة الاستشهاد بظاهرة أخرى لها مكانتها وأهميتها عند الدوناتيين، وهي تبجيل الشهداء وتقديس رفاتهم، وإقامة الأضرحة لهم في الكنائس: (*Martyria*) (**) وحسب نص "بياتوس" نقله "مونصو":« ***فإن الدوارين كانوا يمكثون طويلا في زيارة أضرحة الشهداء. »*** (4)

1- Augustin (St.), Epist., CLXXXV, IV, 15.

- يرى "ج. بول بريصون" أن ظاهرة الانتحار لها ما يماثلها في حركات دينية أخرى ذات طابع شعبي كحركة " المؤمنين القدامى" "Vieux – croyants" في روسيا. وبالرغم من أن "بريصون" أفرد فصلا كاملا عن الشهداء (ص ص 288-323) في القسم الثاني من كتابه الشهداء والدوارون (ص ص 243-410)، إلا أنه لم يتناول ظاهرة الانتحار عند الدوارين إلا في جملتين وهامش (ص 350-351 وهـ 1 ص 351) وفي بقية الصفحات تناول الانتحار كظاهرة عامة عند الدوناتيين. ويشير إلى أن ظاهرة الانتحار الديني كانت منتشرة بشكل خاص بين أوساط أتباع الدوناتية الأوفياء، أي بين الجماهير الشعبية التي طالبت بإدانة "كايكيليانوس" عند بداية الانشقاق الدوناتي سنة 311م، والمعروف أن تلك الجماهير كانت عبارة عن دهماء المدينة، بينما المقصود في هذه الفقرة هم دهماء الأرياف أي الدوارون. -Brisson (J.P.), Op.cit., p. 321, n.6.

2- Gacic (P.), Classes et luttes sociales en Afrique Romaine, d'après les historiens soviétiques, A.E.S.C., XII, 1957, pp. 650-651.

3- Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 321-322 ; Vannier (O.), Op.cit., pp.17-18.

***- مارتيريا (Martyria) كلمة من أصل إغريقي مفردها مارتيريوم (Martyrium) وتعني الشهادة والاستشهاد.*

- Monceaux (P.), H.L.A.C., V, P.206.

4- Beatus, Comment. in Apocalyp. (Ed. Florez, P.26.), d'après Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p.206.

ويشير "أوغسطين" إلى تجمعات الدوارين عند تلك الأضرحة بصحبة العذارى المنذورات (*Sanctimoniales* أو *Moniales*) [*] لخدمة الكنيسة الدوناتية اللائي كن يشاركن الدوارين في تنقلاتهم. ويحمل أوغسطين الدوناتيين مسؤولية تلك الممارسات التي تحدث عند تلك الأضرحة قائلا: ***« ... يتركون جماعات عذاراهم (Moniales) الثملة تختلط بعصابات الدوارين المخمرة ليل نهار، وتشاركهم في تسكعهم الشائن » .*** [1]

ولكي تكتمل الصورة، يذكر "أوغسطين" أن العذارى الدوناتيات كن يلجأن إلى الانتحار حتى لا يفتضح أمرهن، ويحاولن إخفاء حملهن قائلا: ***« ولهذا فإن بعض عذاراكم الحوامل يلقين – هن أيضا– بأنفسهن من أعلى الجروف فتنفلق بطونهن، وبذلك يكشف انتحارهن الإجرامي عن جرائم فسقهن وهن يعتقدن أنهن بانتقامهن هذا من أنفسهن، سوف ينجين من انتقام خالقهن. »*** [2]

والحقيقة أن هذه الظاهرة لم تكن تقتصر على الدوناتيات فقط، بل كانت ظاهرة عامة متفشية في كل الأوساط الشعبية بما فيها الحضرية، فالمجادل الكاثوليكي "أوغسطين" استغل بعض الحالات للتحقير بالدوناتيين وهي حالات لم تنج منها حتى الكنيسة الكاثوليكية نفسها.

يرى "فراند" (*W.H.C., Frend*) أن الدوارين لم يكونوا يتنقلون من دير إلى آخر، ولكن من ضريح شهيد (*cella*) إلى ضريح آخر، ومن ثم كانت تسميتهم بـ"الدوارين". [3] وحسب الباحث الانجليزي فإن هناك شبها واضحا بين الدوارين في المغرب القديم والرهبان المتجولين في مصر وسوريا. [4]

*- عن ظاهرة الانتحار عند "المونياليين" (*Moniales*)، عن الظاهرة نفسها عند الدوناتيين أنظر: *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 144-145.*

1-Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., II, IX, 19.

2- Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXXVI, 46.

3 - Frend (W.H.C.), The donatist church…, Op.cit., p. 173 ; Idem, the cellae of the African circumcellions…, Op.cit., pp.87-90.

4- Id., Circumcellions and monks, Op.cit., pp.545-546.

نستنتج مما سبق أن هذا النشاط الديني يفسر على أنه طريقة انتهجها الدوارون للحصول على الطعام، ذلك أن بعض الكنائس كانت توجد بها أضرحة الشهداء أو رفاتهم، وكانت تتوفر أيضا على مخازن للمؤن وتارة على مطمورات للحبوب.

ومن المحتمل إذن أن يكون الدوارون يترددون على هذه الأضرحة – التي كانت تحتوي أيضا على غرف محيطة بالفناء – واستعمالها كأماكن إيواء والحصول على بعض القوت.

حاول "أوغسطين" توريط الدوناتيين في تلك الممارسات المنحرفة إذ قال: «.. ***إنهم يبعدون هذه الحشود المسكينة عن وحدة المسيح، ويحاولون استمالتها إلى حزبهم، فلا يخجلون من تشبيه العقوبات – التي تصيبهم لقاء انشقاقهم على يد السلطة الزمنية – بآلام الشهداء، ويحفزون أولئك السذج على الاحتفال بذكرى تلك العقوبات في حفلات صاخبة...*** » [1]

كانت ظاهرة تقديس الشهداء ورفاتهم ظاهرة عامة، ولم تكن ظاهرة خاصة بالدوناتيين ولا بالدوارين ولا حتى بالأفارقة. فقد عرفت مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية تقديس الشهداء أول الأمر، عند أولئك الذين سقطوا تحت تعذيب واضطهاد السلطة الزمنية خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كما ذكرت ذلك في الباب الثاني. وابتداء من القرن الثالث الميلادي بدأ المسيحيون يحتفلون بذكرى شهدائهم. [2]

وقد عرفت هذه الظاهرة انتشارا واسعا ابتداء من القرن الرابع الميلادي، حيث اتجه معظم الناس إلى التسابق حول امتلاك رفات الشهداء، والحصول على قبور قرب أضرحتهم.

يذكر "أوغسطين" في هذا السياق في "اعترافاته" أن أمه "مونيكا" (*Monica*) كان من عادتها الذهاب إلى الأضرحة حاملة معها بعض الطعام والشراب قصد استهلاك جزء منه وإهداء الباقي إلى الأموات. [3] وكان حارس الأضرحة قد أخبرها ذات يوم، أن

1- Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., III, VI, 29.
2- Piganiol (A.), l'Empire chrétien..., Op.cit., pp.412- 413.
3- Augustin (St.), Confessions, VI, 2, Trad. J. Trabucco, Flammarion, Paris, 1964, p.107.

القديس "أمبروزيوس" (*) (*St.Ambrosius*) أسقف ميلانو (*Milano*) (الشكل رقم 35 ص 541) منع تلك الممارسات التي اعتبرها مظهرا من مظاهر الاحتفالات الوثنية. ويضيف "أوغسطين" أن هذا المنع أتى لقطع الطريق على السكيرين الذين كانوا ينتهزونها فرصة لإدمان الخمر.

ويستطرد "أوغسطين" أن أمه: « ***لم تكن لتقبل عن طيب خاطر حظر هذه العادة لو لم يأت منعها على يد إنسان في مثل مكانة "أمبروزيوس" من نفسها*** » (1)

توحي النصوص السابقة أن ظاهرة تقديس الشهداء ورفاتهم لم تكن موجودة في إفريقيا فقط بل وجدت قبل ذلك في أوروبا، في ميلانو وروما ومدينة "نولا" (*Nula*) بإقليم "كامبانيا" بإيطاليا، إذ نجد البابا "دماسوس"(**) (*Damasus*) ينظم في روما زيارة المؤمنين لأضرحة الشهداء في سراديب الموتى (*Catacombes*). (***)

---

*- ***أمبروزيوس***، Saint – Ambroise، (340-397م)، أحد أبرز آباء الكنيسة اللاتينية، أسقف مدينة ميلانو في إيطاليا منذ سنة 374م، ومستشار الإمبراطور "ثيودوسيوس" (Theodosius)، كان يتمتع بشخصية قوية، حيث فرض على "ثيودوسيوس" أن يقر بذنبه في تقتيل سكان مدينة "تسالونيكا" في السيرك علنيا. يعتبر أحد الفقهاء الأربعة الأوائل في المسيحية بعد "أوغسطين" St. Augustin، و"جيروم" St.Jérôme ، و"غريغوار الأكبر" Grégoire le grand، مارس تأثيرا واسعا على "أوغسطين".* -*Dic. Univ. Hist .Géo., p.65.*

1- Augustin (St.), Confessions, pp. 108-109.

***- **داماس Damasus**، هو البابا داماس الاول، ولد في البرتغال، انتخب على رأس البابوية من سنة 366م إلى سنة 384م، عقد العديد من المجامع ضد الأريوسية، ترك بعض الأشعار المسيحية والكتابات اللاهوتية، توفي سنة 384م. للمزيد أنظر أعلاه، ص 441.* -*Dict. Univ. Hist.Géo, p. 493 ; Piganiol (A.), l'empire chrétien, p. 412.*

****- هي عبارة عن أروقة باطنية محفورة في الصخر، بها ممرات ضيقة وقبور محفورة على شكل ثقب في الصخور يودع فيها المسيحيون أمواتهم. وكان معتنقو المسيحية الأوائل خاصة في فترات الاضطهاد يعقدون فيها تجمعاتهم. والمصطلح: Catacombae أو: Ad Catacumbas، مشتق من اسم مكان يوجد جنوب روما بحوالي ثلاثة أميال قرب كنيسة القديس سباستيان St. Sébastien، وقد عثر على العديد من سراديب الأموات هذه في عدة مناطق من الإمبراطورية الرومانية : مثل الإسكندرية، ونابولي، وشيوزي (توسكانيا)، ومالطا، وصقلية، وباريس، وفي المغرب القديم سراديب حضرموت Hadrumetum (سوسة حاليا) في تونس.* *Martigny (l'Abbé), Dictionnaire des Antiquités chrétiennes, Paris, librairie Hachette, 1877, pp.120-148.*



الشكل رقم 35: القديس "أمبروزيوس" (*St.Ambrosius*) أسقف ميلانو.

فسيفساء مؤرخة في القرن الرابع الميلادي للقديس "أمبروزيوس" وجدت ببازيليكة ميلانو (إيطاليا) تحمل اسمه.

نقلا عن: *w.w.w.wikimedia.org*

تاريخ الزيارة: 2015/08/20.

يبدو أن القديس "أوغسطين" لم يرفض تبجيل الشهداء وتقديس رفاتهم فحسب، لكنه ندد بالممارسات المرتبطة بها وهي عادات وثنية. وما قيل عن زيارة القبور والأضرحة يمكن قوله عن تقديس رفات الشهداء سواء في المغرب القديم أو في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية.

وكانت الكنيسة الكاثوليكية من جهتها قد انتبهت إلى الأصول الوثنية لمثل هذه التصرفات، لذلك حاولت مكافحتها، أو رفض ما يبدو أنه مرتبط بالعادات الوثنية القديمة كالتمائم وتقديس الجن والرقص الطقسي، والمآدب المقامة عند الأضرحة. [1]

وهذا ما دفع الإمبراطور "تيودوسيوس" *(Theodosius)*، إلى تحريم بيع عظام الشهداء في سنة 336م. [2] لكن تمسك الأهالي بتلك التقاليد حال دون الوصول إلى نتائج مرضية. وتعزز هذا الجانب في الكنيسة الإفريقية، بتزايد اهتمام الأساقفة الكاثوليك نتيجة الصراع المحلي بينهم وبين الدوناتيين. فقد كانت انتقادات "أوبطا الميلي" و"أوغسطين" لاذعة بخصوص "المنتحرين" ومريدي الاستشهاد وزوار الأضرحة. إلا أن هذه الانتقادات لا تعود إلى الاهتمامات العقائدية بقدر ما يمكن إرجاعها إلى صلب الجدل الكلامي مع الدوناتيين.

وقد اعتبر القديس "أوغسطين" الشماس "نابور" (*Nabor*) شهيدا لأنه ارتد عن الدوناتية، فقتله الدوناتيون انتقاما منه. في حين رفض نفس اللقب التشريفي لستين (60) مسيحيا سقطوا في اشتباك مع الوثنيين عندما أرادوا تحطيم أصنامهم في "سوفيتولا" [*] (*Sufetula*). [3]

1- *Piganiol (A.), l'Empire chrétien…, Op.cit., pp.413-414.*
2- *Cod. Theod., IX, 17,7.*
*- "سوفيتولا" هي مدينة سبيطلة حاليا في الجنوب التونسي. للمزيد أنظر: *- Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, pp.138-140.*
3- *Hamman (A.G.), Op.cit., p. 329.*

نلاحظ مما سبق، التناقض الصارخ في تصرفات "أوغسطين" ومواقفه من المسيحيين الكاثوليك أنفسهم، فلما تعلق الأمر بشماس ارتد عن الدوناتية منحه لقب الشهيد، لكنه رفض منح المسيحيين الذين قضوا في صراعهم مع الوثنيين نفس اللقب. فمواقف "أوغسطين" لم تكن نابعة من مبادئ عقيدية راسخة دفاعا عن وحدة الكنيسة فحسب، ولكن أيضا دفاعا عن الإمبراطورية الرومانية وتدعيم السلطة الزمنية بما يحقق وحدتها السياسية والدينية.

يتجلى تناقض "أوغسطين" في أنه كان يندد بممارسات الدوناتيين، وفي الوقت نفسه يخصص لرفات الشهيد "سطيفانوس" (*) (*St. Stephanus*) ضريحا ومأوى للزوار. (1)

بل أكثر من ذلك، فقد كتب أبياتا شعرية تخلد ذكراه. وطلب من كل الذين "نفعتهم" زيارة الضريح في العلاج والشفاء، أن يكتبوا تقريرا ويحتفظ به في "أرشيفات" الضريح بعد أن يقرأ في حضور صاحبه أمام الملأ، ليشهد بنفسه على تلك المعجزة. (2)

يتضح مما سبق أن تلك التصرفات إما أنها صادرة عن رجل عجوز متقدم في السن بدأ في الخرف، حيث أن "أوغسطين" تجاوز السبعين في سنة 426م، وهي السنة التي وقعت فيها هذه الأحداث. أو أنها الحنين إلى العهد الوثني بإحياء طقوسه وممارساته، وأن انتصار الكاثوليكية على الدوناتية (**) كان يسمح للمنتصرين بالتساهل مع عامة الناس في بعض ما كانوا يتشبثون به من ممارسات وتقاليد طقوسية وثنية؟

---

*- ***إيتيان سطيفانوس***، *St–Etienne Stephanus*، *قديس يهودي الأصل، كان أحد الشمامسة السبع الذين اختارهم الحواريون، شماس في الجماعة المسيحية الأولى بمدينة القدس. اتهمه اليهود بشتم الإله وقذف النبي موسى فقتلوه رجما بالحجارة سنة 36م قبل تسعة أشهر من وفاة المسيح.* *-Dic. Univ. Hist. Géo. p. 627.*

1- Augustin (St.), De Civ. Dei, XXII, 7 ; 20-22.

2- Ibid., XXII, 8, 2,22.

**- *بعد صدور قرار سنة 411م عن مناظرة قرطاجة، القاضي بتحريم ومنع الدوناتية.*

لقد أودعت بعض رفات [*] الشهيد القديس "سطيفانوس" (*St. Stephanus*) مؤقتا في إحدى كنائس مدينة "أوزاليس" (*Uzalis*). [**] لكن أسقف هذه الكنيسة – وهو أحد أصدقاء "أوغسطين"– اغتنم فرصة مصادرة إحدى الكنائس الدوناتية لينقل إليها الرفات "المقدس". وبذلك فقد كرس الممارسات الوثنية التي كانت تعاب على زوار أضرحة الدوناتيين. [1]

كان "أوغسطين" يؤمن بعالمية الكنيسة إلى حد لم يحصر فيه إعجابه بقديسي إفريقيا وشهدائها، وبذلك خالف تماما شوفينية وتزمت الدوناتيين، بل كان يقدس شهداء إيطاليا وأسبانيا وغيرها من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية. [2]

إذا كانت الشوفينية الدوناتية تتجاوب مع ممارسات شعبية اعتبرها "أوغسطين" من بقايا الوثنية وانتهى به الأمر الاعتراف بها والتساهل معها، بل وممارستها. فما كان يغيظ أوغسطين حقا هو تقديس "جثث المنتحرين" واعتبارهم شهداء، وكانوا في نظره مجرد ضحايا الاشتباكات التي كانت تدور بين القوات الرسمية والدوناتيين في فترات الاضطهاد، أو نتيجة عنف الدوارين خاصة بعد صدور قانون سنة 347 م. [***]

- عثر أحد القساوسة الفلسطينيين على بقايا عظام شهيد، فبعث بها إلى أصحابه، ومن بينهم أسقف مدينة دارغا- Draga بالبرتغال، لكنها لم تصله، بل استفاد منها قساوسة آخرون ومنهم "أوفيديوس" Evodius أسقف "أوزاليس" Uzalis الذي كان صديقا لأوغسطين، ومن "أوزاليس" توزعت في بعض المدن الإفريقية منها: كالاما Calama (قالمة حاليا) و"أكوا تبيليتاناي" Aquae Thibilitanae (حمام المسخوطين حاليا) و"هيبو-ريجيوس" (عنابة حاليا) وغيرها من مدن المغرب القديم. *-Hamman (A.G.), Op.cit., p.337.*

** - *أوزاليس، إحدى مدن إفريقيا البروقنصلية (هي العالية حاليا في تونس). أنظر أعلاه ص 433.*

1-Hamman (A.G.), Ibid., pp.337-338.

2-Hamman (A.G.), Ibid., p.337.

***- *هو القانون الذي أصدره الإمبراطور "قنسطانس" (Constance) وهو عبارة عن حكم قضائي، فالقوانين الصادرة ضد الدوناتية خلال القرن الرابع كانت "أحكاما قضائية" ولم تكن "قوانين"، ومعلوم أن "الأحكام القضائية قابلة للاستئناف والمراجعة لذلك كان الكاثوليك يستغلون مجيء إمبراطور جديد لإصدار قانون جديد يؤكد الأحكام القضائية السابقة، وهذا ما حدث في عهد الإمبراطور "قنسطانس".* *- Martroye (F.), la répression du donatisme…, Op.cit., p.65.*

لقد اصطبغ الصراع الكاثوليكي الدوناتي بصبغة سياسية، فالكاثوليك- عن قصد أو عن غير قصد- كانوا يدعمون السلطة الرومانية وسياستها، لا لكونهم قبلوا- السلام القسطنطيني- ومهادنة المسيحيين للسلطة الزمنية فقط، ولكن لكونهم كانوا يمثلون جانبا أساسيا من وحدة الإمبراطورية الرومانية ، وهو الجانب الديني.

وبذلك كانت الكنيسة الكاثوليكية تقطع الطريق على كل الانشقاقات الدينية الإقليمية التي يمكن أن تكتسي طابع معارضة "وطنية" للسلطة الرومانية. ومن هنا جاءت مناهضتها للكنيسة الدوناتية التي صنفت في عداد المنشقين والخارجين عن الطاعة وعن عالمية الكنيسة.

تعتبر ظاهرة تقديس الشهداء ورفاتهم ظاهرة عامة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الرابع الميلادي، ولا تقتصر على المغرب القديم فقط. لكن الملفت للانتباه هو كيف أن تلك الظاهرة اتخذت – نوعا ما- صبغة مقاومة سياسية وحضارية للوجود الروماني؟ بما جره ذلك الوجود من سلبيات على الوضعية الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية على سكان المغرب القديم.

سقط الكثير من الدوارين في الاشتباكات مع الجيش أو أنصار السلطة من الكاثوليك، وقد استشهد هؤلاء لا من أجل قضية "المسيح" أو قضية "دوناتوس" فحسب، ولكن من أجل مناهضة أوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية مزرية ومجحفة.

لذا كان على الباحث أن لا ينساق وراء فرضية الباحث الإنجليزي "فراند" (*Frend*) التي تركز على ارتياد الدوارين لأضرحة الشهداء، وتعتبر ذلك تعصبا وتزمتا دينيا من الدوناتيين. (*)

- يعتبر المؤرخ الفرنسي بول ألبير فيفري (P.A Février) من أبرز المؤرخين الذين انتقدوا فرضية Frend التي تركز على تقديس الدوناتيين للشهداء، وخاصة القديسين الرومانيين "بولس" St. Paul ، و"بطرس" Botrus . ويرى أن الكاثوليك نهجوا من جهتهم "دعاية مضادة" للدوناتية تتجلى في تقديس الشهداء الرومان. - *Février (P.A), Martyrs, polémique et politique en Afrique (IV°-V siècles), R.H.C.M., 1,1965, pp.8-18 (p.15).*

فالتركيز إذن على هذا الجانب قد ينزع من حركة الدوارين أهم سمة من سماتها وهي مناهضة ومقاومة الطبقات المستغِلة من كبار الملاك والأباطرة والسلطة الزمنية.

فهل كان ارتياد الدوارين لأضرحة الشهداء حافزا على تمردهم؟

يبدو أن محاولة تحديد الإطار الإجتماعي بما يحمله من سمات تميز الدوارين أكثر أهمية من تحديد إطارهم الديني، لأن التحديد الأول عكس الثاني، لكنه يمكن أن يعطي تفسيرا مقبولا ومنطقيا لحركة الدوارين وطبيعة علاقتهم بالدوناتية، وهو ما سأعالجه في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

طبيعة العلاقة بين حركة الدوراين والدوناتية

المبحث الأول –علاقة حركة الدوارين بالدوناتية قبل سنة 347م

المبحث الثاني–أحداث بغاي سنة 347م ونقطة التحول في العلاقة بين الدوارين والدوناتية

المبحث الثالث–العلاقة بين حركة الدوارين والدوناتية بعد سنة 347م

أثارت علاقة الدوناتية بحركة الدوارين جدلا واسعا بين المؤرخين والباحثين، وقد انطلق معظمهم من كتاب "أوبطا الميلي" الثالث (الفصل الرابع) الذي يعد أقدم إشارة صريحة وأول من ذكر مصطلح "الدوارين" في أواخر سنة 366م أو أوائل سنة 367م حينما رد على رسالة الهجاء التي حررها "بارمنيانوس" (*Parmenianus*) أسقف قرطاجة الدوناتي.

من هذا المنطلق أتناول في هذا الفصل طبيعة العلاقة بين الدوناتية وحركة الدوارين قبل سنة 347م، أي قبل قدوم المبعوثين الإمبراطوريين "بولوس" (*Paulus*) و"مكاريوس" (*Macarius*) اللذان أرسلهما الإمبراطور "قسطانتيوس" (*) (*Constantius*) لإحصاء الفقراء وتوزيع المساعدات بهدف تحقيق الوحدة الدينية في الكنيسة الإفريقية. كما سأعالج أحداث بغاي التي وقعت سنة 347م، والتي تعتبر نقطة تحول حاسمة في العلاقات بين الدوارين والدوناتيين، وأحاول أن أبرز طبيعة هذه العلاقات بعد سنة 347م.

<u>المبحث الأول: علاقة حركة الدوارين بالدوناتية قبل سنة 347م</u>: يصعب على الباحث تحديد بداية العلاقة بين حركة الدوارين والدوناتية بشكل دقيق لكن يبدو –حسب "أوغسطين"–أن نشاط حركة الدوارين وأعمالها التي وصفها بـ "الإجرامية" بدأت مع ظهور الانشقاق الدوناتي في بداية القرن الرابع الميلادي.

---

*- **قسطانتيوس** (Flavius Julius Constantius) : (317- 361م) إمبراطور روماني (337- 361م) الإبن الثاني لقسطنطين ورث العرش عن أبيه سنة 337م واقتسم مع أخويه : قسطنطين II وقنسطانس Constance، الشرق واليونان Grèce ، عرف بوحشيته وفضاعته، توفي وهو في طريقه إلى مقاومة القيصر "جوليان- Julien" الذي أعلن نفسه إمبراطورا. أنظر أعلاه، ص 451. Dict. Univ. Hist. Géo., pp. 451- 452.*

نستشف ذلك من خلال رسائل القديس "أوغسطين" إلى الأساقفة الدوناتيين، حيث نجده يخاطب الأسقف الدوناتي "بتيليانوس" (*) (*Petilianus*) في حوالي سنة 400م قائلا: « **وإذا أردنا أن نثبت أنكم قتلة الرسل، فليس من الصعب الوقوف إقليما بإقليم على كل ما اقترفه وما زال يقترفه زعماء دواريكم وعصاباتكم المشكلة من السكيرين والمجانين منذ بداية انشقاقكم حتى الآن...** ». (1)

ويخاطب الأسقف "كريسكونيوس" (**) (*Cresconius*) بنفس اللهجة في حوالي سنة 405م قائلا: « ... **والواقع لو أنني أردت تعداد كل الفظاعات التي أطلعت عليها عند الأقدمين، أو التي تعرفت عليها بنفسي، والتي اضطهد بها ذووكم الكنيسة الكاثوليكية منذ بداية انشقاقكم إلى يومنا هذا، فأي لسان وأي قلم وأي وقت سوف يلزمني لذلك... ؟** » (2)

توحي النصوص السابقة أن "أوغسطين" كان يريد إلصاق كل التهم والنعوت المشينة بالدوارين، وأراد أن يظهرهم على أنهم عساكر الدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكاثوليك، وهدفه من ذلك تأليب السلطة الرومانية ضدهم لتواجههم بالقوة وتحاول القضاء عليهم.

تعرض "أوغسطين" في كتاباته – في إطار مجادلاته الكلامية مع الدوناتيين– إلى المرحلة الأولى من الانشقاق الدوناتي، محاولا إبراز العلاقة بين الدوناتية وحركة الدوارين. وبحثا عن تاريخ دقيق لتلك العلاقة، فإننا إذا رجعنا إلى هذه المرحلة – في الحقيقة– لا نجد دليلا قاطعا يشير إلى بداية التعامل بين الدوناتيين والدوارين رغم

---

*– **بتيليانوس**، أسقف سيرتا الدوناتي، وهو أحد ممثلي الدوناتية في مناظرة قرطاجة سنة 411م. يعد الخصم العنيد للقديس "أوغسطين". للمزيد أنظر أعلاه، ص 430 (الباب الثالث).*

1- Augustin (St.), Contra litter. Petil., II, XIV, 33.

***– **كريسكونيوس**، هو أحد النحاة الدوناتيين (Gramaticus) ومن أبرز المجادلين الدوناتيين الذين دخلوا في جدل فقهي مع القديس أوغسطين. للمزيد أنظر أعلاه، ص 482.*

- Monceaux (P.), H.L.A.C, IV, p.67.

2 - Augustin (St.), Contra Cresc., III, XLII, 46 ; XLV, 49.

محاولات بعض الباحثين الذين اهتموا بتاريخ الدوناتية والدوارين، ومن أبرز تلك المحاولات ما قام به الباحثان الفرنسيان "سرج لانسال" (*S.Lancel*) [1] و"أوديت فانيي" (*O.Vannier*). [2]

يعتقد "سرج لانسال" أن جذور الدوناتية تعود إلى فترة اضطهاد "ديوكليتيانوس" (303-305م). فبعد استقالة هذا الأخير في سنة 305م تم انتخاب "سيلفانوس" [*] (*Silvanus*) في السنة نفسها أسقفا لمدينة قرطة (سيرتا-*Cirta*). وفي سنة 320م طعن "نونديناريوس" (*Nundiniarus*) الذي كان شماسا تحت أوامر "سيلفانوس" في انتخاب هذا الأخير أسقفا سنة 307م بتهمة التخاذل "*traditio*" خلال فترة اضطهاد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (*Diocletianus*). [3]

ويبدو أن النزاع تطور بينهما إلى الحد الذي أدى إلى تدخل والي نوميديا "زينوفيلوس" (*Zenophilus*)، وتمت محاكمة "سيلفانوس"، تلك المحاكمة التي ترأسها الوالي بنفسه في مدينة "ثاموقادي" (*Thamugadi*) "تيمقاد حاليا" وتم الاستماع إلى الشهود.

وقد حفظ لنا "أوبطا الميلي" تصريحات هؤلاء الشهود وتدخلات والي نوميديا في محضر خاص بعنوان "محضر زينوفيلوس" ألحقه بكتابه "ضد الانشقاق الدوناتي". [4]

ويتضح من خلال "محضر زينوفيلوس" أن أنصار الأسقف "سيليفانوس" كانوا عبارة عن دهماء مدينة سيرتا، خاصة مصارعي الحيوانات في السيرك (*Harenarii*)

1 - Lancel (S.), Aux origines du donatisme et du mouvement des circoncellions, (C.T. ,57-60), 1967, pp 183-188.
2 - Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n° 67, 1932, pp.13-28.
*- **سيلفانوس** Silvanus ، أسقف دوناتي، وهو أحد الأساقفة الذين طعنوا في انتخاب" كايكيليانوس" أسقف قرطاجة الكاثوليكي، وعينوا مكانه "ماجورينوس" ثم دوناتوس الأكبر فيما بعد. -Monceaux (P.), H.L.A.C, IV, p. 28.*
3- Duschene (L.), le Dossier du Donatisme, M.E.F.R., X, 1890, p.629.
4- Optat (St.), III, 4.

والريفيين (*Campenses*) من جهة، والمواطنون المحترمون (*Cives*) أي "الأعيان" (*Séniores*) وهم الأعضاء العلمانيون (*Laïcs*) من جهة أخرى، الذين كانوا يساهمون في تسيير شؤون مدينة سيرتا الدينية. (1)

ويرى "لانسال" أن هؤلاء "الريفيين" (*Campenses*) أنصار الأسقف "سيلفانوس" ليسوا من العبيد أو المزارعين (*Coloni*)، وإنما كانوا: "عمالا فلاحيين" يشكلون كتلة بشرية متحركة رهن الإشارة، يسهل تجنيدها وتعبئتها في أي وقت، وليس من المستبعد أن يكونوا نوعا ما "سلف الدوارين". (2)

يبدو من الإشارات السابقة أن هناك تنافر– في بداية الانشقاق الإفريقي– بين "الأعيان" أو"السنيورات" (*Seniores*) الذين كانوا يمثلون 'البرجوازية الحضرية" من جهة، والريفيين الذين كانوا يمثلون "دهماء المدينة والأرياف" من جهة ثانية. والواقع أن الصراع بينهما لم يكن ذا طابعا دينيا أو فقهيا، بل كان صراعا اجتماعيا محضا بين طبقتين متمايزتين من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية. لذلك كان الأسقف "سيلفانوس" دوناتيا – قبل الأوان– (*) وأن "الريفيين" الذين ذكروا في النص، والذين تدخلوا لفرض مرشحهم "سيلفانوس" بقوة يمكن اعتبارهم سلف الدوارين، واعتبار تصرفاتهم على أنها إرهاصات لحركة الدوارين.

يتضح مما سبق أنه من غير الممكن تأويل النص والتأكيد على أن هؤلاء "الريفيين" كانوا دوارين بسماتهم التاريخية التي ظهروا بها فيما بعد – بعد أن تكرس الانشقاق– لأن النص الذي أورده "لانسال" (*S.Lancel*) غير صريح في هذه المسألة.

---

1 - Monceaux (P.), H.L.A.C, IV, pp.143-144.

2- Lancel (S.), Aux origines du donatisme …, Op.cit, p.188.

**– لأن الانشقاق في الكنيسة الإفريقية لم يتكرس إلا بعد سنة 312م، وكان "سيلفانوس" قد لعب دورا بارزا في بداية الانشقاق.*

ويمكننا أن نتساءل في هذا السياق: كيف نفسر سكوت "محضر زينوفيلوس" عن ذكر الدوارين صراحة؟

لقد تجنب "نونديناريوس" (*Nundiniarus*) وشهوده ذكر مصطلح "الدوارين" واستعملوا مصطلح "الريفيين" (*Campenses*) إشارة إلى أنصار "سيلفانوس" الذي انتخب سنة 305م أسقفا لمدينة سيرتا. حتى لا يؤلب الوالي "زينوفيلوس" ضده نظرا للحقد الذي كان يكنه الكاثوليك والسلطة الرومانية للدوارين والمتعاملين معهم بعدما ظهروا على مسرح الأحداث. [1]

يبدو أن صمت "محضر زينوفيلوس" عن ذكر الدوارين كان ناتجا عن جهل الأشخاص الماثلين أمام محكمة "زينوفيلوس" بوجودهم. ذلك أن تلك الأحداث كانت قد وقعت بمدينة "سيرتا" أما المحاكمة فقد تمت بمدينة "تيمقاد". وكلتا المدينتين كانتا من أكبر المدن النوميدية التي شهدت نشاطات الدوارين وعملياتهم. [2]

يمكن أن نستنتج من كل هذا، أن حركة الدوارين لم تتضح معالمها إلا في سنة 320م، أي في السنة نفسها التي تمت فيها المحاكمة.

وإذا أردنا تتبع أحداث بروز الحركة الدوناتية منذ سنة 305م في محاولة العثور على إشارة ما عن الدوارين فإننا نصل إلى سنة 313م، وهي السنة التي تكرس فيها الانشقاق في الكنيسة الإفريقية. وأصبح المسيحيون الأفارقة منقسمون إلى تيارين: تيار مؤيد للأسقف "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) أسقف قرطاجة الكاثوليكي، وتيار

1 - Lancel (S), Aux origines du donatisme …, Op.cit, p.187.
2 - Optat (St.), III, 4.

معارض له تزعمه "ماجورينوس" (*Majorinus*) في البداية ثم "دوناتوس" الأكبر فيما بعد. [1]

وقد تقدم هذا التيار المعارض لسيامة "كايكيليانوس" (أي تعيينه كأسقف) من طرف بعض الأساقفة الذين اتهموا بالتخاذل (*Traditio*) أيام الاضطهاد الأكبر (303–305م) في عهد "ديوكليتيانوس"، بوثيقتين إلى "أنولينوس" (*Anullinus*) بروقنصل إفريقيا يطالبونه بفتح تحقيق حول شرعية سيامة "كايكيليانوس". ويطلبون كذلك تعيين أساقفة من "غاليا" (فرنسا حاليا) للنظر في تلك القضية. لأن الغاليين– في نظر هؤلاء المناوئون– سوف يلتزمون الحياد في الحكم على "كايكيليانوس"، ذلك أن بلادهم لم تعرف ظاهرة التخاذل نظرا لقلة عنف الاضطهاد في "غاليا".

بعث البروقنصل "أنولينوس" الوثيقتين إلى الإمبراطور "قسطنطين" مرفوقتين بمحضر عن الوقائع والأحداث التي شهدتها مقاطعتي نوميديا وقرطاجة في 15 أفريل سنة 313م. [2] ويذكر المحضر أن المناوئين لـ "كايكيليانوس" – وهم يقدمون الوثيقتين للبروقنصل–كانوا مرفوقين بجماعات من المشاغبين. [3] فهل يمكن اعتبار تلك الجماعات من الدوارين؟

يبدو أن الأمر كان يتعلق بدهماء المدينة الذين عبروا عن رفضهم وسخطهم من انتخاب الأسقف "كايكيليانوس" أسقفا لمدينة قرطاجة. [4]

1 - Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, Op.cit., p.237 ; Warmington (B.H.), The North African provinces…, Op.cit., pp.78-79.
2 - Duschene (L.), Dossier du Donatisme…, Op.cit., pp.631-632.
3 - Lancel (S.), Aux origines du donatisme …, Op.cit., p.1160.
4 - Brisson (J.P), Autonomisme et christianisme…, Op.cit., p 353.

ويرى "مونصو" أن "عصابات" الدوارين الأولى كانت قد ظهرت منذ سنة 317م، بعد صدور مرسوم "قسطنطين" الذي أقر نزع الكنائس من المنشقين الدوناتيين ومنحها للكاثوليك. (1) وقد اعتمد "مونصو" في ذلك على ثلاثة نصوص(2) نوجزها فيما يأتي:

1-**النص الأول:** ورد عند "أوبطا الميلي"، ويذكر مهمة الأسقفين "أونوميوس" (*Eunomius*) و"أولمبيوس" (*Olympius*) اللذين وصلا إلى قرطاجة سنة 316م لقضاء أربعين (40) يوما في مهمة رسمية قصد جس نبض الكنيستين المتنافستين، وإقرار أيهما الكنيسة الكاثوليكية الحقة. (3)

يبدو أن الإمبراطور "قسطنطين" كان يريد أن تكون لديه فكرة واضحة عن هذه القضية حتى يستطيع أن يبت فيها ويصدر حكما نهائيا ضد الدوناتية، وهو ما حدث فعلا بعد أن أصدر مرسوما سنة 316م. إلا أن استقبال السكان للأسقفين لدى وصولهما إلى قرطاجة كان استقبالا سيئا حيث تعرضا للمضايقات والاهانة.

يمكن أن نتساءل هنا: هل كان الدوارون من جملة العناصر المشاغبة؟ يتعذر على الباحث الجزم بذلك لأن التعبير الوارد في النص كان عاما وغير دقيق واكتفى فقط بذكر مصطلح "عناصر مشاغبة".

2-**النص الثاني:** الذي اعتمده "مونصو" عبارة عن خطبة وعظية (*) ألقاها "دوناتوس" (*Donatus*) لتبجيل "الشهداء" الدوناتيين الذين سقطوا ضحايا اضطهاد السلطة الرومانية بعد صدور حكم "قسطنطين" ضدهم سنة 316م. ويذكر النص أن الدوناتيين

---

1 - Monceaux (P.), l'église donatiste : organisation et caractères…, Op.cit., p. 41.
2 - Ibid., pp. 41- 42.
3 - Optat (St.), I, 26.

- يؤرخ "بول مونصو" هذه الخطبة بشهر مارس سنة 318م. أي خلال فترة اضطهاد "قسطنطين" للدوناتيين. عن ظروف إلقاء هذه الخطبة أنظر: -Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp.62-64.

تعرضوا لأعمال عنف واضطهاد على يد الجنود الرومان في مختلف مدن المغرب القديم وخاصة في قرطاجة. (1)

ويتجلى من النص أن الدوناتيين خلال تلك المواجهات كانوا غير قادرين على التنظيم، ولم تكن لديهم القدرات الهجومية التي اتسم بها عمل الدوارين فيما بعد. لذلك سقطوا بسهولة أمام عنف وضربات الجنود. ثم إن الأمر لا يعدو أن يكون مظاهرات شعبية عارمة وقعت في المجال الحضري (مدينة قرطاجة)، بينما كان مجال الدوارين في الأرياف (بغاي). وكانت هجوماتهم قد استهدفت المدن في بداية القرن الخامس الميلادي. (*) فكيف نحكم على تلك الجماعات أو"الجماهير الشعبية" على أنها من الدوارين؟

3-**النص الثالث:** عبارة عن فقرة للقديس "أوغسطين" وردت في رده على رسالة "بارمينيانوس" (*Parmenianus*)، استدل "مونصو" بهذه الفقرة ليؤكد على ظهور حركة "الدوارين" في بداية القرن الرابع الميلادي، ومما جاء في الرسالة: « ... **ذلك ما حدث قديما بعد صدور الحكم الذي جعلهم – أي الدوناتيين– ينشقون عن الكنيسة. فقد حاولنا – نحن الكاثوليك– منعهم من الاحتفاظ بكنائسنا، إلا أنهم احتفظوا بها رغما عن أوامر الإمبراطور. وكانت مقاومتهم تلك لأوامر الإمبراطور من التعنت بحيث أن عنف الدوارين رجح الكفة لصالحهم، وأكثر من ذلك، فإنهم – أي الدوارين– بتمرداتهم الثورية والدموية قاموا بمناوشة مبعوثي الإمبراطور المحملين بالصدقات إلى الكنيسة، وتتبعوهما خطوة بخطوة عبر إفريقيا. لذا صدرت ضدهم قوانين لا تسمح لهم حتى بالاحتفاظ بالكنائس التي لم تكن للوحدة، والتي كانوا قد بنوها بعد انفصالهم وإقامة انشقاقهم.** » (2)

1 -*Monceaux (P.), R.H.R, t.64, 1911, p.42.*

– يذكر القديس أوغسطين في رسائله أن أول هجوم للدوارين على مدينة "هيبو–ريجيوس" (عنابة) بقيادة الأسقف الدوناتي " ماكروبيوس" (Macrobius) كان في حوالي سنة 409م أي في بداية القرن الخامس الميلادي وبعد حوالي 17 سنة من تولي أوغسطين أسقفية عنابة. - Augustin (St.) Epist., CVIII, 5, 14.

2 - *Augustin (St), Cont. Epistulam. Parmen., I, XI, 18.*

يتضح مما سبق أن "مونصو" وظف هذا النص ليبرز أن حركة الدوارين ظهرت في بداية القرن الرابع ميلادي، أي منذ الاضطهاد الأول الذي عانى منه الدوناتيون في عهد الإمبراطور "قسطنطين" سنة 316م.

ونلاحظ أن هذا النص يمتاز على خلاف النصوص السابقة بذكر صريح لحركة "الدوارين"، ومع ذلك أغفل نقطة هامة تتعلق ببداية العلاقات بين الدوناتيين والدوارين.

وإذا كان "أوغسطين" قد تحدث في بداية النص عن إجراءات مصادرة الكنائس الدوناتية وتسليمها للكاثوليك غداة صدور مرسوم "قسطنطين" سنة 316م، فإن إشارة "أوغسطين" إلى "تمردات الدوارين الثورية" يعني بها مناوشة الدوارين للبعثة الإمبراطورية إلى نوميديا التي مثلها كل من "بولوس" (*Paulus*) و"ماكاريوس" (*Macarius*) وهما مبعوثي الإمبراطور "قسطنطين" (*Constantin*) سنة 347م.

وهكذا نرى أن النص يشمل فترة طويلة تقدر بحوالي 31 سنة، من سنة 316م إلى سنة 347م دون أن يشير إلى بداية ظهور حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية.

يبدو إذن – رغم ما أورده "مونصو"– أنه من الصعب على الباحث التأكيد على وجود التعامل بين الدوناتيين وحركة الدوارين في السنوات التي أعقبت صدور مرسوم "قسطنطين" سنة 316م لأن النصوص السالفة الذكر ليست صريحة في هذا المجال. أما نص "أوغسطين" فلا يبدو أنه من الممكن اعتماده لإعطاء توقيت دقيق لبداية حركة الدوارين.

وأمام صمت مختلف النصوص التي تعود إلى هذه الفترة، والتي ذكرنا منها تلك التي يمكن أن توحي بقدم العلاقات بين الدوارين والدوناتية. يبدو أن الدوارين لم يظهروا على المسرح التاريخي بمميزاتهم المعروفة – أو على الأقل تحت اسم "الدوارين"– إلا

في فترة متأخرة عن حوالي سنة 320م. مما يتفق مع الملاحظة التي أمكن إبداؤها بصدد محاكمة "سيلفانوس" (*Silvanus*) سنة 320م.

توحي النصوص السابقة الذكر أن أقدم إشارة صريحة إلى الدوارين هي التي وردت في الفصل الرابع من الكتاب الثالث لـ"أوبطا الميلي". [1] والتي سبق أن أوردنا منها الفقرة التي تتحدث عن حركة الدوارين بزعامة "أكسيدو" (*Axido*) "وفازير" (*Fasir*) قبل صدور قانون الوحدة في عهد "قنسطنس" في سنة 347م، والفقرة التي تذكر أحداث معركة "محلة أكطافا" *Locus octavensis* بين الدوارين وجنود الكونت "طورينوس" (*Taurinus*) في حوالي سنة 340م. [2]

يشير نص "أوبطا الميلي" إلى أن تلك الأحداث وقعت قبل صدور قانون الوحدة سنة 347م على عهد الإمبراطور "قنسطانس" (*Constans*) وقد وقعت أحداث "محلة أكطافا" أيام كان "طوريونس" (*Taurinus*) يتولى مهام "كونت" *Conte* إفريقيا أي حوالي سنة 340م. [3]

يبدو إذن أن حركة الدوارين كانت موجودة منذ سنة 340م على الأقل. والأرجح أنها بدأت قبل ذلك بمدة، لأن تدخل جنود "طورينوس" ضد الدوارين جاء بعد عجز الأساقفة الدوناتيين عن "إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة".

ونستنتج من هذا أن الحركة استفحل أمرها، خاصة وأنها بلغت درجة لا يستهان بها من حيث التنظيم والمبادئ وطريقة العمل، [4] حسب ما يتجلى من النص الثالث.

يتعذر على الباحث تحديد تاريخ ظهور حركة الدوارين بدقة. لكن وانطلاقا من المصادر المتوفرة، فإن الدوارين ظهروا قبل حادثة "محلة أكطافا" سنة 340م، والأرجح أن حركة الدوارين بسماتها التاريخية تكون قد ظهرت بعد سنة 320م، لأن ذكرهم لم

---

1 - Optat (St.), III, 4.
2 -Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.247-248.
3 -Monceaux (P.), R.H.R., t. 63, 1911, p.168, Id., H.L.A.C., IV, p. 335.
4 -Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit, p.328.

يرد في محضر "زينوفيلوس" (*Zenophilus*). ومن جهة أخرى فإن وجودهم كان شيئا واقعا حوالي سنة 340م. لذا فإن ظهور الحركة كان في الفترة ما بين عامي 320م و340م. [1]

نستنتج مما سبق – وحسب المصادر التي توفرت لدينا– أن حركة الدوارين قد ظهرت بهذه التسمية وبملامحها وسماتها التاريخية التي عرفت بها خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس، قبل سنة 340م وبعد سنة 320م على وجه الترجيح.

يعتبر نص "أوبطا الميلي" [2] – الذي أوردناه سابقا– أول نص يشير صراحة إلى الدوارين والمصدر الوحيد الذي تطرق إليهم بشيء من التفصيل في فترة ما قبل سنة 347م. [3]

ويبدو عند قراءة النص أنه يتضمن عدة تناقضات منها:

1– حاول "أوبطا الميلي" أن يظهر الدوارين على أنهم كانوا دوناتيين قبل حادثة "محلة أكطافا" سنة 340م، وأشار إلى أن: «***هذه التصرفات جلبت الحقد على الأساقفة (الدوناتيين)***» ، مما دفعهم إلى طلب تدخل الجيش ضد الدوارين. ويعتقد أن هؤلاء الأساقفة ما كانوا ليتحملوا تصرفات الدوارين لو لم تكن هناك علاقة تربطهم بهم. والسؤال المطروح: هل يمكن تصور علاقة أخرى غير تلك التي تربط بين كنيسة وجموع المؤمنين بها؟

2– يشير النص كذلك إلى أن الدوارين كانوا يقومون بأعمالهم "الخرقاء" تحت قيادة رؤساء كانوا يحملون لقب "زعماء القديسين" (*Duces Sanctorum*)، والمعروف أن الدوناتيين كانوا يعتبرون كنيستهم "كنيسة القديسين"، مما يوحي بانتماء الدوارين إلى تلك الكنيسة.

1 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit, pp.350-353.
2- Optat (St.), III, 4.
3 - Grand Larousse encyclopédique, t. III, p.141.

3- يذكر "أوبطا الميلي" أن الدوارين كانوا يحاولون الاستشهاد بشتى الوسائل، ولو كان ذلك عن طريق الانتحار بالارتماء من أعلى الجروف. [1] مما يوحي بانتمائهم للدوناتيين الذين يعتبرون كنيستهم "كنيسة الشهداء". [2]

إذا كان "أوبطا الميلي" قد وصف أعمال الدوارين بـ" الجرائم"، فالحقيقة إذا رجعنا إلى تلك الأعمال كما وردت في النصوص فإنها تتلخص في مهاجمة ممتلكات كبار الملاك وإبطال ديون المستدينين وأخذ الثأر للعبيد من أسيادهم. وتلك الهجمات لم تكن تستهدف الكاثوليك وحدهم، ولكنها كانت موجهة ضد الملاك والدائنين والأسياد.

كانت تلك الأعمال إذن، عبارة عن ثورة حقيقية ضد المستغِلين، ولا تكتسي طابع حرب مذهبية، رغم أن "أوبطا الميلي" يقول إنه يترأسها زعماء دينيون "زعماء القديسين".

وقد اختلف الباحثون في رؤيتهم للنص، يرى البعض أن "أوبطا الميلي" قد أضفى على دواري هذه الفترة المبكرة سمات دواري عصره. [*] الذين كانوا يشكلون رؤوس رماح الدوناتية وعساكرها تهاجم بهم رجال الدين الكاثوليك وكنائسهم. [3] وهذا ما تعتقده كذلك أوديت فانيي (*O.Vannier*). [4]

بينما حاول آخرون ومنهم "ج. ب. بريصون" (*J.P.Brisson*) [5] إبعاد فرضية وقوع "أوبطا الميلي" في الخطأ. فالدوارين الذين سقطوا على يد جنود "طورينوس" *Taurinus* كانوا – حسب الظاهر–من الدوناتيين. فالتناقض ليس في نص "أوبطا

1- Optat (St), III, 4.
2- Optat (St), II, 1, 14, 20.
ـ كتب أوبطا الميلي مؤلفه في حوالي 366م–367م أي بعد تلك الأحداث بأكثر من عشرين سنة، ويعترف في مؤلفه أنه استقى معلوماته مما قرأه وسمعه عن سابقيه. - *Monceaux (P.), La date du traité de Saint Optat contre les Donatistes, In: C.R.A.I., 57e année, n° 6, 1913. pp. 450- 453.*
3 - Augustin (St.), Contra Cresc., III, XLII, 46, XLV, 49.
4-Vannier (O.). Op.cit., pp, 17-18.
5 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit., p.345.

الميلي" وإنما في الأحداث نفسها. وينجم من النص نفسه أن هناك تناقض بين المظاهرات الشعبية العفوية ورؤساء الكنيسة المنشقة.

وهكذا نرى أن "فانيي" لا تستبعد أن يكون "أوبطا الميلي" قد حاول أن يظهر بأن التحالف بين الدوارين والدوناتيين كان قائما منذ ما قبل حادثة "محلة أكطافا" سنة 340م، وأن حركة الدوارين كانت وليدة الانشقاق الدوناتي. لأن هذا التحالف كان يشكل خطرا على الدوناتيين حيث أن السلطة الزمنية كانت توجه إليهم التهم بسبب هذا التحالف. (1)

وإذا كان "أوبطا الميلي" لم يشر إلى ذلك صراحة، إلا أن استعماله لمصطلح "زعماء القديسسن" كان كافيا – حسب الباحثة فانيي– ليضفي على زعماء "المتسكعين" صفة رؤساء الكنيسة المنشقة. إذ أن كنيسة "دوناتوس" (*Donatus*) كانت دائما تطلق على نفسها اسم "كنيسة الأطهار" و"كنيسنة القديسين". (2)

وتفترض "فانيي" أن بعض الدوارين كانوا يلجأون إلى الانتحار بسبب فاقتهم وظروفهم المعيشية القاسية. ولم يكن اندفاعهم هذا عملا دينيا واستشهادا إلا بعد اختلاطهم بالدوناتيين مدة طويلة.

وترى من جهة أخرى أن "أوبطا الميلي" استعمل مصطلح "الاستشهاد "الباطل" (*Falsi Martyrii*) إشارة إلى استشهاد الدوارين. وهو المصطلح الذي كان رائجا في عهده في الجدل الفقهي بين الكاثوليك والدوناتيين حول تحديد حالات الاستشهاد "الباطل" وحالات الاستشهاد "الحق". (3)

1-Vannier (O.), Op.cit., p. 17.
2-Vannier (O.), Idem.
3-Vannier (O.), Ibid., p.18.

يفهم من رسالة الأساقفة الدوناتيين إلى الكونت "طورينوس" التي ورد فيها أن الدوراين «**لا يمكن إصلاحهم في إطار الكنيسة**» ، أن المقصود بتلك "الكنيسة" هي الكنيسة الدوناتية، وهو ما يعني أن الدوارين كانوا دوناتيين.

فالباحثة "فانيي" ترفض أن يكون الدوارون دوناتيين في تلك الفترة، والمرجح – حسب رأيها– أن "الكنيسة" وردت في النص بالمعنى العام، دون تحديدها إذا كانت كاثوليكية أو دوناتية. وتخلص "فانيي" في نهاية المطاف أن التحالف بين الدوارين والدوناتيين لم يبدأ إلا مع أحداث" بغاي" سنة 347م وأن حركة الدوارين لم تكتس أي طابع ديني قبل تلك الأحداث. [1]

ويرى "بريصون" – على العكس من "فانيي"– أن التناقض يكمن في الأحداث وليس في النص. ويعتقد أننا إذا قمنا بتحليل دقيق للنص فإن تلك التناقضات قد تزول، وأنه ليس من الضروري تكذيب "أوبطا الميلي" أو اتهامه بارتكاب مفارقة تاريخية. فلا دليل عندنا على وجود "زعماء القديسين" على عهد "أوبطا الميلي" في حوالي سنة 366م. مما يدعو إلى الاعتقاد بأن المجادل الكاثوليكي لم يسقط هذه التسمية على زعماء الدوارين في الأربعينات من القرن الرابع (حوالي سنة 340م). [2]

مما سبق يمكن أن نطرح ثلاث تساؤلات هي:

1) ما طبيعة الهوية العقائدية للدوارين؟

2) إلى أي مدى يمكننا تصديق "أوبطا الميلي" فيما أورده عن الدوارين في حوالي منتصف القرن الرابع (347م)؟

3) وما هي طبيعة علاقة الدوارين بالدوناتية في تلك الفترة؟

1-Vannier (O.), Ibid., p. 20.

2-Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, Op.cit., pp.344-345.

للإجابة على هذه التساؤلات اعتمدت على مصدرين: الكتاب الثالث لـ "أوبطا الميلي" ورسائل "أوغسطين" إضافة إلى مرجعين أساسيين لـ: بريصون (*) وفانيي. (**)

تناولت مؤلف "أوبطا الميلي" بشيء من الحيطة والحذر لسببين: أولهما أنه كتب مؤلفه بعد وقوع تلك الأحداث بحوالي ثلاثين (30) سنة، (***) واعتمد – حسب اعترافه– **« في ما لم يشاهده بنفسه وعلى ما سمعه »** ، وأورد حادثة "محلة أكطافا" سنة 340م بجملة تحفظية إذ قال: « **فإنهم (الأساقفة الدوناتيون) – على ما يقال– بعثوا رسالة إلى الكونت طورينوس** » . [1]

وثانيهما: أن "أوبطا الميلي" كان طرفا في النزاع المذهبي الذي دار بين الكاثوليك والدوناتيين. وقد كتب مؤلفه ردا على كتاب الأسقف الدوناتي "بارمينيانوس" (****) (*Parmenianus*)، أي أنه كان بصدد جدل كلامي مع الدوناتيين، وعمل كل ما في وسعه لإلصاق التهم بهم وتبرئة ساحة الكاثوليك من أحداث سنة 347م.

ويمكن القول من خلال اطلاعنا على مؤلف أوبطا الميلي أنه كان الرائد الكاثوليكي الأول الذي وضع أسس الجدل مع الدوناتيين، [2] وأن القديس أوغسطين كتب

** - Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme.*

*** - Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n° 67, 1932, pp.13-28.*

****– كتب أوبطا الميلي مؤلفه في أواخر سنة 366م حسب ما ذكره مونصو. - Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p.251.*

1- Optat (St.), III, 4.

*****– **بارمينيانوس،** أسقف دوناتي خلف دوناتوس الأكبر على رأس الكنيسة الدوناتية وأبرشية قرطاجة من سنة 363م إلى سنة 392م، ألف كتابا ضد الكاثوليك بعنوان: ضد كنيسة المتخاذلين (Adversus Ecclesiam Traditorum) لم يصلنا كتابه ولا نعرفه إلا من خلال رد أوبطا الميلي عليه في كتابه: {في انشقاق الدوناتيين} De Schismate Donatistarum. أنظر أعلاه، ص 413. - Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp.241, 263.*

2 - Duchesne (L.), le dossier du donatisme, M.E.F.R, 1890, p.590.

بعده بحوالي ثلاثين (30) سنة كان بمثابة التلميذ الذي أكمل وأوصل "استراتيجية أوبطا الميلي الجدلية إلى درجة الاتقان". [1]

يتجلى من تحليل بعض فقرات كتاب أوبطا الميلي التي تتعلق بأحداث بغاي سنة 347م، تحيزه الواضح الذي يتلخص في تبرئة ساحة الكاثوليك وتوجيه التهم إلى الدوناتيين.

ويبدو من غير المنطقي تجريد النص من كل قيمة تاريخية، حيث يحتوي على بعض المعطيات التي تقدم حقائق تاريخية. فالنص حدد زمن وقوع حادثة "محلة أكطافا" على عهد الكونت "طورينوس"، ولا زالت القبور والأضرحة البيضاء (*Dealbatae arae*) والطاولات (*mensae*) تشهد على ذلك. كما ذكر النص أسماء الأعلام: أكسيدو (*Axido*) وفازير (*Faser*) وكلاروس (*Clarus*) قس "محلة سوبولوس" (*Locus subbulensis*)، هذا إضافة إلى معلومات أخرى دقيقة تتعلق بطرق عمل الدوارين والرسائل الإنذارية التي كانوا يبعثونها إلى الدائنين ومعاملاتهم للأسياد.

وإذا كانت معظم أسماء الأعلام والأماكن لم يرد ذكرها عند أوبطا الميلي وعند أوغسطين، فإن اسم "طورينوس" (*Taurinus*) ظل ماثلا في أذهان الدوناتيين، حيث ذكروه في مناظرة قرطاجة سنة 411م، كأحد القادة والشخصيات [*] التي اضطهدت الدوارين والكنيسة الدوناتية.

وتفترض فانيي (*Vannier*) أن أوبطا الميلي لم يحمل نفسه كثيرا من العناء لتدعيم تهمته للدوناتيين بالتعامل مع الدوارين، والنيل من سمعة الكنيسة الدوناتية. [2]

---

1 - Ibid., p.599.

*- من الشخصيات التي ورد ذكرها في الفقرة: *Macarius, Ursacius, Romanus, Taurinus, Paulus, -léontius Augustin (St.), Épist., 108, 6, 18 ; Contra. Épits. Parmen., I, 11,17.*

2- Vannier (O.), Op.cit., p 17.

وكان من السهل عليه– لإثبات تلك التهمة على الدوناتيين– أن يشير إلى أن أساقفتهم هم الذين كانوا يتزعمون حركة الدوارين، أو أنهم هم الذين كانوا يعينون زعماءهم.

وهذا ما قام به القديس أوغسطين حين أشار إلى أن زعماء الدوارين كانوا من فئة {الإكليركيين} (*) (*Clerici*) [1] الدوناتيين أو من اختيارهم. [2]

ويعترف أوبطا الميلي –على عكس أوغسطين– أن الدوارين هم الذين منحوا لقب "زعيمي القديسين" لـ "أكسيدو" و"فازير"،[3] مما يبرئ ساحة رجال الدين الدوناتيين من التهم التي ألحقت بهم.

ويشير "أوبطا الميلي" من جهة أخرى، أن الدوناتيين لم يستعينوا بالدوارين إلا في سنة 347م عند وصول المبعوثين الإمبراطوريين "بولوس" و"مكاريوس" اللذان أوفدهما الإمبراطور "قنسطانس" (*Constans*) إلى إفريقيا حيث قال: « **وعندئذ، طلب العون من أولئك الذين كان الأساقفة (الدوناتيون) أنفسهم – على ما يظهر– يرون قبل قليل أن جنونهم اشتعل بطريقة مدنسة.** » [4]

يتضح من النص أن "أوبطا الميلي" يعترف بعدم تحمل الأساقفة الدوناتيين مسؤولية تصرفات الدوارين قبل سنة 347م. والظاهر أن هذا الاعتراف لم يكن يخدم إستراتيجيته التي تقوم على الجدل الكلامي مع الدوناتيين.

– ***الإكليركيين:*** *(Clercs) هم رجال الدين دون الأساقفة مرتبة في السلم الكنسي.*

1 - Augustin (St.), Brevic. Coll. III, XI, 21.

2- Augustin (St.), Cont. Épist. Parmen, I, XI, 17.

3- Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, XIV, 33.

4- Optat (St.), III, 4.

وترى "فانيي" (*Vannier*) أن "أوبطا الميلي" يعيب على الأساقفة الدوناتيين كونهم استعانوا بالدوارين مع أنهم طلبوا – قبل مدة قليلة من ذلك – تدخل الجيش ضدهم. [1]

وتجدر الإشارة إلى أن "أوبطا الميلي" استعمل – في نفس السياق – تسمية "المناضلين" (*Agonisticii*) التي كان الكاثوليك يطلقونها على الدوارين والذين كانوا يأنفون منها. بدليل النص الذي ورد عند "أوغسطين": « **وربما اعترض الدوناتيون قائلين:" فإن ذوينا لا يحملون اسم الدوارين، بل أنتم الذين تطلقون عليهم تلك التسمية لإهانتهم، أما هم (الدوناتيون) فينعتونهم بالمناضلين (*Agonisticii*).** » [2]

يستفاد مما سبق أن تسمية "المناضلين" عند "أوبطا الميلي" جاءت استطردا في عرضه لأحداث بغاي سنة 347م. فقد ذكر أن أسقف بغاي الدوناتي: « **بعث المنادين إلى الأسواق يطلب من الدوارين المناضلين التجمع في مكان عينه لهم.** »[3] كان يقصد مقاومة مبعوثي الإمبراطور اللذان وفدا إلى إفريقيا لحث الدوناتيين والكاثوليك على الرجوع إلى الوحدة الدينية.

وترجح "فانيي" (*Vannier*) أن أسقف بغاي الدوناتي منح لقب "مناضلين" للدوناتيين تشريفا لهم واعترافا بجميلهم بعد أن ساندوه في مقاومة المبعوثين الإمبراطوريين "صانعي الوحدة". [4]

ويرى "بريصون" (*Brisson*) أن الدوارين منحوا هذا اللقب "التشريفي" من تلقاء أنفسهم، وهذا منذ ما قبل أحداث بغاي سنة 347م، إلى متزعمي "الحركة الثورية". وأن

1 - Vannier (O.), Op.cit., pp.17-20.
2 - Augustin (St.), Enn. In. Psalmus, 132, 6.
3 - Optat (St.), III, 4.
4- Vannier (O.), Op.cit., p. 26.

أسقف بغاي الدوناتي فضل أن يستعين برجال مدربين على العمل الثوري أي بـ "المناضلين" على غيرهم من العامة. (1)

ومهما كان من أمر، فمن المرجح أن هذه التسمية أتت عرضا، وأنها كانت من صنع رجل واحد هو أسقف بغاي بدليل نص "أوغسطين" – السالف الذكر–، والذي يتجلى من خلاله أن تسمية "مناضلين" كانت هي التسمية الأصيلة والحقيقية التي عرف بها الدوارون والتي احتفظوا بها حتى عهد "أوغسطين". (2)

وإذا كان "أوغسطين" قد نزع من الدوارين هذا اللقب التشريفي، وكان ينعتهم في كتاباته بالاسم المهين (أي الدوارين). فإن "أوبطا الميلي" كان يطلق عليهم تلك التسمية دون اشمئزاز – وهم خصومه– وبذلك كان أقل تحيزا وأكثر أمانة من "أوغسطين".

وتتراءى للباحث عدة تناقضات تدفعنا لأن نتساءل:

– لماذا كان الدوارون يمارسون عملياتهم تحت قيادة "زعماء القديسين"؟

– وهل كانوا يبحثون فعلا عن الاستشهاد رغم أن تصرفاتهم لا تدل على الحرب الدينية مع الكاثوليك؟

يرى "فراند" (*W.H.C. Frend*) أن حركة الدوارين اتخذت – في البداية على الأقل– طابعا اجتماعيا. فضرباتها كانت موجهة إلى طبقة معينة تضم كبار الملاك (*Possessores*) والمقرضين (*Creditores*) والأسياد (*Domini*). وهذه الفئات تمثل الطبقة المالكة التي كانت تستغل وتستعبد الفلاحين. والدوارون كانوا قد نصبوا أنفسهم حماة الطبقات المستضعفة: من مدينين (*Debentes*) وعبيد (*Servi*) ومزارعين (*Coloni*). (3)

1- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme …, Op.cit., p. 343.

2- Augustin (St.), Enn. In. Psalmus, CXXXII, VI.

3-Frend (W.H.C.), Heresy and schism as social and national movements, studies in church History, Vol. 9, Cambridge, 1972, pp.46-47.

غير أن الطابع الاجتماعي للحركة لا يتنافى مع أي اهتمامات دينية. وإلا كيف نفسر أن الدوارين كانوا يعتبرون رفاقهم الذين سقطوا في معركة "محلة أكطافا" شهداء؟ ولماذا دفنوا في كنيسة "محلة سوبولوس"؟ ألم يكن ذلك رغبة منهم في تبجيلهم واعتبارهم شهداء وتكريمهم بهذه الصفة؟ ألا يمكن اعتبار مبدأ قلب الأوضاع بين الأسياد والعبيد انعكاسا لتأثير ديني يقوم على المساواة بين المؤمنين والوثنيين، بين الضعفاء والأقوياء، وبين المضطَهَدين والمضطَهِدين؟

وكيف نفسر احتفاظ حركة الدوارين بطابعها الاجتماعي حتى عهد "أوغسطين" رغم وضوح طابعها الديني في تلك الفترة (بمهاجمة كنائس الكاثوليك)؟ يبدو أنه من الصعب تجريد حركة الدوارين من السمات الدينية وإن كانت جذورها اجتماعية اقتصادية.

ولئن صحت فرضية "بريصون" (*Brisson*) الذي اعتبر تحول حركة الدوارين من ظاهرة اقتصادية إلى ظاهرة دينية: « **تلك الثورة التي " انزلقت" من ظاهرة اقتصادية "بؤس العمال الفلاحين الأحرار" إلى ظاهرة دينية "الدفاع عن قداسة الكنيسة ضد المتخاذلين"**. » [1] فإن ذلك "الانزلاق" [*] كان قد بلغ درجة متقدمة – على ما يبدو– بتبجيل الدوارين "لشهدائهم" إثر معركة "محلة أكطافا" ودفنهم في الكنائس.

يتطلب الأمر البحث عما إذا كانت حركة الدوارين قد شنت حربا دينية مذهبية ضد الكاثوليك؟

يرى "أوبطا الميلي" أن الدوارين لم يفصحوا عن المذهب الذي ينتمون إليه من خلال الرسالة التي بعث بها الأساقفة الدوناتيين إلى الكونت "طورينوس" (*Taurinus*): « ***...هذا النوع من الناس لا يمكن إرجاعهم إلى الصواب في إطار***

1- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme ..., Op.cit., p.349.

**– استعمل نفس المصطلح "انزلاق" (glissement) من طرف شارل كورتوا. - Courtois (Ch.), les vandales et l'Afrique..., Op.cit., p.148.*

الكنيسة... » [1]. فكلمة "كنيسة" الواردة في النص لا يمكن أن تعني إحدى الكنيستين (الكاثوليكية أو الدوناتية) بدون تمييز، أي في معناها العام – كما اعتقدت فانيي (*Vannier*) [2] . ولكن تعني الكنيسة الدوناتية – قطعا–، نظرا لأن الكنيسة الدوناتية كانت تؤمن بوحدة الكنيسة المسيحية، فـ "الكنيسة" في اعتقاد الدوناتيين تنطبق فقط على كنيستهم التي يعتبرونها الكاثوليكية الحقة، والتي يستبعدون فيها كل "المتخاذلين" (*Traditores*) . [*]

ويفهم من النص أن الدوارين كانوا ينتمون إلى الكنيسة الدوناتية، لكن هذه الأخيرة استعصى عليها "إصلاحهم" بالطرق الدينية.

يعتقد "بريصون" أن هناك دليلين من نص أوبطا الميلي نفسه على أن الدوارين كانوا دوناتيين بكل تأكيد[3]، الدليل الأول هو ورود مصطلح "الكنيسة" في نص رسالة الدوناتيين، أما الدليل الثاني فيمكن استنتاجه – حسب بريصون– من كون الدوارين الذين سقطوا في معركة "محلة أكطافا" *Locus octavensis* على يد جنود الكونت "طورينوس" اعتبروا شهداء من طرف رفاقهم، لذلك دفنوا في أضرحة خاصة: "القبور البيضاء" و"الشواهد القبرية" *Dealbatae arae* و" الطاولات" *mensae* وهذه المصطلحات دينية بحتة، فالأمر يتعلق إذن بأشخاص اعتنقوا الدوناتية، ولا يمكن أن يكونوا كاثوليك، لأن عهد اضطهاد الدولة الوثنية للمسيحيين قد انتهى منذ صدور "مرسوم ميلانو" سنة 313م. [4]

1- Optat (St.), III, 4.
2- Vannier (O.), Op.cit., p.20.
* – *ظل الدوناتيون ينعتون أعداءهم بكنيسة " المتخاذلين" (Traditores) (من مصدر Traditio: الذي يعني تسليم الكتب المقدسة وأواني الكنيسة إلى السلطة الزمنية) وكانوا يطلقون عليهم أيضا، حزب "كايكيليانوس" (Pars Caeciliani) ولم يعترفوا أبدا بالكنيسة الكاثوليكية لأنهم كانوا يعتبرون الكنيسة الدوناتية هي الكنيسة الحقة.*
3- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme ..., Op.cit, pp.344-345.
4- Petit (P.), H.G.E.R., T. III, p.58.

نستنتج مما سبق أن الدوارين منذ هذا التاريخ كانوا – على الأرجح – ينتمون إلى الدوناتية. ومما يعزز هذا الاستنتاج أن تلك الأحداث كانت نوميديا مسرحا لها، وهي التي اعتبرت مهد الدوناتية ومركز إشعاعها وظلت معقلها طيلة التاريخ الدوناتي.

ومع ذلك فهنالك من الأحداث ما يثير تساؤلا حول الانتماء العقائدي لبعض الدوارين في تلك الفترة: هل كان كل الدوارين دوناتيين؟ أم كان بعضهم كاثوليكيا؟

يرى "بريصون" (*J.P.Brisson*) أن الأحداث التي شهدتها "محلة سوبولوس" تعطينا دليلا مقنعا على وجود دوارين كاثوليك. [1] وقد أورد "أوبطا الميلي" تلك الأحداث كما يأتي: « **ولما بدأ الدوارون يدفنون هؤلاء (قتلى معركة محلة أكطافا) في الكنائس، فإن كلاروس (*Clarus*) كاهن محلة "سوبولوس" أرغم من طرف أسقفه على منعهم من القيام بهذا الدفن، لذا فإنه – على ما يقال– كفرد تعميم هذا المنع على الدوارين، بما أنهم حرموا من الدفن في بيت الله.** » [2]

ويمكننا أن نتساءل – انطلاقا من هذا النص–: إلى أي كنيسة كان ينتمي الكاهن "كلاروس"؟ هل كان دوناتيا أم كاثوليكيا؟

ترى "فانيي" (*Vannier*) أن سكوت النص عن الانتماء العقائدي للكاهن "كلاروس"، يسمح بافتراض أنه كان كاثوليكيا. [3]

ويعتقد "بريصون" بما أن الكاهن "كلاروس" كان يتلقى الأوامر من أسقف كنيسة محلة "سوبولوس" بعدم دفن القتلى في الكنيسة فإن ذلك الإجراء كان يتماشى مع التقاليد الكاثوليكية، أكثر مما يتفق مع التقاليد الدوناتية التي كانت تبجل شهدائها. وهذا منذ اضطهاد "قسطنطين" (*Contantin*) لكنيستهم خلال الفترة (317–318م)، واعتبر ذلك

1- Brisson (J.P) Autonomisme et christianisme ..., Op.cit, p349.
2- Optat (St), III, 4.
3- Vannier (O), Op.cit, p. 21.

دليلا على أننا بصدد كنيسة كاثوليكية. ولما كان بعض الدوارون قد لجأوا إلى كنيسة "محلة سوبولوس" بالذات دون غيرها، فإن ذلك يعني – حسب بريصون– أنها تتفق مع عقيدتهم ومذهبهم. (1)

وهكذا يرى كل من "بريصون" (2) و"فانيي" أنه بالإمكان الاعتماد على هذا النص لإثبات وجود بعض الدوارين الكاثوليك أيضا.(*) والحقيقة أن الدليل الأول الذي قدمه "بريصون" للبرهنة على انتماء بعض الدوارين إلى الكنيسة الكاثوليكية يتناقض مع الدليل الثاني الذي استند إليه لإثبات دوناتية بعض الدوارين.

ومن جهة أخرى يفترض "مونصو" (3) أن حظر دفن الدوارين القتلى في الكنائس كان قد صدر عن مقررات مجمع كنسي دوناتي. (**)

يبدو أن هذا الافتراض أكثر توافقا مع الظروف التي صاحبت تلك الأحداث. فالدوناتيون هم الذين طلبوا تدخل جنود "طورينوس" ضد الدوارين. فلماذا نستبعد أن يكونوا هم أنفسهم (الدوناتيون) الذين قرروا هذا الحظر، وأن "كلاروس" وأسقفه كانا دوناتيين؟ وإذا افترضنا وجود "دوارين كاثوليك" فكيف نفسر ما قاله "أوبطا الميلي" عن كون أعمالهم: «***جلبت الحقد على الأساقفة الدوناتيين***»(4) بينما لم تلحق أي ضرر بالأساقفة الكاثوليك؟

1- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme ..., Op. cit., p.349.
2- Ibid., pp.349-350.
– يفترض "كورتوا" و"فانيي" وجود دوارين كاثوليك، لكن دون تقديم أدلة على ذلك. - Courtois (Ch.), les Vandales..., Op.cit., pp. 148-149 ; Vannier (O), Op.cit, p. 21.
3- Monceaux (P.), H.L.A.C, IV, pp. 335- 471 ; V, p. 44.
– كان الأسقف الدوناتي "كريسكونيوس" (Cresconius) قد حرم الانتحار بالارتماء من أعلى الجروف في عدة مجامع كنسية دوناتية، وقد أشار إلى ذلك القديس أوغسطين في رده على كريسكونيوس: « ...لا يهمنا أن يتبجح أساقفتكم بكونهم منعوا هذا الانتحار وأدانوه في مجامعهم كما ذكرت... » . -Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XLIX, 54.
4- Optat (St.), III, 4.

أعتقد أن انتماء الدوارين في أغلبيتهم الساحقة – إن لم يكن في مجموعهم– إلى الدوناتية أمر لا شك فيه. ويشكل دليلا قاطعا على أن الوجود الدوناتي في نوميديا الجنوبية كان سائدا بشكل كبير – على الأقل قبل سنة 347م–، وإن الكاثوليكية لم يصبح لها وجود في تلك المنطقة من المغرب القديم إلا بعد تدخل السلطة الرومانية لصالحها سنة 347م.

وأصبح الدوارون يشكلون رؤوس رماح الانشقاق الإفريقي، ومما ساعدهم على تبوأ تلك المكانة وجودهم بكثافة في منطقة واحدة هي نوميديا (إضافة إلى بعض المناطق المجاورة من البروقنصلية ومن موريطانيا السطيفية)، التي كانت تضم الضياع الكبرى (*Latifundia*) (*) التي يتوفر فيها العمل الموسمي، لذا كانت معقل الدوناتية.

وفي هذا السياق يتبادر إلى أذهاننا تساؤلا رئيسيا هو: إذا كان الدوارون دوناتيين، فلماذا طلب الأساقفة الدوناتيون تدخل الجيش ضدهم؟

يجيب "أوبطا الميلي" عن هذا التساؤل بقوله: « ... ***ونظرا لكون هذه التصرفات جلبت الحقد على أساقفة حزبكم، فإنهم - على ما يقال- بعثوا رسالة إلى "طورينوس" (Taurinus) – الذي كان يشغل آنذاك وظيفة "كونت" (Conte) – أعلنوا فيها أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يمكن إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة، لذا فإنهم طلبوا من الكونت المذكور أن يعمل على إرجاعهم إلى الطريق السوي...*** » (1)

*– كانت الضياع الكبرى موجودة أيضا في إقليم "بيزاكينا" (Byzacena) "المزاق حاليا"، ويبدو حسب "لانسال" أنها لم تكن تستغل اليد العاملة الموسمية، ويعود ذلك إلى قدم استقرار السكان في الإقليم، وسيادة نظام المزارعة في الأراضي التي كانت بحوزة الطبقة الأرستقراطية السيناتورية القرطاجية. - *Lancel (S.), Originalité de la province écclésiastique de Byzacène, C.T., XII, n°45-46, 1964, pp.147-148.*

1 - Optat (St.), III, 4.

يبدو من النص أن الأساقفة الدوناتيين أرادوا التملص من تحمل أية مسؤولية بخصوص تصرفات الدوارين. وأن هذا الموقف الذي اتخذوه منهم كان بسبب كثرة الشكاوي التي كانت ترد من الملاك والأسياد والدائنين والتي أثرت على السلطة الزمنية.

ويفهم من النص أن السلطة الزمنية كانت قد أوعزت إلى السلطة الكنسية بمحاولة إقناع الدوارين حتى يتخلوا عن تلك التصرفات. مما يوحي بوجود روابط تبعية روحية للدوارين حيال الأساقفة الدوناتيين. ولما فشلت محاولاتهم أقدموا على الاستعانة بالجيش فبعثوا برسالة إلى الكونت "طورينوس".

ويوحي النص أيضا أن الأساقفة الدوناتيين بالغوا نوعا ما في تنكرهم لأعمال الدوارين، لأنهم لم يكتفوا بالإعلان عن فشلهم في إقناع الدوارين. بل طلبوا من قائد الجيش أن "يعمل على إرجاعهم إلى الطريق السوي". فتدخل الكونت "طورينوس" جاء كرد على رسالتهم واستجابة لطلبهم.

هل يمكن أن نشك في نزاهة "أوبطا الميلي"، ونعتبر أنه كان يريد تأكيد مسؤولية الدوناتيين في مجزرة "محلة أكطافا"؟ ذلك ما لا يمكن أن نجزم به، فتصرفات الدوارين – كما تتجلى من خلال النص– والظروف التي عرفتها الكنيسة الدوناتية في تلك الفترة، تبين أن ما ذهب إليه "أوبطا الميلي" يتفق مع السياق التاريخي.

نستشف من نص "أوبطا الميلي" كذلك بعض السمات الرئيسية التي اتسم بها الدوارون ومنها استقلالهم التام عن رجال الكنيسة الدوناتية وعدم الامتثال لأوامر أساقفتها. فقد عجز الدوناتيون عن "إرجاعهم إلى الطريق السوي في إطار الكنيسة"، وأرغموا قسرا على عدم دفن "شهدائهم" في كنيسة "محلة سوبولوس". ثم إن الدوارين هم الذين عينوا رؤساءهم "زعماء القديسين" دون تدخل الكنيسة الدوناتية في ذلك.

وتتجلى – من خلال النص– السمة الرئيسية الثانية وهي عدم اكتراث الدوارين للنزاع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين. فعملياتهم الثورية لم تكن موجهة ضد أية جهة دينية، ولا لصالح أي كنيسة معينة. وإذا كانت حركتهم لا تخلو من بعض السمات الدينية، كما يبدو من موقفهم إزاء "شهدائهم". [1] ومن الألقاب التي تسموا بها: "المناضلون"[2] (*Agonisticos*) و"القديسون"[3] (*Sancti*)، فإنهم لم يكونوا رواد حزب ديني ولا رؤساء الكنيسة المنشقة.

وهكذا، فإن أهداف الدوارين كانت لا تتوافق مع أهداف الكنيسة الدوناتية. فقد كانت هذه الأخيرة تحارب كنيسة "المتخاذلين" (*Traditores*)، أما حركة "أكسيدو" و"فازير" فكانت موجهة ضد طبقة المستغِلين كيفما كانت عقيدتهم ومذهبهم. [4] وكان الاختلاف واضحا في طرق العمل، فالكنيسة الدوناتية كانت تحاول أن تظهر نفسها على أنها الكنيسة المسيحية الحقة أي الكنيسة "الكاثوليكية"، [5] وأن كنيسة "كايكيليانوس" هي كنيسة "المتخاذلين" المتواطئة مع السلطة الزمنية.

لقد تعرضت الكنيسة الدوناتية للاضطهاد غداة صدور قانون سنة 316م. [6] ونتيجة لذلك وجهت طلب العفو إلى الإمبراطور قسطنطين (الشكل رقم 36 ص 575) الذي أصدر قانونا يقضي بالتسامح الديني، والسماح للأساقفة الدوناتيين بالعودة من المنفى سنة 321م. [7] وأخذ "قسطنطين" على عاتقه تعويض الكاثوليك عن بعض الكنائس التي انتزعها منهم الدوناتيون قسرا مثل كنيسة قسنطينة سنة 330م، فبنى لهم كنائس جديدة. [8]

---

1 - Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme …, Op.cit., p. 349.
2 - Augustin (St.), Ennar. In. Psalmus, 132, 6.
3 -Vannier (O.), Op.cit., p.17.
4 -Brisson (J.P), Op.cit., pp. 330-331, Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 12-13.
5 -Augustin (St.), Epist., 88, 2.
6 -Martroye (F.), la répression du Donatisme, M.S.N.A.F., 1914, p.52.
7 -Ibid., p. 54.
8 - Duchesne (L.), Le Dossier du Donatisme, M.E.F.R., 1890, pp. 612-613.

وقد استغلت الكنيسة الدوناتية هذا "السلم الديني" وهذا التسامح من طرف السلطة الزمنية لتتوسع جغرافيا. فبالإضافة إلى نوميديا التي كانت تمثل معقل وحصن الدوناتية الحصين، تمكنت من الانتشار في موريطانيا. وفي سبيل ذلك، تخلت عن أحد مبادئها الأساسية بالتخلص من إعادة تعميد المعتنقين الجدد للدوناتية، لكي تسهل التحاق الموريطانيين بحظيرتها. (1)

وكانت عملية إعادة تعميد المسيحيين "المتخاذلين" (*Traditores*) وأصحاب البدع (*Haeretici*) أحد مبادئ الدوناتية الرئيسية ونقطة الاختلاف الجوهرية بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية.(*)

ونعتقد أن هذا "التساهل" أو "التراجع" في مبادئ الدوناتية كان يهدف إلى إرضاء مسيحيي الموريطانيتين القيصرية والسطيفية الذين كانوا – حسب أوغسطين– يأنفون من تلك العادة الدوناتية. (2)

يتضح مما سبق أن مواقف الكنيسة الدوناتية كانت مواقف بعيدة عن التعصب والتطرف تجاه السلطة الزمنية، أو حيال مبادئها الأساسية. لذلك نراها تتخلى عن أهم هذه المبادئ والتي تتعلق بإعادة التعميد كي تكسب رضا المعتنقين الجدد، وتتجنب المواجهة مع الكنيسة الكاثوليكية والدولة. في حين انتهج الدوارون طريق العنف والتهديد والسطو لحماية المظلومين من الطبقة المستغِلة باسم "القديسين" وتحت شعار الكنيسة الدوناتية نفسها.

---

1 -Monceaux (P.), H.L.A.C, IV, pp. 333-334.

– يعود الاختلاف بين الكنيستين إلى وظيفة "خادم السر" (Minister)، فالكنيسة الدوناتية ترى أن خادم السر يجب أن يكون طهورا منزها قديسا (Sanctus)، ولذلك يعتبرون كنيستهم "كنيسة القديسين" (ecclésia Sanctorum) وأن لا تعميد يصح خارجها. أما الكنيسة الكاثوليكية فترى أن أي خادم سر مسيحي يمكنه إعطاء التعميد، وقد تعرض أوغسطين لهذه القضية في كتابه:

- Augustin (St.), De Baptismo, B.A, 29.

2 -Augustin (St.), Epist., XCIII, X, 43 ; Brisson (J.P.), Autonomisme…, Op.cit., p.218.



(أ)



(ب)

الشكل رقم 36: الإمبراطور قسطنطين.

أ–رأس تمثال ضخم للإمبراطور قسطنطين من الرخام يقدر ارتفاعه بحوالي 260 سم يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي، يوجد في قصر المحافظين – متحف الكابيتول– بروما.

ب–ميدالية من الذهب الخالص تمثل قسطنطين وإلى جانبه رمز الانتصار الذي أصبح ينعت به *invictus* ويحمل درعا مزخرف بكدريجة شمسية (وهي مركبة القادة الرومان بدولابين تجرها أربعة جياد).

نقلا عن: *-Henri Grégoire, La statue de Constantin et le Signe de la Croix, In: Antiquité Classique, Tome 1, fasc. 1-2, 1932. pp. 135-143.*

وهكذا تتضح خلفيات أحداث سنة 340م، ويصبح من المنطقي أن يتبرأ الأساقفة الدوناتيون من عنف وشغب الدوارين، هذا العنف الذي يمكن أن يستغله أعداؤهم الكاثوليك لتأليب السلطة الرومانية ضدهم.

يبدو إذن أن حركة الدوارين – رغم انتمائها إلى الكنيسة الدوناتية– كانت تشكل حركة مستقلة لها أهدافها ومبادئها وتنظيمها وغاياتها الخاصة – على الأقل قبل سنة 347م–، على عكس ما كانت تذهب إليه الكتابات الكاثوليكية التي تعتبر الدوارين دائما عساكر الدوناتية ورؤوس رماحها. إلا أنه يمكن ملاحظة –من خلال النصوص السابقة– أن سياسة الأساقفة تجاه الدوارين غير متطابقة – أحيانا– مع مواقف الكهنة الصغار.

فنص "أوبطا الميلي" – الآنف الذكر– يشير إلى أن "كلاروس" كاهن "محلة سوبولوس" أرغم من طرف أسقفه على منع الدوارين من دفن "شهدائهم" في الكنيسة.[1] والأرجح أن شعور "كلاروس" تجاه الدوارين كان مغايرا لشعور الأساقفة الكاثوليك.

ويشير "بريصون" إلى أن الكهنة ورجال الدين الصغار كانوا يشجعون حركة الدوارين في الأرياف. [2] أو على الأقل كانوا يقدمون لهم المساندة المعنوية. ويعود ذلك – في اعتقادي – إلى ظروف العيش المتشابهة بينهما. بل ليس من المستبعد أن يصبح أحد المزارعين (*Colonus*) كاهنا في كنيسة المزرعة بتعيين من الملاك. [3]

وعلى هذا، يمكن القول أن العلاقات بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية كانت – قبل سنة 347م–، تتسم بنوع من الاستقلالية وبعيدة عما يمكن أن وصفه بالتحالف، على عكس بعض الكتابات الكاثوليكية التي تدمج بين الحركتين.

1 - Optat (St.), III, 4.

2 - Brisson (J.P.), Autonomisme…, Op.cit., p.350.

3 - Hamman (A.G.), la vie quotidienne en Afrique au temps de St. Augustin, Paris, Hachette littérature, 1979, p. 285.

المبحث الثاني–أحداث بغاي 347م ونقطة التحول في العلاقة بين الدوارين والدوناتية:

غيرت أحداث بغاي سنة 347م الاتجاه القائل بالتحالف بين الدوارين والحركة الدوناتية قبل سنة 347 ودفعت بهما إلى التحالف لمواجهة الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية.

فقد تركت الأحداث التي شهدتها نوميديا الجنوبية وبغاي تحديدا سنة 347م صدى واسعا في الكتابات الكاثوليكية والدوناتية على حد سواء. [*] كما أشار الدوناتيون إلى تلك الأحداث خلال مناظرة قرطاجة سنة 411م، إلا أنها تبقى إشارات عابرة.

تشير النصوص الدوناتية إلى وجهة نظر الدوناتيين إزاء تلك الأحداث، حيث تتجنب استعمال لفظة "الدوارين" ربما للنعوت التي كانت عالقة به في رأيهم حسب "أوغسطين". [1]

تعتبر أحداث بغاي سنة 347م منعرجا حاسما – ليس في العلاقات بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية فحسب–، ولكن أيضا بالنسبة لتطور الكنيستين المتنافستين، وفي الصراع الديني والسياسي في المغرب القديم برمته. كما تعد حدثا بارزا أثر بشكل حاسم على تطور مجريات الأمور التي عرفتها المنطقة.

يبدو أن الإمبراطور "قنسطانس" قرر التدخل في الشؤون الدينية للمغرب القديم ابتداء من سنة 347م، [2] كما فعل أبوه سنة 316م حينما حسم النزاع بين الدوناتيين والكالثوليك لصالح كنسية "كايكليانوس" (*Caecilianus*). [3]

---

*– من هذه الكتابات نذكر كتاب أوبطا الميلي: *Optat (St.), III, 4.*، وكتابي أوغسطين: *Augustin (St), Psalmus Contra Partem Donati, 144-163 ; Contra Epistulam Parmeniani, I, XI, 1 ;* وكتابي: *Passio Marculi* (آلام ماركولوس) ، و *Passio Maximiani et Isaac* (آلام ماكسيميانوس وإسحاق).
- Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp.35-98.

1 -Augustin (St.), Ennar in Psalmus, 132,6.
2 - Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.35, 241.
3 - Martroye (F.), la répression du Donatisme , M.S.N.A.F., 1914, p.37.

ولأجل ذلك، أصدر الإمبراطور "قنسطانس" قانونا [*] جديدا يؤكد الحكم الذي أصدره أبيه في سنة 316م. وبذلك يكون هذا القانون قد أبطل قانون التسامح الذي منحه الإمبراطور للكنيسة الدوناتية سنة 321م. فأصبح الدوناتيون – بموجب هذا القانون– معرضين للنفي ومصادرة كنائسهم إذا ما أقدموا على رفع دعوى ضد الكاثوليك بتهمة الارتداد التي كانت تهمة ملفقة حسب حكم "قسطنطين". [1]

أرسل الإمبراطور "قنسطانس" (*Constance*) سنة 347م، مبعوثان إمبراطوريان هما "بولس" (*Paulus*) و"ماكاريوس" (*Macarius*) في مهمة رسمية إلى قرطاجة. وإذا كنا نجهل فحوى هذه المهمة، فإنه يبدو أنها تتعلق بالصراع الدائر بين الكنيستين ووضع حد للفرقة وحثهما على الرجوع إلى "الوحدة" حسب الكاثوليك. [2] أو بإكراه الأمة المسيحية –أي الدوناتيين– بالسيف على الوحدة مع المتخاذلين – أي الكاثوليك– حسب وجهة نظر الدوناتيين. [3]

يذكر "أوبطا الميلي" أن المبعوثين الإمبراطوريين لم يفصحا في بداية الأمر عن أهدافهما من القدوم إلى المغرب القديم، حتى لا يثيرا غضب الدوناتيين. [4]

ويشير "مارطروي" أن الدوناتيين أنفسهم يعترفون أن "بولوس" و"ماكاريوس" لدى وصولهما إلى قرطاجة، لم يقوما بأي عمل يتطلب اللجوء إلى العنف. بل قاما بتوزيع الهبات والمساعدات التي بعث بها الإمبراطور "قنسطانس" وحث الكنيستين المتناحرتين

- كان المرسوم Edictum في التشريع الروماني مؤقتا وقابلا للنقض ينتهي بانتهاء مهمة صاحبه (حاكم أو إمبراطور)، أما القانون "Decretun" بمعناه الروماني فيعني قرار اتخذه الإمبراطور وهو عبارة عن حكم قضائي يطبق مقتضيات الحكم الصادر على الدوناتية. ولما كانت الأحكام القضائية قابلة للمراجعة والاستئناف، فإن الكاثوليك كانوا يسعون عند وصول إمبراطور جديد إلى العرش أن يصدر قانونا جديدا يؤكد الأحكام السابقة. *-Martroye (F.), la répression du Donatisme, pp.65-66.*

1 - Ibid., p. 68.

2 - Optat (St.), III, 4.

3 - Martroye (F.), la répression du Donatisme, p. 63.

4 - Optat (St.), III, 3.

على التصالح وتحقيق الوحدة الدينية. [1] لكن لما انتقل المبعوثان الإمبراطوريان إلى نوميديا، وقع الاصطدام في مدينة "بغاي" سنة 347م، حيث أقدم المبعوثان إلى طلب تدخل الجيش، بينما استنجد أسقف بغاي الدوناتي بالدوارين "المناضلين". [2]

ودارت معركة بغاي بين جيش الكونت "سيلفستر" (*Sylvestre*) و"الدوناتيين"، وقد اتخذ المبعوثان الإمبراطوريان إجراءات في غاية القساوة. وأشارت المصادر أن بعض الأساقفة الدوناتيين تعرضوا إلى الإهانة بجلدهم، وقتل بعضهم، [3] وسجن البعض الآخر. [4]

وقد أسفرت تلك المواجهات عن سقوط عدد من الدوناتيين "شهداء" – حسب الدوناتيين– من أبرزهم: "دوناتوس" [*] أسقف بغاي الدوناتي، و"ماركولوس" [**] "*Marculus*" الذي عثر على شاهدة قبره في كنيسة "فيجيزيلا" *Vegesela* ، وشهداء دوناتيين آخرين مثل: "ماكسيميانوس" (*Maximianus*) و"إسحاق" (*Isaac*). [***]

1 - Martroye (F.), Op.cit., p. 69; Warmington (B.H.), The North African Provinces…, p93.
2 - Optat (St), III, 4.
3 -Martroye (F.), la répression du Donatisme , pp.49-50.
4- Optat (St.), II, 15.
**– هو "دوناتوس" أسقف بغاي وهو غير "دوناتوس الأكبر" ، زعيم الكنيسة الدوناتية ومؤسسها وجثليقها في قرطاجة.*
- Martroye (F.), Une tentative de révolution sociale…, Op.cit., p. 368.
***– عثر على شاهد تذكاري Memoria له بكنيسة فيجيزيلا Vegesela (قصر الكلب حاليا قرب خنشلة)، وأقام له الدوناتيون حيث قتل مكانا مقدسا يحجون إليه يعرف بـ "نوفا بترا" Nova Petra أي الصخرة الجديدة (شمال باتنة). Cayrel (P.), Une Basilique Donatiste de Numidie, M.E.F.R., LI, 1936, pp. 114-142.*
****– هما دوناتيان من قرطاجة ألقي بالأول حيا في البحر، ومات الثاني في السجن قبل أن يرمى به في البحر أيضا سنة 347م، خلد الدوناتيون ذكراهما في كتاب: آلام ماكسيميانوس وإسحاق (Passio Maximiani et Isaac). عن كتاب "آلام الشهداء الدوناتيين" أنظر: -Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp .35-36 ; V, pp. 35-98.*

ويذكر "مارطروي" أنه إضافة إلى مقتل" دوناتوس" زعيم الكنيسة الدوناتية. فإن عددا آخر من الدوناتيين تعرضوا للنفي وصودرت كنائسهم وانتزعت منهم ممتلكاتهم، وسلطت العقوبات على كل من يتعامل مع الدوارين. (1)

هذا ما ذكرته المصادر الدوناتية والكاثوليكية عن أحداث تلك الفترة. وكان من الطبيعي أن تتضارب وجهات النظر وتختلف الآراء بين الدوناتيين والكاثوليك في تقدير حجمها.

فقد اعتبر الدوناتيون كنيستهم "كنيسة الشهداء" وكنيسة خصومهم الكاثوليك "كنيسة المتخاذلين". (2) أما الكاثوليك فقد حملوا الدوناتيين مسؤولية عنف الدوارين، وحاولوا تبرير لجوء السلطة الزمنية إلى العنف ضد المنشقين وأصحاب البدع حسب "أوبطا الميلي". (3)

وأشار "مارطروي" إلى أن الكاثوليك كانوا دائما يذكرون الدوناتيين أنهم سبقوهم في الاستنجاد بالإمبراطور "قسطنطين" *Constantin* وطلب مساعدته لمواجهة عنف الدوارين في سنة 314م. (4)

وتجدر الإشارة أن المواجهات بين الدوناتيين وقوات الكونت "سيلفستر" *Sylvestre* كانت قد انطلقت شرارتها من مدينة "بغاي" وأن الجيش تدخل لأول مرة ضد الدوناتيين في سنة 347م. (5)

وقد أورد "أوبطا الميلي" أحداث بغاي في الفصل الرابع من كتابه الثالث، ويلخص تلك الأحداث فيما يأتي: « ... ***كانت مهمة "بولوس" و"مكاريوس" تتلخص في القيام بتعداد الفقراء، وتوزيع الصدقات عليهم من جهة، والحض على الرجوع إلى الوحدة الدينية من جهة***

1 - Martroye (F.), Une tentative de révolution sociale..., Op.cit., pp.69-71.
2 - Augustin (St.), Contra Litteras Petiliani, II, XVII, 40.
3 - Optat (St.), III, 4.
4 - Martroye (F.), Une tentative de révolution sociale..., Op.cit., p.32.
5 - Martroye (F.), Ibid., p.47.

ثانية. وعندما اقترب المبعوثان من مدينة بغاي، اعتزم أسقفها الدوناتي المسمى "دوناتوس" وهو عدو الوحدة الدينية، عدم الرضوخ لهما ومقاومتهما. ثم بعث المنادين (Praecones) إلى ضواحي مدينة بغاي وإلى كل الأسواق (Nundinae) كي يستدعي الدوارين "المناضلين" (Circumcelliones Agonisticos) إلى التجمع في مكان ما كان **قد عينه لهم. وهكذا طلب عندئذ العون من أولئك (الدوارين) الذين كانت** ***أعمالهم الجنونية تعتبر قبل قليل عند أولئك الأساقفة (الدوناتيين) أنفسهم كلهيب من الزندقة والكفر...*** **»** [1]

حاول "أوبطا الميلي" – من خلال النص – أن يبرئ ساحة الكاثوليك، ويرد على الدوناتيين واتهامهم للكاثوليك بأنهم كانوا السبب في وقوع أحداث "بغاي".

والحقيقة أن "دوناتوس" أسقف بغاي قاد "جمهرة ثائرة" (*Furiosam turbam*) من الدوارين واجه بها مبعوثي الإمبراطور "صانعي الوحدة" (*Operarii unitatis*) اللذان – خوفا على الأموال التي كانا يحملانها– اضطرا إلى طلب تدخل جنود الكونت "سيلفستر"، الذي لم يكن في نيته الهجوم، لولا الحشود التي جمعها "دوناتوس" من الدوارين، وحول كنيسته إلى مخزن للحبوب والمؤن والأسلحة.

وكانت فرقة عسكرية مرافقة للبعثة قد انفصلت –عند مشارف مدينة بغاي– تتكون من جنود الاستطلاع (*Metatores*) كلفوا بتهيئة المخيم. إلا أنهم فوجئوا بهجوم مجموعة من الدوارين فجرح بعضهم. فلما رأى رفاقهم تلك الجروح ثارت ثائرتهم وأرادوا الانتقام، وهكذا قتلوا بضعة أفراد من الدوارين.

يتضح من رواية "أوبطا الميلي" أن الهدف من سردها هو إبعاد التهم عن الكاثوليك وتحميلهم مسؤولية تدخل الفرقة العسكرية ضد "دوناتوس" والدوارين. لذلك حاول تبرير ما حدث بأن المبعوثين الإمبراطوريين لم يطلبا تدخل الجيش إلا بعدما علما أن "دوناتوس" كان يستكمل استعداداته الحربية بجمع المؤن والأسلحة في الكنيسة.

---

1 - Optat (St.), III, 4.

والملاحظ أيضا أن "أوبطا الميلي" حاول التقليل من أهمية حادث "بغاي"، رغم أنه اعتبره منطلق عمليات القمع التي مست الكنيسة الدوناتية في نوميديا وفي المغرب القديم بشكل عام.

يعد ما شاهدته مدينة "بغاي" سنة 347م حدثا خطيرا، وإلا لما ظل ماثلا في الأذهان بعد مرور عشرين سنة، أي في التاريخ الذي كتب فيه أوبطا الميلي مؤلفه. (*) بل أثير هذا الحادث في مناظرة قرطاجة سنة 411م، أي بعد أكثر من نصف قرن من وقوعه.

ونرجح أن يكون عدد قتلى الدوناتيين أكثر من "بضعة أفراد" وأن عدد جرحى الفرقة العسكرية كان أكثر من "اثنين أو ثلاثة جنود" كما ادعى "أوبطا الميلي".

وتعتقد "فانيي" (*Vannier*) أن المجادل الكاثوليكي أعطى لحادث "بغاي" أهمية أكثر مما كان بالفعل. وأن الأمر لا يعدو أن يكون "***هجوم مجموعة من اللصوص على قافلة، وهو أمر عادي يتوقع حدوثه في تلك الفترة "القرن الرابع" التي عرفت فيها الإمبراطورية الرومانية أزمات اقتصادية واجتماعية.***" (1)

ونجد في المقابل، أن "أوبطا الميلي" وجه تهما إلى أسقف بغاي الدوناتي، وحمله مسؤولية تنظيم مقاومة البعثة الإمبراطورية. أما الدوارون فكانوا – على حد قوله – مجرد أداة طيعة في أيدي الدوناتيين، بحيث يمكن للأسقف الدوناتي أن يجمعهم "في المكان الذي حدده لهم".

- ترك أوبطا الميلي مؤلفه الوحيد الذي خصصه للرد على "بارمينيانوس" Parmenianus أسقف قرطاجة الدوناتي من 363م إلى 391م، ويعرف كتابه بأحد العنوانين: 1-الرد على "بارمينيانوس" الدوناتي Contra Parmenianum Donatistam ، 2- في الانشقاق الدوناتي De Schismate Donatistarum، استطاع "مونصو" تحديد تاريخ نشر الكتاب خلال الفترة ما بين أكتوبر 366 م إلى أوت 367م. - Monceaux (P.), H.L.A.C., V, p.251.

1 -Vannier (O.), Op.cit., p. 25.

والحقيقة أن الدوارين كانوا قبل حادث "بغاي" مستقلين عن الكنيسة الدوناتية غير مهتمين بالخلافات المذهبية التي عرفها المغرب القديم بين الكاثوليك والدوناتيين. وكانت عملياتهم موجهة ضد الملاك والأسياد والمستغِلين. كانوا يتمردون على أوامر الأساقفة الدوناتيين مما دفع هؤلاء إلى طلب تدخل الجيش ضدهم، فكانت مجزرة "محلة أكطافا" وهذا ما أورده "أوبطا الميلي" بقوله: « ... ***وهكذا طلب العون من أولئك الذين كان الأساقفة أنفسهم يرون قبل قليل أن جنونهم اشتعل بطريقة مدنسة*** » .[1]

ويمكننا أن نتساءل في هذا الصدد: لماذا وقع في نوميديا (بغاي) ما لم يقع في البروقنصلية (قرطاجة)؟ رغم أن قرطاجة كانت مقر زعيم الكنيسة الدوناتية؟ وهل تتحمل الكنيسة الدوناتية مسؤولية تصرف أحد أساقفتها (أسقف بغاي)؟ ثم لماذا حدثت أعمال العنف في نوميديا إلا عندما دخل الدوارون حلبة الصراع؟

انطلقت أحداث العنف من نوميديا، وعند مشارف مدينة بغاي بالذات. ذلك أن ظروفا خاصة اتسمت بها تلك المنطقة جعلت منها الإقليم المهيأ سلفا لوقوع مثل تلك المواجهات بين السكان والسلطات الرومانية. حيث كانت نوميديا مهد الدوناتية وقلعتها الحصينة منذ نشأة الحركة إلى نهايتها. [2]

وقد ذكر "أوغسطين" أن الأرياف ظلت الحصن الحصين للكنيسة المنشقة. [3] فلا غرابة إذن أن تكون مقاومة البعثة الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم من المغرب القديم دون غيره.

يظهر أن عمليات الدوارين الموجهة ضد الملاك والأسياد – كما أسلفت – كانت هي الأخرى مركزة في نوميديا، وهي التي عرف القسم الجنوبي منها عمليات حركة

1 - Optat (St.), III, 4.
2 - Augustin (St.), Epist. Ad. Cath., XIX, 51.
3 -Augustin (St.), C. Litter. Petil., II, LXXXIII, 184 ; Epist. Ad. Cath., XX, 55.

"أكسيدو" و"فازير" في حوالي سنة 340م، وظلت تلك المنطقة - حتى عهد "أوغسطين" - وخاصة منها منطقة بغاي حقلا رئيسيا لعمليات الدوارين. (1)

لذا تبدو نوميديا (*) وكأنها نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدوارون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية. ولنا أن نتساءل عن أسباب التمرد ومن قاده: هل هم الأساقفة الدوناتيون (أسقف بغاي) الذين استاءوا من تدخل الإمبراطور في شؤونهم؟ أم هم الدوارون الذين اتخذوا الدوناتية وسيلة دينية للتعبير عن مطالبهم الاجتماعية؟

يبدو أن الأساقفة الدوناتيين قد امتعضوا من تدخل الإمبراطور في شؤون المغرب القديم الدينية. وإن كانوا – قبل ذلك – قد طلبوا نصرته، والاحتكام إلى الدولة منذ عهد "قسطنطين" *Constantin* – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – طالما أن "دوناتوس" *Donatus* الأكبر كان قبل هذه الأحداث بسنة واحدة أي في سنة 346م قد راسل

---

1 -Augustin (St.), Brevic. Coll., III, VIII, 13; III, XI, 23.

**– أثار العديد من الباحثين قضية كون نوميديا كانت على مر العصور مهد الثورات والاضطرابات الاجتماعية والدينية والواقع أن هناك عدة عوامل تظافرت لتجعل من تلك المنطقة المجال المهيأ لتلك الاضطرابات ومنها:*

أ– يرى "ديبوا" أن هناك عوامل اقتصادية جعلت من نوميديا منطقة تجذب – على الدوام– الرحل وأشباه الرحل، في وقت الحصاد كانوا يعملون في الحقول وخلال الصيف يرعون مواشيهم.
- Despois (J.), la Bordure Saharienne de l'Algérie Orientale, Rev. Afri, 1942, p.205.

ب– تعتقد م. راشيه، وبن عبو، أن قبائل الموزولامي كانت تقطن في نوميديا وهي التي أبدت مقاومة عنيفة للوجود الروماني في المغرب القديم منذ ثورة "تاكفاريناس" (Tacfarinas) 17–24م التي عرفت تحالف عدة عشائر وشعوب معها.
-Rachet (M.), Rome et les Berbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien, Collection Latomus, Bruxelles, 1970, pp. 84-126 ; Benabou (M.), Op.cit., pp.73-83.

ج– وحسب "وارمنغتون"، فإن نوميديا كانت منطقة حدودية حيث كان وجود الجيش يتطلب إتاوات إضافية لتموينه،
- Warmington (B.H.), The North African Provinces…, Op.cit., p. 100.

د– كما أنها منطقة تنتشر بها الملكيات الكبرى (Latifundia)، حيث معظم السكان كانوا من المزارعين بالحصة أو من العمال المتنقلين وحيث كانت المدن أقل بكثير من البروقنصلية.
- Warmington (B.H.), Ibid., p. 88.

"قنسطانس" *Constance* ليعترف به كأسقف قرطاجة الحقيقي وزعيم أساقفة إفريقيا إثر وفاة خصمه الكاثوليكي "كايكيليانوس" (*) (*Caecilianus*).

لكن نجد أن هؤلاء الأساقفة الدوناتيين قد رفضوا البعثة الإمبراطورية التي قدمت إلى المغرب القديم قصد الوساطة بين الكنيستين المتناحرتين، لكونهم كانوا يدركون أن السلطة الزمنية تدخلت لصالح الكنيسة الكاثوليكية. وإن كانت مهمة المبعوثان "بولوس" و"مكاريوس" في الظاهر تبدو مهمة سلمية، وكان الغرض منها توزيع الهبات ومساعدات الإمبراطور لتهدئة الدوناتيين والرجوع إلى الوحدة الدينية للكنيسة الإفريقية.

فإنه سرعان ما اتضح تحيز المبعوثين الإمبراطوريين، حيث بمجرد وصولهما إلى قرطاجة اتجها إلى كنيسة الأسقف "غراتوس" *Gratus* – خليفة "كايكيليانوس"– للقيام بشعائرهما الدينية، وتجاهلا وجود "دوناتوس". فكان من الطبيعي أن يفهم الدوناتيون أن قضيتهم قد حكم عليها المبعوثان مسبقا. ومن ثم رفضوا تدخل الإمبراطور في الشؤون الدينية، ورفعوا شعارهم:« ***ما شأن الإمبراطور والكنيسة؟*** » [1] كما رفضوا الهبات والمساعدات التي بعث بها. [2]

هكذا برر الأساقفة الدوناتيون موقفهم تجاه البعثة الإمبراطورية، فرفضهم للهبات لا يشكل سببا كافيا يدفعهم للجوء إلى العنف حسب ما أورده "أوبطا الميلي". [3]

وأعتقد أن هذا العنف لم يكن ليتم لولا تدخل الدوارين "المناضلين"، فهم الذين هاجموا فرسان الفرقة العسكرية التي استنجد بها "بولوس" و"ماكاريوس" صانعي الوحدة كما يسميهما "أوبطا الميلي". [4]

**– هو أسقف قرطاجة الذي كان عدم الاتفاق على سيامته السبب المباشر لميلاد الانشقاق الدوناتي سنة 312م، ويعتبر أول زعيم كاثوليكي على عهد الدوناتية. توفي سنة 346م فخلفه "غراتوس" Gratus على رأس أبرشية قرطاجة والكنيسة الكاثوليكية.*
- Maier (J.L.), l’épiscopat de l’Afrique Romaine, Op.cit., pp. 95, 453.

1 - Optat (St.), III, 3.
2 -Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp.34, 55.
3 - Optat (St.), III, 4.
4 - Optat (St.), III, 4.

وإذا كانت الأحداث تشير بقوة إلى الدوارين باعتبارهم العنصر الفعال الذي واجه البعثة الإمبراطورية، فمن الواضح أن هذا التدخل لا يعود إلى رفض رجال الدين الدوناتيين لقانون "قنسطانس" وإنما إلى تمرد الدوارين. فقد كان الدوارون منذ سنة 340م يقومون بأعمالهم تحت قيادة "زعماء القديسين" وذلك ضد إرادة الأساقفة الدوناتيين أحيانا، لأن أعمالهم تلك كان من شأنها أن تؤلب السلطة الرومانية ضد الكنيسة الدوناتية.

وتعتقد "فانيي" أن عدد الدوارين قد تزايد رغم مجزرة "محلة أكطافا" في حوالي سنة 340م، ربما لأنهم في منأى عن مضايقات السلطة الزمنية أو – على الأرجح– لعجز هذه السلطة عن مضايقتهم. (1)

ولا أستبعد أن يكون بعض رجال الدين الدوناتيين قد أبدوا نوعا من التعاطف مع حركة الدوارين. وأيا كان موقفهم من الدوارين فإن تركز الحركة في المجال الحيوي للدوناتية (نوميديا الجنوبية) يعتبر دليلا مقنعا على تبعية الدوارين للدوناتيين وتحريضهم على التمرد.

وكان الكاثوليك يبحثون عن هذا الدليل، لذا سعوا لدى الإمبراطور "قنسطانس" للحصول على قانون جديد يؤكد حكم "قسطنطين" ضد الدوناتية. (2) لذلك وصل إلى قرطاجة المبعوثين الإمبراطوريين "بولوس" و"مكاريوس" في مهمة سرية تحت قناع "عد الفقراء" و"توزيع الصدقات" ودعوة الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية إلى الوحدة الدينية. (3)

والواقع أن هدف المبعوثين هو محاولة معرفة مدى صحة اتهامات الكاثوليك للدوناتيين، ومدى خطورة الأوضاع في المغرب القديم. وإلا كيف نفسر توجه المبعوثان

1 - Vannier (O.), Op.cit., p.21.
2 - Martroye (F.), la répression du Donatisme…, Op.cit., pp. 45-46.
3 - Optat (St.), III, 4.

إلى عاصمة الإقليم سيرتا (*) قبل أن يصلا إلى بغاي؟ فالمبعوثان الإمبراطوريان تجنبا التوغل في تلك المنطقة لأنها كانت تمثل قلعة الدوناتية ومجال تمرد الدوارين.

وفي هذا السياق نورد ما قاله "أوبطا الميلي" – بشيء من التحفظ– أن استعدادات الأسقف "دوناتوس بغاي" هي التي دفعت المبعوثين الإمبراطوريين إلى طلب حماية الكونت "سيلفستر" وحاميته. [1]

يبدو من الأرجح أن البعثة الإمبراطورية كانت تصاحبها فرقة عسكرية منذ دخولها إلى نوميديا. [2] لأن انعدام الأمن في الإقليم نتيجة عمل الدوارين كان يفرض على البعثة أخذ احتياطاتها، كما أشار إلى ذلك "أوبطا الميلي": « **فالطرق نفسها لم تكن آمنة في عهد** "**أكسيدو**" **و**"**فازير**". » [3] و"أوبطا الميلي" نفسه يميل إلى هذا التفسير حينما يقول: « **وأمام هذه الوضعية الخطيرة، فإن حاملي الكنوز المخصصة للفقراء انتابهم الخوف، فارتأوا أن يلتمسوا من "الكونت" سيلفيستر التدخل بالسلاح .**» قبل أن يضيف: « **لم يكن في نية المبعوثين الإمبراطوريين الهجوم ولكن الدفاع عن النفس في حالة هجوم دوناتوس.** » [4]

يفهم من النصوص السابقة ومن أحد النصوص أيضا التي أوردها "أوغسطين" الذي يشير إلى أن الدوارين: « **بتمرداتهم الثورية والدموية كانوا يناوشون المبعوثين خطوة بخطوة خلال تحركاتهما عبر إفريقيا** » . [5]

---

* – *كان المبعوثان الإمبراطوريان قد وصلا إلى قرطاجة قبل أن يتوجها إلى سيرتا عاصمة نوميديا عبر الطريق المارة بحوض نهر المجردة Bagradas مرورا بتاغاست Thagaste (سوق أهراس حاليا بالشرق الجزائري).*

1 - Optat (St.), III, 4.

2 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, p 354 ; Vannier (O.), Op.cit., p. 24.

3 - Optat (St.), III, 4.

4 - Optat (St.), III, 4.

5 - Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I, IX, 18.

يوحي نص "أوغسطين" أن تمرد الدوارين ربما كان سببا في تدخل حامية "سيلفستر" عسكريا في نوميديا الجنوبية. وربما كان أيضا سببا في تدخل الإمبراطور نفسه في شؤون إفريقيا الدينية بإيعاز من الكاثوليك.

وأشار "مارطروي"[1] *F.Martroye* أن عمليات القمع التي قام بها المبعوثان ردا على عنف الدوارين وتهديدهم للأمن في هذه المنطقة بشمال الأوراس، جاءت من الناحية القانونية كعقاب للتمرد الذي شهدته مدينة بغاي. وأن ذلك كان قد تم طبقا للقانون الذي يعتبر المحرضين على التمرد متهمين بالمساس بأمن الدولة الرومانية (*Majestas*)، والمتواطئين معهم متهمون بممارسة الشغب العمومي. وأضاف "مارطروي" أن جزاء الجريمة الأولى الإعدام، والعقوبة على الثانية الإعدام أو النفي. [2]

وهكذا نرى أن الأساقفة الدوناتيين تعرضوا للنفي والحبس والإهانة والقتل، ليس بسبب انتمائهم للدوناتية، ولكن لكون السلطة الزمنية اعتبرتهم محرضين للدوارين أو متواطئين معهم. ومن ثم ألحقت بهم تلك العقوبات الصارمة، وعوقب كل من يشتبه به أنه يتعامل مع الدوارين. [3]

يبدو أن المبعوثين الإمبراطوريين "بولوس" و"مكاريوس" قد تجاوزا مهمتهما من الناحية القانونية البحتة، [4] وبالغا في القمع والتنكيل بالأساقفة الدوناتيين حسب شهادة الكاثوليك أنفسهم. [5] وقد برز "مكاريوس" بصفة خاصة في عمليات القمع، لدرجة أن الدوناتيين كانوا يطلقون على الكنيسة الكاثوليكية لقب "حزب مكاريوس" (*Pars*

1 -*Martroye (F.), la répression du Donatisme…, Op.cit., pp. 60-73.*
2 - *Ibid., p.70.*
3 - *Ibid., p.69.*
4 - *Ibid., pp.71-73.*
5 -*Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 151-154; 164-171.*

وعلى تلك الفترة التي اضطهد فيها الدوناتيون اسم: "زمن ماكاريوس" (*Macarii*) (*) (*Tempora Macariana*). (1)

يرى "بريصون" *Brisson* أن جرم الدوناتيين – في تقدير السلطة الرسمية– لا يكمن في الانشقاق الديني بقدر ما كان يتجلى في تأليب السكان ضد تلك السلطة نفسها. (2)

وبهذه النظرة، فإن المحرك الأساسي والعميق لتلك الأحداث لا يتمثل في رجال الدين الدوناتيين الذي ربما تجاوزتهم الأحداث في تلك الفترة، ولكن في عنف الدوارين الذين كانوا يهددون الأمن في نوميديا باسم "زعماء القديسيين" تارة، و"المناضلين" تارة أخرى، وأحيانا ضد إرادة الدوناتيين أنفسهم.

يجدر بنا أن نتناول بمزيد من الدقة والتحليل طبيعة العلاقات بين حركتي الدوارين والدوناتية في سنة 347م، والمنعرج الذي شكلته معركة بغاي على مسار الأحداث في نوميديا. وفي هذا السياق، يمكننا أن نتساءل، ماذا وقع في نوميديا وفي بغاي تحديدا سنة 347م؟ وهل يمكن اعتبار ذلك مؤشرا للتحالف بين الحركتين؟ أم أن تمرد الدوارين اتخذ فقط طابع الدفاع عن الدوناتية ضد تدخل السلطة الزمنية في شؤون إفريقيا الدينية؟ ثم ما هي دوافع الدوارين من وراء الهجوم على البعثة الإمبراطورية؟

يرى "ج. ب. بريصون" *J.P. Brisson* أن أسقف بغاي الدوناتي بارك عمل الدوارين وساندهم معنويا دون أن يتدخل فعليا بالطريقة التي نسبها إليه "أوبطاتوس". (3)

---

*– جاء هذا الوصف على لسان الأسقف الدوناتي "بيتليانوس" (Petilianus): « ...**لا يمكن أبدا أن يكون حزب مكاريوس حزينا، لأنه يدنس شعائرنا بتقليده الماسخ لها...** » . -Augustin (St.), C. Litter. Petil., II, XXXIX, 92.*

1 - Optat (St.), III, I.

2 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme..., Op.cit., p.260.

3 - Brisson (J.P.), Ibid., p. 354.

ربما لأن "دوناتوس" كان يتطلع إلى ما ستجنيه الكنيسة المنشقة من فائدة إذا ما ساندت وتعاونت مع الدوارين.

وتعتقد "فانيي" *Vannier* أن الأمر لا يعدو أن يكون هجوم بعض "اللصوص" على قافلة، وهي – في رأيها– ظاهرة عادية في تلك الفترة التي شهدت فيها الإمبراطورية الرومانية أوضاعا صعبة. [1] وكان هذا الهجوم يستهدف الاستيلاء على الأموال التي كانت تحملها البعثة الإمبراطورية إلى الكنائس، قد اتخذ طابع مقاومة دينية لمهمة "صانعي الوحدة" (*Operarii unitatis*) "بولوس" و" مكاريوس". [2]

يتضح مما سبق أن "اللصوص" (*Latrones*) – على حد تعبير فانيي– قد خدموا قضية الدوناتيين دون أن يشعروا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التحالف بين الدوارين والدوناتيين في بغاي تم بعد معركة بغاي سنة 347م، وليس قبلها كما ذهب إلى ذلك "أوبطا الميلي".

يبدو، إذن أن تأويل "فانيي" يدفعنا لطرح التساؤل الآتي: كيف نفسر التحالف بين الدوارين والدوناتيين سواء وقع هذا التحالف قبل أحداث بغاي أو بعدها؟

لقد ثبت لدى السلطة الرومانية – منذ الوهلة الأولى– وجود علاقة بين الدوارين والدوناتيين أو مع بعض الأساقفة النوميد – على الأقل– ، وإلا لما عاملت أولئك الأساقفة بعنف وتنكيل. وترى "فانيي" أن دوناتوس أسقف بغاي "لعب دورا ما " في الأحداث التي وقعت في أبرشيته، ذلك أن موقفه "مبدئيا" كان موقفا معارضا للبعثة الإمبراطورية. [3]

---

1 - Vannier (O.), Op.cit., p. 25.

2 - Ibid., p. 26.

3 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit., p.354.

أعتقد أن دور "دوناتوس" كان يتعدى "صمته" عن أعمال الدوارين ثم موافقته عليها بعد معركة "بغاي"، وأنه ربما شارك فعليا بطريقة أو بأخرى في تلك الأحداث. وأن التعاون بين الدوارين ورجال الدين الدوناتيين كان محصورا في حالات محدودة وأوقات وأماكن معينة.

ومن الأرجح أن زعيمي الكنيسة الدوناتية "دوناتوس" (*) ***Donatus*** و"بارمينيانوس" ***Parmenianus*** (**) كانا غير متواطئين مع الدوارين. (1) ويبدو أيضا أن "بريميانوس" ***Primianus*** (***) الزعيم الدوناتي الثالث لم تكن له علاقة مباشرة مع الدوارين، رغم أنه كان يعتمد على "أوبطاتوس التاموقادي". (2) وكان الأساقفة الدوناتيون في عهد "أوغسطين" يدعون أنهم: « **لا يعرفون شيئا عن الدوارين.** » (3)

هكذا كان موقف الكنيسة الدوناتية "الرسمي" وموقف أساقفتها تجاه أعمال الدوارين التي كانت تجلب التنديد والإنتقاد لهم، خاصة لما أصبح الدوارون يمارسون أعمال العنف على الكاثوليك حتى اتخذت أعمالهم مظهر الحرب الدينية ضد الكنيسة الكاثوليكية.

غير أن هذا الموقف لم يكن حائلا دون وجود علاقات وتعامل بين الدوارين ورجال الدين الدوناتيين شمامسة وقساوسة، بل كانوا أحيانا يترأسون اجتماعاتهم خاصة

---

*- ***دوناتوس الأكبر***، *زعيم الكنيسة الدوناتية ومؤسسها في قرطاجة (313-355م). للمزيد أنظر أعلاه، ص 394.*
- Optat (St.), De Schism. Donatist., I, 22 ; Martroye (F.), la répression du Donatisme…, Op.cit., p. 368.

- ***بارمينيانوس*، *أسقف كنيسة قرطاجة وزعيم الكنيسة الدوناتية الثاني، انتخب بعد وفاة دوناتوس الأكبر من سنة 355م إلى سنة 392م. للمزيد أنظر أعلاه، ص 564.*
- Monceaux (P.), H.L.A.C., V, pp.241-263.

1 - Vannier (O.), Op.cit., p. 22.

- ***بريميانوس، *زعيم الكنيسة الدوناتية الثالث (392-411م). أنظر أعلاه، ص.447.*
- Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, pp. 5, 202.

2 - Lancel (S.), Actes de la conférence de Carthage…, Op.cit., p.277.

3 - Augustin (St.), Cont. Epist. Parmeniani, I, IX, 17.

في الأرياف حيث يعيشون في نفس البيئة. [1] وكانت تلك البيئة تتميز بكثرة الأبرشيات في القرى والمزارع والضيعات (*Villae, Saltus, Fundi*). [*] (خريطة رقم 5 ص 399)

وكان هناك فرق بين أساقفة المدن الكبرى الساحلية مثل: قرطاجة وهيبو-ريجيوس (عنابة) والأساقفة الذين كانوا على رأس الأبرشيات في الأرياف والقرى وفي المناطق الداخلية. [2]

فكان ممثلو القرى والضيعات يطلبون من كبير أساقفة الإقليم "الجثليق" أن يرفع راعيهم إلى مرتبة أسقف ويجعل من بلدتهم أبرشية جديدة. بينما كان رجال الدين في المدن يرفضون الذهاب إلى المناطق النائية والأرياف. لذلك كان على الجثليق أن يقوم بتعيين الرعاة والأساقفة بنفسه في تلك المناطق. [3] لذلك ليس من المستغرب أن نجد الفلاحين مكلفين بمهام دينية في القرية أو في الضيعة. ولنا في ذلك أمثلة من محضر مناظرة قرطاجة سنة 411م لبعض الأساقفة الذين كانوا يجدون صعوبة في توقيع اللوائح نظرا لجهلهم اللغة اللاتينية بل ويجهلون الحروف. [**]

وكان بعض رجال الدين في كثير من الأرياف ينحدرون من عائلات المزارعين، ولما يرتقي أحدهم إلى منصب ديني، ينتقل إلى مكان آخر بقرار من كبير الأساقفة. فكان عليه أن يعوضه حينما ينتقل هذا المزارع إلى مهامه الجديدة. [4]

---

1 - *Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XXVII, 30.*

*- *كان عدد الأبرشيات في إفريقيا هائلا، بلغ –حسب تقديرات ش. كورتوا– حوالي ستمائة (600) أبرشية Diocèse ورد ذكرها في لائحة الأبرشيات في مناظرة قرطاجة سنة 411م، بينما كان عدد الأبرشيات لا يتعدى المائة (100) في غاليا "فرنسا" ونفس العدد تقريبا في مصر.* - *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique, pp.110, 111, 137.*

2 - *Lancel (S.), Actes de la conférence de Carthage…, Op.cit., pp.134-143.*

3 -*Hamman (A.G.), la Vie Quotidienne en Afrique…, Op.cit., p. 270.*

**- *من أبرز هؤلاء الأساقفة، أسقف كاثوليكي يدعى "زورا " (Zora) طلب من أحد زملائه في مناظرة قرطاجة سنة 411م أن يوقع مكانة لأنه كان يجهل الحروف اللاتينية.* - *Lancel (S.), Actes de la conférence de Carthage, Op.cit., p.750.*

4 - *Hamman (A.G.), la Vie Quotidienne en Afrique…, Op.cit., p. 285.*

فلا غرابة إذن أن يكون هناك تقارب بين الدوارين وبعض رجال الدين الدوناتيين في بعض الأرياف النوميدية. ومن المحتمل أن الجماهير الشعبية قد تذمرت من الموقف الذي اتخذه بعض الأساقفة الدوناتيين من الدوارين سنة 340م. وقد ذكرت – آنفا– ذلك التعاطف بين الدوارين وبعض رجال الدين الدوناتيين الذي يظهر في تصرف "كلاروس" كاهن "محلة سوبولوس" الذي رفض تنفيذ أوامر أسقفه التي تقضي بمنع الدوارين من تبجيل شهدائهم بدفنهم في الكنيسة سنة 340م. [1]

لذا لا أستبعد أن يكون التعاون بين الدوارين والأساقفة الدوناتيين في سنة 347م، إلا أن هذا التعاون والتقارب– وإن كان يساعد على فهم بعض جوانب أحداث بغاي سنة 347م– فإنه لا يكفي لتفسير موقف الدوارين من البعثة الإمبراطورية.

يبدو أن رواية "أوبطا الميلي"– التي تحمل الأساقفة الدوناتيين المسؤولية الكاملة والمباشرة في تلك الأحداث– لا تفسر كل شيء، لأن تمرد الدوارين كان قد حدث قبل سنة 347م، ولأن الدوارين كانوا المحرك الرئيس في المقاومة. [2]

إن وصول المبعوثان الإمبراطوريان "صانعي الوحدة" مع فرقة عسكرية إلى نوميديا الجنوبية كان يحمل أكثر من معنى: فقد كان ينذر ببداية عهد جديد من الاضطهاد الديني، شبيه بالاضطهاد الذي عرفته إفريقيا المسيحية في عهد الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (303–305م) من جهة. واتخذ طابع حملة عسكرية رومانية ضد الأهالي، [3] وعملية تطهير "بوليسية" ضد الدوارين من جهة أخرى. [4]

---

1 - Optat (St.), III, 4 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 335-471.
2 - Optat (St.), III, 12 ; Piganiol (A.), l'Empire chrétien…, Op.cit., p. 89.
3 - Despois (J.), la bordure saharienne de l'Algérie orientale…, Rev. Afri, 1942, pp. 197-219.
4 - Vannier (O.), Op.cit., p. 24 ; Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, p. 354.

وقد تظافرت عدة عوامل دفعت الدوارين إلى مناهضة السلطة الزمنية، والذين كانوا يرون في مقاومتهم تلك حربا مقدسة من جانب، وحربا اجتماعية ضد الأسياد والملاك الذين يشخصون الوجود الروماني من جانب آخر. [1]

وكأن الدوارون بتدخلهم في الصراع الديني بين الدوناتية والكاثوليكية، لم يكن دفاعا عن كنيسة "دوناتوس" ولا ضد الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما كان مناهضا للسلطة الرومانية التي كانت تمثل بالنسبة لهم جهازا قمعيا يسعى للحفاظ على الأوضاع القائمة. إن ظاهرة تمرد الدوارين و"انزلاقهم" [*] من الميدان الاجتماعي إلى الميدان الديني حدث مرتين:

1.**__الانزلاق الأول__**: كان الدوارون منذ ظهورهم على مسرح الأحداث بهذا اللقب وبسماتهم التاريخية المعروفة في حوالي سنة 340م – حسب ما ذكره "أوبطا الميلي"– يقومون بعملياتهم تحت رئاسة "زعماء القدسيين" ويبحثون عن " الاستشهاد الإرادي". [2]

2.**__الانزلاق الثاني__**: يمكن أن نستشفه من تدخل الإمبراطور "قنسطانس" وأحداث بغاي في نوميديا. وقد يكتسي أهمية أكبر من الانزلاق الأول، ذلك أن اضطهاد "بولوس" و"مكاريوس" وما نتج عنه من تدعيم وتقوية الكنيسة الكاثوليكية وإضعاف للكنيسة الدوناتية، أعطى للصراع الديني أبعادا جديدة ووضوح أكثر للرؤيا في أذهان الأفارقة، ومنهم الدوارون.

يتضح مما سبق أن عدد الكنائس والأساقفة الكاثوليك قد تزايد برعاية السلطة الرومانية، وأصبح الوجود الكاثوليكي أمرا واقعا في مختلف مناطق المغرب القديم، حتى في تلك المناطق التي كانت حصونا للحركة الدوناتية.

---

1 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, pp. 128-129.

-Brisson (J.P.), Ibid., p. 342 ; Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique, p. 148.

2 - Optat (St.), III, 4.

**– على حد تعبير "كورتوا" و"بريصون".*

فقد انعقد المجمع الكنسي الكاثوليكي في قرطاجة سنة 348م برئاسة "غراتوس" (*Gratus*) الأسقف الكاثوليكي وافتتح كلمته بالشكر لله وأثنى على تدخل الإمبراطور "قنسطانس" الذي أرسل مبعوثيه إلى إفريقيا. (1)

ويتضح من ذلك أن الكاثوليك عبروا عن ترحيبهم بتدخل السلطة الزمنية إلى جانبهم، فتنفست الكنيسة الكاثوليكية الصعداء. بينما وجهت إلى الكنيسة الدوناتية ضربة كادت أن تقضي عليها، لولا أن الظروف تغيرت باعتلاء "يوليانوس المرتد" (*Julien l'Apostat*) العرش خلال الفترة 361-363م. (*)

وأصبحت مصالح الدولة الرومانية – منذ تلك الفترة – تتطابق مع مصالح الكنيسة الكاثوليكية، وأضحت الحركة الدوناتية تمثل نوعا من معارضة وتمرد مسلح على السلطة القائمة.

يمكن أن نخلص إلى أن الدوارين تبنوا القضية الدوناتية في الصراع الديني ضد الكنيسة الرسمية. وبذلك يمكن القول أن التحالف بين الدوارين والدوناتيين وقع بعد أحداث بغاي 347م –حسب فانيي– وليس قبلها كما ادعى "أوبطا الميلي". (2)

يبدو إذن أن هذا التحالف فرضته الظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفتها نوميديا في تلك الفترة. ولم يكن نتاج مبادرة رجال الدين الدوناتيين، فالتقى التمرد الديني والاجتماعي والسياسي مع طريقة عمل الدوارين باستخدام العنف فأعطوا بذلك نفسا جديدا للحركة الدوناتية.

<u>المبحث الثالث: علاقة الدوارين بالدوناتية بعد 347 م</u>: يعتبر "أوغسطين" من أبرز الكتاب والمجادلين الكاثوليك الذين تناولوا طبيعة العلاقات بين الدوارين والدوناتيين

---

1 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit., p.261.

**–* انتهج يوليانوس سياسة التسامح الديني بمجرد اعتلائه العرش مع مختلف الديانات فأصدر قانونا في هذا الشأن سنة 361م استفاد منه الدوناتيون بأن استرجعوا كنائسهم المصادرة سنة 347م وعادوا من المنفى. -Martroye (F.), la répression du Donatisme…, Op.cit., p.75.*

2 - Vannier (O.), Op.cit., p. 26.

بالدراسة في فترة ما بعد سنة 347م. بل إنه المصدر الرئيس (*) –إن لم نقل الوحيد – الذي يتضمن إشارات حول الدوناتية والدوارين تعود من أواخر القرن الرابع إلى الثلث الأول من القرن الخامس الميلادي تقريبا: أي خلال فترة تمتد من 392م إلى 430م قبيل وفاته مباشرة.

يصف "أوغسطين" – خلال هذه الفترة التي تمتد على مدى 40 سنة – تصرفات الدوارين ويندد بأعمالهم، وكانت كتاباته تدخل في إطار الجدل الكلامي مع الدوناتيين، وجاء تناول الدوارين عرضا. [1]

نستشف من قراءة كتابات "أوغسطين" أن حركة الدوارين أصبحت ملتحمة بالانشقاق الدوناتي وجزء لا يتجزأ منه. وحينما يخاطب "أوغسطين" الدوناتيين فإنه يقصد الدوارين.[2]

ويذكر في فقرات أخرى تصرفات الدوارين لكنه يعممها على الدوناتيين، كالانتحار طمعا في الحصول على الشهادة،[3] واستعمال وسائل بشعة في التعذيب كطمس عيون الضحايا بالجير والخل، [4] واستعمال العصي والهراوات. [5] ويعدد في لائحة واحدة "جرائم" – في نظره– ينسبها للدوناتيين منها: إعادة تعميد المسيحيين الذين دخلوا إلى الدوناتية،[6] والإنشقاق والهرطقة، وهي جرائم يرتكبها الدوارون كالقتل والتعذيب والنهب والتلصص. [7]

*– إضافة إلى كتابات "أوغسطين" هناك أيضا تقارير مناظرة قرطاجة سنة 411م. *- Lancel (S.), Actes de la Conférence de Carthage en 411, S.C., n° 194, 195,224.*

1 - Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 282-294.
2 - Id., Cont. Litter. Petil., II, XCII, 208.
3 - Id., Cont. Gauden., I, XXVII, 30.
4 - Id., Brev., Coll., III, XI, 22, Id., Cont. Cresc., III, XLII, 46 ; XLV, 49.
5 - Id., Cont. Litter. Petil., II, XCI, 201.
6 - Id., De Baptismo, VI, XXV, 48.
7 - Id., Cont. Gauden., I, XXXVI, 46.

وكان "أوغسطين" يؤكد على الروابط العميقة التي تربط بين الدوناتيين والدوارين. ويذكرهم في بعض الفقرات هكذا: « **الدوارين الدوناتيين** » [1] أو "**دواريكم**" وهو يخاطب الدوارين، [2] أو عصاباتكم، [3] ويكتفي في الغالب بالتعميم فيقول: "**ذويكم**" [4] ويقصد رجال الدين الدوناتيين أحيانا، والدوناتيون بما فيهم الدوارون أحيانا أخرى.

يتضح مما سبق أن الدوارين – حسب "أوغسطين"– كانوا يشكلون رؤوس رماح الدوناتية وعساكرها تهاجم بهم رجال الدين والكنائس الكاثوليكية. حيث يخاطب "أوغسطين" الأسقف الدوناتي "كريسكونيوس" (*Cresconius*) في حوالي 405–406م قائلا: « ***... في كل يوم نعاني من الشرور المهولة التي يقوم بها "كهنتكم ودواروكم"، وهي أدهى وأمر من شرور كل اللصوص والنهابين، إنهم يتوفرون على أسلحة مهولة ومن كل نوع، وتسكعهم الرهيب لا يزعج راحة الكنيسة وسلامها فحسب، ولكن راحة وسلام البشرية جمعاء.*** » [5]

يتضح من النص – إذا ما صدقنا "أوغسطين"– أن الدوارين كانوا يهاجمون رجال الدين الكاثوليك ويقومون بتعذيبهم بشتى الوسائل، وأنهم كانوا لا يعترضون سبيل رجال الدين الصغار فقط، ولكن أيضا بعض الأساقفة الكاثوليك. فقد تعرض "سيرفوس" (*Servus*) أسقف مدينة "تبورسيكوم - بوري" [*] (*Thubursicum -Bure*) والأسقف "ماكسيميانوس" (*Maximianus*) أسقف بغاي الكاثوليكي في حوالي 303–304م، إلى محاولة اغتيال من قبل عصابات مسلحة بقيادة كهنة دوناتيين. وعندما ذهبا إلى البلاط الإمبراطوري بروما قصد معاينة جروحهما من طرف الإمبراطور "هونوريوس"

---

1 - Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I.XI, 17.
2 - Id., Cont. Litter. Petil., II.LXXXV, 188-189; Id., Epist., ad Cath., XX, 53-54.
3 - Id., Cont. Litter. Petil., II.XCI, 201.
4 - Id., Psalmus Contra Partem Donati, 144-163.
5 - Id., Cont. Cresc., III, XLII, 46.

*– **تبورسيكوم – بوري**، هي مدينة طبرسق حاليا بتونس، كانت قلعة رومانية قديمة Castellum تتراوح مساحتها ما بين 1.5 و 03 هكتار، مهمتها إيواء وحدات الجيش والسكان اللاجئين في حالة الحرب. ; C.I.L., VIII, 1434 Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne…, Op.cit., pp. 155-156.*

(*Honorius*) وجدا هناك عدد من الأساقفة الكاثوليك الأفارقة الذي تعرضوا هم أيضا لاعتداءات على يد مجموعات من الدوارين.

ويختم القديس "أوغسطين" حديثه عن "ماكسيميانوس" أسقف بغاي الكاثوليكي قائلا:« ***...وهناك في إيطاليا وجد "ماكسيميانوس" زميله أسقف "تبورسيكوم – بوري" وعددا كبيرا من الأساقفة ضحايا اعتداءات شبيهة أو تكاد تكون في مثل عنفها. واتضح أنه لم يعد بالإمكان الرجوع إلى ديارهم. وبعدئذ فإن الجنون الذي عرف به "دواروكم"- الذين كانوا يشكلون سندا رهيبا لإكليركييكم- اكتسب شهرة بغيضة في كل مكان، ومن ثم اللاشعبية الكبيرة التي أحاطت بكم، ومن ثم أيضا إحياء كل القوانين القديمة ضدكم وإصدار هذه القوانين الجديدة.*** » (1)

أصدر الإمبراطور"هونوريوس" بعد تلك الأحداث مجموعة من القوانين والإجراءات ضد الدوناتية في شهر فبراير سنة 405م، (*) بعد أن انعقد المجمع الكاثوليكي (**) قبل ذلك بقرطاجة في شهر جوان سنة 404م والذي قرر إرسال مبعوثين إلى البلاط الإمبراطوري لتسليمه طلبا بتدخل السلطة الرسمية بالقوة ضد الدوناتيين. (2)

ويخاطب "أوغسطين" الدوناتيين بعد مناظرة قرطاجة في حوالي سنة 412م قائلا: « ***إنكم أنتم أيضا على بينة من كل الويلات التي يعاني منها ذوونا بسبب الجنون المسعور لرجال الدين ودواري حزب دوناتوس: فهناك كنائس أحرقت وأشخاص انتزعوا قسرا من بيوتهم التي نهبت أو هدم كل ما كان موجودا بها، وهم أنفسهم أشبعوا ضربا وتمزيقا، وطمست***

---

1 - Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XLII, 48-49.

– صدرت مجموعة من القوانين في 12 فيفري سنة 405م جمعت في "جامع قوانين ثيودوسيوس" Codex Theodosianus وتتجلى أهميتها في كونها تعتبر الدوناتية لأول مرة هرطقة، وليست مجرد انشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية كما اعتبرت من قبل. - Cod Theod., XVI, 5, 38 ; XVI, 6,3,4,5 ; XVI,2.

– انعقد هذا المجمع الكاثوليكي في 16 جوان سنة 404م لبحث الوسائل الكفيلة لمواجهة عنف الدوناتيين وقرر إرسال مبعوثين إلى بلاط الإمبراطور "هونوريوس" هما الأسقفان: "تياسيوس" "Theasius" و"أوفوديوس" Evodius، والملاحظ أن أوغسطين ركز على شكوى الأساقفة الكاثوليك وصورهم على أنهم ضحايا عنف الدوارين دون الإشارة إلى المهمة التي أوكلت للمبعوثين. - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme..., p.272.

2 -Augustin (St.), Epist., CLXXXV, VII, 28.

عيونهم بل تجاوز المعتدون ذلك ولم يترددوا في قتل ضحاياهم: حقا إن انتزاع نور الحياة من رجل محتضر لهو أقل قسوة من انتزاع نور البصر من رجل على قيد الحياة... » .[1]

يفهم من نص "أوغسطين" أن الدوارين كانوا أداة طيعة بيد الدوناتيين- إذ يرى أن تزايد عملياتهم قبيل صدور قانون "هونوريوس" سنة 405م إنما هو رد فعل الدوناتيين ضد تهجم الكاثوليك عليهم بصدد انشقاق الماكسيميانيين. [*]

لذلك نراه يرد على الأسقف الدوناتي "كريسكونيوس" (*Cresconius*) في حوالي 405-406م قائلا: « ***عندما سمعنا نبأ قبول ذويكم لرجوع الماكسيميانيين إلى حظيرة الدوناتية، كانوا قد أدانوهم من قبل، فإننا نشرنا الخبر في كل الأرجاء،[**] وبكل ما أوتينا من قوة فلم يجد ذووكم أي جواب على أحداث قريبة العهد، واضحة وضوح الشمس، لذا، فإنهم أصبحوا يلجأون أكثر فأكثر، وبوقاحة متزايدة إلى عنف الدوارين وعصاباتهم المجنونة، فبدءوا يستعملون الإرهاب ليحولوا بيننا وبين نشر الحقيقة الكاثوليكية ويمنعونا من إخزائهم وإظهار مغالطاتهم.*** » [2]

ورغم تعدد محاولات الكاثوليك لإقناع الدوارين بوقف هذه الأعمال الخارجة عن القانون. [3] إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل، لذلك خاطبهم "أوغسطين" مباشرة بقوله: « ***لكن من أخاطب، ومتى أخاطب؟ وإنني لا أجد وقتا ملائما للخطاب، حتى في الصباح، وتجدهم (أي الدوارين) مخمرين، سكروا أو لا زالوا سكرانين... »*** . [4]

---

1 -Augustin (St.), Ad Donatistas Post Collationem, XVII, 22.

**- ظهر انشقاق الماكسيميانيوس بقرطاجة في سنة 392م وانتشر في بيزاكينا (Byzacena) "المزاق حاليا" تزعمه أحد شمامسة الزعيم الدوناتي "بريميانوس" Primianus يدعى "ماكسيميانوس" ويعتبر أهم انشقاق عرفته الدوناتية.*

-Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 57-62 ; Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme, Op.cit., pp.223-230.

***- حاولت الدعاية الكاثوليكية إظهار التشابه الموجود بين الانشقاق الماكسيمياني سنة 392م والانشقاق الدوناتي قبله بثمانين عاما أي في سنة 312م، من خلال كتابات "أوغسطين". -Augustin (St.), Cont. Cresc., III, XV, 18; XXV, 28.*

2 -Ibid., III, XLV, 49.

3 - Id., Contra. Litter. Petil., II, LXXXVIII, 195.

4 - Id., Contra. Cresc., IV, L, 60; LI, 61.

نستتشف من النص السابق أن "أوغسطين" يحمل الأساقفة الدوناتيين مسؤولية عنف الدوارين، لأنهم – حسب قوله– لهم القدرة على وقف أعمالهم والتأثير عليهم، حيث يعتبرهم أسياد،[1] الدوارين و" ***زعمائهم***"[2]. وكان يتساءل ألم يتخذ الدوناتيون منهم "***عصاباتهم الشخصية***" التي كانت " ***تقترف باسم الدوناتيين يوميا وفي كل مكان اشنع الجرائم***؟".[3]

يتضح مما سبق إذن، أن حركتي الدوارين والدوناتية – في نظر "أوغسطين" والكاثوليك عامة– ما هي إلا حركة واحدة هي الانشقاق الدوناتي. أما ذنب الدوارين الرئيسي، فهو أنهم كانوا يهاجمون بصفة خاصة رجال الدين الدوناتيين الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية. وبالتالي فإن الإكليروس الدوناتي يتحمل مسؤولية تصرفاتهم خاصة العنف الذي يتعرض له الأساقفة الكاثوليك وكنائسهم.

هل يجب أن نصدق "أوغسطين" عندما يؤكد أن تمرد الدوارين كان جزءا لا يتجزأ من الحركة الدوناتية؟ وهل حقا تخلى الدوارون عن مطالبهم الاجتماعية و"انزلقوا" كليا إلى المطالب الدينية؟

يبدو أن نصوص "أوغسطين" – رغم تشابهها–تحمل بعض التناقضات فيما يتعلق بتبعية الدوارين للأساقفة الدوناتيين فهو يجعل تارة من الدوناتيين "أسياد" و"زعماء" الدوارين. وتارة نفهم من كلامه أن الدوارين احتفظوا بنوع من الاستقلال في التنظيم والحرية في العمل.

---

1 - Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I, XI, 18.
2 - Id., Cont. Litter. Petil., II, XX, 46.
3 - Id., Cont. Epist., Parmen., I, VIII, 14.

ويشير "أوغسطين" في فقرات أخرى إلى أن الدوارين كانوا يعملون تحت إمرة "إكليركيين" دوناتيين، ويخاطبهم في إحدى رسائله في سنة 409م قائلا: « ... ***تذكروا أعمال دواريكم وكهانكم (Clerici) الذين كانوا دوما رؤساء لهم !*** » [1]

وفي نص آخر يعود إلى سنة 411م يقول: « ... ***بينما كان دواروكم يقترفون أشنع الجرائم تحت قيادة الكهنة.*** » [2] وفي فقرات أخرى يتحدث "أوغسطين" عن الدوارين على أنهم «... ***كالحرس الخاص للكهنة الدوناتيين*** » . [3]

ويذكر "أوغسطين" في مقام آخر أن عددا من الأساقفة الدوناتيين تزعموا بعض عصابات الدوارين. [4] وربما كان يقصد "أوبطاتوس الجيلدوني"[5] على وجه الخصوص وأساقفة آخرين «... ***كان بودهم أن يفعلوا مثله ولكن الإمكانات أعوزتهم*** ». [6]

غير أن "أوغسطين" كان يشير إلى أن رجال الدين الدوناتيين كانوا يرفضون أعمال الدوارين ويتبرؤون من عنفهم، وأحيانا يدعون أنهم يجهلون الدوارين. وفي رده على الأسقف الدوناتي "بارمينيانوس" (*Parmenianus*) في حوالي سنة 400م إذ قال: «***عندما نحيط الدوناتيين علما باعتداءاتهم (أي الدوارين)، فإنهم يفعلون كما لو كانوا يجهلون هذه الفئة المكروهة، أو يدعون بكل وقاحة – وضد ما يعرفه الجميع جيدا– أن لا شأن لهم بهذه الاعتداءات. هذا إن كان من المقبول أن يجهل أساقفة دوناتيون في عين المكان، في إفريقيا، أفعال وحركات الدوارين الدوناتيين، أو يقولون أنه لا دخل لهم فيها.*** » [7]

---

1 - Augustin (St.), Epist., 105, 2, 3.
2 - Id., Brevic. Coll., III.XI.21.
3 - Id., Cont. Cresc., III, XLII, 46; XLV, 49; IV, L, 60; LI, 61.
4 - Id., Ennar. In Psalm., 10, 5; Epist., 44, 9.
5 - Id., Cont. Litter. Petil., I, XXIV, 26.
6 - Id., Cont. Epist. Parmen., III, III, 18.
7 - Id., Cont. Epist. Parmen., I, XI, 17.

ويشير "أوغسطين" في نص آخر يعود إلى حوالي 405 – 406م إلى أعمال الدوارين الشنيعة قائلا: « ... ***وحسب ما يظهر، فإن هذه الأعمال الشائنة لا تصل إلى آذان ذويكم...*** » [1]

توحي النصوص السابقة أن الدوناتيين إذا كان يتبرؤون من أعمال الدوارين ويلتزمون الصمت أحيانا، فإنهم يعلنون صراحة عدم رضاهم عن هذه الأعمال أحيانا أخرى.

ويدحض "أوغسطين" ادعاءات الدوناتيين بأن أورد نصين في هذا السياق: النص الأول يعود إلى حوالي سنة 393م إذ يقول: «***أنظروا أي خبثاء وأي أشرار تضموا في صفوفكم، فإذا كنتم أنتم كذلك تغضون عنهم، فلماذا لا يكون هذا الغض في إطار الوحدة؟ (أي وحدة الكنيسة).*** » [2] أما النص الثاني فيرجع إلى حوالي سنة 400م إذ قال: « ***إنني أترك هذا جانبا (أعمال الدوارين) لأن هناك منكم من يحتج إزاء هذه الأحداث باستنكاره لها في الحاضر والماضي، إلا أنهم – على حد قولهم- لا قدرة لهم فيها، فيستحملونها من أجل السلام (يقصد سلامة الكنيسة الرومانية ووحدتها).*** » [3]

نستشف من النصوص الكاثوليكية السابقة موقف الدوناتيين من الدوارين. حيث نلاحظ عدم ورود اسم الدوارين في الكتابات الدوناتية، أو أن الدوناتيين كانوا يتحاشون ذكرهم. ومع ذلك فقد أثير مشكل الدوارين في مناظرة قرطاجة سنة 411م، حينما اتهم الدوناتيون بالتعامل مع الدوارين فكان جوابهم: «***إن ما يفعله الدوارون لا دخل للدوناتيين فيه.*** » [4]

يبدو إذن أن موقف الدوناتيين من الدوارين كان متذبذبا، فلا هم يستنكرون تصرفات الدوارين كليا، ولا هم يؤيدونها تماما. وقد يكون موقف الأسقف الدوناتي

1 - Augustin (St.), Contra Cresc., III, XLVII, 51; XLVIII, 52.
2 - Id., Contra Partem Donati, 282-294.
3 - Id., Cont. Litter. Petil., I, XXIV, 26 ; II, XLVII, 110.
4 - Id., Brevic. Coll., III, XI, 21.

"ماكروبيوس" (*Macrobius*) خصم "أوغسطين" في مدينة هيبو- ريجيوس (عنابة) أحسن مثال على ذلك.

فقد استعان الأسقف الدوناتي "ماكروبيوس" بالدوارين ودخل برفقتهم منتصرا إلى "هيبو- ريجيوس" في حوالي سنة 409م. (1) لكنه لم يلبث أن تبرأ من أعمالهم وتذمر من تصرفاتهم بعد صدور قانون جديد للتسامح (*) مع الكنيسة الدوناتية في حوالي سنة 410م. (2)

ولذلك خاطبه "أوغسطين" في رسالة بعث بها إليه قائلا: « ***إنكم تتعهدون بمنع التعويض للملاك المتضررين (من أعمال الدوارين). لكنكم لا ترغبون في الوفاء بوعودكم، لأنكم تخشون عداوة اللصوص الجريئين الذين لا يتورع كهنتهم عن الاعتماد عليهم من قبل. ذلك أن الدوارين يتبجحون بالخدمات التي أسدوها إليكم سابقا.*** » (3)

ثم ذكره بقانون التسامح الذي منحهم الحرية بقوله: « ***فهم يذكرونكم ويعددون أمامكم ما فعلوه من أجلكم قبل هذا القانون التسامحي الذي أعطاكم الحرية. إن الفضل يعود إليهم – حسب ما يقولون- في كون كهنتكم استطاعوا الاحتفاظ بملكياتهم وكنائسهم بعدما نهبوا ذوينا وطردوا كهاننا. فإذا أنتم أردتم معاملتهم بصرامة، فسوف تبدون شديدي النسيان للجميل والنكران للمعروف.*** » (4)

---

1 -*Monceaux (P.), R.H.R., t.64, 1911, p.42.*

* – *اختلف الباحثون حول تاريخ صدور هذا القانون، فمنهم من يرى أنه صدر سنة 409م حسب "مارطروي" إلا أنه لم يصلنا، لكنه عرف عن طريق القانون الذي ألغاه والذي صدر في 25 أوت سنة 410م وعن طريق المجمع الكنسي الذي عقده الكاثوليك في نفس السنة.* - *Martroye (F.), la répression du Donatisme, p. 132.*

ويرى "لانسال" أنه صدر قبيل انعقاد المجمع الكنسي في جوان 410م. - *Lancel (S.), Actes de la Conférence de Carthage en 411,..., p. 22.*

ويرجع سبب صدور هذا القانون إلى محاولة "هونوريوس" تجنب الاضطرابات في إفريقيا في الوقت الذي تزايد فيه خطر القائد القوطي "ألاريك" Alaric، لكن لما زال خطره، صدر مرسوم جديد يلغي قانون التسامح السابق في 25 أوت 410م. - *Cod. Theod., XVI, 5, 51.*

2 -*Martroye (F.), la répression du Donatisme..., Op.cit., pp. 128-132.*

3 - *Augustin (St.), Epist., 108.6.18.*

4 - *Monceaux (P.), R.H.R, t.64, 1911, pp. 51-52.*

يبدو من النصوص السابقة أن موقف الدوناتيين لم يتغير كثيرا تجاه الدوارين. إذ تباينت وجهات نظر الطرفين فيما يتعلق بطريقة العمل، ومن ثم استنكار رجال الدين الدوناتيين لأعمال العنف التي كان الدوارون يقومون بها.

والملاحظ أن الدوارين كانوا أوفياء لأهدافهم الثورية، فبالإضافة إلى مناهضتهم للملاك والأسياد، فقد كانوا يهاجمون الكنائس الكاثوليكية وكهنتها. يبدو أن حركة الدوارين في هذه الفترة – حسب "فراند" *Frend*–قد انزلقت كثيرا إلى المقاومة الدينية، وأن الدوارين قد تبنوا الدوناتية قضية أساسية لهم. [1] ويرى "بريصون" *Brisson* أن الدوارين كانوا ينظرون أساسا إلى الدوناتية على أنها نوعا من "دين الفقراء". [2]

وهكذا يبدو بجلاء أن العنصر الديني أصبح ملتحما بالعنصر الاجتماعي، وأن المطالب الاجتماعية للدوارين أصبحت مقرونة بالمقاومة الدينية.

لذلك يمكن أن نستنتج مما سبق أن هناك نوعا من التحالف كان قائما بين حركتي الدوارين والدوناتية. وأن هذا التحالف نما وتطور نتيجة الظروف المتشابهة التي مرت بها الحركتين حتى بلغ درجة النضج في أواخر القرن الرابع الميلادي.

لقد كان موقف الدوناتيين من تمرد الدوارين متذبذبا. فقد ذكر "أوغسطين" أن بعض الدوناتيين يستنكرون عنف الدوارين. [3] في حين كان البعض الآخر يتعامل معهم علانية، وربما ترأسوا عصاباتهم. والراجح أن كبار الأساقفة الدوناتيين كانوا في معظمهم يتجنبون التعامل مع الدوارين. [4]

1 - Frend (W.H.C), The Donatist Church…, Op.cit, p. 329.
2 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit., p.358.
3 -Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., I, XXIV, 26.
4 - Ibid., II, XXIII, 53.

وهذا ما يوحي به اعتراف "أوغسطين": « ***حقا، لستم كلكم معربدون، ولا كلكم بخلاء، ولا كلكم رجال عنف، إلا أنكم جميعا هراطقة، ومن ثم فإنكم زنادقة مدنسون.*** » (1)

يبدو أن "أوغسطين" – رغم اعترافه بوجود عدد من الدوناتيين الذين يرفضون عنف الدوارين– لكنه اغتنم هذه الفرصة لإشراك كل الدوناتيين في تمرد الدوارين. فقد كان يرى أن أعمال عنف الدوارين تشكل خطرا على الكنيسة الرسمية وعلى النظام الروماني وتهدد الإمبراطورية برمتها. (2)

ويتجلى ذلك في النص الذي كتبه "أوغسطين" إبان صدور قوانين "هونوريوس" (*Honorius*) ضد الدوناتية في الفترة (405–406م): « ***... إن هذه العقوبات خفيفة جدا، بل تكاد لا تعتبر إذا ما قابلناها بأعمال ذويكم الجنونية، إنكم تحملوننا حتى مسؤولية الإجراءات التي تتخذها السلطة الزمنية تحت الاضطرار ورغما عنها لكي تقي نفسها من اعتداءات ذويكم.*** » (3)

يتضح من النص أن "أوغسطين" والكنيسة الكاثوليكية كانت تسعى دوما لتدخل السلطة الرسمية ضد الكنيسة الدوناتية، إذا ما استطاعت تلك الكنيسة وكتابات "أوغسطين" بالخصوص تلويث وتشويه سمعة الدوناتيين وإشراكهم في تمرد الدوارين.

لذا يمكن القول أن احتجاجات الأساقفة الدوناتيين تتضمن جانبا من الصدق، حيث نلمس ذلك في موقف "بتيليانوس" (*) *Petilianus* أسقف سيرتا الدوناتي، الذي:

---

1 - Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, XXXIX, 93; Contra. Gaud., I, XXVII, 31.
2 - Monceaux (P.), R.H.R., t.64, 1911, p.49.
3 - Augustin (St.), Contra Cresc., III, XLIX, 54.
** – كتب "بتيليانوس" أسقف قرطة Cirta (قسنطينة حاليا) في حوالي 398–399م رسالة إلى الأساقفة والشمامسة الدوناتيين Epistula ad presbyteros et diaconos ضمنها انتقادات لاذعة للكنيسة الكاثوليكية، ورد عليه "أوغسطين" في رسالتين في حوالي سنة 400م. - Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., I, XXIV, 26.*

" لا يريد أن يعاب على كنيسته وجود "مجرمين" مثل "أوبطاتوس الجيلدوني" والدوارين في عدادها "[1]

ويمكن تقدير موقف "كريسكونيوس" *Cresconius* أحد النحاة الدوناتيين: عندما ينكر حماقات الدوارين وجنونهم وتقديسهم المدنس لجثث ضحاياهم الذين أقدموا على الانتحار. [2]

إن اتهامات الكاثوليك للدوناتيين بتزعم "عصابات" الدوارين ودفعهم إلى التمرد، يمكن فهمها إذا وضعناها في سياقها التاريخي وفي الظروف السياسية وظروف الجدل اللاهوتي بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية.

فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية – تبعا لاستراتيجيتها منذ البداية – تحاول أن تظهر للسلطة الرسمية أن عنف الدوارين ينبغي إعزاؤه إلى الكنيسة المنشقة، وبالتالي فإن السبيل الوحيد للقضاء على ذلك التمرد والعنف هو القضاء على الدوناتية. [3]

وكان الكاثوليك – في إطار الجدل الفقهي–يردون على ادعاءات الدوناتيين بكون كنيستهم كانت "كنيسة القديسين" و"كنيسة الشهداء"، وأن هؤلاء القديسين هم وحدهم يملكون القدرة على التعميد أو إعادته، إذ أن صحة التعميد مرتبطة بقداسة خادم السر أو المعمد (*Minister*). [4] فكان رد الكاثوليك أنه إذا كان "أوبطاتوس الجيلدوني" والدوارون وأمثالهم يملكون قدرة التعميد، فأين "قداستهم" وهم يرتكبون أشنع الجرائم؟ [5]

---

1 - Augustin (St.), Contra. Litter. Petil., II, XXXIX, 93 ; II, X, 24.
2 - Id., Contra. Cresc., IV, LXIII, 77.
3 -Vannier (O.), Op.cit, p.24 ; Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, p. 354.
4 - Augustin (St.), Brevic. Collat., III, VIII, 13. Contra. Gauden., I, XXVII, 31. XXIX.33.
5 - Id., Cont. Litter. Petil., II, XXXIX, 93.

لذا كان معظم الأساقفة الدوناتيون يستنكفون عن تصرفات الدوارين، حتى لا يحرجوا في مجادلاتهم الفقهية مع الكاثوليك من جهة، وحفاظا على مصالح الحركة الدوناتية تفاديا لانتقام السلطة الرومانية منهم من جهة ثانية.

ونلمس ذلك في موقف "ماكروبيوس" (*Macrobius*) الأسقف الدوناتي من دواري "هيبو– ريجيوس" (عنابة)، فبالرغم من أنه استعان بهم لدخول المدينة، إلا أنه لم يلبث أن سئم من تصرفاتهم. [1] خاصة ما تعلق بتعويض الملاك عن خسارتهم جراء أعمال الدوارين.

فقد كان "ماكروبيوس" يرغب –على غرار عدد من الدوناتيين–في تعويض الملاك والأسياد عن خسارتهم، إلا أن الدوارين كانوا يعوقون تنفيذ تلك الرغبة.

ولنا أن نتساءل: كيف نفسر تعارض مواقف كل من الدوارين والأساقفة الدوناتيين بخصوص تعويض الملاك؟

إذا كان موقف الدوارين من الملاك موقفا ثابتا لا يتغير، وهو موقف عدائي منذ بداية القرن الرابع الميلادي. فإن موقف "ماكروبيوس" وبعض زملائه الدوناتيين لم يكن متشددا تجاه الملاك حتى لو كانوا أعداؤهم في المذهب وحتى لو كانوا مضطهديهم. [2]

والسؤال المطروح هو: هل كان ذلك الموقف خوفا من السلطة الرومانية، أو تعبيرا مظهريا عن حسن نيتهم بعد صدور قانون التسامح مع الدوناتيين؟ ولماذا التخوف من الدوارين؟ ألا يذكرنا هذا الموقف بحوادث محلة "أكطافا" *Locus Octaviensis* سنة 340م حينما طلب الأساقفة الدوناتيين تدخل السلطة الرسمية ضد الدوارين؟

1 - Augustin (St.), Epist., CVIII, 5, 14; Monceaux (P.), <u>R.H.R.</u>, t.64, 1911, p. 42.
2 - Augustin (St.), Epist., CLXXXV, IV, 15.

يخاطب "أوغسطين" الدوناتيين في حوالي سنة 393م بخصوص علاقاتهم وموقفهم من الدوارين قائلا: « ***ما أكثر الذين عندكم اليوم ممن يزعجونكم ! ومع ذلك، فلا تفصلونهم أبدا عن رحمكم. أنا لا أتكلم عن الذنوب التي يمكن أن تنكروها. ولكن عن الضربات والحرائق وجرائم القتل التي يقترفها ذووكم*** [*] ***في وضح النهار ومع ذلك فإنكم تتحملونهم، إما خطأ وإما خوفا*** .» [1]

يتضح من النص السابق موقف الدوناتيين من تمرد الدوارين، فاحترازهم منهم كان إما خوفا منهم أو خطأ في إستراتيجيتهم، أو يغضون الطرف عن أعمالهم حفاظا على العلاقات بين الحركتين. لذلك تحدث عنها "أوغسطين" باقتضاب، لأنه لو ركز عليها لهدم أساس إستراتيجية حزبه التي تعتمد على محاولة إشراك الدوناتيين في تمرد الدوارين بل وقيادتهم لهم تحت غطاء "زعماء القديسين".

ويتساءل "مونصو": هل هذا هو حال كل السياسيين الذين يفجرون "القوى البهيمية" بتهور، ثم يفزعون لكونهم أصبحوا غير قادرين على التحكم فيها؟ [2]

يبدو أن الأمر ليس بهذه البساطة، فقد كانت "القوى البهيمية" – حسب "مونصو"– قادرة على الوصول إلى درجة معينة من التنظيم في أسلوب العمل وتطبيق المبادئ، وهذا ما ينطبق على الدوارين.

فقد وجد تمرد الدوارين بخصائصه وسماته الاجتماعية والدينية قبل أن يتدخل الدوارون في النزاع الديني بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية، أي قبل سنة 347م. لذلك لا يعدو أن يكون ما ذهب إليه "مونصو" جزءا من الإستراتيجية الجدلية التي تزعمها "أوغسطين".

– كثيرا ما يذكر " أوغسطين" الدوارين بـ " ذويكم " (Vestri).

1 -Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 88-92.

2 - Monceaux (P.), R.H.R., t.64, 1911, p .48.

ويمكن أن نتساءل في هذا السياق: هل كان الدوارون يشكلون خطرا على الدوناتيين أنفسهم؟

كانت الكنيسة الدوناتية – على غرار نظيرتها الكاثوليكية – غنية بأملاكها وثرواتها التي كانت تتمسك بها. وكانت تضم في صفوفها بعض الأغنياء في تلك الفترة أي حوالي سنة 400م. كتلك السيدة التي توفيت وأوصت بممتلكاتها لأحد الأساقفة الدوناتيين المدعو "أوغسطينوس" *Augustinus*. فما كان من أخيها – وهو أحد النبلاء–إلا أن قدم شكوى إلى الإمبراطور يطلب منه تطبيق الإجراءات اللازمة لاسترجاع إرث أخته – التي كانت من حزب "دوناتوس"–، فاستجاب الإمبراطور لطلبه واستعاد تركة أخته.

ويروي "أوغسطين" تلك الحادثة قائلا: « ... ***تضمن نص القرار إشارة إلى الدوارين توقعا لأي معارضة عنيفة من جهتهم، وكذلك لطبيعة الإسعافات والوسائل الكفيلة بصدهم، لأن مثل تلك الحالات كانت عادية. فقد اشتهر الدوارون بمثل هذه الأعمال الشائنة، وأظهروا في عدة مشاجرات شراستهم، بحيث لم يكن بالإمكان أن يفضي المشتكي إلى الإمبراطور ولا الإمبراطور نفسه عن ذكر الدوارين.*** » (1)

يلاحظ في هذا النص مدى الخطورة التي كان يمثلها الدوارون على تطبيق القوانين في المغرب القديم –في نظر "أوغسطين"–، طالما أن رسالة المشتكي وجواب الإمبراطور توقعا معارضة من طرفهم. ويمكن أن نستنتج أيضا أن الكنيسة الدوناتية كانت تستفيد من عطاءات وإرث رعيتها. وكانت تضم أغنياء من مستوى السيدة المشار اليها آنفا، لكن تصرفات الدوارين لم يكن من شأنها أن ترغب أولئك الأغنياء في الانتماء أو البقاء في الكنيسة الدوناتية. ومن ثم يمكن تفسير موقف الأساقفة الدوناتيين من الدوارين، الذي كان موقفا متذبذبا.

---

1 - Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I, XII, 20.

كانت السلطة الرومانية – لمواجهة الدوارين وحلفائهم الدوناتيين–تضيق الخناق على الملاك أو من يقوم مقامهم كمستأجري الضيعات ليقوموا بتنفيذ القوانين على الدوناتيين في أراضيهم. حيث نجد أن قانون "هونوريوس" الذي صدر سنة 405م ينص على مصادرة أراضي وضيعات الملاك الذين يسمحون بانعقاد تجمعات دوناتية فوق أراضيهم مع إدانتهم، إذا انعقدت تلك التجمعات دون علمهم. (1)

وأما إذا انعقدت تلك التجمعات بإذن من "مستأجري الضياع" (*Conductores*) أو "وكلائهم" (*Procuratores*) فإن هؤلاء يتعرضون إلى الجلد والنفي مدى الحياة. (2)

وقد صدر قانونين آخرين (*) بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة سنة 411م. حيث أصبح الضغط مركزا أكثر على "مستأجري الضياع" و"وكلائهم" سواء تلك الضيعات التي كانت بيد الإمبراطور أو تلك التي كانت ملكا للخواص: إذ أصبحوا مهددين بمقتضى قانون سنة 414م بفسخ عقدتهم مع مالكي تلك الضياع. (3)

يبدو من الراجح أن بعض الملاك وبعض "مستأجري الأراضي" كانوا يتحاشون مواجهة اليد العاملة الفلاحية التي تمارس العمل تحت إشرافهم بمختلف فئاتهم (عبيد، مزارعون، دوارون)، بسبب مشاكل مذهبية. لأنهم كانوا يعتبرون أن تلك المواجهة لا تفيدهم بقدر ما يمكن أن تلحق بهم الضرر بإنجاز الأعمال الفلاحية وبالسير العادي للأعمال في الضياع. (4)

---

1 - Martroye (F.), la répression du Donatisme…, Op.cit., p.86.
2 - Cod. Theod., XVI, 6, 4.
– صدر القانون الأول في 30 جانفي سنة 412م، والقانون الثاني في 17 جوان سنة 414م، أصدرهما الإمبراطور "هونوريوس" (Honorius)، ينص الأول على قيمة الغرامات المالية والعقوبات التي تفرض على الدوناتيين الذين يرفضون الوحدة الكاثوليكية. وينص الثاني على فرض عقوبات خاصة بالعبيد والمزارعين، ولا يحدد أي عقوبة بخصوص الدوارين.
- Cod. Theod., XVI, 5, 52 ; 5,54.
3 - Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, Op.cit., pp.356-358.
4 - Ibid., p.358.

ورغم ذلك فقد يرفضون أي محاولة للتدخل من قبل السلطة الزمنية في شؤون ضياعهم، وذلك حفاظا على سلطتهم واستقلالهم في أراضيهم. [1]

وكان "أوغسطين" يعتبر موقفهم هذا تعصبا، وقد حاول إقناع بعضهم [*] للضغط على الفلاحين كي يرفضوا الدوناتية. [2] وكان يرى أن مفاتحتهم في هذا الموضوع تشكل عدة مخاطر. [3]

وقد تعرضت القديسة "ميلانيا" (*St.Melania*) – وهي كاثوليكية متحمسة –تملك أراضي شاسعة قرب مدينة "تاغاست" *Thagaste* (سوق أهراس حاليا) إلى تلك المحاولات في حوالي سنة 410م، رغم وجود أسقف دوناتي بالمدينة. [4]

يذهب كثير من الباحثين [**] إلى أن ما أخر سقوط الدوناتية هو الموقف المتذبذب الذي اتخذه الملاك منها، وتهاونهم في تطبيق القوانين التي صدرت ضد الدوناتية على فلاحيهم. [5]

يرى أولئك الباحثين أن تشدد السلطة الرومانية تجاه الملاك خاصة بعد مناظرة قرطاجة سنة 411م، دفع هؤلاء إلى تغيير مواقفهم بالضغط على السكان الموجودين بأراضيهم، مما يعجل بالقضاء على الدوناتية. إلا أن حيوية الدوناتية استطاعت أن تجتاز أزمات صعبة كاضطهاد سنة 347م.

---

1 - Warmington (B.H.), The North African Provinces…, Op.cit., p.102.

– كان "أوغسطين" بفضل رسائله وخطبه الوعظية Sermones قد نجح مع "باماكيوس" Pammachius الذي تمكن من إرجاع مزارعيه بحقوله في نوميديا إلى الوحدة الكاثوليكية، بينما فشل مع "فستوس" Festus الذي تردد مع مزارعيه في ضيعته قرب مدينة هيبو– ريجيوس Hippo- regius (عنابة). *- Augustin (St.), Epist., CIX, 8; Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique …, p.133.*

2 - Augustin (St.), Epist., LVIII, 3.

3 - Warmington (B.H.), The North African Provinces…, Op.cit., p.102.

4 -Warmington (B.H.), Idem.

*** – منهم: Warmington و Tengström (E.),*

5 - Warmington (B.H.), Idem.

وفي هذا السياق، يحق لنا أن نتساءل: ما الذي دفع الملاك إلى تغيير مواقفهم؟ هل يعود ذلك إلى تشدد السلطة الرومانية اتجاه غير المكترثين منهم بتطبيق القوانين على فلاحيهم الدوناتيين؟

يبدو أن السلطة الرومانية كانت ضعيفة أمام هؤلاء الملاك بحيث عجزت عن إرغامهم على تسديد الضرائب. ومهما اختلفت مصالح السلطة، فإن الطرفين يتفقان على ضرورة الحفاظ على الأمن في البلاد لمواجهة الدوناتية. (1)

فقد عرفت العلاقات بين الدوناتيين والدوارين تقاربا متزايدا في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي. ومهما كانت طبيعة ذلك التقارب وأسبابه، فإن الكنيسة الدوناتية يبدو أنها متورطة مع الدوارين الذين كثفوا هجماتهم على الملاك والدائنين والأسياد، وعلى الكنائس الكاثوليكية ورجال الدين الكاثوليك أيضا. (2)

ومن ثم أصبح الدوارون جزءا من الصراع الديني بين الكاثوليك والدوناتيين، الذي تميز بتركيز "أوغسطين" وزملاؤه الكاثوليك دعايتهم الموجهة إلى الدولة عن طريق البعثات إلى الإمبراطور وإلى الملاك عن طريق رسائل "أوغسطين". (3)

فمن الواضح إذن، أن مصلحة الدولة ومصالح الملاك أصبحت تقتضي مكافحة الدوناتية. بالرغم من أن بعض الملاك الدوناتيين ظلوا متشبثين بعقيدتهم، رغم صدور قانون سنة 412م الذي ينص على فرض غرامات مالية على الدوناتيين، وقانون سنة 414م الذي ينص على تطبيق الحظر على الدوناتيين، حتى ولو كانوا كاثوليكيين. (4)

1 -Cod. Theod, XI, I, 31, 34.

2 - Lepelley (C.), Déclin ou stabilité de l’agriculture Africaine au Bas-Empire,, Op.cit., p.143.

3 -Augustin (St.), Epist., LXXXIII, CIX, 8.

4 -Cod. Theod., 5, 52; 5, 54.

وهكذا كان معظم الملاك منذ نهاية القرن الرابع الميلادي إما مشركين وإما كاثوليك. [1] لذا يمكن القول أن تغير مواقف الملاك تجاه الدوناتية كان له الأثر البالغ في التعجيل بسقوطها.

وقد أشارت بعض نصوص "أوغسطين" إلى أن تنكر رجال الدين الدوناتيين للدوارين لم يكن ليمنعهم من توظيفهم في الفترات العصيبة التي اجتازتها الكنيسة المنشقة. فقد خاطب "أوغسطين" منذ سنة 393م الدوناتيين ويبرز موقفهم من الدوارين قائلا: « ***لكن إذا طردهم (يقصد الدوارين) زعماؤكم، فلن يجدوا نصيرا لبسط سلطانهم.*** » [2]

ويرد على الأسقف الدوناتي "بتيليانوس" *Pétilianus* أسقف سيرتا في حوالي سنة 400م قائلا: « ***... الواقع أن شرذمتكم المنشقة تستمد قوتها في غالب الأحيان – لا من صولجان الله وعصاه– ولكن من عصيهم هم، تلك العصي التي تعتقدون أنها في مأمن من قوانين روما نفسها...*** » . [3]

يتضح مما سبق أن تصريحات "أوغسطين" لا تخلو من تضخيم لأعمال الدوناتيين. حتى الكاثوليك استغلوا جروح بعض الأساقفة الذين سافروا إلى روما للتشكي لدى الإمبراطور، ودعوته إلى معاينة مدى عنف الدوناتيين وكانت شكواهم تلك هي احدى وسائلهم للضغط على الإمبراطور "هونوريوس" (*Honorius*) حتى أصدر "مرسوم الوحدة" في 12 فيفري 405م. كما حاول "أوغسطين" تصوير جروحهم في إحدى نصوصه. [4]

1 - Warmington (B.H.), The North African Provinces…, Op.cit., p.92.
2 -Augustin (St), Psalmus Contra Partem Donati, 144-163.
3 -Id., Contra. Litter. Petil., II, XLVII, 110.
4 - Id., Contra. Cresc., III, XLII, 46; XLV, 49.

ويلاحظ سكوت "أوغسطين" عن عنف بعض الكاثوليك وتهجمهم على الدوناتيين في بعض مناطق نوميديا. وهو العنف الذي نستشفه من بعض الفقرات من كتاباته وعلى لسان بعض الأساقفة الكاثوليك خلال مناظرة قرطاجة سنة 411م. [1]

يفهم من تلك النصوص أن التعاون الذي وجد بين حركتي الدوارين والدوناتية الذي يكون قد بدأ منذ سنة 347م، كان يظهر بجلاء خلال الفترات العصيبة التي كانت تمر بها الكنيسة المنشقة، كتضييق الخناق عليها بعد انتهاء فترة التسامح في عهد الإمبراطور "يوليانوس المرتد" (362م)، وبشكل واضح خلال عهدي "ثيودوسيوس" *Theodosius* (379–395م) و "هونوريوس" *Honorius* (395–423م).[*]

لقد ظل رجال الدين الدوناتيين خلال تلك الفترة – رغم القوانين التي صدرت في حقهم– يحاولون إقناع السلطة الرومانية بأنهم يمثلون الكنيسة الكاثوليكية الحقة. [2] كما أنهم كانوا يلجأون إلى السلطات في بعض الظروف لمحاولة التخفيف من حدة القمع الذي تعرضت له الكنيسة الدوناتية، أو لالتماس العقوبات ضد المنشقين عن الدوناتية. ومما دفعهم إلى ذلك أن الكاثوليك كانوا يستأثرون بمسامع السلطة الزمنية ويوجهونها وفق ما يخدم مصالحهم. [3]

وهذا ما دفع الدوارين والدوناتيين إلى تدعيم تعاونهما لمواجهة السلطة والكاثوليك، رغم أن هذا التعاون كان ظرفيا ويشوبه نوع من الحذر والتخوف، نظرا لوجود جناح متطرف في الكنيسة الدوناتية.

يبدو أن الكنيسة الدوناتية كانت منقسمة على نفسها خلال تلك الفترة: جناح معتدل يمثله زعماء الدوناتية ورجال الدين الكبار ويتعامل مع الدوارين بكثير من التحفظ،

---

1 - Augustin (St.), Contra. Cresc., III, L, 55.

*– أنظر لائحة القوانين الصادرة ضد الدوناتية في عهد هونوريوس وعهد ثيودوسيوس.(الملحق رقم 3).

2 - Id., Cont. Litter. Petil., II, LXXXVII, 195 ; Cont. Cresc., III, XLVIII, 51 ; XLVIII, 52.

3 - Id., Contra. Gauden., I, XXVII, 31 ; XXIX, 33.

كما يتبرؤون من أعمالهم، وجناح متطرف يمثله بعض الأساقفة الدوناتيين المتشددين مثل "أوبطاتوس الجيلدوني" وبعض رجال الدين الصغار، وأولئك "الإكليركيون" الذين يصفهم "أوغسطين" بهذه النعوت: « ***...هذه المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تدرك ولا تحتمل ما ننصحه بها لمصلحتها...*** » . (1)

ويذكرنا ذلك بموقف "كلاروس" *Clarus* كاهن "محلة سوبولوس" *Locus subbulensis* الذي تردد كثيرا في تنفيذ أوامر أسقفه التي تقضي بمنع الدوارين من دفن قتلاهم في كنيسة المحلة. (2)

لقد كان الدوناتيون في حيرة من أمرهم، فلا هم يستطيعون التنكر للدوارين، ولا هم يستطيعون إقناع السلطة بأن لا علاقة لهم بالدوارين. وكلما تعذر عليهم ذلك كلما تعرضوا إلى مزيد من الاضطهاد، لذلك أصبحوا في حاجة أكبر إلى الدوارين، كما تشبث بهم الدوارون أكثر. وهكذا تكون الحلف بين الدوارين والدوناتيين وازداد متانة أكثر من ذي قبل، كلما تقوى الحلف الذي كونه الكاثوليك مع السلطة الزمنية.

يحق لنا أن نتساءل: لماذا أصبحت أعمال الدوارين موجهة ضد الكاثوليك؟ يبدو أن معظم الملاك قد أصبحوا من الكاثوليك في نهاية القرن الرابع الميلادي. إذ كانت الدوناتية في نظرهم هي "كنيسة الفقراء". (3)

وقد اعتبر "أوغسطين" انفصال الدوناتيين عن "المتخاذلين" *Traditores* انفصالا "جسديا" وليس انفصالا "روحيا" كما كان يكتفي به الكاثوليك قائلا: « ***المؤمنون يخرجون من وسط المذنبين وينفصلون عنهم بالقلب – مؤقتا- خشية أن يكونوا السبب في انفصال روحي عن الأخيار بدل الانفصال الجسدي عن الأشرار.*** » (4)

---

1 - Augustin (St.), Contra Cresc., IV, L, 60 ; LI, 61.
2 -Vannier (O.), Op.cit., p. 21. Brisson (J.P.), Autonomisme…, Op.cit., p.350.
3 - Warmington (B.H.), The North African Provinces…, Op.cit., p. 92.
4 - Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., II, XVIII, 37.

وقد حاول "بريصون" أن يظهر هذا الانفصال بين "المتخاذلين" وذريتهم الكاثوليك من جهة وبين "الشهداء" وخلفهم الدوناتيون، على أنه انفصال بين الأغنياء والفقراء. (1)

يبدو أن هذا الانفصال لم يحدث بسبب اعتبارات دينية ولكن لأسباب سياسية، حيث أن الأغنياء لم يكونوا كلهم كاثوليك، والفقراء لم يكونوا كلهم دوناتيين، ومن ثم فالمعادلة بين الطرفين غير سليمة.

وكانت المعادلة الصحيحة قائمة بين "المتخاذلين" و"المضطَهَدين" من جهة، وبين "الشهداء" و"المضطَهِدين" من جهة أخرى، فالتناقض إذن كان بين السلطة الرومانية التي كانت تسعى إلى إقرار النظام الاجتماعي والسياسي القائم، وبين الرافضين والساخطين على النظام الروماني من دوناتيين ودوارين. (2)

وإذا كانت الكنيسة الدوناتية تضم في صفوفها الكثير من الفقراء في نهاية القرن الرابع الميلادي، فهي فرضية يمكن قبولها لكن بكثير من الحذر والتحفظ. فانتماء أولئك الفقراء والدوارين إلى الدوناتية يرجع أساسا إلى ظروف الاضطهاد التي كانت تعاني منه الكنيسة المنشقة.

وبالرغم من أن "مونصو" جعل من الدوارين "عصابات" من اللصوص. فإنه أدرك في نهاية المطاف أن الحلف القائم بين الدوارين والدوناتيين كان حلفا يضم المتذمرين والمضطهدين في مواجهة كبار الملاك والسلطة الزمنية والكنيسة الكاثوليكية. (3)

صفوة القول أن التحالف بين حركتي الدوارين والدوناتية يشكل دليلا آخر على فشل النظام الروماني. وأن مقاومة السكان جاءت لتقضي على كل ما تسبب فيه هذا النظام من استغلال واختلال في التوازن الاجتماعي والاقتصادي في المغرب القديم.

---

1 - Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit., p 356.
2 - Ibid., p.352.
3 -Monceaux (P.), R.H.R., t. 64, Paris, 1911, p.53.

وأن الانشقاق الديني الذي عرفه المغرب القديم قد اتخذ صبغة مقاومة "وطنية" للوجود الروماني، وأن تعاون الزعيمين الإفريقيين "فيرموس" *Firmus* و"جيلدون" *Gildon* الثائرين على روما كان يستهدف القضاء على ذلك الوجود.

الباب الخامس

ارتباط الحركة الدوناتية بثورات القرنين الرابع والخامس الميلاديين

الفصل الأول: ثورة فيرموس

الفصل الثاني: حرب جيلدون

الفصل الثالث: ثورة الدوارين الريفيين

الفصل الأول

ثورة فيرموس

المبحث الأول- أسباب ثورة فيرموس

المبحث الثاني- محطات ثورة فيرموس

المبحث الثالث- نتائج ثورة فيرموس

ظلت بعض الأقاليم في المغرب القديم خارج حدود السيطرة الرومانية، كالمناطق الجبلية والسهوب التي لم يشملها الاستيطان الروماني، الأمر الذي سمح بتواصل التشكيلات القبلية في شكل وحدات سياسية مستقلة نسبيا، تلك الوحدات التي وصفها "شارل كورتوا" *Ch. Courtois* بالجزر العائمة في محيط روماني. [1] وقد ظلت مصدر تهديد لأمن المدن والأرياف الخاضعة للاستيطان طيلة الوجود الروماني بالمنطقة، معلنة عن ثورات عارمة خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد.

من هذا المنطلق أعالج في هذا الباب الخامس الذي قسمته إلى ثلاثة فصول علاقة الحركة الدوناتية بأهم الثورات التي شهدها القرنان الرابع والخامس الميلاديين، حيث تناولت في الفصل الأول ثورة فيرموس عارضا أسبابها ووقائعها ونتائجها، ودرست في الفصل الثاني حرب جيلدون متلمسا ظروف اندلاعها ووقائعها الحربية ونتائجها، وتطرقت في الفصل الثالث إلى ثورة الدوارين الريفيين ومراحلها الكبرى إلى أن صدر قرار تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة سنة 411م.

<u>المبحث الأول: أسباب ثورة فيرموس</u>: عرفت بعض القبائل بعدائها الشديد للرومان، ومن تلك التشكيلات القبلية ما يعرف بحلف القبائل الخمس [*] (*Quinquegentiani*) التي تحولت إلى قوة ضاربة في المنطقة أسندت قيادتها إلى رئيس إحدى قبائل الحلف يدعى "فاراكسن" (*Faraxen*). [2]

---

1 - Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, Op.cit., p.89.

**– هي كنفدرالية قبائل – كما ذكرتها المصادر اللاتينية تتمركز في المنطقة الجبلية بين "روسوكورو" (Rusucurru) "دلس" حاليا و"صلداي" (Saldae) "بجاية" حاليا، وتتكون من القبائل التالية: ماسينيسن Masinissenses، وتيندن Tyndenses، وايسفلن، Isaflenses، ويوبلاني Jubaleni، وييسالن، Iesalenses. -Ammien Marcellin, XXVIII. 6,26 ; XXIX, 5,2 ; XXX, 7,10 ; Galand (L.), les Quinquegentanei, <u>B.A.A</u>., t. 4, 1970, pp. 297-299.*

2 - Cagnat (R.), l'armée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, imprimerie Nationale E. Leroux, Paris, 1913, pp.63-64.

لم يتوقف الأمر عند قبائل الحلف الخماسي بل امتد التمرد إلى قبائل "البوار" (*) (*Bavares*)، التي استعصت هي الأخرى على السلطة الرومانية. واستطاعت زعزعة استقرار مقاطعة موريطانيا القيصرية على الحدود الشرقية المتاخمة لمقاطعة نوميديا، مما أجبر الرومان على الرضوخ والاعتراف بحكم الزعماء المحليين كحقيقة واقعة.

يظهر أن تلك القيادات القبلية قد حازت ثقة العشائر التي مثلتها نتيجة قدرتها على تحريض القبائل على الثورة ضد الرومان، فضلا عن قدرتها على قيادة المعارك وعقد التحالفات كحلف القبائل الخمس.

يبدو أن روما استغلت تلك القيادات والأسر ذات النفوذ السياسي والمعنوي لدى السكان. فوطدت العلاقة معها وعملت على تنمية مكانتها بين الناس لتكون واسطة بينها وبين الأهالي، حتى لا يلجأ هؤلاء إلى القيادات المستقلة عن إدارة روما فيحدث التمرد. ولعل أوضح مثال على ذلك: عائلة "فيرموس" *Firmus* التي برزت إلى سطح الأحداث في الثلث الأخير من القرن الرابع الميلادي.

وقد اختلف أتباع "فيرموس" كما اختلفت التركيبة الاجتماعية والدينية لقواته، وضمت مختلف فئات السكان كالوثنيين والدوناتيين والدوارين والجنود الناقمين. ووجد "فيرموس" الجو مهيئا من طرف الدوناتيين والثوار الريفيين الذين أصبحوا يعرفون بـ "رجال فيرموس" (*Ferminaii*). والظاهر أن "فيرموس" قد أحسن استغلال الجو الملائم للثورة الذي هيأه الدوناتيون والثوار الريفيون، وحقق انتصارات سريعة. فانضمت إليه جموع القبائل الساخطة

*- **البوار** أو البابار في بعض النصوص، من أكثر القبائل المورية شهرة في المصادر الأثرية، حيث ورد ذكرهم في حوالي خمسة عشر نقيشة لاتينية أمكن التأكد منها حتى عام 1955م، وذلك في مواقع عديدة شملت المقاطعة الطنجية والقيصرية والنوميدية. وصفتهم النقوش اللاتينية بالشعب الكبير Gentis Multus، ظهروا على مسرح الأحداث خلال القرن الرابع الميلادي، وينقسمون إلى بوار غربيين وبوار شرقيين.* *-Camps (G.), les Bavares, Peuples de Maurétanie Césarienne, Rev. Afr., t.99, 1955. p.277 ; Thouvenot (R.), Rome et les Barbares Africains, à Propos d'une Inscription de Volubilis, Publications du Service des Antiquités du Maroc, VII. 1945, p. 181.*

على الرومان ورحب به رجال الدين الدوناتيين وفتحوا له الكنائس، وبادر الثوار الريفيون بالانخراط في صفوفه أملا في تحقيق نصر كان يراودهم منذ أمد بعيد. (1)

يعتبر "أميان مارسلان" (*) (*Ammien Marcellin*) من أبرز المصادر الكلاسيكية التي سجلت أحداث ثورة "فيرموس". فقد عاصر تلك الأحداث لذلك كانت معلوماته غزيرة رغم ضياع بعض فصول الكتاب. (2) ثم "بول أوروز" (**)(*Paul Orose*) الذي عاش في القرن الخامس أي في فترة متأخرة من ثورة "فيرموس"، ولكن أحداثها لا تزال عالقة في الأذهان. (3)

ويعد "كلوديوس" (***) (*Claudius*) من الكتاب الشعراء اللاتين الذين اهتموا بثورة "فيرموس". فقد وصف في كتابه "حرب جيلدون" (4) (*De Bello Gildonico*) من خلال مجموعة من الأشعار أحداث تلك الحرب.

---

[1]– *شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 315.*

*- **أميان مارسلان، AmmienMarcellin**، مؤرخ لاتيني ولد بأنطاكية سنة 320م، توفي بروما سنة 390م، كان ضابطا في الجيش الروماني، استقر بروما وكتب «التواريخ Histoires» في13 كتابا لم يصلنا جلها، وتمتد من عهد "نرفا" (Nerva) إلى عهد " فالانس" (Valens) من سنة 96م إلى سنة 378م، وما وصلنا تلك الفترة التي عاشها من 352م إلى378م.. - Dict. Univ. Hist. Géo, pp. 68- 69.*

[2]-*Ammien Marcellin, XXVIII, 6, 26 ; XXIX, 5, 2 ; XXX, 7,10.*

*– ** **بول أوروز Paul Orose**، أو **Orosius** (385–418م) مؤرخ مسيحي ولد في تاراكو Tarraco بإقليم كاتالونيا في إسبانيا حاليا، في نهاية القرن الرابع الميلادي، كان أحد تلاميذ القديس " أوغسطين" في 414م، سافر إلى فلسطين سنة 415م، وكان من المتحمسين ضد بدعة البيلاجيوسية Pélagianisme، من أبرز مؤلفاته: Historiae Adversus Paganos libri. VIII يتناول فيه تاريخ المسيحية منذ البدء إلى سنة 417م. - Dict. Univ. Hist. Géo., p.1394 ; Arnaud-Lindet (M.P.), Sources Littéraires de l'histoire de l'Afrique Romaine, dans : Questions d'Histoire, édi. du temps, Nantes, 2005, p. 21.*

[3]-*Paul Orose, VII, 33, 5.*

****–كلوديوس **Claudien** ، شاعر لاتيني ولد في حوالي 365م بالإسكندرية "مصر"، توفي في منتصف القرن الخامس للميلاد. من أهم أشعاره: حرب جيلدون، De Bello Gildonico. للمزيد أنظر أدناه، ص 697.*

[4]- *Claudien, De Bello Gildonico (Guerre de Gildon), Trad. V. Crepin, Paris, 1933.*

ويعتبر "زوسيم" [*] (*Zosime*) من المؤرخين الذين لم يعاصروا ثورة "فيرموس" إلا أنه ذكر بعض أخبار الثورة. [1] و"أوريليوس فيكتور" (*Aurelius Victor*) [2] ثم القديس "أوغسطين" (*St. Augustin*) من خلال رسائله [3] متهما الدوناتيين – كعادته– بالضلوع في هذه الثورة والتحالف مع "فيرموس" لتقويض أركان الوجود الروماني في المغرب القديم.

وتضمنت الوثائق الأثرية (النقوش) إلى جانب المصادر الأدبية معطيات هامة عن حركة "فيرموس" منها: نقيشة عثر عليها في خرائب كنيسة بالمقبرة الشرقية بتيبازة (*Tipaza*) تنسب إلى القديسة "صالصا" (*St. Salsa*) وأشارت النقيشة إلى الثائر "فيرموس" وطموحاته في الإطاحة بالإمبراطور الروماني. [4]

واحتوت نقيشة "روسقونيا" (*Rusguniae*) "رأس ماتيفو" *Cap Matifou* "برج البحري حاليا" شرق مدينة الجزائر تعود إلى القرن الرابع الميلادي، على اسم والد "فيرموس"

---

*- **زوسيم**، ***Zosime***، (ق.4م- ق.5م)، مؤرخ إغريقي وثني، كان محاميا يحمل لقب كونت Comte في عهد "هونوريوس" و " تيودوز"، كتب " التاريخ الروماني" في ستة أجزاء في الفترة من 425 إلى 518م من عهد " أغسطس" إلى سقوط روما على يد " ألاريك" Alaric. -Dict. Univ. Hist. Géo., p.2038 ; Arnaud-Lindet (M.P.), Sources Littéraires…, Op.cit., p.22.*

1- Zosime, Histoire Nouvelle, Ed. F. Paschoud. Coll. Univ. de France, 1971, IV, 16.

2- Aurélius Victor, Epitomé, XLV, 7.

3- Augustin (St.), Epist., LXXXVII, 164 ; Contra Epist. Parmen., I, 10, 17.

4- C.I.L., VIII, 20914 ; Gsell (S.), Recherches Archéologique en Algérie, Ernest Leroux, Paris, 1893, pp. (1-9).

المدعو "فلافيوس نوبل" (*) (*Flavius Nubel*) الذي كان قائدا لفرقة عسكرية من المساعدين (*equitum armigerorum juniorum*). (1)

وقد كتبت النقيشة بمناسبة بناء نوبل كنيسة بـ "روسقونيا" (2) مهداة إلى الصليب المقدس. وتضمنت نقيشة "ملاكو" *M'lakou*– وهو موقع كان يضم أملاكا لأحد إخوة "فيرموس" على الضفة اليمنى لوادي الساحل (الصومام حاليا)– معلومات عن قصر يدعى "بترا" (3) (*Petra*)، وصفه "أميان مارسلان" بالاتساع وأنه حصن منيع. (4)

وأشارت نقيشة أخرى عثر عليها بمليانة (5) إلى أحد إخوة "فيرموس" يدعى "مازوكا" *Mazuka* وهو الذي اقتحم "قيصرية" *Caesarea* عاصمة مقاطعة موريطانيا القيصرية. ووجدت نقيشة أخرى معلقة على جدران أحد قصور عائلة "فيرموس" بموقع "الصومعة"، شرقي مدينة الجزائر قرب ثنية بني عائشة، وكانت تشير إلى "فيرموس" ووالده "نوبل". (6)

وقد وصف "س. غزال" هذا القصر بأنه كان مقرا للأمير "نوبل" وابنه "فيرموس" ومركز مراقبة هام يحتل موقعا استراتيجيا. (7) وعثر على نقيشة في خرائب حصن "تيغافا

– ذكرته بعض المصادر باسم Nuvel، تعود أصوله حسب أميان مارسلان إلى قبيلة " يوبلاني" Jubaleni في ضواحي "أوزيا" Auzia" سور الغزلان" حاليا بموريطانيا القيصرية، وكان له سبعة أبناء هم : ساماك , Sammac، Zammac، "مازوكا" Mazuca –Mazucan، "ماكزيزيل" Maczezel ، "ديوس" Dius، فيرموس Firmus وجيلدو Gildo، و بنت تدعى كيريا Kyria. وكان نوبل يقيم في قلعة بفج بني عيشة التي تحتل موقعا استراتيجيا بين شرق سهل متيجة ومنطقة القبائل، وكان يتولى مهمة مراقبة المنطقة ويضمن الأمن للسلطة الرومانية في هذا الموقع، توفي حوالي 370م، لأن ثورة فيرموس بدأت في 372م. - *Gsell (S.), Observations géographiques sur la révolte de Firmus, R.S.A.C., (souvenir du cinquantenaire 1853-1903), Vol. 35è, 1903, pp. 21-46 ;Ammien Marcellin, XXIX, 5,44 ;Camps (G.),Rex Gentium Maurorym Romanorum, Recherches sur les royaumes de Maurétanie des VI et VII siècles, Ant. Afri., t. 20, 1984, pp (183-218), p. 185.*

1 - *Gsell (S.), La basilique de Rusguniae (Algérie) découverte par le lieutenant Chardon, in :C.R.A.I., 44e année, N. 1, 1900. pp. 48-52. (p.49).*

2 - *C.I.L., VIII, 9255.*

3 - *C.I.L., 9011.*

4 - *Ammien Marcellin, XXIX, 5, 12.*

5 - *C.I.L., VIII, 9613.*

6 - *Gsell (S.), A.A.A., f.5, Alger, n° 48.*

7 - *Gsell (S.), Observations Géographiques…, pp. (21-46).*

كاسترا" (*) (*Tigava Castra*) الذي يقع بين مدينتي "أوبيدوم نوفوم" (**) *Oppidum Novum* و"تجيتي" *Tigitii* "الشلف" حاليا، تشير إلى أن ثورة "فيرموس" امتدت إلى وادي الشلف وجبال تلك المنطقة. [1]

توحي هذه النقائش التي عثر عليها في مواقع متعددة ومتباعدة أن ثورة "فيرموس" كان قد اتسع نطاقها الجغرافي، حيث كانت تشمل مناطق مختلفة من موريطانيا القيصرية. ومن المؤرخين المحدثين الذين تناولوا أحداث ثورة "فيرموس" بالدراسة "ستيفان غزال" *S.Gsell*[2] ووينكلير [3] *Winkler*، ورونيه كانيا [4]*R.Cagnat*.

وأكدت هذه الدراسات أن انتشار ثورة "فيرموس" دليل على أن نفوذ العائلة المالكة كان واسعا، مما اقتضى إقامة "فيرموس" وإخوته في مناطق متباعدة من المقاطعة القيصرية حتى يضمنوا ولاء القبائل لهم.

ساعدت مجموعة من الظروف والعوامل على تمرد "فيرموس" وقيادة ثورة شاملة هددت الوجود الروماني بمقاطعة موريطانيا القيصرية. وبالرغم من أن العائلة الملكية كانت تابعة تاريخيا إلى الرومان تبعية صدق ووفاء، إلا أن الأمير الموري "فيرموس" استطاع

---

*-*Tigava Castra*، هي مدينة الخربة *El- Kherba* حاليا، حصن بن عباس – حسب غزال– ذكر في مسلك أنطونينوس، يبعد بحوالي 32 ميلا (53 كلم) عن حصن *Oppidum Novum* "عين الدفلى حاليا"، وبحوالي 22 ميلا (35 كلم) عن "تيجيتي" *Tigitii* "الشلف" حاليا، كانت به كنيسة وأسقف، إلا أنها دمرت أثناء ثورة فيرموس في حوالي 370م، ويسمى حاليا قصر سلطان ويقع على الضفة اليمنى لوادي الشلف، وغرب رافده وادي طاريا. - *Gsell(S.), A.A.A., f.13, Miliana, 64 ; Pierre Salama, Nouveaux milliaires chrétiens de la vallée du Chélif en Maurétanie césarienne, Afri.Rom., V.III, 2004, p.1711.*

**- *Oppidum Novum*، هي خرائب حصن روماني يقع عل بعد 2 كلم شمال غرب عين الدفلى حاليا. *Gsell(S.), A.A.A., f.13, Miliana, 63 ; Salama (P.), Afri. Rom., VIII, 2004, p. 1711.*

1- *C.I.L., VIII, 10946 ; Ammien Marcellin, XXIX, 5,20.*

2- *Gsell (S.) , Observations Géographiques …, Op.cit., pp. (21-46).*

3- *Winkler, Pièces de l'histoire de Campagne d'Afrique de Théodose contre Firmus (372-375), R.T., 1908, p.37.*

4- *Cagnat (R.), L'armée Romaine d'Afrique…, Op.cit., pp.70.*

كسب ثقة القبائل المورية المختلفة وتكتلت في شكل اتحادات وكونفدراليات التي جندت نفسها ووقفت إلى جانبه في مواجهة روما.

لذلك يحق لنا أن نتساءل: هل قيام ثورة "فيرموس" كانت لدوافع شخصية أراد تحقيقها؟ أم أن حركته كانت لها دوافع سياسية لرد الاحتلال الأجنبي؟ وما العوامل التي ساعدت على انتشار حركته؟ وما دور الكونت الروماني وتصرفاته في اندلاع الثورة؟

انطلقت ثورة "فيرموس" من مجال جغرافي استعصى على السلطة الرومانية، إذ لم يكن خاضعا للاحتلال التام. وكان يتمتع بنوع من الاستقلالية، وسكانه كانوا ينتمون إلى أسر عريقة وصفتها المصادر الأدبية بالملكية (*Regulis*) والتي يحتمل قدمها وعراقتها وتعاملها مع الرومان. [1] ومن هذه الأسر أسرة الأمير "فيرموس" ***Firmus*** بن "نوبل" ***Nubel*** الذي تزعم حركة عصيان ما لبثت أن استقطبت القبائل المورية المختلفة. [2]

وانضمت إليه مختلف الطبقات المسحوقة التي تضررت من النظام الاجتماعي الروماني، وتتضامن فيما بينها وتشكل قوة ثورية تدفعها الرغبة في التحرر والانعتاق. [3]

وقد احتضنت تلك الطبقات المضطهدة "فيرموس" وكانت متحمسة لأي انتفاضة محتملة ضد الوضع القائم، فالرومان كانوا أسيادا ودائنين ولم يكن في وسعهم إعفاء المديونين من الدين. [4]

يبدو أننا أمام محاولة حقيقية لثورة اجتماعية تهدف إلى تحرير المضطهدين والعبيد واليد العاملة الحرة من البطالة والاستغلال.

[1]- *شنيتي محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، المرجع السابق، ص ص 353-354.*

[2]- *Procope, Histoire des Guerres des Romains, des Byzantins et des Vandales, par Dureau de la Malle, Firmin Didot, Paris, 1852, pp.193-194.*

[3]- *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, Op.cit., pp. 144-145.*

[4]- *Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, Op.cit., p.341.*

لقد سكتت المصادر الأدبية عن الأسباب الحقيقية التي دفعت "فيرموس" إلى التمرد على السلطة الرومانية. لكن يبدو أن الحاكم الروماني "رومانوس" *Romanus* قد ساهم بقسط وافر في إذكاء الصراع بين "فيرموس" وأخيه "ساماك" *Sammac* الأمر الذي أدى إلى اغتيال هذا الأخير، مما أثار حربا صامتة بين "رومانوس" و"فيرموس" آلت إلى إعلان "فيرموس" تمرده على الكونت الروماني. [1]

والظاهر أن أسباب هذا التمرد متعددة، وهناك عناصر مختلفة تظافرت فيما بينها ودفعت الموريين إلى الثورة. وقد ألقى "أميان مارسلان" كامل المسؤولية على الكونت "رومانوس" متهما إياه بتشجيع قبائل الأوستورياني (*Austuriani*) [*] التي هاجمت مدينتا أويا (*Oea*) "طرابلس" حاليا و"لبتيس ماغنا" (*Leptis Magna*) "لبدة حاليا" وعاثت فيها سلبا ونهبا. مما دفع سكانها إلى تقديم شكوى إلى الإمبراطور "فالنتينيانوس" *Valentinianus* منددين بتصرفات الكونت "رومانوس". [2]

وقد ذكر "أميان" أن الإمبراطور أوفد لجنة تحقيق إلى عين المكان، غير أن الكونت اشترى ضمائر مندوبي اللجنة مما حجب الحقائق عن الإمبراطور. [3]

ووجدت قبائل الأوستورياني الفرصة سانحة لتكرار غاراتهم على طرابلس ولبدة، وبتقاعس الكونت "رومانوس" قتلوا عددا كثيرا من سكانها بعد عمليات الحرق والنهب التي تعرضت لها المدينتان. قامت تلك القبائل بقلع أشجار الزيتون وأخذت الغنائم التي كانت قد تركتها في هجماتها السابقة خلال سنوات 365-366م. [4]

---

[1] - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., pp. 78-97.*

*- الأوستورياني -Austuriani، هي قبيلة هوارة المعروفة بالمقاطعة الطرابلسية حتى الفترة الإسلامية، وهي قبائل أمازيغية كانت مضاربها مجاورة لمقاطعة طرابلس، تعيش على القتل والنهب والاغتصاب، حسب الشاعر "كوريبوس" الذي يسميها "الأوستوريس" Austures. ; *- Corippus, Joh., II, 87-109; VI, 108; VII, 302-304*
*Tauxier, (H.), "Récits de l'histoire d'Afrique, le comte Romanus." Rev. Afr.,**t .34,** 1890,(pp.193-222), p.193.*

[2] - *Ammien Marcellin, XXVIII,7,10,13.*

[3] - *Ammien Marcellin, XXVI, 9,1,2.*

[4] - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., pp. 77-78.*

ويبدو أن تلك الحرب التي وصفها "كانيا" *Cagnat* بالحرب الصامتة قد أعلنت عن نفسها في شكل مناوشات عدة مرات. [1] وهذا ما تؤكده النصوص القديمة من أن ثورة "فيرموس" دامت عشر سنوات (365–375م). [2] على اعتبار أن وفاة الأمير "نوبل" كانت في حوالي 370م، ولما كان محل ثقة السلطة الرومانية فقد أسندت له مهمة قيادة وحدة من الفرق المساعدة من فئة المئة (*Centuriae*). [3]

ويذكر "غزال" أن روما كانت تمنح قيادة هذه الوحدات لأمراء محليين، مثلما كانوا يقودون وحدات القبائل الخاضعة لهم. وكان هؤلاء القادة العسكريون من الأهالي يحملون لقب "فلافيوس" *Flavius* خلال القرن الرابع الميلادي. وهو اسم عائلة إمبراطورية معروفة كانت قد منحته إياهم في إطار امتيازات حق المدينة الرومانية. [4]

يحق لنا في هذا السياق تلمس الظروف والأسباب الموضوعية التي دفعت "فيرموس" إلى التمرد وتهديد الوجود الروماني في مقاطعة موريطانيا القيصرية.

من هذه الظروف أن "فيرموس" استطاع كسب ثقة القبائل المورية المختلفة التي اقتنعت بضرورة التخلص من الهيمنة الرومانية، خاصة بعد ما تلقت الإمبراطورية ضربات موجعة على أيدي تلك القبائل في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. [5]

ومن أبرز تلك الثورات انتفاضة سنة 253م التي جاءت كرد فعل على الإجراءات الردعية التي قام بها الإمبراطور "فاليريانوس" *Valérianus* ضد سكان المناطق الجبلية في موريطانيا القيصرية ونوميديا الذين رفضوا الخضوع للحكم الأجنبي، ولم يرضوا بغير الخضوع للزعماء المحليين. [6]

[1] - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., pp. 78-79.*
[2] - *Augustin (St.), Contra Epistulam Parmeniani, XXI, 11, 2.*
[3] - *C.I.L., VIII, 9259.*
[4] - *Gsell (S.), Observations Géographiques…, Op.cit., p.24-25.*
[5] – محمد البشير شنيتي، *الجزائر في ظل الاحتلال الروماني*، المرجع السابق، ص 359.
[6] - *Ammien Marcellin, XXIX ,5,46.*

وقد امتدت تلك الانتفاضات إلى الحدود الشرقية لمقاطعة موريطانيا القيصرية المتاخمة لمقاطعة نوميديا. حيث أجبرت قبائل "البوار" *Bavares* الفرق العسكرية الرومانية على التقهقر ومغادرة معاقلها خلال الفترة (253-263م)، ومن ثم أكدوا تمسكهم بحكم زعماء الأهالي. (1)

يضاف إلى تلك الطموحات التحررية، ذلك الصراع الديني الذي احتدم بين أتباع الكنيسة الرسمية وكنيسة الدوناتيين، والذي برز في شكل صراع اجتماعي- ديني زعزع نفوذ السلطة الرومانية في المغرب القديم. خاصة عندما انحازت تلك السلطة إلى الكنيسة الكاثوليكية واعتبرتها الكنيسة الحقيقية بينما اضطهدت أتباع الكنيسة الدوناتية. عندئذ عبر الدوناتيون عن رفضهم الخضوع للسلطات الكنسية أو الإمبراطورية، وتحول الانشقاق الديني إلى تمرد سياسي. (2)

يبدو أن أسباب ثورة فيرموس عديدة يمكن إيجازها فيما يأتي:

1- مظاهر التضعضع التي كانت بادية على الإمبراطورية في منطقة المغرب القديم كنتيجة للفساد الذي استفحل في الأجهزة الإدارية والعسكرية. ومن مظاهر ذلك استنجاد أهالي "لبتيس ماغنا" *Leptis Magna* و"أويا" *Oea*" طرابلس حاليا" بالكونت الروماني "رومانوس" *Romanus* قائد جيش إفريقيا الذي طلب من الأهالي – مقابل رد غارات قبائل الأوستريانى *Austuriani*–تأمين المؤن الضرورية للحملة وتقديم أربعة آلاف رأس (4000) من الإبل، ولما عجز الأهالي عن تلبية تلك المطالب، سحب الكونت جيشه دون أن يعاقب تلك القبائل. (3)

2- رغبة القبائل المورية في التحرر والتخلص من الهيمنة الرومانية، والتي رأت في ثورة "فيرموس" أمل الخلاص، خاصة بعدما أصبح الكونت "رومانوس" القائد الأعلى للمقاطعات

---

[1]- *Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…Op.cit., p.124.*
[2]- *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.73.*
[3]- *Ammien Marcellin, XXVIII, 6,5 ; Pflaum (H.G.), les Vandales et l'Afrique, Rev. Afri., n° 101, 1957, p.148.*

القيصرية عاجزا عن الوقوف في وجه "فيرموس". وفرض سلطته المعنوية على قواته العسكرية سواء في المقاطعة القيصرية أو في المقاطعات الأخرى الواقعة تحت قيادته. [1]

3- كان الجو العام في تلك الفترة مهيأ مما ساعد على تمرد الدوناتيين والثوار الريفيين على السلطة الرومانية، فكان الارتباط بين "فيرموس" والحركة الدوناتية قويا حيث احتضنته هذه الأخيرة ووفرت له غطاء دينيا. وانضمت إليه جموع الدوناتيين والدوارين حتى لقبوا برجال "فيرموس" (*Ferminaii*).

4- تطلع بعض الأمراء المحليين التابعين لروما إلى الانفصال عن السلطة الرومانية والاستئثار بالحكم. ومما شجعهم على ذلك حياة البذخ والرفاهية التي كان يتصف بها المجتمع الرماني في تلك الفترة. فأصبحوا من أصحاب الإقطاعيات الكبرى بعدما سيطروا على الأراضي وأنشأوا الضياع الواسعة وشيدوا القصور، وبذلك أحكموا سيطرتهم على المجتمع المدني والريفي وعلى القبائل المجاورة. [2]

5- تظافرت عدة عوامل حسب "كانيا" *R.Cagnat*، كالتطلعات الدينية والمطالب الاستقلالية والانتقام الشخصي، [3] دفعت "فيرموس" إلى الثورة وتحريض موريطانيا على التمرد والعصيان. وقد ارتدى "فيرموس" اللباس الأرجواني (*pourpre*)، كما قلده أحد القضاة العسكريين (*Tribun*) من كتيبة المساعدين تاجا وضعه على رأسه وقد رأت فيه القبائل المورية القائد العسكري الذي طالما انتظرته. [4]

وهكذا يتضح أن الإمبراطورية الرومانية أصابها – في تلك الفترة– الإنهاك والضعف فعجزت عن الاحتفاظ بهيبتها في المقاطعات الإفريقية التي أوكلت قيادتها لحكام عسكريين يفتقدون الحنكة السياسية، إضافة إلى أن بعضهم كان يتصف بالفساد وسوء التصرف مما جشع الأهالي في تلك المقاطعات على التمرد وحرك لديهم الرغبة في الانفصال.

---

[1]- *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.72.*

[2]- *شينتي محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، المرجع السابق، ج2، ص.361.*

[3]- *Cagnat (R.), l'armée Romaine…Op.cit., p.80.*

[4]- *Ammien Marcellin, XXIX,5,48,49 ; Aurélius Victor, Epitomé, XLV,7.*

<u>المبحث الثاني: محطات ثورة فيرموس</u>: يذكر "غزال" أن "نوبل" كان قائدا موريا قويا، له سبعة أبناء، وهم: "فيرموس" *Firmus* و"ساماك" *Sammac*، و"جيلدون" *Gildo*، و"مازوكا" *Mazuca* أو"مازوكان" *Mazucan*، و"ماكزيزل" *Maczezel* و"ديوس" *Dius*، وبنت تدعى "كيريا" (*Kyria- Cyria*). (1)

وأشارت إحدى النقوش التي اكتشفت حديثا، (2) أن "ساماك" كان يقطن في منطقة "ملاكو" *M'lakou* على الضفة اليمنى لوادي الساحل على بعد حوالي 25 كلم جنوب غرب "توبوسكتو" (*Tubusuctu*) "تيكلات" *Tiklat* حاليا، في قصر ضخم وكأنه مدينة يدعى "بترا" (*Petra*) حسب رواية "أميان مارسلان". (3)

وكان "مازوكا" يقيم في ضيعة أوقصر مازوكانوس *Fundus Mazucanus* (*) في منطقة الشلف وما جاورها. (أنظر الخريطة رقم 11 ص 636) لذلك لعب دورا هاما في السيطرة على قيصرية *Caesarea* (شرشال حاليا) في بداية الثورة. وقد ورد اسم "مازوكان" *Mazucan* في نقش عثر عليه في مليانة. (4) أما "فيرموس" فكان يقيم في موقع وسط بين أخويه "ساماك" و"مازوكا"، وهو موقع الصومعة قرب ثنية بني عائشة.

يبدو أن أبناء "نوبل" كانوا يقيمون في قصور وأملاك منتشرة في مناطق مختلفة من مقاطعة موريطانيا القيصرية، وأن هذا الانتشار دليل على نفوذ العائلة المالكة على منطقة واسعة مما اقتضى إقامة هؤلاء الأمراء في مناطق متباعدة بهدف حفظ وصيانة أملاكهم من جهة وضمان ولاء القبائل المتواجدة في المقاطعة من جهة أخرى.

1- *Gsell (S.), Observations Géographiques…, Op.cit., p.21.*
2- *Id., <u>C.R.A.I.</u>, 1901, p. 170.*
3- *Ammien Marcellin, XXIX , 5,12.*

*- *أشار أميان مارسلان أن مصطلح Fundus يعني قصر أحد الملاك الكبار، وذكر قصر بترا هكذا:* (*FundusPetrensis*). *(عن موقع القصر أنظر الخريطة رقم 11 ص 639).* - *Ammien Marcellin, XXIX, 5,13. ; Février (P.A), Approches du Maghreb Romain, Pouvoirs, Différences et Conflits, II, éditions Edisud, Aix- En- Provence, 1990, p.151.*

4- *C.I.L., VIII, 9613.*

استهل "فيرموس" ثورته بمهاجمة عاصمة مقاطعة موريطانيا القيصرية مدينة قيصرية *Caesarea* (إيول – شرشال). [1] حيث أمر أخاه "مازوكا" باقتحامها وإضرام النار فيها. ثم استولى على مدينة "إيكوسيوم"(*Icosium*) "الجزائر حاليا" التي تعرضت للنهب، وحاصر مدينة "تيبازة " *Tipaza*[2] واكتسح مدينة "كارتناي" *Cartennae* (تنس *Tenes* حاليا)، فانتشر الذعر والهلع في أرجاء المقاطعة. [3]

وهكذا سيطر "فيرموس" على كامل المنطقة الشرقية من موريطانيا القيصرية وأصبح إقليم متيجة الحيوي تحت رحمته. كما فتح له أسقف روسوبيكاري [*] *Rusubbicari* الدوناتي أبواب المدينة بعد أن وعده "فيرموس" بألا يلحق الضرر بسكانها. [4] ويتضح من ذلك مدى ارتباط ثورة فيرموس بالحركة الدوناتية.

بعدما تلقى الإمبراطور "فالنتنيانوس الأول " أخبار انتصارات "فيرموس" أوكل المهمة إلى أحد أبرز جنرالاته: الكونت "تيودوز" أب "تيودوسيوس" الذي سيصبح فيما بعد إمبراطورا سنة 372م، فأبحر نحو سواحل إفريقيا على رأس قوة صغيرة.

يذكر "أميان مارسلان" [5] أن قوات الكونت "تيودوز" عبارة عن فرق وكتائب مساعدة (*Auxilia Comitatensia*)، استقدمت من منطقتي ميسيا العليا و بانونيا [**] في أوروبا الوسطى. [6]

1- *Orose (P.) , VII, 33, 5.*

2-*Ammien Marcellin, XXIX,16,18,42.*

3- *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., pp. 80-81 ; Février (P.A.), Approches.., p151.*

– روسوبيكاري، Rusubbicari هي مدينة "مرسى الحجاج" حاليا تقع شرق رشقونيا Rusguniae (برج البحري حاليا) ، وتبعد عنها بحوالي 34 كلم. - *Gsell (S.), A.A.A., f.5, Alger, 51.*

4-*Augustin (St.), Lettres, 87,10.*

5- *Ammien Marcellin, XXIX, 5, 4.*

– ***بانونيا* *(Pannonia)، منطقة قديمة في أوربا الوسطى، تشمل حاليا شرق النمسا وغرب المجر وكرواتيا، سكانها من أصول كلتية (Celtes)، تعرضت للغزو الروماني في عهد "أوكتافيوس أغسطس" (Octave Auguste) سنة 35 ق.م وأخضعها في سنة 9 ق.م. للمزيد أنظر أعلاه، ص 316.* - *Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1420.*

6- *Zosime, IV, 16.*

نزلت قوات "تيودوز" بميناء إيجيلجيلي (*Igilgili*) "جيجل حاليا" سنة 372م. [1] وبذلك بدأت الحملة الرومانية ضد معاقل "فيرموس" التي بالغت المصادر الأدبية في وصفها، خاصة "أميان مارسلان" الذي بالغ في التنويه بمهارة الكونت "تيودوز"، وهذا أمر لا نستغربه من مؤرخ روماني كتب عن حرب كان الرومان طرفا فيها.

بادر الكونت "تيودوز" إلى إعلان حالة الطوارئ وأصدر في هذا الشأن قانونا [2] - خلافا للقاعدة – لأعضاء مكاتب (*Officium*) وحكام المقاطعات المدنيين والعسكريين بالانخراط في الجيش المحارب. وطالب من العناصر الموجودة في حالة انتداب مؤقت – وقت صدور القانون- في فيالق الحدود (*Numerus*) أو في أي فرقة أخرى الالتحاق بفرقهم إن كانوا قادرين على حمل السلاح. [3]

كما نص القانون ذاته على منع -منعا باتا- انتداب ولو جندي واحد من خدمته العسكرية لكي يلتحق بإدارة حاكم المقاطعة، سواء في مقاطعة بيزاكينا (*Byzacène*) أو مقاطعة طرابلس (*Tripolitaine*) وهي الأقاليم التي تقع شرق المناطق الثائرة. [4]

وقد درج بعض المؤرخين على تقسيم هذه الحملة إلى عدة جولات، (الخريطة رقم 11 ص 636) حصروا إطارها الزمني ما بين 372م و375م وهي كما يأتي:

<u>**1-الجولة الأولى**</u>: تبدأ بالإنزال الروماني في ميناء جيجل، حيث توجه "تيودوز" جنوبا إلى ستيفيس (*Sitifis*) "سطيف حاليا"، واتخذها قاعدة لعملياته. [5] وأمر الكونت "رومانوس" بتنظيم التحصينات العسكرية على الحدود المتاخمة للمقاطعة القيصرية – قبل عزله-، ثم اتجه نحو مدينة "توبوسكتو" (*) (*Tubusuctu*) وفي هذه المنطقة اصطدم بقبائل "تيندن"

---

[1] - *Lacroix (L.), Histoire de la Numidie et des Maurétanies, p.84.*
[2] - *Cod. Theod., VIII, 7,12, 13.*
[3] - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit. p.81.*
[4] -*حارش محمد الهادي، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2001، ص 66.*
[5] - *Robert (Achille.), Notes sur les ruines de Castellum –Auziense (Ain- Bessem), <u>R.S.A.C</u>., t.37, 1903, pp. (49-54), p.51.*

*- هي مدينة تيكلات Tiklat تبعد بحولي 15 كلم جنوب غرب مدينة بجاية. - *Gsell (S), Observations Géographiques…, Op.cit., p.32.*

Tyndenses (*) و قبائل "ماسينيسن" *Masinissenses* (**) التي كان يقودها "ماكزيزيل" و"ديوس" أخوي "فيرموس". وقد استطاع الكونت "تيودوز" الانتصار عليهما بعد أن تم تخريب قصر بترا. (***) [1]

توجه "تيودوز" بعد تطويع القبائل المورية نحو تيبازة بعد عدة أيام من السير في منطقة صعبة المسالك، مخترقا منطقة القبائل، ربما عبر قصر كبوش (قصر شبال) ووادي سباعو ليصل إلى سهل متيجة عن طريق ثنية بني عائشة. [2]

طلب "فيرموس" –أثناء تلك الحملة– الصلح الذي قبله "تيودوز" عن طريق كهنة مسيحيين (*Christiani ritus autistites*). [3] واشترط "تيودوز" تقديم بعض الرهائن، وتمكن من استعادة "إيكوسيوم"(*Icosium*) بعد يومين من ذلك الاتفاق. ولما بلغ مدينة تيبازة أذعنت له قبائل "المازيك" (****) (*Mazices*) ثم توجه بعد ذلك إلى قيصرية التي وجدها حطاما، فأقام بها فرقتين من الجيش لحراستها وترميم مبانيها. ومن ثم تابع أثر

**- يرى بول Poulle أن قبائل تيندن تقطن حاليا في إقليم أفناين وبني وغليس وآيث عامر وبذلك فهي تسكن منطقة تقع بين تيكلات وآقبو.* -*Poulle (A.), Inscriptions d'El-Madher (Casae) et des environs, R.S.A.C., XIII, 1869, p.706.*

***- تعرف أيضا بقبائل إمسيسن Msisna ، وهي قبيلة أمازيغية تقطن حاليا في منطقة محصورة بين وادي الساحل (الصومام) ورافده الأيمن وادي آقبو.* -*Poulle (A), A travers la Maurétanie Sitifienne, R.S.A.C., VII, 1863, p.137 ; Tissot (Ch.), Géogr. Comp., I, p.452.*

****- تقع هذه الملكية Fundus Petrensis في منطقة "ملاكو" M'lakou على بعد 25 كلم إلى الجنوب الغربي من "تيكلات"، وهو ما يدل عليه نقش عثر عليه في المنطقة، ويفهم من النقش أنها ممتلكات "ساماك" Sammac.*

- Gsell (S.), Inscriptions d'Ighser Amokrane (Kabylie), C.R.A.I., 1901, p.170.

[1]- *Cagnat (R.), l'armée Romaine..., Op.cit., p. 83.*

[2]- *Gsell (S), Observations Géographiques ..., Op.cit., p.35.*

[3]-*Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie), Paris, Ernest. Leroux, 1888, p.134.*

*****- **المازيك أوالمازيس:** عشيرة كانت تسكن شرق تيبازة – حسب ديرو دي لامال– في منطقة جبلية تفصل نوميديا عن السطيفية تنتمي إليها قبائل أمازيغية كثيرة. ويرى غزال Gsell أن اسم المازيس يتطابق مع قبائل بني مناصر –قرب شرشال حاليا–، وقد أسندت هذه التسمية إلى عدة قبائل في شمال إفريقيا. و قد عثر على عدة نقوش ليبية تحمل مصطلحات متقاربة مع المازيس مثل: Mzica, Mazic, Mazzic, Mazix, Mazik.* -*Gsell (S.), Observations Géographiques..., Op.cit., pp.33-34. -Tissot (Ch.), Op.cit., I, p.452 ; Dureau de la Malle, Recherches sur l'histoire de la Partie de l'Afrique Septentrionale, Op.cit., p.54 ; Leveau (Ph.), l'aile II des Thraces, la tribu des Mazices et les praefecti gentis en Afrique du Nord. , Ant. Afri., t. 7, 1973, pp. 153-192.*

"فيرموس" الذي وصف "كانيا" تحركاته بأنها اتخذت من المرتفعات معقلا حصينا، ومنها الجبال المشرفة على قيصرية. (1)

يذكر "أرنست مارسيي" أن "فيرموس" بعد أن علم بقدوم "تيودوز" عمل على ربح الوقت، بأن طلب منه السلم، وهو ما لم يرفضه الكونت الروماني الذي اشترط تقديم الرهائن. (2)

انتقل "تيودوز" –دون أن ينتظر –إلى محطة "بانكاريانا" (*) *Statio Panchariana* لتفقد فرق إفريقيا، قبل أن يعود إلى سطيف من حيث بدأ حملته، ويتوجه نحو "توبوسكتو" على وادي الساحل (الصومام حاليا). وفي هذه المنطقة يصطدم بقبائل "تيندن" و"ماسينيسن" واحتل "تيودوز" حصن "لامفوكتنس" (**) (*Oppidum lamfoctense*) الذي يقع في إقليم تلك القبائل واتخذ منه القائد الروماني مخزنا للتموين بالغذاء والأسلحة. (3)

2–**<u>الجولة الثانية</u>**: علم "تيودوز" أن "فيرموس" بصدد الإعداد لهجوم جديد، وعلى إثر ذلك غادر القائد الروماني قيصرية متوجها نحو "زوكابار" *Zuccabar* (***) "مليانة" حاليا،

---

1 - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.85.*

2 - *Robert (Achille.),Notes sur les ruines de Castellum –Auziense (Ain- Bessem), Op.cit., p.52 ; Mercier (E.), Histoire de l'Afrique Septentrionale, p.131.*

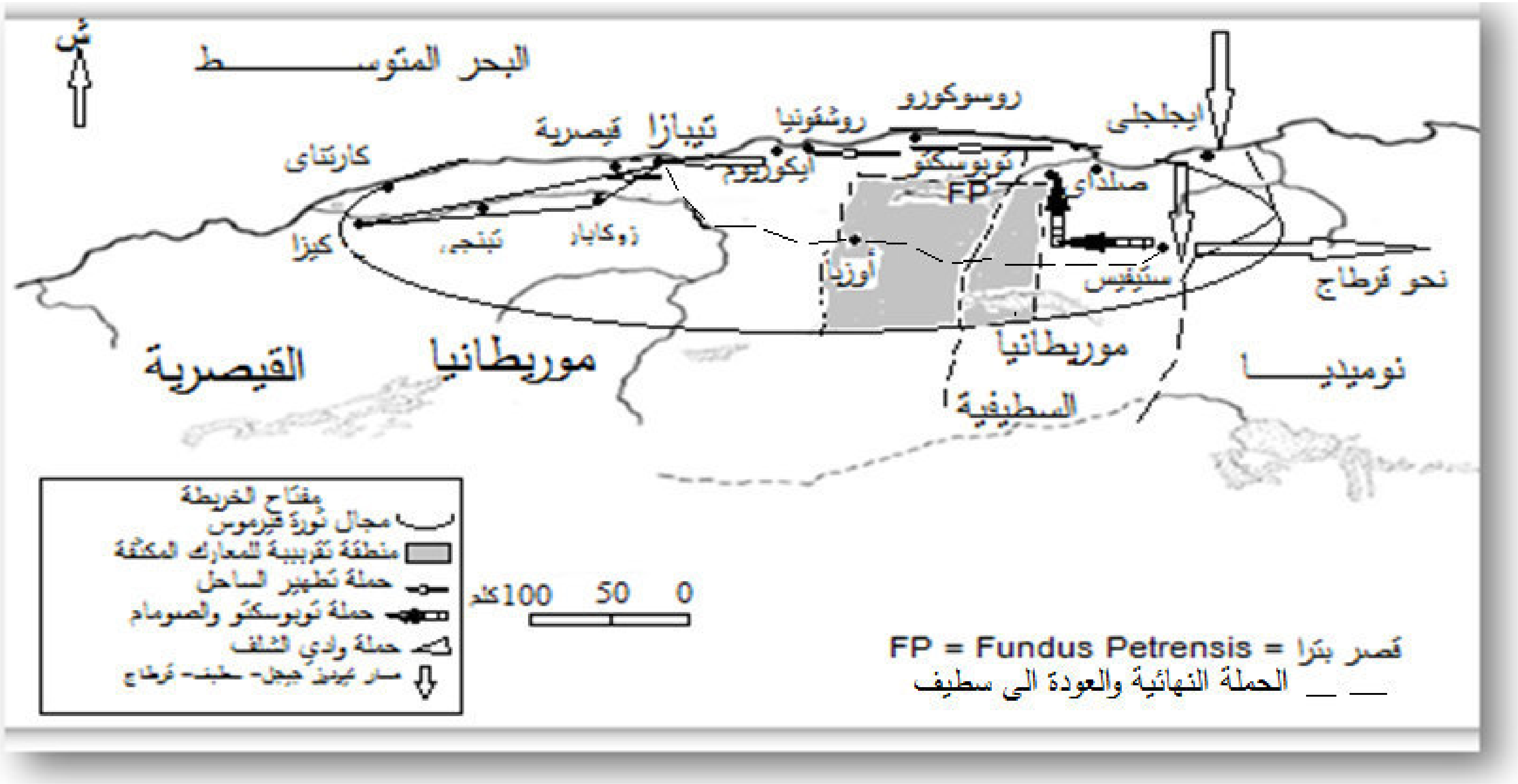
*- *اختلف المؤرخون في تحديد موقع "بانكاريانا" إلا أن "بول" و"وينكلير" يميلان إلى وجوده في المكان المسمى "كناس" (Kannas) قرب الوادي الكبير بين جيجل والقل، ويرى "كانيا" أنه على طريق لمبازيس Lambèse.* -*Poulle (A.), <u>R.S.A.C</u>., VII, 1863, p.137 ; Winkler (A.),Précis d'histoire des Campagnes d'Afrique de Théodose Contre Firmus (372-375) In <u>R.T</u>., t.15, 1908, p.137 ; Cagnat (R.), Op.cit., p 83.*

**- *موقع لم يتمكن المؤرخون من تحديده، إلا أن "بول" Poulle حاول تحديده بخرائب مسناوة (Mesnaoua) عند قبائل "بني وغلي" (Beni-Oughli) على نهر "غمنوا" (Ighzer-Amnoua) قرب قرية "بوملال" (Bou-Mellal).*

-*Poulle (A.), <u>R.S.A.C.</u>, VII, p.139.*

3 - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.84.*

***- *كانت " زوكابار" (مليانة حاليا) في تلك الفترة برتبة مستعمرة رومانية (Municipium Sugabarritanum) حسب بلين القديم.* -*Pline l'ancien, V, 21.*



خريطة رقم 11: المجال الجغرافي لثورة فيرموس وحملة تيودوز في موريطانيا القيصرية.

نقلا عن: *– Salama (P.), Nouveaux Milliaires « Chrétiens » de la Vallée du Chélif en Maurétanie Césarienne, Afri.Rom., vol. III, 2004, p.1715.* (بتصرف الباحث)

التي تستند إلى جبال "ترانسلنسيس" (*Transcellensis*) (*) ، حيث وجد هناك فيلقين تابعين لجيش إفريقيا (**) كانا قد انحازا إلى فيرموس. فأعدم قادة الفيالق وعرض الجنود للتعذيب، على غرار ما كان يفعله جنرالات روما القدامى.

استولى "تيودوز" على قصر غايوناتيس (***) (*Fundus Gaionatis*) الذي تحصن به المور –وحتى يحرم "فيرموس" من إمكانيات تجديد الحرب – قام بتدميره. ومنه تقدم نحو قلعة "تينجيتانوم" (****) (*Castellum Tingitanum*) حيث هاجم قبائل المازيك (*Mazices*) في جبال أنكوراريوس (*****) (*Ancorarius*) ودفعهم "تيودوز" إلى الفرار من المعركة - حسب تعبير "كانيا"-. [1]

وقبل أن يدخل بلاد قبائل "موزوني" (*Musones*) (******) التي أعلنت نفسها عدوة الإمبراطورية الرومانية، وصل إلى بلدة "أدانس" (*Addense*) (*******) حيث وجد نفسه

*– هي جبال زكار حاليا حسب العقيد "مرسيي". *-Mercier (E.), B.C.T.H., 1888, p.96.*

**– يتعلق الأمر بالفرقة الرابعة لرماة النبال (Sagittarii) وفرقة المشاة "فلافيا ويكتريكس" القسطنطينية (Flavia Victrix Constantini). *- Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.85.*

***– قصر غايوناتيس، يقع قرب حصن تيغافا Tigava Castra، ذكره "أميانوس" في إطار العمليات العسكرية التي قام بها الكونت "تيودوز" في منطقة الشلف، وقام بتدميره قبل أن يتوجه إلى "قلعة تينجيتانوم" Castellum Tingitanum (الشلف حاليا). *- Ammien Marcellin, XXIX, 5, 25; Gsell (S.), A.A.A., f.13, Miliana, 34.*

****– هي مدينة الشلف حاليا. *-Gsell (S.), A.A.A., f.12, n° 174.*

*****– أكد "غزال" و"لاكروا" أن المقصود بهذه الجبال هي الونشريس. *-Lacroix (L.), Histoire de la Numidie, Op.cit., p.191 ; Gsell (S.), A.A.A., f.12, p.174.*

[1] *- Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.86.*

******– يحتمل أنها بلاد قبيلة ذكرها "يوليوس هونوريوس" (Julius Honorius) باسم "موزوني" (Musuni) أو"موزوناي" Musunei وحسب لوحة "بوتنغر" فإنها تقع بين محطة "أد أوكولوم مارينون" Ad Oculum Marinune وجنوب سطيف. *-Gsell (S.), Observations…, Op.cit., p.37.*

*******- موقع غير معروف، يحتمل أن تكون السفوح الجنوبية لجبال الونشريس. *-Winkler, Op.cit., p.40.*

وسط قبائل كثيرة العدد مستعدة للمواجهة، يدفعها إلى ذلك مقتها لكل ما هو "روماني" بفضل العمل الذي قامت به "كيريا" *Cyria* أخت "فيرموس". (1)

ولما كان "تيودوز" على رأس قوة قليلة العديد لا تتعدى 3500 جندي، فقد اضطر إلى التراجع نحو تيبازة في شهر فيفري سنة 374م بعد فترة توقف قصيرة قضاها في قصر مازوكانوس (2) *Fundus Mazucanus*. (*)

يذكر "أميان مارسلان" أن "تيودوز" قضى فترة طويلة في تيبازة استغلها في العمل السري ومحاولة استمالة حلفاء "فيرموس" وشراء ضمائرهم بالمال أحيانا، والتهديد والوعيد أحيانا أخرى. (3) وهي الأساليب الدنيئة التي اعتاد عليها الرومان.

وهذا ما جعل بعض القبائل تتخلى عن "فيرموس" (**)، ورغم ذلك استمرت الثورة ضد الوجود الروماني في بلاد المغرب.

---

[1]- *Cagnat (R.), l'armée…,Op.cit., p.86 ; Philippe Leveau, Recherches historiques sur une région montagneuse de Maurétanie Césarienne : de Tigava Castra à la mer, In: M.E.F.R.A., t. 89, n°1. 1977. pp. 257-311, (p.302).*

[2]-*Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.86.*

* – *حاول بعض المؤرخين تحديد هذا الموقع، يرى "دي لامال" أنه يجب البحث عنه في منطقة بين تيبازة وأوزيا (سور الغزلان)، ولاحظ أن أحد أشقاء "فيرموس" يحمل اسم "مازوكا" (Mazuca) وأن هذه الممتلكات قد تكون تابعة له. بينما حاول "أ. مرسيي" تحديده بموقع دوار مازونة (Douar. Mazouna) على الطريق الروماني بين الشلف و "أرسوناريا" سيدي بوراس (Arsenaria). ويرى "غزال" أن "مازوكا" كان يسكن "تيغافا كاستزا" Tigava ويعد هذا دليلا كافيا على أن ممتلكاته تقع في منطقة الشلف.* *-Gsell (S.), Observations…,Op.cit., p.37 ; Dureau de la Malle, Recherches Sur l'histoire de la partie de l'Afrique Septentrionale, p.59 ; Mercier (E.), Op.cit., p.97 ; Desanges (J.), Catalogue des tribus Africaines de l'Antiquité classique à l'ouest du Nil, Dakar, 1962, p. 44.*

[3]- *Ammien Marcellin, XXIX,V, pp.243-244.*

**– *فاوض "تيودوز" بعض القبائل المجاورة لمنطقة تيبازة التي تحالفت مع "فيرموس" وهي "بايوراي كونتورياني" Baiurae Cantauriani ، و "أفاستوماتيس" Avastomates ، و" كافافيس" Cafaves ، و" "دافارس" Davares ويرى " تيسو" أن قبائل "دافارس" Davares هي تحريف لقبائل "البوار" Bavares ، أما "دي لامال" فيحدد مضارب هذه القبائل بين أوزيا وتيبازة.* *- Gsell (S.), Observations…, Op.cit., p.38 ; Dureau de la Malle, Op.cit., p.60 ; Tissot (Ch.), Op.cit., p.465.*

يتضح مما سبق أن هذه الجولة الثانية جرت وقائعها في فصل الشتاء، الذي لم يوقف تقدم "تيودوز" وقد جاب خلالها مناطق كثيرة من وادي الشلف وبلاد أخرى مجاورة، ثم عاد إلى نقطة انطلاقه "تيبازة".

3-**الجولة الثالثة:** لجأ "فيرموس" إلى جبال "كابراريانسيس" (*) (*Montes Caprarienses*) – رغم أنه كان يتوفر على الإمكانيات التي تسمح له بمواصلة القتال- وسط منطقة صخرية صعبة المسالك، بعد أن احتل جند "تيودوز" معسكره، وقتلوا بعض أتباعه وسجنوا البعض الآخر وخربوا المنطقة. (1)

وقد حاول "تيودوز" اللحاق به، إلا أن "فيرموس" تراجع تاركا الجيش الروماني يتقدم وسط منطقة وعرة تسكنها قبائل معادية للرومان مثل قبيلة آيث عبان (**) (*Abannae*) على ما يذكر "أميان مارسلان". (2) تلك القبيلة التي تحصنت في مناطق مرتفعة ومستعدة للانقضاض على قوات "تيودوز" الذي اضطر إلى التراجع والانسحاب محافظا على انضباط وحداته، التي قاومت كل الهجمات التي تعرضت لها. وقد سمح له هذا التنظيم من الوصول إلى بلدة "كونتانسيس" (*Contensis Civitas*) حيث حرر بعض الأسرى الرومان كان "فيرموس" قد احتجزهم هناك.

- يرى "س. غزال" أن هذه الجبال مجاورة لبلاد قبيلة آيث عبان التي لجأ إليها "فيرموس"، وأنها بعيدة عن ميدان العمليات العسكرية التي شهدتها تيبازة، لذلك فهي تقع بين شط الحضنة والصحراء. - Gsell (S.), Observations…, Op.cit., p.40.

1- Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.87.

***- **آيث عبان**، Abennae، قبيلة أمازيغية كانت تسكن منطقة جبلية تقع شمال غرب المسيلة حسب ما ذكره "تيسو"، وحسب "دوكري" فإن مضاربها كانت في جبال الحضنة. -Tissot (Ch.), Géog. Comp., I, p.465; Decret (F.), les Gentes Barbarae asservies par Rome dans l'Afrique du Ve siècle, dans: Actes du IIe colloque international (Grenoble, 5-9 Avril 1983), Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, (pp.265-271), p.266.*

2- Ammien Marcellin, XXIX, V, 45.

لقد سكتت المصادر القديمة عن العمليات العسكرية التي دارت خلال هذه الجولة بين "تيودوز" و"فيرموس"، كما بقيت الكثير من المواقع الجغرافية غير محددة، لكن إشارات "أميان مارسلان" تؤكد أن حملة "تيودوز" بلغت مناطق بعيدة.

فحينما يذكر المؤرخ الروماني "أميان" أن الأثيوبيون (*juxta Aethiopum agentium*) كانوا يقطنون بالقرب من جبال "كابراريانسيس" (*) (*Montes Caprarienses*)، فهذا يدل على أن المنطقة مجاورة للصحراء. (1)

يبدو أن تلك الجبال تقع بين الحضنة والصحراء. وإن كان "أميان مرسلان" لم يذكر ذلك بوضوح، (2) فإن "تيودوز" لجأ إلى أوزيا (*Auzia*) في نهاية هذه الجولة.

4-**<u>الجولة الرابعة</u>:** لجأ "فيرموس" وشقيقه "مازوكا" - في تلك الأثناء- إلى قبيلة "إيزفلانس"(**) (*Isaflenses*). ولما بلغت تلك الأخبار "تيودوز"، توغل في أراضي تلك القبيلة ودارت معركة حامية بينه وبين "فيرموس"، ضمن فيها التفوق العددي النصر للرومان. فقتل فيها الكثير من أفراد القبيلة، بينما تمكن "فيرموس" من الفرار-على ما يذكر "أميان مارسلان"- بفضل سرعة جواده. (***) في حين وقع شقيقه "مازوكا" في الأسر نتيجة جروح أصيب بها في المعركة، وتعرضت المنطقة بعدها للنهب والتخريب عقابا لتلك القبائل التي وقفت إلى جانب "فيرموس" عدو روما. (3)

- حاول "كات" Cat أن يثبت أن هذه الجبال تقع في منطقة المدية Médéa في سلسلة جبال التيطري، لكن دون أن يقدم أدلة على ذلك.
- Cat (M.), Essai sur la province Romaine de Maurétanie Césarienne, p.23.

1- *Gsell (S.), Observations géographiques…, Op.cit., p.40.*

2- *Ammien Marcellin, XXIX, V, 44.*

***- يرى "دي لامال" أن هذه القبيلة كانت تسكن سهول كرتولة (Cartoula) جنوب جبال جرجرة، ويعتقد "بربروجير" (Berbrugger) أنها تمثل أسلاف قبائل فليسة (Flissa).*
-Dureau de la Malle, Recherches…, Op.cit., p.63 ; Poulle (A.), <u>R.S.A.C</u>., XIII, 1869, p.706.

****- تكررت هذه العبارة عند المؤرخين القدامى وهم يتحدثون عن الأهالي و قادتهم. لذا نتساءل ما هو غرضهم من ذلك؟ هل كان ذلك ازدراء واستهزاء؟ أم هي عقدة التفوق؟*

3- *Cagnat(R.), l'armée Romaine…,Op.cit., p.88.*

واصل "تيودوز" حملته ليصطدم بقبائل "يوبلاني" (*) (*Jubaleni*) التي تمكنت من صده فتراجع نحو حصن "أوديانس"(**) (*Castellum Audiense*) أين تلقى خضوع قبيلة "إيزفلانس" التي تعهدت بتقديم فرق عسكرية مساعدة والمؤن للرومان. (1)

ورغم كل الانتصارات التي حققها الكونت "تيودوز" إلا أنه عجز القضاء على ثورة "فيرموس"، هذا الثائر الموري الذي كان ظهوره في منطقة ما يكفي لتشتعل نار الثورة من جديد، وهو ما دفع "تيودوز" إلى إقامة معسكره قرب قلعة "ماديانوم" (*Castellum Médianum*) (***) وحاول مفاوضة سكان القلعة لكن دون جدوى. (2)

وفي تلك الأثناء، بلغته أخبار أن "فيرموس" لجأ إلى قبيلة "إيزفلانس"، فاضطر "تيودوز" إلى غزو أراضيها، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين كان النصر فيها حليف

- يرى "كانيا" أن قبائل "اليوبلاني" كانت تسكن جبال الأطلس إلى الجنوب من التيطري، أما قبائل إيزفلانس فتقطن الأودية التي تنحصر بين الأطلس وجرجرة، بينما يماثلهم "بربروجير" بقبائل الزواوة إذ يقرب المصطلح بالعربية "جبليين" Djebalin، خلافا لـ "غزال" الذي يرى أن موطن هذه القبائل غير بعيد عن أوزيا في منطقة تمتد من باب الحديد إلى مضائق "بالسترو" الأخضرية (Palestro). - *Gsell (S.), Observations ... géographiques, Op.cit., p.25 ; Cagnat (R.), l'armée Romaine..., Op.cit., p.88 ; Berbrugger, Epoques Militaires de la Grande Kabylie, p.219.*

***- يرى "بربروجير" أن حصن أوديانس الذي ذكره "أميانوس" يتطابق مع قلعة لا زالت آثارها إلى القرن الماضي قرب عين بسام، وأن أوزيا Auzia تكون قد تهدمت على إثر ثورة سنة 297م، ومنذ تلك الفترة لم تصبح مركزا لليمس الأوزياني (Limes Auziensis) ويقترح "كانيا" و"ماسكوري" تصحيح "أوديانس Audienses إلى أوزيانس" Auziensis باستبدال حرف الدال بالزاي، فكلاهما بمعنى واحد، ذلك أن حرفي "د" و"ز" قابلان للاستبدال في النطق والكتابة الافريقية.*
- Ammien Marcellin, XXIX, 5,44 ; Cagnat (R.), l'armée Romaine..., p.88 ; Berbrugger, Op.cit., p.255 ; Masqueray (E.), Bull. de Corr.Afric., I, p.225.

1 - Cagnat (R.), l'armée Romaine..., Op.cit., pp. 88-89.

****- هي برج مجانة حاليا في منطقة برج بوعريريج، ذكرتها المصادر القديمة بصيغ مختلفة : Munimentum Medianum عند "أميان مارسلان"، وعند "ميناج" Medianae Zabinorum، وذكرها "س.غزال" بـ : Castellum Medianum الذي يعتقد أنها تقع في موريطانيا القيصرية وتقترب أكثر من Munimentum التي ذكرها "أميانوس"، في حين أن "زابينوروم" Zabinorum يحتمل أنها مدينة تقع قرب سطيف وقد عثر على نقش على بعد 18 كلم جنوب غرب سطيف يذكر مدينة باسم: Medianum ; Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne, p.328 ; Castellum Gsell(S.), A.A.A., f.15, Akbou,79 ; f.16, Sétif, 418.*

2 - Ammien Marcellin, XXIX, 5,45.

"فيرموس"، نتيجة خيانة إحدى فرق الجنرال الروماني فاضطر إلى التراجع نحو قلعة "أوزيانس" [1] *Castellum Auziense*. (الشكل رقم 37 ص 643)

وحينما حاول "تيودوز" التراجع تعرض لضربات قبيلة "إيزفلانس" التي كانت قد تعهدت بتقديم العون للرومان، مما اضطره إلى الانسحاب نحو سطيف. [2]

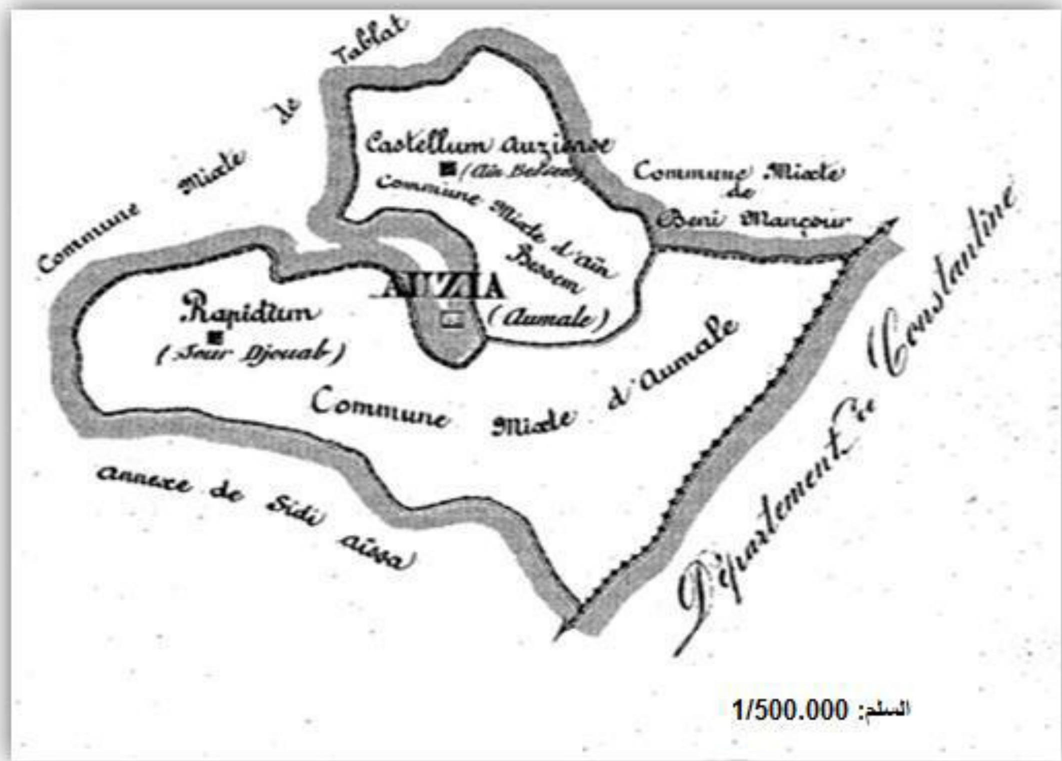
يتضح مما سبق أن حملات "تيودوز" عجزت عن تحقيق نتائج حاسمة. وقد تفطن الجنرال الروماني إلى أن بقاء الارتباط بين القبائل المورية و"فيرموس" سيؤدي إلى استمرار الثورة بل ويؤجج لهيبها أكثر، فلجأ إلى سلاح الخيانة لإنقاذ الفرق العسكرية الرومانية.

5-**الجولة الخامسة:** عاد الكونت "تيودوز" إلى سطيف بعد أن عبر عدة مدن في موريطانيا القيصرية، لم يذكرها "أميان مارسلان". [3]

يبدو أن الفرقة الرومانية بقيادة "تيودوز" قد سلكت –وهي في طريق العودة–أقصر الطرق للوصول إلى سطيف ربما عبر منطقة القبائل، لأن أوزيا كانت أقرب ما تكون إلى حدود موريطانيا السطيفية. (الشكل رقم 37 ص 643)

استأنف "تيودوز" الحرب من سطيف ضد قبائل "إيزفلانس"، ولجأ هذه المرة إلى سلاح الخيانة. وتمكن من إقناع زعيم القبيلة "إقمازن" (*Igmazen*) بضرورة التخلي عن "فيرموس"، وأنه سيكون الخاسر الأكبر إذا ما واصل تحالفه معه. [4] ودرء لكل الشكوك قاد "إقمازن" قبيلته إلى عدة معارك خاسرة – حسب الاتفاق المبرم مع "تيودوز"–إلا أن "فيرموس" تفطن إلى المكيدة لكن بعد فوات الأوان. فقد فكر في الفرار لكن دون جدوى، حيث رصد "إقمازن" عيونا تراقبه ولما علم أن هذا الأخير على وشك تسليمه إلى "تيودوز"، وحتى لا يقع أسيرا في أيدي أعدائه اختار الانتحار. [5]

1- *Gsell (S.), Observations…,p.43.*
2- *Cagnat (R.), l'armée Romaine..., Op.cit., p.89.*
3- *Ammien Marcellin, XXIX, 5, 49-50.*
4- *Moreau (M.), la guerre de Firmus (373-375), R.H.C.M., t. X, 1973, pp.21-35.*
5- *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.90.*



الشكل رقم 37: مخطط قلعة أوزيا.

<u>نقلا عن</u> : *Robert (Achille.), Notes sur les ruines de Castellum – Auziense (Ain Bessem),* *<u>R.S.A.C.</u>, t.37, 1903, p.49.*

حمل "إقمازن" جثة "فيرموس" على ظهر بعير إلى مخيم الكونت "تيودوز" بقلعة "سوبيكارنس" (*) (*Castellum Subicarense*). (1)

بعد أن قام "تيودوز" بعرض جثة "فيرموس" أمام الجمهور للتعرف على هويته، عاد إلى سطيف منتصرا في سنة 375م. (2) وبذلك انتهت الثورة التي استمرت أربع سنوات.

والملاحظ أن المجال الجغرافي لهذه الثورة كان واسعا، فقد امتدت ثورة "فيرموس" من التل الوهراني غربا إلى سطيف (نوميديا) شرقا مرورا بموريطانيا القيصرية وحوض الشلف وجبال الونشريس ومنطقة القبائل، كما بلغت رفارف الصحراء ومنطقة الحضنة جنوبا.

ومما يدل على قوة تأثيرها، تلاحمها الاجتماعي مع مختلف القبائل التي تباينت بواعث مساندتها للثورة. فقد شكل الثوار الدوارون *Circoncellions* زادا هاما للثورة، بما اكتسبوه من تجربة في إدارة الصراع مع السلطة الرومانية.

<u>المبحث الثالث: نتائج ثورة فيرموس</u>: كانت ثورة "فيرموس" حركة اجتماعية قومية تحررية، استمرت من سنة 372م إلى سنة 375م. استطاع فيها القائد الموري أن يجمع القبائل المورية بالتنسيق مع الحركة الدوناتية والدوارين لتخليص نوميديا والموريطانيتين من الهيمنة الرومانية. كما سعى جادا إلى توحيد كل القبائل وأقاليم المغرب القديم في وحدة قومية قوامها الحرية والحفاظ على الهوية المحلية بالتخلص من الاستعمار الروماني.

وقد فقدت القبائل المورية والحركة الدوناتية والدوارين بعد ثورة "فيرموس"، سندا قويا ومعبرا حقيقيا عن طموحاتهم التحررية. فقد أصدر الإمبراطور "فالنتيانوس الأول" –في

– حاول بعض المؤرخين مطابقة Subicarense مع: Rusubbicari وهو ما رفضته " روني كانيا" الذي يرى أن "روسوبيكاري" Rusubicari (مرسى الحجاج حاليا) تقع على الساحل، في حين ذهب "ستيفان غزال" إلى أن قلعة "سوبيكارنس" Subicarense تقع قرب إقليم قبائل "إيزفلانس" Isaflenses في إقليم أوزيا أي في منطقة داخلية.
Gsell (S.,) Observations Géographiques…,Op.cit., p.45.

1- *Ammien Marcellin, XXIX, 5, 52, 53.*

2- *Mercier (E.),Histoire de l'Afrique Septentrionale, p. 135.*

خضم المواجهات العسكرية بين "تيودوز" و"فيرموس"– قانونا في 20 فيفري سنة 373م موجه إلى بروقنصل إفريقيا "يوليانوس" (*Julianus*) ينص على منع وتحريم إعادة التعميد الذي يمارسه الدوناتيون، ويأمره بعزل أي أسقف لا يمتثل لذلك القانون. [1]

اعتلى "غراتيانوس"(*Gratianus*) العرش الإمبراطوري بعد وفاة والده الإمبراطور "فالنتنيانوس الأول " في سنة 375م وهو ابن ثماني سنوات. وقد واصل سياسة والده بشيء من الصرامة، فأصدر مرسوما في 22 أفريل سنة 376م ينص على مصادرة الأماكن التي تعقد فيها اجتماعات المنشقين الدوناتيين، وهدد حكام الأقاليم الذين يتساهلون مع الدوناتيين لعقد تلك الاجتماعات بعقوبات صارمة. [2]

ووجه مرسوما ثانيا إلى "نيكوماكوس فلافيانوس" (*Nicomachus Flavianus*) كاهن إفريقيا في 17 أكتوبر سنة 377م، يؤكد فيه الإجراءات السابقة الخاصة بمنع إعادة التعميد، ومنح كنائس الأساقفة المنشقين المتهمين بإعادة التعميد إلى الكاثوليك، مع مصادرة منازلهم وممتلكاتهم التي يثبت عقد الاجتماعات بها. [3]

لقد سعى الإمبراطور "فالنتنيانوس الأول" في عهده وفي عهد خلفائه من بعده – من خلال تلك الإجراءات– إلى حماية الكاثوليك والقضاء على الدوناتية بعد ثورة "فيرموس"، وكان يرى ضرورة معاقبة المنشقين الدوناتيين الذين تحالفوا مع "فيرموس" حتى لا يشكلوا أي خطر على روما في المستقبل.

يبدو أن هذه السياسة قد نجحت إلى حد ما، فقد حدث انشقاق داخل الحركة الدوناتية في الفترة 370–375م، حيث قام الأسقف الدوناتي "روقاتوس" (*Rogatus*) أسقف مدينة

1- *Cod. Theod., IX, 34, 7-8*
2- *Augustin (St.), Epist., 87,8 ; Cod. Theod., XVI, 5, 4 ; XVI, 6, 2.*
3- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.47.*

"كارتناي" (*Cartennae*) "تنس حاليا" في موريطانيا القيصرية بفك الارتباط مع الكنيسة الدوناتية والانشقاق عنها وتأسيس كنيسة مستقلة عرفت بالكنيسة الروقاتية. (*) (1)

استخدم الكونت "تيودوز" كل الأساليب لتركيع القبائل وفك ارتباطها مع "فيرموس"، من تخريب للضياع وحرق للمدن وتدمير لمخازن الغذاء والمؤن، والتنكيل بالسكان وتعذيب وقتل كل من كانت له علاقة بالأمير الموري.

فقد قام "تيودوز" بقطع أيدي وأرجل أفراد فيلقين تابعين لجيش إفريقيا من خلاف، ووجه التهديد والوعيد للقبائل المورية. فقد هدد أمير قبائل "إيزفلانس" (*Isaflenses*) الذي سأل "تيودوز": «***من أنتم؟ وما هدف مجيئكم إلى هنا؟*** » فرد عليه القائد الروماني قائلا: «***أنا كونت الإمبراطور فالنتنيانوس، سيد الإمبراطورية الرومانية، أرسلني للقضاء على قاطع طريق يستحق عقوبة الإعدام، إذا لم تسلموه لي حالا، فإنك ستباد أنت وشعبك بمقتضى القرار الذي أصدره الإمبراطور الذي لا يقهر.*** » (2)

استطاعت حملة "تيودوز" تفكيك تحالف القبائل المورية –ولو لبعض الوقت– وكرست سياسة "فرق تسد" من خلال خيانة "إقمازن" زعيم قبائل إيزفلانس، وإضعاف حيوية الحركة الدوناتية وحركة الدوارين.

نستنتج مما سبق أن ثورة "فيرموس" كانت ثورة قومية تحررية ذات أبعاد سياسية اقتصادية واجتماعية ودينية. فقد استهدفت تحرير سكان شمال إفريقيا من ربقة الاستعمار الروماني وعبوديته، واستعادة أراضيهم وممتلكاتهم وخيراتهم وحقوقهم المشروعة.

**- انشقاق داخل الكنيسة الدوناتية تزعمه أسقف كارتناي "روقاتوس" Ragatus في موريطانيا القيصرية. أنظر أعلاه ص 458.*

- Gsell (S.), Observations..., p.13 ; Monceaux (P.), <u>R.H.R.</u>, t. 63, 1911, p. 187.

[1] *-Augustin (St.), Epist., 93, 1.20.21 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.254.*

[2] *-Ammien Marcellin, XIX,V, 45.*

وقد استطاع "فيرموس" مواجهة روما مدة أربع سنوات وكبدها خسائر فادحة. إلا أن الخيانة الأخوية أدت إلى اندحار مقاومته وإفشال مخططه الرامي إلى توحيد شمال إفريقيا من نهر الملوشة (ملوية) إلى طرابلس بطرد المستعمر الروماني وحلفائه.

خلاصة القول أن ثورة "فيرموس" كانت إحدى الثورات التحررية التي استهدفت تقويض أركان الاستعمار الروماني في بلاد المغرب القديم. وقد شكلت هذه الثورة إحدى الأسباب غير المباشرة في زوال الإمبراطورية الرومانية وانقراضها في شمال إفريقيا. عكس ما كان يروج له المؤرخون الكلاسيكيون من أمثال "أميان مارسلان" *Ammien Marcellin* والمحدثين مثل: "روني كانيا" *R. Cagnat* و"ستيفان غزال" *S.Gsell* من أن ثورة "فيرموس" كانت محاولة اغتصاب للسلطة وحركة تمرد وعصيان ضد السلطة الرومانية.

الفصل الثاني

حرب جيلدون

المبحث الأول – ظروف اندلاع حرب جيلدون

المبحث الثاني– الوقائع الحربية

المبحث الثالث– نتائج حرب جيلدون

استطاع "تيودوز" أن يعيد الاستقرار إلى المغرب القديم بعد القضاء على "فيرموس" بتواطؤ من أخيه "جيلدون". ولإعادة ترتيب البيت الموريطاني بحثت السلطة الرومانية عن أمير محلي يكون وفيا لروما، ووجدت في شخص "جيلدون" ما كانت تبحث عنه. لذلك كافأته روما مقابل تلك الخدمات التي قدمها للجيش الروماني ووفائه لحلفائه، بتعيينه في سنة 387م كونت إفريقيا وقائدا لفرقتين من الميليشيا (*comes et magister utriusque militiae*) وهو المنصب الذي نص عليه قانون "تيودوسيوس".(*)

من هذا المنطلق أعالج في هذا الفصل الذي قسمته إلى ثلاثة مباحث حرب "جيلدون" متلمسا ظروف اندلاعها ووقائعها الحربية مستخلصا نتائجها.

<u>المبحث الأول-ظروف اندلاع حرب جيلدون</u>: كان "جيلدون" قد وطد علاقاته مع روما وصلت إلى حد المصاهرة مع "تيودوز" حيث طلب هذا الأخير يد "سالفينا" (*Salvina*) ابنة "جيلدون" إلى أحد أقربائه المدعو "نبريديوس" (*Nebridius*) وهو ابن أخت زوجة "تيودوز" "أيليا فلاكيلا" (*Aelia Flaccilla*)، والذي تربى في القصر الإمبراطوري مع "هونوريوس" و"أركاديوس". [1]

كانت مقاطعة موريطانيا القيصرية - حسب رواية "كلوديانوس" (**)- مقاطعة عسكرية هامة تتوفر على إمكانيات وقدرات سمحت لـ "جيلدون" بالدفاع عن إفريقيا من أي

- صدر قرار تعيين "جيلدون" في 30 ديسمبر سنة 393م. - Cod. Theod., IX, 7, 91.

[1] -*Mesnage (J.P.), le Christianisme en Afrique…, Op.cit., p.610.*

***- **كلوديانوس** (Claudius-Claudianus)، شاعر لاتيني ولد في حوالي 365م بالإسكندرية (مصر)، رحل إلى إيطاليا في سن مبكرة وارتبط بـ "ستيليكون" Stilicon الوزير الأول في عهد الإمبراطور "هونوريوس"، وكان من المقربين عنده، ثم غضب عليه وفقد تلك الحظوة في سنة 408م.أقام له معاصروه - نظرا لمكانته- تمثالا يحمل نقشا في فوروم "تراجان" بروما إلى جانب "هوميروس" و"فيرجيل". توفي في منتصف القرن الخامس للميلاد. من أهم أشعاره: حرب "جيلدون" في مدح "ستيليكون"، هجاء "روفين" و"أوتروب"، حكومة (قنصلية) "هونوريوس". -Dic. Univ.Hist. Géo., pp. 424-425.*

عدو داخلي أو خارجي، والتي يمكن أن تصبح خطيرة في حالة ما إذا قرر "جيلدون" التمرد على السلطة الرومانية، وهو ما لبث أن حدث فعلا. (1)

أدرك "جيلدون" بعد تحالفه مع روما مدة 12 سنة (375-387م) حكم خلالها إفريقيا عقب سقوط أخيه "فيرموس" أهمية الانفصال عنها، وهي التي ظلت تطلب منه المؤونة والمساعدات كلما دعت الحاجة إلى ذلك. (2)

فقد رفض "جيلدون" – وبجرأة–طلب الإمبراطور "تيودوسيوس الأول" (*) مده بالمساعدات في حربه ضد الوثني "أوجينيوس" (*Eugenius*) في سنة 393م بروما. (3)

كانت الإمبراطورية الرومانية تعيش في أواخر القرن الرابع الميلادي حالة من الاضطراب الداخلي والأخطار الخارجية. وتجلى ذلك في اغتيال الإمبراطور "غراتيانوس" (*Gratianus*) (**) على يد خصمه " بترون ماكسيم" (*Maxime*) قرب ليون في غاليا "فرنسا حاليا" في 25 أوت سنة 383م. وبذلك أصبحت مقاطعات بريطانيا وإسبانيا وغاليا تحت سيطرته، أما مقاطعات إيطاليا وإفريقيا فقد عادت إلى الإمبراطور "فالنتنيانوس الثاني" *ValentinianusII*(***). (4)

1- *Claudien, De Bel. Gildon., 152.*

2- *Cagnat (R.), l'armée Romaine..., Op.cit., p.92.*

*- *هو الإمبراطور "تيودوسيوس الأول" (379-395م) ابن الكونت "تيودوز" الذي حارب فيرموس، بعد وفاته سنة 395م قسمت الإمبراطورية بين ولديه هونوريوس إمبراطور الغرب، وأركاديوس إمبراطور الشرق. للمزيد أنظر أعلاه ص 326.*

3- *Mercier (E.), Histoire de l'Afrique Septentrionale..., Op.cit., p.137.*

**- *هو الإمبراطور غراتيانوس فلافيوس (367-383م) ابن الإمبراطور فالنتنيانوس الأول (364-375م). للمزيد أنظر أعلاه ص ص 335، 459.*

***- *فالنتنيانوس الثاني، إمبراطور روماني (375-392م)، ابن فالنتنيانوس الأول حكم ستة عشرة (16) سنة، قتله الخائن أربوغاست (Arbogaste) في فيينا، وعمره لا يتعدى عشرون (20) سنة.* - *Dic, Univ Hist, Géo, p.1934-1935.*

4- *Mercier (E.), Histoire de l'Afrique Septentrionale..., Op.cit., p.136.*

واحتدم الصراع بين الطرفين حيث استطاع "ماكسيم" طرد "فالنتنيانوس الثاني" من إفريقيا في سنة 387م، إلا أن "تيودوز" تمكن منه وقتله في سنة 388م. (1)

وقد ذكر نقش قسنطينة ثلاثة أباطرة كانوا يحملون لقب "أغسطس" (*Auguste*) حكموا خلال الفترة (383-392م) وهم: "فالنتنيانوس الثاني"، "تيودوز" و"أركاديوس". (2)

كان الإمبراطور "غراتيانوس" يحتل الصدارة في الإهداءات الإمبراطورية قبل اغتياله سنة 383م، حينما كان أربعة أباطرة يحكمون الإمبراطورية. فقد قام "تيودوز" قبل وفاته سنة 395م بتقسيم السلطات الإمبراطورية إلى قسمين على ولديه، الغرب بقيادة "هونوريوس" (*) والشرق يحكمه "أركاديوس".(**)

وكان "هونوريوس" في سن الثامنة لما توفي "تيودوز"، والأباطرة الأربعة هم: "غراتيانوس"، "فالنتنيانوس الثاني"، "تيودوز" و"أركايوس" الذي أشركه والده في الحكم وهو ابن السادسة من العمر سنة 383م. (3)

وقد حمل نقش "جغتيس" (*Gigthis*) "هنشير جوف بوغرارة" حاليا في تونس أسماء أربعة أباطرة هم: "ماكسيم" إلى جانب "فالنتنيانوس الثاني"، "تيودوز"، و"أركاديوس" وهذا إلى غاية سنة 388م. (4)

---

1 - *Leschi (L.), Recherches épigraphiques dans le pays des Nememchas (commune de Tébessa) , Rev. Afri., n°72, 1931, p.268.*
2 - *Leschi (L.), Ibid., p.267.*
- هونوريوس(Honorius)، إمبراطور الغرب (395-423م)، للمزيد أنظر أعلاه ص 464. -Dic.Univ. Hist. Géo., p.890.
**- أركاديوس (Arcadius)، أول أباطرة الشرق، (395-408م) أنظر أعلاه، ص 478. -Dic. Univ. Hist. Géo., p.102.*
3 - *Leschi (L.), Recherches Épigraphiques…,Op.cit., p.268.*
4 - *Leschi (L.), Ibid., pp.268-269.*

أما نقش هنشير الأبيض (*) المؤرخ خلال الفترة من شهر أوت سنة 388م إلى شهر مارس سنة 392م، فلم يذكر سوى أسماء ثلاثة أباطرة أي ما بين وفاة الإمبراطورين "ماكسيم" و"فالنتنيانوس الثاني". [1]

تزعزعت أركان الإمبراطورية الرومانية إثر انقسامها عقب وفاة "تيودوز" سنة 395م. وقد استغل "جيلدون" تلك الأوضاع وقطع كل صلة تربطه بـ"هونوريوس" إمبراطور الغرب، وأحال إفريقيا إلى إمبراطورية الشرق معترفا بسلطة "أركاديوس". [2]

<u>المبحث الثاني– وقائع حرب جيلدون</u>: هل كان "جيلدون" يسعى إلى تحقيق طموحاته في الاستقلال عن السلطة الرومانية؟ أم أن علاقة المصاهرة مع "تيودوز" هي التي دفعته إلى الانفصال بحكم مستقل عن الغرب والارتباط بالشرق مستغلا بعد المسافة بين إفريقيا والقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية؟

بدأ "جيلدون" تنفيذ مخططه بتوقيف وتعطيل أسطول قرطاجة الذي يحمل قمح إفريقيا إلى روما. [3] كانت إفريقيا تشكل مصدر حياة أو موت بالنسبة لإمبراطورية الغرب. فمنذ انقسام الإمبراطورية كانت المقاطعة الإفريقية توفر لوحدها حاجيات روما من القمح، في حين يوجه قمح مصر إلى القسطنطينية عاصمة إمبراطورية الشرق. [4]

استغل "جيلدون" الظروف التي كانت تمر بها الإمبراطورية الرومانية ومنها التنافس والصراع بين "ستيليكون" (*Stilichon*) و"روفين" (*Rufin*) وهما وزيري "هونوريوس" و"أركاديوس". وكان يرى أن الفرصة سانحة لتحقيق طموحاته في تكوين مملكة مستقلة

**–هنشير الأبيض، منطقة تقع على بعد 15 كلم غرب الشريعة (تبسة) في الطريق المؤدي إلى خنشلة في سهل قساس الفسيح.* *-Leschi (L.), Op.cit., p.262.*

1- Leschi (L.), Ibid., p.268.
2- Orose, VII, 36, 3.
3- Mesnage (J.P.), le Christianisme en Afrique…, p. 610 ; Modéran (Y.), Gildon, les Maures et l'Afrique, In: <u>M.E.F.R.A.</u>, t. 101, n°2, 1989, (pp. 821-872), p.822.
4- Claudien, De Bel. Gildon., 61.

عن السلطة الرومانية. فبعد توقيف الأنونا، قطع صلته مع "هونوريوس" في سنة 397م واعترف بسلطة "أركاديوس" الذي صارت مراقبته لإفريقيا مستحيلة نظرا لبعد المسافة. (1)

في تلك الأثناء، حمل "ستيليكون" –وهو صاحب السلطة الحقيقي في إمبراطورية الغرب *Magister militum*– مجلس الشيوخ الروماني على أن يصدر قرارا (*Sénatus consulte*) يعتبر فيه "جيلدون" عدوا للشعب الروماني (2) (*hostis Publicus*). واتخذ "ستيليكون" إجراءات سريعة لضمان تموين روما بالقمح بمصادرة قموح غاليا وأسبانيا. (3)

ثم جهز جيشا (*) قوامه خمسة آلاف (5000) مقاتل من الجرمان والغاليين والفرق المساعدة (*Auxiliaires*) بقيادة "ماكزيزل" (*Maczezel*) أخ "جيلدون" الذي انطلق بجيشه من ميناء بيزا (*Pise*) ليصل إلى ميناء قرطاجة سنة 398م. (4)

ومن جهته كان جيش "جيلدون" يتألف من الموريين والجيتوليين والوثنيين والدوناتيين والدوارين. وأعلن عن مبادئه التي تتلخص في احتضان كل الذين يحلمون بالاستقلال الوطني، والكفاح ضد الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. (5) ويبدو أن الأسباب التي دفعت "فيرموس" إلى الثورة هي نفسها التي شجعت "جيلدون" على التمرد.

يذكر "بول أوروز" أن جيش "جيلدون" بلغ حوالي سبعون ألف (70.000) رجل بعدما تلقى الدعم من قبائل "النازامون" (*Nassamons*) و"الغرامنت" (*Garamantes*) و"النازاك" (*Nazaques*) التي قدمت من طرابلس. (6) (الخريطة رقم 12 ص 654)

---

1 - *Monceaux (P.), H.L.A.C.,IV, p.64.*
2 - *Julien (Ch.A.), Histoire de l'Afrique du Nord, p. 222 ;Modéran (Y.), Gildon les Maures et l'Afrique, p. 822.*
3 - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.93.*

– كانت معظم وحدات هذا الجيش من قدماء المحاربين Veteranus، إذ يتكون – حسب رواية كلوديانوس – من سبع فرق هي: "ليونيس" Leones ، نرفيي Nervii ، جوفيي Jovii ، هرقل Herculii ، فليكس Felices ، فرقة أوغستا Augusta Légio ، أنفيكتيي Invictii ، وهي فرق من الخيالة استقدمت من إيطاليا و إسبانيا.

- *Claudien, De Bel. Gildon., 485 ; Lacroix (L.), Histoire de la Numidie, p.199.*
4 - *Cagnat (R.), l'armée Romaine…, Op.cit., p.94.*
5 - *Ibid., pp.94-95.*
6 - *Orose, VII, 36, 6.*



خريطة رقم 12: حلفاء جيلدون حسب كلوديانوس.

نقلا عن: *Yves Modéran, Gildon, les Maures et l'Afrique, p. 837.*

(بتصرف الباحث)

كان "ماكزيزل" قد مكث في موريطانيا بعد هزيمة أخيه "فيرموس". لكن بمجرد أن تحكم "جيلدون" في مصير المقاطعة، لجأ إلى روما بعد أن نجا من محاولة اغتياله، وترك ولدين أمر "جيلدون" باغتيالهما. لهذه الأسباب اختار "ماكزيزل" صف الرومان ضد أخيه "جيلدون". [1]

أبحر "ماكزيزيل" بجيشه من "بيزا" سنة 398م متجها إلى جزيرة سردينيا [*] ومنها إلى قرطاجة ثم إلى "أماديرا" [**] (*Ammaedera*) حيث التقى بجيش أخيه "جيلدون" ودارت المعركة قرب نهر "أرداليو" *Ardalio* (واد حيدرة حاليا) بين "تيفست" *Theveste* (تبسة حاليا) وحيدرة. (الخريطة رقم 13 ص 657)

لقد سكتت المصادر عن الظروف التي ساهمت في هزيمة "جيلدون" الذي حاول الفرار عبر البحر والتوجه إلى القسطنطينية حيث توجد ابنته "سالفينا" (*Salvina*). إلا أن أمواج البحر رمته على ساحل مدينة "طبرقة" (*Thabraca*) حيث ألقي عليه القبض وأودع السجن واختار موتة أخيه "فيرموس" حتى لا يقع أسيرا في أيدي الرومان. [2] وقد عثر على نقشين في فوروم روما أحدهما يذكر هزيمة "جيلدون" والثاني يمجد "ستيليكون" و"هونوريوس" و"أركاديوس". [3]

صودرت ممتلكات وثروات "جيلدون" وأنصاره– بعد تلك الهزيمة – استفادت منها الخزينة الرومانية، وكانت أموالا طائلة مما تطلب تعيين متصرف خاص لإدارتها (*Comes patrimonii Gildoniaci*). [4]

---

[1]- *Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.64.*

*– يعتبر كتاب "كلوديان" (حرب جيلدون) المصدر الأساس حول هذه الحرب، ألفه في شكل أبيات شعرية، ما وصلنا منه الكتاب الأول فقط الذي يتوقف عندما يصل أسطول "ماكزيزل" إلى جزيرة سردينيا. *-Lacroix (L.), Op.cit., p.199.*

**– هي مدينة حيدرة (Haïdra) حاليا، تقع شمال شرق تبسة. *- Cod.Theod., VII, 8, 7.*

[2]- *Claudien, De Bel. Gildon., 1 ; Orose, VII, 36, 2-12.*

[3]- *C.I.L., VI, 1187; 1730.*

[4]- *Cod. Theod., VII, 8, 9; C.I.L., IX, 4051.*

يبدو أن "جيلدون" بقي وثنيا حتى توفي عكس إخوته "فيرموس" و"ماكزيزل"، ورغم العلاقات التي أقامها مع الأساقفة الدوناتيين ومع البلاط الإمبراطوري في عهد "تيودوز" فقد دفن في كنيسة كاثوليكية. (1)

وقد تلقى "جيلدون" الدعم والمساندة في ثورته من بعض الأساقفة الدوناتيين من أبرزهم "أوبطاتوس" *Optatus de Thamugadi* أسقف كنيسة "تاموقادي" (تيمقاد حاليا) الذي كان مستشارا له، ولعب دورا بارزا في قيادة الرجال وتجنيد فرق من الدوارين لتدعيم "جيلدون"، لذلك لقب بـ"الجيلدوني" (*Gildonianus*). وبعد هزيمة "جيلدون" تم القبض عليه وتوفي في السجن سنة 398م. (2)

تعود هزيمة "جيلدون" – حسب " ش. أ. جوليان"– رغم عدد جيشه الذي بلغ حوالي سبعون ألفا أمام جيش أخيه "ماكزيزل" الذي لم يتعد 5000 مقاتل إلى تخاذل بعض شيوخ القبائل الذين تخلوا عن القتال والحرب على أشدها بعدما اشتريت ضمائرهم. (3)

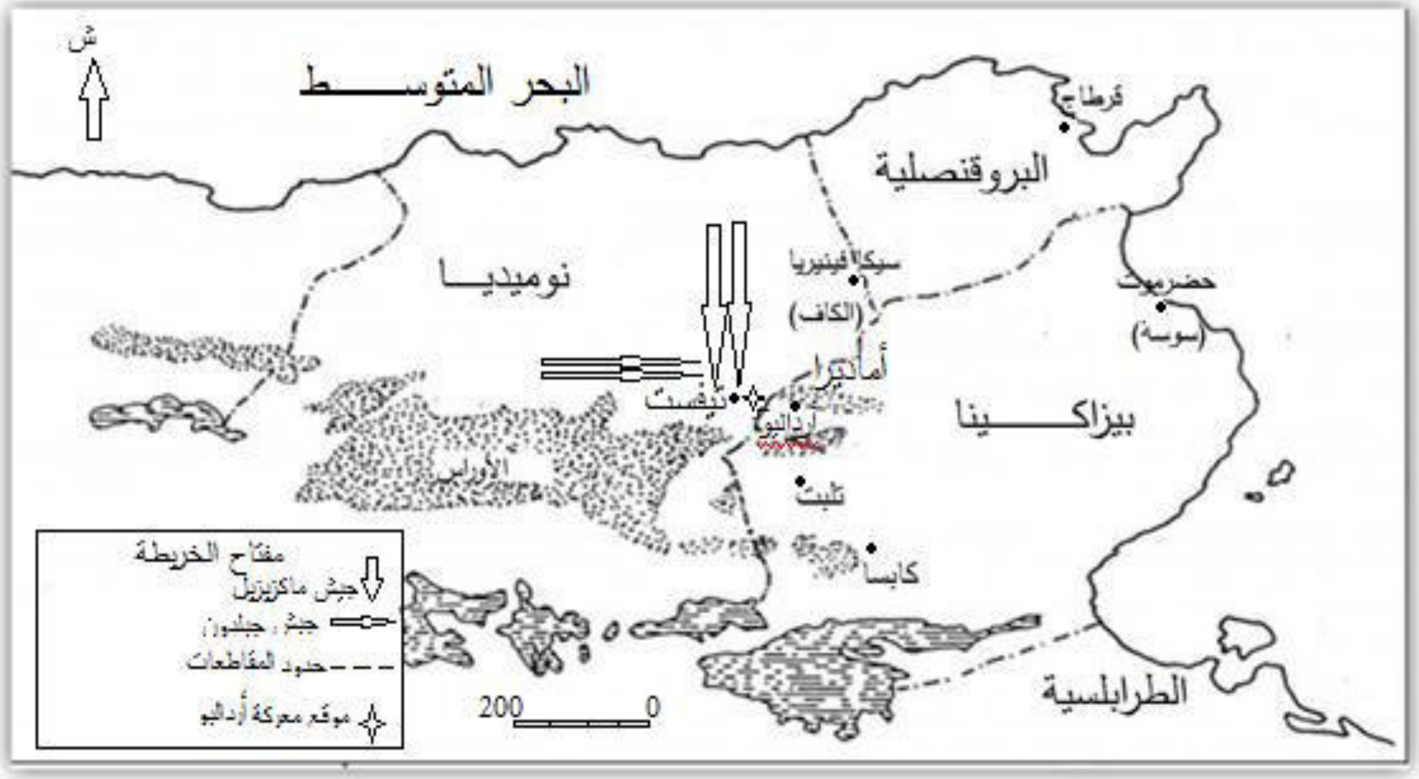
أما "أ. مرسييه" (*E.Mercier*) فيرجع الهزيمة إلى قلة الأسلحة وهي عبارة عن سهام ورماح بسيطة فضلا عن قلة الخبرة وضعف التدريب، عكس جيش "ماكزيزل" المنظم والمسلح والذي يقاتل وفق خطط عسكرية مكنته من إحراز الانتصار في ظرف أربعة أيام من المواجهة في سنة 398م. (4)

1- Mesnage (J.P.), Le Christianisme en Afrique…, p.612.

2 -Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.65 ; Eugène Albertini, Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939, (pp.100-103), p. 100.

3 - Julien (Ch.A.), Op.cit., p.222.

4- Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, Op.cit., p.145 ; Mercier (E.), Histoire de l'Afrique Septentrionale…, Op.cit., p.137.



خريطة رقم 13: موقع معركة أرداليو بين جيشي الأخوين جيلدون ومكزيزيل.

نقلا عن: *- Yves Modéran, Gildon, les Maures et l'Afrique, p. 837.*

(بتصرف الباحث)

وقد لقي "ماكزيزل" نفس المصير وهو حليف الرومان. فبعد عودته إلى روما استقبل بحفاوة بالغة الأمر الذي أثار الشكوك والغيرة في نفس "ستيليكون" (*Stilichon*)، وبدل تكريمه ومكافأته رماه في أحد الأنهار فمات غرقا أمام أعينه. [1]

هكذا كان مصير أبناء "نوبل"، تلك العائلة الملكية التي حالفت الرومان تارة وناصبتهم العداء تارة أخرى، باغتيال "ماكزيزل آخر إخوة "فيرموس".

<u>المبحث الثالث– نتائج حرب جيلدون:</u> كان القمع الذي سلط على أنصار "جيلدون" – بعد هزيمته– قاسيا، إذ نال أيضا الدوناتيين. فقد مات "أوبطاتوس" أسقف تاموقادي في السجن، وهو الذي كان مستشار "جيلدون" وروح المقاومة، وقد تم تكريمه كشهيد من طرف أنصاره. كما قتل بعض قادة القبائل، وبعضهم سجن، وتعرض البعض الآخر للنفي والإبعاد والحظر. [2]

وصودرت ممتلكات "جيلدون" ومناصريه، وفي هذا الإطار صدرت مجموعة من القوانين الإمبراطورية خلال الفترة من 398م إلى 409م تتعلق بالمصادرات والمتابعات ضد المتواطئين مع "جيلدون". [3]

وكانت ثروة وممتلكات "جيلدون" من الكثرة مما استوجب تعيين متصرف خاص بها تحت قيادة كونت *Comes Gildoniaci Patrimonii*، ودرت على الخزينة الرومانية أرباحا طائلة. [4]

كما ضغط نبلاء الضيعات الكبرى (*Landlords*) على فلاحيهم حتى يعودوا إلى الكاثوليكية. وفي هذا الصدد يشير "مونصو" إلى ذلك قائلا: « ***كانت الدعوة إلى الكاثوليكية في هذه البلاد التي تكثر فيها الضيعات الكبيرة يعين على نشرها بنجاعة كبار***

1-*Mesnage (J.P.), Le Christianisme en Afrique…, Op.cit., p.614.*
2-*Julien (Ch.A), Op.cit., p .223.*
3-*Cod. Theod., VII, 8, 7, 9 ; IX, 39, 3 ; 40, 19 ; 42, 16, 18-19.*
4-*Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.64.*

الملاك الذين يسعون هم بأنفسهم إلى تنصير معمريهم، وإلى إعادة الوحدة الدينية في أراضيهم بنوميديا. » [1]

نستنتج من النص أن الفلاحين والمعدمين تعرضوا إلى ضغوطات كبيرة من السلطة الرومانية حتى يخضعوا إلى سلطة الكنيسة. فقد كانت الكاثوليكية بالنسبة للأسياد ضمانا لخضوع طبقة الفلاحين المعدمين إليهم.

يبدو أن "جيلدون" كان يملك ثروة طائلة منتشرة في مناطق متباعدة في المغرب القديم. وهذا ما يدحض ادعاءات روما بأن الثورات المرتبطة بالحركة الدوناتية والتي تحالفت معها كانت نتيجة الفقر أو بدافع السلب والنهب.

كان "جيلدون" وإخوته ينتمون إلى عائلة ملكية تملك إقطاعات واسعة في المغرب القديم. فالثورات التي قادتها العائلة لم تكن مطالبها اقتصادية بل هي ثورات اجتماعية غذتها حماسة الجماهير التواقة إلى تحرير المضطهدين والعبيد والعمال الفلاحيين. [2]

يتضح مما سبق أن هزيمة "جيلدون" وقبله أخوه "فيرموس" كانت بسبب الخيانة بين الإخوة، ونتج عن ذلك خضوع القبائل المورية للاستعمار الروماني. كما كانت من العوامل الأساسية التي ساهمت في فشل الكثير من الحركات النضالية المقاومة في المغرب القديم، من أجل نيل الحرية وتحقيق الاستقلال.

والغريب في تاريخ المغرب القديم انتشار ظاهرة الخيانة بين صفوف القادة والزعماء والملوك الموريين مثل: "فيرموس" و"جيلدون" و"ماكزيزل" و"سماك" وغيرهم. إلا أن هناك من استفاق وعاد إلى وعيه ليشعل نار الحرب ضد الغزاة الرومان، وهناك من تمادى في غيه وخيانته لوطنه حفاظا على مصالحه وامتيازاته فكان مصيره مثل سابقيه.

---

[1]- *Julien (Ch.A.), Op.cit., p.223.*

[2]-*Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme..., p. 341.*

خلاصة القول أن ثورتا "فيرموس" و"جيلدون" كانتا من الثورات التي ميزت القرن الرابع الميلادي، وتحولت من ثورات اجتماعية إلى حركات ذات مطالب تحررية دينية بعد تحالفها مع الدوناتيين والدوارين، لتواجه الكنيسة الكاثوليكية الرسمية وحليفتها السلطة الزمنية بهدف تقويض أركان الاستعمار الروماني في المغرب القديم.

الفصل الثالث

ثورة الدوارين الريفيين ومراحلها

المبحث الأول: ثورة الدوارين الريفيين (340-347م)

المبحث الثاني: ثورة الدوارين الريفيين (347-411م)

تذكر المصادر التاريخية أن أقدم إشارة صريحة إلى الدوارين وردت عند "أوبطا الميلي" حينما تناول الصراع الديني بين الكاثوليك والدوناتية، ويشير إلى تلك الأحداث التي كانت مدينة بغاي مسرحا لها، على إثر المعركة التي دارت بين الدوناتيين ومبعوثي السلطة الرومانية "بولوس" و"ماكاريوس" سنة 347م. كما درج المجادلون الكاثوليك مثل "أوبطا الميلي" و"أوغسطين" على تسمية الدوارين بنعوت أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مشينة وأنهم كانوا غلاظا وقساة ومخبولين. (1) ويتحدث "أوغسطين عن اندفاعاتهم الثورية إذ يصفها بقوله:*« إرهابهم وقسوتهم وفظاظتهم وهيجانهم. »* (2)

من هذا المنطلق أعالج في هذا الفصل المراحل التي مرت بها ثورة الدوارين من سنة 340م الى سنة 411م وأحاول أن أبرز سمات كل مرحلة.

المبحث الأول: ثورة الدوارين الريفيين (340-347م): تمتد هذه المرحلة من معركة "محلة أكطافا" سنة 340م إلى معركة "بغاي" سنة 347م، وقد شكلت -على مدى سبع سنوات- تهديدا مباشرا للسلطة الرسمية في عدة مناطق من المغرب القديم.

أورد "أوبطا الميلي" - في سياق الحديث عن أحداث بغاي- تعريفا للدوارين ونشاطهم منذ سنة 340م وقبل وقوع الأحداث سنة 347م، وردا على رسائل التهديد التي وجهها زعيمي الدوارين "أكسيدو" و"فازير" في حوالي سنة 340م إلى كبار الملاك في نوميديا إذ قال:***« ...في هذا الوقت بالذات، وحينما حصل "أكسيدو" Axido و"فازير" Fasir على لقب "زعيمي القديسين"، لم يكن أحد يأمن على ممتلكاته، عندما كان هؤلاء الأشخاص (الدوارون) يتسكعون من مكان إلى آخر، وتعد للاعترافات بالديون أي قيمة، ولم يكن باستطاعة أي دائن أن يرغم مديونيه على أداء الدين، فالكل أصبح يعيش في رعب، ويترقب رسائل التهديد من أولئك الذين***

1- Optat (St.), III, 4; Augustin (St.), Cont.Cresc., IV, L, 60; Cont.Epist.Parmen. , I, XI, 17.
2- Id., Cont. Cresc, IV, LI, 61; Cont. Epist. Parmen., II, II, 6.

يسمون أنفسهم "زعماء القديسين" وإذا تباطأ أحد الدائنين في تنفيذ مطالبهم، فإن عصابة من المجانين ترتعد لها الفرائص قبل وصولها، تنقض عليه وتحيطه بالمخاطر. » [1]

ويذكر "بريصون" في نفس السياق: « ***أن الدائنين بدل أن يتلقوا الشكر على عملهم، أرغموا تحت التهديد على التصاغر. وأصبح كل واحد منهم يسرع في التخلي عن الديون التي منحها مهما كان حجمها، وأصبح الربح بالنسبة للدائنين أن يفلت المرء من ضربات الدوارين. فالطرق كانت غير آمنة، فقد حدث لبعض الأسياد أن أرغموا على النزول من عرباتهم والهرولة كالعبيد أمام عبيدهم الذين جلسوا في مكان الأسياد. هكذا وبقرار وأمر من الدوارين، كانت وضعية الأسياد والعبيد تنقلب رأسا على عقب.*** » [2]

توحي النصوص السابقة أن الأمر لا يتعلق بعصابات من قطاع الطرق واللصوص – كما حاول "أوبطا الميلي" وصفهم بشيء من الازدراء والتحقير–، تهاجم كل من اعترض طريقهم للحصول على القوت أو بهدف السلب والنهب والاغتصاب.

والحقيقة أن اندفاعاتهم وهجماتهم كانت عبارة عن ثورة حقيقية تستهدف طبقة بعينها من المجتمع آنذاك وهي طبقة كبار الملاك والدائنين. هذه الطبقة التي كانت تملك الأراضي والعبيد والثروة، ولذلك كانت تمنح القروض لصغار الفلاحين بفوائد ربوية قاسية أثقلت كاهلهم، فهي إذن في نظرهم طبقة مستغلة وجب مواجهتها ومقاومتها لحماية الفلاحين والعبيد والمديونين والمضطهدين.

لذلك نلاحظ أن عمليات الدوارين كانت منظمة ومضبوطة تستهدف الدائنين وأولئك الذين كانوا يتحكمون في اقتصاد البلاد، ويمسكون برقاب الجياع والفقراء، على عكس ما كان يدعيه "مونصو" من أنها تستهدف كل الملاك. [3]

1- Optat (St.), III, 4.
2- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, p. 327.
3 -Monceaux (P.), l'église donatiste organisation et caractères, R.H.R., t. 64, Paris, 1911, p.43.

يتضح مما سبق أن تلك الهجمات كانت تستهدف الدائنين لإرغامهم على التخلي عن الديون وليس بقصد سرقتهم أو اغتيالهم. أما مهاجمة العربات فلم يكن الهدف منه قطع الطريق ونهب الركاب بقدر ما كان يهدف إلى الانتقام للعبيد من ظلم أسيادهم.

ويرى "بريصون" [1] أن الأمر يتعلق بنوع من "ثورة ريفية"، لها مبادئها وأهدافها، وتستهدف القضاء على النظام الاجتماعي القائم، وقلب الأوضاع بين العبيد والأسياد، بين المديونين والدائنين.

ويمكن أن نتساءل في هذا السياق: هل مبادئ تلك الثورة كانت نابعة من مبادئ المسيحية المبكرة التي تدعو إلى المساواة والعدالة بين جميع المؤمنين، بين الأقوياء والضعفاء، بين المضطَهَدين والمضطَهِدين؟

يمكن أن تكون أهداف الدوارين مستقاة من تلك المبادئ، وإلا كيف نفسر إطلاق تسمية "زعماء القديسين" على قادتهم ورؤسائهم؟ علما أن هذا اللقب كان شائعا عند الدوناتيين أيضا الذين كانوا يعتبرون كنيستهم "كنيسة القديسين". [2]

يبدو أن الأمر لا يتعلق بحرب دينية، ولكن بصراع على المستوى الاجتماعي بين طبقة مستغِلة وأخرى مستغلة. فالدوارون لم يكونوا يهاجمون الكنائس أو الأساقفة الكاثوليك في البداية –حسب "أوبطا الميلي" الشيء الذي سيحدث في عهد "أوغسطين"– ولكن هجماتهم كانت تستهدف كبار الملاك والدائنين والأسياد.

ويظهر –حسب "أوبطا الميلي"– أن هذه الحركة الاجتماعية كانت منظمة وغير عشوائية: حيث يبدأ الدوارون بإرسال الإنذارات إلى الدائنين، ولا يبدؤون بتنفيذ تهديداتهم إلا بعدما يظهر الدائنون رفضهم لتلك الإنذارات بالتخلي عن الديون.[3]

1- Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, op.cit., p. 328.
2- Optat (St.), II, 1, 14, 20.
3- Optat (St.), III, 4.

نلاحظ أن حركة الدوارين قد عرفت نوعا من التوسع، على الأقل في نوميديا، الأمر الذي دفع بعض الدائنين إلى التخلي عن ديونهم تلقائيا، بدل التعرض لضربات الدوارين.

نخلص إلى القول – حسب نص "أوبطا الميلي" السالف الذكر – أن حركة الدوارين كانت تمثل قبل سنة 347م حركة ذات مطالب اجتماعية موجهة ضد الأغنياء، وفي صالح الطبقات المحرومة والمضطهدة.

ويتضح مما سبق أن حركة التمرد هذه قد سمحت بحدوث بعض التجاوزات هنا وهناك. لكن لا يمكن أن يكون ذلك مبررا كافيا لتحويلها إلى مؤسسة للصوصية وقطع الطريق. صحيح أن الطرق كانت غير آمنة، لكن يبدو أن مهاجمة العربات كان الهدف منها ليس النهب والسلب، وإنما الدفاع عن العبيد من الظلم المسلط عليهم. وإذا كان "أوبطا الميلي" المجادل الكاثوليكي خلال القرن الرابع الميلادي وكنيسته جزءا مكملا للإمبراطورية، يعتبر التمرد ضد الطبقات العليا للمجتمع أمرا مشينا ومخزيا، [1] فإني لا أسايره في وجهة نظره هذه.

يبدو أن "أوبطا الميلي" قد بالغ في تقدير عنف الدوارين، ذلك أنه ألقى المسؤولية على الدوناتيين في أحداث بغاي سنة 347م، واعتبر أن الدوناتيين استعملوا عنف الدوارين لمقاومة مبعوثي الإمبراطور "بولوس" و"ماكاريوس".

والحقيقة أن الأمر مخالف لما ذهب إليه "أوبطا الميلي"، لأن ردع الدوارين تطلب تدخل الجيش الإمبراطوري بطلب من الدوناتيين أنفسهم. [2]

وفي هذا السياق يقول "أوبطا الميلي":« ***إن تصرفات وتجاوزات أنصاركم وأتباعكم – يقول للمنشقين– قد جلبت الحقد على أساقفتكم، الذين بعثوا برسالة إلى "طورينوس" (Taurinus)***

1-*Frend (W.H.C.), The Donatist Church, a Movement of Protest In Roman North Africa, Oxford Clarendon Press, 1952, p. 329.*

2- *Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste…, p.20.*

كونت (Conte) [*] إفريقيا آنذاك، أعلنوا فيها أن مثل هذا النوع من الناس لا يمكن إصلاحهم في إطار الكنيسة، لذا طلبوا من "الكونت" المذكور أن يعمل على إعادتهم إلى الصواب. وهكذا فإن "طورينوس" أجاب على رسالتهم بأن بعث جنودا مسلحين إلى الأسواق حيث اعتاد الدوارون ممارسة أعمالهم الخرقاء. » [1]

ونتج عن تدخل الجيش حدوث عدة مناوشات بل ومعارك أسفرت عن مقتل العديد من الدوارين وجرح عدد آخر منهم في "محلة أكطافا". [**] [2]

وقد استفحل أمر حركة التمرد تلك لدرجة أنها استدعت تدخل الجيش بأمر من كونت إفريقيا، وهو أعلى هيئة عسكرية في البلاد. فالأمر إذن لم يكن يتعلق بمجموعة من اللصوص وقطاع الطرق – كما ادعى "أوبطا الميلي"–، بل بحركة منظمة لها مبادئ وأهداف واضحة. [3]

يتضح مما تقدم أن نوميديا عرفت في الفترة التي سبقت صدور مرسوم "قنسطانس" سنة 347م حركة تمرد خطيرة دفعت السلطة الرومانية إلى التدخل عسكريا بهدف القضاء على هذه الحركة، والتي كانت إحدى الأهداف التي توختها السلطة إثر إرسال المبعوثين الخاصين إلى إفريقيا سنة 347م. إلا أنني أعتقد أن حركة الدوارين بمناهضتها للسلطة الرسمية والكنيسة لا يبرر الحكم عليها بأنها حركة "تخريبية وفوضية".

**– لقب يعني لغويا "صاحب" أو "رفيق"، وهو منصب استحدثه الإمبراطور قسطنطين الذي عين عدد من أتباعه في مهام متنوعة: مالية، عسكرية وإدارية بجانب الحكام والولاة، وكان كونت إفريقيا يعوض الوالي (Vicarius) أو يعمل بجنبه قائدا للجيش.*

-Petit (P.), Histoire Générale…, t III, p.73.

1- Optat (St.), III, 4.

***– **محلة أكطافا** Locus Octavensis، وهي عبارة عن تجمعات سكنية تسمى "محلات" (Loca) على عكس "المدن" (Civitates) وقد تكون تجمع لعدة قرى حول ضيعة كبيرة لشخص يدعى "أوكتافيوس" Octavius، ويرى "ميناج" Mesnage أن هناك Octava في مقاطعة بيزاكينا "Byzacène"، وقد ذكرت كأبرشية في مجمع سنة 256م في عهد القديس سبريانوس، وكانت أبرشية كذلك في حوالي سنة 484 م، ولكن يبقى مكانها في نوميديا غير معروف بدقة.*

-Mesnage (J.P.), l'Afrique chrétienne…, p. 426.

2- Monceaux (P.), H.L.A.C, IV, p. 247.

3- Ibid., IV, p. 248.

<u>المبحث الثاني: ثورة الدوارين الريفيين (347-411م)</u>: تمتد هذه المرحلة الثانية من معركة "بغاي" سنة 347م إلى مناظرة قرطاجة سنة 411م التي حرمت الدوناتية بشكل رسمي في المغرب القديم.

في هذا السياق يشير القديس "أوبطا الميلي" أن عدد الدوارين قد تزايد بعد معركة "محلة أكطافا" قائلا:*« ... وقد تزايد عدد الدوارين بعد ذلك، حيث تمكن "دوناتوس بغاي" من حشد جمهرة ثائرة لمواجهة مكاريوس Macarius ، وكانت هذه الجمهرة تضم أولئك الذين كانوا يضربون أنفسهم، والذين كانت رغبتهم في الحصول على الاستشهاد. حيث كان في صفوفهم أولئك الذين يلقون بأنفسهم وأرواحهم المدنسة من قمم الجبال. من كل هؤلاء جند "دوناتوس" جموعه. »* (1)

يفهم من النص أن تزايد عدد الدوارين كان له علاقة بتزايد عملياتهم الثورية، حيث أصبحوا يشكلون تهديدا مباشرا للسلطة الرسمية والأمن في عدة مناطق من المغرب القديم. لكننا نجهل هل وقعت معارك أخرى بينهم وبين الجيش خلال السبع سنوات التي تفصل تقريبا معركة "محلة أكطافا" سنة 340م عن معركة "بغاي" سنة 347م.

لقد تسارعت الأحداث منذ سنة 347م بعد صدور قانون "قنسطانس" *Constance*، ووصول "بولس" *Paulus* و"مكاريوس" *Macarius* إلى إفريقيا لتنفيذ ذلك القانون. اللذان لم يلبثا أن طلبا تدخل "سيلفستر" (*Sylvestre*) كونت إفريقيا الجديد، ضد أسقف بغاي الدوناتي الذي استعان هو الآخر بمجموع الدوارين حسب ما ذكره "أوبطا الميلي". (2)

وكان رد فعل المبعوثين الإمبراطوريين "صانعي الوحدة" عنيفا ضد الأساقفة الدوناتيين في نوميديا الجنوبية بعد وقوع أحداث بغاي سنة 347م. فقد عاقبوا كل من اشتبه بالتعامل مع الدوارين بمصادرة الممتلكات والكنائس والنفي. (3)

1- Optat (St.), III, 4.
2- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.179.
3- Martroye (F.), la répression du donatisme…, Op.cit., p.65.

وهذا ما يدل على أن حملة "بولوس" و"مكاريوس" في الجنوب النوميدي لم تتسم بطابع اضطهاد ديني فحسب، بل اتخذت أيضا صبغة عملية تطهير "بوليسية" ضد الدوارين، إضافة إلى أنها اتخذت طابع حملة عسكرية رومانية ضد الأهالي في أرياف نوميديا الجنوبية.(*)

لا شك أن هذه العمليات العسكرية الرومانية هي التي دفعت الدوارين إلى مناهضة السلطة الزمنية. فقد كانوا يرون في مقاومتهم وعملياتهم تلك حربا مقدسة من جهة، وحربا اجتماعية من جهة ثانية، ضد كبار الملاك والأسياد والدائنين الذين كانوا يمثلون– في نظرهم– الوجود الروماني في بلاد المغرب القديم.

والحقيقة أنه يصعب تتبع حركة الدوارين بعد سنة 347م، وفي هذا الصدد يمكننا أن نتساءل: هل شارك الدوارون في عمليات العنف التي نسبها "أوبطا الميلي" إلى الدوناتيين في حوالي سنة 362م حينما استفادوا من القانون الذي أصدره الإمبراطور"جوليان المرتد" (*Julienl'Apostat*) والذي سمح لهم بالعودة من المنفى واسترجاع ممتلكاتهم وكنائسهم؟(1) وهذا ما اعتقده "مونصو" أيضا. (2)

وإن كان "أوبطا الميلي" قد تجنب ذكر الدوارين صراحة في تلك الأحداث، فإن "وارمنغتون" *Warmington* ذكرهم على أنهم "عصابات" كانت ترافق الأساقفة الدوناتيين في تحركاتهم عبر أرياف نوميديا وموريطانيا. (3)

*– ظلت نوميديا الجنوبية ومنطقة الأوراس عموما منطقة تمرد ومقاومة للاستعمار الأجنبي عبر مراحل التاريخ. عن المعطيات الجغرافية وعلاقتها بالأحداث التاريخية في المنطقة أنظر: *-Depois (J.), La Bordure saharienne de l'Algérie orientale, Rev.Afri., n° 90, 1946, pp. 197-219.*

1- Optat (St.), II, 18-19.

2- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, 179 ; R.H.R., T .64, 1911, p.41.

3 - Warmington (B. H.), the North African provinces…, Op.cit., p.94.

يمكن أن نتساءل في هذا السياق: هل شارك الدوارون في ثورة "فيرموس"(*Firmus*) (372-375م) الزعيم الموريطاني المتمرد على روما، ثم في الحركة الانفصالية التي قادها أخوه "جيلدون" (*Gildon*) بعد ذلك بعشرين سنة (396-398م)؟ [1]

وهل شكل الدوارون تلك العصابات المسلحة التي قال عنها "أوغسطين" أنها كانت تعمل تحت قيادة الأسقف "أوبطاتوس الجيلدوني" [*] أسقف تيمقاد الدوناتي-الخارج عن القانون-على حد قول "أوغسطين"؟ [2] ولنا في الشواهد الإبيغرافية (الشكل رقم 38 ص 670) التي عثر عليها في كنيسة تيمقاد (الشكل رقم 39 ص 671) ما يدل على النشاط الذي قام به "أوبطاتوس الجيلدوني" في مدينة "تاموقادي". [3]

يبدو أن القديس "أوغسطين" قد تعرض لتلك الأحداث، لكن دون أن يذكر اسم الدوارين صراحة، وإن كان قد أشار إليهم باسم "العصابات المسلحة" واستعمل في حقهم لهجة تنم عن الازدراء والتحقير، ويكيل لهم تهما وردت في الكثير من كتاباته.

ويخاطب "أوغسطين" الدوارين في أحد نصوصه قائلا: ***« إنكم – أنتم أيضا– على بينة من كل الويلات التي يعاني منها ذوونا بسبب الجنون المسعور لكهنة ودواري حزب دوناتوس: فهناك كنائس أحرقت، وكتب مقدسة ألقيت في النار، وحتى المساكن الخاصة أحرقت، وأشخاص أخرجوا***

1- Monceaux (P.), R.H.R., T .64, p.41.

*- ***أوبطاتوس الجيلدوني***، هو أسقف تيمقاد الدوناتي من سنة 388م إلى سنة 398م، يلقب بـ" الجيلدوني" نظرا لتلك العلاقة الحميمية التي كانت تربطه بالزعيم الموريطاني الثائر على روما "جيلدون"، وحسب أوغسطين فإنه كان يترأس "عصابات" مسلحة لكنه لا يشير إلى أنها من الدوارين. لعب دورا هاما في إرجاع بعض الأساقفة الماكسيميانيين إلى حظيرة الدوناتية باستعمال العنف، مات في السجن سنة 398م.* *-Augustin (St.), Cont .Litter. Petil., II, XXIII, 53 ; XCII, 109 ; Frend (W.H.C.), The Donatist Church…, pp.208-266; Albertini (E.), Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939. pp. 100-103.*

2- Augustin (St.), Cont.Epist. Parmen., II, II, 4 .

3-Marrou (Henri -Irénée), Sur une inscription concernant Optat de Timgad, in Christiana tempora. Mélanges d'histoire, d'archéologie, d'épigraphie et de patristique. Rome : École Française de Rome, 1978. (pp. 145-148).



1



2

الشكل رقم 38: نقيشتي "أوبطاتوس الجيلدوني" بكنيسة تيمقاد:

1-فسيفساء هندسية تحمل نقيشتي "أوبطاتوس الجيلدوني" بكنيسة تيمقاد، وجدت النقيشة الأولى عند مدخل البهو وتحمل الكتابة الآتية: HAEC LUBENTE / SACERDOTE D (EI) OP/TATO PERFECTE

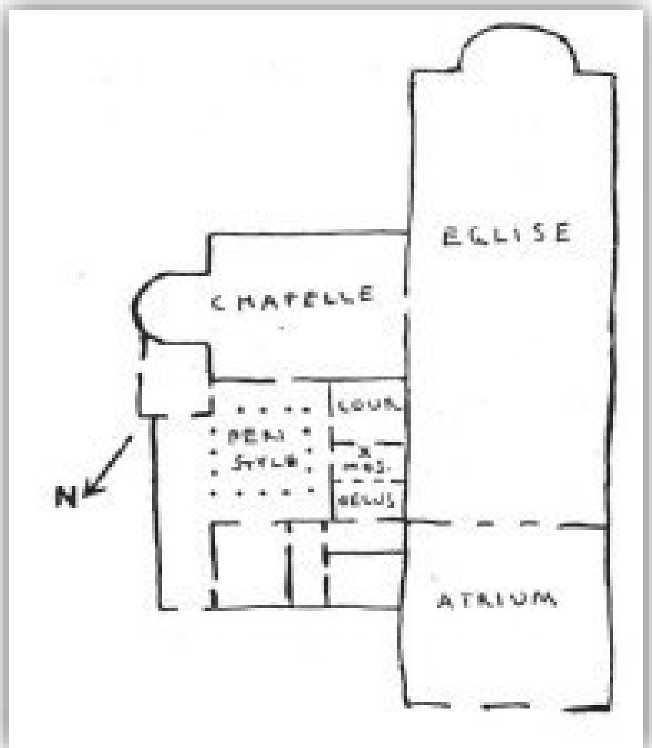
وترجمتها كالآتي: " كونه الكاهن – تلك رغبة أوبطاتوس تماما "

2-النقيشة الثانية (مشوهة) وجدت في وسط الباحة المعمدة وتحمل الكتابة الآتية:

QUANTA [LAUS] NOMINI [ILLIUS] ... ?

وقد تشير إلى اسم كاتب النقيشة: "كوانتالوس نومينيليوس"

نقلا عن: *Marrou (Henri Irénée), Sur une inscription concernant Optat de Timgad In: Christiana tempora. M.H.A.E.P.. Rome : École Française de Rome, 1978, p.147.*



الشكل رقم 39: مخطط كنيسة تيمقاد:

مخطط كنيسة تيمقاد (63 x 23م) التي عثر فيها "ألبرتيني" على النقيشتين غرب المدينة يتقدمها الصحن (الردهة–*Atrium*) في الشرق والباحة المعمدة (*Péristyle*) والمصلى في الغرب.

نقلا عن: *Eugène Albertini, Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939. (pp. 100-103), p.100.*

من بيوتهم التي نهبت وهدمت، وأشبع الأشخاص ضربا وطمست عيونهم، بل تجاوز المعتدون ذلك إلى قتل ضحاياهم. حقا إن انتزاع نور الحياة من رجل يحتضر لهو أقل قسوة من انتزاع نور البصر من رجل على قيد الحياة. ومع ذلك فإننا لا نعلن أن ذوينا على حق لمجرد أنهم عانوا من هذه الأضرار، ولكنهم على حق لأنهم عانوا ما عانوه في سبيل الحقيقة المسيحية وسلام المسيح ووحدة الكنيسة. » (1)

يلخص هذا النص تلك التهم التي وجهها "أوغسطين" إلى الدوارين والأساقفة الدوناتيين ومنها: تعذيب الضحايا بقسوة وقتلهم أحيانا، وإحراق الكنائس الكاثوليكية، واحتجاز الأسرى في أماكن سرية قبل تعذيبهم. ويشير إلى أن الدوارين كانوا يعذبون ضحاياهم لمجرد إشباع شهوتهم في تعذيب الآخرين.

وإذا ما صدقنا "أوغسطين" فإن الدوارين كانوا يعترضون سبيل العامة من الناس و"كل أنواع الأشخاص" (2) ممن تمكنوا منهم وحتى "الأبرياء" بحافز "الحقد الجائر". (3)

وكان القديس "أوغسطين" قد بعث رسالة إلى الكونت "بونيفاس" (*) (*Boniface*) في حوالي سنة 417م، أي بعد مناظرة قرطاجة بست سنوات، يتحدث فيها أسقف هيبو- ريجيوس "عنابة" عن الدوارين قائلا: « ***قبل أن يصدر الأباطرة الكاثوليك هذه القوانين، كانت عقيدة سلام المسيح ووحدة المسيح تنتشر شيئا فشيئا، بل بعض الأفراد من حزبهم، كل حسب ثقافته ورغبته وإمكاناته، مع أنه كان عندهم في ذلك العهد جماعات من الخرق لا إيمان ولا قانون لهم، يعكرون طمأنينة الأبرياء لأسباب مختلفة، فمن من الأسياد لم يرتجف خوفا من عبده إذا ما***

---

1 - Augustin (St.), Ad Donatistas Post Collationem, XVII, 22.
2 - Id., Brevic. Collat., III, XI, 23.
3 - Id., Ad Donatistas Post Collationem, XVII, 22.

*- **بونيفاس**، هو الوكيل العسكري المكلف بتنفيذ القوانين التي صدرت ضد الدوناتية، شغل هذا المنصب في حوالي سنة 417م، ثم أصبح كونت إفريقيا في سنة 422م. أعلن انفصاله عن السلطة المركزية الرومانية في سنة 427م، وجهت إليه تهمة التعامل مع الوندال ومساعدتهم في الاستيلاء على إفريقيا (429-430م).* *-Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, p.156.*

وضع نفسه (هذا العبد) تحت حمايتهم؟ ومن كان يجرؤ على تهديد أحد من هؤلاء المخربين أو من كان يحميهم؟ »(1)

يتضح من النص أن "أوغسطين" يصف الدوارين أنهم "جماعات" لا يحكمهم قانون ولا إيمان، يعترضون سبيل الأسياد لا بغرض القبض عليهم واقتيادهم إلى مكان ما، ولكن لتعذيبهم بكل بساطة، ولا يستطيع أحد أن يعترض على ذلك. لكنني أعتقد أن حركة الدوارين بهذه الأعمال قد احتفظت بطابعها النضالي من أجل تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية والدفاع عن المضطَهَدين من المديونين والعبيد، حيث تزايد نشاط الحركة خلال الفترة السابقة مباشرة لتدخلات "هونوريوس" في شؤون إفريقيا الدينية، أي في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي.

ويضيف "أوغسطين" في مقام آخر: ***« ومن كان يقدر على المطالبة بالتعويض ممن نهبوا بيوت مؤنه أو من أي مديون إذا ما طلب نجدتهم وحمايتهم؟ لقد كان الناس يمزقون عقود شراء أحقر العبيد ويطلقون سراحهم خوفا من السوط والحريق والقتل المبين. وكانت القروض تنتزع قسرا من المدينين لترجع إلى المديونين، أما الذين لم يعبأوا بإنذاراتهم القاسية، فكانوا يرغمون على تنفيذ ما طلب منهم بضربات أكثر قساوة. وهكذا دمرت وأحرقت منازل أشخاص أبرياء لأنهم جرؤوا على إهانتهم. وقد حدث لبعض أرباب الأسر من ذوي النسب المحترم والثقافة العالية أن نجوا بحياتهم بأعجوبة من تحت الضرب، أو غلوا إلى رحى وأرغموا على تدويرها تحت السوط كالحيوانات. »*** (2)

يستفاد من النص أن الدوارين وصفوا بأوصاف مماثلة لتلك التي نعتهم بها "أوبطا الميلي" عندما كانوا يقومون بعملياتهم في نوميديا تحت قيادة "أكسيدو" (*Axido*) و"فازير" (*Faser*) أي قبل سبعين (70) سنة تقريبا من رسالة "أوغسطين" إلى الكونت "بونيفاس" (*Boniface*) في حوالي سنة 417م. (3)

1- Augustin (St.), Epist., CLXXXV, IV, 15.
2- Augustin (St.), Epist., CLXXXV, IV, 15.
3- Brisson (J.P.), Op.cit., pp. 330-331.

وإذا كان "أوبطا الميلي" قد ذكر أوصافا مبهمة حول الدوارين، حيث أشار إلى أن "عصابات مجنونة" كانت تثير الرعب عند الدائنين. فإن "أوغسطين" يورد تفاصيل دقيقة عن أعمالهم كتخريب المنازل وإحراقها، ويشير إلى تلك الإهانات التي كان يتعرض لها الأسياد: بالسياط والإحراق، و"تدوير الرحى تحت السوط كالحيوانات" كما ورد في النص الآنف الذكر.

لذلك يبدو أن "أوغسطين" لم يستق معلوماته عن "أوبطا الميلي". ويظهر أن حركة الدوارين قد ازدادت قوة في بداية القرن الخامس الميلادي، بدليل لجوء العبيد والمديونين إليها ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها. وكان الدوارون لا يكتفون بإسقاط الديون فقط، بل كانوا ينتزعونها قسرا من الدائنين ليعيدوها إلى المديونين.

وهكذا نلاحظ أن حركة الدوارين ليست حركة تلصص تضم في صفوفها الخارجون عن القانون والمارقون كما يوحي إلى ذلك نص "أوغسطين". بل هي حركة قاومت طبقة الملاك والأسياد التي كانت تحميها السلطة الرومانية. وهي حركة قامت على مبادئ الزعيمين" أكسيدو" و"فازير"، وظلت قائمة حتى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين. فقد كانت ضرباتها موجهة إلى الأسياد وفئة الدائنين الذين كانوا يمثلون الفئة المستغِلة، وحمايتهم كانت تشمل فئة العبيد والمستضعفين وصغار الفلاحين.

وبالرغم من صدور مرسوم الوحدة في عهد "هونوريوس" سنة 405م، فإن عمليات الدوارين لم تتوقف. فقد هاجم الدوارون في حوالي سنة 410م عددا من الضياع في ضواحي هيبو–ريجيوس (*Hippo-Regius*) "عنابة"، حيث كانت أبرشية "أوغسطين".

وقام القديس "أوغسطين" –بعد تلك الهجومات–بتوجيه رسالة إلى غريمه وزميله "ماكروبيوس" (*Macrobius*) أسقف عنابة الدوناتي جاء فيها: ***« إنكم تتعهدون بمنح التعويض للملاك المتضررين من أعمال الدوارين، لكنكم لا ترغبون في الوفاء بوعدكم تماما، لأنكم تخشون عداوة اللصوص الذين لم يتورع كهنتكم عن الاعتماد عليهم من قبل، والواقع أن الدوارين يتبجحون***

بالخدمات التي أسدوها إليكم سابقا. فهم يذكرونكم ويعددون أمامكم ما فعلوه من أجلكم قبل صدور "قانون التسامح" [*]، الذي غمركم بالفرحة بمنحكم الحرية. إن الفضل، كل الفضل يعود إليهم – على حد قولهم – في أن كهنتكم استطاعوا الاحتفاظ بممتلكاتهم وكنائسهم. ولكن بعد تخريب ممتلكاتنا وكنائسنا وطرد أساقفتنا. فإذا أنتم أردتم معاملتهم بصرامة، فسوف تبدون شديدي النسيان لجميلهم ونكران نعمهم ومعروفهم. » [1]

تتضح إذن – من خلال النص–سياسة الأساقفة الدوناتيين، حيث يستخدمون – حسب "أوغسطين"–الدوارين لتحقيق مآربهم، لكن دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر وللشبهات. وإذا لزم الحال، فإنهم ينكرونهم ويجحدونهم علانية، دون قطع الصلة التي تربطهم بالدوارين، الذين ينعتهم "أوغسطين" باللصوص لأنهم نهبوا ممتلكات وضياع بعض الملاك الكاثوليك. وبالرغم من أن الدوناتيين قرروا تعويض المتضررين–حسب "أوغسطين"–إلا أنهم لم يجرؤوا على الوفاء بما وعدوا به خشية إغضاب حلفائهم الدوارين.

يبدو أن حركة الدوارين ظلت وفية لمبادئها حتى سنة 410م، ولما اتسع نشاطها ونطاقها الجغرافي في بداية القرن الخامس (الخريطة رقم 10 ص 521) دفع ذلك الإمبراطور "هونوريوس" للتدخل في الصراع الكاثوليكي الدوناتي، ودعوة المتنازعين إلى مناظرة انعقدت بقرطاجة سنة 411م. وكان يستهدف من خلالها القضاء على الدوناتية بصفة نهائية وجذرية. غير أن تحركات الدوارين استمرت بعد مناظرة قرطاجة على ما يبدو، حيث نجد "أوغسطين" يشير إلى ذلك في سنة 418م بقوله: « ***إن الكاثوليك لازالوا حتى الآن يتحملون بقاياها – أي حركة الدوارين– بكل ما حباهم الله من صبر.*** » [2]

**–هو قانون التسامح الذي أصدره الإمبراطور "هونوريوس" سنة 410م.*

1 - Augustin (St.), Epist., CVIII, 5, 14.
2- Augustin (St.), Gesta cum Emer. Donatist., 12.

ويمكننا أن نتساءل في هذا السياق: ما هي الدوافع التي حركت العبيد والمزارعين والمديونين والدوارين ضد السلطة الرومانية في المغرب القديم؟ ولماذا تزعم الدوارون حركة التمرد وكانوا العنصر المحرك له؟

سبق وأن تناولت في الباب الثالث الظروف التي كان يعيش فيها المزارعون والعبيد في أرياف المغرب القديم خلال القرن الرابع الميلادي. ويبدو أن هذه الظروف كانت المحرك الأساس لانتفاضة هذه الفئات التي عانت كثيرا من الاستغلال والاضطهاد.

يرى بعض المؤرخين أن عدد العبيد ودورهم قد تناقص بشكل ملفت للنظر خلال العهد الإمبراطوري المتأخر. [1] حيث كان الأسياد يعاملونهم معاملة سيئة، مما دفعهم إلى الفرار والالتحاق بالدوارين. أما المزارعين فقد كانوا يعيشون في ظروف صعبة، تميزت بتعدد الضرائب والإتاوات والهدايا التي كانت تفرض عليهم من طرف كبار الملاك والدولة الرومانية. وأصبحوا مرتبطين بالأرض التي يحرثونها وفاقدين لجزء واضح من حريتهم. وأصبح المزارع غير حر في تحركاته، وإن كان قد احتفظ بحرية مبدئية تقيم الفرق بينه وبين العبد. [2]

زيادة على ذلك، فقد أوكل المشرع إلى الملاك تسليط العقوبات الجسدية [*] على مزارعيهم. [3] وهكذا كانت تلك الأسباب دافعا قويا لتمرد العبيد والمزارعين على الملاك والأسياد. أما بالنسبة للدوارين فقد اختلفت الآراء بشأن تعليل ثورتهم ضد السلطة الرومانية والكنيسة الكاثوليكية، ويمكن أن أستعرض تلك الآراء فيما يأتي:

1- Picard (G.Ch.), l'empire chrétien…, p. 448.

2- Cod.Theod., V, 19, 1, 2.

*- فرضت تلك العقوبات الجسدية حسب القانونين اللذين أصدرهما "هونوريوس" في 30 جانفي سنة 412م، و17 جوان سنة 414م بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة بين الكاثوليك والدوناتيين سنة 411م. -Cod.Theod., XVI, 5,54.

3- Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp.356-358.

يرى "ج. ش. بيكار" (*G.Ch.Picard*) أن خصوبة الأمهات الليبيات أدى إلى تزايد السكان في المغرب القديم. (*) الأمر الذي نتج عنه وجود فائض من العمال الفلاحيين الذين أصبحوا يهددون أمن البلاد، بعد أن كانوا يوفرون لها اليد العاملة خاصة في المواسم الفلاحية. (1)

والحقيقة أننا لا نملك الأدلة التي تثبت تزايد عدد السكان خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها، فالأمر إذن لا يعدو أن يكون مجرد استنتاج أو تخمين من المؤرخ الفرنسي "بيكار".

ويرى بعض الباحثين (**) أن المغرب القديم عرف ازدهارا نسبيا مقارنة مع بقية أقاليم الإمبراطورية. لكننا إذا ما تتبعنا هذا الازدهار نلاحظ أنه يشمل ناحيتين:

1-من الناحية الأثرية: نلاحظ أن المدن الإفريقية ظلت تشيد البنايات وتقوم بتزيينها.

2-من الناحية التاريخية: يرى هؤلاء الباحثين أن روما ظلت تعتمد في غذائها على قمح المغرب القديم، وهذا ما يدل على ازدهار الفلاحة في الشمال الإفريقي القديم. (2)

- يرى كورتوا Courtois أن عدد سكان بلاد المغرب القديم قدر بحوالي 04 ملايين نسمة في العهد الإمبراطوري المبكر، إلا أن هذه الأرقام قد تضاءلت في رأيه بنسبة الربع 1/4 ليصبح 03 ملايين ساكن فقط مع نهاية العهد الإمبراطوري المتأخر. *- Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique…, p.106.*

واقترح "شتاين" أن شمال إفريقيا عرفت نموا ملحوظا خلال القرن الثالث الميلادي، وأن مدنه كانت مكتظة بالسكان. - Stein, (E.), Histoire du Bas Empire, T.1, 1959, pp.2-3.

واعتبر "بيكار" Picard أن اتساع رقعة المدن تعطي الدليل على تزايد سكان بلاد المغرب حيث بلغ عددهم حوالي 3 مليون نسمة في منتصف القرن الأول، وارتفع في بداية القرن الثالث إلى حوالي 6 مليون نسمة، أي أن عددهم تضاعف منذ عهد الإمبراطور "كلوديان". *Picard (G.Ch.), la civilisation de l'Afrique romaine…, p.47.*

وكانت إستنتاجات "لاسير" Lassere من خلال تحليل إحصائيات شواهد القبور والأنصاب المختلفة لحوالي 250 نسمة، مطابقة لآراء "بيكار". *-Lassere (J.-M.), "Ubique Populus" peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine, de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères, (146 a.c.- 235 ap.c.), Paris, éditions du C.N.R.S., 1977.*

ولاحظ "لزين" Lezine رغم ارتفاع نسبة وفيات الأطفال إلا أن الزيادة بقيت مرتفعة إذ قدرت بحوالي75 % أنظر:

- Lezine, (A.), sur la population des villes Africaines, Ant. Afri., t.3, 1969, pp.69- 82.

1- Picard (G.Ch.), la civilisation de l'Afrique romaine…, Op.cit., pp. 67-68.

***- منهم: "شارل كورتوا" و"كلود لوبلي". Courtois (Ch.) ; Leppelley (C.)*

2- Courtois (Ch.), les vandales et l'Afrique…, Op.cit., p.149.

والواقع أن الأمر لا يتعلق هنا بإثبات أو نفي مظاهر الازدهار الفلاحي، بقدر ما يتعلق بالفئات المستفيدة منه. أما عن شحنات القمح التي كانت توجه إلى ايطاليا، فإنه لا يجب أن يخفى على الباحث وجود فوارق إقليمية بين البروقنصلية *Proconsulaire* وبيزاكينا *Byzacena* اللتين احتفظتا بازدهار نسبي مقارنة بأقاليم الإمبراطورية الأخرى التي كانت تعرف بعض القلاقل والاضطرابات من حين لآخر. [1]

وتتجلى هذه الفوارق الإقليمية، في الفوارق الاجتماعية بين الملاك المشرفين على الإنتاج والذين كانوا يتملصون من تأدية الضرائب، وجماهير الفلاحين الصغار والمزارعين الذين كانت الضرائب التي تفرض عليهم تثقل كاهلهم.

كل ذلك جعل الازدهار الذي عرفه المغرب القديم ازدهارا نسبيا، بالمقارنة مع المقاطعات الرومانية الأخرى، بالنظر إلى تلك الفوارق الاجتماعية من جهة، والفوارق الإقليمية من جهة ثانية.

يبدو إذن أن تلك الفوارق كانت وراء تناقص فرص العمل إضافة إلى ندرة الموارد، الأمر الذي أدى بالفلاحين إلى هجر أراضيهم الزراعية. وهذا ما أشار إليه الكاتب الإفريقي " لاكتانتيوس" [*] (*Lactantius*) في بداية القرن الرابع الميلادي بقوله: « ***... كان عدد المستلمين للضرائب أكثر من المؤدين لها، حتى أن المزارعين لما رأوا مواردهم قد نضبت بسبب كثرة الضرائب، هجروا حقولهم التي رجعت إلى البور.*** » [2]

---

1 -Leppelley (C.), Déclin ou stabilité de l'agriculture Africaine ... ?, pp.137-139.

*- **لاكتانتيوس** (Lucius Firmianus **Lactantius**)، مؤرخ مسيحي من مواليد إفريقيا في حوالي سنة 250م، اعتنق المسيحية في حوالي سنة 300م. يعتبر "أرنوب" (Arnobe) من أشهر أساتذته، اختاره "ديوكليتيانوس" سنة 290م لتدريس الآداب في نيكوميديا (Nicomédie). انتقل من إفريقيا حيث كان يدرس البلاغة في مدينة سيكا فينيريا (Sicca Veneria) "الكاف بتونس حاليا" إلى إيطاليا واحتل مكانة أدبية مرموقة، عينه "قسطنطين" سنة 318م مدرسا لابنه "كريسبينوس"Crispinus، توفي في حوالي سنة 317م أو 325م.* *-Dict. Univ. Hist. Géo., p. 1021.*

2- Lactantius, De Mortibus Persecutorum,VII, 3.

ويشير "أوغسطين" في هذا السياق أن جرأة "المتبربرين" (*Barbari*) – يقصد الدوارين–وصلت إلى حد طرد بعض السكان من أراضيهم، كما تعرضت الأراضي الإمبراطورية نفسها لهجماتهم. (1)

وهكذا كانت الحرية التي تمتع بها الدوارون دون العبيد والمزارعين هي التي أهلتهم للقيام بدور المحرك للتمرد وحماية الفقراء والفلاحين وصغار الملاك.

ومما ساعد على التقارب بين الدوارين وهذه الفئات ظروفهم المتشابهة، والعيش في الأرياف، والاجتماع في الأسواق الريفية (*Nundinae*)، والعمل جنبا إلى جنب في المواسم الفلاحية، فضلا عن وجود اللغة المشتركة التي تجمعهم. (2)

يتضح مما سبق أن هناك تناقض تام بين مصالح الدوارين ومصالح كبار الملاك، فوضعية الأرض في المغرب القديم في القرن الرابع كانت متناقضة تماما مع ظروف استغلالها. فإذا كان الدوارون لا يجدون الأرض الكافية لاستغلالها كمصدر رزق، فإن كبار الملاك كانوا يسعون لتركيز الملكية في يد فئة قليلة من الملاك بهدف التحكم في الأرض وفي الإنتاج. هذا فضلا عن عدم القدرة على توفير فرص العمل للدوارين، بسبب عجزهم عن استغلال كل الأراضي بسبب نظام الضرائب.

ويفترض "ش. كورتوا" أن الدوارين ربما كانوا قد استفادوا من "الإصلاح الزراعي" الذي يظهر أن "جيلدون" (*Gildon*) قام به بعد إعلان ثورته على السلطة الرومانية في أواخر القرن الرابع الميلادي (396–398م). (3)

1- Augustin (St.), Epist., CCXX, 7.
2- Cod. Theod., X, 1, 16.
3- Courtois (Ch.) , les Vandales et l'Afrique…, p. 146.

فقد تولى "جيلدون" ابن الأمير "نوبل" [*] (*Nubel*) وأخ الأمير "فيرموس" [**] (*Firmus*) منصب كونت *Conte* [***] إفريقيا في حوالي سنة 386م، مكافأة له على موقفه المؤيد للسلطة الرومانية ضد أخيه "فيرموس".

وكانت روما تعلم أن "جيلدون" أمير إفريقي، وأنه يملك سلاحا فعالا يمكنه من زعزعة روما وتجويع شعبها. وذلك بوقف شحنات القمح الموجهة لسكان روما، كما فعلها قبله والي إفريقيا "دومتيوس ألكسندر" [****] (*Alexander Domitius*) في بداية القرن الرابع، ومن بعده كونت إفريقيا "هيراكليانوس" (*Heraclianus*).[*****] في بداية القرن الخامس الميلادي.

**– تعود أصول "نوبل" إلى قبيلة "يوبلاني" (Jubaleni) التي تقيم في ضواحي "أوزيا" (Auzia) –سور الغزلان حاليا– بموريطانيا القيصرية، وكان له عدة أبناء من بينهم: ساماك (Sammac , Zammac)، "مازوكا" (Mazuca - Mazucan)، "ماكزيزيل"(Maczezel)، "ديوس" (Dius)، فيرموس (Firmus) وجيلدو (Gildo). وكان نوبل يقيم في قلعة بفج بني عيشة التي تحتل موقعا استراتيجيا بين شرق سهل متيجة ومنطقة القبائل، ويتولى مهمة مراقبة المنطقة ويضمن الأمن للسلطة الرومانية.*
- Gsell (S), Observations géographiques, pp. 21-46.

***– قاد ثورة في موريطانيا القيصرية ضد السلطة الرومانية في الفترة ما بين 372–375م. للمزيد أنظر: محمد الهادي حارش، ثورة فيرموس (372–375م)، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، عدد7، 1993، ص ص 11–18.*

****– لقب يعني لغويا "صاحب" أو "رفيق"، وهو منصب استحدثه "قسطنطين"، وكان كونت إفريقيا يعوض الوالي (Vicarius) أو يعمل قائدا للجيش. أنظر أعلاه، ص 713. -Petit (P.), Histoire Générale, t III, p.73.*

*****- **دومتيوس ألكسندر**، والي إفريقيا، استغل الصراع في روما فاستبد بالحكم بعد اعتزال "ديوكليتيانوس" عن العرش سنة 305 م، واتخذ لقب إمبراطور من 308م إلى 311م، واستعمل القمح كسلاح لتجويع روما بغية تحقيق أهدافه.*
- Saumagne (Ch.), la crise de l'autorité en Afrique au début du IV siècle (observations sur quelques monnaies frappées à Carthage (305 - 321 ap J.C.), R.T., 1921, pp. 133-142.

******– **هيراكليانوس**، كونت إفريقيا، من سنة 409م الى سنة 413م، أوقف شحنات القمح الموجهة إلى روما سنة 413م لتجويع سكانها.*
- Kotula (T.), le fond Africain de la révolte d'Héraclien en 413, A.A., t. II, 1977, pp. 257-266.

وبالرغم من أن حرب جيلدون" (*) لم تستمر طويلا (396-398م) إلا أنه على ما يبدو وحسب ما ذكره "كورتوا"، فقد قام بتوزيع بعض الأراضي التابعة للأملاك الإمبراطورية على السكان أو سمح لهم باحتلالها. (1)

ولا يستبعد أن يكون الدوارون قد استفادوا من تلك الأراضي. فالإشارة إذن إلى احتلال بعض الأفراد للأراضي الإمبراطورية، إنما يدل على أن السكان كانوا يبحثون عن أراضي بهدف استغلالها، وأن نظام الملكية كان عائقا دائما يمنع الفئات المستضعفة من امتلاك الأراضي. ومن ثم ندرك طبيعة الأزمة التي كانت تعيشها الأرياف الإفريقية، والفئات الفقيرة على وجه الخصوص.

يبدو أن حركة الدوارين قد تزايد خطرها على السلطة القائمة في بلاد المغرب القديم. فقد تطورت أساليبهم ووسائلهم المستعملة في القتال، فبعد أن كانوا يستعملون العصي (**) في هجماتهم، لأنهم كانوا يشعرون بالحيرة والشك حينما يتذكرون ما ورد في الكتاب المقدس:« ***أن الذي يقتل بالسيف سيقتل بالسيف.*** » (2) أصبحوا فيما بعد يستعملون المقاليع والمراجم والحجارة. (3) وحسب "أوغسطين" فقد اكتشفوا في نهاية القرن الرابع الميلادي تفسيرا آخر للنص التوراتي، فقرروا استعمال السيوف (4) والسواطير والحراب، (5) والأسلحة الحديدية والحسم. (6)

---

*- *المصدر الأساس عن ثورة "جيلدون" هو شعر كلوديانوس Claudianus (365-408م) في كتابه "حرب جيلدون" (De Bello Gildonico).*

- Courtois (Ch.), Op.cit., pp.145-146 ; Frend (W.H.C.), the Donatist Church..., pp. 221- 225.

1- Cod. Theod., IX, 42, 19 ; Courtois (Ch.), Op.cit., p. 146.

**- *كان الدوارون يسمون هذه العصي بالإسرائيلات "Israeles".*

- Augustin (St.), Psalmus Cont. Partem Donati, 84 ; 140-141 ; 144-163.

2-Matthew, 26-52.

3-Augustin (St.), Contra Litteras Petiliani, II, LXXXVIII, 195.

4-Id., Contra Cresconius, III, XLIII, 46 ; XLV, 49.

5-Id., Cont. Litter. Petil., II, XCVI, 222.

6-Id., Cont. Epist. Parmen. I, XI, 17; II, II, 6.

ويشبه "أوغسطين" جماعات الدوارين بالفيالق، [1] ويصفهم أيضا بالجماعات المسلحة، [2] لأن الأمر وصل بهم إلى درجة أن المكلفين بجمع الضرائب أصبح من المتعذر عليهم القيام بمهامهم في بعض المناطق الريفية بسبب تزايد نشاط الدوارين بها.

ويذكر "أوغسطين" كذلك أنه في حوالي سنة 400م تدخل الإمبراطور "هونوريوس" (*Honorius*) في قضية إرث أثارها أحد النبلاء الأغنياء، الذي لم يقبل وصية أخته بتوريث مالها للكنيسة الدوناتية. ويشير في مقام آخر أن: ***« حكم الإمبراطور تضمن إشارة إلى الدوارين متوقعا مقاومة عنيفة من جانبهم، وتوقع كذلك طبيعة الإسعافات والوسائل القمعية الكفيلة بصدهم، لأن مثل تلك الحالات كانت عادية، فقد اشتهر الدوارون بمثل تلك الأعمال الشائنة، وأظهروا من الشراسة في الاشتباكات ما لم يستطع معه لا المشتكي إلى الإمبراطور، ولا الإمبراطور نفسه أن يصمت عن الإشارة إليهم. »*** [3]

يتضح مما سبق أن الأساقفة الكاثوليك الذين حضروا المجمع الكنسي المنعقد بقرطاجة في 16 جوان سنة 404م اتفقوا على ضرورة طلب تدخل الإمبراطور "هونوريوس" لحماية الكنيسة الكاثوليكية من عنف الدوارين.

ولنا أن نتساءل في هذا الإطار: هل كانت نظرة السلطة الرومانية إلى الدوارين على أنهم يشكلون خطرا على الكاثوليك؟ أم خطرا على الأمن والنظام العام في المغرب القديم؟ وبعبارة أخرى: هل كان هدف تلك السلطة من القضاء على الدوارين حماية الكاثوليك أم الحفاظ على النظام العام؟

كانت السلطة الزمنية تعتبر حركة الدوارين حركة تمرد على النظام وتهديد الأمن في المغرب القديم. ونستشف ذلك من نص القرار[*] الذي أصدره "ماركيلينوس"

1- Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, LXXXVIII, 195.

2-Id., Gesta Cum Emer., 12.

3-Id., Contra Epistulam Parmeniani, I, XII, 20.

**- أصدر القاضي "ماركيلينوس" هذا القرار في 26 جوان سنة 411م وهو غير القرار الذي أصدره إثر انتهاء مناظرة قرطاجة في 8 جوان سنة 411م، والقرار عبارة عن إجراء تطبيقي اتخذه القاضي بعد صدور الحكم على الدوناتيين.*

(*Marcellinus*) قاضي مناظرة قرطاجة سنة 411م الذي ورد فيه: « ***إن محاولة تهدئة جنونهم (أي الدوارين) معناه السهر على القانون الكاثوليكي واحترام الأمن العمومي في آن واحد.*** » [1]

لقد تباينت آراء الأساقفة الكاثوليك في مجمع قرطاجة سنة 404م حول طبيعة وأهمية التدخل الذي طلبوه من السلطة الزمنية. فالأساقفة الأكبر سنا، كانوا قد شاهدوا بأنفسهم آثار إجراءات القمع السابقة، لذلك طالبوا بمرسوم يلغي الكنيسة الدوناتية ويدعو إلى الوحدة. بخلاف القديس "أوغسطين" وآخرون الذين كانوا يطالبون ليس بمرسوم للوحدة، ولكن بتمثيل المنشقين الأفارقة بالهراطقة والمبتدعة، وخاصة في المناطق التي تشهد عنف الدوارين، وضرورة تطبيق قانون "ثيودوز" (*Théodose*) بفرض غرامة عشرة ليرات ذهبية على الأساقفة والكهنة المتهمين بالهرطقة.

ويشير "أوغسطين" إلى القوانين المتشددة التي أصدرها "هونوريوس" (*Honorius*) ضد الدوناتية سنة 405م، وهو يخاطب خصمه الأسقف الدوناتي "كريسكونيوس" (*Cresconius*) بقوله: « ***تخلص في نقاشك من هذه الاتهامات الباطلة حول العقوبات التي تلحقها بكم الإمبراطورية بسبب ذنوبكم، فهذه العقوبات تكاد لا تذكر لأنها خفيفة جدا بالنظر إلى جنون ذويكم المسعور، وليس عن طيب خاطر لوقاية نفسها من هجمات ذويكم.*** » [2]

يوحي النص السابق أن الكاثوليك أدركوا نقطة الضعف التي يمكن استغلالها ضد الدوناتية وإقناع السلطة الزمنية بأن الدوناتية كانت وراء دفع الدوارين إلى العنف. ومن ثم وحفاظا على الأمن العام، كان من حق هذه السلطة التدخل لوضع حد لذلك العنف. بينما يحقق الكاثوليك هدفهم الأسمى وهو القضاء على الدوناتية وعلى عنف الدوارين. وفي نفس

1-Augustin (St.), Epist., CLXXXV, 7, 25.
2-Augustin (St.), Contra Cresc., III, XLIX, 54.

الوقت حل معضلة فقهية ظلت مطروحة منذ عهد "أوبطاتوس الميلي" وهي مشروعية اللجوء إلى السلطة الزمنية والاستعانة بها لردع المنشقين والهراطقة.

وكان الدوناتيون والكاثوليك قد اختلفوا حول هذه المسألة، فبينما يرى الدوناتيون أن الإنسان حر في اختياراته، وأن الله هو الذي يتولى عقاب المنشقين والمذنبين. يعتقد "أوغسطين" وأتباعه أن من حق الكنيسة الكاثوليكية أن تطلب دعم الدولة ضد المسيحيين الخارجين عن الخط (الأرثوذكسي). وبما أن الدوناتية تضم في صفوفها حركة تمردية هي حركة الدوارين، فإن من حق الكنيسة الكاثوليكية أن تلجأ لاستعمال الجنود ضد المنشقين.

وهذا ما أشار إليه القديس "أوغسطين" في خطابه الموجه إلى الأسقف الدوناتي "غودانتيوس" (*) (*Gaudentius*)***: « إنك تشجب استعمال الجنود: لكن، إذا كان الكتاب المقدس يعطي الدليل على أن تلك المهمة (خدمة الكنيسة) منوطة بالملوك، فبأي وسيلة سوف يؤدونها ضد الدوارين المتمردين وضد أنصارهم ورؤسائهم المجنونين إذا لم يكن بجنودهم الأوفياء؟ »*** (1)

يمكن القول أن حركة الدوارين–حسب ما وصلنا من شهادات "أوبطا الميلي" والقديس "أوغسطين"– ظلت قائمة خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس، وأن نشاطها ازداد بصفة خاصة في الفترة التي سبقت تدخل "قنسطانس" (*Constance*) ضد الدوناتية سنة 347م، وقبيل صدور قوانين "هونوريوس" سنة 405م. وربما تكون عمليات الدوارين التي امتدت إلى سنة 410م بضواحي عنابة، هي آخر انتفاضاتهم قبل تدخل الدولة وتحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة سنة 411م للقضاء على تجمعات الدوارين بالأرياف الإفريقية.

---

*– **غودانتيوس**، هو أسقف تيمقاد الدوناتي، أحد المثقفين الدوناتيين، وأول دوناتي هاجم القديس "أوغسطين" مباشرة، وكان أحد ممثلي الدوناتية السبعة في مناظرة قرطاجة سنة 411م. يجهل تاريخ ومكان ولادته، وحسب "مونصو" فقد ولد في تيمقاد في حوالي سنة 355م، ومارس مهنة "نحوي" Grammaticus ، بتعليم الأطفال قواعد النحو والأدب.*

Monceaux (P.), H. L. A. C., VI, p.193; Serge Lancel, Actes de la conférence de Carthage en 411, t. II, p. 414.

1- Augustin (St.), Contra Gaud., I, XXXV, 45.

تجدر الإشارة هنا أن "أوغسطين" وزملاؤه الكاثوليك استعملوا أوصافا جارحة ومهينة نعتوا بها الدوارين مثل: المتمردين، والمجنونين، والحمقى، واللصوص، وأنهم جماعات بلا دين ولا خلق. وهي أوصاف لا تتعدى أسلوب القذف والذم.

وقد كان الحفاظ على الأوضاع القائمة –بالنسبة لـ"أوغسطين"– جزء من عقيدة المسيحي المؤمن، لذلك نجده يخاطب "غودانتيوس" أسقف ثاموقادي الدوناتي قائلا: « ***لو أخذنا بتفكيركم الخاطئ والفارغ لأطلقنا العنان لإباحة الإنسان وتركنا خطاياه غير معاقبة، ولأبطلنا كل الحدود القانونية وتركنا بدون قيد جنونه وجرأته على الفساد في الأرض وميوله إلى اللذات المنحرفة، فلا يحق للملك أن يكبح بالتهديد والعقاب الحرية والرغبة في الأذى عند رعيته، ولا القائد عند جنده، ولا الحاكم عند محكوميه، ولا السيد عند عبده، ولا الزوج عند زوجته، ولا الأب عند ابنه.*** » (1)

كانت نظرة "أوغسطين" وقبله "أوبطا الميلي" إلى المجتمع المسيحي وعلاقته بالسلطة الزمنية، نظرة خضوع واستسلام. لذلك لا يحق للفرد أن يقاوم السلطة، لأنه من قاوم السلطة فقد قاوم النظام الذي حدده الله، ومن قاوم فإنما يعرض نفسه لغضب الله. فالمسيحية –في نظرهما– تبرر المجتمع الذي كانا يعيشان فيه. ولا يحق لأحد أن يمس بهذا النظام المستمد من مشيئة الله، فإن أي ثورة على النظام القائم عمل مناف للمبادئ الدينية.

لذلك اقتنع "أوغسطين" بضرورة ومشروعية تدخل السلطة الزمنية لردع النحل المسيحية المنشقة عن الخط "الأرثوذكسي". (2) ومع ذلك فقد ندد "أوغسطين" بالأغنياء الذين لا يفكرون في بؤس الفقراء، وكان يشير في خطبه الوعظية إلى مزيد من الشفقة بالمعدمين. (3) إلا أنه سكت عن تغيير الأوضاع القائمة والقضاء على الظلم الاجتماعي، وحسب رأيه، فالمسيحية تبرر النظام القائم في المجتمع.

1- Augustin (St.), Contra Gauden., I, XIX, 20.
2- Id., Contra Cresc., III, 57 ; Brev. Collat., III, XXII, 40.
3-Hamman (A.G.), la vie quotidienne à Carthage…, pp.292-293.

"وكان يرى أن ضحايا الدوارين من الكاثوليك والأسياد لا يمثلون فئة محترمة في المجتمع من حيث الثقافة والمكانة الاجتماعية فحسب، ولكن يمثلون أيضا أساس المجتمع قبل كل شيء.

وإذا كان هؤلاء الأسياد متشددون تجاه المديونين والعبيد، فإن ذلك يعد- في نظر "أوغسطين"- عملا مشروعا، وشق عصا الطاعة، معناه القضاء على المجتمع كله. فعلى العبد خدمة سيده، وعلى المديون تسديد دينه، وعلى الرعية طاعة حاكمها. (1)

ويؤكد "أوغسطين" من جهة أخرى هذا الرأي في آخر مجادلة كلامية مع الدوناتيين واجه فيها "غودانتيوس" الثاموقادي بقوله: ***« من لا يعرف أن هؤلاء – يقصد الدوارين- لا يتورعون عن ارتكاب أفظع الجرائم. يمتنعون عن القيام بالأعمال النفعية، ويقتلون الآخرين ببشاعة، كما يقدمون على قتل أنفسهم، وهم هائمون في الأرياف، يحومون حول مخازن الحبوب بحثا عن شيء يأكلونه – ولهذا سموا بالدوارين –، وهم بذلك يمثلون العار الأكثر شهرة في العالم والأقرب إلى الهرطقة الإفريقية. »*** (2)

يوحي النص – وسط الشتائم والنعوت التي أطلقها "أوغسطين" – أن الأمر يتعلق بجماعات كانت تعيش في الأرياف، فالدوارين كانوا يبحثون عن العمل وسط دهماء الأرياف أكثر من المدن. ولكي نكون أكثر دقة، فالقديس "أوغسطين" يقدم لنا الدوارين – في هذا النص- على أنهم "طوافون" ويقدم تفسيرا لأصل هذه الكلمة. (*)

إن الصورة التي حاول "أوغسطين" رسمها، تسمح لنا أن نستشف أن هؤلاء عبارة عن جماعات من دون عمل، متجولة، تعيش على السلب والنهب، وربما على اللصوصية.

1-Brisson (J.P.), Op.cit., pp.331-332.
2- Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVIII, 32.

**- اقترح "فراند" Frend أصلا جديدا للكلمة، بحيث اعتبر "Cella" بمعنى "كنيسة الشهداء"، فالدوارين أخذوا اسمهم من كثرة ترددهم على مقابر الشهداء. يبدو أن فرضية "فراند" ماهرة ولبقة لكنها هشة وضعيفة، ونقترح أن نفضل فرضية "أوغسطين" St.Augustin الذي اعتبر "Cella" بمعنى "مخزن" Cellier. Frend (W.H.C.), the Cellae of the African Circumcellions, J.T.S., 1952, new series, vol. III, pp.87-90.*

هل يجب أن نستنتج مما أورده "مونصو"، أن الدوارين كانوا من ذوي السوابق العدلية؟ وهل كانوا من الخارجين عن القانون وقطاع الطرق، الذين يتسكعون في جماعات بالأرياف الإفريقية ينشرون الرعب وسط السكان؟ [1] وهل الشتائم التي أطلقها المجادلون الكاثوليك تسمح باعتقاد ذلك؟

أورد "بريصون" اعترافا مثير للانتباه لأحد هؤلاء المجادلون الكاثوليك وهو كاهن هيبو–ريجيوس (عنابة) المجهول، الذي كتب يقول: « ***...إننا على حق، حينما نستنكر العجرفة والفجور والجنون البالغ عند دواريكم، حتى عندما يمارسون عنفهم على الأشرار. فليس من الخير في شيء أن ينتقم من الظلم بالظلم، وأن يقاوم الجور بالجور، أما عندما يضطهدون الأبرياء لأسباب مجهولة أو بدافع الحقد الظالم، فمن لا يستفظع جرائمهم الشنيعة؟*** » [2]

يستفاد من النص أن هذا الكاهن المجهول، لا يرى في الدوارين – مثل "أوبطا الميلي" و"أوغسطين" – أكثر من عناصر فوضوية ومجنونة. لكنه يعترف – في معرض حديثه–أن ضرباتهم لم تكن دائما دون مبرر، وأنهم كانوا – أحيانا–يواجهون الأشرار ويرفضون الظلم.

وكان يرى أن معظم ضحايا الدوارين كانوا من الأبرياء، لا يستحقون ما جرى لهم على يد جماعات الدوارين. بل إنه في الحقيقة كان يظهر نفسه على أنه المدافع الوفي عن النظام الاجتماعي، ولا يجد تفسيرا مقنعا لمهاجمة الدوارين للأبرياء، إلا أن تكون الدوافع عبارة عن أحقاد دفينة. كما أنه لا يمكن أن يجعل من وجود أشخاص لا يتصرفون دائما طبقا للقوانين، سببا لأن نواجه الظلم بظلم آخر.

1- Monceaux (P.), H.L.A.C., t. IV, p.180.
2- Brisson (J.P.), Op.cit., p.333.

لا يحق لأحد أن ينتهك القانون، ولو كان ذلك بهدف صد اللامشروعية ومخالفة القانون. وتشير نصوص أخرى لـ"أوغسطين" إلى تلك الحوافز المجهولة والأحقاد الدفينة، التي كانت تدفع الدوارين إلى مهاجمة "الأبرياء". (1)

ويمكننا أن نتساءل في هذا السياق: ألا يتعلق الأمر بالحقد الاجتماعي الذي كانت تكنه طبقة فقيرة مستضعفة لطبقة مستغِلة؟ ألم تكن تلك الحوافز المجهولة وراء أعمال عنف الدوارين؟ ألم تدفع تلك الأعمال المجادلون الكاثوليك إلى وصفها بالجنون والعجرفة والفوضى؟

يذكر "أوغسطين" في نص آخر عنف الدوارين بقوله: ***«إن الدوارين كانوا يعترضون سبيل أشخاص لا بغرض القبض عليهم واقتيادهم إلى مكان ما، ولكن لتعذيبهم هكذا، بكل بساطة. »*** (2)

صفوة القول أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عرفها المغرب القديم في تلك الفترة ولدت صراعا طبقيا بين فئتين فئة مستغِلة وفئة مستغلة. تلك الظروف هي التي دفعت -ربما- الدوارين إلى مهاجمة الأسياد دفاعا عن الضعفاء. وإذا كانت هذه هي السمات الاجتماعية لحركة الدوارين قبل وبعد سن 347م، فإن للحركة أيضا سمات دينية اتسمت بها، وهي السمات التي وردت في شهادات الكاثوليك والدوناتيين على السواء، والتي عالجتها في الباب الرابع.

1- Augustin (St.), Cont. Epist. Parmen., I, XI, 17, 18.
2- Id., Ad Donastistas Post Collationem, XVII, 22.

خاتمـــــــة

سلطت هذه الدراسة الضوء على المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وقد مكنتني من التوصل إلى بعض النتائج التي ألخصها فيما يأتي:

1-تعايشت في المغرب القديم معتقدات وثنية متباينة الأصول والطقوس وكان من الناس من عبد عددا من المعتقدات المختلفة. وإلى جانب الديانة الوثنية الرومانية، وهي الديانة الرسمية التي كانت تقوم على عبادة الإمبراطور. كانت هناك معتقدات شرقية بونية اعتنقتها الطبقات الاجتماعية الدنيا التي كانت تقيم في المدن والأرياف، إلى جانب معتقدات محلية ارتبطت بالسكان الذين يقيمون خارج مناطق النفوذ الروماني بالسهوب والمناطق الصحراوية.

2-تعتبر عبادة المظاهر الطبيعية ظاهرة عالمية، حيث انتشرت عند مختلف الشعوب منذ فترة ما قبل التاريخ. وسكان المغرب القديم كغيرهم من الشعوب في مراحل تاريخهم البدائي، عبدوا وقدسوا مظاهر طبيعية ملفتة للانتباه كالشمس والقمر والكهوف والجبال والصخور والأشجار والسحب والعواصف والآبار ومنابع المياه. كما ساد الاعتقاد بوجود قوى خارقة في الطبيعة كالجن والأرواح. فكان من الطبيعي وفي بيئتهم تلك أن يقدسوا تلك الظواهر. كما مارسوا عبادة الإنسان، فقد حظي الملوك والأموات بنوع من التقدير والاحترام عند السكان، هذه العبادة التي نستشف بعض ممارساتها من النقوش والعمارة الجنائزية.

3-يعتبر تقديم الأضاحي البشرية طقس من طقوس المجتمعات البدائية الوثنية في منطقة البحر المتوسط. وبما أن أكثر الشعوب ممارسة لهذه الطقوس هم الساميون، فقد نقلها الفينيقيون إلى شمال إفريقيا، ومارسها القرطاجيون إما للحصول على رضا الآلهة أو إذا أحسوا بغضبها. وقد أثبتت الحفريات وجود هذه الطقوس في المغرب القديم، وذلك باكتشاف العديد من المعابد التي احتوت على مرمدات ملئت بعظام الأطفال والحيوانات.

ولعل ذلك إشارة إلى الأضاحي البديلة، حيث يتم استبدال التضحية بالكبش بدل الطفل، أي أن يحل الحيوان محل البشر، وهي التضحية التي عرفت باسم "مولخمور" (*Molchomor*). وقد أشارت النقيشة البونية النذرية التي اكتشفت في معبد الحفرة بقسنطينة إلى ذلك.

4-استطاع المجتمع المغربي القديم "أفرقة" الديانة الرومانية وفق معتقداته التي آمن بها منذ آلاف السنين وهذا دليل على عدم تأثره بسياسة الرومنة دينيا، وإن تأثر بها إداريا. وقد عجزت السيطرة الرومانية عن منع سكان المغرب القديم من نوميد ومور وجيتول من عبادة آلهتهم المحلية. وأن مجال عبادة الآلهة الرومانية في المغرب القديم كان يشمل الرومان الذين حلوا بالمنطقة كمستوطنين، والمغاربة الذين ترومنوا، ثم بقية السكان الذين تأثروا بسياسة الرومنة دون أن يستطيعوا مقاومتها، إضافة إلى بقية المعبودات المحلية التي تدخل في الموروث الحضاري الليبو– نوميدي.

5-انتشرت المسيحية في المغرب القديم بطرق وأساليب متعددة: إما عبر الحواريين أو عن طريق عناصر شرقية كاليهود، أو البعثات التبشيرية التي كانت ترسلها كنيسة روما لتنصير الولايات الرومانية في شمال إفريقيا، أو عن طريق التجار. ووجدت الطبقات الاجتماعية البسيطة من عمال وفلاحين وعبيد في المسيحية بغيتها الروحية والاجتماعية، ومحتوى فكريا ونفسيا تقاوم به المجتمع الوثني الذي ناصبها العداء. خلافا لما كانت عليه الديانة الرومانية الرسمية التي كرست النظام الطبقي والتمايز الاجتماعي.

6-ألحقت السياسة الاقتصادية التي انتهجتها السلطة الرومانية منذ أوائل القرن الثاني إلى أوائل القرن الثالث للميلاد أضرارا جسيمة بالأهالي، وقد سمحت تلك السياسة بتجمع مصادر الثروة في أيدي طبقة الأثرياء والأرستقراطيين التي مكنها نفوذها من التحالف مع السلطة الرومانية، ومارست ذلك النفوذ على سكان المدن والأرياف وهم أكثرية المجتمع.

فازدادت الفجوة بين الفئتين، مما أدى إلى نشوب صراع طبقي–اجتماعي بين الفقراء والأغنياء غذته الدوافع الدينية، دفع سكان المغرب القديم إلى اعتناق المسيحية.

7–ساعدت مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والروحية على انتشار وتوغل العقيدة المسيحية في المغرب القديم، رغم ما اعترض سبيلها من مصاعب وعقبات طيلة ثلاثة قرون، إلى أن اعتنق "قسطنطين" المسيحية واعتبرها ديانة رسمية للدولة الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي. وكان لتلك العوامل الأثر العميق في تقوية روح التضامن والتآزر بين أفراد الطائفة المسيحية، وفي تقوية إيمان المضطَهَدين في مواجهة الوثنيين والسلطة الرومانية.

8–تعرض المسيحيون في المغرب القديم خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد من ظهور المسيحية إلى حركة اضطهاد واسعة، كانت الأعنف في تاريخها تلك التي شنها الإمبراطور "ديوكليتيانوس" (*Dioclétianus*) (303–305م). وقد دفعه تمرد أفراد الجيش إلى إصدار القرار الإمبراطوري الأول لاضطهاد المسيحيين في 23 فيفري سنة 303م، الذي تضمن تدمير الكنائس وحرق الأناجيل وجمعها من الناس وتحريم القيام بالشعائر المسيحية. وبالرغم من استقالته إلا أن الاضطهادات استمرت حتى سنة 311م. وبلغت درجة من الحدة والعنف كادت أن تدمر الكنيسة الإفريقية بصفة جذرية.

9–تعود جذور الانشقاق في الكنيسة الإفريقية في المغرب القديم إلى بداية القرن الرابع، حينما انعقد مجمع سيرتا سنة 305م وتكرس منذ سنة 312م على إثر انعقاد مجمع قرطاجة، الذي أعلن عدم شرعية انتخاب "كايكيليانوس" (*Caecilianus*) خلفا للأسقف "مونسوريوس" (*Mensurius*) المتهم بتسليم الكتب المقدسة إلى السلطة الرومانية الوثنية أثناء "الاضطهاد الأكبر" في عهد "ديوكليتيانوس". وقد ظل الدوناتيون يصفون أعدائهم الكاثوليك بكنيسة "المتخاذلين" وكانوا ينعتونهم أيضا بحزب "كايكيليانوس" (*Pars*

Caeciliani)، ولم ينعتوهم أبدا "بالكنيسة الكاثوليكية" لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أصحابها الحقيقيون.

10–وضع قرار "ليكينيوس" (*Licinius*) سنة 311م حدا للاضطهادات ورفع السيف عن رقاب النصارى. ولما حدث الانشقاق سنة 312م وانقسمت الكنيسة الإفريقية، وقفت السلطة الرومانية إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية التي اعتبرتها الكنيسة الحقيقية ضد الكنيسة المنشقة "الدوناتية"، فازداد العداء لتلك السلطة. والذي أتبعه تحول غير منتظر لوضعية الكنيسة، بعد اعتناق الإمبراطور "قسطنطين" (*Constantin*) للمسيحية سنة 313م، وجعل من الكنيسة المضطهدة كنيسة محمية بقوة القانون ثم حليفة للدولة.

11–أعطى "بارمنيانوس" (*Parmenianus*) الزعيم الدوناتي نفسا جديدا للحركة الدوناتية بعد انتخابه أسقفا لكنيسة قرطاجة وكبير الأساقفة الدوناتيين في سنة 355م بعد وفاة "دوناتوس الأكبر".وقد تمكن من إعادة بناء الكنيسة الدوناتية وأعاد لها قوتها بعد أن ترأسها مدة تناهز سبع وثلاثين (37) سنة.

12–أمعنت السلطة الزمنية في سن القوانين وتسليط العقوبات على المنشقين الدوناتيين، والمخالفين منهم للقوانين. ووضعت سلما للعقوبات حسب ظروف المتهمين ومراتبهم الاجتماعية. فتعرض الأساقفة ورجال الدين للنفي والإبعاد والتغريم والعزل في مقاطعات نائية. أما العبيد والمعمرين فتعرضوا إلى العقاب الجسدي من طرف أسيادهم، وحتى المحافظون الإمبراطوريون تعرضوا لعقوبات مالية إذا لم يسهروا على تطبيق القوانين أو التبليغ عن المتهمين.

13–فشلت الأساليب والسياسات التي انتهجتها الإمبراطورية الرومانية على مدار ثمانين سنة (312–392م) للقضاء على الدوناتية، وتفاقمت الأوضاع في نهاية القرن الرابع الميلادي بتحالف الدوناتية مع ثورة الريفيين وثورات القرن الرابع الأخرى، فاتجهت

السلطة الزمنية إلى استخدام وسيلة أخرى علها تتمكن من القضاء على جذور الحركة، وهي وسيلة الاختراق والتصفية وإحداث الانشقاق الداخلي، فعملت على تشجيع عديد الانشقاقات داخل الكنيسة المنشقة فظهر الماكسيميانيون والروغاتيون والكلوديانيون.

14-ترتبط ظاهرة الاستشهاد بظاهرة أخرى لها مكانتها وأهميتها عند الدوناتيين، وهي تبجيل الشهداء وتقديس رفاتهم، وإقامة الأضرحة لهم في الكنائس. والحقيقة أن هذه الظاهرة لم تقتصر على الدوناتيين فقط، بل كانت ظاهرة عامة متفشية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية عرفت انتشارا واسعا ابتداء من القرن الرابع الميلادي. حيث اتجه معظم الناس إلى التسابق حول امتلاك رفات الشهداء، والحصول على قبور قرب أضرحتهم. واتخذت تلك الظاهرة صبغة مقاومة سياسية وحضارية للوجود الروماني في المغرب القديم.

15-توسعت رقعة الحركة الدوناتية وتعددت فروعها وتشعبت في البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية والموريطانيتين. واستفادت من ظروف تلك الفترة ووقفت الند للند ضد الكاثوليكية في كل مناطق المغرب القديم. لكنها انفردت بالسيطرة على نوميديا، فقد اكتسحت وملكت قلوب الناس في المراكز الحضرية الكبرى مثل مدينة هيبون (*Hippone*) "عنابة" ومدينة بغاي معقل الدوناتية، إلى درجة أن الأسقف الدوناتي لا يجد خصوما في بعض المناطق. وظلت الحركة الدوناتية قوية متماسكة، وقفت في وجه الكنيسة الكاثوليكية الرسمية المدعمة من السلطة الرومانية، محبطة كل سياساتها ووسائلها التي تهدف إلى القضاء على الحركة.

16-كانت مواقف الكنيسة الدوناتية مواقف بعيدة عن التعصب والتطرف تجاه السلطة الزمنية، أو حيال مبادئها الأساسية، لذلك نراها تتخلى عن أهم هذه المبادئ والتي تتعلق بإعادة التعميد كي تكسب رضا المعتنقين الجدد، وتتجنب المواجهة مع الكنيسة

الكاثوليكية أو الدولة. في حين انتهج الدوارون طريق العنف والتهديد والسطو لحماية المظلومين من الطبقة المستغلة باسم "القديسين" وتحت شعار الكنيسة الدوناتية نفسها.

17–تشكل حركة الدوارين –رغم انتمائها إلى الكنيسة الدوناتية–حركة مستقلة لها أهدافها ومبادئها وتنظيمها وغاياتها الخاصة، عكس ما ذهبت إليه الكتابات الكاثوليكية التي تعتبر الدوارين دائما عساكر الدوناتية ورؤوس رماحها. وعلى هذا، يمكن القول أن العلاقات بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية كانت – قبل سنة 347م–تتسم بنوع من الاستقلالية وبعيدة عما يمكن أن نصفه بالتحالف. إلا أن أحداث بغاي سنة 347م كانت منعرجا حاسما دفعت بالحركتين إلى التحالف لمواجهة الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية.

18–كانت نوميديا مهد الدوناتية وقلعتها الحصينة منذ نشأة الحركة حتى نهايتها. وقد ظلت الأرياف الحصن الحصين للكنيسة المنشقة. فلا غرابة إذن أن تكون مقاومة البعثات الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم من المغرب القديم دون غيره. لذلك كانت نوميديا نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدوارون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية.

19–تظافرت عدة عوامل دفعت الدوارين إلى مناهضة السلطة الزمنية، والذين كانوا يرون في مقاومتهم تلك حربا مقدسة ضد الكاثوليك من جانب، وحربا اجتماعية ضد الأسياد والملاك الذين يشخصون الوجود الروماني من جانب آخر. وكأن الدوارون بتدخلهم في الصراع الديني بين الدوناتية والكاثوليكية لم يكن دفاعا عن كنيسة "دوناتوس" ولا ضد الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما كان مناهضا للسلطة الرومانية التي كانت تمثل بالنسبة لهم جهازا قمعيا يسعى للحفاظ على الأوضاع القائمة.

20-ولد الصراع بين الدوناتيين والكاثوليك حركة جدل فقهي مست قضايا كثيرة منها: قضية التعميد أو إعادته، والاستشهاد أو الانتحار الإرادي. وكانت صحة التعميد مرتبطة بقداسة خادم السر أو المعمد *Minister*. وكان الكاثوليك يرون أنه إذا كان "أوبطاتوس الجيلدوني" والدوارون وأمثالهم يملكون قدرة التعميد، فأين "قداستهم" وهم يرتكبون أشنع الجرائم؟ لذا كان معظم الأساقفة الدوناتيون يستنكفون عن تصرفات الدوارين، حتى لا يحرجوا في مجادلاتهم الفقهية مع الكاثوليك من جهة، وحفاظا على مصالح الحركة الدوناتية تفاديا لانتقام السلطة الرومانية منهم من جهة ثانية.

21-ساعدت مجموعة من الظروف والعوامل على تمرد "فيرموس" وقيادة ثورة شاملة هددت الوجود الروماني بمقاطعة موريطانيا القيصرية. ورغم أن عائلة "نوبل" الملكية كانت تابعة تاريخيا إلى الرومان تبعية صدق ووفاء، إلا أن ثورتي الأخوين "فيرموس" *Firmus* و"جيلدون" *Gildon* تحولت من ثورات اجتماعية إلى حركات ذات مطالب تحررية دينية بعد تحالفها مع الدوناتيين والدوارين، في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية الرسمية وحليفتها السلطة الزمنية لتقويض أركان الاستعمار الروماني في المغرب القديم.

22-انتشرت ظاهرة الخيانة -وهي ظاهرة غريبة في تاريخ شمال إفريقيا القديم-بين صفوف القادة والملوك الموريين مثل: "فيرموس" و"جيلدون" و"ماكزيزل" و"سماك" وغيرهم. إلا أن هناك من استفاق وعاد إلى وعيه ليشعل نار الحرب ضد الغزاة الرومان، وهناك من تمادى في غيه وخيانته لوطنه حفاظا على مصالحه وامتيازاته فكان مصيره مثل سابقيه.

23-تعد مناظرة قرطاجة حدثا بارزا في تاريخ المسيحية بالمغرب القديم، رغم أن الدوناتيين لم يكونوا متحمسين لها، وهم الذين مروا بتجارب عديدة سابقة تعاملوا فيها مع الكاثوليك ومع السلطة الزمنية، التي أصدرت في حقهم قوانين ومراسيم جائرة. وكانوا

يعلمون أن المحافظ الذي سيترأس هذه المناظرة كاثوليكي، ومع ذلك قرروا خوض المغامرة، خاصة بعد أن طمأنهم محافظ المناظرة "ماركيلينوس" (*Marcellinus*) بأن يكون نزيها. وأسفرت المناظرة عن صدور مرسوم حظر وإلغاء الدوناتية رسميا في 26 جوان سنة 411م ونشر هذا المرسوم في قرطاجة.

24-اعتقد الكاثوليك أن الدوناتية اختفت من التاريخ، منذ أن وقع مستشار الإمبراطور "هونوريوس" (*Honorius*) شهادة وفاة الدوناتية على إثر مناظرة قرطاجة سنة411م، لقد قدر للدوناتية أن تكون محظورة ومطاردة من طرف الكاثوليك والهراطقة والوثنيين، ثم من طرف الوندال الأريوسيين، وأخيرا من طرف البيزنطيين. ومع ذلك قاومت الدوناتية كل هذه الطوائف وأثبتت وجودها حتى أواخر القرن الخامس الميلادي.

الملاحق

الملحق رقم 1: عدد الاضطهادات من خلال المصادر القديمة:

المؤرخون / الأباطرة	لاكتانتيوس *Lactantius* 325−250م	أوزبيوس *Eusebius* 338−270م	القديس جيروم *St. Jérôme* 420−331م	سولبيس سيفير *S. Sulpice* 429−363م	بول أوروسيوس *P. Orosius* 418−385م	أوغسطين *St. Augustin* 430−354م
نيرون	+	+	+	+	+	+
فسباسيانوس						
دومتيانوس	+	+	+	+	+	+
تراجانوس			+	+	+	+
هدريانوس						
ماركوس أوريليوس		+	+	+	+	+
سبتيموس سفيروس		+	+	+	+	+
ماكسيمين الطراقي		+	+		+	+
دكيوس	+	+	+	+	+	+
فالريانوس	+		+	+	+	+
أوريليانوس	+		+		+	+

ديوكليتيانوس- ماكسيميانوس	+	+	+	+	+	+
ليكينيوس		+				
ستيليكون						؟
المجموع:	6	8	10	9	10	10

نقلا عن: -*Anne Daguet- Gagey, Septime Sévère, un empereur persécuteur des chrétiens,* Rev.E. Aug.*, n° 47, 2001, (pp. 3-32), pp. 30-31.*

الملحق رقم 2:

جدول كرونولوجي للمجامع الكنسية الكاثوليكية والدوناتية (305-596م).

تاريخ الانعقاد	المكان	نوع المجمع (دوناتي كاثوليكي)
5 مارس 305م	اجتماع سيرتا الأسقفي	
312م	مجمع المنشقين في قرطاجة	المنشقين
2 أكتوبر 313م	مجمع روما	كاثوليكي
1 أوت 314م	مجمع آرل	كاثوليكي
حوالي 336م	مجمع 270 أسقف بقرطاجة	دوناتي
حوالي 340م	مجمع مقاطعة نوميديا	دوناتي
حوالي 341م	مجمع مقاطعة نوميديا	دوناتي
حوالي 343م	مجمع سردينيا يراسل دوناتوس قرطاجة	نصف – أريوسي
347م	مجمع مقاطعة نوميديا	دوناتي
347م أو 348م	مجمع مقاطعات: بيزاكينا، نوميديا، وموريطانيا	كاثوليكي
حوالي 348م	مجمع قرطاجة بقيادة غراتوس	كاثوليكي
حوالي 362م	مجمع إقليمي–تفست (تبسة)	دوناتي
378م	مجمع روماني يوجه شكوى ضد أسقف روما الدوناتي	كاثوليكي
حوالي 380م	مجمع إدانة تيكونيوس Tyconius	دوناتي
6 جانفي 386م	مجمع روما	كاثوليكي
قبل 392م	مجمع المنشقين (إعادة تعميد كل الكاثوليك المهتدين)	دوناتي
392م	مجمع قرطاجة	ماكسيمياني
24 جوان 393م	مجمع كابرسوسة	ماكسيمياني
8 أكتوبر 393م	مجمع هيبون (عنابة)	كاثوليكي
24 أفريل 394م	مجمع بغاي	بريمياني
حوالي 396م	مجمع قسنطينة	بريمياني
حوالي 397م	مجمع ميلاف (ميلة)	بريمياني
397م	مجمع تاموقادي (تيمقاد)	بريمياني

28 أوت 397م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
27 أفريل 399م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
16 جوان 401م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
صيف 401م	مجمع روما	كاثوليكي
13 سبتمبر 401م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
27 أوت 402م	مجمع ميلاف (ميلة)	كاثوليكي
25 أوت 403م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
نهاية سنة 403م	مجمع المنشقين يرفض دعوة عقد مؤتمر	بريمياني
16 جوان 404م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
23 أوت 405م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
13 جوان 407م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
16 جوان 408م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
13 كتوبر 408م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
14 جوان 410م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
25 ماي-7جوان 411م	مجمع قرطاجة لتحضير المؤتمر	كاثوليكي
25 ماي-7جوان 411م	مجمع المنشقين بقرطاجة لتحضير المؤتمر	بريمياني
01-08 جوان 411م	مؤتمر قرطاجة بين الكاثوليك والدوناتيين	مناظرة بين الطرفين
14 جوان 412م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
24 فيفري 418م	مجمع بيزاكينا	كاثوليكي
01 ماي 418م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
418م أو 419م	مجمع نوميديا	دوناتي
25 ماي 419م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي
حوالي 422م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
446م	مجمع قيصرية	كاثوليكي
590م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
591م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
592م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
593م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
594م	مجمع قرطاجة	كاثوليكي

594م	مجمع نوميديا	كاثوليكي
596م	مجمع نوميديا	كاثوليكي

- Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.322- 323 ; Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme…, p. 199.

الملحق رقم 3 (أ):

لائحة القوانين الصادرة ضد الدوناتية في عهد ثيودوسيوس:*Theodosius* (379-395م.)

تاريخ صدور القانون	المضمون
3 أوت 379م	مرسوم إمبراطوري يحظر كل البدع والنحل، ويمنع المنشقين من عقد الاجتماعات والتبشير وإعادة التعميد.
27 فيفري 380م	أمر إمبراطوري يدعو كل رعايا الإمبراطورية إلى الكاثوليكية وتهديد المتمردين والعصاة.
30 جويلية 381م	مرسوم إمبراطوري يصادر كل كنائس المنشقين لصالح الكاثوليك.
19 جانفي 386م	قانون يمنع تبادل رسائل القدح والهجاء.
23 جانفي 386م	يحكم بالإعدام عل كل المتهمين بجريمة المساس بالذات الملكية.
16 جوان 388م	مرسوم يمنع الحديث عن العقيدة في الأماكن العامة، ويحكم بالإعدام على كل المخالفين.
6 نوفمبر 389م	حظر الاجتماعات عل كل المنشقين.
19 ماي 391م	مرسوم إمبراطوري يؤكد مرسوم 389م.
15 جوان 392م	مرسوم إمبراطوري يفرض غرامة مالية تقدر بعشرة (10) ليرات ذهبية على رجال الدين المنشقين وعلى كل من يعقد اجتماعات محظورة، ومصادرة المنازل والأماكن التي تنعقد بها.
18 جويلية 392م	مرسوم يفرض عقوبة النفي ضد كل من يخل بأمن الكنيسة الكاثوليكية.
15 أفريل 394م	مرسوم إمبراطوري يمنع المنشقين عن سيامة الأساقفة. Ordination
9 جويلية 394م	مرسوم إمبراطوري يمنع الاجتماعات والدعاية وسيامة الأساقفة.

<u>مصدر القوانين:</u>

- Cod. Theod., XVI, 5, 5 ; 1, 2 ; 1, 3 ; 34, 9 ; 5, 20 ; 4, 3 ; 5, 22 ; 5, 24 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 50, 55.

الملحق رقم 3 (ب):

لائحة القوانين الصادرة ضد الدوناتية في عهد هونوريوس: *Honorius* (395-423م)

تاريخ صدور القانون	المضمون
13 مارس 395م	قانون أصدره "أركاديوس" و"هنوريوس" يؤكد على القوانين التي صدرت ضد الهراطقة وأصحاب البدع.
23 مارس 395م	قانون هونوريوس موجه إلى "هياريوس" (Hierius) كاهن إفريقيا يؤكد فيه الإمتيازات الممنوحة إلى الكنيسة الكاثوليكية ويضمن حمايتها من أصحاب البدع والمنشقين.
30 مارس 395م	قانون إمبراطوري يمنع على المنشقين عقد الاجتماعات، وعدم إحياء أية عبادة عامة أو خاصة.
3 سبتمبر 395م	مرسوم إمبراطوري يصنف كل من لا يعتنق المذهب الكاثوليكي ضمن فئة الهراطقة وأصحاب البدع.
13 مارس 398م	قانون إمبراطوري يمنع على"المفترين" (Calumniatoribus) إزعاج الأبرياء ويخص متابعة أنصار جيلدون.
25 جوان 399م	مرسوم إمبراطوري موجه إلى "سابيديانوس" (Sapidianus) كاهن إفريقيا، يؤكد الامتيازات الممنوحة سابقا إلى الكاثوليك ويهدد بفرض غرامة مالية على الهراطقة والمنشقين المخالفين لهذا القانون.
29 جانفي 404م	قانون يمنع الوكلاء الإمبراطوريين من التدخل أو المشاركة في اجتماعات التحريض والبلبلة (Tumultuosa Conventicula)، وإلا تعرضوا لمصادرة ممتلكاتهم.
11 سبتمبر 404م	أمر إمبراطوري إلى كل الأسياد لمنع عبيدهم من المشاركة في اجتماعات محظورة وإلا تعرضوا لغرامات مالية.
18 نوفمبر 404م	أمر إمبراطوري إلى حكام المقاطعات لمنع كل الاجتماعات والجمعيات المحظورة (Conventus illiciti).
12 فيفري 405م	مرسوم الوحدة بين الكنيستين (Edictum de Unitate) وأربعة قوانين ضد الدوناتية، أحدهما يعتبرها هرطقة وبدعة.
25 فيفري 405م	قرار هونوريوس بنشر مرسوم جوليان لسنة 362م وعريضة الدوناتيين إليه في كامل إفريقيا ويهدف إلى فضح الكنيسة الدوناتية.

5 مارس 405م	قانون وجهه هونوريوس إلى "ديوتيميوس" (Diotimius) بروقنصل إفريقيا يأمره بنشر مرسوم الوحدة الصادر في 12 فيفري 405م.
8 ديسمبر 405م	قانون آخر موجه إلى نفس البروقنصل يحثه فيه على ضرورة تطبيق القوانين ضد الدوناتية.
15 نوفمبر 407م	قانون هونوريوس ضد الدوناتية موجه إلى البروقنصل "بورفيريوس" (Porphyrius) وقانون آخر ضد دوناتيي روما "الجبليين-.Montenses".
24 نوفمبر 408م	قانون آخر ضد الدوناتية موجه إلى "دوناتوس" (Donatus) بروقنصل إفريقيا آنذاك.
27 نوفمبر 408م	قانون آخر ضد الهراطقة وأصحاب البدع في إفريقيا.
13 جانفي 409م	قانون ضد الدوناتية.
15 جانفي 409م	قانون آخر ضد الدوناتية.
بداية سنة 410م	مرسوم إمبراطوري يدعو إلى التسامح مع الدوناتيين، موجه إلى "هيراكليانوس" (Heraclianus) كونت إفريقيا.
25 أوت 410م	قانون إمبراطوري موجه إلى كونت إفريقيا السابق، يلغي مرسوم التسامح.
14 أكتوبر 410م	مرسوم هونوريوس يأمر فيه "ماركلينوس" (Marcellinus) بتنظيم ورئاسة مناظرة بين ممثلي الكنيستين الإفريقيتين.
30 جانفي 412م	مرسوم الوحدة الإمبراطوري بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية.
17 جوان 414م	قانون ضد الدوناتيين موجه إلى "يوليانوس" (Iulianus) بروقنصل إفريقيا.
30 أوت 414م	قانون هونوريوس" موجه إلى البروقنصل "يوليانوس" يؤكد أن إدانة "ماركيلينوس" لا تغير شيئا من الإجراءات السابقة ضد الدوناتية.

مصدر القوانين:

- Cod. Theod., IX, 39, 3 ; XVI, 5, 25, 26, 28 ; XVI, 4, 4 ; 4, 5 ; 4, 6 ; 2, 29 ; 2, 34 ; Monceaux (P.), H.L.A.C., IV., pp. 55- 56, 256- 262 ; Brisson (J.P.), *Autonomisme et christianisme…,* pp. 265- 266.

الملحق رقم 4: جدول العقوبات التي فرضت على الدوناتيين حسب قانوني 412م و414م:

التسلسل الطبقي (التراتب الاجتماعي)				سلم العقوبات				
قانون30/01/ 412م	قانون17/06/ 414م			قانون 412م			قانون 412م	
				ليرة ذهبية	ليرة فضية	القيمة ف. ف. ق.	ليرة فضية	ف. ف. ق.*
- المشاهير *Inlustres*	المحترمون (المبجلون)	المحترمون (درجة أولى)	- القناصلة	50		280.000	200	80.000
- الأشراف *Spectabiles*			- البدلاء	40		225.000	200	80.000
- السيناتوريون *Senatores*				30		170.000	100	40.000
- اللامعون *Clarissimi*		بقية المحترمين		20		112.000		
- أعيان الأقاليم *Sacerdotales*			-السيناتور	30		170.000	100	40.000
- أعيان المدن *Principales*			-الكاهن	20		112.000	50	20.000
- الكورياليون** *Decuriones*			- الكورياليون العشر الأوائل	5		28.000	10	4.000
			- بقية الكورياليين					
- التجار *Negotiatores*				5		28.000		
- عامة المدن *Plebei*				5	10	28.000		

- الدوارون *Circoncellions* - العبيد *Servi* – المزارعون *Coloni*			عقوبة إنذار الأسياد		4.000	عقوبة الجلد بالسوط	
		- العبيد – المزارعون					

*– ف.ف.ق = فرنك فرنسي قديم.

**– الكورياليون (*Decuriones*) = أعيان المجالس البلدية.

<u>نقلا عن:</u> *-Saumagne (Ch.), « Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? les circoncellions d'Afrique », <u>A.H.E.S.</u>, t.VI, n° 28, 1934, p. 357.*

الملحق رقم 5: أهم النصوص اللاتينية وترجمتها الى العربية:

النص الأول: من كتاب أوغسطين" الرد على رسالتي بتيليانوس" أسقف سيرتا في حوالي سنة 400م.

Aug., Contra Litteras Petiliani, II, XLIX, 114 :

«.... Duae surit maximae uilcs atque usitatae mortes eorum qui se ipsos interimunt, laqueus et praecipïtium. Tu certe dixisti in primis partibus huins epistulae «laqueo traditor periit, laqueurn (alibus dereliquit.» bac ad nos omnino non pertinet ; nequc cnirn ueneramur nomino maryrum eos qui sibi collum ligaucrunt. Quanta autem nos prohabilius in uos dicimus «magister traditoris diabolus praecipitium Christo suadere uoluit et repulsus est !» quid ergo dicendi sunt quibus hoc suasit et auditus est ? Quid enim nisi ininilci Christi, arnici autem diaboli, discipuli seduetoris condiseipuli traditoris ? spontaneas enirn mortes ah uno rnagistro utrique didicerurt, ille laqueum, isti praecipitium».

ترجمة النص: « ...هناك وسيلتان للموت منحطتان جدا يستعملهما المنتحرون: الحبل والجرف. والحال أنك أنت (يخاطب بتيليانوس) قلت في رسالتك هذه: " الحبل قضى على حياة المتخاذل، وقد ترك حبله لأمثاله". هذا شيء لا يتعلق بنا بتاتا، فنحن لا نقدس الذين شنقوا أنفسهم على أنهم شهداء. فكم نحن على صواب عندما نقول لكم: إن سيد " المتخاذل" (الشيطان) أراد أن يوسوس إلى المسيح بالارتماء من أعلى، ولكنه رد على أعقابه! فكيف ننعت أولئك الذين وسوس إليهم ونجح معهم الشيطان؟ إن لم يكونوا أعداء المسيح وأصدقاء الشيطان؟ إن انتحارهم هذا: لقنهم إياه معلم واحد: الشنق له (أي ليهوذا)، والجرف لهم (أي للدوارين). »

النص الثاني: من كتاب أوغسطين" الرد على رسالتي بتيليانوس" أسقف سيرتا.

Aug., Contra Litteras Petiliani , II, LXXXVIII, 195.
« … Augustinus respondit «Cur ergo tali uoce non compescitis arma circumcellionum ? an praeter evangelium uos loqui arbitremini, si dixeritis «qui fuste usus fuerit, fuse morietu date ergo ueniam, quia nec illos. a quibus marculum praecipitatum esse querimini, potuerint prohibere majores nostri. » neque enim scriptum est in evangelio «qui aliquem praecipitauerit, praecipitio morietur». atque utinam, sicut illa uel transacta sunt, sic istorum ligna cessarent ! quamquam fortasse irascimini, quod legionibus uestris esti non legibus, saltem uerbis subtrahimus armaturam, quia ea solis saeuire fustibus dicimus. Uetus quippe ista eorum militia fuit, nunc autem nimium profecerunt. Nam inter uinulenta conuiuia et cum feminis maritos non habentibus liberam comitandi uagandi iocandi bibendi pernoctandi licentiam non solum fustes tornare, sed etiam ferrum uibrare et fundas circumagere didicerunt, SED cur eis non dicani - quo animo dicam et quo illi accipiant nouerit. Deus : «insani, gladius Petri quamuis adhuc carnali motu animi, tamen pro christi corpore in corpus persecutoris exertus est. »

ترجمة النص: «... أجاب أوغسطينوس:« لماذا لا تهدأون بهذا الكلام فرق الدوارين؟ هل تنوون تحريف الإنجيل وتقولون: " كل الذين يأخذون الهراوة يهلكون" فلتسامحونا إذن لأن أسلافنا لم يقدروا على منع أولئك الذين رموا " ماركولوس" *Marculus* من المرتفع. وهذا ما تعيبونه علينا، لأنه غير مكتوب في الإنجيل أيضا: "كل الذين يرمون الغير من أعلى يرمى بهم من أعلى". هذه الأحداث التي تعيبونها علينا ملفقة أو قديمة، ليت هراواتكم هي الأخرى توقفت عن الضرب. قد يغيظكم أن ننزع من فيالقكم أسلحتهم، تلك الهراوات التي كانوا يستعملونها في هجماتهم. أما الآن، فخلال سكرهم وصحبة نساء غير متزوجات يشهرن السيوف والمقاليع. بأي شعور أخاطبكم وبأي شعور يستمعون إلي: " أيها الحمقى، إن بطرس لما استل سيفه، فعل ذلك كان مدفوعا بشعور بشري حقا، ولكن فعلته كانت دفاعا عن جسد المسيح وضد جسد أحد المضطهدين".

<u>النص الثالث</u>: من كتاب أوغسطين" الرد على رسالتي بتيليانوس" أسقف سيرتا.

Aug., Contra Litteras Petiliani, II, XCI, 201.

«...Itane uero uos accepta alapa praebetis alteram rnaxillam ? non istam uobis famam furiosa uestra agmina per totam Africam curn terribili turpitudine passin uagantia compararunt. utinam uobiscum paciscerentur homines, ut saltem secundum ueterum legem oculum pro oculo, dentem pro dente peteretis, non pro auditis uerbis fustes erigeretis. »

<u>ترجمة النص</u>: « ... هل حقا تقدمون الخد الآخر بعد اللطمة الأولى؟ أهذه هي شهرتكم التي أكسبتكم إياها عصاباتكم المجنونة؟ تلك العصابات التي تجول في كافة مناطق إفريقيا. ألا يمكن أن نتوصل معكم إلى اتفاق لتطبيق القانون، ولا تطلبوا بعدها إلا القصاص: العين بالعين، والسن بالسن، ولا تشهروا هراواتكم في وجوهنا.»

<u>النص الرابع</u>: مقتطف من الرسالة التي بعث بها أوغسطين إلى "بونيفاس" كونت افريقيا في حوالي سنة 417م:

Aug., Ep. CLXXXV, IV, 15.
«... Quis eos, qui eorum caedibus extincti sunt, vindicare temptavit, nisi quod propria de illie poenas poscabat insania, cum alti provacandis in se gladiis hominum, quos, ut ah eis ferirentur, morte terrebant. Alii per uaria praecipitia, alii per aquas, alii per ignes se in mortes voluntarias usquequaque mittebant et animas ferales a se sibi inlatis suppliciis proiciebant ?».

<u>ترجمة النص</u>: « ... من الذي حاول الانتقام لضحايا ضرباتكم، اللهم إلا جنونكم هو الذي سيعاقبكم؟ فبعضهم (الدوارين) يوجهون إلى صدورهم سيوف الغير ويهددونهم بالموت كي يضربونهم الضربة القاضية، والبعض الآخر يقضون على حياتهم بالماء والنار في كل مكان، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة كالحيوانات في عذاب حكموا به على أجسادهم. »

النص الخامس: مقتبس من كتاب أوغسطين: «الرد على غودانتيوس أسقف الدوناتيين » أسقف تيمقاد في حوالي 418م و422م:

Aug., Contra. Gaud., L, XXXV, 45.

«... Quod autem de militibus facis inuidiarm, si utique ista cura, sicut iam docuimus, in scripturis sanctis pertinere dermonstratur ad reges, per quos id acturi sunt adversus rebelles circumecelliones et insanos eorum siue participes siue principes nisi per subditos milites ?».

ترجمة النص: « ... إنك – يا غودانتيوس– تشجب تدخل الجيش لردع المنشقين، ألم يشر الكتاب المقدس الى أن تلك المهمة منوطة بالملوك؟ ترى بأي وسيلة يؤدون اذن تلك المهمة ضد الدوارين الثائرين وأنصارهم أو زعمائهم المخبولين، إذا لم يكن بهؤلاء الجنود الأوفياء؟ »

النص السادس: مقتبس من كتاب أوغسطين: «الرد على غودانتيوس أسقف الدوناتيين»

Aug., Contra Gaud., L, XXXVI, 46.

«... Unde etiam quaedam sanctimoniales uesrac grauidae per saxa se miserunt et dissilietibus uteris homicidiorum scelere etiam stuprorum scelera prodiderunt, existimantes, si hoc modo in se uindicassent, nullo lam modo uindicaturum deum. sicut et uos putatis, quac sacrilegio schismatis et haeresis uel depraedando detrumcando excaceando, postremo etiam rebaptizando catholicos et quaelibet alia potuerunt a uobis nefanda commiti, isto modo posse quo uos occiditis expiari».

ترجمة النص: «... إن بعض عذاراكم الحوامل يلقين بأنفسهن –هن أيضا–فتنفل بطونهن، ويكشف انتحارهن الإجرامي عن فسقهن. ويعتقدن بتلك الأعمال أنهن سينجين من انتقام الخالق. وتعتقدون – أي الدوارون–أن رجس الانشقاق والهرطقة، وأعمال النهب والتقتيل والتمثيل بالضحايا، سوف تكفر عن جرائمكم بمجرد الانتحار.»

النص السابع: مقتبس من كتاب أوغسطين: «الرد على غودانتيوس أسقف الدوناتيين»

Aug., Contra Gaud., I, XXXVI, 51.

«... nec res eorum a catholicis auferuntur, sed potius inquirunrur eisque multa, quantum fieri potest, correctis reddenda seruantur. sed stabunt catholici non solum adversus gentiles, a quibus veri martyres expoliati sunt, verum etiam adversus circumcelliones Donatistarum, quia et ipsi abstulerunt labores eorum. verum de his pecuniaribus laborius faci ior causa est, cum etiam illi, quorum erant, ad pacem catholicam transeunt. ecce cotidie, si quis ad nos transitum fecerit, reddimus pecuniam vestem fructus vassa rura tecta vestrorum: uos quomodo nobis reddituri estis membra nostrorum ?».

ترجمة النص: « ...الواقع أن الكاثوليك لا ينهبون ثروات الدوناتيين، بل يضعون قائمة جرد لها، ويمكن أن يردوها إليهم مضاعفة إذا عادوا إلى الطريق المستقيم. وللكاثوليك حق إقامة الدعوى لا على الوثنيين فحسب ولكن أيضا على دواري الدوناتيين، لأنهم افتكوا من الكاثوليك ثمار جهدهم. يمكن أن تحل مشكلة الثروات إذا ما التحق هؤلاء بالسلام الكاثوليكي. وإننا في كل يوم نعيد إلى الذين انضموا إلينا ملابسهم وفواكههم وأوانيهم وحقولهم وديارهم. لكنكم أنتم –الدوارين– كيف تعيدون الأعضاء التي قطعتموها من أجساد ذوينا. »

النص الثامن: قانون هونوريوس 31 جانفي سنة 411م:

Cod. Theod., XVI, 5, 52.

«Idem AA. Seleuco P(raefecto) P(raetori)o…….. . nisi ex die prolatae legis omnes donatistae, tam sacerdotes quam clerici laicique, catholicae se, a qua sacrilege descivere, reddiderint, tunc inl (ustres) singillatim poenae nomine fisco nostro auri pondo quinquagintà cogantur inferre, spectabiles auri pondo quadraginta, senatores auri pondo triginta, clarissimi auri pondo viginti, sacerdotales auri pondo triginta, principales auri pondo viginti, decuriones auri pondo quinque, negotiatores auri pondo quinque, plebei auri pondo quinque, circumcelliones argenti pondo decem. Qui nisi a condoctoribus, sub quibus conmanent, vel procuratoribus executori exigenti fuerint praesantati, ipsi teneantur ad poenam, ita ut nec domus nostrae homines ab hujuscemodi concura habeantur immunes. uxores quoque eorum maritalis segregatim multa constrigat.

Eos enim, quos nequaquam inlata damna correxerint, facultatum omnium publicatio subsequetur.

.Servos etiam dominorum admonitio, vel colonos verberum crebrior ictus a prava religione revocabit, ni malunt ipsi ad praedicta ictus a prava religione revocabit, ni malunt ipsi ad praedicta dispendia, etiam si sunt catholici, retineri...Dat. III Kal. Feb. R(a)v(ennae) Honor(io) IX et Theod (sio) V AA. Conss (30 Janvier 412)».

ترجمة النص: « ...من الامبراطور "هونوريوس" والامبراطور "ثيودوسيوس الثاني" إلى "سلوكس" الوكيل على الولايات... اعتبارا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين – سواء منهم الأساقفة أو القساوسة أو العامة– بالكنيسة الكاثوليكية التي انشقوا عنها، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا وذلك حسب ما يأتي: "المشاهير" *Inlustres*: 50 رطلا من الذهب، "الأشراف" *Spectabiles*: 40 رطلا من الذهب، "السيناتوريون" *Senatores*: 30 رطلا من الذهب، "اللامعون" *Clarissimi*: 20 رطلا من الذهب، "أعيان الإقليم" *Sacerdotales:* 30 رطلا من الذهب، "أعيان المدن *Principales*: 20 رطلا من الذهب، "أعيان المجالس البلدية" *Decuriones*: 5 أرطال من الذهب، "التجار" *Negotiatores*" : 5 أرطال من الذهب، "عامة المدن" *plebei*: 5 أرطال من الذهب، "الدوارون " *Circumcelliones*: 10 أرطال(*) من الفضة. وفي حالة ما إذا لم يقدم "الأكارون" *Conductores* الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "وكلاء الإمبراطور" *Procuratores* إلى "المكلف بتنفيذ القانون" (*Executor*) كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها، بحيث لا يعفى منها حتى أهل البيت ولتخضع النساء للغرامة الزوجية على انفراد. وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه–إلى مصادرة ممتلكاته، أما العبيد (*Serve*) الرافضون لتنفيذ هذا القانون فيودعون السجن، وأما المزارعون (*Coloni*) فيتعرضون للجلد، ويمكن لأسيادهم أن يقوموا بتسديد الغرامات المفروضة عليهم، حتى ولو كانوا كاثوليك. صدر بـ "رافينا" في اليوم الثالث من غرة فبراير تحت قنصلية "هونوريوس" للمرة التاسعة وثيودوسيوس للمرة الخامسة (30 يناير 412م).»

** – يقدر "صوماني" قيمة الغرامة المفروضة على الدوارين (10 أرطال من الفضة) بحوالي 40000 فرنك فرنسي في سنة 1934م (تاريخ نشر مقاله)، وقيمة الغرامة المالية المفروضة على عوام المدن Plebei (5 أرطال من الذهب) بحوالي 28000 فرنك فرنسي، أنظر جدوله:* *-Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les Circoncellions d'Afrique, A.H.E.S., T.VI, n° 28, 1934, (pp.351-364), p. 357.*

الببليوغرافيا

أولا–المصادر :

أ –المصادر العربية:

1. القرآن الكريم، ط 2، دار الأصالة للثقافة، الجزائر، 2008.
2. الكتاب المقدس، (العهد القديم والعهد الجديد)، ط 3، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، القاهرة، 2005.
3. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1982م.
4. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد نصر، دار الجيل، بيروت، 1985م.
5. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط2، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
6. ابن كثير، البداية والنهاية، وضع حواشيه أحمد ملحم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
7. ابن النديم، الفهرست، تحقيق ناهد عباس ط1، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، 1985.
8. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
9. أوغسطين، اعترافات القديس أغسطينوس، تر. الخوري يوحنا، ط 4، دار المشرق،بيروت،1991.
10. البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
11. ترتوليانوس، المنافحة أو دفاع عن التوحيد، ترجمة عمار الجلاصي، منشورات توالت، 2001.
12. الشهرستاني، الملل والنحل، تح. سيد كيلاني، ج1، دار الجيل، بيروت، 1986م.
13. كوريبوس، ملحمة الحرب الليبية–الرومانية، ترجمة محمد الطاهر الجراري، طرابلس، 1988.
14. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت.
15. المقريزي، الخطط المقريزية، تح. خليل المنصور، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
16. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط6، دار صادر، بيروت، 1995م.
17. هيرودوت، هيرودوت يتحدث عن مصر، تر. محمد صقر خفاجة، دار القلم، القاهرة، 1966.
18. هيرودوت، نصوص ليبية، ترجمة علي فهمي خشيم، دار مصراتة،1967.

ب–المصادر الأجنبية : Sources

1. *Actes de la conférence de Carthage en 411*, édit. de Serge Lancel, Tome I, III, Paris, Sources chrétiennes, n°195, 1972-1975.
2. Aelius Spartianus, *Histoire Auguste*, trad. Par M.Fl. Legay, C.L.F. Panckoucke, Paris, 1844.
3. Ammien Marcellin, *Histoires*, 3 tomes, imprimerie Jean-Marie Bruyset, Lyon, 1778.

4. Appien, *Histoire romaine*, Lib. 130, trad. Par H. White, London, 1912- 1928.
5. Apulée, *Apologie*, Trad. Par Victor Bétolaud, Garnier Frères, Paris, 1836.
6. Apulée, *Métamorphose*, trad. Par V. Bétoloud, Collection Nisard, Paris, 1836.
7. Arnobe, *Adversus nationes*, édit. Rief. Atrschied, (Corpus de Vienne), 1875.
8. Athénagoras, *Apologie des chrétiens*, trad. par M. de Genoude, A. Royer éditeurs, Paris, 1843.
9. Augustin (St.), *la cité de dieu*, Trad. Par Pierre Lombert, t.1-2, A. Bourges, Paris, 1818.
10. Augustin (St.), *les Confessions*, trad. par Joseph Trabucco, G.F. Flammarion, Paris, 1964.
11. Augustin (St.), *Lettres*, trad. par M. Poujoulat, Paris, 1858.
12. Aurélius Victor, *Epitomé*, trad. M. N. A. Dubois, C. Panckoucke, Paris, 1846.
13. Aurélius Victor, *Vies des empereurs Romains*, par M.N. Dubois, C.L.E. Panckoucke, Paris, 1816.
14. Cicéron, *Œuvres complètes*, (Verrines), Firmin Didot, Paris, 1869.
15. Claudien, *Eloge de Stilicon*, par M M. Héguin de Guerle, t.2, C.L.F. Panckoucke, Paris, 1833.
16. Claudien, *Guerre de Gildon*, trad. V.Crepin, Paris, 1933.
17. Corippus, *Johannide*, trad. Alix, édi. R.T., 1899, (pp. 31-39).
18. Cornélius Népos, *Amilcar*, Trad. de M. Kermoysan, édition Nisard, Paris, 1841.
19. Corpus Inscriptionum Latinarum VIII, Inscriptiones Africae Latinae, Indices, Berlin 1942-1959.
20. Cyprien (St.), *Lettres*, Trad.par L.Bayard, les Belles Lettres, Paris, 1923-1933.
21. Denys d'Halicarnasse, *les Antiquités Romaines*, livre. II, (les Vestales), trad. Par Philippe Remacle, Philippe Nicolas-Lottin, Paris, 1827.
22. Diodore de Sicile, *Bibliothèque Historique*, trad.par Ferd. Hoefer, 2e édit., Hachette, Paris, 1865.
23. Dion Cassius, *Histoire Romaine*, Trad. par .E. Gros, librairie Firmin didot, Paris, 1867.
24. Eusèbe, de Césarée, *Histoire de la vie de Constantin*, Trad. par cousin, T.I, Damien Foucault, Paris, 1687.
25. Evagrius, *Histoire ecclésiastique*, J. B. e. L.Parmentier. Londres. (1898).
26. Firmicus Maternus (J.), *De l'erreur des religions Profanes*, société du panthéon Littéraire, Paris, 1843.
27. Grégoire de Tours, *Histoire des Francs*, par M. Guizot, J. Brière, Paris, 1824.
28. Hérodien, *Histoire Romaine de Marc Aurèle à Gordien*, trad. Denis Roques, Les Belles Lettres, Paris, 1990.

29. Hérodien, *Histoire Romaine*, trad. par Léon Halévy, Librairie Firmin Didot, 1860.
30. Hérodote, *Histoire d'Hérodote*, trad. de Larcher, revue et corrigée par Emille Pessonneaux, charpentier et C[ie], Paris, 1870.
31. Hésiode, *Histoire de la littérature Grecque*, par Piérron Alexis, Hachette, Paris, 1875.
32. Homère, *Odyssée*, trad. Par Eugène Bareste, Lavigne librairie, Paris, 1842.
33. Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, t. II, trad. De Slane, librairie orientaliste Paul Gruthner, Paris, 1927.
34. Julien l'apostat, *Œuvres Complètes de l'empereur Julien*, par Eugène Talbot, Epitres, Henri Plon, Paris, 1863.
35. Justin (St.), *Apologies*, trad. par Louis Pautigny, Alfonse Picard éd., Paris, 1904,
36. Justin, *Histoire universelle*, trad. par C.A. Boifard, Paris, 1833.
37. Lactantius (L. C. F.), *De Mortibus Persecutorum*, in R.Q.H., t. LXXIV, 1903.
38. Macrobe, *Saturnales*, trad. M. Nisard, Firmin Didot, I, Paris, 1875.
39. Maxime de Tyr, *Dissertations*, VIII, Bossange Masson et Besson, Paris, 1802.
40. Maxime Valère, *Œuvres* (2vol.), textes établi et trad. Par constant, édi. du panthéon Littéraire, Paris, 1841.
41. Minucius Félix, *Octavius*, société du panthéon Littéraire, Paris, 1843.
42. Nicolas de Damas, *Fragm. Hist. Graec.*, Par littré, librairie Richelieu, Paris, 1865.
43. Optat de Milev, *de schismate donatistarum,* édition C. Ziwsa, C.S.E.L., t. XXVI, Vienne, 1893.
44. Orosius (P.), *Historiae Adversus Paganos*, dans la géographie d'Orose, par Y. Janvier, Paris, 1982.
45. Pline l'Ancien, *Histoire Naturelle*, Trad. Par Jehan Desanges, les Belles lettres, Paris, 1980.
46. Pline le jeune, *Lettres*, trad. de M. Nisard, III, Firmin Didot, Paris, 1865.
47. Polybe, *Histoire Romaine*, trad. Félix Bouchot, charpentier libraire éditeur, Paris, 1847.
48. Plutarque, *De Viris illusteibus* (Vies des hommes illustres), trad. par Gérard Walter, édition Gallimard, Paris, 1951.
49. Plutarque, *Œuvres morales*, traité d'Isis et d'Osiris, trad. D. Richard, Lefèvre éditeur, t.V, Paris, 1844.
50. Possidius, *Vita Augustini*, édition H.T.Wesskotten, London, XVI, 1919 ; XXVIII, 4, PL 32, col. 54-55, éd.Pellegrino, 1955.
51. Pomponius Méla, *De Situ orbis*, coll. Nisard, Paris, 1850.

52. Procope, *Histoire de la guerre contre les Goths, guerres de justinien*, par M. Cousin, Firmin Didot, Paris, 1685.
53. Procope, *Histoire de la guerre des vandales*, II, Firmin Didot, Paris, 1852.
54. Procope, *La Guerre contre les Vandales* (Bellum Vandalorum. II), Trad. D. Roques, Belles Lettres, Paris, 1990.
55. Sallustius, *Guerre de Jugurtha*, trad., Gérard Walterd, éd. Gallimard, Paris, 1968.
56. Simonde de Sismondi (J.C.L.), *Histoire de la chute de l'empire Romain et du déclin de la civilisation de l'an 250 à l'an 1000*, t. I, Treuttel et Wurtz, Paris, 1835.
57. Socrate, (le scolastique), Histoire de l'Eglise, t.III, trad. Par Mr. Cousin, Damien Foucault, Paris, 1686.
58. Sozomene, *Histoire de l'église*, trad. Par Mr.Cousin, Damien Foucault, Paris, 1686.
59. Scylax (Périple de), dans *Géographia Graeci*. Minores, éd. C. Muller, 1885.
60. Sulpice Sévère, *chroniques*, II, par André Lavertujon, Hachette, Paris, 1899.
61. Sénèque, *Lettres à Lucilius*, XLI, trad. Par J. Baillard, Paris, 1861.
62. Silius Italicus, *Les Guerres Puniques*, t. I, II, trad. Par E. F. Corpet et N.A. Dubois, édit. Panckoucke, Paris, 1836-1838.
63. Strabon, *Géographie*, trad., Amédée Tardieu, éd. Hachette, Paris, 1867.
64. Suétonius, *Vie des douzes Césars*, trad. M. Baudement, J.J. Dubochet, Paris, 1845.
65. Synésius, *Lettres*, par H. Duron, librairie Hachette, Paris, 1878.
66. Tacite, *Œuvres Complètes*, « Mœurs des Germains », II, Trad. Par J. L. Burnouf, L. Hachette, Paris, 1859.
67. Tacite, *Annales*, Trad. par J.L. Burnouf, librairie Hachette, Paris, 1859.
68. Théodoret, *Histoire de l'église*, trad. M. Cousin, Damien Foucault, Paris, 1686.
69. Trebellius (Pollion), *Histoire Auguste*, trad. par F.L. legay, C.L.F. Panckoucke éditeurs, Paris, T.1, 1844.
70. Tertullien, *l'Apologétique*, par E.M. Gaucher, Auteuil-Paris, 1898.
71. Tertullien, *Apologétique*, trad., par J.P.Waltzing, 2e édit., librairie Bloud et Gay, Paris, 1914.
72. The New Testament, the university Press, Cambridge, England.
73. Tite Live, *Histoire Romaine*, trad., M. Nisard, Librairie Firmin Didot frères, Paris, 1869.
74. Victor de Vita, *Histoire de la persécution des Vandales en Afrique*, Trad. S.Lancel, CUF, Les belles lettres, Paris, 2002.
75. Victor de Vita, *Historia persecutionis Africae provinciae*, Trad. S. Lancel, Paris, les belles lettres, 2002.
76. Virgile, *Eneide*, trad. par Jacques de Lille, Paris, 1709.

77. Zonaras, *Histoire Romaine*, trad. Par M.Cousin, Damien Foucault, Paris, 1686.
78. Zosime, *Histoire Nouvelle*, Ed. F. Paschoud. Coll. Univ. de France, 1971.
79. Zosime, *Histoire nouvelle* T. F. Paschoud. Les Belles lettres, Paris, 1986-1989.

ج-المصادر القانونية:

80. Codex Théodosianus, édit. Th. Mommsen, et P. Meyer, 2e édit., Berlin, 1954.
81. Codex Justinianus, édit.Th. Mommsen, et P. Meyer, Berlin, 1908.

ثانيا-المراجع:

أ-المراجع العربية:

1. أحمد الفرجاوي، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، بيت الحكمة، تونس، 1993.
2. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، 1978م.
3. أحمد علي عجيبة، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2005.
4. أريك هورنوج، ديانة مصر الفرعونية الوحدانية والتعددية، تر. محمود ماهر، مطبعة مدبولي، مصر، د.ت.
5. أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج.1، دار المكشوف، بيروت، 1955.
6. البرغوثي، عبد اللطيف محمود، التاريخ الليبي القديم، ج1، دار تامغناست، طرابلس، د. ت.
7. الطاهر ذراع، المجتمع العربي القديم وحضارته، ج2، مطبعة بغيجة، قسنطينة، 2010.
8. آيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، تعريب عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، 1988.
9. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط3، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م.
10. جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983.
11. حارش محمد الهادي، التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992.

12. حارش محمد الهادي، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة، الجزائر، 2001.

13. حمداوي جميل، المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، 2013.

14. خالد فائق العبيدي، الآثار والتاريخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

15. خليل سركيس، تاريخ القدس المعروف بتاريخ أورشليم، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001.

16. داود علي الفاضلي، أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم، مكتبة المعارف، الرباط، 1986.

17. دياكوف ف. وكوفاليف س.، الحضارات القديمة، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، ط1، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2000.

18. رستوفتزف م.، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج1، تر. زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957.

19. روبين دانيال، التراث المسيحي في شمال إفريقيا، ترجمة سمير مالك، دار منهل الحياة، بيروت، 1999.

20. سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1975.

21. شارن شافية وآخرون، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، المركز الوطني للدراسات، الجزائر، 2008.

22. شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

23. شارل جنيير، المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت.

24. عزت زكي، المسيح وفلاسفة أثينا، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، 1986م.

25. عقون محمد العربي، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2008.

26. فايز نجيب اسكندر، الحياة الإقتصادية في الشمال الإفريقي في عهد الوندال، مطبعة الجبلاوي، الإسكندرية، 1987.

27. فرانسوا دوكرييه، قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس، دمشق، 1994.

28. فنطر، محمد حسين، الحرف والصورة في عالم قرطاجة، منشورات البحر المتوسط، تونس، 1999.

29. فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته منذ أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، ط1، دار الرشا الحديثة، الدار البيضاء، 1980.

30. كارلهاينز برنهردت، لبنان القديم، ترجمة ميشال كيلو، مراجعة زياد منى، ط1، قدس للنشر والتوزيع، دمشق، 1999.

31. لويس شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب، ج4، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1956م.

32. لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط2، دار المشرق، بيروت، 1967م.

33. محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961م.

34. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط5، دار الجيل، بيروت، 1999م.

35. محمد حسين فنطر، الحرف والصورة في قرطاج، منشورات البحر لمتوسط، تونس، 1999.

36. محمد الصغير غانم، نصوص بونية–ليبية مختارة من تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012.

37. محمد الصغير غانم، الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين مليلة، 2005.

38. محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم، حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305–429م)، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001.

39. مصطفى العبادي، مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1985.

40. مصطفى أعشي، أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009،

41. موريس بوكايس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م.

42. نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، دمشق، 1972.

43. ويلتر ج.، الهرطقة تاريخ البدع الدينية المسيحية، تعريب جمال سالم، دار الفارابي، بيروت، 2007.

44. ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، د. ت.

45. رابح لحسن، أضرحة الملوك النوميد والمور، دار هومة، الجزائر،2007.

46. عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، مكتبة رحاب، الجزائر، 1987م.

47. أحمد شلبي، المسيحية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م.

48. علي فهمي خشيم، نصوص ليبية، ترجمة كتاب هيرودوت، دار مصراتة، 1967.

49. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج1، دار الفكر الحديث، بيروت، 1967.49
50. العريني السيد الباز، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، 1965.
51. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م.
52. عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية، القاهرة، 1960.
53. أمين سلامة، التاريخ الروماني، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1959م.
54. أندريه ايمار، جانين أوبواييه، تاريخ الحضارات العام، ج 2، منشورات عويدات، بيروت، 1986.
55. سليمان مظهر، قصة الديانات، ط2، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، 2002م.
56. شنيتي محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
57. الحسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، مكتبة عمان، الأردن، 1995.
58. مها عيساوي، النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم، ط 1، مطبعة جسور، الجزائر، 2009.
59. رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ج 2، دار المعارف، القاهرة، 1983.
60. محمد محمود الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، دار المعارف، القاهرة، 1995.

ب-المراجع الأجنبية: ***Ouvrages***

1. Allard (P.), *Histoire des persécutions pendant la première moitié du 3° siècle, (Septime Sévère, maximin, Dèce)*, Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1905.
2. Allard (P.), *les dernières persécutions du troisième siècle (Gallus, Valérien, Aurélien),* Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1898.
3. Allard (P.), *la persécution de Dioclétien et le triomphe de l'église*, t. 2, Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1900.
4. Albertini *(E.), l'Afrique du Nord Française dans l'histoire, Paris, 1937.*
5. Albert (P.), *Histoire de la littérature Romaine*, C. Delagrave, Paris, t. I, 1871,
6. Anonyme, *Vie des saints d'Afrique*, imprimerie Facultés des catholiques, Lille, 1885.
7. Anonyme, *Souvenirs de l'ancienne église d'Afrique,* librairie catholique de périsse frères, Paris-Lyon, 1862.
8. Alquier (J.et P.), *le chettaba et les grottes à inscriptions latines du chettaba et du Taya,* Constantine, 1929.
9. *Babelon (M.), Cagnat (R.), Reinach (S.), Atlas Archéologique de Tunisie,* Ernest Leroux, Paris, 1893.

10. Bardy (G.), *Saint-Augustin, l'homme et l'œuvre*, 4°édit., Desclée de Brouwer & Cie, Paris, 1940.
11. Basset (H.), *le culte des grottes au Maroc*, Alger, 1920.
12. Basset (H.), *Quelques notes sur l'Ammon libyque*, Mélanges de R. Basset, I.
13. Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co.Limited, St.Martin S.St. London, 1914.
14. Batiffol (P.), la paix constantinienne et le catholicisme, Paris, Lecoffre Librairie, 1929.
15. Bel (A.), *Quelques rites pour obtenir la pluie*, Recueil de mémoires, XIV[e] congrès des orientalistes, Ecole des lettres, Alger, 1905.
16. -Benabou (M.), *la résistance Africaine à la romanisation*, édition Maspero (F.), Paris 1975.
17. Benoist (Stéphane), *Mémoire et Histoire, les procédures de condamnation dans l'Antiquité Romaine,* C.R.U., Metz, 2007.
18. Berbrugger (A.), *Bibliothèque –Musée d'Alger*, Alger, 1861.
19. Berthier (A.), *les vestiges du christianisme antique dans la Numidie centrale,* Alger, 1942.
20. Berthier (A.), *L'Algérie et son passé*, édit. A. et J. Picard, Paris, 1951.
21. Berthier (A.), et Charlier (R.), *le Sanctuaire punique d'EL- Hofra à Constantine*, Arts et métiers graphiques, Paris, 1952.
22. Biéchy (A.), *l'Afrique au IVe siècle*, lmp. Barbou Frères, Limoges, 1875.
23. Blumhardt, (C. G.), *Histoire générale de l'établissement du christianisme depuis le temps de Jésus-Christ,* trad. par A. Bost, impri. Marc Aurèle, Valence, 1838.
24. Boissier (G.), la fin du Paganisme, t. I, Hachette, Paris, 1913.
25. Boissier (G.), La religion romaine, t. I, Paris, s.d.
26. Brisson (J. P.), *Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine*, Paris, de Boccard, 1958.
27. Cagnat (R.), et Besnier, *l'Année épigraphique*, 1903.
28. Cagnat (R.), *Carthage, Timgad, Tébessa, les Villes Antiques de l'Afrique du Nord*, librairie Renouard & Laurens éditeurs, Paris, 1909.
29. Cagnat (R.), *l'Armée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs*, imprimerie Nationale E. Leroux, Paris, 1913.
30. Camps (G.), *Monuments et rites funéraires protohistoriques*, édit. Arts et métiers graphiques, Paris, 1961.
31. Camps (G.*), les Berbères, mémoires et identité, 2[eme] édit. Paris, 1987.*
32. Camps (G.), *Berbères aux marges de l'histoire,* éd. des Hespérides, 1980.
33. Carcopino (J.), *Aspects mystiques de la Rome païenne*, l'artisan du livre, Paris, 1941.

34. Cat (E.), *Essai sur la province Romaine de Maurétanie Césarienne*, Ernest Leroux, Paris. 1891.
35. Charrier Louis, Description des monnaies de la Numidie et de la Maurétanie, Typographie Alexandre Carle, Bône, 1886.
36. Chastagnol (A.), *le Bas- Empire*, Paris, Colin, 1962.
37. Christol (M.), et Nony (D.), *Rome et son empire*, Hachette livre, Paris, 1990.
38. Christol Michel et Nony Daniel, *Des Origines de Rome aux invasions barbares*, Hachette, Paris, 1974.
39. Claudes Sintes, Ymouna Rebahi*, Algérie Antique,* catalogue de l'exposition, musée de l'Arles et de la Provence antiques, 2003.
40. Cornevin (R.), *Histoire de l'Afrique des origines au XVI Siècle*, t.1, Paris, éd. Payot, 1967.
41. Courtois (Ch.), *les Vandales et L'Afrique*, Paris, Art et Métiers Graphiques, 1955.
42. Courtois (Ch.), *Victor de Vita et son œuvre, étude critique*, Alger, 1954.
43. Crevier (J.B.), *Histoire des Empereurs Romains depuis Auguste jusqu'à Constantin*, t.VII, Paris, Firmin Didot, 1828.
44. Cumont, Franz, *les religions orientales dans le paganisme romain*, 2é édit., Paris, Ernest Leroux, 1909.
45. Cumont (F.), *les religions orientales dans le paganisme Romain,* 4e édit. , Paris, 1929.
46. Cuoq (Josèphe), *l'église d'Afrique du nord du IIe au XIIe siècle*, éditions du centurion, Paris, 1984.
47. Dahmani (S.), *le royaume de Massinissa, un projet contrarié,* Paris, 2003.
48. De Choist (l'Abbé), *Histoire de l'Eglise*, t. I, Imprimerie Jean Baptiste Coignard, Paris, 1703.
49. Decret (F.), et Fantar (M.), *L'Afrique du Nord dans l'Antiquité*, éd. Payot, Paris, 1981.
50. Delamare (A. H.), *Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840 à 1845, Archéologie*, Imprimerie Nationale, Paris, 1850, texte explicatif par Gsell (S.), Ernest Leroux, Paris, 1912.
51. Delamare (A.H.), *Recherches sur l'ancienne ville de Lambèse*, imprimerie de Crapelet, Paris, 1850.
52. De Prats (Jean), *l'église Africaine Ancienne et Moderne*, Alfred Mame et fils éditeurs, Tours, 1892.
53. Desanges, (J.), *Commentaire de Pline l'ancien*, V, 33, Ed. (1980).
54. Desanges (J.), Catalogue *des tribus Africaines de l'Antiquité classique à l'ouest du Nil*, Dakar, 1962.
55. Despois (J.), *Louis Leschi*, imprimerie la Typo-Litho, Alger, 1954, pp.27-31.

56. Diehl (Ch.), *L'Afrique Byzantine, histoire de la domination Byzantine en Afrique*, Paris, éd. Leroux, 1836.
57. Doutté (E.), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, 1909.
58. Duchesne (L.), *Origines du culte chrétien*, 2e édit., Paris, 1903-
59. Dureau de la Malle, *l'Algérie, manuel Algérien*, Paris, éd. Firmin Didot, 1852.
60. Dureau de la Malle, *Recherches Sur l'histoire de la partie de l'Afrique Septentrionale*,s.d.
61. Duruy (V.), *Histoire des Romains*, t.VI, Akademische Druck-U.Verlagsanstalt, Graz-Austria, 1970.
62. Dussaud (R.*), Les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens*, (Mana T.II), Paris, 1949.
63. El-Bekri, *Description de l'Afrique Septentrionale*, trad. de Slane, édit. d'Alger, 1913.
64. Fantar (M.H.), *Carthage la cité punique*, Alif, les éditions de la méditerranée, CNRS, Paris, 1995.
65. Fantar (M.H.), *le dieu de la mer chez les Phéniciens et Puniques*, Rome, 1977.
66. Ferjaoui (A.), *Recherches sur les relations entre l'Orient Phénicien et Carthage*, Tunis, 1992.
67. Février (P.A.), *Approches du Maghreb Romain, Pouvoirs, Différences et Conflits*, II, éditions Edisud, Aix- En- Provence, 1990.
68. -Février (J.G.), « *un sacrifice chez les Numides* », dans Mélanges Isidore Levy, Bruxelles, 1935.
69. Février (J.G.), « *La Koré punique* », dans Mélanges Bibliques rédigés en l'honneur de A. Robert, Paris, 1957.
70. Finley (M.I.), *l'économie Antique*, trad. par Max Peter Higgs, Paris, Minuit, 1973.
71. Flamand, *les pierres écrites,* Paris, 1921.
72. Frend (W.H.C.), *The Donatist Church, a Movement of protest in Roman North Africa*, Oxford Clarendon Press, 1952.
73. Frend (W.H.C.), *Heresy and schism as social and national movements, studies in church History,* Vol. 9, Cambridge, 1972.
74. Fustel de Coulanges, la *cité antique, étude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome*, 2e éd., I, ch. II : *Le Culte des morts*, Paris, librairie Hachette et Cie, 1866.
75. Gagé (J.), *les classes sociales dans l'Empire Romain*, Paris, Nlle éd., 1971. p. 297-299.
76. Gautier (E.F), *le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs du Maghreb*, Alger, livres éditions, 2011.
77. Gautier (E.F.), *le Sahara Algérien, t. I, Paris, colin, 1908.*
78. Gautier (E.F), *Genséric, le roi des Vandales*, *Paris, Payot, 1975.*

79. Gennep (V.), *l'Etat actuel du problème totémique.*
80. Genevois (H.), « *Un rite d'obtention de pluie (la fiancée d'Anzar)* », dans actes du 2e Congrès international d'études des cultures de la méditerranée occidentale, S.N.E.D., Alger, 1987.
81. Gsell (S.), « *Fouilles de Benian, (Alamiliaria)* », publiées sous les auspices de l'Association historique pour l'étude de l'Afrique du Nord .édit, Ernest Leroux, Paris, 1899.
82. Gsell (S.), *Recherches Archéologique en Algérie*, Ernest Leroux, Paris, 1893, pp. (1-9).
83. Gsell (S.), *les Monuments Antiques de l'Algérie*. T.I, Paris, (1901).
84. Gsell, (S.), *les Monuments Antiques de l'Algérie*. T.II, Paris, (1901).
85. Gsell (S.), *Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine*. Mélanges offerts à Gustave Glotz. Paris, 1932, pp. 397-415.
86. Gsell (S.), Joly (Ch.-A.), *Kahamissa, M'daourouch, Announa*, Fouilles exécutées par le Service des Monuments Historiques de l'Algérie, 1ère partie, Khamissa, Alger, Paris, 1914.
87. Gsell (S.), Joly (Ch.-A.), *Kahamissa, M'daourouch, Announa*, Fouilles exécutées par le Service des Monuments Historiques de l'Algérie, 2ème partie, M'daourouch, Alger, Paris 1922.
88. Gsell (S.), *Chronique Africaine*, Rome, 1903.
89. Gsell (S.), *Inscriptions Latines d'Algérie*, t.1, Paris, 1922.
90. Gsell (S.), *Hérodote, textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord*, Alger, 1955.
91. Gsell (S.), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,* librairie Hachette, Paris, (8volumes), 1913-1928.
92. Gsell (S.), *Atlas Archéologique de l'Algérie*, cartes et textes, Fontemoing, Paris, Adolphe Jourdan, Alger, 1911.
93. Gsell (S.), *L'Algérie dans l'antiquité*, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1903.
94. Gsell(S.), *Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine*, Mélanges Gustave Glotz, t. I, Paris, P.U.F., 1932.
95. Gsell (S.), *Cherchell, antique Iol-Caesarea*, imprimerie officielle, Alger, 1952.
96. Gsell (S.), *Recherches Archéologiques en Algérie*, Paris, Ernest Leroux, 1893.
97. Gibbon (E.), *Histoire de la décadence et de la chute de l'empire Romain*, Paris, éd. Lefèvre, 1819.
98. Gibbon (E.), *History of the décline and fall of the Roman Empire*, XVI.
99. Goyau (G.), *Sainte –Mélanie* (383-439), Victor Lecoffre, Paris, 1908.
100. Hamman, (A.G.), la *vie quotidienne en Afrique au temps de St. Augustin, Paris, Hachette littérature*, 1979, p. 285.
101. Homo (L.), *les empereurs Romains et le christianisme*, Paris, Payot, 1931.

102. Hvidberg Hansen, (F.O.), *la déesse TNT, une étude sur la religion Cannanéo- Punique,* (Texte), Copenhague, 1979.
103. -Julien (Ch. A.), *Histoire de l'Afrique du nord*, Sned, Alger, 1978.
104. Kolendo (J.), le *problème du colonat en Afrique Romaine sous le haut-Empire*, dans Terre et paysans dépendant dans les sociétés antiques, Paris, 1979 ; pp.391-417.
105. La Blanchère, *Voyage d'études dans une partie de la Maurétanie Césarienne*,Paris, 1883.
106. Laroui (A.), *l'histoire du Maghreb, un essai de synthèse*, I, Paris, Maspero, 1970.
107. Lancel (S.), *Actes de la Conférence de Carthage en 411*, T.I : Introduction, S.C., n° 194, Paris, 1972.
108. Lancel *(S.), L'Algérie antique,* Ed. Mengès, Paris, 2003.
109. Laoust (E.)*, Mots et choses Berbères, notes de linguistique et d'ethnographie*, Paris, 1920.
110. Lassere, (J. M.), "*Ubique Populus" peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine, de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères, (146 a.c.- 235 ap.c.*), Paris, éditions du C.N.R.S., 1977.
111. Le Blant (E.), *L'épigraphie Chrétienne en Gaule et en Afrique Romaine*, Paris, 1890.
112. Leglay (M.), *Saturne Africain, Histoire*, Paris, édition de Bocard, 1966.
113. Leglay (M.), *Saturne Africain, Monuments*, I, Afrique Proconsulaire, arts et métiers graphiques, Paris, 1961.
114. Leglay (M.), *Saturne Africain, Monuments*, *II, Numidie- Maurétanies*, centre national de la recherche scientifique, Paris, 1966.
115. le pelley (C.), *L'Empire romain et le christianisme*, Paris, Flammarion, 1969.
116. Maier (J.L.), *l'épiscopat de l'Afrique Romaine, Vandale et Byzantine*, Bibliothéca Helvetica Romana, XI, Institut Suisse de Rome, 1973.
117. Marçais (W.) et Gulga (A.), *Textes Arabes de Takrouna*, I, 1925.
118. Marcillet - Jaubert (J.), *les inscriptions d'Altava*, Publication des Annales de la Faculté des lettres, Aix-en-Provence, 1968, pp. 126-127, n° 194.
119. Masqueray (E.), *Comparaison du Vocabulaire des Zenagas*, Archives des missions Scientifiques, Paris, 1879.
120. Mercier (G.), *les divinités libyques*, Constantine, S.D.
121. Mercier (E.), *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie),* Paris, Ernest Leroux, 1888.
122. Merlin (A.), *le Temple d'Apollon à Bulla Régia*, Paris, 1908,
123. Mesnage (J.P.), *L'Afrique chrétienne, Évêchés et ruines antiques, d'après les manuscrits de Mgr.Toulote et les découvertes Archéologiques les plus récentes*, Paris, Ernest Leroux, 1912.

124. Meynier (Gilbert), *L'Algérie des origines, de la préhistoire à l'avènement de l'islam*, éditions la découverte, Paris, 2007.
125. Moliner- Violle, *Timgad, ses fouilles et ses découvertes*, imprimerie F. Soldati, Batna, 1891.
126. Mommsen (T.), *Histoire Romaine*, trad. Par C.A. Alexandre, librairie Franck Albert L.Herold, Paris, 1863.
127. Mommsen (T.), *Etude sur Pline le Jeune*, trad. Par Morel, 1873.
128. Monceaux (P.), *La grotte du dieu Bacax au djebel Taya, Paris, 1887.*
129. Monceaux (P.), *Histoire Littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion arabe, Ernest Leroux, Paris, 7 tomes, 1901-1923.*
130. Moreau (J.), *la persécution du christianisme dans l'empire romain*, P.U.F., Paris, 1956.
131. Moreau (L.), *la cité de Dieu de St. Augustin*, t.1, librairie Garnier, Paris, s.d.
132. Moscati Sabatino, *the phoenicians*, Tauris, 2001.
133. Orfali (M.K.), *Quelques aspects des échanges culturels, artistiques et architecturaux entre les puniques et les numides durant la deuxième moitié du premier millénaire av. J-C.*, dans : l'Algérie aux temps des royaumes numides, Ministère de la Culture, Alger, 2007.
134. Oussedik (T.), *la Berbérie*, t. 2, ENAL, Alger, 1991.
135. Pallu de Lessert, *Fastes des provinces Africaines (Proconsulaire, Numidie, Maurétanies) sous la domination romaine*, t.I, Paris, 1896.
136. Pallu de Lessert, *Fastes des provinces Africaines sous la domination romaine*, t. 2, Paris, 1901.
137. Petit (P.), *Histoire Générale de l'empire Romain, t. I, le Haut- Empire (27 av. J.C.- 161 ap. J.C.),* t. III, Paris, Seuil, 1974.
138. Picard (G.Ch.), *La civilisation de l'Afrique Romaine*, études Augustiniennes, 52°édition, Paris, 1990.
139. Picard (G.Ch.), *Castellum Dimmidi*, éd. de Bocard, Paris, 1975. -
140. Picard (G. Ch.), *la civilisation de l'Afrique Romaine*, Paris, Plon, 1959.
141. Picard (G. Ch.), *la Carthage de Saint-Augustin*, Paris, Fayard, 1965,
142. Picard (G.Ch.), *les religions de l'Afrique antique*, Typographie Plon, Paris, 1954.
143. Piganiol (A.), *L'Empire chrétien (325-395)*, Presses Universitaires de France, Paris, 1947.
144. Poujoulat (M.), *Histoire de Saint Augustin*, 5e Edition, Alfred Mame et Fils, Tours, 1866.
145. Rachet (M.), *Rome et les Berbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien*, collection Latomus, (Vol.110), Bruxelles, 1970.
146. Rémondon (R.), *la crise de l'empire Romain de Marc Aurèle à Anastase*, Paris, Nouvelle Clio, P.U.F., 1964 ;

147. Renan (E.), *Marc-Aurèle et la fin du Monde Antique*, Calmann Lévy édit., Paris, 1882.
148. Reygasse (M.), *Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord*, Paris, 1951.
149. Salama (P.), *Les voies Romaines de l'Afrique du Nord*, imprimerie Officielle, Alger, 1951.
150. Salama (P.), *Economie Monétaire de l'Afrique du Nord dans l'antiquité tardive,* dans : Actes du II^{e} colloque international (Grenoble, 5- 9 Avril 1983), Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, (pp.183-202.)
151. Saumagne (Ch.), et autres, *Tablettes Albertini, Actes privés de l'époque Vandale (fin du 5^{e} siècle),* Paris, Arts et métiers graphiques, 1952.
152. Séchan (L.), Lévêque (P.), *Les grandes divinités de la Grèce*, éditions E. de Boccard, 1966.
153. Simon (M.), *Punique ou Berbère ? Note sur la situation linguistique dans l'Afrique romaine,* Mélanges Isidore Lévy, Bruxelles, 1955, pp.613-629.
154. Sorel Dominique, *La pénétration Romaine en Afrique du Nord dans l'Antiquité,* Un exemple : Timgad Jusqu'à la mort de l'Empereur Trajan, CIHEAM, Options Méditerranéennes, n^{o} 18, pp.35-39.
155. Tisssot (Ch.), *géographie comparée de la province Romaine d'Afrique*, T.2, imprimerie nationale, Paris, 1888.
156. Thouvenot (R.), *Rome et les Barbares Africains, à propos d'une inscription de Volubilis,* publications du service des Antiquités du Maroc, VII, 1945.
157. Tlatli Salah- Eddine, la Carthage punique, édition librairie d'Antique et d'Orient, Paris 1978.
158. Toulotte (Mgr.), Géographie de l'Afrique chrétienne, Typographie Oberthur, Rennes-Paris, 1892.
159. Toutain (J.), les cultes païens dans l'Empire Romain, 1er Partie, éd. Bibliothèque de l'école des hautes études sciences religieuses, Paris, 1920.
160. Voy (P. J.), « *les origines de l'église d'Afrique et de l'église de Rome* », Mélanges Godefroid, 1908.
161. Warmington (B.H.), *The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest*, Cambridge, London, 1954.
162. Westermarck (M.), *Ceremonies and beliefs connected with Agriculture, certain dates of the solar, year and the Weather in Morocco*, Helsingfors, 1913.
163. Wuilleumier (P.), *Musées de l'Algérie et de la Tunisie,* Ernest Leroux, Paris, 1928.
164. Yanoski (J.), *Histoire de la domination des Vandales en Afrique*, Paris, éd. Firmin didot, 1844,
165. Yanoski (J.), *l'Afrique Chrétienne*, Paris ,1844.

3-المجلات والدوريات: - *Périodiques*

أ-الدوريات باللغة العربية:

1- جفري بارندر، «المعتقدات الدينية لدى الشعوب البدائية »، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد173، 1993، (ص ص. 69-87).

2- حارش محمد الهادي،« أصول عبادة آمون في المغرب القديم»، مجلة التاريخ، رقم 24، 1987، المركز الوطني للدراسات التاريخية، ص ص 7-14.

3- حارش محمد الهادي، « ثورة فيرموس (372-375م)» ، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، عدد7، 1993، (ص ص. 11-18).

4- شنيتي محمد البشير، « حول الحركة الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن الرابع للميلاد » ، مجلة الأصالة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجزائر، عدد 60، 1978، (ص ص. 24-40).

5- شنيتي محمد البشير، « التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية »"، مجلة الأصالة، عدد 41، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجزائر، 1977، (ص ص. 2-24).

6- عقون محمد العربي، «من أعلام المغرب القديم القديس أوغسطين (ثاغست 354- هيبون 430م) »، مجلة الحوار الفكري، عدد03، 2002، ص (119-134).

7- محمد الصغير غانم، « نقيشة ميسيبسا الأثرية» ، مجلة سيرتا، ع.4، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980، (ص 2-14).

8- محمد الصغير غانم،« بعض من ملامح الفكر الديني الوثني في بلاد المغرب »، مجلة الحوار الفكري، عدد2، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2001، (ص ص. 59-68).

9- محمد الصغير غانم، الملامح الفكرية للعصر الحجري الحديث، مجلة العلوم الإنسانية، ع8، جامعة منتوري، قسنطينة، 1997.

10- منصوري خديجة، « الصراع الدوناتي الكاثوليكي »، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 12، قسنطينة، 2002، (ص ص 31-48).

ب- الدوريات باللغة الأجنبية:

1. Albertini Eugène, *Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939. (pp. 100-103).*

2. Arnaud-Lindet (M.P.), *Sources Littéraires de l'histoire de l'Afrique Romaine,* dans : Questions d'Histoire, (l'Afrique Romaine de 69 à 439), Romanisation et Christianisation, édi. du temps, Nantes, 2005, pp. (13-34).

3. Audollent (A.), *« Mission épigraphique en Algérie »*, M.E.F.R., 1890.

4. Audollent (A.), *La diffusion du christianisme en Afrique au sud des territoires soumis à Rome Après le Ve siècle,* C.R.A.I., 86e année, N. 4-6, 1942. pp. 202-216.
5. Ballu (A.), *Ruines de Djemila (Antique Cuicul),* Rev.Afri., LXII, 1921, (pp.201-274).
6. Basset (R.), *Notes sur les inscriptions libyques d'Ifri n'Dellal*, C.R.A.I., 1909.
7. Basset (R.), *Recherches sur la religion des Berbères*, R.H.R., Ernest Leroux, Paris, I, 1910, pp.1-52.
8. Basset (H.), « *Les influences Puniques chez les Berbères* », *Rev.Afri.*, LXII, 1921.
9. Basset (H.), *Les rites du travail de la laine à Rabat*, in : *Hespéris*, 1922, pp. 139-160.
10. Benseddik (N.*), Un nouveau témoignage du culte de Tanit - Caelestis à Cherchell ? Ant.Afri.,* t.20, 1984.
11. Berger (Ph.), *Stèles trouvées à El- Kantara*, B.C.T.H., 1898, pp. 152- 154.
12. Berthier (A.), *Constantina, raisons et répercussions d'un changement de nom*, R.S.A.C., Vol. 71, 1969- 1971.
13. Berthier (A.) et Charlier (R.), *Le sanctuaire punique d'el-Hofra à Constantine,* R. E. B., Vol. 15, n° 1, 1957, p p. 257 – 258.
14. Beschaouch (A.), « *Sur la localisation d'Abitina…* », C.R.A.I., 1976, pp. 255- 266.
15. Birebent (J.), *Aquae Romanae, recherches d'hydraulique romaines dans l'est Algérien*, service des antiquités de l'Algérie, 1961.
16. Blanchet (M.P.), *Excursion archéologique dans le Hodna et le Sahara*, R.S.A.C., t. XXXIII, 1899, (pp.285-319).
17. Bonnel (M.), *Monument Gréco- Punique de la Soumaa, (près de constantine)*, R.S.A.C., XLIX, 1915.
18. Bonnet (C.), « *l'Onomastique de Melqart, En appendice : l'inscription punique*, CIS, I, 4612 », in : Rivista di Studi Fenici, XVIII, 1,1989, p. 31- 40.
19. Bosco et Solignac, R.S.A.C., XLV, 1911.
20. Brulard (M.), « *Tfaska n'tisent », la fête du sel à Ghat, le 27 Ramadhan*, Bull.de liais.Sahar., n° 25, 1957.
21. Cagnat (R.), *l'annone d'Afrique*, C.T., t. XXV, n° 97-98, 1977, (pp.205-235).
22. Calderone (S.*), Circumcelliones*, *Parola del Passato*, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, pp.94-109.
23. Camps (G.), *Aux origines de la Berbérie, Massinissa, ou les débuts de l'histoire*, *Libyca*, t. VIII, 1960. pp.279-280.
24. Camps (G.), *Les Bavares, Peuples de Maurétanie Césarienne*, *Rev.Afri.*, T. 99, 1955. pp.241-288.
25. Camps (G.), *Libyca*, IV, 1956, p. 177.

26. Camps (G.), *sur trois types peu connus de Monuments funéraires nord-Africains*, Bull.de la Soc.de Préhist.Franc., t. LVI, 1959.
27. Camps (G.), *Qui sont les Dii Mauri* ? Ant.Afri., t.26, 1990.
28. Camps (G.), « *L'inscription de Béja et le problème des Dii Mauri* », *Rev. Afri., 1954, t. 98, pp. 234- 260.*
29. Camps (G.), *Rex Gentium Maurorum et Romanorum (Recherches Sur Les Royaumes de Maurétanie des VI^e et VII^e Siècles), Ant. Afri*., t.20, 1984, (pp.183-218).
30. Carcopino (J.), *Le culte des Cereres et les Numides*, *R. Hist*., t. CLIX, 1928, et dans Aspects mystiques de la Rome païenne, (pp. 13- 27).
31. Carcopino (J.), « *Le limes de Numidie* », *Syria,* VI, n°5.
32. Carcopino (J.), « *Survivances par substitution des sacrifices d'enfants dans l'Afrique*
33. *Romaine* », dans *R.H.R.,* t. 106,1932, pp. 552- 599.
34. Carcopino (J.), *« L'inscription d'Ain El-Djemala* », in : M.E.F.R, 1906.
35. Carcopino (J.), « *l'insurrection de 253 d'après une inscription de Miliana* », Rev. Afr., N°60, 1919.
36. Carcopino (J.), *Un «empereur» maure inconnu d'après une inscription latine récemment découverte dans l'Aurès* " R.E.A., t. 46, 1944, pp. (94- 120).
37. Carcopino (J.), *Encore Masties, l'empereur maure inconnu*. Rev. Afr., t. 100, 1956, pp. 339-348.
38. Chabassière (M.), R.A.C., 1868, p. 129.
39. Chabot (J.B.), *Punica*, extrait du J.A., 11- 12, (1916- 1918), p. 461.
40. Chantraine (P.), « Réflexions sur les noms des dieux helléniques », *Antiquité classique*, XXII, 1953, (pp. 65 – 78).
41. Cherbonneau, C.R.A.I., 1878.
42. Cherbonneau (M.), « *L'inscription du tétrastyle de Potitus à Constantine* », R.S.A.C., n° 13, 1869.
43. Congar (Y.M.J.), Note complémentaire n° 10, « *Parmenianus et Tyconius* », B.A., 28.
44. Courcelle (P.), *une seconde campagne de fouilles à Ksar El Kelb*, M.E.F.R., 1963. , pp. 166- 197.
45. Courtois (Ch.,) *Saint Augustin et le problème de la survivance du punique*, R.Af., 1950, pp.259-282.
46. Courtois (Christian), « *de Rome à l'islam…* », Rev.Afri., vol.82, 1942, pp.24-55.
47. Cayrel (P.), *Une Basilique Donatiste de Numidie*, M.E.F.R., LI, 1936, (pp. 114-142).
48. Darmon (J.P.), « *Note sur Le tarif de Zarai* », C.T., 48, 1964.
49. Decret (F.), *les Gentes Barbarae asservies par Rome dans l'Afrique du V^e siècle*, B.C.T.H., N.S., 19 B, 1985, pp. 265-271.
50. Delattre (P.), *Inscriptions de Carthage*, X, Bulletin épigraphiques, T.V, 1885.

51. Delattre (P.), *La Basilica Majorum (Puits rempli de squelettes), C.R.A.I., 1908, pp. 59- 69.*
52. Despois (J.), *La Bordure saharienne de l'Algérie orientale*, Rev.Afri , n° 90, 1946, pp. 197-219.
53. Destaing (E.), *L'Ennâyer chez les Beni Snous*, Rev.Afr., vol. XLIX, 1905, (pp.51-70).
54. Duchesne (L.), « *le Dossier du Donatisme* », M.E.F.R., X, 1890.
55. Dussaud (R.), *Inscription néo- puniques de Bir- Tlelsa*, B.A.C., 1914.
56. Dussaud (R.) « *Inscription néo- puniques d'Algérie et de Tunisie* », dans B.A.C., 1916.
57. Duval (N.), *une nouvelle édition du « dossier du Donatisme* », R.E.Aug., n°35, 1989, pp.171-179.
58. Duval (N.), *les systèmes de datation dans l'est de l'Afrique du nord à la fin de l'antiquité et à l'époque Byzantine*, dans « Ktéma », 18, 1993, p.189-211.
59. Fantar (M.H.), « *A propos d'Astarté en Méditerranée* », in : Rivista di Studi Fenici, I, 1973, pp. 19- 29.
60. Février (P.A), *Martyrs, polémique et politique en Afrique (IV°-V siècles)*, R.H.C.M., 1,1965, pp.8-18.
61. -Février (J.G.), « *Essai de reconstitution des sacrifices Molek* », J.A., 248, 1960, p. 167-187.
62. Février (J.G.), « *Molchomor* », dans R.H.R., 163, 1953, pp. 8- 18.
63. Février., « *le Rite de Substitution dans les textes de N'gaous* », dans J.A., 250, 1962, pp. 1- 10.
64. Février (P.A.), *Masuna et Masties,* In: Ant. Afri., 24,1988. pp. 133-147
65. Flamand, dans : Anthropologie, XXV, 1914.
66. Frend (W.H.C.), *Circumcelliones and monks*, J.T.S, XX, vol. II, new series, 1969, pp.542-549.
67. Frend (W.H.C.), *The Cellae of the African Circumcelliones*, J.T.S, new series,III, 1952,pp. 87-90 .
68. Frend (W.H.C.), *The Séniores Laïci and The origin of The church in North Africa*, J.T.S., XII, 2, 1961, pp.280-284.
69. Gacic (P.), *En Afrique Romaine, classes et luttes sociales d'après les historiens soviétiques*, A. E.S.C., XII, 1957, pp. 650-651.
70. Galand (L.), *Les Quinquegentanei*. B.A.A. , t. 4, 1970, (pp. 297-299.)
71. Gascou (J.) et Guery (R.), *Inscriptions du sud constantinois région d'Ain el-Bey (Numidie)*, Ant.Afri., t.25, 1989, pp.135-176.
72. Germain (M.G.), *le culte du bélier en Afrique du Nord*, Hespéris, 1948.
73. Gobert (E.G.), *Essai sur la litholatrie*, Rev. Afr., t.92, 1948, (24-110).
74. Grégoire (H.), *La statue de Constantin et le Signe de la Croix*, In: Antiquité classique, Tome 1, fasc. 1-2, 1932. pp. 135-143.

75. Grenier (A.), *Nouvelles archéologiques d'Algérie,* In: C.R.A.I., 94e année, n. 4, 1950, (pp. 345-354).
76. Gsell (S.), « *Observations sur l'inscription des martyrs de Constantine* », R.S.A.C, n°9,1895-1896.
77. Gsell (S.), M.E.F.R., XIX, 1899.
78. Gsell (S.), M.E.F.R., XXIII, 1903.
79. Gsell (S.), *Satafis et Thamalla*, in M.A.H., t.15, 1895.
80. Gsell(S.), *Fouilles de Benian*, CRAI, 1899.
81. Gsell (S.), *Notes d'archéologie Algérienne*, B.C.T.H., 1899.
82. Gsell (S.), B.S.G.O., 1882, (pp.10 -14).
83. Gsell (S.), *Observations Géographiques sur la Révolte de Firmus*, souvenir du cinquantenaire (1853-1903), S.A.C., n°35.1903, pp. (21-46).
84. Gsell (S.), *Inscriptions d'Ighser Amokrane (Kabylie),* C.R.A.I., 1901, pp.170.
85. Gsell (S.), *La basilique de Rusguniae (Algérie) découverte par le lieutenant Chardon,* In: *C.R.A.I.,* 44e année, N. 1, 1900. pp. 48-52. .
86. Gustave (M.), « *les divinités libyques* », R.S.A.C., 1900, pp. (177-193).
87. Gy (P.M.), « *La liturgie comme explication éventuelle : analyse des sources, églises doubles et groupes d'églises du point de vue de l'histoire de la liturgie », In Ant.Tard.,* 4, 1996.
88. Joleaud (Léonce), *Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord, Jour. Soc. Afri*., 1933, Vol.3, n°1, (pp. 197 – 282).
89. Kolendo (J.), *sur la Législation relative aux grands domaines, de l'Afrique Romaine, R.E.A.,* LXV, 1963, pp.80-103.
90. Kotula (T.), *le fond Africain de la révolte d'Héraclien en 413, A.A., t.* II, 1977, (pp. 257-266.)
91. Kormikiari Nicolau (M.C.) , *Numidian Royal Portrait*, in : Bollettino di Numismatica, Monografia 6.1, 1989: 48, cat. n. 63, p. 354.
92. Lamirande (E.), Note complémentaire 8 : *l'enquête sur Félix d'Aptonge*, B.A., 32.
93. Lancel (S.), *Aux origines du donatisme et du mouvement des circoncellions*, (C.T. ,57-60), 1967, pp 183-188.
94. Lancel (S.), « *Victor de Vita, témoin et chroniqueur des années noires de l'Afrique romaine au V° siècle* », in C.R.A.I., 144e année, n° 4, 2000. pp. 1199-1219.
95. Lancel (S), *Originalité de la province ecclésiastique de Byzacène*, C.T., XII, n°45-46, 1964, pp.147-148.
96. Landwehr (C.), les *Portraits de Juba II, roi de Maurétanie, et de Ptolémée, son fils et successeur*, P.U.F., *Rev. Archéo.*, n° 43, 2007/1, (pp. 65 – 110).
97. Laoust, (E.) *Noms et cérémonies des feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti-Atlas*, in : Héspéris, 1921.

98. Le Blant (E.), «*Notes sur quelques actes des martyrs* », in M.A.H., t.V, 1885.
99. Lietzmann (H.), *Histoire de l'église ancienne*, Payot, Paris, 1941.
100. Lepelley (C.), «*Juvenes et circoncellions : les derniers sacrifices humains de l'Afrique Antique* », Ant. Afr., 15, 1980, pp. 261-271.
101. Lepelley (C.), *Déclin ou stabilité de l'agriculture Africaine au Bas-Empire, A propos d'une loi d'Honorius*, Ant.Afr., t.I, 1967.pp.135-144.
102. Leschi (M.L.), « *Découvertes récentes à Timgad, Aqua Septimiana Felix* » in : C.R.A.I., 91e Année, n°1, 1947. pp. 87-99.
103. Leschi (M.L.), *Recherches épigraphiques dans le pays des Nememchas (commune de Tébessa)*, Rev. Afr., n°72, 1931, pp. (262-293).
104. Leschi (M.L.), « *Basilique et Cimetière Donatistes de Numidie (Ain-Ghorab)* », Rev. Afr., T. 78, 1936.
105. Leschi (M.L.), *Inscriptions d'Ala-Miliaria*, B.S.G.O., t. 57, 1936, (pp.110-111).
106. Leveau (Ph.), *Recherches historiques sur une région montagneuse de Maurétanie Césarienne : de Tigava Castra à la mer*, In: M.E.F.R.A., t. 89, n°1. 1977. pp. 257-311.
107. Leveau (Ph.), *l'aile Π des Thraces, la tribu des Mazices et les praefecti gentis en Afrique du Nord.* , Ant.Afri., t. 7, 1973, pp. 153-192.
108. Leveau (Ph.), *Un Nouveau Témoignage Sur La Résistance Maure en Maurétanie Césarienne Centrale*, Ant. Afri., t. 8, 1974, pp. 103-110.
109. Lezine, (A.), *Sur la population des villes Africaines*, Ant.Afri., .T.3, 1969, pp.69- 82.
110. Mahfoud Kaddache*, l'Algérie dans l'antiquité, Alger, SNED, 1972.*
111. Marrou (H. I.), *Sur une inscription concernant Optat de Timgad*, In: Christiana tempora. Mélanges d'histoire, d'archéologie, d'épigraphie et de patristique. Rome : École Française de Rome, 1978. pp. 145-148.
112. Martroye (F.), « *une tentative de révolution, sociale en Afrique, Donatistes et circoncellions* », R.Q.H., t.32, 1904, pp.353-416.
113. Martroye (F.), *La répression du Donatisme et la politique religieuse de Constantin et de ses successeurs en Afrique*, M.S.N.A.F., t. LXXVIII, Paris, 1914, pp.134-135.
114. Massabeiau, *les sacrifices ordonnés à Carthage au commencement de la persécution de Décius,* R.H.R., 1884.
115. Masqueray (E.), *Inscriptions inédites*, Bull. de Corr.Afric., I, 1882, p. 225.
116. Massiera (P.), « *la station de Tatilti* », Rev. Afr., N°79,1936, I, PP.465-476.
117. Mercier (E.), *la population indigène de l'Afrique sous la domination Romaine, Vandale et Byzantine*, R.S.A.C., t.30, 1895-1896. (pp.127-211).
118. Mercier (G.), *les divinités libyques*, R.S.A.C., t. XXXIV, 1900, (pp. 177-193).

119. Mercier (G.), *la grotte du chettaba*, R.S.A.C., t. XXXV, 1901, (pp. 156-166).
120. Mercier (M.), J.A., 1924.
121. Merlin (A.), *Divinités indigènes sur un bas-relief Romain de la Tunisie*, *C.R.A.I.,* 1947, pp. 355-371.
122. Meslin (M.), Hadot (P.), « *À propos du donatisme* », A.S.S.R., n° 4, 1957, p.143.
123. Mesnage (J.P.), le *christianisme en Afrique (origines, développements, Extensions),* Rev.Afri ., n° 57, 1913.
124. Mespoulet (M.), « *l'inscription d'Ain Ouassel* », in N[lle]R.D.F., (nouvelle revue du droit français), 1892.
125. Modéran (Y.), « *la chronologie de la vie de Saint Fulgence de Ruspe et ses incidences sur l'histoire de l'Afrique Vandale* », in M.E.F.R.A, t.105, 1, 1993.
126. Modéran (Y.), *Gildon, les Maures et l'Afrique*, In: M.E.F.R.A., t. 101, n°2, 1989, pp. 821-872.
127. Modéran (Y.), « *De Julius Honorius à Corrippus : la réapparition des Maures au Maghreb oriental* », in *C.R.A.I.,* 147[e] année, n° 1, 2003, pp. 257-285.
128. Modéran (Y.), *Gildon, les Maures et l'Afrique, In: M.E.F.R.A.*, t. 101, n°2, 1989, (pp. 821-872).

129. Moderan, Y., « *La chronologie de la vie de saint Fulgence de Ruspe et ses incidences sur l'histoire de l'Afrique vandale* », In : MEFRA, 105, 1, 1993, pp. 135-188.

130. Moderan (Y.), *Une guerre de religion, les deux églises d'Afrique à l'époque vandale*, *Ant.Tard*. T.11, 2003, pp.21-44.
131. Monceaux (P.), *« Argentius, évêque donatiste de Lamiggiga », in C.R.A.I.,* 1908. 52e année, N. 5, 1908. pp. 308- 310.
132. Monceaux (P.), *Épigraphie donatiste, C.R.A.I.,* 53e année, n° 4, 1909. pp. 249- 252.
133. Monceaux (P.), *La date du traité de saint Optat contre les Donatistes In:, C.R.A.I.,* 57e année, n. 6, 1913. pp. 450- 453.
134. Monceaux (P.), *l'église donatiste après Saint-Augustin,* R.H.R., t. LXIII, 1911*, pp. 148- 194.*
135. Monceaux (P.), *« les premiers temps du donatisme et la Question des deux Donat »,* in *C.R.A.I.,* 60e année, N. 1, 1916. p. 50.
136. Monceaux (P.), *L'église donatiste organisation et caractères, R.H.R., t.64, Paris, 1911, pp. 21-58.*
137. Monceaux (P.), *Les ouvrages de Gaudentius, évêque donatiste de Thamugadi (Timgad) au temps d'Auguste In: C.R.A.I., 50e année, N. 5, 1906. p. 314.*

138. Monceaux (P.), *Enquête sur l'épigraphie chrétienne d'Afrique, C.R.A.I., 1907.*
139. Monceaux (P.), *Rev.philol., 1909, p.112.*
140. Moreau (M.), la *guerre de Firmus (373-375)*, R.H.C.M., t. X, 1973, pp.21-35.
141. Morizot Pierre, *pour une nouvelle lecture de l'elogium de Masties,* In: Ant. Afri., 25,1989, pp. 263-284.
142. Morizot Pierre, Abdelmalek Nasraoui, A propos des ruines de la vallée de Mellagou (Aurès, Algérie). Les vestiges chrétiens de Baïnou et la mosaïque découverte à Bouzouamel, C.R.A.I., 145e année, n°2, 2001, (pp. 877-892.)
143. Pallary (P.), *Note sur une collection Préhistorique saharienne*, Rev. Afr., t. LVIII, 1914, pp.365-366.
144. Papier (A.), *Hammam Meskhoutine (Aquae Tibilitanae)*, B.A.H., n° 14, 1879, (pp. 107-112).
145. Pâques (V.), le *bélier cosmique, son rôle dans les structures humaines et territoriales du Fezzan*, Journ.de la Soc.des Africa., t. XXVI, 1956.
146. Perron (J.), *Restauration de l'autel et gravure d'une image sacrée dans un sanctuaire sahélien de Ba'al 'Addir*, REPPAL, III, 1987, pp.193-227.
147. Pflaum (H.G.), *les Vandales et l'Afrique*, Rev.Afri., n° 101, 1957, (pp.147-151).
148. Piganiol (A.), « *l'impôt Foncier* », in M.A.H., T.27, 1907.
149. Podvin Jean Louis, les cultes Isiaques en Afrique sous l'empire Romain, dans : Questions d'Histoire, édi. du temps, Nantes, 2005, pp (213-229).
150. Poulle (A.), *Inscriptions d'El-Madher (Casae) et des Environs*, R.S.A.C., XIII, 1869, p.706.
151. Poulle (A), *A travers la Maurétanie Sitifienne*, R.S.A.C., VII, 1863.
152. Quinot (B.), *Introduction Générale au « Contra Litteras Petiliani »,* B.A., 30, pp.9-41.
153. Ragot (W.), « *le Sahara de la province de Constantine* », R.S.A.C., XVI, 1873- 1874.
154. Raynal (D.), « *Culte des martyres et propagande Donatiste à Upenna* », C.T., T. XXI, n°81-82, 1973.
155. Raynal (D.), *La Basilique d'uppenna : de La Période Vandale à L'époque Byzantine, Interprétation des Résultats des Fouilles de1904-1906*, Africa, T.VII-VIII, 1982, p.179.
156. Robert (A.), *Notes sur quelques stations préhistoriques de la commune mixte d'Ain-Melila*, R.S.A.C., t. XXXIV, 1900, (pp.199- 246).
157. Robert (Achille.), *Notes sur les ruines de Castellum – Auziense (Ain Bessem)*, R.S.A.C., t.37, 1903, pp.49-54.
158. Salama (P.), *Nouveaux Milliaires « Chrétiens » de la Vallée du Chélif en Maurétanie Césarienne*, Afri.Rom., vol.III, 2004, p.1711.
159. Saumagne (Ch.), « *Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? les circoncellions d'Afrique* », A.H.E.S., t.VI, n° 28, 1934, (pp. 351-364).

160. Saumagne, (Ch.), "*Observations sur deux lois Byzantines relatives aux colonats dans l'Afrique du Nord»*, dans Congrès de Tlemcen, t. 2, 1936, Rev. Afr., 1936, pp. 485-494.
161. Saumagne (Ch.), *la crise de l'autorité en Afrique au début du IVe siècle, (Observations sur quelques monnaies frappées à Carthage entre 305 et 321 ap.J.C.*), R.T., 1921, pp.133-142.
162. Saumagne (Ch.), *la survivance du Punique en Afrique aux V° et VI° siècles*, Karthago, 1954, pp.171-178.
163. Simon (M.), *le judaïsme Berbère dans l'Afrique Ancienne*, (R.H.P.R), XXVI, Strasbourg, 1946, (repris dans ; Recherches d'histoire judéo-chrétienne, Paris –la Haye, 1962, pp.1-31.
164. Stein, (E.), *Histoire du Bas Empire*, T.1, 1959.
165. Tauxier, (H.), "*Notice sur Corippus et la Johannide*." Rev.Afr., t .20, 1876, pp. 289-299.
166. Tauxier, (H.), "*Récits de l'histoire d'Afrique, le comte Romanus*." Rev. Afr. , t 34, 1890, pp.193-222.
167. Tauxier, (H.), "*Etude sur les migrations des tribus berbères avant l'islamisme*." Rev. Afr., t. 6, 1862, pp. 353-363; 441-461.
168. Tengström (E.), *Donatisten und Katoliken*, Göteborg, 1964, pp. 27-31, d'après Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965.
169. Thépenier (E.), « *La stèle punique de Bellevue (Constantine)* », R.S.A.C., XLVI, 1912.
170. Troussel(M.), *L'énigme de la tête laurée et barbue à G.et du cheval galopant à gauche*, In: R.S.A.C., t. LXIX, 1955-1956, pp. 3-54.
171. Van Berchem (D.) « *L'Annone militaire dans l'empire Romain au IIIe siècle* », M.S.N.A.F., LXXX, 1937, PP.117- 119.
172. Vannier (O.), « *les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat* », Rev. Afr. , n° 67,1926, pp.13-28.
173. Vars (M.Ch.), *Inscriptions découvertes à Timgad pendant l'année 1901*, R.S.A.C., XXXV, 1901.
174. Vaultrin (J.), *les Basiliques Chrétiennes de Carthage*, Rev. Afr., n° 73, 1932, pp. 182-318.
175. Winkler (A.), *Précis d'histoire des Campagnes d'Afrique de Théodose Contre Firmus*, *(372-375), In : R.T., t.15, 1908.*
176. Zeiller, J., «*L'arianisme en Afrique avant l'invasion vandale* », In Rev. Hist., 173, 1934, pp. 535-541.

4– المعاجم، القواميس والموسوعات:

أ– باللغة العربية:

1.ابن منظور، لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، د. ت.

2.الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت، 1984م.

3.الزبيدي، تاج العروس، ج2، دار صادر، بيروت، د. ت.

4.المرزباني، معجم الشعراء، تح. سالم الكرنكوي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1935م.

5.الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1، دار العلم للجميع، بيروت، د. ت.

6.الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م.

7.فرلين د. فيربروج، القاموس الموسوعي للعهد الجديد، يوناني-عربي، ط 1، مكتبة دار الكلمة، القاهرة، 2007.

8.ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندي، ج 1-5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

9.عبد المنعم الحفني، موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994.

10. علي فهمي خشيم، سفر العرب الأمازيغ، (معجم عربي - بربري مقارن)، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2004.

11. محمود محمد محفوظ، الموسوعة العربية الميسرة، ج3، دار الجيل، بيروت، 2001.

12. رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، ط3، دار المشرق، بيروت، 1984.

13. حسن نعمة، موسوعة الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.

14. هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، 1991.

ب- باللغة الأجنبية: *Dictionnaires - Encyclopédies*

1. Audollent (A.), Dictionnaire d'histoire et de Géographie ecclésiastique, t. I, Art. Afrique, 1912.
2. Augé (C.), Dictionnaire Universel Encyclopédique, t.III, Paris, Librairie Larousse, s.d.
3. Attias (Jean Christophe.) et Benbassa (Esther.), Dictionnaire de civilisation Juive, 2e édition, Paris, Larousse-Bordas, 1998.
4. Bergier M. (l'abbé), Encyclopédie Méthodique Théologie, Panckoucke, Paris, t.2, 1789.
5. Bouillet (M.N.), Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris, librairie hachette, 1878.
6. Chevallier (R.), Dictionnaire de la littérature latine, Paris, Larousse, 1968.
7. Chris Scarre, The Penguin Historical Atlas of the ancient Rome, Penguin Books, Middlesex, England, 1995.
8. De Foucault (Père ch.), Dictionnaire abrégé Touareg- Français, 1913.

9. Encyclopédie Berbère, Paris, Edisud, t. III, 1997.
10. Fredouille (J.C.), Dictionnaire de la civilisation romaine, Paris, Larousse, 1968.
11. Freund (Guill), Grand Dictionnaire de la langue latine, trad. par N.Theil, T.I, librairie Firmin-Didot, Paris, 1929.
12. Gaffiot (F.), Dictionnaire Abrégé Latin-Français, Hachette, Paris, 1936.
13. Grand Larousse encyclopédique, t.III.
14. Gwendolyn Taylor (Leick), A Dictionary of Ancient Near Eastern Architecture, Francis, E-Library, 2003.
15. Jacques-Paul (D.), Pluquet (l'abbé J. C.) , Dictionnaire des Hérésies, des erreurs et des schismes, t. I, Ateliers catholiques, Paris, 1847.
16. Martigny (l'Abbé J.A.), Dictionnaire des antiquités chrétiennes, Paris, librairie Hachette, 1877.
17. Michel Jacques-Henri, Le vocabulaire latin des institutions romaines, Université Libre de Bruxelles, 2001.
18. Mourre (M.), Dictionnaire encyclopédique d'histoire, Bordas, 1978.
19. Peltier, (l'Abbé Ad.Ch.), Dictionnaire des conciles, Ateliers catholiques, Paris, t.2, 1847.
20. William Smith, Dictionnaire des Auteurs Grecs et Latins, www. remacle.org.
21. Yahya Chehabi, Vocabulaire des termes archéologiques (Français-Arabe), lmp.Taraki, Damas, 1967.

5-المذكرات والرسائل:

أ-باللغة العربية:

1. شباحي مسعود، الديانة القديمة في كل من مصر وبلاد الرافدين، مذكرة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة قسنطينة، إشراف محمد الصغير غانم، 1999-2000م.
2. شباحي مسعود، حركة أخناتون الدينية (1367-1350 ق.م)، دراسة تحليلية، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، إشراف محمد البشير شنيتي، جامعة الجزائر، 2008-2009م.
3. الطاهر ذراع، الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، إشراف محمد البشير شنيتي، جامعة قسنطينة، 1990م.
4. عيساوي مها، المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب القديم، جامعة قسنطينة، 2009 -2010.
5. عمران عبد الحميد، الحركة الدوناتية بين الانشقاق الديني والتحرر (305-411م)، مذكرة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة قسنطينة، 2003-2004.

6. عيش يوسف، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم، جامعة قسنطينة، 2006–2007.

7. عينوش حسينة، دراسة تماثيل متحف قالمة، مذكرة ماجستير في علم الآثار، جامعة الجزائر، 2007–2008.

8. مهنتل جهيدة، التطور الحضاري بمدينة قسنطينة (كرتا) في الفترة القديمة، أطروحة دكتوراه في الآثار القديمة، جامعة الجزائر، 2008–2009.

ب- باللغة الأجنبية: *Mémoires & thèses :*

1.Ait Amara (O.), *recherches sur les numides et les maures face à la guerre, depuis les guerres puniques jusqu'à l'époque de Juba I^er^*, thèse de Doctorat, Université Jean Moulin, Lyon 3, direction du Pr. Yann Le Bohec.

2.Béatrice Pasa, *Recherches sur L'africa Vetus, de la Destruction de Carthage aux Interventions Césaro-Augustéennes*, Thèse Doctorat, Université de Toulouse, 2011, Sous la Direction de Jacques Alexandropoulos.

6-أعمال **الملتقيات والمؤتمرات:** *Congrès & colloques :*

1. Actes du XIV[e] congrès des orientalistes, Ecole des lettres, Alger, 1905.

2. Actes du 2[e] Congrès international d'études des cultures de la méditerranée occidentale, Alger, 1987.

3. Decret (F.), les Gentes Barbarae asservies par Rome dans l'Afrique du V[e] siècle, dans: Actes du II[e] colloque international (Grenoble, 5- 9 Avril 1983), Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, (pp.265-271).

4. Salama (P.), *Economie Monétaire de l'Afrique du Nord dans l'antiquité tardive,* dans : Actes du II[e] colloque international (Grenoble, 5- 9 Avril 1983), Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, (pp.183-202.)

الفهارس

فهرس الخرائط

فهرس الخرائط

فهرس الأشكال

فهرس الأشكال

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس القبائل والشعوب

فهرس القبائل والشعوب

فهرس الآلهة والمعبودات

فهرس الآلهة والمعبودات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات